بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة البقرة

(كاملةً)

فوائد – منوعات – فضائل – أقوال

تفسير مجمع من : تفسير الطبري – تفسير ابن كثير – تفسير القرطبي – تفسير فتح القدير
تفسير السعدي – تفسير أضواء البيان – تفسير ابن عثيمين وغيرها من الكتب

جمع وإعداد
سليمان بن محمد اللهيميد
السعودية – رفحاء
الموقع على الانترنت – مجلة رياض المتقين
www.almotaqeen.net
البريد الإلكتروني
sa.ma22@hotmail.com

فهرس لبعض المواضيع العامة

١- فضائل التقوى ٥

٢- فضائل الإنفاق........١٠

٣- ثمرات الإيمان باليوم الآخر........١٢

٤- أعمال تنجي من النار........٤٢

٥- صفات نساء الجنة........٤٦

٦- مباحث علم الله........٥٦

٧- كيف تنال رحمة الله........٧٦

٨- السلف والتحذير من طلب الدنيا بالآخرة....٨٠

٩- فضائل الصبر........٨٦

١٠- فضائل الخشوع........٨٨

١١- أسباب النجاة من كرب يوم القيامة........٩٢

١٢- فضائل الشكر........٩٨

١٣- فضائل الإحسان........١٠٦

١٤- أدلة تحريم الحيل........١١٩

١٥- قصص البعث في سورة البقرة........١٢٤

١٦- طرق إثبات البعث........١٢٤

١٧- أسباب قسوة القلب........١٢٧

١٨- علامة رقة القلب........١٢٨

١٩- أمثلة لسد الذرائع........١٦٩

٢٠- مباحث الحسد........١٨١

٢١- السلف والعمل لما بعد الموت........٣٢٨

٢٢- كيف يكون العلم خالصاً لله........١٨٨

٢٣- صفات إبراهيم الخليل........٢٠٧

٢٤- السلف يعملون ويخافون........٣٢٨

٢٥- أسباب تزكية النفس........٢٢٦

٢٦- فضائل الإخلاص........٢٣٨

٢٧- مباحث المبادرة إلى الخيرات........٢٥٢

٢٨- الشيطان يخوف من الفقر........٢٦٨

٢٩- أسباب انحراف العالِم........٢٧٧

٣٠- الصدقة حال الصحة أفضل........٢٨١

٣١- موانع الإجابة........٣٠٢

٣٢- عواقب ترك الجهاد........٣١٥

٣٣- جميع الطاعات تجب تكون لله........٣٢١

٣٤- الحكمة من إرسال الرسل........٣٤٦

٣٥- فضائل الجهاد........٣٥٤

٣٦- فضائل الإيمان بالله........٣٦١

٣٧- فضائل التوبة........٣٧٠

٣٨- فضائل صلاة الفجر والعصر........٤٠٢

٣٩- أقوال في الموت........١٨٤

٤٠- معنى القرض الحسن........٤١٠

٤١- فضائل كلمة التوحيد........٤٢٧

٤٢- الغنى سبب للطغيان........٤٤٦

٤٣- خطر الرياء........٤٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة البقرة

مقدمة :

هي سورة مدنية ، قال ابن كثير : والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف .

سميت بهذا الاسم ، لأنها انفردت بذكر قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها لتكون آية ، فقد كان للبقرة شأن إلهي عجيب في هذه الحادثة .

فضلها :

عن النَّوَّاس بْن سَمْعَان قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ e يَقُولُ (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ) رواه مسلم .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ e قَالَ (لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ). رواه مسلم

وعن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِى قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ r يَقُول (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ) رواه مسلم .

الزهراوان: المنيرتان، **والغياية:** ما أظلك من فوقك ، **والفِرْقُ:** القطعة من الشيء، **والصواف** : المصطفة المتضامة، **والبطلة:** السحرة .

ومعنى لا تستطيعها : أي لا يمكنهم حفظها وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها .

قوله (**اقرؤوا الزهراوين**) **قال القرطبي** : للعلماء في وجه تسمية البقرة وآل عمران بالزهراوين ثلاثة أقوال :

الأول : أنهما النيرتان ، لهدايتهما قارئهما مما يزهر له من أنوارهما أي من معانيهما .

الثاني : لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة .

الثالث : سميتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم .

- **أغراضها :**

أولاً : بيان صدق القرآن ، وأن دعوته حق لا ريب فيه .

ثانياً : بيان أصناف الناس أمام هداية القرآن .

ثالثاً : تناولت السورة الحديث بإسهاب عن أهل الكتاب وبوجه خاص اليهود ، وناقشتهم في عقيدتهم ، وذكّرتهم بنعم الله على أسلافهم .

رابعاً : والنصف الأخير من السورة تناول جانب التشريع ، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين الدولة الإسلامية ، وهم في أمس الحاجة إلى التشريع السماوي الذي يسيرون عليه في حياتهم ، وقد ذكرت السورة من ذلك (القصاص ، وأحكام الصوم ، وأحكام الحج والعمرة ، وأحكام الجهاد في سبيل الله ، وشؤون الأسرة وما يتعلق بها ، وذكرت الإنفاق في سبيل الله ، وذكرت البيع والربا) .

خامساً : ختمت السورة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة والتضرع إلى الله وطلب النصر على الكفار . (نقلاً من كتاب : أسماء القرآن وفضائلها) .

- **قال ابن عاشور :** هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان. قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقا لتلقيبها فسطاط القرآن. فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان، وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها، ولكن هذا لا يحجم بنا عن التعرض إلى لا ئحات منها .

وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لحمة محكمة في نظم الكلام، وسدى متين من فصاحة الكلمات.

ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين :

قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس .

وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم .

وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية، وأساليب الكتب التشريعية، وأساليب التذكير والموعظة، يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين . (تفسير ابن عاشور) .

(ألم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) .

[البقرة : ١ – ٢] .

- - - - - - - - - - - - - -

(**ألم**) هذه تسمى الحروف المقطعة، اختلف العلماء في الحروف المقطعة التي وردت في أوائل بعض السور على أقوال كثيرة :

فقيل : لها معنى ، واختلف في معناها : **فبعض العلماء : قال** هي أسماء للسور ، **وبعضهم قال :** هي أسماء لله ، وبعضهم قال غير ذلك .

وقيل : هي حروف هجائية ليس لها معنى ، **ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين** وقال : وحجة هذا القول : أن القرآن نزل بلغة العرب ، وهذه الحروف ليس لها معنى في اللغة العربية .

وأما الحكمة منها : فأرجح الأقوال أنها إشارة إلى إعجاز القرآن العظيم، **ورجح هذا القول ابن كثير** في تفسيره فقال: وقال آخرون إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وإليه ذهب الشيخ أبو العباس بن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية .

وقد رجح هذا الشيخ الشنقيطي في أضواء البينان حيث قال بعد أن ذكر الخلاف : أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو : أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ... **ثم قال رحمه الله :** ووجه استقراء القرآن لهذا القول : أن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وأنه حق ، قال تعالى في البقرة (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) ، وقال في آل عمران (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق) ، وقال في الأعراف (ألمص كتاب أنزل إليك) ، وقال في يونس (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) ، وقال في هود (ألر كتاب أحكمت آياته ..) ، وقال في يوسف (ألر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً) .

ثم ذكر رحمه الله بقية السور .

ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فقال بعدما رجح هذا القول : ... أن هذا القرآن لم يأت بكلمات ، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر ، وإنما هي من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر ، ومع ذلك فقد أعجزهم

- **وأما قول** من قال إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور ، **فهذا ضعيف** ، لأن الفصل حاصل بدونها .
- **وقول من قال :** بل ابتدىء بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين إذا تواصوا بالإعراض عن القرآن إذا تلي عليهم، وهذا ضعيف ، لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها .
- عدد هذه الحروف المقطعة (١٤) حرفاً يجمعها قولهم : نص حكيم قاطع له سر .

- افتتح الله عز وجل (٢٩) سورة بالحروف المقطعة .

(**ذَلِكَ الْكِتَابُ**) يخبر تعالى أن هذا الكتاب وهو القرآن العظيم لا شك أنه أنزل من عند الله كما قال تعالى في سورة السجدة (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

- **قال الرازي :** واتفقوا على أن المراد من الكتاب القرآن قال تعالى (كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ) .
- قوله تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ) أي هذا الكتاب، و(ذلك) تستعمل بمعنى (هذا) كقوله تعالى (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أي هذا ، وقال بعض العلماء: استعمل ذلك، لما تفيده الإشارة بلام البعد عن علو المنزلة وارتفاع القدر والشأن.
- وسمي القرآن كتاباً :

أولاً : لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ : كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) .

ثانياً : لأنه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة : قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) .

ثالثاً : لأنه مكتوب في الصحف التي بأيدينا ، ونقرؤه من هذه الكتب .

- من أسماء القرآن :

أولاً : الفرقان .

كما قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) وقال تعالى (وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ) .

وسمي بذلك : **قيل :** لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، **وقيل :** لأنه نزل متفرقاً في حين أن سائر الكتب نزلت جملة واحدة ، **وقيل :** الفرقان هو النجاة ، وذلك لأن الخلق في ظلمات الضلالات فبالقرآن وجدوا النجاة ، وكل هذه الأقوال صحيحة .

ثانياً : القرآن .

كما قال تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) وقال تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) .

ثالثاً : الكتاب ، كما في هذه الآية .

رابعاً : الذكر .

كما قال تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر : إنه محتمل معنيين :

أحدهما : أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكّر به عباده ، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه .

والآخر : أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) يعني أنه شرف به شرف له ولقومه .

- والكتاب جاء في القرآن على وجوه :

أحدها: الفرض، قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص) (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وثانيها: الحجة والبرهان، قال تعالى (فَأْتُواْ بكتابكم إِن كُنتُمْ صادقين) أي برهانكم.

وثالثها: الأجل، قال تعالى (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كتاب مَّعْلُومٌ) أي أجل.

ورابعها: بمعنى مكاتبة السيد عبده، قال تعالى (والذين يَبْتَغُونَ الكتاب مِمَّا مَلَكَتْ أيمانكم) .

(لا رَيْبَ فِيهِ) الريب هو الشك مع القلق فهو أخص من الشك .

فالقرآن لا شك ولا ريب أنه موحى من عند الله ،كما قال تعالى (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) .

والقرآن لا شك أنه يبعث على عدم الريب والشك .

والقرآن لا شك ولا ريب أنه واقع موقعه .

والقرآن لا يتضمن أموراً تبعث على الريب والشك .

والقرآن لا يوجد فيه متناقضات .

والقرآن لا ريب فيه وإن ارتاب فيه المرتابون .

- **قال ابن الجوزى :** قوله تعالى (لا رَيْبَ فِيهِ) واختلف العلماء في معنى هذه الآية على ثلاثة أقوال.

أحدها : أن ظاهرها النفي ، ومعناها النهي ، وتقديرها : لا ينبغي لأحد أن يرتاب به لإتقانه وإحكامه.

ومثله (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) أي : ما ينبغي لنا.

والثاني : أن معناها : لا ريب فيه أنه هدىً للمتقين.

والثالث : أن معناها : لا ريب فيه أنه من عند الله ، قاله مقاتل في آخرين.

- **قال السعدي :** لا ريب فيه : ونفي الريب عنه يستلزم ضده ، إذ ضد الريب والشك اليقين ، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين ، المزيل للشك والريب ، وهذه قاعدة مفيدة : أن النفي المقصود به المدح ، لا بد أن يكون متضمناً لضده ، وهو الكمال ، لأن النفي عدم ، والعدم المحض لا مدح فيه .

فيه دليل على أنه لا ينبغي للمسلم أن يرتاب في هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله إلى قيام الساعة .

هذا التنويه بهذا القرآن في كماله وعدم تناقضاته يستوجب حمد الله تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) .

(هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) أي هاد للمؤمنين والمؤمنات الذين اتقوا عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، فالقرآن هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة .

- فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام ، ويطلق هداه على الهدى الخاص .

فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، ومنه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي : بينا الحق على لسان نبينا صالح ، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) .

وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه ، ويكون سبب دخوله الجنة ، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) .

وخصهم المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بآيات الله ، كما قال تعالى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) فخصهم بالإنذار لأنهم المنتفعون به ، وإلا فالإنذار للجميع . (الشنقيطي) .

- **وقال رحمه الله :** قوله تعالى (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) خصص في هدى هذا الكتاب بالمتقين، وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أن هداه عام لجميع الناس، و هي قوله تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ) الآية.

ووجه الجمع بينهما :

أن الهدى يستعمل في القرآن استعمالين : أحدهما عام والثاني خاص .

أما الهدى العام : فمعناه إبانة طريق الحق وإيضاح المحجة سواء سلكها المبين له أم لا .

ومنه بهذا المعنى قوله تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي بينا لهم طريق الحق على لسان نبينا صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام مع أنهم لم يسلكوها بدليل قوله عز وجل (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) .

ومنه أيضا قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) ، أي بينا له طريق الخير والشر بدليل قوله (إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) .

وأما الهدى الخاص : فهو تفضل الله بالتوفيق على العبد .

ومنه بهذا المعنى قوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) الآية. وقوله (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ) .

فإذا علمت ذلك فاعلم أن الهدى الخاص بالمتقين ، هو الهدى الخاص وهو التفضل بالتوفيق عليهم ، والهدى العام للناس هو الهدى العام، وهو إبانة الطريق وإيضاح المحجة .

- **وقال ابن الجوزي :** والثاني : خصَّ المتقين لانتفاعهم به ، كقوله (إنما أنت منذر من يخشاها) وكان منذراً لمن يخشى ولمن لا يخشى.
- **وقال السعدي :** قوله تعالى (هدى للمتقين) وقال في موضع آخر (هدي للناس) فعمّ وفي هذا الموضع و غيره (هدى للمتقين) لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق ، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً ولم يقبلوا هدى الله ، فقامت عليهم به الحجة ولم ينتفعوا به لشقائهم ، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى التي حقيقتها اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فاهتدوا به وانتفعوا غاية الانتفاع قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً) فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية .
- **قال الشنقيطي :** صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن هدى للمتقين، ويفهم من مفهوم الآية - أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب - أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) وقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً) وقوله (وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ) وقوله تعالى (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً) الآيتين، ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق.
- قال بعض العلماء : ولو لم يكن للمتقي فضيلة إلا في قوله تعالي (هدي للمتقين)كفاه لأنه تعالى بين أن القرآن هدى للناس في قوله تعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس) ثم قال ها هنا (هدى للمتقين) فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس فمن لا يكون متقياً كأنه ليس بإنسان .
- قوله تعالى (هدى للمتقين) في الآية فضل التقوى ، ومن فضائلها :

أولاً : أنها سبب لتيسير الأمور .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) .

ثانياً : أنها سبب لإكرام الله .

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

ثالثاً : العاقبة لأهل التقوى .

قال تعالى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

رابعاً : أنها سبب في دخول الجنة .

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

خامساً : أنها سبب لتكفير السيئات .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) .

سادساً : أنها سبب لحصول البشرى لهم .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا) .

سابعاً : أنها سبب للفوز والهداية .

قال تعالى (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

ثامناً : أنها سبب للنجاة يوم القيامة .

قال تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً) .

تاسعاً : أنها سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

عاشراً : أنها سبب للخروج من المأزق .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

الحادي عشر : أنها سبب لمحبة الله .

قال تعالى (إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

الثاني عشر : أنها سبب للاهتداء بالقرآن .

قال تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) .

الثالث عشر : بالتقوى تنال معية الله .

قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

الرابع عشر : أنها خير زاد .

قال تعالى (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) .

الخامس عشر : أنها من أسباب نيل الأجر العظيم .

قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

السادس عشر : أن الآخرة خير من الدنيا للمتقين .

قال تعالى (والْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) .

السابع عشر : أنها سبب لقبول الأعمال .

قال تعالى (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

الثامن عشر : أن لباس التقوى خير لباس .

قال تعالى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) .

التاسع عشر : أنها من أسباب الرحمة .

قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) .

العشرون : أنها من أسباب ولاية الله .

قال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) .

- قال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثوري : إنما سموا متقين ، لأنهم اتقوا ما لا يُتقى .

- والتقوى مأخوذة من الوقاية ، وهي : أن يجعل الإنسان لنفسة زقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

وهذا من أجمع التعاريف ، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت هذا المعنى .

قال علي : التقوى: الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضى بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقال ابن مسعود : حقيقة تقوى الله : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله .

قال ابن القيم : وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى؟ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال : فما عملت؟ قال : تشمرت وحذرت ، قال : فذاك التقوى .

قال ابن المعتز :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

كن مثل ماش فوق ارض الشوك يحذر مايرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

- **قال ابن القيم :** مراتب التقوى :

التقوى ثلاث مراتب :

إحداها : حمّية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات ، **والثانية :** حمّيتها عن المكروهات ، **والثالثة :** الحمية عن الفضول وما لا يعني .

فالأولى تعطي العبد حياته ، والثانية تفيده صحته وقوته ، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته .

وقال القرطبي : سأل عمر أبياً عن التقوى ؟ فقال : هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت ، قال : فذاك التقوى .

المراد بالمتقين من اتقوا الله تبارك وتعالى ، ففعلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، وقال بعض العلماء : سمي المتقون بذلك : لأنهم اتقوا ما لا يتقى .

قال ابن القيم : فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى ، وكلما فوت حظاً من التقوى ، فاته حظ من الهداية بحسبه ، فكلما اتقى زاد هداه ، وكلما اهتدى زادت تقواه .

فالقرآن كله هدى ، قال تعالى (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) أي أن هذا القرآن العظيم القدر، يهدي للتي هي أقوم أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، وقال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين)، وقال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)، إن القرآن العظيم كالمصباح لهذه الأمة، فلا سبيل لهدايتها إلا به .

والقرآن مثبت على الحق ،كما قال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا) .

الفوائد :

١- بيان إعجاز هذا القرآن وأنه من عند الله .

٢- أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف التي يعرفونها ومع ذلك أعجزهم الله أن يأتوا بمثله .

٣- عظمة هذا القرآن العظيم .

٤- أن الله يتكلم بحرف وبصوت ، لأن قوله (ألم) من كلام الله ، وهي حروف .

٥- الثناء على هذا القرآن بأنه لا ريب فيه ولا شك ، بل هو كامل يهدي لكل خير ويقين .

٦- الترغيب في القرآن لقوله (هدى) .

٧- فضل التقوى وأنها سبب لهداية القرآن .

٨- أنه كلما زادت تقوى الإنسان ازداد اهتداؤه بهذا القرآن ، لأن الحكم إذا علق على وصف ازداد بزيادته ونقص بنقصه .

قال بعض العلماء : درجات التقوى خمس: أن يتقي العبد الكفر، وذلك مقام الإسلام، وأن يتقي المعاصي ، والحرمات ، وهو مقام التوبة ، وأن يتقي الشبهات ، وهو مقام الورع ، وأن يتقي المباحات وهو مقام الزهد ، وأن يتقي حضور غير الله على قلبه وهو مقام المشاهدة .

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

[البقرة ٣ – ٥] .

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) هذه من صفات المتقين، أنهم يؤمنون بما غاب عنهم مما أخبر به الله ورسله، من البعث ، والجنة، والصراط والحساب وغيرها .

- عظم منزلة الإيمان بالغيب ، حيث ذكره الله تعالى في أول صفات المتقين ، والغيب كل ما غاب عنك ، و هو ما لا يقع تحت الحواس ، ويعلم بخبر الأنبياء ، فلا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الوحي .
- ومعنى الغيب : **قيل** : كل ما غاب عن العباد من الجنة والنار، **وقيل** : القرآن، **وقيل** : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه وبالبعث، **قال ابن كثير** : كل هذه متقاربة في معنى واحد ، لأن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به ، وقال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها.
- الإيمان بالغيب من أعظم الفروق بين المؤمن التقي كامل الإيمان وبين المؤمن ناقص الإيمان ، لأن المحسوسات كل يؤمن بها ، بخلاف المغيبات .

- **قال السعدي :** وليس الشأن في الإيمان في الأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده ، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله ، فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتد إليه عقله وفهمه .

(**وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ**) أي ومن صفات المتقين أنهم يقيمون الصلاة على وجه مستقيم بشروطها وأركانها ومستحباتها كما جاء عن رسول الله **e** .

- **قال السعدي :** لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون الصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة ، فإقام الصلاة ، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها ، وإقامتها باطناً بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها .
- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة ، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) .

إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض: وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر .

- قوله تعالى (وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ) يشمل صلاة الفرض والنفل .
- قوله تعالى (وَيُقِيمُونَ الصَّلاة َ) فيه دليل على أهمية الصلاة وعظيم منزلتها وأنها من أعظم صفات المتقين ، ومما يدل على **عظيم منزلتها :**

أنها فرضت في أعلى مكان (في السماء ليلة الإسراء والمعراج) .

وفرضت خمس صلوات في اليوم والليلة ، وأول ما فرضت خمسين ثم خففت إلى خمس في العدد ، وهذا يدل على محبة الله لها ، وعنايته بها سبحانه .

أن تاركها كافر يحشر مع فرعون وقارون وأبي بن خلف ، وأعظم العبادات بعد الشهادتين ، وهي عمود الدين .

(**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**) أي ومما أعطيناهم من المال يخرجون .

- اختلف في المراد بالنفقة هنا : **فقيل :** الزكاة المفروضة ، **وقيل :** صدقة التطوع ، **والصحيح** أنها عامة في كل أنواع الإنفاق ، ورجح هذا القول ابن جرير الطبري والقرطبي والسعدي .
- قال السعدي : يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة ، والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك ، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير.
- قوله تعالى (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) أي ينفقون بعض مالهم لا كله .
- **قال السعدي :** وأتى بـ [من] الدالة على التبعيض ، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم ، غير ضار لهم ولا مثقل ، بل ينتفعون هم بإنفاقه ، وينتفع به إخوانهم .
- ولم يبين الله القدر الذي ينبغي إنفاقه ، وقد بين ذلك في قوله تعالى (وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) والمراد بالعفو : الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها .

- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ) صلة ثالثة في وصف المتقين مما يحقق معنى التقوى وصدق الإيمان من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله ؛ لأن الإيمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان كان محتاجاً إلى دلائل صدق صاحبه وهي عظائم الأعمال ، من ذلك التزام آثاره في الغيبة الدالة عليه (الذين يؤمنون بالغيب) ومن ذلك ملازمة فعل الصلوات لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به ، ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالاً لأمر الله بذلك.
- في الآية فضل الإنفاق في طاعة الله ، ومن فضائله :

أولاً : أن الإنفاق استجابة لأمر ربنا تعالى .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

ثانياً : مضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

ثالثاً : أن درجة البر تنال بالإنفاق .

قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

رابعاً : أنها من صفات المتقين .

كما قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فقوله تعالى (فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) دليل على أن الإنفاق ملازم لهم في جميع أحوالهم .

خامساً : الأمان من الخوف يوم الفزع الأكبر .

قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

سادساً : أن صاحب الإنفاق موعود بالخير الجزيل .

قال تعالى (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

سابعاً : أن الله يخلف الصدقة .

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

ثامناً : أن الإنفاق دليل على صحة الإيمان .

قال e (والصدقة برهان) رواه مسلم ، فالصدقة برهان على صحة الإيمان .

تاسعاً : ينال دعاء الملائكة .

كما قال e (ما من صباح إلا وينزل ملكان : يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

عاشراً : فضل من سبق بالإنفاق والجهاد .

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) .

الحادي عشر : أنها إرغام للشيطان وحسن ظن بالله .

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

الثاني عشر : لا حسد إلا لمن أنفق في وجوه الخير .

قال e (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهْوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) .

- **قال السعدي :** قوله تعالى (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ينفقون) إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ، ليست حاصلة بقوتكم وملككم ، وإنما هي رزق الله الذي أنعم به عليكم ، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم الله به عليكم وواسوا إخوانكم المعدمين .
- قوله تعالى (وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والإنفاق [الزكاة] كقوله تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) .

قيل : إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين : إخلاصه لمعبوده ، وسعيه في نفع الخلق .

وقيل : الصلاة رأس العبادات البدنية ، والزكاة رأس العبادات المالية .

وقيل : الصلاة طهارة للنفس والبدن ، والزكاة طهارة للمال .

قال السعدي : وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن ، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده ، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود ، وسعيه في نفع الخلق ، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه ، فلا إخلاص ولا إحسان.

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) أي **:** ومن صفات هؤلاء المتقين أنهم يؤمنون بجميع الكتب المنزلة، فيؤمنون بالكتاب الذي أنزل إليك وهو القرآن، ويؤمنون بالكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل والزبور .

- **قال الشيخ ابن عثيمين :** وبدأ بالقرآن مع أنه آخرها زمناً ، لأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها .
- اختلف العلماء في الموصوفين هنا ، هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما زرقناهم ينفقون) على قولين :

فقيل : إن الموصوفين أولاً مؤمنوا العرب، والموصوفون ثانياً بقوله (والذين يؤمون بما أنزل إليك ...) لمؤمني أهل الكتاب ، **ورجح هذا القول ابن جرير الطبري** رحمه الله .

وقيل : إن هؤلاء هم الموصوفون قبل هذه الآية ، وهم مؤمنوا العرب ومؤمنوا أهل الكتاب ، **ورجح هذا ابن كثير .**

ويدل لصحة هذا القول أن الله أمر بذلك فقال سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ) .

وقال تعالى (وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

- ورد فضل للكتابي الذي آمن بنبيه ثم آمن بمحمد e .

قال تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) .

قال **e** (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : ... ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي **e** فآمن به) .

(**وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**) أي : يوقنون بما يكون بعد الموت من لقاء الله والبعث والحساب والجنة والنار .

- **قال السعدي :** الآخرة اسم لما يكون بعد الموت ، وخصه بالذكر بعد العموم ، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان ، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل ، واليقين : هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك ، والموجب للعمل
- **وقال ابن عاشور :** والآخرة في اصطلاح القرآن هي الحياة الآخرة .
- الآخرة أي اليوم الآخر ، وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده ، ويتضمن البعث ، والثواب ، والعقاب ، والجنة ، والنار وغير ذلك مما يكون يوم القيامة .
- **قال ابن عاشور :** فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان لأن هاته المادة ، تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طريق الاستدلال لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها ، كان الإيمان بها جديراً بمادة الإيقان بناء على أنه أخص من الإيمان ، فلإيثار {يوقنون} هنا خصوصية مناسبة لبلاغة القرآن ، والذين جعلوا الإيقان والإيمان مترادفين جعلوا ذكر الإيقان هنا لمجرد التفنن تجنباً لإعادة لفظ (يؤمنون) بعد قوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) .
- للإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة :

منها : الرغبة في فعل الطاعات والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم .

ومنها : الرهبة من فعل المعصية والرضى بها خوفاً من عقاب ذلك اليوم .

ومنها : تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها .

- قيل : ثمرة اليقين بالآخرة الاستعداد لها ، فقد قيل عشرة من المغرورين : من أيقن أن الله خالقه ولا يعبده ، ومن أيقن أن الله رازقه ولا يطمئن به ، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها ، ومن أيقن أن الورثة أعداؤه ويجمع لهم ، ومن أيقن أن الموت آت فلا يستعد له ، ومن أيقن أن القبر منزله فلا يعمره ، ومن أيقن أن الديان يحاسبه فلا يصحح حجته ، ومن أيقن أن الصراط ممره فلا يخفف ثقله ، ومن أيقن أن النار دار الفجار فلا يهرب منها ، ومن أيقن أن الجنة دار الأبرار فلا يعمل لها .
- قال ذو النون المصري : اليقين داع إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر في العواقب.
- فضل اليقين ، **ومن فضائله :**

أولاً : سبب للإمامة .

قال تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

ثانياً : وأهل اليقين هم أهل الانتفاع بالآيات .

قال تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) .

ثالثاً : خص الله أهل اليقين بالهدى والفلاح .

قال تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) .

رابعاً : سبب دخول أهل النار النار عدم يقينهم .

قال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ).

خامساً : صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين .

قال e : (صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمان) .

سادساً : سبب لتهوين مصائب الدنيا .

فقد كان النبي e يدعو قبل أن يقوم من مجلسه : (...ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا) .

قال ابن مسعود : لو وقع اليقين في القلب لطار إلى الجنة اشتياقاً .

(أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) قال ابن كثير : يقول الله تعالى: (أولئك) أي المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من الذي رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والإيقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات، (على هدى) أي على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى، (وأولئك هم المفلحون) أي في الدنيا والآخرة .

- قوله تعالى (عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ) أي على هدى عظيم ، لأن التنكير للتعظيم ، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة (وأولئك هم المفلحون) والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب ، حصر الفلاح فيهم ، لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم .

- **قال الشوكاني :** معنى الاستعلاء في قوله (على هدى) مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به ، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه .

- **وقال السعدى :** وأتى بـ (على) في هذا الموضع ، الدالة على الاستعلاء ، وفي الضلالة يأتي بـ (في) كما في قوله (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى ، مرتفع به ، وصاحب الضلال منغمس فيه محتَقر.

- قوله تعالى (مِنْ رَبِّهِمْ) أي خالقهم المدبر لأمورهم ، والربوبية هنا خاصة متضمنة للتربية الخاصة التي فيها سعادة الدنيا والآخرة .

- قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) قال النووي : الفلاح الفوز والنجاة وإصابة الخير ، قالوا وليس في كلام العرب كلمة أجمع للخير من لفظة الفلاح .

- **قال البقاعي :** والفلاح الفوز والظفر بكل مراد ونوال البقاء الدائم في الخير.

- **وقال ابن عاشور :** والفلاح : الفوز وصلاح الحال ، فيكون في أحوال الدنيا وأحوال الآخرة ، والمراد به في اصطلاح الدين الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة.

- **وقال الشنقيطي :** والفلاح في لغة العرب يطلق إطلاقين مشهورين ، وكل منهما يدخل في الآية :

الإطلاق الأول : أن العرب تقول (أفلح فلان) إذا فاز بمطلوبه الأكبر ، فكل إنسان كان يحاول مطلوباً أعظم ثم ظفر به وفاز بما كان يرجو فهذا قد أفلح .

الإطلاق الثاني : أن المراد بالفلاح : الدوام والبقاء السرمدي في النعيم ، فكل من كان له دوام وبقاء في النعيم تقول العرب (نال الفلاح) . (الشنقيطي) .

- **وقال السعدي :** والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب ، حصر الفلاح فيهم ؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم ، وما عدا تلك السبيل ، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك.

- قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) فيه أن الفلاح مرتب على الاتصاف بهذه الصفات ، فإن اختلت صفة منها نقص من

الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات ، لأن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص ، ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات .

فائدة :

قال مجاهد : أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاثة عشر في المنافقين .

الفوائد :

١ - أهمية الإيمان بالغيب وأنه من أعظم صفات المتقين .

٢ - أهمية الصلاة وأنها من أعظم صفات المتقين ، وهذا يشمل فرضها ونفلها .

٣ - أهمية الإنفاق في سبيل الله في كل مجالات الخير ، وقد سبق فضائل الإنفاق .

٤ - على المسلم أن يحرص على المحافظة على الصلاة والإنفاق ، فإن الله كثيراً ما يقرن بينهما في كتاب (وقد سبق الحكمة من ذلك من كلام السعدي رحمه الله) .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) .

وقال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) .

وقال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

وغير ذلك كثير .

٥ - ذم البخل .

٦ - إثبات علو الله لقوله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ..) والنزول يكون من أعلى إلى أسفل .

وعلو الله ينقسم إلى ثلاثة أقسم :

علو ذات (أن الله فوق سمواته مستو على عرشه بائن من خلقه) ، وعلو القدر (أي قدره وشأنه عال) ، وعلو القهر والغلبة والسلطان .

علو القهر والقدر : متفق عليه بين أهل السنة وأهل البدعة (فكلهم يؤمنون بأن الله تعالى عال علواً معنوياً) .

وأما العلو الذاتي ، فيثبته أهل السنة والجماعة ، ولا يثبته أهل البدع ، والحق مذهب أهل السنة وأن الله عال بذاته والأدلة كثيرة جداً على علوه سبحانه وتعالى ، من الكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع .

أما أدلة الكتاب والسنة فقد تنوعت دلالتهما بطرق كثيرة :

أحدها : التصريح بالفوقية .

كقوله تعالى (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) .

وكقوله تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .

الثاني : التصريح بالعروج إليه .

كقوله تعالى (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) .

وقوله e (يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم .) .

الثالث : التصريح بالصعود إليه .

كقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) .

الرابع : التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه .

كقوله تعالى (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) .

وقوله تعالى (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) .

الخامس : التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو .

كقوله تعالى (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

وقوله تعالى (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) .

وقوله تعالى (إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) .

السادس : التصريح بنزيل الكتاب منه .

كقوله تعالى (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم) .

وقوله تعالى (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) .

وقوله تعالى (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وقوله تعالى (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) .

وقوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) .

السابع : التصريح بأن الله تعالى في السماء .

كقوله تعالى (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) .

وقال الرسول e (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

الثامن : التصريح بالاستواء على العرش .

كقوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) .

التاسع : التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى .

كقوله e : (إن الله يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً) .

والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة ، وهذا يجده من نفسه كل داع .

العاشر : التصريح بنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم ، إنما يكون من علو إلى أسفل .

الحادي عشر : الإشارة إليه حساً إلى العلو كما أشار إليه من هو أعلم به وبما يجب له ، لما كان بالجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم ، في المكان الأعظم ، قال لهم : (أنتم مسؤولون عني ، فما ذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فرفع إصبعه الكريمة إلى السماء ، رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء ، قائلاً : اللهم اشهد) .

الثاني عشر : التصريح بلفظ (الأين) كقول أعلم الخلق به ، وأنصحهم لأمته ، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح ، بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه: (أين الله) .

الثالث عشر : شهادته e لمن قال : إن ربه بالسماء بالإيمان .

الرابع عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى ، فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات ، فقال : (يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً) فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ، ومن أثبتها فهو موسوي محمدي .

الخامس عشر : إخباره e أنه تردد بين موسى u وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة .

من العقل :

أن العلو صفة كمال والسفل صفة نقص ، فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده .

وأما الفطرة :

قال شارح الطحاوية : وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله .

وأما الإجماع :

فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله فوق سمواته مستو على عرشه .

٧- فيه أن القرآن منزل غير مخلوق ، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة .

ومن الأدلة على أنه منزل :

قوله تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) .

وقوله سبحانه (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

وقوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) .

والدليل على أنه غير مخلوق : قوله تعالى (ألا له الخلق والأمر) فجعل الأمر غير الخلق، والقرآن من الأمر لقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وقوله سبحانه (ذلك أمر الله أنزله إليكم) .

٨- وجوب الإيمان بجميع الكتب المنزلة .

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : الإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن نزولها من عند الله حقاً .

الثاني : الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه : كالقرآن الذي نزل على محمد e ، والتوراة التي أنزلت على موسى ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ، والزبور الذي أوتيه داود u ، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالاً .

الثالث : تصديق ما صح من أخبارها ، كأخبار القرآن ، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة .

الرابع : العمل بأحكام ما لم ينسخ منها، والرضا والتسليم، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم قال الله تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

٩- فضل الإيمان باليوم الآخر (من الموت والبعث والجنة والنار وعذاب القبر ونعيمه وغيرها) .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : لأن الإيمان بالله هو الذي يبعث على العمل ، ولهذا يقرن الله دائماً الإيمان بالله وباليوم الآخر .

١٠- أن ربوبية الله تكون خاصة وعامة، وقد اجتمعا في قوله تعالى عن سحرة فرعون (آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون).

١١- أن الفلاح مرتب على الاتصاف بما ذكر ، فإن اختلت صفة منها نقص من الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

[البقرة : ٦ – ٧] .

- - - - - - - -

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) اختلف العلماء في تأويل هذه الآية :

فقيل : هي عامة ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب ، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره ، أراد الله أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً ، **وقيل :** نزلت في رؤساء اليهود ، **وقيل :** نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب . **قال القرطبي :** والأول أصح .

فمعنى الآية – والله أعلم – أن الكفار الذين كتبت عليهم الشقاوة وحقت عليهم كلمة العذاب يستوي عندهم الإنذار من عدمه فهم لا ينتفعون بإنذار ولا بغير إنذار ، كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) .

وقد حكى ابن عطية الاتفاق على أن هذه الآية غير عامة لوجود كفار قد أسلموا بعدها .

- **قال ابن الجوزى :** قال شيخنا علي بن عبيد الله : هذه الآية وردت بلفظ العموم ، والمراد بها الخصوص ، لأنها آذنت بأن الكافر حين إنذاره لا يؤمن ، وقد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم ، ولو كانت على ظاهرها في العموم ، لكان خبر الله لهم خلاف مخبره ، ولذلك وجب نقلها إلى الخصوص.
- **قال الشنقيطى :** قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) هذه الآية تدل بظاهرها على عدم إيمان الكفار، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على أن بعض الكفار يؤمن بالله ورسوله كقوله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَف) الآية. وكقوله (كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) وكقوله : (وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) ، ووجه الجمع ظاهر وهو أن الآية من العام المخصوص لأنه في خصوص الأشقياء الذين سبقت لهم في علم الله الشقاوة المشار إليهم بقوله (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) . ويدل لهذا التخصيص قوله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) الآية وأجاب البعض بأن المعنى لا يؤمنون مادام الطبع على قلوبهم وأسماعهم والغشاوة على أبصارهم فإن أزال الله عنهم ذلك بفضله آمنوا.
- قوله تعالى (إن الذين كفروا) الكفر لغة الستر والتغطية ، ويسمى الليل (كافراً) لأنه يغطي كل شيء ، وكل شيء غطى شيء فقد كفره ، والكافر الزارع لأنه يغطي البذر بالتراب ، **وشرعاً :** ضد الإيمان ، فهو عدم الإيمان بالله ورسله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب .
- قوله تعالى (أَأَنْذَرْتَهُمْ) الإنذار : هو الإعلام المقرون بالتخويف .
- قوله تعالى (أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) فيه دليل على أنه ينبغي إنذار الكفار وتحذيرهم من غضب الله إن لم يؤمنوا ، وننذرهم لأمور :

أولاً : لأن الله أمر بذلك .

فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) .

وقال تعالى (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى) .

ثانياً : ننذرهم رجاء انتفاعهم .

كما قال الواعظون من بني إسرائيل (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) .

ثالثاً : تبرئة الذمة وقياماً بالواجب .

كما في الآية السابقة (معذرة إلى ربكم) أي قال الناهون : إنما نعظكم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير .

- **قال الرازي :** الإنذار هو التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي ، وإنما ذكر الإنذار دون البشارة لأن تأثير الإنذار في الفعل والترك أقوى من تأثير البشارة ؛ لأن اشتغال الإنسان بدفع الضرر أشد من اشتغاله بجلب المنفعة ، وهذا الموضع موضع المبالغة وكان ذكر الإنذار أولى.
- **قال القاسمي :** سؤال : فإن قيل : لم اقتصر على الإنذار ولم يذكر البشارة في قوله تعالى (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) ؟

الجواب : لأنهم ليسوا أهلاً للبشارة ولأن الإنذار أوقع في القلوب ومن لم يتأثر به فلأن لا يرفع البشارة رأساً .

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) الختم : الاستيثاق منه حتى لا يصل إليه خير ولا يخرج منه شر ، فالمعنى : أن الله ختم على قلوب هؤلاء وطبع عليها ، بحيث لا يخرج منها شر ولا يدخل إليها خير ، كالقارورة إذا ختمتها وطبعت عليها ، لا يخرج شيء مما فيها ، ولا يصب إليها شيء آخر .

والمعنى : ذكر الله تعالى المانع لهؤلاء عن الإيمان وهو أن الله ختم وطبع على قلوبهم وعلى سمعهم بطابع لا يدخلها الإيمان ولا ينفذ فيها ، فلا يعون ما ينفعهم ، ولا يسمعون ما يفيدهم وعلى أبصارهم غشاء وغطاء تمنعها من النظر إلى الذي ينفعهم ، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق .

قال القرطبي : الختم يكون محسوساً كما بينا ، ومعنىً كما في هذه الآية.

فالختم على القلوب : عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته ، وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعُوا إلى وحدانيته ، وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته ؛ هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم.

- **وقال القرطبي** رحمه الله : قوله تعالى (خَتَمَ الله) بيَّن سبحانه في هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله (ختم الله) .

والختم مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم ومختّم ؛ شدّد للمبالغة ، ومعناه التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء ؛ ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه.

- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غشاوة) هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله ، فإذا عَلم أن على قلوبهم ختماً وعلى أسماعهم وأن على أبصارهم غشاوة عَلِمَ سبب ذلك كله وبطل العجب .
- الختم يكون على القلب والسمع ، والغشاوة على الأبصار ،كما قال تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) . والغشاوة : الغطاء على العين يمنعها من الرؤية .
- فإن قيل لم خص القلب بالختم دون سائر الجوارح ؟فالجواب : لأنه محل الفهم والعلم .
- فإن قيل لم خص الله هذه الأعضاء بالذكر؟ فالجواب: قيل إنها طرق العلم، فالقلب محل العلم وطريقه السماع أو الرؤية.
- فإن قال قائل : إن الله بيّن أنه ختم على قلب هؤلاء وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فكيف يعاقبهم الله وقد جعل فيهم هذه الأمور المانعة من الإيمان ؟

الجواب : إن القرآن بيّن أن هذا الطبع وهذا الختم لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه ، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب ، وقد دلت آيات كثيرة على أن الله عز وجل يسبب للإنسان الضلالة بسبب ارتكاب الذنوب كما يسبب له الهدى بسبب الطاعات ، قال تعالى (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) (الباء) في قوله (بِكُفْرِهِمْ) سببية، فبيّن أن هذا الطبع بسبب كفرهم، وكقوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وكقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) وكقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) .

- قوله تعالى (على قلوبهم) القلب سمي بذلك **قيل** : لأنه خالص كل شيء ، **وقيل** : لسرعة تقلبه .
- قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم ...) فيه أن طرق الهدى إما بالسمع وإما بالبصر وإما بالقلب، فهؤلاء ختم الله على قلوبهم : فلا تعي ولا تفقه ولا تتعظ ولا تنزجر ولا تتأثر، وختم على سمعهم : فلا تسمع ما تنتفع بها، وجعل على أبصارهم غطاء : فلا يرى ما ينفعه ، بل يرى ما يضره ويهلكه .
- قال القرطبي : قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) قال القرطبي: قال أهل المعاني: وصف الله قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والريْن والموت والقساوة والانصراف والحميّة والإنكار .

فقال في الإنكار (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) ، **وقال في الحمية** (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ) ، **وقال في الانصراف** (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) ، **وقال في القساوة** (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وقال (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) ، **وقال في الموت** (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ) ، **وقال في الرين** (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ، **وقال في المرض** (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) ، **وقال في الضيق** (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) ، **وقال في الطبع** (فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) ، **وقال في الختم** (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) .

- قال ابن عاشور : وإنما أفرد السمع ولم يجمع كما جمع (قلوبهم) و (أبصارهم) إما لأنه أريد منه المصدر الدال على الجنس، إذ لا يطلق على الآذان سمع ألا ترى أنه جمع لما ذكر الآذان في قوله (يجعلون أصابعهم في أذانهم) وقوله (وفي آذاننا وقر) فلما عبر بالسمع أفرد لأنه مصدر بخلاف القلوب والأبصار فإن القلوب متعددة والأبصار جمع بصر الذي هو اسم لا مصدر ، وإما لتقدير محذوف أي وعلى حواس سمعهم أو جوارح سمعهم .

وقد تكون في إفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن هي أن القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة ، وبالكثرة والقلة وتتلقى أنواعاً كثيرة من الآيات فلكل عقل حظه من الإدراك ، وكانت الأبصار أيضاً متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الآفاق ، وفي الأنفس التي فيها دلالة ، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت.

وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يُلقى إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعاً متساوياً وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعاً واحداً .

(**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) أي : ولهؤلاء الكفار عقوبة عظيمة في نار جهنم ، فإن مصير الكفار في نار جهنم يعذبون أشد العذاب ، يعذبون جسدياً ونفسياً .

- الفرق بين العظيم والكبير : أن العظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير فكأن العظيم فوق الكبير كما أن الحقير دون الصغير ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً تقول رجل عظيم وكبير وتريد جثته أو خطره .

الفوائد :

١ - أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن مهما كان الداعي والمنذر .

٢ - أن الهداية والتوفيق بيد الله تعالى ، فمن أراد الله هدايته فلن يستطيع أحد أن يضله ، ومن أراد الله إضلاله فلن يستطيع أحد أن يهديه .

٣ - أن الإنسان ينبغي أن يدعو الله بالتوفيق والهداية والثبات .

٤ - حكمة الله تعالى في عدم إيمان هؤلاء الكفار .

٥ - أن من لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله، فإن فيه شبهاً من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ.

٦ - تهديد هؤلاء الكفار بالعذاب العظيم .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) .

[البقرة : ٨ – ١٠] .

(**وَمِنَ النَّاسِ ...**) ذكر الله تعالى في هذه الآيات صفات المنافقين ، فأول أربع آيات في سورة البقرة في المؤمنين ، وآيتين في الكفار ، وثلاثة عشرة آية في المنافقين .

- **قال النسفي :** افتتح سبحانه وتعالى بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ، ثم ثنى بالكافرين قلوباً وألسنة ، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهم أخبث الكفرة لأنهم خلطوا بالكفر استهزاءً وخداعاً ولذا نزل فيهم (إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار) .
- **قال الشوكاني :** ذكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخلص ، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص ، ثم ذكر ثالثاً المنافقين وهم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين ، بل صاروا فرقة ثالثة ؛ لأنهم وافقوا في الظاهر الطائفة الأولى ، وفي الباطن الطائفة الثانية ، ومع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار.
- **فإن قال قائل :** لماذا كان التحذير من المنافقين أشد من الكفار ؟ **فالجواب :** نظراً لخطرهم العظيم ، ولالتباس أمرهم ، وتسميهم باسم الإسلام ، بخلاف الكافر فإنه معلوم كفره فيجتنب .
- **قال ابن كثير :** نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ، وذلك لأن مكة لم يكن بها نفاق ، بل كان الأمر في مكة على خلاف النفاق ، فكان كثير من أهل الإسلام بمكة يخفون إسلامهم ويسرون بإيمانهم خوف القتل من المشركين ، أما المدينة فلما كثر فيها المسلمون وقويت شوكتهم بدأ أهل الكفر يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر خوف السيف .

(**مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**) يقول تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر، أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فأكذبهم الله بقوله : وما هم بمؤمنين، لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين .

- تعالى (واليوم الآخر) أي يوم القيامة ، وسمي آخراً لأنه لا يوم بعده .

(**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا**) الخداع : الإخفاء ، فالذي يخادع يظهر شيئاً ويخفي شيئاً . ومنه قوله **e** (صلاة المرأة في مخدعها خير من صلاتها في بيتها) ومن قول العرب : انخدع الضب في جحره ، **والمعنى :** أنهم يخادعون الله والمؤمنين بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر ، يعتقدون – بجهلهم – أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده .

(**وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**) كما قال تعالى في آية أخرى (إن الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) .

- **قال ابن كثير :** قوله تعالى (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) أي : بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين ، كما قال تعالى (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) ؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} يقول : وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون بذلك من أنفسهم ، كما قال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) .
- **وقال الشوكاني :** الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم ، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك .

(**وَمَا يَشْعُرُونَ**) أي ما يشعر هؤلاء أن خداعهم على أنفسهم مع أنهم يباشرونه ، ولكن لا يحسون به .

(**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**) المرض هو اعتلال الجسم، ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله، فهؤلاء قلوبهم مريضة، وهذا المرض الذي في قلوبهم هو مرض الشك والنفاق الناتج عن ضعف يقينهم وإيمانهم ، وقد قال **e** في وصف المنافقين (مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة) رواه مسلم [**العائرة :** الحائرة] .

وقد ذكر الله هذا المرض عن المنافقين في عدة آيات :

فقال تعالى (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ) .

وقال تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ) .

وقال تعالى (رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) .

(**فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً**) وقد اختلف العلماء في تأويل هذه الآية : فقيل : المراد الدعاء عليهم بزيادة المرض ، وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم .

- فيه دليل على أن مرض القلب وفساده – إذا لم يصلحه صاحبه – أنه يزيد هذا المرض ويتفاقم ، كما قال تعالى : (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) .
- وفيه دليل على أن الإنسان إذا لم يصلح قلبه ويهتم به فإن مرضه يكون من أسباب قسوته ومرضه وهلاكه ، لأن الذنوب والمعاصي سبب لمرض القلب ، ومرض القلب إذا لم يحاول الإنسان إصلاحه والاهتمام به يصبح ذنباً ومعصية .
- **قال ابن القيم :** ومرض القلب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغي ، وكلاهما في القرآن .

قال تعالى في مرض الشبهة (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) ، وأما مرض الشهوات فقال تعالى (يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً) فهذا مرض شهوة الزنا .

وقال عن مرض الشبهات : هو أصعبهما وأقتلهما للقلب .

- قوله تعالى (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) فيه دليل على أن من عقوبة المعصية المعصية بعدها، كما سبق في آيات سابقة (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وكقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) وكقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) .

(**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي مؤلم موجع . بالغ الإيلام الغاية العظمى ، كما قال تعالى (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) وقال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) .

- قال هنا في المنافقين (ولهم عذاب أليم) بينما قال في الكفار كما تقدم (ولهم عذاب عظيم) لأن الأليم هو البالغ في الإيلام الغاية العظمى .

(**بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**) أي : بتكذيبهم وهو قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر)، وفي قراءة أخرى (يُكذِّبون) أي يكذبون بالله ورسوله، والمنافقون اجتمع فيهم الوصفان: فهم كاذبون في دعواهم الإيمان، ومكذبون لله ولرسوله، كما قال تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) ، وقال تعالى (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً) .

الفوائد :

١- مكر المنافقين ، وأنهم أهل مكر وخداع ، ولذلك قال تعالى في سورة المنافقين (هم العدو فاحذرهم) فحصر العداوة فيهم ، لأنهم مخادعون .

٢- أنه يجب الاحتراز والتحفظ من المنافقين لأنهم أهل خداع ومكر .

٣- أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله . كما قال تعالى (وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) .

٤- أن القلوب تمرض كما تمرض الأبدان ، وأن مرض القلوب أعظم وأخطر من مرض الأبدان ، قال ابن القيم : والرجل هو الذي يخاف موت قلبه لا موت بدنه ، إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم ولا يبالون بموت قلوبهم ، ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعة ، وذلك موت القلب والروح .

٥- يجب الاهتمام بالقلب ، والحذر من مرضه والحرص على حياته . **وأن يدعو الله دائماً وأبداً بتثبيته على الحق** ، فقد كان e يدعو ويقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك .

وأن يدعو الله أن يكون سليماً ، فقد كان e يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..) .

وأن يحذر من التساهل في أمر القلب، فقد قال e (إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء). رواه مسلم

وأهم سبب لحياة القلب الاستجابة لله ولرسوله، كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم).

وإذا صح القلب صح الجسد ، كما قال e (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب) متفق عليه

وأن يحذر من قسوة القلب ، كما قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) .

٦- أن القلوب تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قلب سليم ، وقلب مريض ، وقلب ميت .

فالقلب السليم : هو القلب الذي سلم من الشرك ، ومن البدعة ، ومن كل آفة يراد بها غير وجه الله .

والقلب المريض : هو القلب الذي فيه مادو حياة ومادة مرض .

والقلب الميت : هو قلب الكافر .

٧- أن الإيمان يزيد وينقص .

٨- أن من عقوبة المعصية المعصية بعدها .

٩- أن من أسباب عذاب المنافقين كذبهم ، وهذا من الأسباب ، وإلا فالسبب الرئيسي هو كفرهم بالله تعالى .

١٠- التحذير من الكذب وأنه من صفات المنافقين، وقد جاء في الحديث عن النبي e أنه قال (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان) متفق عليه، وهؤلاء المنافقون جمعوا بين الكذب والتكذيب وهذا شر الأحوال .

١١- فيه دليل على أن الله لا يعاقب أحداً إلا بسبب ذنبه ومعصيته لقوله (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) .

كما قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) .

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وقال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا) .

وقال تعالى (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) .

١٢- فيه تنفير وتقبيح من الكذب كما سبق ، وفي هذا إشارة إلى أن السبب في استحقاقهم العذاب هو أنهم كانوا يكذبون ، ومن المعلوم أن هذا أحد الأسباب في عذابهم ، لأن الأسباب كثيرة في استحقاقهم العذاب ، لكن قد يعبر الله تعالى عن إهلاك الكفار ببعض ذنوبهم تنفيراً منه وتقبيحاً له كما قال تعالى في قوم نوح (مما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً) وقوم نوح كان سبب هلاكهم كفرهم بالله ، لكن خص الخطيئات تقبيحاً لها .

١٣- أن المؤمن قلبه سليم ، كما قال تعالى (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) .

[البقرة : ١١ – ١٢] .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) يخبر تعالى عن المنافقين أنهم إذا قال لهم أحد المنافقين لا تفسدوا في الأرض بالنفاق وموالاة اليهود والكافرين ردوا قائلين :

- **قال القرطبي :** قوله (لاَ تُفْسِدُواْ) " لا " نهي ، والفساد ضدّ الصلاح ، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدّها.

فَسَد الشيء يَفْسُدُ فَساداً وفُسوداً وهو فاسد وفِسيد.

والمعنى في الآية : لا تُفسدوا في الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

- **قال ابن عاشور :** والقائل لهم (لا تفسدوا في الأرض) بعض من وقف على حالهم من المؤمنين الذين لهم اطلاع على شؤونهم لقرابة أو صحبة ، فيخلصون لهم النصيحة والموعظة رجاء إيمانهم ويسترون عليهم خشية عليهم من العقوبة وعلماً بأن النبيء e يغضي عن زلاتهم كما أشار إليه ابن عطية.

(قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) فجمعوا في قولهم هذا بين أمرين كبيرين : العمل بالفساد في الأرض ، وإظهار أنه ليس بإفساد بل هو صلاح ، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً .

الفساد : ضد الصلاح ، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها ، **والمعنى :** لا تفسدوا في الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد e والقرآن .

- قال بعض العلماء : تصوروا الفساد بصورة الصلاح ، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كما قال الله فيهم (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً) .

(أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ) هذا كلام مستأنف وجواب من الله تعالى رداً على هؤلاء المنافقين ، فإنه لا أعظم إفساداً ممن كفر بآيات الله ، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأولياءه ، ووالى المحاربين لله ورسوله وزعم – مع هذا - أن هذا إصلاح ، فهل بعد هذا الفساد فساد ؟

(وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) أي : ولكن لا يحسون ويفطنون لانطماس نور الإيمان في قلوبهم .

- **قال ابن القيم :** تأمل كيف نفى عنهم الشعور في هذا الموضع ، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسداً ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج، مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه .

الفوائد :

١- أن النفاق من الإفساد في الأرض .

٢- أعظم الخطر أن يُزيّن للإنسان عمله .

٣- فيه أن أهل الفساد والشر يرتكبون الكبائر ويزعمون أنهم أهل إصلاح ، ومما يدل على ذلك ، قوله تعالى عن فرعون أنه قال عن موسى عليه السلام (إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) .

٤- فيه دليل على أن موالاة الكفار والمنافقين وأعداء الله من أعظم الفساد في الأرض كما قال تعالى (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) .

٥- فيه الإنكار على أهل الفساد وتبيين ضلالهم .

٦- خطر النفاق .

٧- وجوب الإصلاح في الأرض .

٨- الحذر من التشبه بصفات المنافقين .

٩- أنه ليس كل من ادعى شيئاً يصدق في دعواه .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) .
[البقرة : ١٣] .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ) يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه .

- **قال أبو السعود :** قوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) من قِبَل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثرَ نهيِهم عن المنكر إتماماً للنُصح وإكمالاً للإرشاد :

(قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، يعنون ـ لعنهم الله ـ أصحاب رسول الله e .

- السفيه : هو الذي لا يعرف مصالح نفسه ضعيف الرأي ، ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء في قوله تعالى (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً) قال ابن كثير : قال عامة علماء التفسير هم النساء والصبيان .
- فإن قلت : كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم (أنؤمن كما آمن السفهاء) فالجواب : كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين .
- **قال القرطبي :** وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء فأطلع الله نبيّه والمؤمنين على ذلك ، وقرّر أن السَّفه ورِقّة الحُلُوم وفساد البصائر إنما هي في حيِّزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْنْ الذي على قلوبهم.

(أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ) ألا أنهم هم السفهاء، فأكد وحصر السفاهة فيهم .

في هذه الآية يرد الله عليهم، ويخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها ، وهذه الصفة منطبقة عليهم .

(وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) يعني ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى .

- **قال ابن القيم :** لما دعا أهل الإيمان أهل النفاق إلى الإيمان ، أجاب أهل النفاق بقولهم (أنؤمن كما آمن السفهاء) فرد الله عليهم وأسجل عليهم بأربعة أنواع : **الأول :** تسفيههم . **الثاني :** حصر السفه فيهم ، **الثالث :** نفي العلم عنهم ، **الرابع :**

تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان ، **الخامس :** أيضاً وهو تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه .

الفوائد :

١ - وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن ذلك دعوة أهل النفاق إلى الإيمان وترك النفاق .

٢ - فيه أن أعداء الدين دائماً يصفون أهله بأقبح الصفات ، فالرسل وصفهم قومهم بالسحر والجنون والكهانة .

كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) .

وقال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) .

وقال تعالى (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) .

٣ - فيه خطر المنافقين وشدة كفرهم وعنادهم .

٤ - فيه أن كل من لم يؤمن بالله فهو سفيه ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) .

٥ - فيه دفاع الله عن المؤمنين كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) .

٦ - ذم الجهل بدين الله وتعاليمه .

٧ - أن عدم العلم سبب للضلال .

٨ - فضل العلم .

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

[البقرة : ١٤- ١٥] .

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) قال ابن كثير : يقول تعالى وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وليشركوهم فيما أصابهم من خير ومغنم .

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) أي: وإذا خلوا إلى شياطينهم: أي سادتهم وكبراؤهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين .

- والشيطان في لغة العرب : هو كل عات ومتمرد ، سواء كان من الجن أو من الإنس أو من غيرهما ، وقد جاء في القرآن إطلاق الشياطين على العتاة المتمردين من الإنس والجن ، كما قال جل وعلا (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً) وكما هذه الآية (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) أي : رؤسائهم وعتاتهم المتمردين، وفي الحديث (الكلب الأسود شيطان) .

(قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) قالوا : إنا معكم ، قال ابن عباس : أي إنا على مثل ما أنتم عليه .

(إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) أي نستهزىء بالقوم ونلعب بهم .

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) عن ابن عباس : قال : يسخر بهم للنقمة منهم .

- **قال أبو حيان :** وفي مقابلة استهزائهم بالمؤمنين باستهزاء الله بهم ما يدل على عظم شأن المؤمنين وعلو منزلتهم ، وليعلم المنافقون أن الله هو الذي يذب عنهم ويحارب من حاربهم.
- في الآية أن الله يستهزىء بمن يستهزء به .

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله مبيناً ما يوصف الله به وما لا يوصف به :

إذا كانت الصفة نقصاً لا كمال فيها ، فهي ممتنعة في حق الله تعالى كالموت ، والجهل ، والنسيان ، والعجز .

وإذا كانت الصفة كمالاً لا نقص فيها فإن الله يوصف بها مطلقاً ، كالحياة ، والعلم ، والسمع ، والعزة .

وإذا كانت الصفة كمالاً في حال ، ونقصاً في حال لم تكن جائزة في حق الله تعالى ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق ، بل يُفصّل فيها : فتجوز في الحال التي تكون كمالاً ، وتمتنع في الحال التي تكون نقصاً ، وذلك كالمكر ، والكيد ، والخداع ، فهذه صفات تكون كمالاً إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها ، لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد ، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق ، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها ، كقوله تعالى (ويمكرون ويمكر الله) وقوله (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) ، وقوله (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) وقوله (قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون الله يستهزىء بهم) .

وأما الخيانة فلا يوصف بها مطلقاً لأنها صفة ذم مطلقاً ، ولذلك لم يذكر الله أنه خان من خانوه ، فقال تعالى (وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم) ولم يقل فخانهم .

(**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**) **أي** : يزيدهم ، في طغيانهم : أي فجورهم وكذبهم ، يعمهون : أي حائرون مترددون .

- وأصل الطغيان مجاوزة الحد ، ومنه قوله تعالى (إنا لما طغى الماء) أي ارتفع وعلا ، وقوله في فرعون (إنه طغى) أي أسرف في الدعوى .

الفوائد :

١ - بيان النفاق : وهو إظهار الإسلام والإيمان وإبطان الكفر والشر .

٢ - أن الجزاء من جنس العمل فمن استهزأ بالله استهزأ الله به ، وهذه قاعدة معروفة بالشرع أن الجزاء من جنس العمل .

قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقال تعالى (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) ، وقال **e** (من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) رواه مسلم ، وقال **e** (الراحمون يرحمهم الله) رواه أبو داود، وقال **e** (من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) رواه مسلم، وقال **e** (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه) رواه البخاري، وقال **e** (من وصل صفاً وصله الله) رواه أبو داود .

٣ - أن الله قد يملي للإنسان ويطيل عمره استدراجاً .

كما قال تعالى (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً) .

وقال تعالى (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال **e** (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) رواه أحمد .

وقال **e** (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) متفق عليه .

٤ - أن الله يستهزىء بمن يستهزىء به ، فيوصف الله بهذا الوصف إذا كان في مقابلة استهزائهم .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

[البقرة : ١٦] .

(**أُولَئِكَ**) أي المنافقون الموصوفون بتلك الصفات .

(**الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى**) أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة ، فاختاروا واستحبوا الضلالة وهي الكفر والنفاق بالهدى الذي هو الإيمان بالله تعالى .

- **قال ابن الجوزي :** واشتروا : بمعنى استبدلوا ، والعرب تجعل من آثر شيئاً على شيء مشترياً له ، وبائعاً للآخر ، والضلالة والضلال بمعنى واحد.
- **قال السعدي :** وهذا من أحسن الأمثلة ، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة ، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن ، فبذلوا الهدى رغبة عنه في الضلالة ، هذه تجارتهم فبئس التجارة .
- وكيف شراء الضلالة بالهدي ؟

لأنهم فضلوا موالاة الكافرين ومجالستهم واتباع أقوالهم على موالاة رسول الله e ومجالسة أهل الإيمان .

وهناك وجه آخر : أنهم بعد أن حصل لهم الإيمان بالله ارتدوا على أدبارهم ورغبوا في الكفر كما قال تعالى : (فاستحبوا العمى على الهدى) .

(**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**) أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، وكيف تربح وهم اشتروا الضلالة وباعوا الهدى ؟

(**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**) أي : وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك .

الفوائد :

١- ذم المنافقين وأنهم اختاوروا الفاني العاجل على الباقي الآجل .

٢- ذم وقبح المنافقين .

٣- أن كل تجارة لاتكون لله وبالله فهي خاسرة باطلة .

ومن التجارة الناجحة قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

- ونظراً لخطورة النفاق فسأذكر بعض ما يتعلق بالنفاق وخطره :

أولاً : النفاق الأكبر صاحبه كافر مخلد بالنار .

تعريفه :

هو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه ، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله e ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار .[قاله ابن رجب جامع العلوم والحكم : ٤٠٣] .

قال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) .

وقال تعالى (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) .

وقال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) .

ثانياً : بعض صفات المنافقين :

أولاً : الكذب والتكذيب لله ولرسوله e .

قال تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) ، وقال تعالى (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) .

ثانياً : أذى الرسول e أو عيبه أو لمزه .

قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) .

ثالثاً : التولي والإعراض عن حكم الله ورسوله .

قال تعالى (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) .

ثالثاً : مظاهرة الكافرين ومعاونتهم على المؤمنين .

قال تعالى (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً) .

رابعاً : المسرة بانخفاض دين الرسول أو الكراهية لانتصار دينه .

قال تعالى (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ) .

خامساً : الرياء .

قال تعالى (يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً) .

سادساً : ثقل العبادة عليهم .

قال تعالى (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى) .

سابعاً : يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف .

قال تعالى (والْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

ثالثاً : خطرهم .

أولاً : تحذير القرآن منهم .

قال ابن القيم : كاد القرآن أن يكونَ كلّه في شأنهم ؛ لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور .

قال الله تعالى (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

قال الله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) .

قال الله تعالى (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقال الله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

وقال الله تعالى (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاء) .

عن ابن عمر رضي الله عنهما. عن النبي e قال (مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة).

قال النووي : العائرة : المترددّة الحائرة ، لا تدري لأيِّهما تتبع ، ومعنى تعير أي : تردَّد وتذهب .

وقال الله تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً) .

وقال الله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) .

وعن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي e قال (المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجّة طعمها طيّب وريحها طيّب ، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيّب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيّب وطعمها مرّ ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمُها مرّ أو خبيث وريحها مرّ) .

وعن عبد الله بن كعب ، عن أبيه ، عن النبي e قال (مثل المؤمن كالخامة من الزرع ، تفيؤها الريح مرة وتعدلها مرة ، ومثل المنافق كالأرزة ، لا تزال حتى يكون انجعافها مرّة واحدة) .

قال المهلّب : معنى الحديث : أنّ المؤمن حيث جاءه أمر الله انطاع له ، فإن وقع له خير فرح به وشكر ، وإن وقع له مكروه صبر ورجا فيه الخير والأجر ، فإذا اندفع عنه اعتدل شاكراً .

والكافر لا يتفقّده الله باختياره ، بل يحصل له التيسير في الدنيا ؛ ليتعسّر عليه الحال في المعاد ، حتى إذا أراد الله إهلاكه قصمه ، فيكون موته أشدّ عذابا عليه ، وأكثر ألما في خروج نفسه .

وقال غيره : المعنى : أن المؤمن يتلقّى الأعراض الواقعة عليه لضعف حظّه من الدنيا ، فهو كأوائل الزرع شديد الميلان لضعف ساقه ، والكافر بخلاف ذلك ، وهذا في الغالب من حال الاثنين

وعن عمر بن الخطاب t ، أن رسول الله e قال (إن أخوف ما أخاف على أمتي كلّ منافق عليم اللسان)

قال المناوي : قوله (عليم اللسان) أي : كثير علم اللسان ، جاهل القلب والعمل ، اتخذ العلم حرفة يتأكّل بها ، ذا هيبة وأُبّهة ، يتعزّز ويتعاظم بها ، يدعو الناس إلى الله ، ويفرّ هو منه ، ويستقبح عيبَ غيره ، ويفعل ما هو أقبح منه ، ويظهر للناس التنسّكَ والتعبّد ، ويسارر ربّه بالعظائم ، إذا خلا به ذئب من الذئاب لكن عليه ثياب ، فهذا هو الذي حذّر منه الشارع e هنا حذرا من أن يخطفك بحلاوة لسانه ، ويحرقك بنار عصيانه ، ويقتلك بنتن باطنه وجنان .

ثانياً : تحذير الرسول e من النفاق .

عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله e (إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي : منافق عليم اللسان) رواه البيهقي في الشعب .

قال المناوي : كل منافق عليم اللسان : أي عالم للعلم، منطلق اللسان به، لكنه جاهل القلب والعمل، فاسد العقيدة، مغر للناس بشقاشقه وتفحصه وتقعره في الكلام .

ثالثاً : المنافقون كثر .

ومما يوجب مزيد الخوف من النفاق والحذر من المنافقين أنهم كثيرون منتشرون في بقاع الأرض .

قال الحسن البصري : لولا المنافقون لاستوحشتم في الطرقات .

وقال ابن القيم : كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم ، لكثرتهم على ظهر الأرض ، وفي أجواف القبور ، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات ، وتتعطل بهم أسباب المعايش ، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات ، سمع حذيفة رجلاً يقول : اللهم أهلك المنافقين ، فقال : يا ابن أخي ، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم .

رابعاً : انتشار النفاق الأصغر في مجتمعاتنا .

ومما يؤكد خطر النفاق ، أن الكثير من شعب النفاق الأصغر – الذي لا يخرج من الملة – قد عمت وطمت في مجتمعات المسلمين ، كالكذب ، وخلف الوعد ، والرياء ، والخيانة ، والجبن ، وترك الجهاد في سبيل الله ، وعدم تحديث النفس بذلك .

ومع أن هذه الخصال من النفاق الأصغر لكنها قد تؤول إلى النفاق الأكبر المخرج من الملة .

رابعاً : الواجب تجاه المنافقين :

أولاً : زجرهم ووعظهم .

قال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً) .

ثانياً : جهادهم والغلظة عليهم .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

ثالثاً : تحقيرهم وعدم تسويدهم .

قال ﷺ (لا تقولوا للمنافق سيد ، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم) رواه أبو داود .

رابعاً : عدم الصلاة عليهم .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

وقال تعالى (وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) .

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) .

[البقرة : ١٧- ١٨] .

- - - - - - - - - - - -

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ) وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يُبصر ولا يهتدي وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد ، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع .

فالمنافق يستفيد بإظهار إسلامه حيث يحقن دمه ويسلم ماله ، لكن له عذاب عظيم في الآخرة ، كما قال تعالى : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) .

- **قال ابن القيم :** شبه الله تعالى حال المنافقين في خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار ، وذهب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره ، وقد شاهدوا الضوء ورأوا النور عياناً. ولهذا قال تعالى في حقهم (فهم لا يرجعون) إليه. لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا. فهم لا يرجعون إليه. وقال تعالى في حق الكفار (فهم لا يعقلون) لأنهم لم يعقلوا الإسلام ، ولا دخلوا فيه ، ولا استناروا به ، لا بل يزالون في ظلمات الكفر صم بكم عمي.

فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافياً ، وإلى الإيمان وحقائقه منادياً وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً ، إلى طريق الرشاد هادياً.

- **قال الخازن :** لما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان ، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ، ولأن المثل تشبيه الخفي بالجلي ، فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الإيضاح .

- **وقال أبو حيان :** قال الزمخشري: لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بذكر ضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب بأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد وقمع لسورة

الجامح الآبي ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء ، فقال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العاملون) .

- **وقال ابن عاشور :** قوله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذى استوقد نَاراً) أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة ، وهذه طريقة تشبيه التمثيل ، إلحاقاً لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة ، لأن النفس إلى المحسوس أميل ، وإتماماً للبيان بجمع المتفرقات في السمع ، المطالة في اللفظ ، في صورة واحدة لأن للإجمال بعد التفصيل وقعاً من نفوس السامعين ، وتقريراً لجميع ما تقدم في الذهن بصورة تخالف ما صور سالفاً لأن تجدد الصورة عند النفس أحب من تكررها.
- **قال ابن كثير :** وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات ، واحتج بقوله تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) والصواب : أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم ، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ، ثم سُلبوه وطبع على قلوبهم ، ولم يستحضر ابن جرير ، رحمه الله ، هذه الآية هاهنا وهي قوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) ؛ فلهذا وجه ابن جرير هذا المثل بأنهم استضاؤوا بما أظهروه من كلمة الإيمان ، أي في الدنيا ، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة.
- قوله تعالى (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ) جمعها لتضمنها ظلمات عديدة : **أولها :** ظلمة الليل ، لأن استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل ، **والثانية :** ظلمة الجو إذا كان غائماً ، **والثالثة :** الظلمة التي تحدث بعد فقد النور ، فإنها تكون أشد من الظلمة الدائمة .
- **قال ابن الجوزي :** وفي ضرب المثل لهم بالنار ثلاث حكم :

إحداها : أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره ، لا من قبل نفسه ، فاذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة ، فكأنهم لما أقروا بألسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم ؛ كان نور إيمانهم كالمستعار.

والثانية : أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة الحطب ، فهو له كغذاء الحيوان ، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم.

والثالثة : أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد معها ضياء ، فشبه حالهم بذلك.

- **قال الخازن :** فإن قلت ما وجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة ؟ قلت : وجه تشبيه الإيمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القصوى وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة وكذلك الإيمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى وإلى جنانه ، وشبه الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزداد إلاّ حيرة وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلاّ حيرة.

(**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**) الأصم : هو الذي لا يسمع ، والأبكم : هو الذي لا ينطق ، والأعمى : هو الذي لا يبصر .

والمراد بالآية : صم عن استماع الحق ، وبكم عن النطق بالخير والإيمان فهم لا يتكلمون به ، وعمي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ، فلما كانوا غير منتفعين بسمعهم وأبصارهم وألسنتهم وأفئدتهم وصفوا بأنهم صم بكم عمي ، وهذا كما قال تعالى (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) ، وكما قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) .

- قال بعض العلماء : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل .
- **قال ابن عطية :** ووصفهم بهذه الصفات إذ أعمالهم من الخطأ وقلة الإجابة كأعمال من هذه صفته .

- وقال النسفي : .... فكأنهم صم بكم عمي ، ولأن الله تعالى خلق السمع والبصر واللسان لينتفعوا بهذه الأشياء ، فإذا لم ينتفعوا بالسمع والبصر صار كأن السمع والبصر لم يكن لهم ، كما أن الله تعالى سمى الكفرة موتى حيث قال تعالى (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ للكافرين مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) يعني كافراً فهديناه ؛ وإنما سماهم موتى والله أعلم لأنه لا منفعة لهم في حياتهم ، فكأن تلك الحياة لم تكن لهم ، فكذلك السمع والبصر واللسان ، إذا لم ينتفعوا بها فكأنها لم تكن لهم ، فكأنهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون ، يعني لا يرجعون إلى الهدى.
- **وقال الشنقيطي :** قوله تعالى (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) الآية هذه الآية يدل ظاهرها على أن المنافقين لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يبصرون، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على خلاف ذلك كقوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) وكقوله (وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِم) الآية، أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، وقوله (فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ) إلى غير ذلك من الآيات، ووجه الجمع ظاهر، وهو أنهم بكم عن النطق بالحق وإن رأوا غيره، وقد بين تعالى هذا الجمع بقوله (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً) الآية، لأن مالا يغني شيئا فهو كالمعدوم والعرب ربما أطلقت الصمم على السماع الذي لا أثر له .

(**فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**) قال السعدي : لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه ، فلا يرجعون ، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال ، فإنه لا يعقل ، وهو أقرب رجوعاً منهم .

- **قال ابن الجوزي :** وإنما أضاف الرجوع إليهم، لأنهم انصرفوا باختيارهم، لغلبة أهوائهم عن تصفح الهدى بآلات التصفح، ولم يكن بهم صمم ولا بكم حقيقة ، ولكنهم لما التفتوا عن سماع الحق والنطق به ؛ كانوا كالصمم البكم.

والعرب تسمي المعرض عن الشيء : أعمى ، والملتفت عن سماعه : أصم .

الفوائد :

١ - ضرب الأمثال ، وفائدته تقريب المعنى .

٢ - أن هؤلاء المنافقين – بسبب نفاقهم – فاتهم النور وهو الإيمان .

٣ - أن النفاق ظلمة ووحشة في القلب .

٤ - تخلي الله عن المنافقين .

٥ - من علامات التوفيق أن يكون الله عوناً للعبد ومساعداً له .

٦ - أن المعاصي لها تأثير على الإنسان ، فالله أصم آذان هؤلاء المنافقين ، فلا يسمعون الحق ، ولو سمعوا ما انتفعوا .

- قال ابن القيم مبيناً أن من أراد طلب العلم فعليه بالابتعاد عن المعصية وغض بصره وخطر إرساله : إنه – يعني غض البصر – يفتح له طريق العلم وأبوابه ، ويسهل عليه أسبابه ، وذلك بسبب نور القلب ، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات ، ومن أرسل بصره تكدر عليه قلبه وأظلم وانسد عليه باب العلم وطرقه .

٧ - أن هؤلاء المنافقين لا يرجعون عن غيهم ، لأنهم يعتقدون أنهم محسنون .

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

[البقرة : ١٩ – ٢٠] .

- - - - - - -

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ) هذا مثل آخر لهؤلاء المنافقين، وصورة المثل العجيبة والمنطبقة على حالهم، هي مطر غزير في ظلمات مصحوب برعد قاصف وبرق خاطف وهم في وسطه مذعورون خائفون يسدون آذانهم بأنامل أصابعهم حتى لا يسمعوا صوت الصواعق حذراً أن تنخلع قلوبهم فيموتوا، ولم يجدوا مفراً ولا مهرباً ، لأن الله تعالى محيط بهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن البرق لشدته وسرعته يكاد يخطف أبصارهم فيعمون ، فإذا أضاء لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ، وإذا انقطع ضوء البرق وقفوا حيارى خائفين ، هذه حال أولئك المنافقين ، والقرآن ينزل بذكر الكفر وهو ظلمات ، وبذكر الوعيد وهو كالصواعق والرعد ، وبالحجج والبينات وهي كالبرق في قوة الإضاءة وهم خائفون أن ينزل القرآن بكشفهم .

- اختلف العلماء في هذا المثل هل هو لطائفتين من المنافقين أم لطائفة واحدة ، فذهب بعض العلماء إلى أن (أو) هنا بمعنى الواو، فالمعنى على هذا أن للمنافقين مثلين، مثل الذي استوقد ناراً ، ومثل أصحاب الصيب ، وكون (أو) تأتي بمعنى (الواو) صحيح كما في قوله تعالى (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) .

وذهب بعض العلماء إلى أن (أو) هنا للتنويع ، فمن المنافقين من مثله مثل الذي استوقد ناراً ، ومنهم من مثله كمثل أصحاب الصيب ، والذي يؤيد هذا القول أن المنافقين أصناف ، والكفار أصناف .

- **قال أبو السعود :** (أَوْ كَصَيِّبٍ) تمثيلٌ لحالهم إثرَ تمثيل ، ليعُم البيانُ منها كل دقيق وجليل ، ويوفيَ حقها من التفظيع والتهويل ، فإن تفنُّنهم في فنون الكفر والضلال وتنقّلَهم فيها من حال إلى حال حقيقٌ بأن يُضربَ في شأنه الأمثال ، ويرخى في حلبته أعِنّةُ المقال ، ويُمدَّ لشرحه أطنابُ الإطناب ، ويُعقَدَ لأجله فصولٌ وأبواب .
- **قال ابن عاشور :** والتمثيل هنا لحال المنافقين حين حضورهم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعهم القرآن وما فيه من آي الوعيد لأمثالهم وآي البشارة ، فالغرض من هذا التمثيل تمثيل حالة مغايرة للحالة التي مُثِّلتْ في قوله تعالى (مَثَلُهم كمَثَل الذي استوقد) بنوع إطلاق وتقييد.
- قوله تعالى (فِيهِ ظُلُمَاتٌ) أي : ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر . (ورعد) وهو الصوت الذي يسمع من السحاب ، (وبرق) وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب (كصيب) الصيب المطر .
- ضرب الله في هذه الآية مثلاً لما جاء به محمد e من الهدى والعلم بالمطر ، لأن بالعلم والهدى حياة الأرواح ، كما أن بالمطر حياة الأجسام ، وقد قال e (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ....) متفق عليه .
- **قال السعدي :** فهكذا حال المنافقين ، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، جعلوا أصابعهم في آذانهم ، وأعرضوا عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فيروعهم وعيده ، وتزعجهم وعوده ، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم ، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، فيجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت ، فهذا ربما حصلت له السلامة، وأما المنافقون فأنى لهم السلامة ، وهو تعالى محيط بهم ، قدرة وعلماً .

- قوله تعالى (يجعلون أصابعم في آذانهم من الصواعق) أي :كلما تليت عليهم آيات الكتاب العزيز جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد e ، وهذا كما فعل قوم نوح إذ حكى نوح عليه السلام فعلهم معه فقال (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً).
- قوله تعالى (يجعلون أصابعهم) أي أطراف أصابعهم وهي الأنامل، وهذا من باب تسمية الكل والمراد به البعض.

(**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**) تهديد للكافرين ، فالله جل وعلا محيط بالكافرين وبأعمالهم ، فهو محيط بهم كإحاطة السور بمن في داخله ، فلا يتمكنوا أن يفروا من الله ومن عذابه وسطوته .

- **قال القرطبي :** فالله سبحانه محيط بجميع المخلوقات ، أي هي في قبضته وتحت قهره ؛ كما قال (والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة) .
- **وقال ابن الجوزى :** قوله تعالى (والله مُحيط بالكافرين) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها : أنه لا يفوته أحد منهم ، فهو جامعهم يوم القيامة ، ومثله قوله تعالى (أحاط بكل شيء علماً) .

والثاني أن الإحاطة : الإهلاك ، مثل قوله تعالى (وأحيط بثمره) .

والثالث : أنه لا يخفى عليه ما يفعلون.

الحاوى فى تفسير القرآن الكريم كاملا (٣٦/ ٥١)

وقال قال بعض العلماء : محيط بالكافرين : أي مهلكهم ، ويشهد لهذا القول قوله تعالى (لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ) أي : تهلكوا عن آخركم. وقيل : تغلبوا. والمعنى متقارب ، لأن الهالك لا يهلك حتى يحاط به من جميع الجوانب ، ولم يبق له منفذ للسلامة ينفذ منه. وكذلك المغلوب .

ومنه أيضاً بمعنى الهلاك قوله تعالى (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) الآية. وقوله تعالى (وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) .

(**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**) قال الشنقيطي : ضرب الله في هذه الآية المثل للمنافقين إذا كان القرآن موافقاً لهواهم ورغبتهم عملوا به ، كمناكحتهم للمسلمين وإرثهم لهم ، وعصمتهم به من القتل مع كفرهم بالباطن ، وإذا كان غير موافق لهواهم كبذل الأنفس والأموال في الجهاد في سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا ، وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) .

وقال بعض العلماء (كلما أضاء لهم مشوا فيه) أي إذا أنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا : هذا الدين حق ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير، (وإذا أظلم عليهم قاموا) أي: وإن أصابهم فقر أو مرض أو ولدت لهم البنات دون الذكور، قالوا : ما أصابنا هذا إلا بشؤم هذا الدين وارتدوا عنه ، **وهذا الوجه** يدل له قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) .

(**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**) دون أن تحدث الصواعق ، ودون أن يحدث البرق ، ولهذا قال :

(**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) الآية عامة ، فالله على كل شيء قدير ، على ما شاءه وما لم يشأه .

- **قال الشنقيطي :** وجرت العادة بذكر قدرته عند الأمور التي لا يستطيعها البشر ، كما ذكر ذلك عند نصره لعباده الضعفاء المتمسكين بدينه كقوله تعالى في الأحزاب (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) وقال في الحديبية (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً).

ومن قدرته أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

- **وقال ابن عاشور :** قوله تعالى (إن الله على كل شيء قدير) تذييل ، وفيه ترشيح للتوجيه المقصود للتهديد زيادة في تذكيرهم وإبلاغاً لهم وقطعاً لمعذرتهم في الدنيا والآخرة .
- **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :** الآية عامة ، فهو قدير على كل شيء ، على ما شاءه وما لم يشأه ، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء ، وأما قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة ، ولكنها عائدة على الجمع ، يعني : إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء .

الفوائد :

فوائد من المثلين ذكرهما ابن القيم رحمه الله :

قال رحمه الله : وقد اشتمل هذان المثلان على حكم عظيمة :

منها : أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره لا من قبل نفسه ، فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة ، وهكذا المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه ، وتصديق جازم ،كان ما معه من النور كالمستعار .

ومنها : أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله ، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان ، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفىء، كما تنطفىء النار بفراغ مادتها.

ومنها : أن الظلمة نوعان : ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور ، وظلمة حادثة بعد النور ، وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه ، فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة ، فمثلت حاله بحال المستوقد للنار الذي حصل في الظلمة بعد الضوء ، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط .

ومنها : أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة التي هي الضلال ، والحيرة التي ضدها الهدى ، والمثل الثاني متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن فلا هدى ولا أمن (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

[البقرة : ٢١] .

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) هذا أول أمر في القرآن الكريم، وهو الأمر بعبادة الله تبارك وتعالى ، **والناس : قيل:** المراد عموم الناس (الكفار والمؤمنون) **وقيل:** المراد بالناس الكفار الذين لم يعبدوه ، والأول أصح .

(**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**) أي : اخضعوا وذلوا لله سبحانه وتعالى، وأصل العبادة في لغة العرب : الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده ، فالعبادة : الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة ، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع ، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة ، لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له ، ومن أبغض ربه هلك ، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها ، فإن المحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب ، ويرتكب أموراً لا تنبغي ، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي) .

فالعبادة تطلق على معنيين : أحدهما : التعبد : يعني التذلل لله ، كما سبق ، وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية .

• وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل ، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك :
قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) .
وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .
وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) .
وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .
وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .
وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) .
وأمر تعالى بعبادته حتى الموت فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) .
بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .
وأمر الله بها جميع رسله :
كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ) ، وكذلك قال هود ، وصالح ، وشعيب ، وغيرهم .
وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولاً لهذا الغرض .
قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .
ووصف ملائكته بذلك .
فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ) .

• **قال شيخ الإسلام ابن تيمية :** لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له ، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله تعالى .

(**الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**) أي أوجدكم من العدم ، وأوجد من قبلكم من الأمم الماضية .

• ففيها أن المستحق للعبادة هو من يخلق ، أما من هو عاجز عن الخلق فلا يستحق أن يكون معبوداً ، وقد جرت العادة في القرآن الكريم في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز من العدم إلى الوجود ، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود ، ويوجدكم بعد أن كنتم عدماً هو هذا ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده ، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) .
وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .
وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

• **قال الشنقيطي :** من براهين البعث بعد الموت خلق الناس أولاً المشار إليه بقوله (اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ) لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني ، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة :

كقوله (وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ) الآية وقوله (كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ)، وكقوله (فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الآية ، وكقوله (ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ) ، وكقوله : (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى) الآية.

ولذا ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسي الإيجاد الأول ، كما في قوله (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ)الآية ، وقوله (أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً). ثم رتب على ذلك نتيجة الدليل بقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ) إلى غير ذلك من الآيات. (أضواء البيان) .

- **قال ابن الجوزي :** وإنما ذكر من قبلهم ، لأنه أبلغ في التذكير ، وأقطع للجحد ، وأحوط في الحجة.

وقيل إنما ذكر من قبلهم لينبههم على الاعتبار بأحوالهم من إثابة مطيع ، ومعاقبة عاص.

- قال بعض العلماء : إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) .

وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم .

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) قال السعدي : يحتمل : أن المعنى : إذا عبدتم الله وحده ، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه ، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك ، ويحتمل : أن يكون المعنى أنكم إذا عبدتم الله صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى ، وكلا المعنيين صحيح ، وهما متلازمان ، **وقيل :** المعنى خلقكم لتتقوه .

- قال بعض العلماء : أن كل (لعل) في القرآن هي بمعنى التعليل إلا التي في سورة الشعراء (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) قالوا : هي بمعنى : كأنكم تخلدون .

الفوائد :

١- وجوب عبادة الله تبارك وتعالى .

٢- تحريم عبادة غير الله عز وجل .

٣- أن الخالق هو الله .

٤ -أن الخالق هو المستحق للعبادة .

٥- أن العاجز عن الخلق لا يستحق أن يعبد .

٦- أن الله خلق الخلق ليتقوه ويعبدوه .

٧- فضل التقوى .

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

[البقرة : ٢٢] .

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً) هذا من باب تعديد أصناف النعم ، فجعل الله الأرض فراشاً موطئاً يستقر عليها استقراراً كاملاً .

وقد وصفها الله بأوصاف كلها تدل على أن الله جعلها مستقرة ثابتة ممهدة فراشاً .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ) .وقال تعالى (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً) وقال تعالى (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً) والمراد بالقرار : أنها لا تميد بساكنيها ، أي لا تضطرب كما قال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً)

(**قراراً**) مستقراً بالدحو والتسوية . (**مددناها**) بسطناها ووسعناها (**مهداً**) كالفراش الذي يُوطَّأُ للصبي .

وهذه من أعظم النعم أن جعل سبحانه الأرض فراشاً ومهاداً .

- **قال ابن القيم :** وإذا نظرت إلى هذه الأرض وكيف خلقت ؟ رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها ، خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً وذللها لعباده .

فيه دليل على أنه لو كانت الأرض غير مبسوطة ، كأن تكون غير مستقرة أو مضطربة لكان في ذلك مشقة وتعب .

(وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) أي جعلها بمنزلة البناء وبمنزلة السقف .

كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً) وقال تعالى (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

وقال تعالى (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) .

- **قال الرازي :** إنه تعالى ذكر أمر السماوات والأرض في كتابه في مواضع ، ولا شك أن إكثار ذكر الله تعالى من ذكر السماوات والأرض يدل على عظم شأنهما ، وعلى أن له سبحانه وتعالى فيهما أسراراً عظيمة ، وحكماً بالغة لا يصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم .

- المراد بالسماء هنا السماوات ذات الأجرام ، وذلك أن السماء يُطلق على معنيين :

المعنى الأول : العلو، كقوله تعالى (أنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا العلو ، لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف ، بل ينزل من العلو .

المعنى الثاني : المراد بالسماء السقف كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى (والسَّمَاءَ بِنَاءً) .

- **قال الشنقيطي :** وخلق السماوات والأرض من براهين البعث، لأنهما من أعظم المخلوقات، ومن قدر على خلق الأعظم، فهو على غيره قادر من باب أحرى ، وأوضح الله تعالى هذا البرهان في آيات كثيرة :

كقوله تعالى (لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس) ، وقوله (أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى وَهُوَ الخلاق العليم) ، وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى بلى) ، وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) ، وقوله : (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) الآية.. إلى غير ذلك من الآيات.

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) أي : أنزل من السماء مطراً عذباً فراتاً أنزله سبحانه بقدرته ، فأخرج بذلك المطر أنواع الثمر والفواكه والخضار .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) .وقال تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) .

- المراد بقوله (السماء) العلو ، لأن المطر ينزل من السحاب .

- هذا أيضاً من براهين البعث ، فإحياء الأرض بعد موتها من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت .

كما أشار له هنا بقوله (وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ) .

وأوضحه في آيات كثيرة كقوله (مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وقوله (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخروج)، يعني: خروجكم من قبوركم أحياء بعد أن كنتم عظاماً رميما. وقوله (وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)، وقوله تعالى (حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، إلى غير ذلك من الآيات. (أضواء البيان) .

- **قال القرطبي :** ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق ؛ ولهذا قال عليه السلام مشيراً إلى هذا المعنى (والله لأنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فَيَحْتَطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه) أخرجه مسلم.

ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زُخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله نِدًّا.

(فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الأنداداً : جمع ند ، وهو الكفء والنظير والمثيل ، أي فلا تجعلوا لله أشباهاً ونظراء من المخلوقين فتعبدونهم كما تعبدون الله ، وتحبونهم كما تحبونه ، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون ، وأنتم تعلمون : أن الله ليس له شريك ولا نظير ، لا في الخلق والرزق والتدبير ، ولا في الألوهية والكمال .

- في الآية تحريم اتخاذ الأنداد من دون الله ، وهو أعظم ذنب يفعله الإنسان .

قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) .

وقال تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) .

وقال تعالى (وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) .

وقال تعالى (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) .

وعن ابن مسعود . قال : سألت رسول الله e : أي الذنب أعظم ؟ قال : (أن تجعل لله نداً وهو خلقك) متفق عليه

- قوله تعالى (فلا تجعلوا لله أنداداً) أن من أنعم بهذه النعم يستحق الشكر لا أن يجعل معه شريك ونظير .
- قوله تعالى (اعبدوا ربكم ... فلا تجعلوا لله أنداداً) جمعت هذه الآية بين الأمر بعبادة الله تعالى، والنهي عن عبادة ما سواه، ففيه أنه لا بد للتوحيد من الكفر بكل ما عبد من دون الله ، وقد قال e (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله فقد عصم دمه وماله وحسابه على الله) رواه مسلم ، فعلق النبي e في هذا الحديث عصمة الدم والمال بأمرين :

الأول : قول : لا إله إلا الله عن علم ويقين .

الثاني : الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لا بد من قولها والعمل بها .

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب : وهذا من أعظم ما يبين معنى : لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل اللفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله .

وقد قال تعالى (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا) .

(وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أنه لا ند له .

- وفي هذا ذم من اجترأ على معصية الله وهو يعلم ، وهو أعظم جرماً مما لا يعلم .

الفوائد :

١- بيان رحمة الله بعباده .

٢- كمال قدرة الله تعالى .

٣- ينبغي التفكر في مخلوقات الله حتى يقود ذلك إلى الإيمان بالله وبوحدانيته وقد قال تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) .

٤- رحمة الله بإنزال المطر .

٥- إثبات الأسباب لقوله (فأخرج به من الثمرات ..) .
٦- تحريم اتخاذ الأنداد لله .
(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .
[البقرة : ٢٣- ٢٤] .

(**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**) **قال أبو حيان:** نزلت في جميع الكفار، وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في اليهود، وسبب ذلك أنهم قالوا : هذا الذي يأتينا به محمد لا يشبه الوحي وإنا لفي شك منه ، والأظهر القول الأول.

- **قال السعدي :** وإن كنتم – يا معشر المعاندين للرسول ، الرادين دعوته ، الزاعمين كذبه – في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا ، هل هو حق أو غيره ؟ فههنا أمر نصف فيه الفيصلة بينكم وبينه ، وهو أنه بشر مثلكم ، ليس من جنس آخر ، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم ، لا يكتب ولا يقرأ ، فأتاكم بكتاب ، أخبركم أنه من عند الله ، وقلتم أنتم أنه تقوله وافتراه ، فإن كان الأمر كما تقولون :

(**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ**) يعني من مثل القرآن، قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير ، ، فالضمير في قوله (من مثله) عائد على القرآن ونسب هذا القول **ابن كثير** لأكثر المحققين ، **ونسبه القرطبي** أيضاً للجمهور .
ونسبه ابن عطية لجمهور العلماء أيضاً .

وقيل : (من مثله) أي من مثل محمد e من البشر ، لأن محمداً بشر مثلكم .

قال ابن جرير : والتأويل الأول هو التأويل الصحيح ، لأن الله جل ثناؤه قال في سورة أخرى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) ومعلوم أن السورة ليست لمحمد بنظير ولا شبيه .

- **قال الآلوسي :** قوله تعالى (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مّن مّثْلِهِ) لما قرر سبحانه أمر توحيده بأحسن أسلوب عقبه بما يدل على تصديق رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتوحيد والتصديق توأمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالآية وإن سيقت لبيان الإعجاز إلا أن الغرض منه إثبات النبوة .
- **وقال ابن عاشور :** انتقال لإثبات الجزء الثاني من جزئي الإيمان بعد أن تم إثبات الجزء الأول من ذلك بما قدمه من قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) .
- قوله تعالى (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ) فيه تحدي المشركين أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن .
- **وقد وقع التحدي على عدة أوجه :**

تحداهم أن يأتوا بقرآن بمثل هذا القرآن : قال تعالى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) ، وقال تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) .

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله : قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله . كما في هذه الآية .

- قوله تعالى (عَلَى عَبْدِنَا) فيه عظيم منزلة العبودية ، حيث وصف الله تبارك وتعالى نبيه بهذا الوصف في مقام التحدي .

- وقد وصف الله نبيه بالعبودية في أعلى المقامات :

في مقام التحدي : كما في هذه الآية .

وفي مقام الإسراء والمعراج : قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) .

وفي مقام الإيحاء : قال تعالى (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) .

وفي مقام الدعوة : قال تعالى (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) .

وقد قال تعالى عن المسيح ابن مريم (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه)، وقال e (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله) رواه البخاري .

- **قال ابن تيمية :** والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه وأعز له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية لله ، وأما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره .

(وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قيل : أعوانكم ونصراءكم ، **وقيل :** آلهتكم ، وقيل : ائتوا بشهداء يشهدون لكم أن ما أتيتم به يعادل القرآن أو يقاربه .

وهذا غاية التحدي لهم . وهذا كما يقول المعجز المتحدي لمن عانده وتحداه : اذهب وائت بمن تستطيع من أصحابك وأعوانك وأوليائك لتستعين بهم .

(إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فيما تدعون من أن هذا القرآن ليس من عند الله .

- **قال ابن عاشور :** والمعنى إن كنتم صادقين في دعوى أن القرآن كلام بشر .

فلا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه ، كما قال تعالى (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) أي معيناً .

- **قال ابن كثير :** ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى ، ... فكلٌ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ... لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء .
- **وقال الجصاص :** قَوْله تَعَالَى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فِيهِ أَكْبَرُ دَلَالَةٍ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ تَحَدَّاهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ ، وَقَرَعَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْهُ مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْأَنَفَةِ وَالْحَمِيَّةِ ، وَأَنَّهُ كَلَامٌ مَوْصُوفٌ بِلُغَتِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ e مِنْهُمْ تَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ ، وَعَنْهُمْ أَخَذَ ، فَلَمْ يُعَارِضْهُ مِنْهُمْ خَطِيبٌ ، وَلَا تَكَلَّفَهُ شَاعِرٌ ، مَعَ بَذْلِهِمْ الْأَمْوَالَ وَالْأَنْفُسَ فِي تُوهِينِ أَمْرِهِ ، وَإِبْطَالِ حُجَجِهِ ، وَكَانَتْ مُعَارَضَتُهُ لَوْ قَدَرُوا عَلَيْهَا أَبْلَغَ الْأَشْيَاءِ فِي إبْطَالِ دَعْوَاهُ وَتَفْرِيقِ أَصْحَابِهِ عَنْهُ ؛ فَلَمَّا ظَهَرَ عَجْزُهُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ الْعِبَادِ مِثْلُهُ ، وَإِنَّمَا أَكْبَرُ مَا اعْتَذَرُوا بِهِ أَنَّهُ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ ، وَأَنَّهُ سِحْرٌ ، فَقَالَ تَعَالَى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) وَقَالَ (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) فَتَحَدَّاهُمْ بِالنَّظْمِ دُونَ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ، وَأَظْهَرَ عَجْزَهُمْ عَنْهُ فَكَانَتْ هَذِهِ مُعْجِزَةً بَاقِيَةً لِنَبِيِّنَا e

إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، أَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نُبُوَّةَ نَبِيِّهِ وَفَضَّلَهُ بِهَا عَلَى سَائِرِ الأنبياء ؛ لِأَنَّ سَائِرَ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ تَقَضَّتْ بِانْقِضَائِهِمْ ، وَإِنَّمَا يُعْلَمُ كَوْنُهَا مُعْجِزَةً مِنْ طَرِيقِ الْأَخْبَارِ.

وَهَذِهِ مُعْجِزَةٌ بَاقِيَةٌ بَعْدَهُ ، كُلُّ مَنْ اعْتَرَضَ عَلَيْهَا بَعْدُ قَرَّعْنَاهُ بِالْعَجْزِ عَنْهُ ، فَتَبَيَّنَ لَهُ حِينَئِذٍ مَوْضِعُ الدَّلَالَةِ عَلَى تَثْبِيتِ النُّبُوَّةِ .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ مِنْ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيِّ **u** وَعِنْدَ الْجَاحِدِينَ لِنُبُوَّتِهِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَتَمِّ النَّاسِ عَقْلًا ، وَأَكْمَلِهِمْ خُلُقًا ، وَأَفْضَلِهِمْ رَأْيًا ، فَمَا طَعَنَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي كَمَالِ عَقْلِهِ وَوُفُورِ حِلْمِهِ وَصِحَّةِ فَهْمِهِ وَجَوْدَةِ رَأْيِهِ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ عَلَى مَنْ كَانَ هَذَا وَصْفُهُ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ قَدْ أَرْسَلَهُ إلَى خَلْقِهِ كَافَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَامَةَ نُبُوَّتِهِ وَدَلَالَةَ صِدْقِهِ كَلَامًا يُظْهِرُهُ وَيَقْرَعُهُمْ بِهِ ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ ، فَيَظْهَرُ حِينَئِذٍ كَذِبُهُ وَبُطْلَانُ دَعْوَاهُ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَحَدَّاهُمْ بِذَلِكَ وَلَمْ يُقَرِّعْهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْهُ إلَّا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا يَقْدِرُ الْعِبَادُ عَلَى مِثْلِهِ.

(**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا**) أي : فإن لم تقدروا على الإتيان بسورة بمثل سورة من سوره .

(**وَلَنْ تَفْعَلُوا**) أي : ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله و (لن) هنا للتأبيد .

وفي هذا معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً ، غير خائف ولا مشفق ، أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر ، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن .

(**فَاتَّقُوا النَّارَ**) أي فخافوا النار واتقوها واحذروها ، واجعلوا بينكم وبين عذابها وقاية ، والوقاية من النار تكون بالإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر .

وقد أمر الله باتقائها في آيات كثيرة :

فقال تعالى (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) .

وقال تعالى (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى) .

وقال تعالى (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ . إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ . نذيراً للبشر) قال الحسن البصري : والله ما أُنذر العباد بشيء قط أدهى منها .

وقال **e** (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) متفق عليه .

واتقاء النار يكون : بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه .

- قوله تعالى (فاتقوا النار) ينبغي على المسلم أن يحذر من النار وأن يتقيها كما أمر الله عز وجل .

فقد أمر الله باتقائها كما في هذه الآية .

وأمر e بالاستعاذة منها .كما قال **e** (استعيذوا بالله من عذاب جهنم) متفق عليه .

وكان **e** يقول في صلاته (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم) متفق عليه .

ومن صفات عباد الله الخوف منها،كما قال تعالى (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً).

- ينبغي تهديد أهل الكفر والطغيان بالنار وتخويفهم بها كما قال تعالى (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى . لا يَصْلاهَا إِلَّا الْأَشْقَى) .
- هناك أعمال تنجي من النار منها :

أولاً : الإيمان بالله .

قال تعالى (الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) .

ثانياً : الصيام .

قال e (الصيام جُنة يستجن به من النار) رواه أحمد .

وقال e (من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً) متفق عليه .

ثالثاً : البكاء من خشية الله .

قال e (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) رواه الترمذي .

رابعاً : الاستجارة بالله من النار .

كما قال e (ما سأل أحد الله ثلاثاً إلا قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة ، ولا استجار رجل مسلم من النار ثلاثاً إلا قالت النار : اللهم أجره مني) .

خامساً : المحافظة على صلاة الفجر والعصر .

قال e (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) رواه مسلم .

سادساً : الجهاد .

قال e (من اغبرت قدماه في سبيل الله فهما حرام على النار) رواه الترمذي .

سابعاً : حسن الخلق .

قال e (من كان سهلاً هيناً ليناً حرمه الله على النار) رواه أحمد .

ثامناً : عتق الرقاب .

قال e (من أعتق رقبة مؤمنة كانت فكاكه من النار) .

تاسعاً : الكلمة الطيبة .

لحديث الباب (فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَة) قال النووي : فيه أن الكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار .

(**الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**) وقودها : الوقود بفتح الواو : الحطب ، أي مادة النار التي تشعل بها وتضرم لإيقادها الناس والحجارة .

والمراد بالناس الكفار الذين ماتوا على الكفر ، قال تعالى (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) .

وأما الحجارة فاختلف فيه :

قيل : المراد حجارة الكبريت .

وقد قيل : أنها خصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الإيقاد ، نتن الرائحة ، كثرة الدخان ، شدة الالتصاق بالأبدان ، قوة حرها إذا حميت .

وقيل : المراد بالحجارة الأصنام ، لقوله تعالى (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) أي وقودها . قال القرطبي : وعليه فتكون الحجارة والناس وقوداً للنار ، وذكر ذلك تعظيماً للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس .

قوله تعالى (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) شدة عذاب الكفار في النار حيث يكونون وقوداً للنار مع أصنامهم .

(**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**) أي هيئت للكافرين ، ففيه دليل على أن أهل النار هم الكفار الذين ماتوا على الكفر ، كما قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

ومن أهل النار المنافقين ، كما قال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) .

- قوله تعالى (أعدت للكافرين) فيه دليل على أن النار موجودة الآن ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار موجودتان الآن ، والأدلة على ذلك كثيرة :

قوله تعالى (أعدت للكافرين) أي هيئت ، وكذلك قال تعالى في الجنة (أعدت للمتقين) .

وقال e (لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبريل إلى الجنة ، .. الحديث ، وفيه : ثم أرسله إلى النار ..) رواه أحمد .

وقال e (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار) متفق عليه .

وقال e (وأيم الذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : رأيت الجنة والنار) متفق عليه .

وقال e (رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به ، حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني أتقدّم ، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت) رواه مسلم .

وقال e (... ورأيت النار ، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع منه) متفق عليه .

الفوائد :

١- عظمة القرآن حيث تحدى الله كفار قريش أن يأتوا بمثله .

٢- وجوب العناية بالقرآن حفظاً وتدبراً وفهماً .

٣- فضيلة أن يتصف الإنسان بوصف العبودية .

٤- إثبات علو الله عز وجل .

٥- أن من أعظم آيات النبي e هذا القرآن العظيم .

٦- لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن .

٧- وجوب تقوى عذاب النار .

٨- إهانة الكفار ومعبوداتهم حيث يكونون حطب لجهنم .

٩- أن النار موجودة الآن .

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

[البقرة : ٢٥] .

(**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ**) هذا أمر من الله لنبيه محمد e بإبلاغ بشارته خلقه الذين آمنوا به وبمحمد e ، وبما جاء به من عند ربه ، وصدقوا إيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة ، أن له جنات تجري من تحتها الأنهار خاصة .

(**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا**) التبشير الإخبار بما يسر ، الذين آمنوا بقلوبهم .

- قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) فيه استحباب تبشير المسلم بما يسره ، لأن البشارة مما تسر المسلم وتفرحه ، وقد قال تعالى (فبشرناه بغلام حليم) وقال تعالى (وبشروه بغلام عليم) .

- قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) التبشير : الإخبار بما يسر ، وسمي بذلك لأنه يظهر أثره على البشرة وهو ظاهر الجلد ، والغالب أنه يستعمل في التبشير بالخير، وقد يستعمل في الشر تهكماً كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم).
- **قال ابن عطية :** قوله تعالى (وبشر) مأخوذ من البشرة لأن ما يبشر به الإنسان من خير أو شر يظهر عنه أثر في بشرة الوجه ، والأغلب استعمال البشارة في الخير ، وقد تستعمل في الشر مقيدة به منصوصاً على الشر المبشر به ، كما قال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) ومتى أطلق لفظ البشارة فإنما يحمل على الخير .

(**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) أي: وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات، والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الشرط الأول : أن يكون خالصاً لله ، قال e (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى) متفق عليه .

الشرط الثاني : أن يكون متابعاً للنبي e ، لقوله e (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

- قال عثمان بن عفان رضي الله عنه في (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) : معناه أخلصوا الأعمال ، يدلّ عليه قوله : {فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا) أي : خالصاً لأن المنافق والمرائي لا يكون عمله خالصاً .
- **قال السعدي :** ووصفت أعمال الخير بالصالحات ، لأن بها تصلح أحوال العبد ، وأمور دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية والأخروية ، ويزول بها عنه فساد الأحوال ، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

(**أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ**) الجنات جمع جنة ، والجنة في لغة العرب : البستان ، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه ، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) .

وأما في الاصطلاح : فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

- قوله تعالى (جنات) دليل على أن الجنات أنوع، كما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان) وقال e (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما) .
- **قال الشيخ ابن عثيمين :** (جنات) بالجمع، وأحياناً يقال بالإفراد (جنة)، فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات .
- أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة ، وقد ورد هذا في آيات كثيرة .

قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

أن دخول الجنة أعظم بشرى وأعظم أمنية ، كما قال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) . وقال تعالى (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) .

- قوله تعالى (جنات) دليل على أن الجنات أنواع ، كما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان) وقال e (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما) .
- في هذه الآية ذكر **المبشّر** : وهو محمد e ، ومن قام مقامه من أمته، **والمبشَّر** : هم المؤمنون العاملون الصالحات، **والمبشَّر به** : وهي الجنات الموصوفات تلك الصفات الجميلة ، وذكر العمل الموصل لذلك : وهو الإيمان والعمل الصالح .

(**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**) أي من تحت أشجارها ، قال ابن الجوزي : أي من تحت شجرها لا من تحت أرضها.

- **قال ابن عاشور :** وأكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر لأن في الماء طبيعة الحياة ولأن الناظر يرى منظراً بديعاً وشيئاً لذيذاً.
- **قال ابن القيم :** وهذا يدل على أمور :

أحدها : وجود الأنهار فيها . **الثاني :** أنها جارية لا واقفة . **الثالثة :** أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا .

- وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى) .
- **قال ابن القيم :** فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا .

فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه ، **وآفة اللبن** أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصاً ، **وآفة الخمر** كراهة مذاقها المنافي للذة شربها ، **وآفة العسل** عدم تصفيته ، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.

- وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص ، وتجري من غير أخدود .

قال ابن القيم في النونية :

أنهارها في غير أخدود جرت   سبحان ممسكها عن الفيضانِ

(**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ**) أي كلما أعطوا عطاء ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وقد اختلف العلماء في قوله تعالى (من قبل) على قولين :

فقيل : المراد بقوله (من قبل) أي هذا الذي رزقنا من قبل هذا في الدنيا ، **ورجحه ابن جرير .**

ودليل هذا القول قوله تعالى (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) .

وقيل : المراد بقولهم (من قبل) أي في الجنة ، أي هذا الذي رزقنا من قبل من ثمار الجنة ، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً في اللون والطعم ، واحتج هؤلاء بحجج :

منها : أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض، أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا، ولشدة المشابهة قالوا هذا هو.

ومنها : أن من المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا ، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها .

(**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً**) **قال ابن جرير :** يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم ، قال ابن عباس : لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء .

(**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ**) الأزواج جمع زوج ، وهو شامل للأزواج من الحور العين ، ومن نساء الدنيا .

(**مُطَهَّرَةٌ**) يشمل طهارة الظاهر وطهارة الباطن ، فهي مطهرة من الأذى ، ومن القذر ، لا بول ولا غائط ولا حيض ولا نفاس، مطهرة من كل شيء حسي، مطهرة أيضاً من الأقذار الباطنة، كالغل، والحسد، والكراهية، والبغضاء وغير ذلك .

- **قال القرطبي :** (مطهرة) نعتٌ للأزواج ، ومُطَهّرةٌ في اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحَيْض والبُصاق وسائر أقذار الآدميّات.

- **وقال السعدي :** قوله تعالى (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) فلم يقل (مطهرة من العيب الفلاني) ليشمل جميع أنواع التطهير ، فهن مطهرات الأخلاق ، مطهرات الخلق ، مطهرات اللسان ، مطهرات الأبصار ، فأخلاقهن ، أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن ، وحسن التبعل ، والأدب القولي والفعلي ، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني ، والبول والغائط ، والمخاط والبصاق ، والرائحة الكريهة ، ومطهرات الخلق أيضا ، بكمال الجمال ، فليس فيهن عيب ، ولا دمامة خلق ، بل هن خيرات حسان ، مطهرات اللسان والطرف ، قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح.
- ذكر هنا تعالى صفة من صفات نساء الجنة ، ومن صفاتهن :

أولاً : مطهرات . كما في هذه الآية .

قال ابن القيم : ووصفهن بالطهارة فقال : (ولهم فيها أزواج مطهرة) طهرن من الحيض والبول والنجو (الغائط) وكل أذى يكون في نساء الدنيا ، وطهرت بواطنهن من الغيرة وأذى الأزواج وتجنيهن عليهم وإرادة غيرهم .

ثانياً : كواعب أتراباً .

قال تعالى (وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً) .

الكاعب : المرأة الجميلة التي برز ثديها ، والأتراب : المتقاربات في السن .

ثالثاً : أبكاراً .

قال تعالى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً . فجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً) .

أبكاراً : يعني أنه لم ينكحهن قبلهم أحد ، العرب : المتحببات لأزواجهن .

قال ابن كثير رحمه الله : قوله (عُرُباً) : قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يعني : متحببات إلى أزواجهن ، وعن ابن عباس : العُرُب العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون .

وقوله (أَتْرَابا) قال الضحاك عن ابن عباس يعني : في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة .

وقال السدي : (أترابا) أي : في الأخلاق المتواخيات بينهن ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعني : لا كما كن ضرائر متعاديات . (تفسير ابن كثير) .

وقال الحافظ ابن حجر : عن مجاهد في قوله (عُرُباً أتراباً) قال : هي المحببة إلى زوجها .

رابعاً : جميلات غاية الجمال .

قال تعالى (وَحُورٌ عِينٌ .كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) .

وقال e (ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحاً ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري .

حور : جمع حوراء ، وهي التي يكون بياض عينها شديد البياض وسواده شديد السواد .

عين : جمع عيناء ، وهي واسعة العين ، المكنون : المخفي المصان ، النصيف : الخمار .

- **قال السعدي :** أي : ولهم حور عين ، والحوراء : التي في عينها كحل وملاحة ، وحسن وبهاء ، والعِين : حسان الأعين وضخامها ، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها ، (كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) أي : كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي ، المستور عن الأعين والريح والشمس ، الذي يكون لونه من أحسن الألوان ، الذي لا عيب

فيه بوجه من الوجوه ، فكذلك الحور العين ، لا عيب فيهن بوجه ، بل هن كاملات الأوصاف ، جميلات النعوت . فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر ويروق الناظر .

خامساً : قاصرات الطرف .

قال تعالى (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) .

وقال تعالى (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ) .

وقاصرات الطرف : هن اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن ، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهن .

- **قال ابن القيم :** ووصفهن بأنهن (مقصورات في الخيام) أي : ممنوعات من التبرج والتبذل لغير أزواجهن ، بل قد قُصِرْن على أزواجهن ، لا يخرجن من منازلهم ، وقَصَرْنَ عليهم فلا يردن سواهم ، ووصفهن سبحانه بأنهن (قاصرات الطرف) وهذه الصفة أكمل من الأولى ، فالمرأة منهن قد قصرت طرفها على زوجها من محبتها له ورضاها به فلا يتجاوز طرفها عنه إلى غيره .

(**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) وهذا من أعظم تمام النعيم ، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين .

- **قال النسفي :** الخلد والخلود البقاء الدائم الذي لا ينقطع .
- **وقال ابن الجوزي :** والخلود : البقاء الدائم الذي لا انقطاع له.
- **قال ابن عاشور :** وقوله (وهم فيها خالدون) احتراس مِن تَوَهُّم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينغصها عند المنعم عليه كما قال أبو طيب :

أشدُّ الغم عندي في سرور...تحقَّقَ عنه صاحبُه انتقالاً .

- **قال الرازي :** اعلم أن مجامع اللذات إما المسكن أو المطعم أو المنكح فوصف الله تعالى المسكن بقوله (جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار) والمطعم بقوله (كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) والمنكح بقوله (وَلَهُمْ فِيهَا أزواج مُّطَهَّرَةٌ) ثم إن هذه الأشياء إذا حصلت وقارنها خوف الزوال كان التنعم منغصاً فبين تعالى أن هذا الخوف زائل عنهم فقال (وَهُمْ فِيهَا خالدون) فصارت الآية دالة على كمال التنعم والسرر.
- **قال الشنقيطي :** قوله تعالى (وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم ، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ ، وينغص اللذات ، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها ، وأنها زائلة عنه ، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم ، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً .

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة ، ولذا كان النبي e يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت ، ويقال للموت : هاذم اللذات ، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها ، لأنه يقطعها ، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم .

- وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة .

فقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقال e (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ، لا تبلى ثيابُه ، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم .

وقال e (ينادِ منادٍ : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم .

وقال e (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح ، فيقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه .

- **قال ابن القيم :** جمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه .

الفوائد :

١- البشرى بالجنة لمن آمن وعمل صالحاً .

- **قال السعدي :** وفيه استحباب بشارة المؤمنين، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها [وثمراتها]، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان، توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم .

٢- الحث على الإيمان والعمل الصالح .

٣- التحذير من الرياء ومن البدعة .

٤- مشروعية تبشير المسلم بما يسره .

٦- أن الجنات أنواع .

٧- إثبات الجنة .

٨- إثبات أن في الجنة أنهاراً .

٩- عظم نعيم الجنة .

١٠- أن نعيم الدنيا ناقص زائل .

١١- إثبات الزوجات في الجنة وأنهن مطهرات من كل دنس .

(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

[البقرة : ٢٦ – ٢٧] .

(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ...) قال ابن القيم : هذا جواب اعتراض ، اعترض به الكفار على القرآن وقالوا : إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة ، فلو كان ما جاء به محمد e ، كلام الله ، لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة ، فأجابهم الله تعالى بأن قال (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) ، فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها ، إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإدحاضه ، كان من أحسن الأشياء ، والحسن لا يستحيا منه ، فهذا جواب الاعتراض .

- **قال الرازي :** اعلم أنه بين بالدليل كون القرآن معجزاً أورد ههنا شبهة أوردها الكفار قدحاً في ذلك وأجاب عنها وتقرير الشبهة أنه جاء في القرآن ذكر النحل والذباب والعنكبوت والنمل وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فاشتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً ، فأجاب الله تعالى عنه بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملاً على حكم بالغة ، فهذا هو الإشارة إلى كيفية تعلق هذه الآية بما قبلها .

(**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي**) فيه إثبات الحياء لله تعالى ، وجه الدلالة : قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : إن نفي الاستحياء عن الله تعالى في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها .

- وقد دلت السنة على إثبات الحياء لله تعالى .

كما قال e (إن الله حيي ستير يحب الحياء والستر) رواه أبو داود .

وقال e (إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم ، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً) رواه أبو داود .

وحياؤه سبحانه وتعالى وصف يليق به ، ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يعاب أو يذم ، بل نثبتها لله تعالى على ما يليق بجلاله وكماله ، إثباتاً من غير تمثيل لها بخلقه .

(**أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**) أي : أن الله لا يستحيي أن يضرب ويبين أي مثل كان ، بأيّ شيء كان ، صغيراً أو كبيراً كالبعوضة فما فوقها .

- **والسبب في ذلك :** لاشتمال الأمثال على الحكمة ، وإيضاح الحق وتقريبه ، **قال ابن القيم :** فإن الأمثال تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر ، واعتبار أحدهما بالآخر .

وقد ضرب الله الأمثال في كتابه بعدة أشياء :

الذباب : قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) .

العنكبوت : قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

الشجرة الطيبة والخبيثة : قال تعالى ()أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) .

- قوله تعالى (فَمَا فَوْقَهَا) اختلف العلماء في المراد بقوله (فما فوقها) على قولين :

قيل : أن معنى فما فوقها أي ما هو أكبر منها ، ورجحه ابن جرير .

ويؤيد هذا القول قوله e (ما من مسلم يشوك شوكة فما فوقها) أي ما هو أعلى منها .

وقيل : (فما فوقها) أي ما هو أقل منها، كما يقال مثلاً فلان جاهل، فتقول هو فوق ذلك، أي أشد من الجاهل .

- **قال الرازي :** والمحققون مالوا إلى هذا القول لوجوه :

أحدها : أن المقصود من هذا التمثيل تحقير الأوثان ، وكلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود في هذا الباب أكمل حصولاً.

وثانيها : أن الغرض ههنا بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الحقير ، وفي مثل هذا الموضع يجب أن يكون المذكور ثانياً أشد حقارة من الأول ، يقال إن فلاناً يتحمل الذل في اكتساب الدينار ، وفي اكتساب ما فوقه ، يعني في القلة ، لأن تحمل الذل في اكتساب أقل من الدينار أشد من تحمله في اكتساب الدينار.

وثالثها : أن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب ، فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله تعالى ، فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالشيء الكبير .

- **وقال ابن عاشور :** وهو في هذه الآية صالح للمعنيين أي ما هو أشد من البعوضة في الحقارة وما هو أكبر حجماً.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) أي : أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق ، لا يقول غير الحق ، وأن المثل من عند الله ، فيزدادون إيماناً على إيمانهم .

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً) أي : وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة .

- فيه أن الاعتراض على أمر الله من أعمال الكفار ، فيزدادون كفراً على كفرهم ، ففيه التحذير من الاعتراض على أوامر الله .

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً) أي : يضل ويخذل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به .

(وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً) أي : ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به فيزدادون هدى .

- **قال الشيخ السعدي :** هذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية ، كما قال تعالى (وإذا أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية ، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم ، ولقوم منحة ورحمة ، وزيادة خير إلى خيرهم ، فسبحان من فاوت بين عباده ، وانفرد بالهداية والإضلال .

- قوله تعالى (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً) **قيل :** هو من قول الكافرين ، أي مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى .

وقيل : بل هو خبر من الله عز وجل ، **قال القرطبي :** وهو أشبه .

- **قال الشوكاني** عن القول الأول : ليس بصحيح ، فإن الكافرين لا يقرون بأن في القرآن شيئاً من الهداية ، ولا يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة .

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) أي : وما يضل به إلا الفاسقين الخارجين عن طاعة الله بكفرهم .

- والمراد بالفسق هنا الخروج عن الدين وهو الكفر، بدليل وصفهم بعد ذلك بقوله (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ...) وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين .

والفسق هو الخروج عن طاعة الله ، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد ، ويطلق ويراد به الكفر كقوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) وقال تعالى (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) .

ويطلق ويراد به ما دونه من المعاصي كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) .

- **قال القرطبي :** والفِسْق في عُرْف الاستعمال الشرعي : الخروج من طاعة الله عز وجل ، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان .

- لفظ الضلال في القرآن يطلق على ثلاثة إطلاقات :

الأول : إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدى إلى طريق الزيغ ، وعن طريق الجنة إلى طريق النار .

كما قال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .ومنه قوله تعالى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) .

ومنه قوله تعالى (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) ، وهذا أغلب استعمال الضلال .

والثاني : هو إطلاق الضلال على الغَيْبَة والاضمحلال .

ومنه قوله تعالى (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي : غاب واضمحل ولم يبق له أثر .

ومنه قوله تعالى (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فمعنى (ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أي : اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها .

والثالث : إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء ، فكل ما لم يهتد إلى علم شيء تقول العرب : ضل .

ومنه قول أولاد يعقوب (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي : ذهاب عن علم الحقيقة حيث يفضّل يوسف علينا .

وقوله (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ) أي : ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء ، لأنك تظن يوسف حياً ، ولا يريدون الضلال ، لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبياً من الأنبياء . (الشنقيطي) .

ومنه قوله تعالى (لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) أي : لا يذهب عنه علم شيء ولا ينسى شيئاً .

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) ذكر تعالى صفات هؤلاء الفاسقين، فمنها أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، والنقض : إفساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد .

- وقد اختلف في المراد بهذا العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه :

فقيل : أنه العهد الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من صلبه .

كما قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) .

وقيل : هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسن رسله .

وقيل : أنه العهد الذي أخذ عليهم على لسان أنبيائهم عليهم السلام أنهم يؤمنون بمحمد e إذا بعث فيهم .

كما قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) .

والراجح العموم كما قال ابن كثير حيث قال : وقال آخرون بل عني بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته ، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله الشاهدة لهم على صدقهم ، قالوا : ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق ، وهذا حسن ومال إليه الزمخشري .

- **وقال ابن عطية :** النقض رد ما أبرم على أوله غير مبرم ، والعهد في هذه الآية التقدم في الشيء والوصاة به.

واختلف في تفسير هذا العهد :

فقال بعض المتأولين : هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذر.

وقال آخرون : بل نصب الأدلة على وحدانية الله بالسماوات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد.

وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على عباده بواسطة رسله أن يوحدوه وان لا يعبدوا غيره.

وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أخذه الله تعالى على أتباع الرسل والكتب المنزلة أن يؤمنوا بمحمد e ، وأن لا يكتموا أمره.

- **قال أبو حيان** بعد ذكره للأقوال : والعموم هو الظاهر.

(يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) أي : من صفات هؤلاء الكفار قطع ما أمروا بوصله .

وقد اختلف العلماء ما هو الشيء الذي أمر الله بوصله :

فقيل : المراد به صلة الأرحام ، **ورجحه ابن جرير** .

وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل .

وقيل : المراد به حفظ شرائعه وحدوده التي أمر في كتبه المنزلة وعلى ألسن رسله بالمحافظة عليها فهي عامة .

قال الشوكاني : وبه قال الجمهور وهو الحق .

- فيه وجوب صلة ما أمر الله بصلته ، وفي مقدمة ذلك صلة الرحم .

وقد جاءت نصوص تحرم وتحذر من قطيعة الرحم :

قال تعالى(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ).

وقال تعالى (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) .

وقال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) أي : واتقوا الأرحام أن تقطعوها بل صِلوها .

وقال e (لا يدخل الجنة قاطع) متفق عليه .

وقال e (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم) رواه أحمد .

وقال e (لا يدخل الجنة قاطع) متفق عليه .

وقال e (الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس) رواه البخاري .

- وجاءت نصوص كثيرة تحث على صلة الرحم :

قال e (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه) متفق عليه .

وقال e (الرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله) متفق عليه .

وعن أبي أيوب (أن رجلاً قال يا رسول الله ! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ؟ فقال النبي e : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم) متفق عليه .

وقال e (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه) متفق عليه .

وهي من صفات النبي e ، قال خديجة (كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتحمل الكل، وتصل الرحم، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق) .

(**يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**) أي ومن صفات هؤلاء الكفار الإفساد في الأرض ، والإفساد في الأرض يكون بارتكاب المعاصي فيها من الشرك بالله ، والقتل ، والربا ، وغيرها ، كما قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

(**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**) في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح، لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان ، فمن لا إيمان له لا عمل له ، وهذا الخسار هو خسار الكفر .

- **قال الطبري :** قوله تعالى (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الخاسرون جمع خاسر ، والخاسرون : الناقصُون أنفسَهم حظوظَها - بمعصيتهم الله - من رحمته ، كما يخسرُ الرجل في تجارته ، بأن يوضَع من رأس ماله في بيعه. فكذلك الكافر والمنافق ، خسر بحرمان الله إياه رحمتَه التي خلقها لعباده في القيامة ، أحوج ما كان إلى رحمته.
- وأصل الخسران : نقصان مال التاجر من ربح أو رأس مال ، وأكبر الخسارة غبن الإنسان بحظوظه من خالقه جل وعلا ، وقد أقسم الله أنه لا ينجو منه أحد إلا بشروط معينة منصوصة في كتاب الله فقال تعالى (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

الفوائد :

١- فيه إثبات الحياء لله تعالى ، وجه الدلالة : **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :** إن نفي الاستحياء عن الله تعالى في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها .

٢- ضرب الأمثال ، لتقريب المعاني .

٣- فيه أنه لا ينبغي أن يكون الحياء مانعاً من قول الحق أو طلب العلم .

وقد قالت عائشة (نعم نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين) متفق عليه .

وقالت أم سلمة (إن الله لا يستحي من الحق ، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت) متفق عليه .

٤- فيه أنه ينبغي لمن أراد الإيضاح والبيان – وكان ذلك يتوقف على ضرب المثل – أن يبين ذلك بالمثل ، كما قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

٥- فضل أهل الإيمان ، حيث يؤمنون من غير تردد .

٦- أن الناس ينقسمون عند ضرب المثل إلى قسمين : مؤمن وكافر .

٧- أن الهداية والإضلال بيد الله تعالى ، ويتفرع على هذه الفائدة اللجوء إلى الله لطلب الهداية منه سبحانه .

٨- وجوب الوفاء بجميع العهود .

كما قال تعالى (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً) ، وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) .

٩- تحريم قطيعة الرحم .

١٠- تحريم الإفساد في الأرض .

١١- أن الإفساد في الأرض من صفات الكفار .

١٢- وجوب الإصلاح في الأرض .

١٣- أن أعظم الخسارة خسارة الإنسان نصيبه من الله .

١٤- معرفة صفات الكفار ليتجنبها الإنسان .

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .
[البقرة : ٢٨] .

- - - - - - - - - - - - - -

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً ...) يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ) أي :كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره .

(وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ) أي : قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود .

- **قال الرازي :** اتفقوا على أن قوله (وَكُنتُمْ أمواتاً) المراد به وكنتم تراباً ونطفاً ، لأن ابتداء خلق آدم من التراب وخلق سائر المكلفين من أولاده إلا عيسى عليه السلام من النطف .

(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) أي : ثم يميتكم عند استكمال آجالكم .

(ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) حين يبعثكم .

- **قال القرطبى :**واختلف أهل التأويل في ترتيب هاتين الموتتين والحياتين ، وكم من مَوْتة وحياة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أي كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تُخلقوا فأحياكم أي خلقكم ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة.
- **قال ابن عطية :** وهذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذي لا مَحِيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنتْ نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين ، ثم للإحياء في الدنيا ، ثم للإماتة فيها قَوِي عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها.

(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فيجازيكم الجزاء الأوفى .

- **قال ابن القيم:** فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور، ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق :

الأول : كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم بل نطفاً وعلقاً ومضغة مواتاً لا حياة فيها .

الثاني : أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة .

الثالث : أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة .

الرابع : أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه ، فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول ، ويكذب بالرابع ، وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق .

- قوله تعالى (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ..) استفهام المراد منه التوبيخ والتقرير، فيُتعجب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجج.

الفوائد :

١ - إثبات الموت لقوله (ثم يميتكم) .

كما قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) . وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .
وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ) وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) .

٢ - إثبات البعث .

٣- إثبات الجزاء والحساب .

٤- فيه الاستعداد ليوم الحساب بالإكثار من الأعمال الصالحة التي تنجيه من كرب يوم القيامة .

٥- أن المرجع إلى الله تعالى ، كما قال تعالى (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ) وقال تعالى (وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) .وقال تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) وقال تعالى (اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .
[البقرة : ٢٩] .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) أي خلق لكم ، براً بكم ورحمة ، جميع ما على الأرض للانتفاع والاستمتاع والاعتبار .

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) أي ثم قصد إلى السماء .

- **قال ابن كثير :** والاستواء ههنا متضمن معنى القصد والإقبال لأنه عدي بـ(إلى) والمعنى : ثم قصد إلى السماء .

(فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) أي: هيأهن وخلقهن ودبرهن وقومهن، والتسوية في كلام العرب التقويم والإصلاح والتوطئة .

وهذا يدل على كمال خلق السموات :

كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً) وقال تعالى (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) .

وقال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) .

وقال تعالى (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) .

- هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء بدليل لفظة ثم التي هي للترتيب والانفصال وكذلك آية حم السجدة تدل أيضا على خلق الأرض قبل خلق السماء لأنه قال فيها (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) إلى أن قال (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) .

فما الجواب عن قوله تعالى (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) . حيث أن هذه الآية تدل على أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء . (دحاها : يعني بسطها ومهدها وهذا قول الأكثر) .

الجواب : أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، وأما دحوها فمتأخر عنها ، فالله – سبحانه وتعالى – خلق الأرض أولاً غير مدحوة ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، أي : بسطها ومهدها للسكن ، بأن أخرج منها الماء والمرعى ، وأرساها بالجبال .

قال بهذا ابن عباس .

ورجحه البغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن كثير ، والسعدي ، والقاسمي ، والشوكاني .

- **قال ابن كثير :** وقد تقدم في سورة (حم السجدة) أن الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل. وهذا معنى قول ابن عباس، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لا يخفى عليه شيء سبحانه .

- **مباحث علم الله تعالى :**

أولاً : فالله تعالى يعلم كل شيء ، يشمل الجزئيات والكليات .

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) .

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ثانياً : يعلم سبحانه الماضي والمستقبل .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

(ما بين أيديهم) الحاضر والمستقبل (وما خلفهم) الماضي .

ثالثاً : الله يعلم الخفايا وما في الصدور :

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) . وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ) .

رابعاً : وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) .

خامساً : ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت .

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً ، لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون ، كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) .

سادساً : ويستوي في علم الله السر والعلانية ، والصغير والكبير والغيب والشهادة .

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .

سابعاً : وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان .

قال تعالى (.... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) .

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) .

أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً) .

ثامناً : علمنا قليل بالنسبة لعلم الله .

قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

- الآثار المترتبة من علمنا بأن الله عليم بكل شيء .

أولاً : الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً .

ثانياً : اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر .

قال ابن القيم : فإن قلت : فما السبيل إلى حفظ الخواطر ، قلت : أسباب عدة ، أحدها : العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك ، وعلمه بتفصيل خواطرك ، والثاني : حياؤك منه ، والثالث : إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته .

ثالثاً : إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام ، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب .

رابعاً : ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء : وجوب مراقبة الله ، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء ، فسوف يراقب ربه ، بلسانه وجنانه وأركانه ، فبلسانه : لا ينطق بما حرم الله ، وبجنانه : لا يعتقد بقلبه خلاف الحق ، وبجوارحه : لا يستعملها في المحرمات ، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام ، ويستعمل اليد في البطش الحرام ، ويستعمل الآذان في السماع الحرام .

وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: الرغبة والنشاط والرجاء، لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة، وأنه لن يضيع منها شيء .

الفوائد :

١- إثبات أن الخالق هو الله تعالى .

٢- في هذا دلالة على أنه سبحانه وتعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً ثم خلق السموات سبعاً ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك .

٣- فيه دليل على أن الأصل في الأشياء الحل حتى يقوم دليل على التحريم لقوله سبحانه (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) فكل ما على الأرض من الأشجار والنباتات والمياه الأصل فيه الحل . وهذه الآية هي نص الدليل القطعي على القاعدة المعروفة عند الفقهاء (أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة)، والمراد إباحة الانتفاع بها أكلاً وشرباً ولباساً وتداوياً وركوباً وزينة.

٤- فيه دليل على أن السموات سبع ، والآيات في هذا كثيرة :

كقوله تعالى (قل من رب السموات السبع) . وقال تعالى (تسبح له السماوات السبع) . وقال تعالى (فقضاهن سبع سموات) . وقال تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) .

وأما الأرض فلم يأت في القرآن التصريح بأنها سبع ولكن جاء التلميح كما في الآية السابقة (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) . مثلهن : أي في العدد .

وجاءت السنة تبين أن الأرضين سبع :

كقوله e (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين) متفق عليه .

٥- إثبات عموم علم الله تبارك وتعالى .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) .

[البقرة : ٣٠] .

- - - - -

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ) يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم فقال تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ) أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ، حين قال ربك للملائكة .

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) أي : قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ، واختلف العلماء في المراد بالخليفة هنا :

فقيل : المراد آدم .

- **قال القرطبي :** والمعني بالخليفة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل آدم عليه السلام .

لأنه خليفة الله في تنفيذ أوامره .

وقيل : أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ، ورجح هذا القول ابن كثير .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ) . وقال (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) .

ويدل على أنه ليس المراد آدم قول الملائكة (أتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء) فإنه من المعلوم أن آدم ليس مما يفسد في الأرض ويسفك الدماء . (انتهى كلام ابن كثير) .

ويمكن أن يجاب عن هذا : بأن المراد بالخليفة آدم ، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء ، فقالوا ما قالوا .

(قَالُوا) أي : الملائكة .

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) بالمعاصي .

(وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) هذا تخصيص بعد تعميم ، فإن سفك الدماء من الفساد ، لكن خصص لعظيم مفسدته ، فإن القتل من أكبر الكبائر .

- وهذا فيه دليل على أن الملائكة لا تعلم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) .
- **قال ابن كثير :** قول الملائكة ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك .
- فإن قيل : كيف عرفت الملائكة أنه سيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء :

قيل : لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد ، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد .

وقيل : إن الله أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء .

- **قال القرطبي :** قوله تعالى (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا) قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعْلِمت ولا تَسبِق القول ، وذلك عام في جميع الملائكة ؛ لأن قوله (لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول) خرج على جهة المدح لهم ، فكيف قالوا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا) ؟

فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد ؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ، لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبيّن الربّ تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم (إني أَعْلَمُ) وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه.

وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء ، وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العِزّة.

وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل في الأرض خلقاً أفسدوا وسفكوا الدماء ، فسألوا حين قال تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً) أهو الذي أعلمهم أم غيره ، وهذا قول حَسَن ، والقول الأوّل أيضاً حسن جداً ؛ لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء ؛ وما بين القولين حسن ، فتأمّله. (تفسير القرطبي) .

(وَنحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) التسبيح : تنزيه الله عن العيوب والنقائص ، وبحمدك : أي تسبيحاً مصحوباً بحمدك ، فتكون الجملة متضمنة لتنزيه الله عن النقص ، وإثبات الكمال لله بالحمد .

- واختلف في تسبيح الملائكة :**فقيل :** تسبيحهم صلاتهم ، **وقيل :** تسبيحهم رفع الصوت بالذكر ، **وقيل :** تسبيحهم سبحان الله على عُرفه في اللغة وهذا هو الصحيح ، لما رواه أبو ذَرّ . أن رسول الله e (سئل : أيّ الكلام أفضل ؟ قال : " ما اصطفى الله لملائكته (أو لعباده) سبحان الله وبحمده) أخرجه مسلم.

(وَنُقَدِّسُ لَكَ) أي : نطهرك من كل عيب ، فقال الله لهم :

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) أي : أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار .

- **قال الشوكاني :** قوله تعالى (قال إني أعلم ما لا تعلمون) ولم يذكر متعلق (تعلمون) ليفيد التعميم ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ويعترف بالعجز ويقر بالقصر .
- **وقال القرطبي** - رحمه الله - بعد أن ذكر بعض هذه الوجوه : قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إني أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون وما هو كائن فهو عام .

الفوائد :

١ - إثبات القول لله تعالى لقوله تعالى (وإذ قال ربك ..) .

٢ - إثبات الملائكة . والملائكة عالم غيبي خلقهم الله من نور ، وظيفتهم عبادة الله تعالى .

فالإيمان بهم من أركان الإيمان .

قال e في بيان أركان الإيمان (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) متفق عليه .

خلقهم الله من نور .

كما قال e (خلقت الملائكة من نور) رواه مسلم .

يعبدون الله لا يملون .

كما قال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) . ومعنى لا يفترون : لا يضعفون .

وقال تعالى (فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) .

عددهم كثير لا يعلم عددهم إلا الله .

كما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

وقال e في البيت المعمور في السماء السابعة (فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم) رواه مسلم .

ونعرف أسماء بعضهم .

إسرافيل (الذي ينفخ في الصور) **وجبريل** (هو الذي يأتي بالوحي) **وميكائيل** (هو الذي موكل بالقطر) .

وهؤلاء كان النبي e يتوسل بربوبية الله لهم في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل فيقول (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) رواه مسلم .

ومالك (خازن النار) .

قال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) .

رضوان .

قال ابن كثير : وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث .

٣- فيه أن خلق الملائكة سابق على خلق آدم أبي البشر .

٤- فيه دليل على أن الملائكة لا تعلم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) .

٥- تحريم الإفساد في الأرض بأنواع المعاصي .

٦- أن القتل من أكبر الكبائر .

٧- فيه عظم عبادة الملائكة لربها، وقد قال e (أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا ملك ساجد أو راكع).

٨- فيه فضل تسبيح الله وحمده .

قال e (أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته : سبحان الله وبحمده) رواه مسلم .

وقال e (كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) متفق عليه .

وقال e (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) رواه الترمذي .

وقال e (وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض) رواه مسلم .

وقال e (من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد) رواه مسلم .

وقال e (لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس). رواه مسلم

٩- فيه عموم علم الله ، وأنه سبحانه يعلم المستقبل كيف يكون [وقد سبقت مباحث العلم] .

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) .

[البقرة : ٣١ – ٣٣] .

- - - - - - - - - - - - - - - -

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) في المقام أراد الله أن يبين فضل آدم فقال (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) اختلف العلماء في المراد في هذه الأسماء التي علمها الله آدم :

فقيل : علمه أسماء الملائكة وذريته ، ورجح هذا ابن جرير الطبري رحمه الله .

لأنه قال (ثم عرضهم) وهذه عبارة من يعقل .

وقيل : علمه أسماء كل شيء ذواتها وصفاتها وأفعالها أسماء الملائكة وأسماء النبيين وأسماء ذرية آدم وأسماء البحار والأشجار والأحجار والأواني ، واختار هذا القول ابن كثير رحمه الله .

لعموم قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) .

ولحديث الشفاعة الطويل لما يأتون الناس إليه (... فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، وعلمك أسماء كل شيء) .

- فيه دليل على فضل آدم u ، ولآدم فضائل :

أنه أبو البشر - خلقه الله بيده – علمه الله أسماء كل شيء – أن الله نفخ فيه من روحه – وأسجد له الملائكة .

فقد جاء في حديث الشفاعة الطويل لما يأتون الناس إليه (...فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء) ، وقال تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) .

- وفيه أن الإنسان يشرف بالعلم .
- **قال الرازي :** هذه الآية دالة على فضل العلم فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم u إلا بأن أظهر علمه فلو كان في الإمكان وجود شيء من العلم أشرف من العلم لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم .

(ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ) أي : عرض المسميات (أي الأشياء التي علم آدم أسماءها) .

(فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قال ابن جرير : معنى ذلك : أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيتها الملائكة القائلون (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) من غيرنا ، أم منّا ؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك إن كنتم صادقين في قيلكم أني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته ، وأفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء ، وإن جُعلتم فيها أطعتموني ، واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس ، فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتهم عليكم من خلقي وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم ، وعلمه غيركم بتعليمي إياه ، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بعد ، وبما هو مستتر من الأمور التي هي موجودة عن أعينكم أحرى أن تكونوا غير عالمين ، فلا تسألوني ما ليس لكم به علم ، فإني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي .

- **وقال ابن عاشور :** قوله تعالى (إن كنتم صادقين) إما أراد به إن كنتم صادقين في أنكم أفضل من هذا المخلوق إن كان قولهم (ونحن نسبح ..) الخ تعريضاً بأنهم أحقاء بذلك ، أو أراد إن كنتم صادقين في عدم جدارة آدم بالخلافة كما دل عليه قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) كان قولهم (ونحن نسبح بحمدك) لمجرد التفويض أو الإعلان للسامعين من أهل الملأ الأعلى بالبراءة من شائبة الاعتراض على ما اخترناه.

(**قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا**) أقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته ، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء ، واعترافهم بفضل الله عليهم ، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون .

- قوله تعالى (قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) فيه أدب من الآداب ، وهو أن الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلمه : أن يقول : الله أعلم .

قال القرطبي : الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ، ولا أدري ، اقتداء بالملائكة والنبيين والفضلاء من العلماء .

قال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) .

ولما سئل النبي e : أي البقاع خير ؟ فقال : لا أدري حتى أسأل جبريل ، فسأل جبريل : فقال : لا أدري .

(**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ**) بكل شيء ، السر وأخفى (وسبقت مباحث علم الله) .

(**الْحَكِيمُ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة الكاملة لله تعالى ، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة .

قال ابن جرير : هو الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل .

وقال ابن كثير : الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله .

قال ابن القيم : وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة : أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل ، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة ، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل .

وقال السعدي : فالا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يشرع سدى ، الذي له الحكم في الأولى والآخرة ، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك ، فيحكم بين عباده في شرعه ، وفي قدره ، وجزائه ، والحكمة : وضع الأشياء مواضعها ، وتنزيلها منازلها .

- فهو سبحانه حكيم في صنعه ، وحكيم في شرعه ، فجميع مصنوعاته كلها محكمة ، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً .

قال بعض العلماء : الحكمة تكون في صورة الشيء : أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة ، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة .

وتكون في غايته : أي : أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة ، وكذلك الحيوانات ، وكذلك جميع المخلوقات ، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) .

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : أن الله خلق الخلق لحكمة عظيمة، وغاية جليلة وهي عبادته سبحانه حيث قال (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . ولم يخلقهم عبثاً وباطلاً كما يظن الكفار والملاحدة ، قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) . وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) .

ثانياً : أن خلق الله محكم لا خلل فيه ولا قصور ، قال تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) .

ثالثاً : ونستفيد من معرفتنا أن الله حكيم في كل أفعاله : اقتناع الإنسان بما يجري عليه وما يوجبه الله عليه ، لأن ما يجريه الله – عز وجل – من الأحكام مقرون بالحكمة ، فإذا علمت هذا يقينياً اقتنعت سواء كان هذا من الأحكام الكونية أو الأحكام الشرعية ، حتى المصائب التي تنال العباد لاشك أن لها حكمة .

رابعاً : الرضا بالقضاء والقدر .

(**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ**) أي أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها .

(**فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ**) تبين للملائكة فضل آدم عليهم .

(**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) أي : ألم أتقدم إليكم أني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم .

(**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**) اختلف العلماء ما الذي أبدوه وما الذي كتموه .

فقيل : الذي أبدوه قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) والذي كتموه : ما أسر إبليس في نفسه من الكبر واختار هذا ابن جرير .

وقيل : الذي أبدوه قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ، والذي كتموه هو قولهم : لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم .

قوله تعالى (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) فيه عموم علم الله تبارك وتعالى وأنه يعلم السر والعلن ، والظاهر والخفي .

كما قال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

الفوائد :

١ - فضل آدم عليه الصلاة والسلام .

٢ - أن الإنسان يشرف بالعلم .

٣ - فضل العلم ، ووجه ذلك : أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم، فعلمه الأسماء كلها، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم

٤ - فيه أن كل نعمة وفضل في الإنسان فهي من الله ، فيجب الاعتراف بذلك والتواضع .

٥ - الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ، ولا أدري .

٦ - وجوب تنزيه الله عن كل نقص .

٧ - إثبات اسمين من أسماء الله وهما : العليم ، والحكيم .

٨ - ويتفرع على ذلك عدم الاعتراض على أوامر الله وحدوده ، لأن كل شيء يفعله لحكمه .

٩ - عموم علم الله لكل شيء .

١٠ - وجوب الخوف من الله ومراقبته ، لأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء .

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِ**) .

[البقرة : ٣٤] .

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**) هذا كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته ، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم .

وقال الآلوسي : وحكمة الأمر بالسجود إظهار الاعتراف بفضله عليه السلام .

(**فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**) أي سجدوا جميعاً غير إبليس .

(**أَبَى**) امتنع .

(**وَاسْتَكْبَرَ**) تعاظم .

(**وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِ**) أي : وصار من الكافرين .

- قوله تعالى (وَكَانَ مِنَ الكافرين) قيل : كان هنا بمعنى صار ؛ ومنه قوله تعالى (فَكَانَ مِنَ المغرقين).

وقال جمهور المتأوّلين : المعنى أي كان في علم الله تعالى أنه سيكفر ؛ لأن الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذي قد علم الله منه الموافاة.

قلت : وهذا صحيح ؛ لقوله e في صحيح البخاري (إنما الأعمال بالخواتيم) .

وقيل : إن إبليس عبد اللّه تعالى ثمانين ألف سنة ، وأُعطي الرياسة والخِزانة في الجنة على الاستدراج ؛ كما أعْطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أُعْطي بَلْعَام الاسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان في رياسته والكبر في نفسه متمكن.

- الكفر لغة : الستر ، ومنه سمي الزارع كافراً ، لأنه يستر البذر ويغطيه ويدفنه في الأرض ، وسمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء ، وسميت الكفارة بذلك لأنها تستر الذنب ، وسمي الشخص كافراً لأنه يستر نعمة الله عليه ، والكفر بالله ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : كفر استكبار وعناد وإصرار ، ومنه كفر إبليس ، فهو كفر استكبار كما قال الله (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) .

والثاني : كفر جحود وتكذيب وإنكار ، كما قال تعالى (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ) ، ومنه كفر قريش حيث قالوا فيما حكى الله عنهم (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) .

ويطلق الكفر على المعصية : كما قال e في النساء (تكفرن العشير) وقال e (اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت) رواه مسلم .

- قوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ) اختلف العلماء ما المراد بالملائكة :

فقيل : ملائكة الأرض فقط .

وقيل : ملائكة الأرض والسماء .

ونسبه الرازي للأكثر .

ورجحه ابن كثير ، لقوله تعالى (فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) .

- **قال القاسمي** : اختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود، فقيل : هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض.

قال تقي الدين ابن تيمية : هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى، وقيل : هم جميع الملائكة حتى جبريل وميكائيل، وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة. (تفسير القاسمي) .

- **وقال ابن تيمية** : ومن قال خلافه فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، لأنه سبحانه قال (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وهذا تأكيد للعموم . (مجموع الفتاوي) .

- قوله تعالى (اسْجُدُوا لِآدَمَ ..) اختلف ما المراد بالسجود :

فقيل : المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء .

قال الرازي مضعفاً هذا القول : ... فضعيف أيضاً ؛ لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك ؛ لأن الأصل عدم التغيير .

وقيل : كان قبلة والسجدة لله .

وقيل : السجود لآدم إكراماً واحتراماً ، وهي طاعة لله لأنها امتثال لأمر الله تعالى .

وهذا القول هو الراجح، فهذا السجود تعظيم لله لأنه امتثال أمره لا عبادة آدم ، ولا سجود إلا بأمر الله ، والأمر إن كان ممتثلاً به أمر الله فالمطاع فيه الله، ونظيره أن ملَك الموت يقال له: اقبض روح محمد e وسائر الأنبياء، فأي جريمة في الدنيا أعظم من قتل النبي e ونزع روحه ، وقتل الأنبياء والأولياء ؟ لكن ملك الموت مأمور من الله ، فهو مطيع في ذلك الفعل ، لأنه إنما فعله بأمر الله .

- هذا الأمر بالسجود كان قبل خلق آدم كما قال تعالى في الحجر (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) .
- **قال الشنقيطي :** قوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لآدَمَ) لم يبين هنا هل قال لهم ذلك قبل خلق آدم أو بعد خلقه ؟ وقد صرح في سورة الحجر وص بأنه قال لهم ذلك قبل خلق آدم ، فقال في الحجر (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)، وقال في سورة ص (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) .
- إبليس سمي بذلك لأنه أبلَسَ من رحمة الله : أي أيس منها يأساً لا رجاء بعده .
- قوله تعالى (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ...) لم يبين سبب رفض واستكبار إبليس عن السجود لكنه بينه تعالى في آيات أخرى كقوله تعالى (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ أنا خير) .

وهذا قياس فاسد لأمور :

أولاً : أنه في مقابلة النص ، وأي قياس في مقابلة النص فاسد الاعتبار .

ثانياً : أنا لا نسلم أن النار خير من الطين ، بل الطين خير من النار ، لأن طبيعتها الطيش والإفساد والتفريق ، وطبيعته الرزانة والإصلاح .

ثالثاً : أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين ، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم ، لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع .

- قوله تعالى : (فسجدوا إلا إبليس) استدل بها بعض العلماء على أن إبليس من الملائكة ، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على قولين :

القول الأول : أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن .

أ- للآية التي في سورة الكهف (إلا إبليس كان من الجن) والجن غير الملائكة ، وهذا نص قرآني صريح في محل النزاع .

ب- ولأن الملائكة معصومين من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

ج- ولقوله e (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار) رواه مسلم .

د- أن إبليس له نسل وذرية قال الله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) .

وقالوا إن استثناء الله إياه منهم لا يدل على كونه من جملتهم، وإنما استثناه منهم، لأنه كان مأموراً بالسجود معهم، فلما دخل معهم في الأمر جاز إخراجه بالاستثناء منهم.

القول الثاني : أنه أصله كان من الملائكة .ونسب هذا القول القرطبي لجمهور العلماء .

قال القاسمي : قاله ابن عباس ، وابن مسعود ، وسعيد بن المسيب ، واختاره الشيخ موفق الدين ، والشيخ أبو الحسن الأشعري ، وأئمة المالكية ، وابن جرير الطبري . قال البغوي : هذا قول أكثر المفسرين .

لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم . قال تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ } فلولا أنه من الملائكة ، لما توجه الأمر إليه بالسجود ، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً ، ولما استحق الخزي والنكال .

وقالوا : فإخراجه بالاستثناء منهم دليل على أنه منهم .

- **قال الماوردي :** وعلى قول من يقول : إن إبليس كان من الملائكة ، فاختلفوا في قوله تعالى (إلاَّ إِبْلِيسَ كان مِنَ الجِنّ) لِمَ سماه الله تعالى بهذا الاسم ، على أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم حي من الملائكة يُسَمَّوْن جنّاً كانوا من أشدِّ الملائكة اجتهاداً ، وهذا قول ابن عباس.

والثاني : أنه جعل من الجنّ ، لأنه من خُزَّانِ الجنَّةِ ، فاشتق اسمه منها ، وهذا قول ابن مسعود.

والثالث : أنه سمي بذلك لأنه جُنَّ عن طاعة ربِّه ، وهذا قول ابن زيدٍ.

والرابع : أن الجِنّ لكلِّ ما اجْتَنَّ فلم يظهر ، حتى إنهم سَمَّوُا الملائكة جناً لاستتارهم ، وهذا قول أبي إسحاق .

الفوائد :

١- إثبات القول لله .

٢- بيان فضل آدم على الملائكة ، حيت أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً له ، **ولآدم فضائل :**

أنه أبو البشر - خلقه الله بيده – علمه الله أسماء كل شيء – أن الله نفخ فيه من روحه – وأسجد له الملائكة .

٣- أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة ، لأن الله تعالى يحكم بما شاء ، ويدل على أن المحرم إذا كان بأمر الله كان عبادة قصة إبراهيم **u** ، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله.

٤- أن ترك السجود لله كفر بالله .

٥- أن الأمر يقتضي الوجوب إذا لم يوجد قرينة ، وجه الدلالة : أن الله قال للملائكة (اسجدوا) فلما امتنع إبليس وبّخه وحكم عليه بالعصيان وقال (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) . ومما يدل على أن الأمر للوجوب قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

٦- الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة ، لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثة حتى استكبر وأبى .

٧- طاعة الملائكة لربها .

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) .

[البقرة : ٣٥ – ٣٦] .

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) يقول تعالى إخباراً عما أكرم به آدم ، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له (فسجدوا إلا إبليس) إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها حيث يشاء .

وسبق معنى الجنة في اللغة ، وفي الاصطلاح ، والمراد هنا جنة الخلد .

- **قال ابن عاشور** قوله تعالى (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ ...) عطف على (وقلنا للملائكة اسجدوا) أي بعد أن انقضى ذلك قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وهذه تكرمة أكرم الله بها آدم بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من تلقاءِ الملائكة ، ونداء آدم قبل تخويله سكنى الجنة نداء تنويه بذكر اسمه بين الملإ الأعلى ، لأن نداءه يسترعي إسماع أهل الملإ الأعلى فيتطلعون لما سيخاطب به .
- **قال الرازي :** قوله (وزوجك) أجمعوا على أن المراد بالزوجة حواء وإن لم يتقدم ذكرها في هذه السورة وفي سائر القرآن ما يدل على ذلك وأنها مخلوقة منه كما قال الله تعالى في سورة النساء (الذي خَلَقَكُمْ مّن نَّفْسٍ واحدة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) وفي الأعراف (وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) ، وروي عن رسول الله e أنه قال (إن المرأة خلقت من ضلع الرجل فإن أردت أن تقيمها كسرتها وإن تركتها انتفعت بها واستقامت).
- **قال القرطبي :** قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عَوْجاء ؛ لأنها خُلقت من أعوج وهو الضّلع.
- **قال ابن كثير :** أَمَرَ اللَّهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَسْكُنَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ الْجَنَّةَ فَقَالَ (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) .وقال في الأعراف (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) وَقَالَ تَعَالَى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى . فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة ؛ لقوله (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) وهذا قد صرح به ابن إسحاق ، وَهُوَ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَاتِ (البداية والنهاية) .
- اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها آدم هل هي جنة الخلد أم لا على قولين :

القول الأول : أنها ليست جنة الخلد ، وإنما جنة في الأرض . واستدلوا :

قالوا : إن جنة الخلد يكون دخولها يوم القيامة ، ولم يأت زمن دخولها .

وقالوا : وصف الله الجنة بأنها (دار المقامة) فمن دخلها أقام بها ، ولم يقم آدم بالجنة التي دخلها .

وقالوا : إن جنة الخلد دار سلامة مطلقة ، لا دار ابتلاء وامتحان ، وقد ابتلي فيها آدم بأعظم الابتلاء .

وقالوا : ولو كان آدم أسكن جنة الخلد ، فكيف توصل إليها إبليس الرجس النحس المذموم حتى فتن فيها آدم .

القول الثاني : أنها جنة الخلد . واستدلوا :

بقوله تعالى (اهبطوا) والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل .

وقالوا : إن الله وصفها بصفات لا تكون إلا في جنات الخلد فقال (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً .

وجاء في الصحيحين في حديث احتجاج آدم وموسى ، (قال موسى لآدم : أخرجتنا ونفسك من الجنة) ولو كانت في الأرض فهم قد خرجوا من بساتين ، فلم يخرجوا من الجنة .

وهذا القول هو **الصحيح** .

- **قال القرطبي :** ولا التفات لما ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة الخُلْد وإنما كان في جنة بأرض عَدَن.

واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليه إبليس ، فإن اللّه يقول (لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ) وقال (لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً) وقال (لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً) ، وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله : (وَمَا

هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ) ، وأيضاً فإن جنة الخُلْد هي دار القُدْس ، قُدّست عن الخطايا والمعاصي تطهيراً لها ، وقد لَغَا فيها إبليس وَكَذَب ، وأُخْرِجَ منها آدم وحواء بمعصيتهما.

قالوا : وكيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو في دار الخُلْد والمُلْك الذي لا يبلَى ؟ فالجواب : أن الله تعالى عَرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة ؛ لم يُفهم منه في تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد .

ولا يستحيل في العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم ؛ وقد لَقِي موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى : أنت أشقيتَ ذُرّيتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت غيرها لردّ على موسى ؛ فلما سكت آدم على ما قرّره موسى صحّ أن الدار التي أخرجهم الله عزّ وجلّ منها بخلاف الدار التي أُخرجوا إليه.

وأما ما احتجوا به من الآي فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة ، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قُضي عليه بالفناء.

وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها ، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية ، وقد دخلها النبيّ e ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها جنة الخلد حقاً . (تفسير القرطبي) .

(**وَكُلا مِنْهَا رَغَداً**) أي هنيئاً واسعاً طيباً .

(**حَيْثُ شِئْتُمَا**) أي : من أيّ مكان من الجنة أردتما وفي أي زمان .

(**وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ**) أي فلا تأكلا منها كما قال تعالى (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

- **قال في التسهيل** (وَلاَ تَقْرَبَا) النهيُ عن القرب يقتضي النهي عن الأكل بطريق الأولى ، وإنما نهى عن القرب سدّاً للذريعة ، فهذا أصل في سدّ الذرائع .
- **قال القاسمي :** قوله تعالى (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) أي : هذه الحاضرة من الشجر ، أي : لا تأكلا منها ، وإنما علق النهي بالقربان منها ، مبالغة في تحريم الأكل ، ووجوب الاجتناب عنه ، لأن القرب من الشيء مقتضى الألفة . والألفة : داعية للمحبة ، ومحبة الشيء تعمي وتصمّ . فلا يرى قبيحاً ، ولا يسمع نهياً ، فيقع . والسبب الداعي إلى الشر منهيّ عنه ، كما أن السبب الموصل إلى الخير مأمور به . وعلى ذلك قوله e (العينان تزنيان) لما كان النظر داعياً إلى الألفة ، والألفة إلى المحبة ، وذلك مفضٍ لارتكابه ، فصار النظر مبدأ الزنا . وعلى هذا قوله تعالى (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى) ، (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) .
- قوله تعالى (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) اختلف العلماء بالمراد بهذه الشجرة :

فقيل : هي شجرة الكرم .

وقيل : السنبلة .

وقيل : شجرة التين ، **وقيل :** غير ذلك .

والراجح ما رجحه ابن جرير من عدم تعيين ذلك حيث قال : **والصواب** في ذلك أن يقال : إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة .

- **وقال ابن عطية :** وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ ؛ وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها.
- **فإن قيل :** ما وجه الحكمة في تخصيص تلك الشجرة بالنهي ؟

فالجواب : أنه ابتلاء من الله تعالى بما أراد.

وقال أبو العالية : كان لها ثقل من بين أشجار الجنة ، فلما أكل منها : قيل أخرج إلى الدار التي تصلح لما يكون منك (زاد المسير) .

(**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**) أي فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ، بمخالفة أمره .

- **قال الرازي :** قوله تعالى (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) قال بعض العلماء هذا النهي نهي تحريم ويدل عليه أمور :

أحدها : أن قوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة) كقوله (وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ) وقوله (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ) فكما أن هذا للتحريم فكذا الأول .

وثانيها : أنه قال (فَتَكُونَا مِنَ الظالمين) معناه : إن أكلتما منها فقد ظلمتما أنفسكما ألا تراهما لما أكلا (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) .

وثالثها : أن هذا النهي لو كان نهي تنزيه لما استحق آدم بفعله الإخراج من الجنة ولما وجبت التوبة عليه (تفسير الرازي) .

- هل كان آدم ناسياً عند ما أكل من الشجرة ؟

قيل : كان ناسياً .

لقوله تعالى (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) .

ويضعف هذا القول قوله تعالى (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) .

وقيل : إنه كان عامداً وأنه طمع في جنة الخلد كما في قول إبليس له (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى) . والله أعلم .

- **ورجح القرطبي الأول** ، وقال : قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حَتْماً وجَزْماً فقال (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) ، ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقّظ لكثرة معارفهم وعُلُوّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكّر النّهي تضييعاً صار به عاصياً ؛ أي مخالفاً .
- **قال في التسهيل :** اختلفوا في أكل آدم الشجرة :

فالأظهر أنه كان على وجه النسيان ، لقوله تعالى (فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) .

وقيل : سكر من خمر الجنة فحينئذٍ أكل منها ، وهذا باطل؛ لأن خمر الجنة لا تسكر .

وقيل : أكل عمداً وهي معصية صغرى ، وهذا عند من أجاز على الأنبياء الصغائر .

وقيل : تأوّل آدم أن النهي : كان عن شجرة معينة فأكل من غيرها من جنسها .

وقيل : لما حلف له إبليس صدقه؛ لأنه ظنّ أنه لا يحلف أحد كذباً .

(**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ**) أي استزلهما ، وأوقعهما في الزلل وهو الخطأ .

- قوله تعالى (عَنْهَا) قيل المراد (عن الجنة) ويكون المعنى : نحاهما الشيطان عن الجنة ، وقيل : (عن الشجرة) ويكون المعنى : أزلهما الشيطان بسببها ، أي بسبب أكلهما منها .
- **قال في التسهيل :** (عَنْهَا) الضمير عائد على الجنة ، أو على الشجرة فتكون عن سببية على هذا .

- وقد بين تعالى في موضع آخر كيف أزلهما وذلك بالقسم والإغواء .

كما قال تعالى (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى) .

وقال تعالى (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) .

وقال تعالى عنه (وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) .

- **قال القرطبي** : ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّي إغواء آدم ؛ واختلف في الكيفية : فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة ؛ ودليل ذلك قوله تعالى (وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين) والمقاسمة ظاهرها المشافهة.

- الحذر من مكايد الشيطان ، فإنه كاد للأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة .

ومن مكايده : التخويف بالفقر ، وتخويفه للمؤمنين من أوليائه فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر كما قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) وقال تعالى (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَه) المعنى : يخوفكم بأوليائه .

- **قال ابن عاشور** : وتفيد الآية إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله تعالى وموعظة تُنبِّهُ بوجوب الوقوف عند الأمر والنهي والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنة التي كانت لأبيهم وتربيةِ العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده إذ كان سبباً في جر هذه المصيبة لأبيهم حتى يكونوا أبداً ثأراً لأبيهم مُعادين للشيطان ووسوسته مسيئين الظنون بإغرائه كما أشار إليه قوله تعالى (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) وقوله هنا (بعضكم لبعض عدو) .

وهذا أصل عظيم في تربية العامة ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات منافسيهم ومَن غلبهم في الحروب ليكون ذلك باعثاً على أخذ الثأر.

- **كيف وسوس إبليس لهما ؟** .

قيل : أنه دخل في فم الحية .

وقيل : أنه مُنع من دخولها مكرماً ، أما على وجه الإهانة فلا يمتنع .

وقيل : أنه وسوس لهما وهو بالأرض .

وقيل : أنه وسوس إلى آدم وهو خارج باب الجنة . والله أعلم بالصواب .

- شاركت حواء بالأكل كما قال تعالى (فأكلا منها) .

(**فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**) أي من نعيم الجنة من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة .

(**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) هذا الخطاب لآدم وحواء وإبليس ، وهذه العداوة بين آدم وذريته وبين الشيطان ، كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) .

وأما ما ورد في قوله بالتثنية (اهبطا منها) قيل المراد آدم وحواء ، وقيل : آدم وإبليس وحواء تبع لآدم **وهذا الصحيح** .

- **قال الرازي** : اعلم أن في هذه الآيات تحذيراً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه :

أحدها : أن من تصور ما جرى على آدم u بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي .

وثانيها : التحذير عن الاستكبار والحسد والحرص .

وثالثها : أنه سبحانه وتعالى بين العداوة الشديدة بين ذرية آدم وإبليس ، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الحذر.

- فإن قيل ما الحكمة من إهباط آدم من الجنة ؟ ذكر ابن القيم رحمه الله عدة حكم :

فقال : ليعود إليها على أحسن أحواله ، فأراد سبحانه أن سيذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها ما يُعظّم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار ، فإن الضد يظهر حسنه الضد ، ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها .

وأيضاً، فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه، فخلّى بينهم وبين أعدائه، وامتحنهم بهم، فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم في مرضاته ومحابه ، نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن ليُنال بدون ذلك أصلاً ، فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات ، ولم يكن يُنال هذا إلا على الوجه الذي قدّره وقضاه من إهباطه إلى الأرض .

وأيضاً ، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى ، فمن أسمائه : الغفور ، والرحيم ، والحليم ، والخافض ، الرافع .. ولابد من ظهور آثار هذه الأسماء ، فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دار يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى ، فيغفر لمن يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويخفض من يشاء ، ويرفع من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

وأيضاً ، فإنه سبحانه الملِك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى ، ويثيب ويُعاقب، ويهين ويكرم، ويعز ويذل ، فاقتضى ملكه سبحانه أن ينزِل آدم وذريته داراً تجري عليهم فيها أحكام الملك ، ثم ينقلهم إلى دار يُتم عليهم فيها ذلك .

وأيضاً ، فإنه – سبحانه – أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب هو الإيمان النافع ، وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة ، يوم لا ينفع نفساً إلا إيمانها في الدنيا ، فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب ، واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه .

وأيضاً ، فإنه سبحانه لما كان يحب الصابرين ، ويحب المحسنين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الشاكرين ، وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات ، اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه داراً يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته ، فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم .

وأيضاً ، فإنه سبحانه جعل عبوديته أفضل درجاتهم – وذكر نبيه باسم العبودية في أعلى الدرجات – اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته داراً ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله ، وتقربهم إليه بمحابه ، وترك مألوفاتهم من أجله .

وأيضاً : فإنه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ، ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل بدار النعيم والبقاء ، إنما يحصل في دار المحنة والابتلاء ، وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم ، لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف . [مفتاح دار السعادة] .

(**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ**) أي لكم في الأرض موضع استقرار بالإقامة فيها .

- **قال الرازي** : الأكثرون حملوا قوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ) على المكان، والمعنى أنها مستقركم حالتي الحياة والموت .

(**وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**) أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم وهو الموت ، وهذا قول من يقول المستقر هو المقام في الدنيا .

وقيل : إلى قيام الساعة ، وهذا قول من يقول : المستقر هو في القبور .

- فإن الله كتب الموت على كل نفس :

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ) .

الفوائد :

١ - إثبات القول لله تعالى .

٢ - أن الجنة موجودة .

٣- حكمة الله في نهيهما عن الأكل من هذه الشجرة .

٤- أن الله قد يمتحن العبد ، فينهاه عن شيء يحبه .

٥- أن معصية الله ظلم للنفس .

٤- إثبات عداوة الشيطان وأنه سبب كل شر ، كما قال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال تعالى (وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

٥- إثبات عداوة الشيطان لنا ، فإنه هو الذي أخرج الأبوين من الجنة .

٦- إثبات علو الله لقوله (اهبطوا) والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل .

٧- يجب أن نتخذ الشيطان عدواً لنا ، فنحذر من خطواته وتزيينه ومكره وخداعه .

٨- أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا لقوله (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومتاع إلى حين) .

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

[البقرة : ٣٧] .

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) أي استقبل آدم دعوات من ربه وألهمه إياها فدعاه بها فتاب عليه .

- وهذه الكلمات هي المفسرة بقوله تعالى (قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)
- **قال السعدي** (فَتَلَقَّى آدَمُ) أي : تلقف وتلقن ، وألهمه الله (مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) وهي قوله (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) الآية ، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته (فَتَابَ) الله (عَلَيْهِ) ورحمه .

(فَتَابَ عَلَيْهِ) أي رزقه التوبة من خطيئته .

- **قال القرطبي** : إن قيل : لم قال (عليه) ولم يقل عليهما ، وحواء مشاركة له في الذنب بإجماع ، وقد قال (وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة) و (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا) فالجواب :

أولاً : أن آدم u لما خوطب في أوّل القصة بقوله (اسكن)خصّه بالذكر في التلقّي ؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده.

وثانياً : فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله السّتر لها ؛ ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله (وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى)

وثالثاً : لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تُذكر ؛ كما لم يذكر فَتَى موسى مع موسى في قوله (أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ) .

- **وقال الماوردي** : فإن قيل : فِلمَ قال : (فَتَابَ عَلَيْهِ) ، ولم يقُلْ : (فتابَ علَيْهِما) والتوبة قد توجهت إليهما ؟

قيل : عنه جوابان :

أحدهما : لما ذكر آدم وحده بقوله : (فَتَلَّقى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) ، ذكر بعده قبول توبته ، ولم يذكر توبة حوَّاء - وإن كانت مقبولة التوبة - لأنه لم يتقدم ذكرها .

والثاني : أن الاثنين إذا كان معنى فعلهما واحداً ، جاز أن يذكرَ أحدهما ، ويكونَ المعنى لهما ، كما قال تعالى (وَإِذَا رَأَوا تِجَارَةً أَوْ لَهْوَاً انْفَضُّوا إِلَيْهَا) ، وكما قال عز وجل (وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) .

(إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ) اسم من أسماء الله ، والتواب صيغة مبالغة لكثرة توبته وكثرة من يتوب عليهم .

معناه : التواب على من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه .

• **قال السعدي :** هو التائب على التائبين أولاً : بتوفيقهم للتوبة ، والإقبال بقلوبهم إليه ، وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قبولاً لها وعفواً عن خطاياهم .

• ووصف نفسه سبحانه بالتواب – وهي صيغة مبالغة – لكثرة من يتوب عليهم ، ولكثرة توبته على العبد

• **وتوبة الله على العبد نوعان :**

أحدهما : توفيق الله للعبد للتوبة ، كما قال تعالى (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) بمعنى وفقهم للتوبة ليتوبوا .

الثاني : قبولها من العبد إذا تاب ، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) . [قاله الشيخ ابن عثيمين] .

• **أثر الإيمان بهذا الاسم :**

أولاً : أن الله يتوب على التائبين ، ويغفر ذنوب المنيبين ، مهما كثرت وعظمت .

قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) .

ثانياً : إفراد الله بالتوبة وطلب العفو وغفران الذنوب ، لأنه لا يغفر الذنوب ولا يوفق إلى التوبة ويقبلها إلا الله وحده كما قال تعالى (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

ثالثاً : الحياء من الله ، البر الرحيم التواب الغفور ، الذي يفرح بتوبة عبده ، وهذا الحياء إذا تمكن من القلب أثمر تعظيماً لله وحياء منه ، ومبادرة إلى طاعته وترك معاصيه قدر الجهد والاستطاعة .

رابعاً : عدم اليأس من رحمة الله ، والقوة في رجائه .

(**الرَّحِيمُ**) اسم من أسماء الله دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى ، كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

والرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان :

الأول : رحمة ذاتية موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه ، يجب إثباتها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه ، كما قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ) .

الثاني : رحمة مخلوقة أنزل الله منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة .

كما قال e (إن لله مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة) رواه مسلم ، ومن ذلك ما جاء في قوله e (إن الله عز وجل قال عن الجنة : أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء ...) وهذه الرحمة ليست صفة لله تعالى ، بل هي من أثر رحمته التي هي صفته الذاتية الفعلية .

- ورحمة الله تعالى لعباده نوعان :

الأولى : رحمة عامة .

وهي لجميع الخلائق بإيجادهم ، وتربيتهم ، ورزقهم ، وإمدادهم بالنعم والعطايا ، وتصحيح أبدانهم ، وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم ، ومساكنهم ، ولباسهم ، وحركاتهم ، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى

الثانية : رحمة خاصة .

وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم ، ويثبتهم عليه ، ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيها ، ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويكفرها بالمصائب ، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخول الجنة ، كما قال تعالى (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) .

قال الشيخ ابن عثيمين : فهي رحمة إيمانية دينية دنيوية .

- ومن أعظم آثار رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) .
- ومن رحمته : سبحانه مغفرته لذنوب عباده بالصفح عنهم ، وتكفير سيئاتهم ، وفتح باب التوب لهم ، كما قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .
- ينبغي على العبد أن يتصف بصفة الرحمة ، فقد مدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ، ومن أسمائه e (نبي الرحمة) ومدح الصحابة بقوله (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ، وخص أبو بكر من بينهم بقوله (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر) .

- **الآثار المرتبة على معرفتنا بهذا الاسم :**

أولاً : محبة الله المحبة العظيمة ، وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله في الآفاق وفي النفس والتي لا تعد ولا تحصى ، وهذا يثمر تجريد المحبة لله والعبودية الصادقة له سبحانه وتقديم محبته على النفس والأهل والمال والناس جميعاً .

ثانياً : عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله وعدم اليأس من رحمة الله تعالى ، فإن الله قد وسعت رحمته كل شيء ، وحسن الظن بالله وانتظار الفرج بعد الشدة من أجل العبادات .

ثالثاً : اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى ، وقد حض الله عباده على التخلق بها ، ومدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ومن أسمائه e أنه نبي الرحمة ، ومدح الصحابة بقوله (رحماء بينهم) وخُص أبو بكر بينهم بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل حيث قال e فيه (أرحم أمتي أبو بكر) رواه أحمد .

رابعاً : التعرض لرحمة الله بفعل أسبابها .

- وإذا كان الله رحيماً فينبغي أن يعمل بالأسباب التي تنال بها الرحمة :

أولاً : رحمة الناس .

قال e (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال e (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) .

وقال e (والشاة إن رحمتها رحمك الله) .

ثانياً : الإحسان .

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

ثالثاً : طاعة الرسول e .

قال تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

رابعاً : السماحة في البيع والشراء .

قال رسول الله e (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) . رواه البخاري .

خامساً : عيادة المريض .

قال رسول الله e (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) .

سادساً : قيام الليل وإيقاظ الأهل .

قال رسول الله e (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وايقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) رواه أبو داود .

سابعاً : الحلق في النسك .

قال رسول الله e (اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً) متفق عليه .

ثامناً : مجالس الذكر .

قال رسول الله e (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة) رواه مسلم .

تاسعاً : الجلوس في المسجد .

قال رسول الله e (إن الملائكة تستغر للمصلي مادام في مصلاه تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه) متفق عليه .

عاشراً : سماع حديث الرسول وتبليغه .

قال رسول الله e (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه ابن حبان .

الحادي عشر : الإنصات للقرآن .

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثاني عشر : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

قال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثالث عشر : الاستغفار .

قال تعالى (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

- والحكمة من قرن توبته برحمته :

أولاً : أن الله تعالى رحيم بعباده فلا يعاقبهم بعد التوبة .

ثانياً : أنه تعالى لا يخذل ولا يرد من جاء منهم تائباً ، ولو بلغت ذنوبه عنان السماء وملء الأرض .

ثالثاً : أن قبوله لتوبة عباده تفضل منه عليهم ، وهو مقتضى رحمته تعالى بهم .

الفوائد :

١ - منّة الله تعالى على أبينا آدم حيث وفقه لهذه الكلمات التي كانت بها توبته .

٢ - سعة رحمة الله حيث يقبل توبة التائبين .

٣ - إثبات القول لله تعالى .

٤ - إثبات هذين الاسمين الكريمين (التواب) و (الرحيم) .

٥ - أن التوبة واجبة على كل أحد ، وأن التائب قد يرجع بعد توبته إلى حال أحسن من قبل .

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

[البقرة : ٣٨- ٣٩] .

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً) يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية، أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسل والبينات والبيان .

- قوله تعالى (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا) كرّر الأمر بالهبوط :

قيل : كرّره على جهة التغليظ وتأكيده ؛ كما تقول لرجل : قُمْ قُمْ.

وقيل : كرّر الأمر لما علّق بكل أمر منهما حُكماً غيرَ حُكم الآخر ؛ فعلّق بالأوّل العداوة ، وبالثاني إتيان الهدى (فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون ، والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف ، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضله هلك) . (وهذا اقرب الأقوال والله أعلم) ورجحه ابن كثير رحمه الله .

وقيل : الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء ، والثاني من السماء إلى الأرض.

ويضعف هذا الوجه قوله في الهبوط الأول (ولكم في الأرض مستقر) .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ) أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل .

- **قال ابن القيم :** أيَّ وقتٍ وأيَّ حين أتاكم مني هدى .

(فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة .

(وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) على ما فاتهم من أمور الدنيا ، فهم في سرور دائم ، لا يعرض لهم حزن على ما فات .

كما قال في سورة طه (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى) قال ابن عباس:فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى).

- **قال ابن القيم :** إن الله سبحانه جعل اتباع هداه وعهده الذي عهده إلى آدم سبباً ومقتضياً لعدم الخوف والأمن والضلال والشقاء ، وهذا الجزاء ثابت بثبوت الشرط ، منتف بانتفائه .

ونفي الخوف والحُزن عن متبع الهدى نفيٌ لجميع أنواع الشرور ، فإن المكروه الذي ينزل بالعبد متى علِم بحصوله فهو خائف منه أن يقع به ، وإذا وقع به فهو حزين على ما أصابه منه ، فهو دائماً في خوف وحزن، فكل خائف حزين ، وكل حزين خائف .

- **قال ابن عباس:** تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى) .

- **قال السعدي :** رتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظراً، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا) ولم يؤمنوا بالله ولا برسوله (وسبق تعريف الكفر) .

(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) أي : الآيات الشرعية ، وهي الوحي المنزل من الله .

وآيات الله تنقسم إلى قسمين :

الآيات الكونية القدرية . (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها) .

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة، كالشمس والسماء والأرض ونحوها، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة .

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي: لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون، وهو المعبود وحده .

الآيات الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم . (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله) .

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ).

وسميت آيات ، جمع آية ، لأنها علامة على صدق من جاء بها .

الكفر بالآيات الكونية يكون بأمور: أن يجحد أن الخالق سبحانه خلقها فيدعي أن الذي خلقها غير الله، أو أن يعتقد أن له شريكاً في خلقه ، أو أن له معيناً في خلقه .

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها ، أو بتكذيبها ، أو بالاستكبار والعناد .

(**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**) الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه ، والغريم لغريمه ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

والنار هي الدار التي أعدها الله للكافرين .

- قوله تعالى (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) وهذا الأسلوب يطلق على الذين يخلدون فيها ، فالمؤمن العاصي – وإن كان يستحق العذاب بالنار – فإنه لا يسمى من أصحاب النار ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) لا يخرجون منها ، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

- وقد ذكر الله تأبيده لأهل النار في ثلاث آيات من القرآن الكريم .

في سورة النساء : قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .

وفي سورة الأحزاب : قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً) .

وفي سورة الجن : قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

الفوائد :

١- إثبات علو الله .

٢- الحكمة في إنزال آدم من الجنة .

٣- أن الهدى من الله .

٤- وجوب اتباع هدى الله الذي أنزله على رسله وبكتبه .

٥- إثبات الأمن وعدم الخوف لمن اتبع هدى الله .

٦- الخوف والحزن والقلق لكل من لم يتبع هدى الله .

٧- أن النار دار للكفار ملازمين لها لا يخرجون منها .

٨- إثبات الخلود المؤبد للكفار في النار .

(يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) .

[البقرة : ٤٠ – ٤١] .

(يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) أي اذكروا نعمي عليكم الكثيرة كالإنجاء من فرعون ، وإغراق فرعون وقومه ، وجعل منهم الأنبياء والمرسلين وغيرها .

كما قال تعالى (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) .

وقال تعالى (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ) .

- قوله (نعمتي) والنعمة هنا اسم جنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا) أي نِعمَه.
- قوله (اذكروا نعمتي) أي اذكروها بقلوبكم واذكروها بألسنتكم لتقوموا بشكرها .
- والضمير في (عليكم) يراد به على آبائكم كما تقول العرب ألم نهزمكم يوم كذا لوقعه كانت بين الآباء والأجداد .
- **إسرائيل :** لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .
- **قال الرازي :** واعلم أنه سبحانه وتعالى إنما ذكرهم بهذه النعم لوجوه :

أحدها : أن في جملة النعم ما يشهد بصدق محمد e وهو التوراة والإنجيل والزبور.

وثانيها : أن كثرة النعم توجب عظم المعصية فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان بمحمد e وبالقرآن.

وثالثها : أن تذكير النعم الكثيرة يوجب الحياء عن إظهار المخالفة.

- **قال ابن عاشور :** والمراد بالنعمة هنا جميع ما أنعم الله به على المخاطبين مباشرة أو بواسطة الإنعام على أسلافهم فإن النعمة على الأسلاف نعمة على الأبناء لأنها سمعة لهم ، وقدوة يقتدون بها ، وبركة تعود عليهم منها ، وصلاح حالهم الحاضر كان بسببها ، وبعض النعم يكون فيما فطر الله عليه الإنسان من فطنة وسلامة ضمير وتلك قد تورث في الأبناء ، ولولا تلك النعم لهلك سلفهم أو لساءت حالهم فجاء أبناؤهم في شر حال.

(**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي**) أي أدوا ما عهد إليكم من الإيمان بالنبي محمد r إذا بعث .

- وهذا العهد ذكره الله في موضع آخر فقال سبحانه (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) .

(**أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**) وهو قوله تعالى (لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) .

(**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**) أي فاخشون ، قال ابن كثير : وقال ابن عباس في قوله تعالى (وإياي فارهبون) أي إن نزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره .

- **قال ابن كثير :** وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول e والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

- الرهبة : أشد الخوف .
- والخوف ثلاثة أنواع :

الأول : خوف طبيعي كخوف الإنسان من السبع والنار والغرق ، وهذا لا يلام عليه العبد ، قال تعالى عن موسى (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ) .

الثاني : خوف العبادة، أن يخاف أحداً يتعبد بالخوف له فهذا لا يكون إلا لله، وصرفه لغير الله شرك أكبر .

الثالث : خوف السر ،كأن يخاف صاحب القبر ، أو ولياً بعيداً عنه لا يؤثر فيه ، لكنه يخافه مخافة سر ، فهذا ذكره العلماء من الشرك .

(وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ) يعني بالقرآن الذي أنزل على محمد **e** النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

- قال أبو العالية رحمه الله في قوله تعالى (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم) يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، يقول لأنهم يجدون محمداً **e** مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .
- **قال الرازي :** اعلم أن المخاطبين بقوله (وَءامِنُواْ) هم بنو إسرائيل ويدل عليه وجهان :

الأول : أنه معطوف على قوله (اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) كأنه قيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي وآمنوا بما أنزلت.

الثاني : أن قوله تعالى : (مُصَدّقاً لّمَا مَعَكُمْ) يدل على ذلك .

- قوله تعالى (مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ) التصديق لما معهم له معنيان :

أولاً : أنه شاهد لها بالصدق ، وقد شهد القرآن أن التوراة والإنجيل كليهما من عند الله .

ثانياً : أنه جاء مطابقاً لما أخبرت به .

(وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) أي : ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم .

فالضمير في قوله (به) عائد إلى القرآن والمعنى : ولا تكونوا أول من كفر بالقرآن وحقكم أن تؤمنوا به .

- فإن قيل : كيف قال (أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) مع أن كفار قريش بمكة قد كفروا قبلهم ؟

الجواب : قال ابن كثير : يعني (به) أول من كفر به من بني إسرائيل، لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة ، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفْرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم .

- اختار ابن جرير أن الضمير في قوله (به) عائد على محمد **r** ، وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان.

(وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً) أي لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية ، فإنهم يعتقدون أن هذه المناصب - كالرياسة والمال والجاه والمآكل - تنقطع إذا آمنوا بالله ورسوله .

- **قال ابن عاشور :** عطف على النهي الذي قبله وهذا النهي موجَّه إلى علماء بني إسرائيل وهم القدوة لقومهم ، والمناسبة أن الذي صدهم عن قبول دعوة الإسلام هو خشيتهم أن تزول رئاستهم في قومهم فكانوا يتظاهرون بإنكار القرآن ليلتف حولهم عامة قومهم فتبقى رئاستهم عليهم ، قال النبي **e** : لو آمن بي عشرة من اليهود لآمَن بي اليهودُ كلهم .

وقال رحمه الله : ووجه المشابهة بين إعراضهم وبين الاشتراء ، أن إعراضهم عن آيات القرآن لأجل استبقاء السيادة ، والنفع في الدنيا يشبه استبدال المشترِي في أنه يعطي ما لا حاجة له به ويأخذ ما إليه احتياجه وله فيه منفعته .

وقال رحمه الله : (ثمناً قليلاً) وقد أجمل العوض الذي استبدلوا به الآيات فلم يبين أهو الرئاسة أو الرشى التي يأخذونها ليشمل ذلك اختلاف أحوالهم فإنهم متفاوتون في المقاصد التي تصدهم عن اتباع الإسلام على حسب اختلاف هممهم.

- **قال القرطبي :** وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول مَن فعل فعلهم.

سئل الحسن البصري عن قوله تعالى (ثَمَناً قَلِيلاً) قال : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها .

- فالثمن القليل : يشمل المال والمنصب والجاه والشهرة والرفعة ، فإن أحبار اليهود لو آمنوا بمحمد e لذهبت عنهم بعض ما هم فيه من المكانة والمنزلة والرفعة .

وقد صدق من قال من السلف : من أحب أن يعرف ذهب دينه .

قال الحسن -رحمه الله : عقوبة العالم موت القلب ، قيل له: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة (جامع بيان العلم وفضله) .

قال محمد بن عمر الأسلمي - توفي سنة (٢٠٧هـ) -رحمه الله :لقد كان الرجلان يتقاولان بالمدينة في أول الزمان، فيقول أحدهما لصاحبه: لأنت أفلس من القاضي، فصار القضاة اليوم ولاة وجبابرة وملوكاً وأصحاب غلات وضياع وتجارات وأموال ! (الطبقات الكبرى) .

قال يوسف بن زكريا -رحمه الله :كان محمد بن يوسف، لا يشتري من خباز واحد، ولا من بقال واحد، وقال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني ؟ (حلية الأولياء) .

جلس الحسن -رحمه الله – يُحَدّث فأُهدِيَ له فردَّه، وقال: إن من جلس هذا المجلس ثم قَبِل، فليس له عند الله خلاق، أو قال: فليس له خلاق (الزهد لأحمد) .

قال وهب بن منبه - توفي سنة (١١٤هـ) -رحمه الله : كان العلماء من قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، فكانوا لا يلتفتون إليها ،وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم في علمهم، فأصبح أهل العلم يبذلون لأهل الدنيا عِلمَهُم رغبة في دنياهم، وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم، لما رأوا من سوء موضعه عندهم . (حلية الأولياء) .

قال أبو حازم –رحمه الله - لا تكون عالماً حتى تكون فيك خصال: لا تبغ على من فوقك ولا تحقر من دونك ولا تأخذ على علمك دنيا . (المداراة) .

قال مطرف بن عبد الله -رحمه الله - إن أقبحَ ما طُلبت به الدنيا عملُ الآخرة . (حلية الأولياء) .

قال شميط بن عجلان –رحمه الله - يعمد أحدهم فيقرأ القرآن ويطلب العلم، حتى إذا علمه أخذ الدنيا فضمها إلى صدره، وحملها على رأسه، فنظر إليه ثلاثة ضعفاء: امرأة ضعيفة، وأعرابي جاهل، وأعجمي، فقالوا: هذا أعلم بالله منا، لو لم ير في الدنيا ذخيرة ما فعل هذا، فرغبوا في الدنيا وجمعوها. وكان أبي يقول: فمثله كمثل الذي قال الله عز وجل (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) (حلية الأولياء) .

قال خالد بن دُرَيك -رحمه الله - : خرج ابن محيريز إلى بزاز يشتري منه ثوباً والبزاز لا يعرفه قال: وعنده رجل يعرفه فقال: بكم هذا الثوب قال الرجل: بكذا وكذا فقال الرجل الذي يعرفه: أحسن إلى ابن محيريز ، فقال ابن محيريز: إنما جئت أشتري بمالي ولم أجئ أشتري بديني فقام ولم يشتر . (حلية الأولياء) .

قال ابن المبارك -رحمه الله - إنما الناس العلماء والملوك والزهاد ، والسفلة الذين يأكلون بدينهم أموال الناس بالباطل ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) .

قال (يأكلون الدنيا بالدين، قال: فبكى فضيل بن عياض بكاءاً شديداً ثم قال: كذب من قال: إنه لا يأكل بدينه أنا - والله - آكل بديني . (شعب الإيمان) .

- وقد ذكر العلامة المعلمي أن المنزلة والجاه من موانع الهداية فقال رحمه الله بعد أن ذكر الوجه الأول :

الوجه الثاني: أن يكون قد صار له في الباطل جاه وشهرة و معيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل فتذهب تلك الفوائد .

(**وَإِيَّايَ**) أي : لا غيري .

(**فَاتَّقُونِ**) هذا أمر لهم بالتقوى ، أي اتقون وخافون دون غيري .

- التقوى : أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

وقد عرفها بعضهم بقوله : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله، على نور من الله ، تخاف عقاب الله .

وقال ابن مسعود (اتقوا الله حق تقاته) قال : أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يُكفر .

الفوائد :

١ - وجوب ذكر نعمة الله على العبد .

٢ - أن ذكر نعمة الله موجب للشكر والانقياد .

٣ - أن من أساليب الدعوة تذكير العبد بنعم الله عليه .

٤ - أن من وفى الله بعهد وفى الله له .

٥ - وجوب الوفاء بالعهد .

٦ - أن الجزاء من جنس العمل .

٧ - وجوب الخوف من الله لا من غيره .

٨ - يجب على كل الناس الإيمان بمحمد e .

٩ - ذم من قدم الدنيا على الآخرة ، واختار المتاع الزائل على الآخرة الباقية .

١٠ - أن من اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ففيه شبه من اليهود ، فمن يطلب العلم للدنيا والمنصب ، ففيه شبه من اليهود ، وقد قال سفيان : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود .

١١ - أن متاع الدنيا – مهما كثر وتنوع وعظم – فهو قليل بالنسبة للآخرة ، لأنه يزول ، ومنغص بالأكدار والمصائب ، قال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) .

١٢ - وجوب تقوى الله .

(وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) .

[البقرة : ٤٢ – ٤٣] .

(**وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ**) يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل (وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) .

- **قال الشنقيطي :** الحق الذي لبسوه بالباطل هو إيمانهم ببعض ما في التوراة ، والباطل الذي لبسوا به الحق هو كفرهم ببعض ما في التوراة وجحدهم له كصفات رسول الله r وغيرها مما كتموه وجحدوه ، وهذا بينه قوله تعالى (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) .
- **قال القرطبي :** اللَّبْس : الخلط ، لَبَست عليه الأمر ألبِسه ، إذا مزجتَ بيّنه بمُشْكله وحقَّه بباطله ، قال الله تعالى (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) وفي الأمر لُبْسة ؛ أي ليس بواضح .

(**وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ**) أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به .

(**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) أي : وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم .

- **قال ابن عاشور :** (وأنتم تعلمون) حال وهو أبلغ في النهي لأن صدور ذلك من العالم أشد ، فمفعول (تعلمون) محذوف دل عليه ما تقدم ، أي وأنتم تعلمون ذلك أي لَبسكم الحق بالباطل.

(**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**) أي : أدوها على وجه المطلوب ، بخشوعها وواجباتها وسننها .

- وفي هذا أن الصلاة موجودة في الأمم السابقة كما قال تعالى (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) .

(**وَآتُوا الزَّكَاةَ**) أي أعطوا الزكاة الواجبة عليكم لمستحقيها .

- الإيتاء : هو الإعطاء قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ) .
- الزكاة : هي : قدر واجب في مال مخصوص ، لطائفة أو جهة مخصوصة .

وسميت بذلك : لأنها تزكي المال ، وتزكي صاحب المال ، كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ) ، بل وتزكي المجتمع كله ، فتنتشر المحبة والوئام والإخاء .

(**وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**) أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة .

الفوائد :

١ - وجوب بيان الحق .

٢ - تحريم كتمان الحق أو تلبيسه .

٣ - أن كتم الحق من صفات اليهود .

٤ - الحذر من التشبه بصفات اليهود ، ومن أبرزها : كتم العلم ، والحسد ، والبخل .

٥ - وجوب إقامة الصلاة على أكمل وجه .

٦ - أن الصلاة مشروعة في الأمم الماضية .

٧ - وجوب إيتاء الزكاة إذا توفرت شروطها .

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

[البقرة : ٤٤] .

(**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ**) يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير ، أن تنسوا أنفسكم (أي : تتركونها) فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ؟

قال ابن عباس : نزلت في اليهود ، كان الرجل يقول لقرابته من المسلمين في السر : اثبت على ما أنت عليه فإنه حق .

- **قال الشوكاني :** قوله (وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكتاب) جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع، وأشد توبيخ، وأبلغ تبكيت : أي : كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به؟ وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل ، وشدّة الوعيد عليه ، كما ترونه في الكتاب الذي تتلونه ، والآيات التي تقرءونها من التوراة . والتلاوة : القراءة ، وهي المراد هنا ، وأصلها الإتباع؛ يقال تلوته : إذا تبعته، وسمي القارئ تالياً، والقراءة تلاوة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذي هو عليه .

وقوله (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) استفهام للإنكار عليهم .

- قوله تعالى (وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ) المراد بالكتاب هنا التوراة ، وهذا قول أكثر العلماء .

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**) أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم .

- **قال الطبري :** أي أفلا تفقهون وتفهمون .
- **قال الرازي :** قوله (أفلا تعقلون) فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم ونظيره قوله تعالى : (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) وسبب التعجب وجوه :

الأول : أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة ، والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير وذلك معلوم بشواهد العقل والنقل فمن وعظ ولم يتعظ فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال (أفلا تعقلون) .

الثاني : أن من وعظ الناس وأظهر علمه للخلق ثم لم يتعظ صار ذلك الوعظ سبباً لرغبة الناس في المعصية لأن الناس يقولون أنه مع هذا العلم لولا أنه مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات وإلا لما أقدم على المعصية فيصير هذا داعياً لهم إلى التهاون بالدين والجراءة على المعصية ، فإذا كان غرض الواعظ الزجر عن المعصية ثم أتى بفعل يوجب الجراءة على المعصية فكأنه جمع بين المتناقضين ، وذلك لا يليق بأفعال العقلاء ، فلهذا قال (أفلا تعقلون) .

الثالث : أن من وعظ فلا بد وأن يجتهد في أن يصير وعظه نافذاً في القلوب، والإقدام على المعصية مما ينفر القلوب عن القبول، فمن وعظ كان غرضه أن يصير وعظه مؤثراً في القلوب ، ومن عصى كان غرضه أن لا يصير وعظه مؤثراً في القلوب، فالجمع بينهما متناقض غير لائق بالعقلاء، ولهذا قال علي **t** : قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك .

- **قال السعدي :** وسمى العقل عقلا لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة.
- قوله تعالى (وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) أي : وتتركون أنفسكم ، فالنسيان هنا المراد به الترك .

والنسيان في القرآن يطلق على معنيين :

المعنى الأولى : بمعنى الترك : ومنه قوله تعالى (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) نسوا الله : أي : تركوه فلم يقوموا بحقه ، فنسيهم : تركهم سبحانه فلم يجبهم ، ومنه قوله تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) أي تركوه (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أي : جعلهم ينسونها ويغفلون عنها ويتركونها إذا لم يعطوا الله حقه ، ومنه قوله تعالى (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ) أي : نتركهم في النار .

المعنى الثاني : الذهول عن الشيء المعلوم ، ومنه قوله تعالى (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المراد بالنسيان : الذهول عن شيء معلوم ، فالله تعالى أحصاه ، لكن هؤلاء نسوه ، وهذا المعنى لا يوصف به الله تعالى .

- التوبيخ بالآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، فإن الأمر بالمعروف وهو واجب، ولكن الواجب والأولى أن يفعله مع أمرهم به ولا يتخلف عنهم، فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء .

وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها ، وهذا ضعيف ، قال ابن كثير : والصحيح: أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. قال مالك: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء ؟

قال الحسن لمطرف بن عبد الله: عظ أصحابك، فقال: إني أخاف أن أقول مالا أفعل، قال يرحمك الله، وأينا يفعل ما يقول، ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر .

- **قال الشوكاني :** الهمزة في قوله (أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر) للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين ، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر ، فإنه فعل حسن مندوب إليه ، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله (وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم) .
- **قال السعدي :** وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما، لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة .

الفوائد :

١- ذم من يأمر الناس بالطاعة والبر ولا يفعل ذلك .

قال تعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) .

عن أسامة . قال : قال رسول الله r (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه) رواه البخاري ومسلم .

عن أنس بن مالك t ، قال: قال رسول الله e : (مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت من هؤلاء ؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون) رواه أحمد .

٢- توبيخ العالم المخالف لما يأمر به .

٣- أن من أمر بمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن منكر وفعله من هذه الأمة ، ففيه شبه من اليهود .

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

[البقرة : ٤٥] .

- - - - - - - - -

(**وَاسْتَعِينُوا**) أي اطلبوا العون على أموركم الدنيوية والأخروية .

(**بِالصَّبْرِ**) على فعل الطاعات ، وبالصبر عن المعاصي ، وبالصبر على أقدار الله المؤلمة .

والصبر شرعاً : هو حبس النفس على حكم الله .
وحكم الله نوعان : أحدهما : قدري ، والآخر شرعي .
وقيل : الصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم .
قال السعدي : أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه ، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها ، والصبر عن معصية الله حتى يتركها ، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها ، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور ، ومن يتصبر يصبره الله .
فلا نجاح في الدنيا ، ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .
فلولا صبر الزارع على بذره ما حصد ، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى ، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج ، ولولا صبر المقاتل في ساح الوغى ما انتصر ، وهكذا كل الناجحين في الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر .
وإذا كان هذا في أمور الدنيا ، ففي أمور الآخرة أولى ، وخاصة أهل الإيمان ، فهم أشد الناس حاجة للصبر لأنهم يتعرضون للأذى والمحن والابتلاءات .
قال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .
وقال تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).
قال ابن القيم : هو خُلق فاضل من أخلاق النفس ، يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمُل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها .
الصبر باعتبار متعلقه أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .
فالصبر سلاح عظيم للحصول على كل خير في الدنيا والنجاة من كل كرب .
كما قال تعالى (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) .
وقال تعالى (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) .
وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ...) .
وصبر يوسف عليه السلام من إجابة امرأة العزيز حين دعته إلى نفسها فصبر وقال (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .
- فمن فضائل الصبر أنه من أعظم المعين على أمور الدنيا والآخرة ، وللصبر فضائل كثيرة :

أولاً : معية الله للصابرين .
قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .
ثانياً : محبة الله لهم .
قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .
ثالثاً : إطلاق البشرى لهم .
قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) .
رابعاً : إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم .
قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

خامساً : ضمان المدد والنصرة لهم .

قال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

سادساً : استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم .

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) .

وقال تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

سابعاً : حفظهم من كيد الأعداء .

قال تعالى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

ثامناً : سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

قال ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياننا يوقنون) .

تاسعاً : أنه من أسباب النصر .

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر) .

عاشراً : أمر الله به المؤمنين .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

الحادي عشر : الصبر ضياء .

كما في حديث أبي مالك الأشعري . قال : قال **e** (والصبر ضياء) رواه مسلم .

الثاني عشر : أنه خير ما أعطي العبد .

قال **e** (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم .

والذي يبعث على الصبر أمور :

أحدها : إجلال الله تبارك وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع .

الثاني : مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له .

الثالث : مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه .

الرابع : مشهد الغضب والانتقام ، فإن الرب إذا تمادى العبد في معصيته غضب .

الخامس : مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة .

السادس : مشهد القهر والظفر ، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاقه .

(**وَالصَّلاةِ**) أي استعينوا بالصلاة ، فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر .

كما قال تعالى (وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) .

وعن حذيفة . قال (كان رسول الله **e** ، إذا حزبه أمر صلى) رواه أبو داود .

- **قال القرطبي :** خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها .

لأن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه .

- **قال ابن القيم :** والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشطة للجوارح ، ممدة للقوى ، شارحة للصدر ، منورة للقلب ، حافظة للنعمة ، دافعة للنقمة ، جالبة للبركة ، مبعدة من الشيطان ، مقربة من الرحمن ، وبالجملة : فلها تأثير عجيب في حفظ الصحة والبدن وقواهما ، ودفع المواد الرديئة عنهما ، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا ، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً ، فما استُدفِعتْ شرور الدنيا والآخرة ، ولا استُجلبتْ مصالحهما بمثل الصلاة ، **وسر ذلك :** أن الصلاة صلة بالله ، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها ، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه ، والعافية والصحة والغنيمة والغنى ، والراحة والنعيم ، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه ومسارعة إليه .
- **وقال الشنقيطي** في بيان سر أن الصلاة معينة على أمور الدنيا والآخرة : لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه ، يناجي ربه ويتلو كتابه ، تذكر ما عند الله من الثواب ، وما لديه من العقاب ، فهان في عينه كل شيء ، وهانت عليه مصائب الدنيا ، واستحقر لذاتها ، رغبة فيما عند الله ، ورهبة مما عند الله .

(**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ**) أي وإن الصلاة لكبيرة وثقيلة وشاقة .

- **قال الشوكاني** (وإنها لكبيرة) والكبيرة التي يكبر أمرها ، ويتعاظم شأنها على حاملها ؛ لما يجده عند تحملها، والقيام بها من المشقة .
- والضمير في قوله (وإنها لكبيرة) عائد إلى الصلاة ، واختار ذلك ابن جرير ، لأنها أقرب مذكور .
- وقيل عائد على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى (ولا تستوي الحسنة ..) أي وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا ، وما يلقاها أي يؤتاها ويلهمها إلا ذو حظ عظيم .
- **قال ابن الجوزي :** قوله تعالى (وإنها) في المكنى عنها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الصلاة ، قاله ابن عباس والحسن ، ومجاهد والجمهور .

والثاني : أنها الكعبة والقبلة ، لأنه لما ذكر الصلاة ، دلت على القبلة ، ذكره الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل .

والثالث : أنها الاستعانة ، لأنه لما قال (واستعينوا) دل على الاستعانة .

وقال القرطبي قوله تعالى (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ) اختلف المتأوّلون في عود الضمير من قوله (وإنها) :

فقيل : على الصلاة وحدها خاصة .

وقيل : عليهما، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة؛ كقوله (والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله) ، وقوله (وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا) فردّ الكناية إلى الفضة ؛ لأنها الأغلب والأعم ، وإلى التجارة ؛ لأنها الأفضل والأهم .

وقيل : إن الصبر لما كان داخلاً في الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال (والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ) ولم يقل : يرضوهما ؛ لأن رضا الرسول داخل في رضا الله جل وعز .

(**إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**) فإنها خفيفة عليهم .

- **قال السعدي :** أي فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحًا بها صدره ، لترقُّبه للثواب وخشيته من العقاب. كما أن الخشوع هو العلم الحقيقي.

قال الشوكاني : (إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر ، وتوفر الجزاء ، والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب ، تسهل عليهم تلك المتاعب ، ويتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب ، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة ، وراحة عندهم محضة .

ولذلك قيل : من عرف ما يطلب ، هان عليه ما يبذل ، ومن أيقن بالخلف ، جاد بالعطية .

- **وقال ابن القيم :** وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح .
- **قال ابن الجوزي :** والخشوع في اللغة : التطامن والتواضع ، وقيل : السكون .
- والخاشع : المنكسر الخاضع لأوامر الله الذليل المصدق بوعده ووعيده .
- **قال القرطبي :** والخشوع : هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع .
- **قال السعدي :** والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلا وافتقاراً ، وإيماناً به وبلقائه .
- **وقال ابن عاشور :** والمراد بالخاشع هنا الذي ذلل نفسه وكسر سورتها وعودها أن تطمئن إلى أمر الله وتطلب حسن العواقب وأن لا تغتر بما تزينه الشهوة الحاضرة فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعدت نفسه لقبول الخير.
- **وللخشوع فضائل :**

أولاً : يسهل فعل الطاعة .

لهذه الآية (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

ثانياً : من علامات المؤمنين المفلحين .

قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) .

ثالثاً : من صفات الأنبياء .

قال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

رابعاً : لهم مغفرة وأجراً عظيماً .

قال تعالى (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) .

خامساً : هو أول ما يرفع .

قال e (يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى خاشعاً) .

سادساً : عاتب الله الصحابة به .

قال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) .

سابعاً : حث النبي e على الخشوع .

قال e (هل ترون قبلتي ههنا ، فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا خشوكم) متفق عليه .

ثامناً : الخشوع من أسباب دخول الجنة .

قال e (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) متفق عليه .

تاسعاً : أثنى الله على من آمن من أهل الكتاب بخشوعه .

قال تعالى (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً) .

عاشراً : الخشوع من أسباب قبول العمل .

قال e (من توضأ نحو وضوئي هذا، ثن صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه .

قال سهل : من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان .

وقال أبو يزيد المدني : إن أول ما يرفع من هذه الأمة الخشوع .

وقال الفضيل بن عياض : كان يكره أن يُرِيَ الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه .

(**الَّذِينَ يَظُنُّونَ**) هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون (أي : يوقنون) .

- والظن هنا بمعنى اليقين ، والظن يطلق على اليقين .

كما في قوله تعالى (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً) . أي فأيقنوا وكقوله تعالى (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ) . وكقوله تعالى عن الجن (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً) .

(**أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ**) أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه .

(**وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**) أي أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات .

- قال السعدي (وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن بلقاء ربه، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه .

الفوائد :

١- إرشاد الله عباده إلى الاستعانة بهذين الأمرين : الصبر والصلاة .

٢- فضيلة الصبر ، وأنه من أسباب التوفيق ، في أنواعه الثلاثة : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة .

- الصبر نوعان : اختياري واضطراري :

والاختياري أكمل من الاضطراري ، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري ، ولذلك كان صبر يوسف الصديق عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لمّا ألقوه في الجب ، وفرقوا بينه وبين أبيه فباعوه بيع العبد .

٣- ينبغي على الإنسان معرفة الأسباب التي تعينه على الصبر ، وقد ذكرتها قبل قليل .

٤- فضيلة الصلاة .

٥- فضيلة الخشوع والخاشعين ، وأن الطاعات ثقيلة إلا عليهم .

٦- الحث والجد في الخشوع والخضوع لله ، لأن ذلك مما يسهل الطاعات .

(يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) .
[البقرة : ٤٧] .

(يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) سبق شرحها .

- قوله تعالى (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) المراد بالذكر هنا : ذكر يحمل على الشكر ، ومن شكر تلك النعمة المأمور به : تصديق النبي e واتباعه فيما جاء به .
- قوله تعالى (نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) سبق ذكر بعض هذه النعم : كالإنجاء من فرعون ، وإنزال المن والسلوى ، وتظليل الغمام وغيرها ، وقد جرت العادة في القرآن أن الله يمتن على الموجودين في زمن النبي e بالنعم التي أنعمها على أسلافهم الماضين ، وكذلك يعيبهم بالمعائب التي صدرت من أسلافهم الماضين ، لأنهم أمة واحدة ، ولأن الأبناء يتشرفون بفضائل الآباء ، فكأنهم شيء واحد ، ولذلك كان جل وعلا يمتن على هؤلاء بنعمه على الأسلاف ، وكذلك يعيبهم بما صدر من الأسلاف لأنهم جماعة واحدة .
- **قال الآلوسي :** (يا بَنِي إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم) كرر التذكير للتأكيد والإيذان بكمال غفلتهم عن القيام بحقوق النعمة ، وليربط ما بعده من الوعد الشديد به لتتم الدعوة بالترغيب والترهيب ، فكأنه قال سبحانه : إن لم تطيعوني لأجل سوابق نعمتي ، فأطيعوني للخوف من لواحق عقابي ، ولتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم ، فإنه لذلك يستحق أن يتعلق به التذكير بخصوصه مع التنبيه على أجليته بتكرير النعمة التي هي فرد من أفرادها.

(وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) ظاهر هذه الآية أن بني إسرائيل هم أفضل العالمين ، بينما المعروف أن محمد e هي أفضل الأمم على الإطلاق ، والجواب عن هذه الآية :

الجواب الأول : أن الله فضل بني إسرائيل على عالم زمانهم ، بينما الأمة المحمدية مفضلة على سائر الأمم .

وهذا قول جمهور المفسرين .

قال أبوة العالية : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً.

قال ابن كثير : ويجب الحمل على هذا ، لأن هذه الأمة أفضل منهم .

لقوله تعالى، خطاباً لهذه الأمة (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) .

ولقوله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) .

وقال رسول الله e (أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) رواه أحمد .

ولقوله e (أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء ، ... وسميت أحمد ، وجعلت أمتي خير الأمم) رواه أحمد .

ولقوله e (يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً ، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر) رواه البخاري .

ومن الآيات المبينة لفضل أمة محمد e على أمة موسى أنه قال في أمة موسى (مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) فجعل أعلى مراتبهم الفئة المقتصدة ، بخلاف أمة محمد e فقسمهم إلى ثلاث طوائف ، وجعل فيهم طائفة أكمل من الطائفة المقتصدة وذلك في قوله في فاطر (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) فجعل فيهم سابقاً بالخيرات ، وهو أعلى من المقتصد ، ووعد الجميع بظالمهم ومقتصدهم وسابقهم بجنات عدن في قوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

الجواب الثاني : أن بني إسرائيل أفضل من العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء ، وإلى هذا أشار الرازي والقرطبي والشوكاني .

- **قال ابن كثير :** وفيه نظر، لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه .

الجواب الثالث : أن المراد بالعالم الجمع الكثير من الناس ، فيكون المعنى : فضلتكم على الكثير من الناس لا الكل ، وهذا قول الزمخشري في الكشاف ، وضعفه الرازي ، والصحيح الأول .

الفوائد :

١ - أنه يجب على بني إسرائيل أن يذكرون نعم الله عليكم .

٢ - أن الفضل والنعمة من الله ، كما قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .

٣ - أن كثرة النعم توجب مزيد الشكر، ولذلك كان النبي e يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ويقول: أفلا أكون عبداً شكوراً.

٤ - أن بني إسرائيل هم أفضل الأمم في زمانهم .

(وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) .

[البقرة : ٤٨] .

- - - - - - - - - - - - -

(وَاتَّقُوا يَوْماً) لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً ، عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة ، فقال (وَاتَّقُوا يَوْماً) يعني يوم القيامة من أهواله وشدائده ، واتقاء يوم القيامة يكون بالاستعداد له .

وهذا كثير في القرآن .

قال تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) .

- **قال ابن عاشور :** عَطَفَ التحذير على التذكير ، فإنه لما ذكرهم بالنعمة وخاصة تفضيلهم على العالمين في زمانهم وكان ذلك منشأ غرورهم بأنه تفضيل ذاتي فتوهموا أن التقصير في العمل الصالح لا يضرهم فعقب بالتحذير من ذلك ، والمراد بالتقوى هنا معناها المتعارف في اللغة لا المعنى الشرعي.

- **قال الرازي :** اعلم أن اتقاء اليوم اتقاء لما يحصل في ذلك اليوم من العقاب والشدائد لأن نفس اليوم لا يتقى ولا بد من أن يرده أهل الجنة والنار جميعاً .

- وأسباب النجاة من كرب يوم القيامة كثيرة :

منها : التنفيس عن المسلمين .

لحديث أبي هريرة . قال : قال e (من نَفَّس عن مؤمن كُرْبة منْ كُرب الدُّنْيا ، نفّس اللَّه عنْه كُرْبة منْ كُرَب يوم الْقِيامَةِ ، ومنْ يسَّرَ على مُعْسرٍ يسَّرَ اللَّه عليْه في الدُّنْيَا والآخِرةِ) رواه مسلم .

ومنها : إنظار المعسر أو الوضع عنه .

قال e (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللَّه مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ) رواه مسلم

ومنها : الوفاء بالنذر ، وإطعام الطعام لله .

قال تعالى (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جزَاء وَلَا شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً) .

(**لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً**) أي لا يغني أحد عن أحد .

قال السعدي : (لا تَجْزِي) أي : لا تغني (نَفْسٌ) ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين (عَنْ نَفْسٍ) ولو كانت من العشيرة الأقربين (شَيْئًا) لا كبيراً ولا صغيراً وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه .

كما قال تعالى (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

وقال تعالى (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً) فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً .

(**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**) يعني من الكافرين كما قال(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وكما قال عن أهل النار (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) .

- ظاهر الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة لكنه بين في مواضع أخرى أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار ، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض ، أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، والشفاعة لا تكون إلا بشرطين :

الشرط الأول : أن يأذن الله بها .

والشرط الثاني : أن يكون راضياً عمن شفع وعمن شفع له .

كما قال تعالى (منْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً).

(**وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**) أي لا يقبل منها فداء ، والعدل بمعنى : المعادل المكافىء .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وقال تعالى (وإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا) .

وقال تعالى (فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ) .

(**وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**) أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء .

- وأصل النصر في لغة العرب : هو إعانة المظلوم .
- **قال السعدي :** فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه ، فقوله (لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) هذا في تحصيل المنافع، (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقل به النافع .

الفوائد :

١- التحذير من يوم القيامة .

٢- وجوب الاستعداد ليوم القيامة .

٣- أن يوم القيامة لا ينفع الإنسان إلا عمله .

٤- أن يوم القيامة لا ينفع لا مال ولا ولد ولا ملك ، وإنما الذي ينفع العمل الصالح .

٥- أن في الآية أعظم تحذير عن المعاصي وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية علم أنه لا خلاص له إلا بالطاعة، فإذا كان لا يأمن كل ساعة من التقصير في العبادة ، ومن فوت التوبة من حيث إنه لا يقين له في البقاء صار حذراً خائفاً في كل حال ، والآية وإن كانت في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبة للكل لأن الوصف الذي ذكر فيها وصف لليوم وذلك يعم كل من يحضر في ذلك اليوم . (قاله الرازي) .

٦- أن يوم القيامة ليس فيه فداء ، وأيضاً لا أحد ينصر أحد ، فلا الآلهة والأسياد ولا غيرهم يستطيعون نصر أحد .

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

[٤٩ – ٥٠] .

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون **(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)** أي : خلصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وأشده وأفظعه .

- يسومونكم : يذيقونكم ويلزمونكم إياه ، **وقيل** : يديمون عذابكم .
- **سبب ذلك** : قيل أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة ، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها .
- **قال الرازي** : اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ليكون أبلغ في التذكير وأعظم في الحجة .
- الإنجاء هو الإنقاذ من المكروه .
- والخطاب للموجودين ، والمراد من سلف من الآباء ، وقيل : إنما قال نجيناكم ، لأن نجاة الآباء كانت سبباً لنجاة هؤلاء الموجودين .
- فرعون : عَلَمٌ على من ملَك مصر كافراً .

(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) أي يذبحون الذكور دون الإناث .

وعبر بالتشديد (يذبّحون) دلالة على الكثرة ، لأنهم ذبحوا كثيراً من أبنائهم .

- **قال الرازي** : قال بعض العلماء : إن المراد بقوله (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) الرجال دون الأطفال ليكون في مقابلة النساء ، وأكثر المفسرين على أن المراد بالآية الأطفال دون البالغين ، وهذا هو الأولى لوجوه :

الأول : حملاً للفظ الأبناء على ظاهره.

الثاني : أنه كان يتعذر قتل جميع الرجال على كثرتهم.

الثالث : أنهم كانوا محتاجين إليهم في استعمالهم في الصنائع الشاقة.

الرابع : أنه لو كان كذلك لم يكن لإلقاء موسى عليه السلام في التابوت حال صغره معنى .

- **وقال الرازي رحمه الله :** إن ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال، وذلك يقتضي انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن البتة في ذلك، وذلك يقضي آخر الأمر إلى هلاك الرجال والنساء .

وثانيها : أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة ، فإن المرأة لتتمنى وقد انقطع عنها تعهد الرجال وقيامهم بأمرها الموت ، لما قد يقع إليها من نكد العيش بالانفراد فصارت هذه الخصلة عظيمة في المحن ، والنجاة منها في العظم تكون بحسبها .

وثالثها : أن قتل الولد عقيب الحمل الطويل وتحمل الكد والرجاء القوي في الانتفاع بالمولود من أعظم العذاب ، لأن قتله والحالة هذه أشد من قتل من بقي المدة الطويلة مستمتعاً به مسروراً بأحواله ، فنعمة الله من التخليص لهم من ذلك بحسب شدة المحنة فيه .

ورابعها : أن الأبناء أحب إلى الوالدين من البنات ، ولذلك فإن أكثر الناس يستثقلون البنات ويكرهونهن وإن كثر ذكرانهم ، ولذلك قال تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يتوارى مِنَ القوم مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) الآية ، ولذلك نهى العرب عن الوأد بقوله (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إملاق) وإنما كانوا يئدون الإناث دون الذكور .

وخامسها : أن بقاء النسوان بدون الذكران يوجب صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان.

(**وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ**) أي يستبقون الإناث على قيد الحياة ، للخدمة .

- **فإن قال قائل : إن بقاء البنت حية أفضل من موتها ، فما وجه جعل ذلك من إهانتهم ؟**

إبقاء الإناث يعتبر عار وتعذيب ، لأن موت البنت أرحم من بقائها عند عدو يذلها ويهينها .

- **قال الشنقيطي :** ... فبقاؤهن [أي الإناث] تحت يد العدو يفعل بهن ما يشاء من الفاحشة والعار ويستخدمهن في الأعمال الشاقة نوع من العذاب، وموتهن راحة من هذا العذاب وقد كان العرب يتمنون موت الإناث خوفاً من مثل هذا .

(**وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**) قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك .

- وأصل البلاء الاختبار ، وقد يكون بالخير والشر ، كما قال تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (وبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .
- وقيل المراد بقوله (وفي ذلكم بلاء) إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء ، واستحياء النساء ، قال القرطبي : وهذا قول الجمهور .

(**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ**) أي : وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً في سورة الشعراء (فأنجيناكم) أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم .

- قوله تعالى (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) الباء للسببية أي : أي : فصلنا بعض أجزاء البحر عن بعض بسبب دخولكم فيه ، ليمكنكم المرور سالكين بين أجزائه ، وقيل إن (الباء) بمعنى (اللام) والمعنى : فرقنا بكم أي : أي فرقنا لكم ، وهو عائد للمعنى الأول ، لأن اللام للتعليل ، والباء للسبب ، فالمعنى متقارب .
- فرقنا : أصل الفرق الفصل ، ومنه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، أي يفصل ومنه قوله تعالى (فالفارقات فرقاً) يعني الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل .

(**وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**) بأبصاركم ، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم .

- **قال ابن عاشور :** وهذا الحال زيادة في تقرير النعمة وتعظيمها فإن مشاهدة المنعم عليه للنعمة لذة عظيمة لا سيما ومشاهدة إغراق العدو أيضاً نعمة زائدة كما أن مشاهدة فرق البحر نعمة عظيمة لما فيها من مشاهدة معجزة تزيدهم إيماناً وحادث لا تتأتى مشاهدته لأحد.
- البحر : معروف سمي بذلك لاتساعه .
- ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق ولم يذكر اليوم الذي كان ذلك فيه ، لكن ثبت في الصحيح أنه كان يوم عاشوراء .

فعن ابن عباس (أن رسول الله r قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ، فقال لهم رسول الله r : ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ فقالوا : هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه ، فقال رسول الله e : فنحن أحق وأولى بموسى منكم ، فصامه رسول الله e وأمر بصيامه) .

- لم يبين هنا كيفية فرق البحر بهم ، لكنه بين ذلك في مواضع :

كقوله تعالى (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) .

وقوله (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى) .

الفوائد :

١- عظم نعمة الله على بني إسرائيل إذ نجاهم من آل فرعون ، حيث تضمن هذا التذكير حصول المطلوب وذلك بنجاتهم ، وزوال المكروه بإهلاك عدوهم .

٢- أن الإنجاء من العدو من أعظم النعم .

٣- شدة عذاب فرعون لبني إسرائيل .

٤- شدة قوة الله عز وجل حيث أهلك فرعون .

٥- بيان قدرة الله على كل شيء .

٦- أن إهلاك عدو الإنسان وهو ينظر من نعمة الله عليه .

٧- **قال السمرقندي :** وكان في قصة فرعون وغيره علامة نبوة محمد e لأنه لا يعرف ذلك إلا بالوحي ، فلما أخبرهم بذلك من غير أن يقرأ كتاباً، كان ذلك دليلاً أنه قاله بالوحي، وفيه أيضاً تهديد للكفار ليؤمنوا حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، وفيه أيضاً تنبيه للمؤمنين وعظة لهم ليزجرهم ذلك عن المعاصي.

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

[البقرة ٥١- ٥٣] .

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَ عَفَوْنَا عَنْكُمْ) يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يوماً وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ) قيل إنها : ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر .

• في هاتين الآيتين يذكر الله بني إسرائيل بنعمته عليهم بهذا العفو العظيم ، وذلك أن الله واعد موسى ثلاثين ليلة فأتمها بعشر فصارت أربعين ليلة ، وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ، فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل ، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة ، فلما تأخر موسى عن الموعد الذي ذكره لبني إسرائيل فتنوا بعبادة العجل ، وقال لهم السامري (هذا إلهكم وإله موسى فنسي) فاطمأنوا إلى قوله ونهاهم هارون وقال (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) فلم يتبع هارون ولم يطعه في ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً فيما روي في الخبر ، وتهافت في عبادته سائرهم ، فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ألقى الألواح وأحرق العجل وذره في البحر ، وقال (يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى ...) فجعل الله من توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً .

• قوله تعالى (مِنْ بَعْدِهِ) أي : من بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه .

(**وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**) أي: بعبادتكم العجل، فإن الشرك ظلم، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك ظالم، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك .

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) .

وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال : بشرك ، ثم تلا قول لقمان (إن الشرك لظلم عظيم) .

وقال تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) أي : من المشركين .

ولم يأت الظلم في القرآن إلا بهذا المعنى ، إلا في موضع واحد في سورة الكهف ، بمعنى النقص ، كما قال تعالى (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً) أي ولم تنقص .

• وقد يطلق الظلم على ظلم الإنسان نفسه ببعض المعاصي التي لا تبلغ الكفر ، ومنه قوله تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ) بدليل قوله في الجميع (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا) ، لأن هذا أطاع الشيطان وعصى ربه فقد وضع الطاعة في غير موضعها .

• قوله : وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، لم يبين هل واعده إياها مجتمعة أو متفرقة ، ولكنه بيّن في سورة الأعراف أنها متفرقة ، وأنه واعده أولاً ثلاثين ثم أتمها بعشر ، وذلك في قوله تعالى (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) .

(**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ**) فالعفو : مَحْوُ الذنب ؛ أي محوْنا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم .

(**مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**) أي من بعد عبادتكم العجل ، والعجل ولد البقرة .

قال القرطبي : وسُمِّيَ العجل عجلاً لاستعجالهم عبادته .

(**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) أي : لأجل أن تقوموا بشكره .

• قال بعض العلماء : أن كل (لعل) في القرآن هي بمعنى التعليل إلا التي في سورة الشعراء (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) قالوا : هي بمعنى : كأنكم تخلدون .

• **والشكر** : هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب ، وثناء باللسان ، وطاعة بالأركان .

وفي ذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً   يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين : أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة الرجِل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة المال : أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله

- كيف يتحقق الشكر ؟

أولاً : سؤال الله ذلك .

كما قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .

وقال e لمعاذ : (يا معاذ ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك). رواه أبو داود

ثانياً : أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت .

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

ثالثاً : أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله يوم القيامة عن شكر نعمه .

قال تعالى : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

قال ابن كثير : أي ثم لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ، ما ذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة .

رابعاً : أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا ، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله .

قال e : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) .

الشكر يكون من الله لعبده ومن العبد لربه .

فشكر العبد لربه كقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ). وقوله تعالى (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ).

وتعريفه كما سبق وهو أن يستعمل نعمه في طاعة الله .

وشكر الله لعبده كقوله تعالى (ومَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

ومعنى شكر الله لعبده : هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً ردّه عليه أضعافاً مضاعفة .

لما عقر سليمان الخيل غضباً له إذ شغلته عن ذكره ، فأراد ألا تشغله مرة أخرى ، أعاضه عنها متن الريح .

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته ، أعاضهم عنها أن ملّكهم الدنيا وفتحها عليهم .

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .

- فضائل الشكر :

أولاً : الله أمر به .

قال تعالى : (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

ثانياً : التوبيخ على عدم الشكر .

قال تعالى : (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ) .

ثالثاً : الثناء على الشاكرين وأنه سبل الرسل .

قال تعالى : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

رابعاً : الشكر نفع للشاكر نفسه .
قال تعالى : (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) .
خامساً : أن الشكر إذا صدر من المؤمنين فهو مانع من نزول العذاب .
قال تعالى : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) .
سادساً : أن الشكر سبب لزيادة النعم .
قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .
سابعاً : أن الصفوة من عباد الله يسألون الله أن يوزعهم شكر نعمته .
قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .
ثامناً : أن الشاكرين قليلون .
قال تعالى : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) .
وقال تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .
وهذا يدل على أنهم هم خواص الله .
(**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**) أي وأعطينا موسى الكتاب وهو التوراة .

- **قال ابن عاشور:** هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم مع الإشارة إلى تمام النعمة وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتاباً فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع.
- وموسى هو ابن عمران ، أفضل أنبياء بني إسرائيل ، وأحد أولي العزم من الرسل ، وهو كليم الرحمن .

(**وَالْفُرْقَانَ**) أي وأعطيناه الفرقان ، وقد اختلف العلماء في المراد فيه :
فقيل : الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقاً فعبروا ، وهذا بعيد .
وقيل : إن الواو زائدة ، والمعنى : آتينا موسى الكتاب الفرقان .
وقيل : الفرقان هو الكتاب (التوراة) ، عطف عليه وإن كان المعنى واحداً ، ويكون ذلك من قبيل عطف الأوصاف والموصوف واحداً ، كما في قوله تعالى (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) .
وقيل : إن الفرقان الذي آتاه موسى هو الكتاب الذي فرق به بين الحق والباطل ، وهو نعت للتوراة وصفة لها ، فيكون تأويل الآية حينئذ : وإذا آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح وفرقنا بها بين الحق والباطل ، ورجحه الطبري .
وقيل : في الآية مضمر ، ومعناه : وآتينا موسى الكتاب يعني التوراة ، وأعطينا محمداً الفرقان ، فكأنه خاطبهم فقال : قد أعطيناكم علم موسى وعلم محمد e وعلم سائر الأنبياء .
(**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام .
الفوائد :
١- حكمة الله في تقديره ، حيث واعد موسى أربعين ليلة لينزّل عليه فيها التوراة .
٢- عظمة الله لقوله (آتينا) .
٣- سفه هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً ، حيث هم الذي صنعوه .
٤- أن الشرك أعظم الظلم .
٥- أن المستحق للعبادة هو الله عز وجل الخالق .

٦- سعة رحمة الله بعفوه عمن ظلم .

٧- وجوب شكر الله ، لأنه عفا وصفح .

٨- نعمة الله العظيمة بإنزال الكتب .

٩- إثبات رسالة موسى .

١٠- أن الكتب التي ينزلها تكون فرقاناً بين الحق والباطل .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

[البقرة : ٥٤] .

- - - - - - - -

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ) أي واذكروا إذ قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد اتخذوا العجل .

(يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ) وأي ظلم أعظم وأشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلهاً يعبده ، فإن هذا أظلم الظلم كما قال تعالى (نَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

قوله تعالى (بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ) : أي إلهاً .

(فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ) أي خالقكم ، والتوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة ، مع الإقلاع والندم .

- قوله تعالى (إِلَى بَارِئِكُمْ) قال ابن كثير: في هذا تنبيه على عظم جرمهم، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره .

والله – عز وجل – ينبه كثيراً على هذا المعنى ، ويذكر المشركين بذلك ، وأن الخالق هو المستحق للعبادة :

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) .

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وكما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) ولم يقل إلا الله لفائدتين :

الأولى : الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة .

والثانية : الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات .

قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) .

وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم .

(فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) أي ليقتل بعضكم بعضاً ، وإنما عبر بقتل النفس ، لأن المؤمن أخو المؤمن فكأنه هو نفسه ، فالأمة الواحدة المجتمعة على شيء ينزلون منزلة النفس الواحدة .

كقوله تعالى (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) أي : على من في البيت .

وقوله تعالى (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) أي : لا يلمز بعضكم بعضاً .

وقوله تعالى (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً) أي : ظنوا بإخوانهم خيراً .

وقوله تعالى (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) أي : إخوانكم .

عن ابن عباس (... فقال الله تبارك وتعالى إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد أو ولدٍ فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن ، فتاب أولئك الذين كان قد خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول .

قيل : فاجتلد القوم فكان من قتل من الفريقين سبعون ألفاً ، حتى دعا موسى وهارون : ربنا أهلكت بني إسرائيل ، ربنا البقية البقية ، فأمرهم أن يضعوا السلاح فتاب عليهم ، **وقيل :** أصابتهم ظلمة فأصبح بعضهم يقتل بعض ، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل ، وقيل : بل إن القتل وقع جهراً بلا ظلمة ، وهذا أصح ، لأنه أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم .

(**ذَلِكُمْ**) أي القتل .

(**خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ**) أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم .

قال الشنقيطي : أن هذا القتل بهذه التوبة يقطع حياتهم الدنيوية ، ولكنه يكسبهم حياة أخروية ، وهذه الحياة الأخروية خير من الحياة الدنيوية .

(**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**) في الكلام حذف تقديره : ففعلتم فتاب عليكم ، أي فقبل توبتكم وتجاوز عنكم .

(**إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**) الذي يتوب على التائبين ، فمن رحمته أنه يقبل توبة التائبين مهما عظمت ذنوبهم .

الفوائد :

١ - أن الشرك من أعظم الظلم ، لأنه وضع للعبادة في غير موضعها .

٢ - خطورة الشرك .

٣ - تذكير العاصي بمن يستحق الطاعة والعبادة لقوله (فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ) فالذي خلقكم هو من يستحق العبادة .

٤ - أن الذي لا يخلق لا يستحق أن يعبد .

٥ - أن العاجز لا يستحق أن يكون إلهاً .

٦ - وجوب التوبة .

٧- الإخلاص في التوبة .

٨- ما وضع الله على بني إسرائيل من الأغلال والآصار ، حيث كانت توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضاً .

٩ - أن الأمة كنفس واحدة .

١٠ - رحمة الله بهذه الأمة ورفع الآصار عنها .

١١ - تفاضل الأعمال .

١٢ – إثبات اسمين من أسماء الله : التواب والرحيم .

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

[البقرة : ٥٥- ٥٦] .

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) أي واذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل .

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ) أي لن نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله ، وبأن الله أمرك ونهاك .

(حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) علانية (رؤية بصرية) ، وقيل المعنى (جهرة) أنه صفة لقولهم ، أي : جهروا بذلك القول .

قال ابن كثير : والمراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه .

في القائلين لموسى ذلك قولان :

القول الأول : أنهم السبعون المختارون، فلما صار يكلم موسى ربه ويكلمه الله، قالوا (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً).

القول الثاني : أنه لما رجع موسى من ميقات الله ، وأنزل عليه التوراة ، وجاء بها قالوا : ليست من عند الله (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) .

- **قال ابن عطية :** واختلف في وقت اختيارهم ، فحكى أكثر المفسرين أن ذلك بعد عبادة العجل ، اختارهم ليستغفروا لبني إسرائيل ، وحكى النقاش وغيره أنه اختارهم حين خرج من البحر وطلب بالميعاد ، والأول أصح .

(فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) أي فأهلكهم الله بالصاعقة ، عقاباً لمقالتهم هذه الشنعاء .

- **قال ابن جرير :** الصاعقة كل أمرٍ هائل رآه المرء أو عاينه أو أصابه حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب ، وإلى ذهاب عقل وغمور فهم أو فقد بعض آلات الجسم صوتاً كان ذلك أو زلزلة أو رجفاً .

الصاعقة : بمعنى الشيء الهائل العظيم إذا عاينه الإنسان فإنه يموت لهوله أو يحترق أو يفقد شيئاً من حواسه .

وصعق هؤلاء بالموت فماتوا وهذا هو ظاهر القرآن ، وأما صعق موسى في قوله تعالى (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً) فهو إغماء .

(وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) قيل : ينظر بعضهم إلى بعض يقع ميتاً حتى ماتوا عن آخرهم ، وهذا اختيار ابن جرير ، **وقيل :** صعق بعضهم والبعض الآخر ينظر ، ثم بعث الذين صعقوا ، وصعق الآخرون .

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) أي أحييناكم ، وفي هذا دليل على أن صعقهم كان موتاً حقيقياً .

- **قال ابن الجوزي :** ومن الدليل على أنهم ماتوا قوله تعالى (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ) هذا قول الأكثرين ، وزعم قوم أنهم لم يموتوا ، واحتجوا بقوله تعالى (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً) وهذا قول ضعيف ، لأن الله تعالى فرق بين الموضعين، فقال هناك (فلما أفاق) وقال هاهنا (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ) والإفاقة للمغشي عليه ، والبعث للميت .
- وفي هذا إثبات البعث . (وسأذكر مباحث البعث في قصة القتيل إن شاء الله) .
- وهذه قصة من خمس قصص مذكورة في سورة البقرة في إثبات البعث .

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) أي : لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت . (وسبقت مباحث الشكر) .

الفوائد :

١ - إثبات البعث ، وهذه إحدى القصص الخمس التي تدل على البعث في سورة البقرة .

٢ - قدرة الله عز وجل .

٣- تذكير الله بني إسرائيل بنعمته عليهم ، حيث بعثهم من بعد موتهم .

٤- أن ألم العقوبة ووقعها إذا كان الإنسان ينظر إليها تكون أشد .

٥- وجوب شكر الله على نعمه .

٦- أن من شكر فإنما يشكر لنفسه .

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

[البقرة ٥٧] .

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم – أيضاً – بما أسبغ عليهم من النعم فقال (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) جمع غمامة ، سمي بذلك لأنه يغُم السماء ، أي : يواريها ويسترها ، وهو السحاب الأبيض ، ظللوا به في التِّيهِ ليقيَهم حر الشمس .

- وكان ذلك لما كانوا في التيه ، واشتكوا الحر ، دعا نبي الله موسى لهم ، فظلل الله عليهم الغمام ، وهو غمام أبيض رقيق يُظلهم من الشمس .
- **قال الشيخ السبت** (الغمام) إن ما ورد من تحديده أنه سحاب أبيض فهو مما أخِذ من بني إسرائيل، وإلا فإن كل ما سترك فإنه يقال له غَمام ، وجاء في الحديث (كأنهما غمامتان) .
- **قال الشوكاني :** وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر ، والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين.
- **قال الرازي :** قال المفسرون (وَظَلَّلْنَا) وجعلنا الغمام تظلكم ، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس .
- **قال ابن الجوزي :** (الغمام) السحاب، سمي غماماً ، لأنه يغم السماء، أي : يسترها، وكل شيء غطيته فقد غممته، وهذا كان في التيه .
- وصيغة الجمع في قوله (وَظَلَّلْنَا) للتعظيم .

(وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ) اختلفت عبارات المفسرين فيه ، **فقيل :** صمغة حلوة ، وهذا قول مجاهد . **وقيل :** أنه كان ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاء، كأنه العسل ، قاله الشيخ ابن عثيمين.

وقيل : هو العسل ، وهذا قول الشعبي .

قال الماوردي : قوله عز وجل (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ ....) فيه سبعة أقاويل :

أحدها : أن المنَّ ما سقط على الشجر فيأكله الناس ، وهو قول ابن عباس.

والثاني : أن المنَّ صمغة ، وهو قول مجاهد.

والثالث : أن المنَّ شرابٌ ، كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجِهِ بالماء ، وهو قول الربيع بن أنس .

والرابع : أن المنَّ عسل ، كان ينزل عليهم ، وهو قول ابن زيدٍ.

والخامس : أن المن الخبز الرقاق ، وهو قول وهب .

والسادس : أنه الزنجبيل ، وهو قول السدي .

والسابع : أنه الترنجين.

قال ابن كثير : والله أعلم أنه أكل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كد ، وفي الحديث قال e (الكمأة من المن) أي: من جنس ما منّ الله به على بني إسرائيل، حيث إنه يوجد – فضلاً من الله – من غير تعب .

(**وَالسَّلْوَى**) عامة المفسرين على أن السلوى طائر حلو اللحم ، وهو السُّمَانَى .

قال ابن عطية : السلوى طائر بإجماع المفسرين .

(**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**) أي : وقلنا لهم : كلوا من طيبات ما رزقناكم كهذا المنّ والسلوى .

وهما طيبان حساً ومعنى ، للذاذة طعمهما وحلِّيتهما شرعاً ، لأنهما منّ وفضل من الله جل وعلا .

فالطيّبُ هنا شامل لطيب الإباحة وطيب اللذاذة ، لأن الطيبْ يطلق إطلاقين : يطلق طيباً من جهة الإباحة وعدم الشبهة ، ويطلق طيباً من جهة اللذاذة وحسن المأكل ، وهو جامع لهما هنا .

(**وَمَا ظَلَمُونَا**) أي : ما نقصونا شيئاً ، لأن الله لا تضره معصية العاصين ، ولا تنفعه طاعة الطائعين .

(**وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) أي : أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدونا فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم ، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات ، والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، فظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي ومقابلة النعم بالمعاصي .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) .

وفي الحديث القدسي (... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ...) .

- **قال ابن كثير :** ومن هنا يتبين فضيلة أصحاب محمد e ورضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم ، مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته ، منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد ، ولم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي e .

الفوائد :

١ - بيان شيء من نعم الله على بني إسرائيل .

٢ - أن الغمام يسير بأمر الله تعالى .

٣ - أن لحوم الطيور من أفضل اللحوم .

٤ - الأكل من الطيبات .

٥ - تحريم الأكل من الخبائث ، والخبيث نوعان : خبيث لذاته ، وخبيث لكسبه .

فالخبيث لذاته : كالميتة ، والخنزير ، والخبيث لكسبه : كالغش والربا .

٦ -أن الله لا تضره معصية العاصين .

٧ - أن الذنوب والمعاصي ظلم للنفس .

٨ - أن بني إسرائيل كفروا هذه النعمة .

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) . [البقرة : ٥٨ – ٥٩] .

- - - - - - - - - - -

(**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ**) أي : واذكروا يا بني إسرائيل إذا قلنا ادخلوا هذه القرية .

والقرية : المدينة ، وسميت بذلك لأنها تقرت أي : اجتمعت ، واختلف في تعيين هذه القرية :

فقال الجمهور : هي بيت المقدس ، قال ابن كثير مرجحاً هذا القول : ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس كما نص على ذلك السدي والربيع بن أنس وقتادة وغير واحد ، وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا) .

وقال آخرون : هي أريحاء ، قال ابن كثير : وهذا بعيد ، لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء .

- **قال القرطبي** : واختلف في تعيينها ؛ فقال الجمهور : هي بيت المقدس ، وهذه نعمة أخرى ، وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التِّيه.

وكان هذا بعد خروجهم من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام ، وفتحها الله عليهم ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب سجداً .

- **قال الشنقيطي** : ولما زال عنهم التيه ، ومات موسى وهارون ، وكان الخليفة بعدهما يوشع بن نون ، وجاءوا وجاهدوهم الجهاد المعروف الذي ردّ الله فيه الشمس ليوشع بن نون ، وفتحوا البلد ، أمرهم الله أن يشكروا هذه النعمة بقولٍ يقولونه ، وفعلٍ يفعلونه ، فبدلوا القول الذي قيل لهم بقول غيره ، وبدلوا _ أيضاً – الفعل الذي قيل لهم بفعل غيره .

(**فَكُلُوا مِنْهَا**) أمر إباحة .

(**حَيْثُ شِئْتُمْ**) أي : في أي مكان كنتم في البلد .

(**رَغَداً**) أي : أكلاً رغداً أي : واسعاً لذيذاً لا عناء فيه ولا تعب .

ثم أمرهم الله بقول وفعل شكراً لنعمة الفتح وهو قوله :

(**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً**) أي : أن يدخلوا باب القرية سجداً شكراً لله على النعمة .

قيل : المراد بالسجود هنا الركوع تواضعاً وانحناء وتعظيماً لله .

وقيل : هو السجود على الجبهة .

وقيل : المراد مطلق التواضع لكنه قول ضعيف .

- والحكمة من أمرهم بذلك :

لعله ابتلاء من الله تعالى لهم ، وقيل : شكراً لله على هذه النعمة ، فلما أنعم الله بدخول الأرض المقدسة بعد التيه الذي ضربه الله عليهم أربعين سنة ، لزمهم شكر هذه النعمة بأن يدخلوا الباب (باب القرية) سجداً .

وسجود الشكر مشروع في شريعتنا ، وقد سجده النبي e وسجد أصحابه ، وعند الفتح أيضاً صلى النبي e ثمان ركعات .

(**وَقُولُوا حِطَّةٌ**) هذا القول الذي أُمروا به ، أي : مسألتنا حطة ، والحطة فعلة من الحط الذي هو الوضع ، والمعنى : مسألتنا لربنا هي حطة لذنوبنا وأوزارنا ، فهي كلمة استغفار تؤذن بحط الذنوب ووضع الأوزار .

(**نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**) المغفرة : ستر الذنب والتجاوز عنه ، والخطيئة : الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه التنكيل ، والمعنى : نتجاوز ونستر لكم ذنوبكم العظيمة .

(**وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**) الذين يحسنون في عبادة ربهم ، ويحسنون إلى المخلوقين طلباً لمرضاة الله .

وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال، ويدخل فيه الإحسان بالجاه ، وبالشفاعة ونحو ذلك ، وتعليم العلم النافع ، وقضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم ، وإزالة شدائدهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ، وإرشاد ضالهم .

ويدخل في ذلك الإحسان في عبادة الله ، إخلاصاً لله تعالى ، ومتابعة للرسول e ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) .

فالإحسان في عبادة الله : أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة .

والإحسان إلى المخلوق : بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة ، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك .

- **قال السعدي** : والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق ، والإحسان إلى المخلوق .

فالإحسان في عبادة الخالق : فسرها النبي e بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده. (تفسير السعدي)

- وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي e في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك).

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي e معنى الإحسان ، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون

- **فضائل الإحسان :**

أولاً : أن من أحسن إلى الناس أحسن الله إليه .

كما قال تعالى (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) .

وقال تعالى (وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

وقال تعالى (وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) .

ثانياً : لهم في الدنيا حسنة .

قال تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) .

ثالثاً : رحمة الله قريبة من المحسنين .

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) .

رابعاً : لهم الجنة ونعيمها .

قال تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) .

خامساً : تبشير المحسنين .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) .

سادساً : أن الله معهم .

قال تعالى (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

سابعاً : إن الله يحب المحسنين .

قال تعالى (وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

ثامناً : إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قال تعالى (إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) .

تاسعاً : الإحسان سبب في دخول الجنة .

قال تعالى (.. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ) .

عاشراً : الكافر إذا رأى العذاب تمنى أن لو أحسن في الدنيا .

قال تعالى (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِين) .

- قال ابن رجب : قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ، وقد ثبت في " صحيح مسلم " عنِ النَّبيِّ e تفسيرُ الزِّيادةِ بالنَّظرِ إلى وجهِ الله - عز وجل - في الجنة ، وهذا مناسبٌ لجعلِه جزاءً لأهلِ الإحسّانِ ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمنُ ربّه في الدُّنيا على وجهِ الحُضورِ والمراقبةِ ، كأنّه يراهُ بقلبِهِ وينظرُ إليه في حال عبادتِهِ ، فكانَ جزاءُ ذلك النَّظرَ إلى الله عياناً في الآخرة ، وعكس هذا ما أخبرَ الله تعالى به عَنْ جَزاءِ الكُفَّار في الآخرةِ (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) ، وجعلَ ذلك جزاءً لحالهم في الدُّنيا ، وهو تراكُم الرَّانِ على قُلوبِهم ، حتّى حُجِبَتْ عن معرفتِهِ ومُراقبته في الدُّنيا ، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبوا عن رُؤيته في الآخرة .

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة . قال : قال النبي e (قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقال : حبة في شعير) .

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) بقول غيره ، فالقول الذي قيل لهم هو (حطة) فبدلوه بقول غيره وقالوا (حبة في شعير) .

وبدلوا الفعل بفعل غيره ، فالفعل الذي أمروا به أن يدخلوا سجداً ، فبدلوه فدخلوا يزحفون على أستاههم أي : على ألياتهم وعجائزهم ، وهذا من كفرهم وعنادهم .

- قوله تعالى (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم وعصوا أمر ربهم ، وأصل الظلم –كما سبق – وضع الشيء في غير موضعه ، فهؤلاء وضعوا الأمر في غير موضعه ، حيث قابلوا نعم الله بالعصيان ، وعصوا الله .

(فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ) أي : أنزل الله عليهم رجزاً من السماء ، والرجز العذاب ، قال العلماء : وهذا العذاب طاعون أنزله الله عليهم ، قال بعض العلماء : أهلك الله به منهم سبعين ألفاً .

ويؤيد هذا قوله e (الطاعون رجس أُرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه) .

(بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (الباء) سببية ، أي : بسبب كونهم فاسقين .

- والفسق في لغة العرب الخروج، ومنه قوله جل وعلا (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) أي: فخرج عن طاعة ربه ، والعرب تقول (فسقت الفأرة) إذا خرجت من جحرها للإفساد .

ويطلق في القرآن ويراد به الكفر كقوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) وقال تعالى (ومَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) ، ويطلق ويراد به ما دونه من المعاصي كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) .

- فالمعاصي سبب لنزول المصائب وزوال النعم .

قال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) .

وقال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

وقال تعالى (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) .

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

الفوائد :

١ - إثبات القول لله .

٢ - مشروعية لسجود لله عند تجدد النعم واندفاع النقم .

٣ - أن النعم تستوجب الخضوع والذل لله ، ولذلك لما دخل النبي e مكة فاتحاً دخل وهو متواضع خاضع لله .

٤ - عناد بني إسرائيل حيث بدلوا وغيروا .

٥ - فضل الإحسان وأنه سبب للمزيد .

٦ - مراقبة الله .

٧ - أن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن أحسن الله إليه .

٨ - أن الظلم سبب للعقوبة .

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

[البقرة : ٦٠] .

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ) أي واذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه .

- **قال الرازي :** جمهور المفسرين أجمعوا على أن هذا الاستسقاء كان في التيه ، لأن الله تعالى لما ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل ثيابهم بحيث لا تبلى ولا تتسخ خافوا العطش فأعطاهم الله الماء من ذلك الحجر .

- **قال ابن عاشور :** تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهي :

أ-الري من العطش ، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ولذلك شاع التمثيل بري الظمآن في حصول المطلوب.

ب-وكون السقي في مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأمته لأن في ذلك فضلاً لهم .

ج-وكون العيون اثنتي عشرة ليستقل كل سبط بمشرب فلا يتدافعوا .

(**فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ**) أي :اضرب أي حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه .

- قوله تعالى (بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) قيل (أل) للعهد ، أي اضرب عصاً معهوداً معيناً معروفاً عندهم ، لكن الصحيح أنه حجر غير معين ، والمراد أن يضرب أي حجر من غير تحديد .
- قال في التسهيل : قيل هو جنس غير معين ، وذلك أبلغ في الإعجاز .
- **وقال الشيخ ابن عثيمين :** و(الحجر) المراد به الجنس، فيشمل أيّ حجر يكون، وهذا أبلغ من القول بأنه حجر معين .

وقال ابن الجوزي : واختلفوا في صفة الحجر على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كان حجراً مربعاً، **والثاني :** كان مثل رأس الثور، **والثالث :** مثل رأس الشاة.

- **قال الرازي - رحمه الله -** بعد ذكر بعض هذه الأقوال في صفة الحجر : واعلم أن السكوت عن أمثال هذه المباحث واجب، لأنه ليس فيها نص متواتر قاطع، ولا يتعلق بها عمل حتى يكتفي فيها بالظن المستفاد من أخبار الآحاد فالأولى تركها.
- **وقال الآلوسي :** بعد أن ذكر أكثر هذه الروايات في صفة الحجر : وظاهر أكثرها التعارض، ولا ينبئ على تعيين هذا الحجر أمر ديني والأسلم تفويض علمه إلى الله .
- قوله تعالى (**بعصاك**) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :
- وهذه العصا كان فيها أربع آيات :

أولاً : أنه يلقيها فتكون حية تسعى ، ثم يأخذها فتعود عصا .

ثانياً : أنه يضرب بها الحجر فينفجر عيوناً .

ثالثاً : أنه ضرب بها البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

رابعاً : أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون .

(**فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً**) أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم .

- في سورة الأعراف قال تعالى (فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً) وهنا قال (فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً) قال ابن كثير قوله (فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ) هذا أول الانفجار ، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخراً وهو الانفجار .

وقال بعض العلماء : بل هما بمعنى واحد ، فكل من الأنبجاس والانفجار انشقاق واسع ينحدر منه الماء بقوة ورجحه الشنقيطي .

- هذه معجزة وآية عظيمة لموسى ، قال بعض العلماء : إنه ما من معجزة أوتيها نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي نبينا e من جنسها .

فنبينا e أوتي معجزة تفجر الماء من بين أصابعه ، وهذه المعجزة لا شك أقوى من معجزة موسى عليه السلام ، وذلك لأن الحجارة أصلاً ما يتفجر منه الأنهار ، لكن ليس من الأصابع ما يتفجر من بينها الماء .

ومن ذلك : سليمان عليه السلام ، سخّرت له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ونبينا e سخّر له البراق فانطلق به من مكة إلى بيت المقدس ، وكذلك عُرج برسول الله e إلى السموات ، ولم يحدث هذا لسليمان عليه السلام .

(**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ**) أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا .

- وهذه من نعمة الله على بني إسرائيل ، وهي من نعمة الله على موسى ، أما كونها نعمة على موسى فلأنها آية دالة على رسالته ، وأما كونها نعمة على بني إسرائيل فلأنه مزيلة لعطشهم ولظمئهم .

(**كُلُوا**) من المن والسلوى .

(**وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ**)أي من هذا الماء من غير كدٍ منكم ولا تعب ، بل هو رزق ونعمة من الله .

(**وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**) أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد .

- **قال ابن عاشور :** وقوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) ووجه النهي عنه أن النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد قال تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

الفوائد :

١ - افتقار الخلق إلى الله ولو كان أعلى أصناف الخلق وهم الرسل .

٢ - مشروعية الاستسقاء وطلب المطر من الله .

٣ - بيان ما حصل من عصا موسى من الآيات حيث ضرب بها الحجر فانفجر عيوناً .

٤ - إثبات وجود الله عز وجل .

٥ - أن الله يجيب دعاء من سأله .

٦ - أن رزق الله واسع وكثير لكل الخلق .

٧ - أن كل ما في الأرض من خيرات فهو من رزق الله .

٨ - تحريم طلب الرزق من غير الله ، لأن الرزق رزق الله وهو الذي يرزق ويمنع .

٩ - ينبغي قسم الماء عند الكثرة وتوزيعه بالتساوي حتى لا يحصل الازدحام والاقتتال .

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) .

(**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ**) أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المنّ والسلوى ، لن نصبر على طعام واحد ، أي على نوع واحد من الطعام .

- **قال القرطبي :** كان هذا القول منهم في التِّيه حين مَلُّوا المنّ والسَّلْوَى ، وتذكّروا عيشهم الأوّل بمصر.
- قوله تعالى (على طعام واحد) مع أن المن والسلوى طعام متعدد ، والجواب من وجهين :

الأول : أن الشيء الذي يتكرر دائماً – وإن كان متنوعاً - ولا يتغير يقال له طعام واحد .

الثاني : أن المجعول على مائدة واحدة يصح أن يقال له طعام واحد ورجحه الشنقيطي وقال :

إن المجعول على المائدة الواحدة تسميه العرب طعاماً واحداً وإن اختلفت أنواعه ، ومنه قولهم : أكلنا طعام فلان، وإن كان أنواعاً مختلفة .

(**فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ**) أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام، فقد سئمنا المن والسلوى وكرهناه ، ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول .

- **قال ابن كثير :** وكانوا قوماً أهل عدس وبصل وبقول وفوم .

(**مِنْ بَقْلِهَا**) البقل : كل نبات ليس له ساق ، كالكراث والجرجير .

(**وَقِثَّائِهَا**) القثاء نوع من الخيار طويل .

(**وَفُومِهَا**) قيل : هو الثوم ، وقيل : هو الحنطة ، قال القرطبي : روي عن ابن عباس وأكثر المفسرين .

(**وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا**) أي العدس والبصل المعروفان .

(**قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**) فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع .

- **قال القرطبي** : ومعنى الآية : أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذي هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذي هو خير.
- **قال ابن عاشور** : وفي الاستبدال للخير بالأدنى النداء بنهاية حماقتهم وسوء اختيارهم .
- إنما فضل المن والسلوى على هذه البقول من وجوه :

أولاً : أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج.

الثاني : لما كان المنّ والسلوى طعاماً منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان في استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْرٌ في الآخرة، والذي طلبوه عارٍ من هذه الخصائل ، كان أدنى في هذا الوجه.

الثالث : لما كان ما منّ الله به عليهم أطيب وألذّ من الذي سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة.

الرابع : لما كان ما أُعْطُوا لا كُلْفَةَ فيه ولا تعب ، والذي طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى.

الخامس : لما كان ما ينزل عليهم لا مِرْيَةَ في حِلّه وخُلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوب والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبه ، كانت أدنى من هذا الوجه . [تفسير القرطبي] .

(**اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ**) أي مصراً من الأمصار ، كما قال ابن عباس ، ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون .

قال ابن كثير : والحق أن المراد : مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه ، ولهذا قال (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم) أي ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه .

ظاهر هذا أن موسى لم يسأل الله لهم ، لأن هذه التي طلبوها متوفرة موجودة في كل مكان .

(**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**) أي وضعت عليهم وأُلزِموا بها شرعاً وقدراً أي : لا يزالون مستذلين ، من وَجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون .

- قيل : الذلة : الصغار ، والمسكنة : الفقر والخضوع .
- **قال الرازي** (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّة) فالمعنى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم فهم فيها كمن يكون في القبة المضروبة أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازم كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه .
- **وقال القرطبي** : أي أُلزموهما وقُضِيَ عليهم بهما . والذِّلّة : الذُّلّ والصَّغار ، والمسكنة : الفقر ، فلا يوجد يهوديّ وإن كان غَنياً خالياً من زِي الفقر وخضوعه ومهانته.

(**وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ**) أي : رجعوا وانقلبوا متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم من الله سخط .

(**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**) يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء

وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق .

- **وقال القرطبي :** قوله تعالى (بِغَيْرِ الحق) تعظيم للشُّنْعة والذّنب الذي أتوه.

فإن قيل: هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به، قيل له: ليس كذلك ؛ وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق ؛ فكان هذا تعظيماً للشُّنعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبيّ بحق ، ولكن يُقتل على الحق ؛ فصرّح قوله (بِغَيْرِ الحق) عن شُنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله .

- **وقال السعدي** (بغير الحق) زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين لا يكون بحق، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم .

- عن ابن مسعود . أن رسول الله e قال (أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً وإمام ضلالة وممثل من الممثلين) رواه أحمد .

- **قال القرطبي : فإن قيل :** كيف جاز أن يخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء ؟

قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم ؛ كمثل من يُقتل في سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بُخذلان لهم .

وقال ابن عباس والحسن : لم يُقتل نبيّ قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكلُّ مَن أمر بقتال نُصِر .

(**ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**) وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم .

- **قال السعدي :** واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن ، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم ، ونسبت لهم لفوائد عديدة :

منها : أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم ، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به ، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم ، ما يبين به لكل أحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ، ومعالي الأعمال ، فإذا كانت هذه حالة سلفهم ، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين ؟

ومنها : أن نعمة الله على المتقدمين منهم ، نعمة واصلة إلى المتأخرين ، والنعمة على الآباء ، نعمة على الأبناء ، فخوطبوا بها ، لأنها نعم تشملهم وتعمهم .

ومنها : أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم ، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها ، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد ، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع.

لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع ، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها : أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها ، والراضي بالمعصية شريك للعاصي ، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلا الله .

الفوائد :

١ - فضل الله على بني إسرائيل حيث أعطاهم الطعام من غير تعب ولا كد .

٢ - بيان سفه هؤلاء حيث لم يصبروا على هذا الطعام الطيب الذي أنزله الله من السماء تكريماً لهم .

٣ - جواز التوسل بدعاء من ترجى إجابته .

٤ - ذم من يطلب الأدنى بدلاً من الأعلى .

٥ - أن الذي ينبت الزرع ويأتي بالأرزاق هو الله .

٦- جواز تفضيل الأطعمة بعضها على بعض .

٧- أن الله كتب على بني إسرائيل الذلة والمسكنة ، وما قوتهم الآن إلا بسبب ضعف المسلمين .

٨- حلول غضب الله على بني إسرائيل .

٩- إثبات الغضب لله .

١٠- أن سبب ذلك : هو قتلهم للأنبياء وبسبب عصيانهم وطغيانهم .

١١- أن المعاصي والذنوب سبب لغضب الله .

١٢- أن الله لا يظلم أحداً ، قال تعالى (فكلاً أخذنا بذنبه) .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

[البقرة : ٦٢] .

- - - - - - - - - - - -

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) لما بيّن تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال ، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) .

- هذه الآية يعني قطعاً في الأمم التي كانت قبل مبعث النبي ، فإن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب ، فمن تبع الأنبياء وقبل دعوتهم واستجاب لهم فإن الله وعده بالرحمة والجنة، وأما بعد مبعث النبي ﷺ فإن الله لا يقبل من أحد سوى الإسلام.

كما قال (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وقال النبي ﷺ (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم .

- فقد جاءت الآيات القرآنية في كفر اليهود والنصارى ، وكونهم مشركين لا يقبل الله منهم إيماناً ولا عملاً قال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

- فالمراد إذاً من الآية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ...) الإخبار عمن مضى ممن كان متمسكاً بدين حقٍّ من اليهود والنصارى والصابئين ، ومن المؤمنين بعد مبعث النبي ﷺ .

قال ابن عطية : الآية (الذين ...) لفظ عام لكل مؤمن من ملة محمد ومن غيرها من الملل، فكأن ألفاظ الآية حصر بها كلهم ، وبينت الطوائف على اختلافها ، وهذا تأويل جمهور المفسرين .

وقال ابن القيم : فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه الملل الأربع متمسكاً بها قبل النسخ بغير تبديل .

وقال السعدي : والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم ، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد ، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد e ، وأن هذا مضمون أحوالهم .

ويستدل لهذا :

ما جاء عن سلمان أنه قال (سألت النبي e عن أهل دين كنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ..) .

ولحديث عِياض بن حمار . أن رسول الله e قال في حديثه عن قبل البعثة (وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) رواه مسلم .

- وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ..) منسوخة بقوله تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين) ونسبه ابن الجوزي لجماعة من المفسرين .

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) أي آمنوا بمحمد r .

(**وَالَّذِينَ هَادُوا**) وهم اليهود ، سموا بذلك ، قيل : من التوبة كقول موسى (إنا هدنا إليك) أي تبنا إليك، وقيل : نسبة إلى يهود أكبر أولاد يعقوب ، وقيل : لأنهم يتهودون ، أي يتحركون عند القراءة.

(**وَالنَّصَارَى**) هم أتباع عيسى ، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقيل : سموا بذلك لأنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة .

(**وَالصَّابِئِينَ**) اختلف العلماء فيهم ، فقيل: هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين، وهذا قول مجاهد ، وقيل : هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ، وقيل : هم قوم يعبدون الملائكة .

- **قال ابن كثير :** وأظهر الأقوال والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتنونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذلك. وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم .

(**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**) الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده والإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته والإيمان بأسمائه وصفاته .

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بكل ما أخبر به النبي r مما يكون بعد الموت ، فيشمل ما يكون في القبر من سؤال الملكين ، وعذاب القبر ونعيمه ، والبعث ، والحشر ، والصراط ، والجزاء ، والجنة والنار ، سمي بذلك لأنه لا يوم بعده .

(**وَعَمِلَ صَالِحاً**) العمل الصالح ما اجتمع فيه شرطان : الإخلاص لله ، المتابعة للرسول e .

ودائماً يقرن الله العمل بالصالح ، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) .

قال السعدي : ووصفت أعمال الخير بالصالحات ، لأن بها تصلح أحوال العبد ، وأمور دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية والأخروية ، ويزول بها عنه فساد الأحوال ، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

الفوائد :

١ - فضل من آمن بالله واليوم الآخر مع العمل الصالح، وأنه لا خوف عليه ولا حزن وله أجر كبير عند الله.

٢ - بيان عدل الله .

٣ - أن العبرة عند الله بالإيمان والعمل الصالح .

٤ - وجوب الإيمان باليوم الآخر .

٥ - أن الإيمان بالله والعمل الصالح يطرد الخوف والقلق .

٦ - أن عدم الإيمان بالله وعدم العمل الصالح سبب للقلق والاضطراب والخوف .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

[البقرة : ٦٣-٦٤]

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له ، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق، رفع الجبل فوق رؤوسهم .

● **قال الآلوسي :** تذكير بنعمة أخرى ، لأنه سبحانه إنما فعل ذلك لمصلحتهم ، والظاهر من الميثاق هنا العهد ، ولم يقل : مواثيقكم ، لأن ما أخذ على كل واحد منهم أخذ على غيره فكان ميثاقاً واحداً ولعله كان بالانقياد لموسى عليه السلام .

● فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف في قوله تعالى (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) . نتقنا : أي رفعنا .

● **قال الشوكاني :** والطور : اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة فيه.

● **قال أبو حيان :** سبب رفعه امتناعهم من دخول الأرض المقدّسة ، أو من السجود ، أو من أخذ التوراة والتزامها .

● **قال في التسهيل :** لما جاء موسى بالتوراة أبوا أن يقبلوها فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم : إن لم تأخذوها وقع عليكم .

● **قال ابن الجوزي :** وجمهور العلماء على أنه إنما رفع الجبل عليهم لإبائهم التوراة .

● **قيل :** إن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان ، لا أنهم آمنوا كرهاً ، وقلوبهم غير مطمئنة ، قاله ابن عطية .

وقيل : أكرههم الله على الإيمان ، فآمنوا مكرهين ، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان ، وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عمن تكلم بكلمة الإسلام ، قاله الشوكاني .

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ) أي التوراة .

(بِقُوَّةٍ) أي : أي بجد وعزيمة كاملة وعدول عن التغافل والتكاسل .

(وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ) يقول: اقرؤوا ما في التوارة واعملوا به .

● **قال القرطبي :** (واذكروا مَا فِيهِ) أي : تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه.

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب ، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نَبْذٌ لها ؛ على ما قاله الشعبي وابن عُيَيْنة .

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (لعل) للتعليل ، أي : لأجل أن تتقوا الهلاك في الدنيا والآخرة .

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أي من بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه .

- **قال أبو حيان :** أي أعرضتم عن الميثاق والعمل بما فيه .

(فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) أي بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم .

(لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة .

- ونقض العهد ضرره عظيم من اللعنة وقسوة القلب كما قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً).

الفوائد :

١- أن الله أخذ العهود والمواثيق على بني آدم أن يوحدوه ويؤمنوا به .

٢- بيان قدرة الله ، حيث رفع فوقهم هذا الجبل العظيم فوقهم .

٣- وجوب أخذ الإنسان شريعة الله بقوة .

٤- الحذر من الكسل والتواني في الأعمال الصالحات وهذا ينقسم إلى قسمين :

أولاً : التواني في فعل المأمورات : بأن نتكاسل في فعل الواجبات ونتراخى في فعل المندوبات .

ثانياً : الضعف في ترك المنهيات ، بحيث يضعف الإنسان أمام الشهوة الدافعة إلى فعل المعصية .

٥- وجوب ذكر ما في الكتب السابقة، من وعد ووعيد، وترغيب وتهديد، وهذا الذكر يكون باللسان وبالعمل والتطبيق .

٦- إثبات فضل الله على بني إسرائيل .

٧- أن أخذ الشرائع بقوة وذكر ما فيها يكون سبباً للتقوى .

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) .

[البقرة : ٦٥ – ٦٦] .

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) يقول تعالى (ولقد علمتم) يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قال الرازي : المقصود من ذكر هذه القصة أمران :

الأول : إظهار معجزة محمد عليه السلام فإن قوله (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ) كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه السلام فلما أخبرهم محمد عليه السلام عن هذه الواقعة مع أنه كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه عليه السلام إنما عرفه من الوحي.

الثاني : أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت فكأنه يقول : لهم أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم .

• وقد جاءت القصة مبسوطة في سورة الأعراف ، قال تعالى (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

(**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ**) أي واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية .

(**الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**) مبنية على شاطئه بحضرته قريباً منه .

• اختلف العلماء في هذه القرية ، فقيل : هي أيلة وهذا قول الأكثر ، وقيل : مدين ، وقيل غير ذلك ، ولا يهم معرفة القرية ، وإنما المهم معرفة ما حدث لهم والاعتبار به والاتعاظ .

وملخص قصتهم : كانت هذه القرية محرم عليهم الاصطياد يوم السبت - ابتلاء واختباراً من الله - وكان يشتد قرمهم إلى لحم السمك - القَرَم بفتحتين : شهوة اللحم - وكان الله افتتنهم فتنة ، كان إذا كان يوم السبت جاءهم السمك على وجه البحر أفواجاً أفواجاً ، فإذا غربت الشمس يوم السبت تمنّع في البحر فلا يقدرون على شيء منه ، وهذا ابتلاء وامتحان لهم ، فمكثوا من الزمن بهذا ما شاء الله، ثم بعد ذلك اشتدت شهوتهم إلى اللحم، فصاروا يحتلون على السمك يوم الجمعة - مثلاً - فيحفرون فيُجرُون في الماء أخاديد يسيل فيها الماء ، فإذا انتهت حفروا حُفراً عميقة ، فإذا جاء الحوت مع تلك الأخاديد المائية نزل في الحفر فلا يقدر على الرجوع فأخذوه يوم الأحد ، وكان بعضهم — فيما يقولون — يجعل في ذنب الحوت خيطاً ويدق وتداً على الشاطئ، ويمسك رأس الخيط فيه، فيبقى الحوت في الماء ممسكاً بالخيط، فإذا غربت شمس يوم السبت جاء وأخذه، فلما فعلوا هذه الحيل ولم يعاجلهم العذاب كأنهم تجرؤا وتشجعوا وقالوا : لعل حرمة صيد السمك رفعها الله ، لأنه لم يفعل بنا بأساً ، فلم يزالوا يتدرجون في الحيل حتى صار بعضهم يصطاده علناً ويملحونه ويبيعونه في الأسواق ، وكانوا ثلاث طوائف : طائفة باشرت العدوان يوم السبت واصطياد السمك ، وطائفة نهتهم عنه ، وطائفة سكتت ، وقد بيّن الله أن الذين اعتدوا في السبت عذبهم عذاباً بئيساً وهو مسخهم قردة ، والطائفة التي نهتهم أنجاهم ، وسكت تعالى عن الطائفة الساكتة .

(**إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ**) أي يجاوزون حدود الله ، وينتهكوا أوامره باصطياد السمك يوم السبت .

(**إِذْ تَأْتِيهِمْ**) أي حين تأتيهم .

(**حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً**) أي: تأتي يوم السبت مقبلة ظاهرة على وجه الماء كأنه صفوف كثيرة حتى تستر وجه الماء من كثرتها.

(**وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ**) أي وفي غير يوم السبت — وهي سائر الأيام — لا تأتيهم ، بل تغيب عنهم وتختفي .

(**كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**) أي كذلك نختبرهم بسبب كونهم فاسقين ، فقد ابتُلوا بالطمع ولم ينجحوا ، وقد ابتلوا بالخوف ولم ينجحوا .

(**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً**) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة (لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ) إهلاك: استئصال (أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً) لجراءتهم عليه وانتهاكهم حرماته.

(**قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ**) قال الناهون : أي وعظناهم لأجل المعذرة عند الله وإقامة الحجة .

(**وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) ولرجائنا أيضاً أن تؤثر فيهم الموعظة فيتقوا الله ويكفوا عن ما هم مصرون عليه من ارتكاب هذا الذنب العظيم .

(**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ**) أي فلما تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم وأعرضوا عن قبول النصيحة .

- والمراد بالنسيان هنا الترك كما قال تعالى (نسوا الله فنسيهم) أي تركوه فتركهم ، لأن الله لا ينسى كما قال تعالى (قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) .

(**أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ**) أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض .

(**وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا**) أي ارتكبوا الجريمة وعصوا الله واصطادوا السمك في السبت .

(**بِعَذَابٍ بَئِيسٍ**) البئيس : العذاب الشديد العظيم الذي وقْعه شديد على صاحبه .

(**بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**) أي بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله .

(فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ) أي فلما تمردوا وتكبروا عن ترك ما نُهوا عنه وهو صيد السمك يوم السبت.

(**قُلْنَا لَهُمْ**) صيغة الجمع للتعظيم ، والقائل هو الله .

(**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**) فأصبحوا قردة خاسئين . والخاسئ : هو الحقير الذليل الخسيس .

- **قال الشنقيطي :** القردة : جمع قرد ، وهو الحيوان المعروف ، وهو من أخس الحيوانات ، والدليل على أنه من أخس الحيوانات أن الله مسخ في صورته من أراد إذلالهم وإهانتهم وصغارهم ، وهذا معروف أن القرد من أخس الحيوانات .

- اختلف العلماء هل هذا المسخ كان حقيقة أم كان معنوياً، **والصحيح** أنه كان حسياً فصاروا قردة، وهذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد : مسخت قلوبهم ولم تمسخ صورهم ، قال القرطبي : ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم .

(**فَجَعَلْنَاهَا**) اختلف في مرجع الضمير على أقوال :

قيل : العقوبة ، **وقيل :** القردة ، **وقيل :** القرية ، ورجحه ابن كثير ، وقال : والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم .

- **وقال القرطبي :** قوله تعالى (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً) نصب على المفعول الثاني ، وفي المجعول نكالاً أقاويل :

قيل : العقوبة ، **وقيل :** القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها ، **وقيل :** الأمّة التي مُسِخت ، **وقيل :** الحِيتان ؛ وفيه بُعْدٌ.

(**نَكَالاً**) أي عاقبناها عقوبة فجعلناها عبرة .

- **قال القرطبي :** والنّكال : الزجر والعقاب ، والنِّكْل والأنكال : القيود ، وسُمِّيت القيود أنكالاً لأنها يُنْكل بها ، أي يمنع ، والتّنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَكِّل مَن وراءهم ؛ أي تُجَبِّنهم .

(**لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا**) اختلف العلماء في المراد في قوله : بين يديها وما خلفها ، والصحيح : بين يديها أي من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حل بها كما قال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) فجعلهم عبرة ونكالاً لمن في زمانهم ، وما خلفها : من يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم .

(**وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**) المراد بالموعظة هنا الزاجر ، أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل ، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم .

- **قال الرازي :** (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) أن : من عرف الأمر الذي نزل بهم يتعظ به ويخاف إن فعل مثل فعلهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، وإن لم ينزل عاجلاً فلا بد من أن يخاف من العقاب الآجل الذي هو أعظم وأدوم .

• **وقال الآلوسى :** (وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) الموعظة ما يذكر مما يلين القلب ثواباً كان أو عقاباً .

الفوائد :

١- تحريم الحيل المحرمة وأن ذلك من صفات اليهود .

والحيلة : التوصل إلى أمر محرم بفعلٍ ظاهره الإباحة ، والحيل حرام لقوله e (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) ولأن المتحيل فيه نوع استهزاء بالله تعالى .

كل من تحيل لارتكاب محرم [إما بإسقاط واجب أو فعل محرم] فقد ارتكب مفسدتين :

الأولى : مفسدة التحايل . **الثانية :** مفسدة فعل المحرم .

إسقاط واجب : سافر من أجل أن يفطر ، [فعل محرم] قلب الدين كما سبق .

وقد دل على التحريم أدلة كثيرة :

منها : الآية التي معنا حيث عاقبهم الله ومسخهم قردة .

ومنها : قوله e (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) رواه ابن أبي بطة .

ومنها : أن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به في سورة (القلم) وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهو نائمون فأصبحت كالصريم ، وذلك لما تحيلوا على إسقاط نصيب المساكين ، بأن يصرموها مصبحين ، قبل مجيء المساكين ، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده .

في الآية (قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) بيان الحكمة من الأمر بالمعرف والنهي .

قال الشنقيطي : وهذه الآية جاء فيها بيان حكمتين من حكَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن استقراء القرآن دل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له ثلاث حكم ، تضمنت هذه الآية من سورة الأعراف من تلك الحكم الثلاث اثنتين ، فالحكم الثلاث :

الأولى : أن يقيم الإنسان عذره أمام ربه ، ويخرج بذلك من عهدة التقصير في الأمر بالمعروف لئلا يدخل في قوله (كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

وهذه الحكمة أشار لها بقوله (مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ) .

الحكمة الثانية : هي رجاء انتفاع المذَكَّر .

كما قال هنا عنهم (وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ، وذكر الله هذه الحكمة في قوله (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) .

الحكمة الثالثة : هي إقامة الحجة لله على خلقه في أرضه نيابة عن رسله .

لأن الله يقول (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) فأهل العلم يقيمون حجة الله على خلقه بإقامة الحجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢- أن إقامة شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للنجاة .

لقوله تعالى هنا (وأَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) .

وعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ e قَالَ (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا . فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً) رواه البخاري .

٣- تذكير الأمة بما فعل أسلافها ليتخذوا من ذلك عبرة .

٤- وجوب الاعتبار بقصص من مضى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

٥- أن الحيل من صفات اليهود .

٦- أن العقوبة تكون مجانسة للعمل ، فهؤلاء القوم لما تحيلوا على فعل المحرم بما ظاهره الإباحة ، قلبهم الله إلى أقرب الحيوانات شبهاً بالإنسان وهي القردة .

٧- بيان قدرة الله حيث قلب هؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية .

٨- إثبات العقوبة وأن العقوبة لابد أن لها تاثيراً .

٩- أن الموعظة إنما ينتفع بها المتقون ، فمن ليس بمتقٍ لا ينتفع بالموعظة ، فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أوعى للموعظة وأكثر انتفاعاً بها .

١٠- أن من فوائد التقوى أن صاحبها يتعظ ويعتبر بما يحصل .

١١- فضل التقوى .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوۤاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ . قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ . قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ . قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ . وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَٱدَّارَأْتُم فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

[البقرة : ٦٧ – ٧٣] .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً) أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .) أي : وتضربوا القتيل ببعضها فيحيا ، فيخبركم عن قاتله.

- **قال ابن عاشور :** تعرضت هذه الآية لقصة من قصص بني إسرائيل ظهر فيها من قلة التوقير لنبيهم ومن الإعنات في المسألة والإلحاح فيها إما للتفصي من الامتثال وإما لبعد أفهامهم عن مقصد الشارع وورمهم التوقيف على ما لاقصد إليه.

وسبب ذلك : أنه وجد قتيل في بني إسرائيل ولا يعرف قاتله ، فأتوا موسى وطلبوا منه أن يسأل ربه عن قاتله ، فأمرهم بذبح بقرة فقال (أن تذبحوا بقرة) .

وظاهر هذه الآية يدل على أنهم لو ذبحوا أيّ بقرة لأجزأت ، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم .

(قَالُوۤاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً) هذا جواب منهم لموسى لما قال لهم (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً) .

والهزء : اللعب والسخرية .

(قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ) لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ، فاستعاذ منه عليه الصلاة والسلام ، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء .

قال أبو حيان (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) لما فهم موسى عليه السلام عنهم أن تلك المقالة التي صدرت عنهم إنما هي لاعتقادهم فيها أنه أخبر عن الله بما لم يأمر به ، استعاذ بالله وهو الذي أخبر عنه ، أن يكون من الجاهلين بالله ، فيخبر عنه بأمر لم يأمر به تعالى ، إذ الإخبار عن الله تعالى بما لم يخبر به الله إنما يكون ذلك من الجهل بالله تعالى.

- وفي الآية دليل على أن الذي يستهزئ بالناس جاهل سفيه .

(**قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ**) أي ما سنها .

قال الشنقيطي : لم يبين هنا مقصودهم بقولهم (ما هي) إلا أن جواب سؤالهم دل على أن مرادهم بقولهم في الموضع الأول (ما هي) أي ما سنها .

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ، لهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعَبِيدَة وغير واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) أي ما هذه البقرة وأي شيء صفتها .

قال ابن عباس : لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم .

وقال ابن جريج : قال لي عطاء (لو أخذوا أدنى بقرة لكفتهم) .

- **قال القرطبي :** هذا تعنيت منهم وقلّة طواعية؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما.

(**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ**) أي : لا كبيرة هرِمَة ، ولا صغيرة لم يلْقَحْها الفحل .

(**عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ**) أي وسط بين الكبيرة والصغيرة .

(**فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ**) أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشددوا فيشدد الله عليكم .

- **قال القرطبي :**(فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ) تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فما تركوه.

وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه .

(**قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ**) أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة ، ولذلك أكد صفرتها بقوله :

(**فَاقِعٌ لَّوْنُهَا**) شديدة الصفرة .

- **قال ابن عاشور :** سألوا بـ (ما) عن ماهية اللون وجنسه لأنه ثاني شيء تتعلق به أغراض الراغبين في الحيوان .

وما ذهب إليه بعض العلماء من أن المراد بالصفرة (السواد) مردود من وجهين :

أحدهما : أنه أكّد الصفرة بقوله (فاقع لونها) والفقوع لا يوصف به إلا الصفرة الخالصة تماماً .

ثانيهما : أن العرب لا تُطلق الصفرة وتريد السواد إلا في الإبل خاصة دون غيرها .

- **قال الماوردي :** حُكِيَ عن الحسن البصري ، أن المراد بقوله صفراء ، أي سوداء شديدة السواد ، وقال سائر المفسرين : إنها صفراء اللون ، من الصفرة المعروفة ، وهو أصح ، لأنه الظاهر ، ولأنه قال (فَاقِعٌ لَّوْنُهَا) والفاقع من صفات الصفرة ، وليس يوصف السواد بذلك ، وإنما يقال : أسود حالكٌ ، وأحمر قانٍ ، وأبيضُ ناصعٌ ، وأخضرُ ناضرٌ ، وأصفرُ فاقعٌ.

(**تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ**) تعجب الناظرين .

(**قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا**) أي لكثرتها ، فميّز لنا هذه البقرة ووصفها وجلّها لنا .

- **قال الآلوسى :** (إِنَّ البقر تشابه عَلَيْنَا) تعليل لقوله تعالى (ادع) كما في قوله تعالى (صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلاتك سَكَنٌ لَّهُمْ) وهو اعتذار لتكرير السؤال أي إن البقر الموصوف بما ذكر كثير فاشتبه علينا ، والتشابه مشهور في البقر ، وفي الحديث (فتن كوجوه البقر) أي يشبه بعضها بعضاً .

(وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) إذا بينتها لنا، وقد جاء في حديث مرفوع (لولا أن بني إسرائيل قالوا: وإنا إن شاء الله لمهتدون، لما أعطوا، ولكن استثنوا) .

- **قال ابن عاشور :** وقولهم (وإنا إن شاء الله لمهتدون) تنشيط لموسى ووعد له بالامتثال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان ولتندفع عنه سآمة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله (فافعلوا ما تؤمرون) ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإعنات ، تفادياً من غضب موسى عليهم ، والتعليق بـ(إن شاء الله) للتأدب مع الله في رد الأمر إليه في طلب حصول الخير .

(قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي ٱلْحَرْثَ) أي إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقي في الساقية، بل هي مكرمة حسنة .

(مُسَلَّمَةٌ) أي لا عيب فيها ، ليس فيها عرج ولا عور ولا كسر قرن .

(لاَّ شِيَةَ فِيهَا) أي ليس فيها لون غير لونها .

قال ابن كثير : وقد زعم بعضهم أن المعنى في ذلك قوله تعالى (إنها بقرة لا ذلول) ليست بمذللة بالعمل، ثم استأنف فقال (تثير الأرض) أي يعمل عليها بالحراثة، لكنها لا تسقي الحرث، وهذا ضعيف لأنه فسر الذلول التي لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث، كذا قرره القرطبي .

(قَالُواْ ٱلآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ) أي : الآن بينت لنا .

- **قال ابن القيم :** من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم (قَالُواْ ٱلآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ) فإن أرادوا بذلك : أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة ، فتلك ردةٌ وكفر ظاهر ، وإن أرادوا : إنك الآن بيّنت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر ، فإن البيان قد حصل بقوله (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) .

(فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ) عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها.

- **قال ابن كثير :** يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد ، وفي هذا ذم لهم ، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها .

وقيل : فذبحوها وما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها ، وفي هذا نظر .

وقيل : أنهم كادوا ألا يذبحوها خوفاً من الفضيحة التي ستحل بالقاتل وقومه .

ورجح ذلك ابن جرير فقال : والصواب من التأويل عندنا أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة للخلتين كلتيهما، **إحداهما :** غلاء ثمنها، مع ما ذكر لنا من صغر خطرها وقلة قيمتها ، **والأخرى:** خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم بإظهار نبي الله موسى على قاتله .

(وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَٱدَّارَأْتُمْ فِيهَا) أي وإذ قتلتم نفساً محرمة فاختلفتم فيها، فبين الله ما حصل بواسطة هذه البقرة التي ذبحت.

هذه الآية مؤخرة في التلاوة ، مقدمة في المعنى ، لأن السبب في الأمر بذبح البقرة قتل النفس ، فتقدير الكلام : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، فسألتم موسى فقال (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً) .

قال القرطبي : قوله تعالى (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادارأتم فِيهَا) هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة ، التقدير : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها : فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا ، وهذا كقوله (الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً) أي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّماً وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ؛ ومثله كثير .

نفساً: لم يصرح هل هذه النفس ذكر أم أنثى ، وقد أشار إلى أنها ذكر بقوله تعالى (فقلنا اضربوه ..).

(**وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**) أي مظهر ما تخفونه .

والآية تدل على أن من فعل سوءاً وكتمه أن الله يظهره ، فلا يسر الإنسان سريرة – غالباً – إلا ألبسه الله رداءها .

(**فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ**) أي : اضربوا القتيل ، وصيغة الجمع للتعظيم .

(**بِبَعْضِهَا**) أي ببعض البقرة ، وهذا البعض لم يحدد ، فأي شيء ضرب به حصلت المعجزة .

قال الرازي : في الكلام محذوف والتقدير ، فقلنا اضربوه ببعضها فضربوه ببعضها فحيي إلا أنه حذف ذلك لدلالة قوله تعالى (كذلك يُحْيِ الله الموتى) .

قال ابن كثير : هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن ، وقد كان معيناً في نفس الأمر ، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا ، ولكنه أبهمه ولم يجي من طريق صحيح عن معصوم بيانه ، فنحن نبهمه كما أبهمه الله .

قال الشوكاني : واختلف في تعيين البعض الذي أمروا أن يضربوا القتيل به ، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفينا أن نقول : أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها، فأيّ : بعض ضربوا به، فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا ، فهو من فضول العلم ، إذ لم يرد به برهان.

فلما ضربوه ببعضها قام فقالوا من قتلك ؟ قال : قتلني فلان .

(**كَذَلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ**) أي : كما أحيا الله هذا القتيل ، وهذا الجم الغفير من الناس ينظرون ، كذلك الإحياء المشاهد يحيي الله الموتى يوم القيامة .

فهو دليل قرآني على البعث ، لأن من أحيا نفساً واحدة فهو قادر على إحياء جميع النفوس ، وقد قال تعالى (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ**) أي : يجعلكم ترونها واضحة .

قال القاسمي : (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) أي : دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير ، ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء . والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت . وإخباره بقاتله ، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة .

وسبق أن آيات الله تنقسم إلى قسمين كونية، كالشمس والقمر والليل والنهار، ومعنى أنها آية : أي علامة على كمال قدرة الله .

وآيات شرعية : كالوحي المنزل كقوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) أي : آياته الدينية الشرعية ، سميت [الآية الشرعية] آية لأنها علامة على صدق من جاء بها لما فيها من الإعجاز .

(**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) أي : لأجل أن تدركوا بعقولكم أنه – جل وعلا – يحيي الناس بعد الموت ، ويبعثهم من قبورهم ، وأنه قادر على كل شيء .

- **قال الشنقيطي :** أشار في هذه الآية إلى أن إحياء قتيل بني إسرائيل دليل على بعث الناس بعد الموت ، لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها ، قادر على إحياء جميع النفوس ، وقد صرح بهذا في قوله تعالى (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) .
- **والله تعالى قد ذكر في هذه السورة خمس قصص تدل على البعث :**

الموضع الأول : قصة بني إسرائيل التي سبقت (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

الموضع الثاني : هذا الموضع (فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

الموضع الثالث : قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) .

الموضع الرابع : قوله تعالى في عزير وحماره (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الموضع الخامس : قوله تعالى في طيور إبراهيم (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

في هذه الآية ذكر الله تعالى طريقة من طرق إثبات البعث، وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق:

الطريقة الأولى :

آيات صريحة في إثبات ذلك :

قال تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) .وقال تعالى : (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) .وقال تعالى : (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) . وقال تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .وقال تعالى : (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد :

فقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ) .

وقال تعالى : (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) .

وقال تعالى : (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

وذم الله المكذبين بالمعاد :

فقال تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

وقال تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً) .

الطريقة الثانية :

التذكير بنشأة الإنسان الأولى :

قال تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) .

وقال تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

الطريقة الثالثة :

الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات :

قال تعالى : (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الرابعة :

الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات :

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الخامسة :

تنزيه الله سبحانه عن العبث .

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث ، فما فائدة الأوامر والنواهي .

قال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) .

وقال تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) . أي : لا يؤمر ولا ينهى ، وقيل لا يبعث .

الطريقة السادسة :

تنزيه الله عن الظلم :

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس ، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه ، والكافر لا يعرف ربه أصلاً .

قال تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ) .

الطريقة السابعة :

ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث .

كما في قصة قتيل بني إسرائيل .

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها .

وقصة إبراهيم u والطيور الأربعة .

وقصة أصحاب الكهف ، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، قال تعالى في قصتهم : (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ ...) .

الفوائد :

١ - أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله e .

٢- الدلالة على نبوة موسى ، وأنه رسول رب العالمين .

٣- الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم : من معاد الأبدان ، وقيام الموتى من قبورهم .

٤- إثبات الفاعل المختار ، وأنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، عدلٌ لا يجوز عليه الظلم والجور ، حكيم لا يجوز عليه العبث .

٥- إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق والمتنوعات، زيادته في هداية المهتدي، وإعذاراً وإنذاراً للضال.

٦- أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله بالتعنت وكثرة الأسئلة بل يبادر إلى الامتثال .

٧- أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور وجه الحكمة فيه بالإنكار ، وذلك نوع من الكفر .

٨- الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها وعدم تمكن الإيمان فيها .

٩- مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدراً، فإن القاتل قصده ميراث المقتول ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول .

٧- الرجوع إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأمور الهامة التي طريقها الشرع .

٨- بيان ما عليه بنو إسرائيل من سوء الظن بموسى .

٩- تحريم الاستهزاء والسخرية .

١٠- أن الأنبياء لا يلجئون إلا إلى الله .

١١- أن الله مجيب الدعاء .

١٢- أن القاتل لابد أن يخرجه الله .

١٣- أن الله أرى عباده من آياته ما يكون به العقل والرشد .

١٤- أن تدبر الأسباب سبب للعقل .

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .
[البقرة : ٧٤] .

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ) يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه القتيل (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أي : أصبحت قاسية غليظة لا تتأثر بمواعظ ولا يدخلها خير .

(مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أي : من بعد ذلك الأمر الذي عاينتموه ، وهو إحياء القتيل ، الذي هو أعظم سبب للين القلب .

قال في التسهيل (مِّن بَعْدِ ذلك) أي بعد إحياء القتيل وما جرى في القصة من العجائب ، وذلك بيان لقبح قسوة قلوبهم بعد ما رأوا تلك الآيات .

- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (من بعد ذلك) زيادة تعجيب من طرق القساوة للقلب بعد تكرر جميع الآيات السابقة المشار إلى مجموعها بذلك .
- معنى قسوة القلب : غلظتها وشدتها بحيث لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير .
- **قال القرطبي :** القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس ، وهي عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى.
- وقد بين تعالى سبب قسوة القلب في آيات أخرى ومنها : نقض العهد ، وطول الأمل .

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) .

وقال تعالى في طول الأمل (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) .

- وقد نهانا الله تعالى أن نتشبه بأهل الكتاب في قسوة قلوبهم كما في الآية السابقة ، فوصف أهل الكتاب بالقسوة ونهانا عن التشبه بهم .

- أسباب قسوة القلب :

أولاً : نقض العهد مع الله .

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) .

قال ابن عقيل يوماً في موعظته : يا من يجد في قلبه قسوة ، احذر أن تكون نقضت عهداً ، فإن الله يقول (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...) .

الثاني : طول الأمل .

قال تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) .

ولذلك طول الأمل ينسي الآخرة ، كما قال علي : أخوف ما أخاف عليكم اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى ، فطول الأمل ينسي الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق .

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل) .

الثالث : كثرة الأكل ، لا سيما إن كان من الشبهات أو الشهوات .

قال بشر : خصلتان تقسّيان القلب : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل .

الرابع : كثرة الذنوب .

قال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وفي المسند قال e (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، فلذلك الران الذي ذكر الله في كتابه : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

قال بعض السلف : البدن إذا عري رقّ ، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعته .

قال ابن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب ويورث الذل إدمانها .

وترْك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها .

- **علامات رقة ولين القلب :**

أولاً : الإكثار من ذكر الله .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .

قال رجل للحسن ، يا أبا سعيد ، أشكو إليك قسوة قلبي ، قال : أذبه بذكر الله .

قال بعض السلف : دواء القلب من خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين .

ثانياً : العطف على المسكين .

فقد جاء رجل إلى النبي e يشكو قسوة قلبه ؟ فقال له الرسول e : (إذا أحببت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين) رواه أحمد .

ثالثاً : زيارة المقابر .

قال e : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة ، وترق القلب) رواه أحمد .

إذا قسا القلب قحطت العين .

رابعاً : كثرة ذكر الموت .

ولذلك قال e (أكثروا من ذكر هاذم اللذات) رواه الترمذي .

لما في ذلك من رقة القلب ، ونشاط العبادة ، وتعجيل التوبة ، والإقلاع عن المعاصي .

قال سعيد بن جبير : لو فارق الموت ذكر قلبي لفسد .

خامساً : أكل الحلال .

قال الفضيل : من عرف ما يدخل جوفه كتب عند الله صديقاً .

وقال سهل التستري: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى .

وسُئِل الإمام أحمد رحمه الله: بِمَ تلين القلوب؟ قال : بأكل الحلال .

سادساً : الدعاء بسلامة القلب .

كان e يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..) رواه أحمد .

سابعاً : الاستجابة لأمر الله ورسوله .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) (سورة الأنفال: من الآية ٢٤) .

- **قال ابن القيم :** ما ضربَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله .

خلقت النار لإذابة القلوب القاسية .

أبعد القلوب من الله القلب القاسي .

إذا قسا القلب قحطت العين .

قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة : الأكل والنوم والكلام والمخالطة .

كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ .

(**فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ**) أي : فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً ، فلا علاج للينها .

- **قال البغوي :** وإنما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة ، لأن الحديد قابل للين فإنه يلين بالنار ، وقد لان لداود عليه السلام ، والحجارة لا تلين قط .

- **وقال ابن عاشور :** وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر لأنها محسوسة فلذلك شبه بها .

(**أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**) أجمع العلماء على أن (أو) ليست للشك لاستحالة ذلك في حق الله ، واختلف في معناها .

فقيل : هي بمعنى (بل) والتقدير فهي كالحجارة بل أشد قسوة .

كقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) أي : بل يزيدون .

وقيل : هي بمعنى (الواو) والتقدير : فهي كالحجارة وأشد قسوة .

كقوله تعالى (ولا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً) أي : وكفوراً .

وكقوله تعالى (وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لبعولتهن أو آبائهن) والمعنى وآبائهن .

وكقوله (أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم) يعني وبيوت آبائكم .

وقيل : معنى ذلك قلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين ، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها في القسوة .

قال ابن جرير : ومعنى ذلك على هذا التأويل : فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة ، ورجحه ابن جرير .

(وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) أي : تتدفق منها الأنهار الغزيرة .

(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ) أي : ومن الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء .

(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) أي : ومنها ما يتفتت ويتردى من رؤوس الجبال من خشية الله .

- قال بعض العلماء في قوله (مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) هو سقوط البرد من السحاب ، لكن هذا تأويل بعيد ، وخروج عن اللفظ عن ظاهره بلا دليل ، وزعم بعضهم أن إسناد الخشوع إلى الحجارة من باب المجاز ، ولكن هذا قول ضعيف ، قال القرطبي : ولا حاجة إلى هذا ، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة .

كما في قوله تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقوله تعالى (وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) .

وقوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) .

وقوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) .

وقال e (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي) رواه مسلم .

وقال e (أحد جبل يحبنا ونحبه) متفق عليه .

وقد حن الجذع لرسول الله e .

وقد سبح الحصى في يد رسول الله e .

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) أي : أنه تعالى رقيب على أعمالكم لا يخفي عليه خافية ، وسيجازيهم عليها ، وفي هذا وعيد وتهديد .

- **قال القاسمي :** وقوله تعالى (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى. فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه ، مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد .
- والغفلة صفة منفية فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها ، فالله لا يغفل لكمال علمه .

الفوائد :

١- التحذير من قسوة القلب .

٢- أن قسوة القلب من صفات اليهود ، فيجب الحذر منها .

٣- يجب الابتعاد عن كل سبب يؤدي إلى قسوة القلب .
٤- التحذير من قسوة القلب بعد ظهور الآيات ، لأنه أعظم شراً وأكبر إثماً .
٥- أن قلوب بني إسرائيل التي قست كالحجارة أو أشد .
٦- عموم رقابة الله عز وجل على كل شيء ، ولا يفوته شيء ولا يخفى عليه شيء .
٧- أن الغفلة من الصفات المنفية عن الله وذلك لكمال علمه سبحانه .
٨- تهديد العصاة ، بأن الله لا يغفل عنهم .

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ . أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) .
[البقرة : ٧٥ – ٧٩] .

(**أَفَتَطْمَعُونَ**) أيها المؤمنون .
(**أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**) أي : ينقاد لكم بالطاعة ، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود ، الذين شاهدوا من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك .

- قال القاسمي (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) أي : هؤلاء اليهود الذين بين أظهركم ، وهم متماثلون في الأخلاق الذميمة ، لا يأتي من أخلاقهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم .
- **قال القرطبي :** قوله تعالى (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ) هذا استفهام فيه معنى الإنكار ، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود ؛ أي إن كفروا فلهم سابقة في ذلك.

والخطاب لأصحاب النبيّ e ، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجِوار الذي كان بينهم.
وقيل : الخطاب للنبيّ e خاصة .
أي لا تحزن على تكذيبهم إياك ، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا.

- **قال الرازي :** المراد بقوله (أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ) هم اليهود الذين كانوا في زمن الرسول عليه السلام لأنهم الذين يصح فيهم الطمع في أن يؤمنوا وخلافه لأن الطمع إنما يصح في المستقبل لا في الواقع .
- **قال ابن عاشور :** فإن قلت ، كيف يُنهى عن الطمع في إيمانهم أو يُعَجَّب به والنبي والمسلمون مأمورون بدعوة أولئك إلى الإيمان دائماً ؟ وهل لمعنى هذه الآية ارتباط بمسألة التكليف بالمحال الذي استحالته لتعلق عِلْمِ الله بعدم وقوعه ؟

قلت : إنما نُهينا عن الطمع في إيمانهم لا عن دعائهم للإيمان لأننا ندعوهم للإيمان وإن كنا آيسين منه لإقامة الحجة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم وفي الآخرة أيضاً ، ولأن الدعوة إلى الحق قد تصادف نفساً نيّرة فتنفعها ، فإن استبعاد إيمانه حُكم على غالبهم وجَمْهَرتهم أما الدعوة فإنها تقع على كل فرد منهم.
(**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ**) اختلف العلماء في المراد بكلام الله هنا :
فقيل : المراد السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام ، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقولهم .

وضعف هذا القول بعض العلماء ، لأن فيها (إذهابا) لفضيلة موسى في اختصاصه (بالتّكليم .

وقيل : المراد بكلام الله التوراة ، حرفوا ما فيها من الأحكام ونعت محمداً e ، وهذا الصحيح ، ورجحه القرطبي وابن كثير وابن الجوزي .

قال أبو العالية : عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد e فحرفوه عن مواضعه .

- **قال الماوردي :** قوله تعالى (...وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُم يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ) في ذلك قولان :

أحدهما : أنهم علماء اليهود والذين يحرفونه التوراة فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً ابتاعاً لأهوائهم وإعانة لراشيهم وهذا قول مجاهد والسدي .

والثاني : أنهم الذين اختارهم موسى من قومه ، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقومهم ، وهذا قول الربيع بن أنس وابن إسحاق.

وقال ابن الجوزي : وفي سماعهم لكلام الله قولان :

أحدهما : أنهم قرؤوا التوراة فحرّفوها ، هذا قول مجاهد والسدي في آخرين ، فيكون سماعهم لكلام الله بتبليغ نبيهم ، وتحريفهم : تغيير ما فيها .

والثاني : أنهم السبعون الذين اختارهم موسى، فسمعوا كلام الله كفاحاً عند الجبل، فلما جاؤوا إلى قومهم قالوا : قال لنا : كذا وكذا ، وقال في آخر قوله: إن لم تستطيعوا ترك ما أنهاكم عنه؛ فافعلوا ما تستطيعون . هذا قول مقاتل، والأول أصح . وقد أنكر بعض أهل العلم ، منهم الترمذي صاحب «النوادر» هذا القول إنكاراً شديداً ، وقال : إنما خص بالكلام موسى وحده ، وإلا فأي ميزة؟! وجعل هذا من الأحاديث التي رواها الكلبي وكان كذاباً .

- قوله تعالى (ثم يحرفونه) فالمراد بالتحريف إخراج الوحي والشريعة عما جاءت به ، إما بتبديل وهو قليل وإما بكتمان بعض وتناسيه وإما بالتأويل البعيد وهو أكثر أنواع التحريف . (قاله ابن عاشور) .

(**مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**) أي : من بعد ما فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة .

(**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) .

(**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا**) تقدم ، قيل : المراد بهم المنافقين من اليهود ، وقيل : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، قاله بعض السلف .

والمعنى : أن هذه الطائفة من المنافقين إذا اجتمعوا بالمؤمنين – النبي e وأصحابه – (قَالُوا آمَنَّا) وذكروا لهم أنهم آمنوا ، وبيّنوا لهم أن النبي المنتظر المبشر به ، أن صفاته الموجودة في كتبهم منطبقة على هذا النبي e .

(**وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**) أي : وإذا انفرد واختلى بعضهم ببعض ، ورجعوا إلى أصحابهم ، وكان الموضع خالياً من المؤمنين .

(**قَالُوا**) يعني : أصحابهم الذين لم ينافقوا ، قالوا منكرين على الذين نافقوا وموبخين لهم :

(**أَتُحَدِّثُونَهُمْ**) أي : أتحدّثون المؤمنين وأصحابه .

(**بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**) أي : بما بيّن الله لكم في التوراة من صفة محمد e ، وأن هذه صفاته ، وأنها منطبقة عليه ، وأنه لا شك فيه .

(**لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ**) بهذا الإقرار .

(**عِنْدَ رَبِّكُمْ**) أنكم أقررتم بأنكم تعرفون أنه الحق ، يوم القيامة .

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**) هذا من بقية مقولهم لقومهم .

والمعنى أي : أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم ؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم .

- **قال الرازي :** قوله (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) ففيه وجوه :

أحدها : أنه يرجع إلى المؤمنين فكأنه تعالى قال : أفلا تعقلون لما ذكرته لكم من صفتهم أن الأمر لا مطمع لكم في إيمانهم ، وهو قول الحسن.

وثانيها : أنه راجع إليهم فكأن عند ما خلا بعضهم ببعض قالوا لهم أتحدثونهم بما يرجع وباله عليكم وتصيرون محجوجين به ، أفلا تعقلون أن ذلك لا يليق بما أنتم عليه ، وهذا الوجه أظهر لأنه من تمام الحكاية عنهم فلا وجه لصرفه عنهم إلى غيرهم .

- **وقال الطبري :** قوله (أفلا تعقلون) خبر من الله تعالى ذكره - عن اليهود اللائمين إخوانهم على ما أخبروا أصحاب رسول الله e بما فتح الله لهم عليهم - أنهم قالوا لهم : أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون، أن إخباركم أصحاب النبي e بما في كتبكم أنه نبي مبعوث ، حجة لهم عليكم عند ربكم ، يحتجون بها عليكم ؟ أي : فلا تفعلوا ذلك ، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم ، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك. فقال جل ثناؤه : (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) .

- وهذا يدل على أنهم في غاية الجهل ، لأنهم لو كتموه ، أليس الله عالماً بما في ضمائرهم ؟ ولذلك وبخهم الله بقوله :

(**أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**) أي : أولا يعلمون هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفونه وما يظهرونه ، والمعنى : أن إسرارهم وإعلانهم عند الله سواء ، لأن الله يعلم السر وأخفى ، السر عنده علانية .

- فالله تعالى يعلم ما يسرونه ويبطنونه وما يعلنونه .

- **قال ابن عطية :** والذي أسروه كفرهم ، والذي أعلنوه قولهم آمنا ، هذا في سائر اليهود ، والذي أسره الأحبار صفة محمد e والمعرفة به ، والذي أعلنوه الجحد به ، ولفظ الآية يعم الجميع .

قال أبو العالية : يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد e وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم .

وقال الحسن : كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد e وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد بما فتح الله عليهم بما في كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد e بما في كتابهم عند ربهم (وما يعلنون) أي: حين قالوا لأصحاب محمد e آمنا .

- ثم ذكر الله تعالى طائفة ثالثة ، وهي الطائفة الجاهلة التي لا تدري ، وإنما تسمع كلاماً فتقلد فيه تقليداً أعمى : فقال :

(**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ**) أي : ومن أهل الكتاب أميون .

- والأمي : جمع أمي ، وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة .

- **قال ابن الجوزي :** وفي تسميته بالأمي قولان :

أحدهما : لأنه على خلقة الأمة التي لم تتعلم الكتاب ، فهو على جبلته ، قاله الزجاج .

والثاني : أنه ينسب إلى أمه ، لأن الكتابة في الرجال كانت دون النساء . وقيل : لأنه على ما ولدته أمه .

(**لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ**) أي : لا يدرون ما فيه .

(**إِلَّا أَمَانِيَّ**) اختلف العلماء في المراد بالأماني هنا على قولين :

أحدهما : أن المراد بالأمنية القراءة ، أي : لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ دون إدراك معانيها .

واستشهد على ذلك بقوله تعالى (إِلَّا إِذَا تَمَنَّى) أي : تلا (أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ..) .

ويكون الأماني هنا جمع أمنِيّة .

- **قال الشنقيطي :** وهذا القول لا يتناسب مع قوله (ومنهم أميون) لأن الأمي لا يقرأ .

والثاني : أن الاستثناء منقطع ، والمعنى : لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أماني باطلة ، لأن الأماني ليست من الكتابة ، وهذا قول جمهور العلماء .

ويكون الأماني – على هذا القول - جمع أُمْنِيَة، والأمنيَة هي : أن يود الإنسان ويطلب ما لا يمكن وقوعه أو ما يبعد وقوعه جداً ، كقول الشاعر :

ألا ليت الشبابَ يعود يوماً   فأخبره بما فعل المشيبُ .

فهم يتمنون أماني فقط :

كقوله تعالى عنهم (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) .

وقوله تعالى (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً) .

وقوله تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) .

وهذا القول هو الراجح ، وفي الآية قرينة تدل على هذا القول وهي قوله (ومنهم أميون) والأمي هو الذي لا يقرأ ، فلو فسرتْ (إلا أماني) بمعنى إلا قراءة لصار في ذلك تعارض

(وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) أي : ما هم على يقين من أمرهم بل هم مقلدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء .

- قال الشنقيطي : والظن يطلق إطلاقين ، يطلق على الشك ، وهو المراد هنا ، وكما في قوله e (إياكم والظن ...) وهناك إطلاق آخر .

- ثم ذكر تعالى صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب وأكل أموال الناس بالباطل فقال :

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) أي : هلاك وعذاب لأولئك الذين حرفوا التوراة ، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم .

- فمعنى (يكتبونه) أي : يكتبونه كتابة محرفة .

- الويل : قيل : واد في جهنم ، وقيل : جبل من نار ، وقيل : كلمة تهديد ووعيد .

- قوله تعالى (يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) تأكيد ، فإنه قد علم أن الكتْب لا يكون إلا باليد ، فهو مثل قوله تعالى (وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) وقوله تعالى (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ) .

وقيل فائدة (بِأَيْدِيهِمْ) بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم ، فإن من تولى الفعل أشد مواقعة ممن لم يتولى وإن كان رأياً له .

- **قال في التسهيل :** (بِأَيْدِيهِمْ) تحقيق لافترائهم .

- **قال الشوكاني :** وقوله (بِأَيْدِيهِمْ) تأكيد؛ لأن الكتابة لا تكون إلا باليد ، فهو مثل قوله (وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) وقوله (يَقُولُونَ بأفواههم) .

(ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) أي : ثم يقولون لأتباعهم الأميين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى ، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذباً وزوراً .

(لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً) أي : لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني .

- والاشتراء في لغة العرب : الاستبدال ، فكل شيء استبدلته بشيء فقد اشتريته

- **قال السعدي :** ...فجعلوا باطلهم شركا يصطادون به ما في أيدي الناس ، فظلموهم من وجهين : من جهة تلبيس دينهم عليهم ، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق ، بل بأبطل الباطل ، وذلك أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما .
- فاليهود حرفوا وكتموا حرصاً على الدنيا وحطامها من المال والرئاسة والمنصب وغيرها .

قال الحسن : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها .

- وفي هذا أن الدنيا كلها ثمن قليل حقير .

وفي الحديث قال e (موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) متفق عليه .

وقال e (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها) متفق عليه .

وقال e (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي .

ولهذا قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود .

- وقد ذكر بعض العلماء أن من موانع الهداية أن يكون للإنسان جولة ومنصب في الباطل .

(فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) أي : العذاب حاصل على أمرين :

الأول : ما كتبوه . الثاني : ما كسبوه من المال الحرام من هذه الكتابة .

ولهذا قال ابن كثير : فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء ، وويل لهم مما أكلوا به من السحت .

- **وقال أبو حيان :** (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل مما يكسبون) كتابتهم مقدمة ، نتيجتها كسب المال الحرام ، فلذلك كرر الويل في كل واحد منهما ، لئلا يتوهم أن الوعيد هو على المجموع فقط.

فكل واحد من هذين متوعد عليه بالهلاك.

وظاهر الكسب هو ما أخذوه على تحريفهم الكتاب من الحرام ، وهو الأليق بمساق الآية.

- **وقال السعدي :** (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) أي : من التحريف والباطل (وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) من الأموال ، والويل : شدة العذاب والحسرة ، وفي ضمنها الوعيد الشديد .

الفوائد :

١- تأييس النبي e وأصحابه من إيمان هؤلاء المعاندين المنحرفين .

٢- إثبات كلام الله ، وأن الله يتكلم .

٣- ذم تحريف الكلم عن مواضعه .

٤- أن تحريف الشيء بعد فهمه من نقصان العقل وأشد إثماً من تحريفه إذا لم يفهمه .

٥- أن نبوة النبي e كانت معروفة عند اليهود وكتموها .

٦- أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث ولقاء الله .

٧- إثبات عموم الله لكل شيء .

٨- وجوب الحذر من معصية الله ، لأن الله يعلم كل شيء حتى ما في الصدور .

٩- ذم من لا يفهم معنى كتاب الله .

١٠- الحث على تدبر وفهم كلام الله .

١١- تحريم القول على الله بغير علم .

١٢- التهديد الشديد لمن يحرف دين الله وشرعه من أجل حطام الدنيا .

١٣- أن من فعل ذلك من علمائنا ففيه شبه من اليهود .

١٤- أن متاع الدنيا متاع قليل ، لأن صاحبه يموت ، وهو متاع يزول .

١٥- الحث على طلب الآخرة لأنها هي الباقية .

١٦- التحذير من التشبه بصفات اليهود من كتم العلم ، وطلب الدنيا بالآخرة .

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) .

[البقرة : ٨٠] .

(**وَقَالُوا**) أي : اليهود ، يخبر تعالى عن اليهود فيما نقلوه وادعوا لأنفسهم .

(**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً**) أي : أنه لن تمسهم النار ويدخلونها إلا أياماً معدودة ، ثم ينجون منها .

- يقصدون أن الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأنهم يعذبون بكل ألف سنة يوماً في النار ، وقيل : يعنون الأيام التي عبدنا فيها العجل .

- **قال ابن الجوزي :** (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) وهم : اليهود . وفيما عنوا بهذه الأيام قولان .

أحدهما : أنهم أرادوا أربعين يوماً ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وأبو العالية ، وقتادة ، والسدي .

ولماذا قدروها بأربعين؟ فيه ثلاثة أقوال ، أحدها : أنهم قالوا : بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة ، ونحن نقطع مسيرة كل سنة في يوم ، ثم ينقضي العذاب وتهلك النار، قاله ابن عباس، والثاني : أنهم قالوا : عتب علينا ربنا في أمر، فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة ، ثم يدخلنا الجنة ، فلن تمسنا النار إلا أربعين يوماً تحلّة القسم ، وهذا قول الحسن وأبي العالية ، والثالث : أنها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أن الأيام المعدودة سبعة أيام ، وذلك لأن عندهم أن الدنيا سبعة آلاف سنة ، والناس يعذبون لكل ألف سنة يوماً من أيام الدنيا ، ثم ينقطع العذاب ، قاله ابن عباس .

- فرد الله عليهم وأكذبهم فقال .

(**قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً**) أي : قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ ، هل أعطاكم الله العهد والميثاق بذلك ؟

قال ابن الجوزي : أي عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار؟

(**فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ**) أي : فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف الميعاد، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا قال :

(**أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**) (أم) بمعنى بل ، أي : بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ (لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ e شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ فَقَالَ النَّبِيُّ e « اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ » . فَجُمِعُوا لَهُ فَقَالَ « إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ » . فَقَالُوا نَعَمْ . قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ e « مَنْ أَبُوكُمْ » . قَالُوا فُلاَنٌ . فَقَالَ « كَذَبْتُمْ ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ » . قَالُوا صَدَقْتَ . قَالَ « فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ » فَقَالُوا نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا . فَقَالَ لَهُمْ « مَنْ أَهْلُ النَّارِ » . قَالُوا نَكُونُ فِيهَا يَسِيراً ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا . فَقَالَ النَّبِيُّ e « اخْسَئُوا فِيهَا ، وَاللَّهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَداً ، ثُمَّ قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ » . فَقَالُوا نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ . قَالَ « هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا » . قَالُوا نَعَمْ . قَالَ « مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ » . قَالُوا أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِباً نَسْتَرِيحُ ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ) رواه البخاري .

الفوائد :

١ - بيان كذب اليهود فيما ادعوا .

٢ - من أسلوب القرآن الرد على الشبه وتوضيح الحق كما قال تعالى (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) فكذبهم الله بقولهم (وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) فإن الله لا يأمر بالفحشاء .

٣ - أن اليهود لا يبالون بالافتراء على الله لينالوا مآربهم .

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

[البقرة : ٨١ – ٨٢] .

(**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**) يقول تعالى رداً على دعوى اليهود : ليس الأمر كما تمنيتم ، ولا كما تشتهون ، بل الأمر أنه من كسب سيئة ، والسيئة : العمل السيء ، سميت سيئة لأنها تسوء صاحبها في الدنيا وفي الآخرة ، في الدنيا بظهور آثارها عليه من الهمّ والضيق في الصدر والخلق والرزق ، فيفقد من السعادة في الحياة بقدر ما عمل من السوء ، قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقال تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) . وتسوؤه آجلاً بعد موته لمعاقبته عليها إن لم يتب منها أو يتداركه الله بعفوه .

(**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**) أي : أحاط به شركه ، وغمرته ذنوبه من جميع جوانبه ، وسدت عليه جميع مسالك النجاة ، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود .

- فالمراد بالخطيئة هنا الشرك ، لأنه الذنب الذي يخلد صاحبه في النار ، لأن الله أخبر أنه من أصحاب النار المخلدين ، ولا يخلد في النار إلا المشرك .

(**فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) أي : أصحابها الملازمين لها ، أبد الآبدين ودهرين الداهرين ، لا يخرجون منها (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) .

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا**) بقلوبهم .

(**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) بجوارحهم . [سبق شرح الآية] .

وتقدم شروط العمل الصالح : أن يكون خالصاً لله ، متابعاً للشريعة .

(**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) أي : أصحابها الملازمون لها ، لا يخرجون منها (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ) [وقد سبق شرح الخلود] .

- **قال الرازي** :اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد ، وذلك لفوائد :

أحدها : ليظهر بذلك عدله سبحانه ، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان .

وثانيها : أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه .

وثالثها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان.

الفوائد :

١- أن من كذب الله وأشرك به فمأواه جهنم .
٢- أن العبرة بالشريعة بالعمل لا بالدعوى والتمني .
٣- أن من آمن وعمل صالحاً فله الجنة .
٤- الحث على العمل الصالح وهو ما كان خالصاً لله موافقاً لسنة النبي e .
٥- أنه لا يستحق الخلود في إلا من أحاطت به خطيئته وهو من أشرك بالله تعالى .
٦- أن من طريقة القرآن أنه إذا ذكر أهل النار وعقوبتهم ، ذكر أهل الجنة وما لهم من النعيم .
٧- إثبات الجنة والنار .
٨- أن أهل الجنة مخلدون فيها .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) .
[البقرة : ٨٣] .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ) أي : واذكر حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود الميثاق .

- والميثاق هو : العهد المؤكد .
- اختلف في الميثاق ، فقيل : هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر ، وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم أحياء على السنة رسلهم .
- **قال السعدي :** قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به، استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة ، والعهود الموثقة

(لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) أي : أن يخلصوا في عبادة الله ، فلا يعبدون ملكاً ولا رسولاً ولا حجراً .

- ففيه النهي عن الشرك ، فلا تقبل الأعمال كلها مع الشرك .
- والله أمر بهذا جميع خلقه :

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .
وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .
وقال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .
وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تبارك وتعالى .
وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال (قلت يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك) متفق عليه .

- وقد نقدم تعريف العبادة عند آية [٢٠] .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) ذكر تعالى بعد حق الله حق المخلوقين ، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ، ولهذا يقرن الله بين حقه وحق الوالدين .

كما قال تعالى (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) .
وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .
وقال تعالى (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

وقال تعالى (وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

وأوصى تعالى بالوالدين إحساناً :

قال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً) .

وقال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) .

وعن ابن مسعود قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ r أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا) . قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) . قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ (ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قَالَ حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي .

وعن عبد الله بن عمرو قال (جاء رجل إلى النبي e فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحي والداك ؟ قال: نعم، قال : ففيهما فجاهد) متفق عليه .

ولمسلم (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتَهما) .

ولحديث أبي هريرة . (أن رجلاً قال يا رسول الله ! من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال: أمك ؟ قال: ثم من ؟ قال: أمك . قال: ثم من ؟ قال: أمك . قال: ثم من ؟ قال: أبوك) .

كيفية الإحسان لهما :بالقول والفعل :

في حياتهما : بالبر والطاعة والإكرام والتوقير والتواضع لهما .

بعد موتهما : الدعاء لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما .

- وللإحسان ضدان : الإساءة وهي أعظم جرماً ، وترك الإحسان بدون إساءة ، وهذا محرم ، لكن لا يجب أن يلحق بالأول . (قاله السعدي) .
- هذا البر لا يختص بالأبوين المسلمين ، بل ولو كانا على الشرك .

قال تعالى (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

وقال تعالى (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

وعن أسماء قالت (قدمت أمي وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : نعم) .

راغبة : أي بالعطاء .

ومن الإحسان ألا يجاهد إلا بإذنهما .

للحديث السابق .

وهذا محمد e يزور قبر أمه :

قال e (استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة). رواه مسلم

وهذا إبراهيم خليل الرحمن يخاطب أباه بلطف وإشفاق :

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً) .

وهذا يحي يثني عليه الله بوصفه براً بوالديه :

قال تعالى (وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً) .

وكذلك عيسى عليه السلام فيذكر الله في كتابه قوله :

(وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً) .

نماذج من سلف الأمة :

عن محمد بن المنكدر أنه كان يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه : قومي ضعي قدمك على خدي .

وعن ابن عون المزني : أن أمه نادته فأجابها ، فعلا صوته صوتها فأعتق رقبتين .

قال ابن الجوزي : بلغنا عن عمر بن ذر ، أنه لما مات ابنه قيل له : كيف كان بره بك ؟ قال : ما مشى معي نهاراً إلا كان خلفي ، ولا ليلاً إلا كان أمامي ، ولا رقد على سطح أنا تحته .

كان أبو هريرة إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمّه فقال : السلام عليك – يا أماه – ورحمة الله وبركاته ، فتقول : وعليك السلام – يا ولدي – ورحمة الله وبركاته ، فيقول : رحمَك الله كما ربيتني صغيراً ، فتقول : رحمك الله كما بررتني كبيراً .

وعن الزهري قال : كان الحسن بن علي لا يأكل مع أمه ، وكان أبرَّ الناس بها ، فقيل له في ذلك ، فقال : أخاف أن آكل معها ، فتسبق عينها إلى شيء من الطعام وأنا لا أدري فآكله ، فأكون قد عققتها .

(**وَذِي الْقُرْبَى**) أي: وأحسنوا إلى ذي القرابة ، سواء من قبل الأم أو من قبل الأب، والإحسان إليهم يكون بالقول والفعل، لكن الإحسان إلى الوالدين أعظم ، لأنهم أقرب القربى إليك .

(**وَالْيَتَامَى**) أي : وأحسنوا إلى اليتامى .

- واليتيم : هو مات أبوه وهو لم يبلغ .
- قال في التسهيل : جمع يتيم : وهو من فقد والده قبل البلوغ ، واليتيم من سائر الحيوان من فقد أمه .
- وقد أوصت الشريعة بالعناية باليتيم وبماله وحذرت من أكل ماله .

فقد أوصى الله باليتيم في آيات كثيرة :

كقوله تعالى (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) .

وقال تعالى (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ) .

وحذر الله من أكل مال اليتامى .

فقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) .

وأخبر النبي e أن كافل اليتيم في الجنة :

فقال e (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما) متفق عليه .

وقال e (اللهم إني أحرّج حق الضعيفين اليتيم والمرأة) رواه النسائي ، أي : ألحق الحرج وهو الإثم بمن ضيع حقهما ، وأحذّر من ذلك تحذيراً بليغاً .

(**وَالْمَسَاكِينِ**) أي : وأحسنوا إلى المساكين ، والمساكين جمع مسكين ، وهو من لا يجد تمام كفايته ، سموا بذلك ، لأن الفقر أذله وأسكنه ، وقد استعاذ النبي e من الفقر والجوع ، فعن أبي هريرة . أن النبي e كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع) رواه أبو داود .

وفي حديث أبي بكرة . أن النبي e كان يقول دبر كل صلاة (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر) رواه النسائي .

• ويدخل في المساكين هنا : الفقراء ، لأن كلاً منهما يطلق على الآخر إذا انفرد كل واحد منهما ، لكن إذا ذكرا معاً كما في قوله تعالى (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) كان لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر .

• وسمي المعدم مسكيناً ، لأن الفقر أسكنه وأذله ، فلا يطمع أن يصل إلى مرتبة الأغنياء .

• **قال في التسهيل :** وجاء الترتيب في هذه الآية بتقديم الأهم ، فقدم الوالدين لحقهما الأعظم ، ثم القرابة لأن فيهم أجر الإحسان وصلة الرحم ، ثم اليتامى لقلة حيلتهم ، ثم المساكين .

• **قال الرازي :** إنما تأخرت درجتهم عن اليتامى لأن المسكين قد يكون بحيث ينتفع به في الاستخدام فكان الميل إلى مخالطته أكثر من الميل إلى مخالطة اليتامى ، ولأن المسكين أيضاً يمكنه الاشتغال بتعهد نفسه ومصالح معيشته ، واليتيم ليس كذلك فلا جرم قدم الله ذكر اليتيم على المسكين .

(**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**) أي : كلموهم كلاماً طيباً ولينوا لهم جانباً ، ويدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وتعليمهم العلم ، وبذل السلام ، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب .

• **قال السعدي :** ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليمهم العلم ، وبذل السلام ، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب .

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله ، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق ، وهو الإحسان بالقول ، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار ، ولهذا قال تعالى (وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) .

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده ، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله ، غير فاحش ولا بذيء ، ولا شاتم ، ولا مخاصم ، بل يكون حسن الخلق ، واسع الحلم ، مجاملا لكل أحد ، صبورا على ما يناله من أذى الخلق ، امتثالا لأمر الله ، ورجاء لثوابه .

قال الحسن البصري فالحُسْن من القول : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحلم ، ويعفو ، ويصفح ، ويقول للناس حسناً كما قال الله ، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله .

• وفي هذا حض على مكارم الأخلاق ، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً ووجهه منبسطاً طلقاً ، لأن الله يقول لموسى وهارون (فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) .

وقال تعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) .

وقال تعالى (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) .

• **قال ابن كثير :** وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي .

(**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**) تقدم عند آية [

(**وَآتُوا الزَّكَاةَ**) تقدم عند آية [٤٣] .

• **قال السعدي :** ثم أمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد .

(**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ**) الخطاب لمعاصري محمد e ، وأسند إليهم تولي أسلافهم إذ كلهم بتلك السبل في إعراضهم عن الحق مثلهم .

(**إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ**) كعبد الله بن سلام وأصحابه .

• **قال أبو حيان :** والمعنيُّ بالقليل القليل في عدد الأشخاص، **فقيل :** هذا القليل هو عبد الله بن سلام وأصحابه، **وقيل :** من آمن قديماً من أسلافهم ، وحديثاً كعبد الله بن سلام وغيره.

قال ابن عطية : ويحتمل أن تكون القلة في الإيمان ، أي لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد e إلا إيمان قليل ، إذ لا ينفعهم ، والأول أقوى ، وضعفه أبو حيان .

(**وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**) عن الميثاق الذي أخذ عليكم .

• فسر بعض العلماء التولي بالإعراض ، ومن ثَمّ قال : الفائدة من ذلك التكرار التأكيد كما قال تعالى (ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) ومن العلماء من قال : إن التولي يكون بالجسم ، والإعراض يكون بالقلب ، ومنهم من قال (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) خطاب لهم والمراد أسلافهم من آبائهم وأجدادهم الذين تولوا، وقوله (وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) انتقل الخطاب إلى المعاصرين للنبي e من اليهود، والمعنى على ذلك : ثم تولى آباؤكم ، وأنتم كذلك معرضون .

• **قال ابن كثير :** وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً) فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها .

الفوائد :

١- وجوب عبادة الله تعالى .

٢- تحريم الشرك .

٣- أهمية حق الوالدين وأنه أعظم الحقوق بعد حق الله تعالى .

٤- بيان عظمة الله لقوله (وإذ أخذنا ..) لأن الضمير هنا للتعظيم .

٥- وجوب الإحسان إلى ذي القربى ، وهم من يجتمعون به بالأب الرابع فما دون .

٦- وجوب الإحسان إلى اليتامى .

٧- اهتمام الشريعة بحقوق الضعفاء وجاءت بالأجر الكبير بالإحسان إليهم .

٨- وجوب الإحسان إلى المساكين وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة .

٩- وجوب القول الحسن .

١٠- تحريم القول السوء .

١١- أهمية الصلاة وأنها مشروعة في جميع الأمم .

١٢- أهمية الزكاة وأنها من أعظم الأركان بعد الصلاة .

١٣- أن بني إسرائيل مع هذا الميثاق الذي أخذه الله عليهم لم يقوموا به إلا القليل منهم .

١٤- سنة الله في أن أهل الطاعة أقل من أهل الشر كما قال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) وقال تعالى (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) وقال e (... يأتي والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد) .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) .

[البقرة : ٨٤ – ٨٦] .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) بين تعالى أنه أخذ ميثاقاً على بني إسرائيل وهو عدم العدوان من بعضهم على بعض .

(لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) أي : لا يقتل بعضكم بعضاً ، لأن أهل الملة الواحدة كالنفس الواحدة كما قال تعالى (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) أي : لا يلمز بعضكم بعضاً ، وقوله تعالى (فسلموا على أنفسكم) أي : على إخوانكم ، وقوله تعالى (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً) أي : بإخوانهم .

● **قال القرطبي :** فإن قيل : وهل يَسفِك أحد دمه ويُخرج نفسه من داره ؟ قيل له : لما كانت ملّتهم واحدة وأمرهم واحد وكانوا في الأمم كالشخص الواحد جعل قتل بعضهم بعضاً وإخراج بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونَفياً لها .

● **قال ابن عاشور :** وليس المراد النهي عن أن يسفك الإنسان دم نفسه أو يخرج نفسه من داره لأن مثل هذا مما يزع المرء عنه وازعه الطبيعي فليس من شأن الشريعة الاهتمام بالنهي عنه ، وإنما المراد أن لا يسفك أحد دم غيره ولا يخرج غيره من داره على حد قوله تعالى (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) أي فليسلم بعضكم على بعض .

(وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) أي : ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار ، والإجلاء عن الأوطان .

● **قال الماوردي :** قوله (لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُ مِّن دِيَارِكُمْ) أما النفس فمأخوذة من النفاسة ، وهي الجلالة ، فنفس الإنسان أنفس ما فيه ، وأما الديار فالمنزل الذي فيه أبنية المقام ، بخلاف منزل الارتحال .

(ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) أي : ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) يعني إخوانكم .

● **قال ابن كثير :** ينكر الله تعالى على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله e ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار ، كانوا في الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم ، قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسرى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ، ولهذا قال : أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) .

(وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ) أي : وطردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق .

(تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) أي : تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم .

(وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ) أي : وإذا وقعوا في الأسر فاديتموهم ، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر .

(**وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ**) تشنيع وتبليد لهم إذ توهموا القُربة فيما هو من آثار المعصية أي كيف ترتكبون الجناية وتزعمون أنكم تتقربون بالفداء وإنما الفداء المشروع هو فداء الأسرى من أيدي الأعداء لا من أيديكم فهلا تركتم موجب الفداء ؟. (قاله ابن عاشور) .

(**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ**) أي : أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة ، وهذا يتبين مما قبله : وهو فداء الأسارى منهم .

(**وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**) وهو إخراجهم من ديارهم وقتلهم ومظاهرة العدو عليهم .

- **قال في التسهيل** : (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب) فداؤهم الأسارى موافقة لما في كتبهم (وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) القتل والإخراج من الديار مخالفة لما في كتبهم .
- وإن كان وقع منهم كفر بأشياء أخرى ككتم صفة محمد e .
- والآية توبيخ لهم ، لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان .

(**فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ**) أي : ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض .

(**إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) إلا ذل ومهانة وصغار .

- الحياة الدنيا سميت بذلك : لأنها قبل الآخرة في الزمن ، ولدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة . كما قال تعالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) وقال تعالى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) وقال e (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء) رواه الترمذي وقال e (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري .

(**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ**) جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيدهم .

- ويوم القيامة سمي بذلك :

أولاً : لقيام الناس من قبورهم .

كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ثانياً : لقيام الأشهاد .

كما قال تعالى (وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

ثالثاً : لقيام الروح والملائكة .

كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً) .

(**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) وعيد شديد لمن عصى أوامر الله ، فإن الله لا يغفل عنه شيئاً وذلك لكمال علمه سبحانه وتعالى .

(**أُولَئِكَ**) الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة .

(**الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ**) أي : استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة ، أي : اختاروها وآثروها على الآخرة .

(**فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ**) أي : لا يُفتر عنهم العذاب ساعة واحدة .

(**وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**) أي : ليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي .

الفوائد :

١ - أن بني إسرائيل أخِذ عليهم تحريم قتال بعضهم بعضاً .

٢ - بيان تمرد بني إسرائيل ، حيث إنهم نقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم .

٣- تناقض بني إسرائيل في دينهم .

٤- أن الكفر ببعض الشريعة كفر بجميعها .

٥- إثبات الجزاء يوم القيامة .

٦- إثبات يوم القيامة .

٧- أن عذاب الآخرة أشد وأبقى .

٨- التحذير لهذه الأمة من التشبه باليهود في أعمالهم المنكرة .

٩- أن الله لا يغفل عن شيء لكمال علمه ، وهذه قاعدة : كل صفة نفي : فإننا ننفيها ونثبت كمال ضدها ، فالله لا ينام لكمال حياته ، ولا يجهل لكمال علمه ، ولا يظلم لكمال عدله .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ) .

[البقرة : ٨٧] .

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**) أي : ولقد أعطينا موسى بن عمران الكتاب وهو التوراة .

- وموسى هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل ، وأحد أولي العزم من الرسل الخمسة .

(**وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ**) أي : وأتبعنا وأردفنا من بعده بالرسل كما قال تعالى (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا) حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم .

- **قال ابن الجوزي :** وقفَّينا : أتبعنا . قال ابن قتيبة : وهو مأخوذ من القفا . يقال : قفوت الرجل : إذا سرت في أثره .

- **قال الشوكاني :** والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلاً جعلهم تابعين له وهم أنبياء بني إسرائيل المبعوثون من بعده .

(**وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ**) أي : وأعطينا من الآيات البينات والمعجزات الظاهرات الواضحات الدالة على نبوته .

- **قال الرازي :** السبب في أن الله تعالى أجمل ذكر الرسول ثم فصل ذكر عيسى لأن من قبله من الرسل جاءوا بشريعة موسى فكانوا متبعين له ، وليس كذلك عيسى ، لأن شرعه نسخ أكثر شرع موسى عليه السلام .

- ولم يبيّن هنا ما هذه البينات لكنه بينها في آية أخرى كقوله تعالى (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

- قوله تعالى (ابن مريم) قال ابن تيمية : ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال (ابن مريم) بخلاف سائر الأنبياء وفي ذلك فائدتان :

إحداهما : بيان أنه مولود ، والله لم يولد .

والثانية : نسبته إلى مريم ، بأنه ابنها ليس هو ابن الله .

(**وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**) اختلف ما هو روح القدس هنا والصحيح أنه جبريل ورجحه ابن جرير وابن كثير والشنقيطي وابن جزي ويدل لهذا :

قوله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) .

وقوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً) أي جبريل .

وأيضاً قوله e لحسان (اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك) رواه البخاري وفي رواية (أهجهم وجبريل معك) .

• **قال الطبري :** وإنما سمى الله تعالى جبريل (روحاً) وأضافه إلى القدس ، لأنه كان بتكوين الله له روحاً من عنده من غير ولادة والد ولده فسماه بذلك (روحاً) وأضافه إلى (القدس) والقدس هو الطهر ، كما سمى عيسى ابن مريم روحاً من أجل تكوينه له روحاً من عنده من غير ولادة والد له

(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ) أي : أفكلما جاءكم نبي يا بني إسرائيل بما لا يوافق أنفسكم ولا يلائمها .

• **قال ابن عاشور :** و (تهوى) مضارع هوى بكسر الواو إذا أحب والمراد به ما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعية والانغماس في أنواع الملذات والتصميم على العقائد الضالة .

(اسْتَكْبَرْتُمْ) عن إجابته ، احتقاراً للرسل واستبعاداً للرسالة .

قال ابن عاشور : والاستكبار : الاتصاف بالكبر وهو هنا الترفع عن اتباع الرسل وإعجاب المتكبرين بأنفسهم واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل ويكونوا أتباعاً لهم .

(فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ) فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام .

(وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ) وكان من قتلوه يحيي وزكريا عليهما السلام .

قال ابن كثير : كانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة ، ففريقاً يكذبونه ، وفريقاً يقتلونه ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها ، فلهذا كان يشق ذلك عليهم ، فيكذبونهم ، وربما قتلوا بعضهم .

وقال : قال الزمخشري في قوله (فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ) وإنما لم يقل : وفريقاً قتلتم ، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً ، لأنهم حاولوا قتل النبي e بالسم والسحر ، وقد قال e في مرض موته : ما زالت أكلة خيبر تعاودني ، فهذا أوان انقطاع أبهري .

• **قال الرازي :** قوله تعالى (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ استكبرتم فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) فهو نهاية الذم لهم ، لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه ، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه ، وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتها والترؤس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق ، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبونهم لأجل ذلك ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل ، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم .

• **قال الشنقيطي :** قوله تعالى (أفكُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ) وقد جاء في آيات أخر ما يدل على أن الرسل غالبون منصورون كقوله (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) ، وكقوله (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُون) ، وقوله تعالى (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) وبيّن تعالى أن هذا النصر في دار الدنيا أيضا كما في هذه الآية الأخيرة وكما في قوله (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية.

والذي يظهر في الجواب عن هذا أن الرسل قسمان : قسم أمروا بالقتال في سبيل الله ، وقسم أمروا بالصبر والكف عن الناس، فالذين أمروا بالقتال وعدهم الله بالنصر والغلبة في الآيات المذكورة ، والذين أمروا بالكف والصبر هم الذين قتلوا ليزيد الله رفع درجاتهم العلية بقتلهم مظلومين ، وهذا الجمع مفهوم من الآيات لأن النصر والغلبة فيه الدلالة بالالتزام على جهاد ومقاتلة.

الفوائد :

١- بيان ما منّ الله به على موسى من إعطائه الكتاب .

٢- عظمة الله حيث وصف نفسه بقوله (ولقد آتينا) .

٣- إثبات نبوة موسى عليه السلام .

٤- أن الله لم يهمل الخلق بل أرسل إليهم رسلاً .

٥- أن الله أعطى عيسى الآيات البينات الواضحات التي تدل على صدقه .

٦- رحمة الله بخلقه وحكمته حيث أيد الرسل بالآيات ، من أجل يؤمنوا به ويصدقوه .

٧- بطلان دعوى النصارى بألوهية عيسى .

٨- إثبات الملك الكريم جبريل .

٩- أن بني إسرائيل قتلة الأنبياء .

١٠- شدة تكذيب بني إسرائيل للرسل .

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ) .

[البقرة : ٨٨] .

(**وَقَالُوا**) أي : اليهود ، إذا دعوا إلى الحق .

(**قُلُوبُنَا غُلْفٌ**) اختلف العلماء في معنى ذلك على قولين :

القول الأول : أي : في أكنّة لا تفقه . **قال ابن القيم** : وهذا قول أكثر المفسرين .

والقول الثاني : أي: قلوبنا ممتلئة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، وهذا على القراءة الشاذة (قلوبنا غُلُف) **والأول أصح** لتكرر نظائره في القرآن كقولهم (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) وقوله تعالى (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي) .

- **قال ابن الجوزي** : (وقالوا قلوبنا غلف) قرأ الجمهور بإسكان اللام ، وقرأ قوم ، منهم الحسن وابن محيصن بضمها . قال الزجاج . من قرأ (غلف) بتسكين اللام ، فمعناه : ذوات غلف ، فكأنهم قالوا : قلوبنا في أوعية . ومن قرأ (غلُف) بضم اللام، فهو جمع (غلاف) فكأنهم قالوا: قلوبنا أوعية للعلم، فما بالها لا تفهم وهي أوعية للعلم؟! فعلى الأول؛ يقصدون إعراضه عنهم ، كأنهم يقولون ما نفهم شيئاً . وعلى الثاني يقولون : لو كان قولك حقاً لقبلته قلوبنا .

- **قال الطبري** : وقالت اليهود : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه يا محمد، فقال الله : ما ذلك كما زعموا، ولكن الله أقصى اليهود وأبعدهم من رحمته وطردهم عنها ، وأخزاهم بجحودهم له ولرسله .

(**بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بكفرهم**) هذا رد من الله عليهم ، أي : ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة . بل لعنهم الله (بِ) بسبب (كُفْرِهِمْ) بالله تعالى ، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

- بل هنا للإضراب الإبطالي ، يعني : بل ليس في قلوبهم غلاف ، ولكن لعنهم الله بكفرهم .

- **قال الآلوسي** : (بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بكفرهم) هذا رد لما قالوه ، وتكذيب لهم فيما زعموه ، والمعنى أنها خلقت على فطرة التمكن من النظر الصحيح الموصل إلى الحق لكن الله تعالى أبعدهم ، وأبطل استعدادهم الخلقي للنظر الصحيح بسبب اعتقاداتهم الفاسدة وجهالاتهم الباطلة الراسخة في قلوبهم ، أو أنها لم تأب قبول ما تقوله لعدم كونه حقاً وصدقاً بل لأنه سبحانه طردهم وخذلهم بكفرهم فأصمهم وأعمى أبصارهم .

• **قال ابن عاشور :** فاللعنة حصلت لهم عقاباً على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق وفي ذلك رد لما أوهموه من أن قلوبهم خلقت بعيدة عن الفهم لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك المكابرة وهذا معتقد أهل الحق من المؤمنين عدا الجبرية .

• **قال ابن القيم :** وجه الإضراب أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته ، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه ، فكيف تقوم به عليهم الحجة ؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان فأكذبهم الله وقال (قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً) .فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان ، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة ، والمعنى لم نخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه ، ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه ، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها .

(**فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ**) اختُلف في معناها :

فقيل : فقليل من يؤمن منهم ، وهذا أمر مشاهد ، فاليهود قليل منهم من يسلم .

وقيل : فقليل إيمانهم ، بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد e .

وقيل : لا يؤمنون أبداً ، وأن مثل هذا التعبير جار في لسان العرب ، فهو نفي للكل ، قال الكسائي : تقول العرب : مررنا بأرض قليلاً ما تنبت ، يريدون ولا تنبت شيئاً.

والآية تعم الجميع ، لأننا القاعدة في التفسير : أنه متى احتملت الآية أكثر من معنى بدون أن يكون هناك تناقض فإنها تحمل على كل المعاني .

الفوائد :

١ - أن اليهود يدعون ما ليس بحق ، حينما يدعوهم النبي e ، فيقولون إن قلوبنا غلف .

٢ - أن اليهود ملعونون .

٣ - أن الكفر سبب للعنة .

٤ - خطر المعاصي على القلب من كفر ومعصية ، ولذلك أصاب بني إسرائيل قسوة القلب بسبب نقضهم الميثاق وطول الأمل كما سبق .

٥ - من أراد صفاء قلبه وطهارته فليبتعد عن المعاصي .

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) .

[البقرة : ٨٩ – ٩٠] .

(**وَلَمَّا جَاءَهُمْ**) أي : اليهود .

(**كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**) وهو القرآن الكريم ، وسبق لماذا سمي القرآن كتاباً .

- قال الرازي : قد اتفقوا على أن هذا الكتاب هو القرآن لأن قوله تعالى (مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ) يدل على أن هذا الكتاب غير ما معهم وما ذاك إلا القرآن.

(**مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**) أي : أن هذا القرآن مصدق لما معهم من التوراة ، قال قتادة : وهو القرآن الذي أنزل على محمد مصدق لما معهم من التوراة والإنجيل .

- وسبق معنى تصديق القرآن للكتب السابقة عند الآية [٤١] .

(**وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ**) أي : وكان هؤلاء اليهود قبل مجيء هذا الرسول e بالقرآن .

(**يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا**) أي : يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين ، والاستفتاح: الاستنصار، وهو طلب الفتح والنصر، فطلب الفتح والنصر به هو أن يبعث فيقاتلونهم معه، فبهذا ينصرون .

(**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا**) أي : من الحق وصفة محمد e الذي كانوا ينتظرونه .

(**كَفَرُوا بِهِ**) ولم يؤمنوا به ، ولم يؤمنوا بما جاء به .

عن قتادة قال : كانت اليهود تستفتح بمحمد e على كفار العرب من قبل ، وقالوا : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده في التوراة يُعذبهم ويقتلهم ! فلما بعث الله محمداً e فرأوا أنه بُعث من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله e يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة .

(**فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**) اللعن : هو الطرد من رحمة الله ، وهؤلاء لعنوا وطردوا من رحمة الله لأنهم كفروا بالرسول e الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

(**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**) أي : أن اليهود باعوا الحق بالباطل ، وكتموا ما جاء به محمد e بأن يبينوه .

(**بَغْياً**) أي : وإنما حملهم على ذلك البغي ، والأكثر على أن المراد بالبغي هنا الحسد ، والظاهر أنه أخص من الحسد .

(**أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**) أي : لأجل إنزال الله الفضل على نبيه e .

- والمراد بالفضل هنا النبوة والقرآن .

- **قال الطبري** : بئس الشيء باعوا به أنفسهم الكفر بالذي أنزل الله في كتابه على موسى من نبوة محمد e والأمر بتصديقه واتباعه ، من أجل أن أنزل الله من فضله — وفضله حكمته وآياته ونبوته — على من يشاء من عباده ، يعني به على محمد e ، بغياً وحسداً لمحمد e من أجل أنه كان من ولد إسماعيل ولم يكن من بني إسرائيل .

- قوله تعالى (على من يشاء من عباده) هذه المشيئة لحكمة .

- **قال الشيخ ابن عثيمين** : وليُعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي : أنه ليست مشيئة الله مشيئة مجردة هكذا تأتي عفواً ، لا ، بل هي مشيئة مقرونة بالحكمة ، والدليل على ذلك قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله بيّن أن ذلك مبني على علم وحكمة .

(**فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ**) باءوا : أي رجعوا ، وأكثر ما يقال في الشر .

واختلف العلماء في معنى (بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) أما الغضب الثاني فسببه هو كفرهم بمحمد e بعد أن عرفوا صفته وأنه النبي المبعوث .

وأما الغضب الأول فسببه كفرهم بعيسى e ، ويدخل في ذلك أيضاً عبادتهم العجل ، وتضييعهم التوراة ، وقولهم عزير ابن الله ، وقولهم يد الله مغلولة ، وقولهم : إن الله فقير ونحن أغنياء .

* **قال ابن الجوزي :** في قوله تعالى (بغضب على غضب) خمسة أقوال :

أحدها : أن الغضب الأول لاتخاذهم العجل ، والثاني : لكفرهم بمحمد ، حكاه السدي عن ابن مسعود وابن عباس.

والثاني : أن الأول لتكذيبهم رسول الله ، والثاني : لعداوتهم لجبريل.

والثالث : أن الأول حين قالوا (يد الله مغلولة) والثاني : حين كذّبوا نبي الله ، واختاره الفراء .

والرابع : أن الأول لتكذيبهم بعيسى والإنجيل ، والثاني : لتكذيبهم بمحمد والقرآن.

والخامس : أن الأول لتبديلهم التوراة ، والثاني : لتكذيبهم محمداً e قاله مجاهد .

(**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ**) أي : عقوبة .

(**مُهِينٌ**) أي : ذو إهانة وإذلال ، لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) أي : ذليلين حقيرين ، ومن إهانتهم أن يقال لهم (قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ) .

الفوائد :

١ - أن القرآن من عند الله .

٢ - أن من أسماء القرآن الكتاب .

٣ - أن القرآن مصدق للكتب السابقة .

٤ - إقامة الحجة على اليهود بمعرفتهم بالنبي e وببعثته .

٥ - شدة عناد واستكبار اليهود .

٦ - خطر الحسد وأنه سبب للصد عن الحق .

٧ - أن من رد الحق حسداً ففيه شبه من اليهود .

٨ - وجوب قبول الحق من أي شخص كان .

٩ - أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء تبعاً لحكمته .

١٠ - أن العقوبات سببها المعاصي والذنوب .

١١ - أن المستكبر يعاقب بنقيض قصده .

١٢ - إثبات الغضب لله إثباتاً يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) .

[البقرة : ٩١ – ٩٢] .

(**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**) أي : لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب .

(**آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**) على محمد e وصدقوه واتبعوه .

(**قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا**) أي : يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل .

(**وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ**) أي : بما سواه .

- قوله تعالى (وراءه) من كلمة الأضداد، تأتي لمعنىً ولضده، فهي تستعمل بمعنى خلف وبمعنى أمام، فقوله تعالى (وراءهم ملك يأخذ ..) أي : أمامَهم .

(**وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ**) تقدم معنى تصديق القرآن للكتب السابقة .

(**قُلْ**) رد عليهم من الله في قولهم أنهم آمنوا بما أنزل عليهم ، وتكذيب منه لهم وتوبيخ .

(**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**) أي : إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم ، قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله .

- والخطاب لمن حضر محمداً e ، والمراد أسلافهم ، وإنما توجه الخطاب لأبنائهم ، لأنهم كانوا يتولون أولئك الذين قتلوا ، وقيل : لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك إليهم .
- **قال ابن عطية :** (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ) وجاء (تقتلون) بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضي لما ارتفع الإشكال بقوله (من قبل) وإذا لم يشكل فجائز سوق الماضي بمعنى المستقبل وسوق المستقبل بمعنى الماضي.
- **وقال ابن الجوزي :** وتقتلون بمعنى : قتلتم ، فوضع المستقبل في موضع الماضي ، لأن الوهم لا يذهب إلى غيره .
- **قال السمرقندي :** وفي الآية دليل أن من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها ، لأنهم كانوا راضين بقتل آباءهم الأنبياء ، فسماهم الله تعالى قاتلين .

وفي الآية دليل أن من ادعى أنه مؤمن ، ينبغي أن تكون أفعاله مصدقة لقوله ، لأنهم كانوا يدعون أنهم مؤمنون بما معهم .

(**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ**) أي : بالآيات الواضحات ، والدلائل القاطعات على أنه رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله .

والبينات هي الموضحة في قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) والعصا واليد، وفلق البحر، وتظليلهم الغمام، والمنّ والسلوى وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها .

(**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ**) معبوداً من دون الله في زمان موسى .

(**مِنْ بَعْدِهِ**) قيل : من بعد موسى، وذلك أنهم عبدوا العجل بعد أن فارقهم موسى ماضياً إلى ميقات ربه، وقيل : من بعده ، أي من بعد مجيء موسى عليه السلام إليكم بالبينات ، والأول أقوى .

(**وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**) لأنفسكم ، لأنكم أشركتم بالله تعالى ، لأن الشرك أعظم الظلم ، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك ظالم ، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده ، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر ، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك ،كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) ، وثبت في صحيح البخاري أن النبي e فسر قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال : بشرك ، ثم تلا قول لقمان (إن الشرك لظلم عظيم) ، وقال تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين) أي : من المشركين .

ولم يأت الظلم في القرآن إلا بهذا المعنى ، إلا في موضع واحد في سورة الكهف ، بمعنى النقص ، كما قال تعالى (كلنا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) أي ولم تنقص .

الفوائد :

١ - بيان تعصب اليهود لما هم عليه من الطريق ولو كانت خاطئة .

٢ - التحذير من التشبه باليهود في التعصب للآراء .

٣- تكذيب الله لليهود بقوله (نؤمن بما أنزل علينا) لأنهم لو آمنوا به ، لآمنوا بمحمد e .

٤- بيان عتو وعناد اليهود لأنهم قالوا (لا نؤمن إلا بما أنزل علينا .

٥- أن اليهود قتلة الأنبياء ، وهذا من أعظم المنكرات .

٦- أن القرآن منزل غير مخلوق .

٧- إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعله ، وذلك أن الله أقام الحجة على اليهود الحجة على فعلهم ، وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم .

٨- إقامة الحجة على اليهود حيث جاءهم موسى بالبينات الواضحات ومع ذلك اتخذوا العجل إلهاً .

٩- سفاهة اليهود لاتخاذهم العجل إلهاً مع أنهم هم الذين صنعوه .

١٠- أن المشرك ظالم .

١١- أن الظلم درجات ، أعظمه الشرك بالله .

ومن الظلم : ظلم العبد نفسه بالمعاصي كما قال تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ) .

ومن الظلم: ظلم العباد بعضهم بعضاً: كما في الحديث (قال الله: إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا). رواه مسلم

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

[البقرة : ٩٣] .

(**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ**) تقدم شرحها عند آية [٦٣] .

قال الرازي : اعلم أن في الإعادة وجوهاً :

أحدها : أن التكرار في هذا وأمثاله للتأكيد وإيجاب الحجة على الخصم على عادة العرب .

وثانيها : أنه إنما ذكر ذلك مع زيادة وهي قولهم (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) وذلك يدل على نهاية لجاجهم .

وقال أبو حيان : وإنما كررت لدعواهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ، وهم كاذبون في ذلك.

ألا ترى أن اتخاذ العجل ليس في التوراة ؟ بل فيها أن يفرد الله بالعبادة ، ولأن عبادة غير الله أكبر المعاصي ، فكرر عبادة العجل تنبيهاً على عظيم جرمهم.

وفي هذا التكرار أيضاً من الفائدة تذكارهم بتعداد نعم الله عليهم ونقمه منهم ، ليزدجر الأخلاف بما حل بالأسلاف .

(**بِقُوَّةٍ**) تقدم شرحها ، ومعناه : أي : أُمروا أن يأخذوا الكتاب الذي أنزله عليهم وهو التوراة بقوة في تصديق أخباره والعمل بأحكامه .

(**وَاسْمَعُوا**) المراد بالسمع هنا الإجابة، ومنه قولهم (سمعاً وطاعة) أي: إجابة، ومنه (سمع الله لمن حمده) في الصلاة ، أي: أجاب دعاء من حمده ، ويشهد له قوله تعالى (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) وهذا قول الجمهور .

وقيل : المراد (وَاسْمَعُوا) بآذانكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع .

قال ابن عاشور : قوله : (واسمعوا) مراد به الامتثال فهو كناية كما تقول فلان لا يسمع كلامي أي لا يمتثل أمري إذ ليس الأمر هنا بالسماع بمعنى الإصغاء إلى التوراة فإن قوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) يتضمنه ابتداء .

(**قَالُوا سَمِعْنَا**) بآذاننا .

(**وَعَصَيْنَا**) بأفعالنا ، والعصيان مخالفة الأمر ، إن كان أمراً فبتركه ، وإن كان نهياً فبارتكابه ، وقولهم هذا **:** غاية ما يكون من المحادة لله عز وجل ورسله .

(**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**) أي **:** حب العجل ، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم ، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن العجل في قلوبهم .

قال القرطبي : وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل ، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها ، والطعام مجاور لها غير متغلغل فيها .

وقال ابن عطية : قوله تعالى (وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) التقدير حب العجل ، والمعنى جعلت قلوبهم تشربه ، وهذا تشبيه ومجاز ، عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم .

وقال ابن عاشور : وإنما جعل حبهم العجل إشراباً لهم للإشارة إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه كقولهم أُولِع بكذا وشُغِف .

فائدة : قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَهُمْ مَحَبَّةٌ شَدِيدَةٌ لِأَهْوَائِهِمْ ؟، فَقَالَ: أَنَسِيتَ قَوْله تَعَالَى: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِم) .

(**بِكُفْرِهِمْ**) أي **:** بسبب كفرهم .

(**قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ**) أي **:** قل لهم على سبيل التهكم بهم ، بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل .

(**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**) أي **:** إن كنتم تزعمون الإيمان فبئس هذا العمل والصنيع ، والمعنى **:** لستم بمؤمنين ، لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل .

الفوائد :

١ - أن الله أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان .

٢ - بيان قدرة الله تعالى .

٣ - وجوب تلقي الشريعة بالقوة والنشاط دون الكسل .

٤ - بيان عتو بني إسرائيل .

٥ - أن الله تعالى قد يبتلي العبد ، فيملأ قلبه حباً لما يكرهه لقوله (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) .

(قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) .

[البقرة : ٩٤- ٩٦] .

(**قُلْ**) يا محمد لهؤلاء اليهود .

(**إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ**) يعني الجنة .

(**عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ**) كما تزعمون أن لكم الجنة دون الناس ، فإن اليهود ادعوا دعاوى باطلة :

كقولهم (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً) .

وقولهم (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) .

وقولهم (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (من دون الناس) والمراد من الناس جميع الناس فاللام فيه للاستغراق لأنهم قالوا (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً) .

فأكذبهم الله بقوله :

(**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) وقد اختلف العلماء في معنى (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ) على قولين :

القول الأول : دعاهم لتمني الموت إن كانوا من أهل الجنة كما يزعمون .

لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة ، لما يصير إليه من نعيم الجنة ويزول عنه أذى الدنيا ، فأحجموا عن تمي ذلك فرقاً من الله لقبح أعمالهم ، وحرصهم على الدنيا .

وهذا القول رجحه ابن جرير .

- **قال أبو حيان** : وعلق تمنيهم على شرط مفقود، وهو كونهم صادقين، وليسوا بصادقين في أن الجنة خالصة لهم دون الناس، فلا يقع التمني : والمقصود من ذلك التحدي وإظهار كذبهم ، وذلك أن من أيقن أنه من أهل الجنة ، اختار أن ينتقل إليها ، وأن يخلص من المقام في دار الأكدار ، وأن يصل إلى دار القرار.

كما روي عمن شهد له رسول الله e بالجنة ، كعثمان ، وعليّ ، وعمار ، وحذيفة ، أنهم كانوا يختارون الموت .

وفي الحديث الصحيح أنه قال e (ليتني أحيا ثم أقتل ثم أحيا فأقتل) لما علم من فضل الشهادة.

وروي عن حذيفة أنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة.

وعن عمار ، لما كان بصفين قال : غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه.

وعن عليّ أنه كان يطوف بين الصفين بغلالة ، فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزيّ المحاربين ، فقال : يا بنيّ لا يبالي أبوك ، أعلى الموت سقط ، أم عليه سقط الموت.

وكان عبد الله بن رواحة ينشد ، وهو يقاتل الروم :

يا حبذا الجنة واقترابها . . .طيبة وبارد شرابها

القول الثاني : المراد المباهلة ، أي : ادعوا بالموت على أكذب الفريقين منا ومنكم فما دعوا لعلمهم بكذبهم .

ورجح هذا القول ابن كثير وقال : هذا هو المتعين وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ، ونقله ابن جرير عن قتادة وأبي العالية والربيع بن أنس ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) فهم عليهم لعائن الله لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، دعُوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين ، فلما نكلوا عن ذلك ، علم كل أحد أنهم ظالمون ، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علِم كذبهم .

- **قال ابن كثير** : وسميت هذه المباهلة تمنياً ، لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له .

(**وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**) أي : ولن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام .

- والذي قدمته أيديهم : تكذيبهم الأنبياء ، وقتلهم إياهم ، وقولهم (أرنا الله جهرة) ، وقولهم (اجعل لنا إلهاً) وقولهم (فاذهب أنت وربك) واعتداؤهم في السبت ، وسائر الكبائر التي لم تصدر من أمة قبلهم ولا بعدهم.
- **قال أبو حيان :** (ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم) هذا من المعجزات ، لأنه إخبار بالغيب .
- وأضيفت الأعمال إلى اليد ، لأن أكثر الجنايات التي يرتكبها الإنسان تكون بيده فأضيفت سائر أعمال الجوارح إلى اليد تغليباً ، فتحريف التوراة كان باليد ، وقتل الأنبياء كان باليد .
- **قال الرازي :** قوله تعالى (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) فبيان للعلة التي لها لا يتمنون (الموت) لأنهم إذا علموا سوء طريقتهم وكثرة ذنوبهم دعاهم ذلك إلى أن لا يتمنوا الموت.

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**) تهديد لكل ظالم، أن الله عليم بهم وبأعمالهم وسيجازيهم عليها، وأعظم الظلم الشرك بالله كما تقدم.

- **قال الرازي :** قوله تعالى (والله عليهم بالظالمين) فهو كالزجر والتهديد لأنه إذا كان عالماً بالسر والنجوى ولم يمكن إخفاء شيء عنه صار تصور المكلف لذلك من أعظم الصوارف عن المعاصي ، وإنما ذكر الظالمين لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافراً فلما كان ذلك أعم كان أولى بالذكر.

(**وَلَتَجِدَنَّهُمْ**) أي : اليهود .

(**أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ**) أي : على طول العمر ، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة .

- **قال ابن عاشور :** والمراد من الناس في الظاهر جميع الناس أي جميع البشر فهم أحرصهم على الحياة فإن الحرص على الحياة غريزية في الناس إلا أن الناس فيه متفاوتون قوة وكيفية وأسباباً .

(**وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**) أي: وأحرص من الذين أشركوا الذين لا كتاب لهم، لأن مشركي العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة، ولا علم لهم من الآخرة ، وقيل : إن الكلام تم في (حياة) ثم استأنف الإخبار عن طائفة من المشركين ، **والأول أصح** .

- **قال في التسهيل :** (وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ) فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون عطفاً على ما قبله فيوصل به ، ولمعنى أن اليهود أحرص على الحياة من الناس ومن الذين أشركوا ، فحمل على المعنى كأنه قال : أحرص من الناس ومن الذين أشركوا ، وخص الذين أشركوا بالذكر بعد دخولهم في عموم الناس لأنهم لا يؤمنون بالآخرة فإفراط حبهم للحياة الدنيا .

والآخر : أن يكون من الذين أشركوا ابتداء كلام فيوقف على ما قبله ، والمعنى : من الذين أشركوا قوم (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) فحذف الموصوف .

وقيل : أراد به المجوس ، لأنهم يقولون لملوكهم عش ألف سنة ، **والأول أظهر**؛ لأن الكلام إنما هو في اليهود ، وعلى الثاني يخرج الكلام عنهم .

- **قال السعدي :** هم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس ، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب .

(**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ**) أي : يتمنى أحدهم .

(**لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**) أي : أن يعيش ألف سنة ، وهذا أبلغ ما يكون من الحرص ، تمنوا حالة هي من المحالات .

- وعبر بالألف لأن العرب كانت تعبر به عند إرادة المبالغة .
- **قال الرازي:** (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) فالمراد أنه تعالى بيّن بعدهم عن تمني الموت من حيث إنهم يتمنون هذا البقاء ويحرصون عليه هذا الحرص الشديد، ومن هذا حاله كيف يتصور منه تمني الموت.

(**وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ**) أي : وما طول العمر – مهما عمّر – بمبعده ومنجيه من عذاب الله .

- **قال الشنقيطي** : إذا عرفت معنى الآية فاعلم أن الله قد أوضح هذا المعنى مبيناً أن الإنسان لو متع ما متع من السنين ثم انقضى ذلك المتاع وجاءه العذاب ، أن ذلك المتاع الفائت لا ينفعه ، ولا يغني عنه شيئاً بعد انقضائه وحلول العذاب محله. وذلك في قوله (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ مَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ) ، وهذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل. كفانا الله والمؤمنين شره .

(**وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**) تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم ، فالله بصير بالذي يعملونه من ظاهر وباطن ، وخير وشر .

- وبصير يجوز أن يكون من الإبصار بالعين ، ويجوز أن يكون من الإبصار بالعلم

الفوائد :

١ - تكذيب اليهود الذين قالوا لنا الآخرة دون الناس .

٢ - أن الكافر يكره الموت لما يعلم من سوء العاقبة .

٣ - إثبات علم الله للمستقبل .

٤ - أن اليهود أحرص الناس على حياة .

٥ - ذم الحرص على الحياة ، وأن ذلك من صفات اليهود .

٦ - أن كل من كان مذنباً عاصياً لله فإنه يكره الموت .

٧ - أن الإنسان مهما طال عمره فإنه لابد أن يموت .

٨ - أن طول العمر لا ينفع الإنسان شيئاً إذا كان في معصية ، بل يكون وبالاً وعذاباً عليه .

٩ - إثبات البصر لله تعالى .

(قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ)

[البقرة ٩٧-٩٨]

(**قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ**) **قال الطبري** : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل ؛ إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم .

عن ابن عباس قال (أقبلت يهود على رسول الله e فقالوا: يا أبا القاسم؛ أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نقول وكيل، قال: هاتوا، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟ قال: يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت. قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكي عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا - قال أحمد: قال بعضهم يعني الإبل - فحرم لحومها. قالوا: صدقت. قالوا: فأخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيديه أو في يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى. قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته. قالوا: صدقت. قالوا: إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخير، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل u . قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان، فأنزل الله (قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ ...) .

• **قال ابن عاشور** : ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من الله ويبغضونه ، وهذا من أحط دركات الانحطاط في العقل والعقيدة ، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبئ عن تظاهر آرائهم على الخطأ والأوهام .

(**فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ**) أي من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه، فهو رسول من رسل الله ملكي، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ...) فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) .

• فقوله (فإنه) أي : جبريل ، (نزّله) أي : نزّل القرآن ، مع أن القرآن لم يسبق له ذكر ، لكن عاد الضمير للقرآن ، لأنه مفهوم من السياق كما في قوله تعالى (ما ترك على ظهرها من دابة) فحذفت الأرض لدلالة السياق عليها .

• **قال الرازي** : قوله تعالى (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ) الهاء في قوله تعالى (فإنه) وفي قوله (نزله) إلى ماذا يعود ؟

الجواب فيه قولان : أحدهما : أن الهاء الأولى تعود على جبريل والثانية : على القرآن وإن لم يجر له ذكر لأنه كالمعلوم كقوله (مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ) يعني على الأرض وهذا قول ابن عباس وأكثر أهل العلم ، أي إن كانت عداوتهم لأن جبريل ينزل القرآن فإنما ينزله بإذن الله.

• **قال القرطبي** رحمه الله : وخص القلب بالذكر ؛ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف .

• **قال الشنقيطي** في قوله (فإنه نزله على قلبك) : ظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن على قلب النبي e من غير سماع قراءة ، ونظيرها في ذلك قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك) ولكنه بين في مواضع أخر أن معنى ذلك : أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى تنزيله على قلبه ، وذلك كما في قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) وقوله : (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) .

• **قوله تعالى (بِإِذْنِ اللَّهِ)** فيه أن جبريل لا ينزل من عند نفسه بل ينزل بإذن الله .

(**مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**)سبق الكلام عن معناه .

(**وَهُدًى**) أي : هدى لقلوبهم .

(**وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**) وبشرى لهم بالجنة ، وليس ذلك إلا للمؤمنين ، كما قال تعالى : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ) وقال تعالى : (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

• **قال ابن عاشور** : والبشرى الإخبار بحصول أمر سار أو بترقب حصوله ، فالقرآن بشر المؤمنين بأنهم على هدى وكمال ورضى من الله تعالى وبشرهم بأن الله سيؤتيهم خير الدنيا وخير الآخرة.

• **وقال رحمه الله** : فقد حصل من الأوصاف الخمسة للقرآن وهي أنه منزل من عند الله بإذن الله ، وأنه منزل على قلب الرسول ، وأنه مصدق لما سبقه من الكتب ، وأنه هاد أبلغ هدى ، وأنه بشرى للمؤمنين ، الثناء على القرآن بكرم الأصل وكرم المقر وكرم الفئة ومفيض الخير على أتباعه الأخيار خيراً عاجلاً وواعد لهم بعاقبة الخير.

(**مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ...**) يقول تعالى : من عاداني وملائكتي ورسلي ؛ ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى : (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) .

- قوله تعالى (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) هذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خُصِّصَا بالذكر، لأن السياق في الانتصار لجبرائيل وهو السفير بين الله وبين أنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم، وميكائيل وليهم، فأعلمهم الله أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً .

وقيل : خُصا بالذكر تشريفاً لهما وبياناً لفضلهما .

- **قال الماوردى :** فإن قيل : فلم قال (مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌ لِلْكَافِرِينَ) وقد دخل جبريل وميكائيل في عموم الملائكة فلِمَ خصهما بالذكر ؟ فعنه جوابان :

أحدهما : أنهما خُصَّا بالذكر تشريفاً لهما وتمييزاً.

والثاني : أن اليهود لما قالوا جبريل عدوّنا ، وميكائيل ولينا ، خُصَّا بالذكر ، لأن اليهود تزعم أنهم ليسوا بأعداء لله وملائكته ، لأن جبريل وميكائيل مخصوصان من جملة الملائكة ، فنص عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص.

وقال ابن عاشور : وخُص جبريل بالذكر هنا لزيادة الاهتمام بعقاب معاديه

(**فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**) أظهر في موضع الإضمار فإنه قال (عدو للكافرين) ولم يقل : عدو لهم ، لثلاثة أمور :

أولاً : الحكم على أن من كان عدواً لله ومن ذُكر ، بأنه يكون كافراً .

الثاني : أن كل كافر سواء كان سبب كفره معاداة الله أولا ، فالله عدو له .

الثالث : بيان العلة – وهي في هذه الآية – الكفر . [قاله الشيخ ابن عثيمين] .

قال الشيخ السبت : أظهر هنا في موضع الإضمار ، من أجل أن يبين أن عداوة جبريل كفر بالله .

الفوائد :

١- شرف جبريل u حيث كان موكلاً بتنزيل الوحي على رسول الله e .

٢- ذم من عادى جبريل .

٣- شرف جبريل وميكائيل ، وجاء في صحيح مسلم عن عائشة أن النبي e كان إذا قام من الليل يقول : (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) .

٤- أن القلب هو محل الوعي والفهم .

٥- أن نزول جبريل بالوحي على رسول الله e كان بإذن الله .

٦- بيان أن لجبريل u وإن كان من الملائكة ، أعداء من البشر من بني آدم ومن أولهم اليهود .

٧- أن هذا القرآن لا يهتدي به وينتفع به ويكون بشرى إلا للمؤمنين ، أما غير المؤمنين فإنه لا ينتفع بهذا القرآن .

٨- أن كل من كان عدواً لله أو ملائكته أو لرسله أو لجبريل وميكال ، فإنه كافر .

٩- أن كل كافر هو عدو لله ، ويشهد لهذا قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) .

١٠- أن كل من كان عدواً لله، فإنه يجب أن يكون عدواً للمؤمنين، لأن من أحب أحداً كان ولياً لمن والاه وعدواً لمن عاداه.

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) .

[البقرة: ٩٩]

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) قال ابن جرير في هذه الآية: أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك ، وتلك الآيات هو ما حواه كتاب الله من خفايا علم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على محمد e ، فكان من ذلك في أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي ، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة ؛ تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد e من الآيات البينات . (تفسير الطبري) .

قال الرازي : الأظهر أن المراد من الآيات البينات القرآن الذي لا يأتي بمثله الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وقال بعضهم : لا يمتنع أن يكون المراد من الآيات البينات القرآن مع سائر الدلائل نحو امتناعهم من المباهلة ومن تمني الموت وسائر المعجزات نحو إشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ونبوع الماء من بين أصابعه وانشقاق القمر .

(وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) أي : وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الجاحدون عن الطاعة الماردون عن الكفر .

قال أبو حيان (وما يكفر بها إلا الفاسقون) المراد بالفاسقين هنا : الكافرون ، لأن كفر آيات الله تعالى هو من باب فسق العقائد ، فليس من باب فسق الأفعال.

سبق أن الفسق يطلق على الفسق المخرج عن الملة ، وعلى الفسق ما دون ذلك [عند آية :] .

الفوائد :

١ - أن القرآن آيات بينات ليس فيها غموض ولا إشكال .

٢ - الرد على من قال : إن آيات القرآن مشتبهات لا يعلم معناها الناس ، فإن جميع آيات القرآن الكريم معلومة المعنى وليس فيها شيء مجهول المعنى لجميع الأمة ، لو كان فيها شيء مجهول المعنى لجميع الأمة لم يكن القرآن بياناً ، بل كان بعضه بياناً وبعضه غير بيان .

٣ - أنه لا يكفر بهذه الآيات التي أنزلها على محمد e إلا الفاسق الخارج عن طاعة الله .

٤ - أن كل من كان أطوع لله عز وجل وأقوم لطاعته ، كان ظهور الآيات الكريمة في القرآن أبين عنده وأوضح .

٥ - يجب العناية بهذا القرآن .

(أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) .

[البقرة: ١٠٠]

(أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) يقول تعالى في هذه الآية موبخاً هؤلاء القوم بنبذ فريق منهم لما عاهدوا عليه ، يقول (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) ثم يبين أن هذا النبذ بالعهد لكون أكثرهم لا يؤمنون .

- **قال الرازي :** أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات بأن ذلك ليس ببدع منهم ، بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم على ما بينه في الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالاً بعد حال لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته كصعوبة من لم تجر عادته بذلك
- والنبذ الطرح والإلقاء ، ومنه سمي اللقيط منبوذاً .

- قيل إن اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركي العرب ، فلما بُعِثَ كفروا به، وقال عطاء: هي العهود التي كانت بين النبي e وبين اليهود فنقضوها ، كفعل قريظة والنظير .
- **قال الشنقيطي** عند هذه الآية ، قال : ذكر في هذه الآية أن اليهود كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم، وصرح في موضع آخر أن رسول الله e هو المعاهد لهم وأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة ، وذلك في قوله تعالى : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ) .

وصرح في آية أخرى بأنهم أهل خيانة إلا القليل منهم ، وذلك في قوله : (وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ) .

- يجب الحذر من اليهود ، فإن من دأبهم الغدر ونقض العهود ، كما قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) وقال تعالى (وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ) .

(**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**) أي : بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق .

- **قال ابن عاشور** : وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم فنبه على أنه أكثرهم بقوله (بل أكثرهم لا يؤمنون) .
- **قال أبو حيان** : ولما كان الفريق ينطلق على القليل والكثير ، وأسند النبذ إليه ، كان فيما يتبادر إليه الذهن أنه يحتمل أن يكون النابذون قليلاً ، فبين أن النابذين هم الأكثر ، وصار ذكر الأكثر دليلاً على أن الفريق هنا لا يراد به اليسير منهم ، فكان هذا إضراباً عما يحتمله لفظ الفريق من دلالته على القليل.

الفوائد :

١- توبيخ من عاهد عهداً فنبذه .

٢- أنه إذا وقع الخطاب من بعض قوم فإنه لا ينسب إلى الجميع ، بل العدل أن يشار إلى أن هذا – الذي حصل – إنما كان من فريق منهم لئلا يلحق العار جميع القوم مع براءة بعضهم منه .

٣- أن نقض العهد علامة على نقض الإيمان ، ولهذا جاء في الحديث عن النبي e : أن من خصال النفاق الغدر بالعهد .

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) .

[سورة البقرة: ١٠١]

(**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**) أي : ولما أتاهم رسول ، مرسل من عند الله وهو محمد .

- وقوله تعالى (وَلَمَّا جَاءَهُمْ) الضمير يعود إلى اليهود وأحبارهم ، لأن الآيات في الكلام عنهم .
- هذه الآية كسابقتها ، فيها التوبيخ لهؤلاء القوم الذين عرفوا الحق لكن فريقاً منهم نبذه وكأنهم لا يعلمون .
- قوله تعالى (رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) هو محمد e ، الذي أخذ الله الميثاق على الرسل لئن بعث وهم أحياء ليؤمنن به ، وهم أيضاً أخذوا الميثاق على أقوامهم بذلك .
- قوله تعالى (رَسُولٌ) نكّر رسول للتعظيم ، فهو أفضل الرسل، وسيد ولد آدم كما قال e (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة) ، وفي حديث أبي سعيد قال e (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) .

(**مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**) (ما) موصولة ، أي : مصدق للذي معهم من التوراة والإنجيل .

- وتصديق من وجهين :

الأول : أنه كان معترفاً بنبوة موسى وبصحة التوراة .

الثاني : أنه مصدقاً لما معهم من حيث إن التوراة بشرت بمقدم محمد e ، فإذا أتى محمد كان مجرد مجيئه مصدقاً للتوراة ، فهو مصدق لما جاء فيها من البشارة به e .

(نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) أي : طرح وترك فريق من الذين أنزل عليهم وهم اليهود والنصارى كتاب الله (وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) أي خلف ظهورهم ، وهو مثل يُضرب لمن يستخف بالشيء فلا يعمل به، تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك ، ودبر أذنك ، وتحت قدمك ، أي اتركه وأعرض عنه .

- وقد اختلف العلماء في المراد بكتاب الله هنا على قولين :

قيل : أنهم نبذوا التوراة وأعرضوا عنها .

وقيل : أن المراد بالكتاب هنا هو القرآن .

ورجح كثير من العلماء القول الأول .

- **قال الرازي** مرجحاً القول الأول : وهذا هو الأقرب ، لوجهين :

الأول : أن النبذ لا يعقل إلا فيما تمسكوا به أولاً وأما إذا لم يلتفتوا إليه لا يقال إنهم نبذوه .

الثاني : أنه قال (نَبَذَ فَرِيقٌ مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب) ولو كان المراد به القرآن لم يكن لتخصيص الفريق معنى لأن جميعهم لا يصدقون بالقرآن .

- **قال الشوكاني :** قوله تعالى (كتاب الله وراء ظهورهم) :

قيل : التوراة ، لأنهم لما كفروا بالنبي e ، وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم في التوراة والإيمان به واتباعه ، وبين لهم صفته ، كأن ذلك منهم نبذاً للتوراة ونقضاً لها ورفضاً لما فيها .

ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن ، أي جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذي جاء به هذا الرسول ، وهذا أظهر .

- **قال أبو حيان :** ومعنى نبذهم له : اطراح أحكامه ، أو اطراح ما فيه من صفة رسول الله e ، إذ الكفر ببعض ، كفر بالجميع .

- قوله تعالى (فريق ...) مفهومه أن فريقاً منهم آمن كالنجاشي من النصارى ، وعبد الله بن سلام من اليهود) .

- **قال الشنقيطي :** ذكر في هذه الآية الكريمة أن كثيراً من اليهود نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يؤمنوا به ، وبين في موضع آخر أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالكتاب هم الأكثر ، وذلك في قوله تعالى : (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) .

- قوله تعالى (نَبَذَ فَرِيقٌ) النبذ : الطرح والإلقاء والترك والاستغناء .

(كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئاً مع كونهم يعلمون علماً يقيناً من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي e ، ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم ، بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم ، كانوا بمنزلة من لا يعلم .

وهذا من أخص صفات اليهود ، ترك الحق وكتمانه وتكذيبه وجحده بعد معرفته قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) .

ولهذا وصفهم الله عز وجل بالمغضوب عليهم لأنهم عرفوا الحق وتركوه، ومثلهم من سلك طريقهم في ترك الحق بعد معرفته، كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى .

ولما لم ينتفعوا بعلمهم صاروا كمن لا يعلم ، بل أقل وأسوأ حالاً منه ، كما قال تعالى فيهم (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

الفوائد :

١- صدق رسالة النبي e ، لقوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) .

٢- أن رسول الله e مرسل إلى بني إسرائيل ، كما أنه مرسل إلى الأميين وهم العرب ، بل وإلى الناس أجمعين ، قال تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

٣- أن رسول الله e كان مصدقاً لما جاءت به الرسل السابقة ، أي مقراً بأنها صدق وشاهد بصدق .

٤- قيام الحجة على بني إسرائيل، حيث كان محمداً e مصدقاً لما معهم، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

٥- أن الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم من بني إسرائيل ، نبذوه عن علم ، لأنهم أوتوا الكتاب وعرفوا الحق .

٦- أن نبذ هؤلاء الفريق من الذين أتوا الكتاب نبذ لا يرجى معه إقبال ، لقوله : (وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) والذي ينبذ كتاب الله وراء ظهره في الدنيا ، يؤتى كتابه يوم القيامة من وراء ظهره جزاءً وفاقاً .

٧- أن من نبذ عن علم ؛ أشد قبحاً ولوماً ممن نبذ عن جهل ، ولهذا قال : (كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) .

٨- التحذير من رد الحق بعد العلم .

٩- أن من رد الحق بعد العلم به ففيه شبه من بني إسرائيل من اليهود والنصارى .

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

[البقرة : ١٠٢]

(وَاتَّبَعُوا) : أي اليهود ، قيل : من كان في زمن النبي e ، وقيل : من كان في زمن سليمان ، وابن جرير جمع بين المعنيين .

- ومعنى اتبعوا : **قيل** : فعلوا واختاره ابن جرير ، **وقيل** : من الاتباع المعروف .

(مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ) (ما) هنا موصولة ، أي : الذي تتلوه الشياطين ، وفي معنى (تتلوا) قولان : **قيل** : من التلاوة ، أي تحدّث وتخبر به وتقصه ، **وقيل** : تتّبع وتعمل به . (هذا يتلوا هذا أي يتبعه) .

- فابتلي هؤلاء اليهود عقوبة لهم على نبذ كتاب الله ، باتباع ما تتلوا الشياطين ، وهكذا من ترك الحق مع علمه به ، ابتلي وعوقب باتباع الباطل ، كما قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وقال تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) ، وقال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

قوله تعالى (الشَّيَاطِينُ) المراد بالشياطين هنا شياطين الجن ، وهذا هو المفهوم من هذه الآية .

(عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) أي : على عهد ملك سليمان ، وقيل (على) بمعنى (في) أي : في ملك سليمان أي : في قصصه وصفاته وأخباره .

• وهو سليمان بن داود عليهما السلام ، وإنما قال الله (على ملك سليمان) لأن الله قد جمع له بين النبوة والملك العظيم خلاف ما يزعمه اليهود فقط أنه ملك فقط .

• والسحر موجود قبل زمان سليمان عليه السلام ، فهو موجود في زمن موسى كما ذكر الله عن سحرة فرعون ، وموسى قبل سليمان بمدد طويلة ، بل إن السحر كان موجوداً ومعروفاً في زمن نبي الله صالح وهو قبل إبراهيم الخليل عليه السلام فقد قال قوم صالح له (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) أي : من المسحورين .

فالشياطين كانت تأتي بالسحر وتعلمه قبل سليمان عليه السلام ، وتعلّمه الناس ، وإنما أخبر عز وجل عن اليهود أنهم اتبعوا ما تتلوه الشياطين على عهد سليمان عليه السلام لأن الشياطين وأتباعهم من اليهود نسبوا ذلك إلى سليمان كذباً منهم وزوراً .

(**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ**) أي : وما كفر سليمان بتعلم السحر وتعليمه كما يزعمه الشياطين وأتباعهم من اليهود ، لأنه رسول من عند الله معصوم من الكفر وأسبابه .

• وهذه الآية تبرئة لسليمان من الكفر ، لأن اليهود نسبوه إلى السحر ، ولما كان السحر كفراً كان بمنزلة من نسبه إلى الكفر . (فليس هناك أحد قال إن سليمان كافر لكن نسبوه للسحر والسحر كفر) .

• قال الرازي : قوله تعالى (وَمَا كَفَرَ سليمان) فهذا تنزيه له عليه السلام عن الكفر ، وذلك يدل على أن القوم نسبوه إلى الكفر والسحر : قيل فيه أشياء :

أحدها : ما روي عن بعض أحبار اليهود أنهم قالوا : ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبياً وما كان إلا ساحراً ، فأنزل الله هذه الآية.

وثانيها : أن السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فنزهه الله تعالى منه.

وثالثها : أن قوماً زعموا أن قوام ملكه كان بالسحر فبرأه الله منه لأن كونه نبياً ينافي كونه ساحراً كافراً ،

• وأخذ العلماء من هذه الآية كفر الساحر .

ثم بين تعالى أن الذي برأه منه لاصق بغيره فقال :

(**وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**) هذا دليل آخر على كفر من تعلم السحر .

(**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**) تفسير لقوله (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) .

• والسحر لغة : ما خفي ولطف سببه ، وفي الشرع : عزائم ورقى وعقد ينفث فيها فتؤثر في العقول والأبدان بإذن الله الكوني ، ولا يحصل إلا بالشعوذة ودعاء الشياطين والاستعانة بهم والكفر بالله .

(**وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**) (ما) موصولة بمعنى (الذي) والمعنى : اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، واتبعوا الذي أنزل على الملَكين أحدهما هاروت والآخر ماروت .

والمراد بالإنزال هنا بمعنى الخلق كما قال e (ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله) رواه أحمد .

وكما في حديث أم سلمة (أن النبي e استيقظ ليلة فقال : سبحان الله! ماذا أنزل الليلة من الفتن، ما أنزل من الخزائن ...) رواه البخاري .

• والمراد بالملكين هؤلاء: ملكان أنزلا إلى الأرض وأذن لهما في تعليم السحر، وأنه جائز في حقهما، ابتلاء وامتحاناً للناس، بعدما بيّن لهم على ألسنة الرسل أن ذلك لا يجوز ، فأكثر المفسرين على أن هاروت وماروت ملكان أُنزِلا إلى الأرض يعلمان السحر ابتلاء واختباراً للناس .

- وقد روي في سبب نزول هاروت وماروت إلى الأرض وما كان من أمرهما آثار غريبة جداً عن جمع من السلف ، بل روي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي e ... وكل ذلك لا يصح وباطل ، وكيف تصح والله يقول (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) وقال (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) .
- قوله تعالى (ببابل) اسم بلد في العراق .
- وقد جاءت روايات كثيرة إسرائيلية لا تصح فيما يتعلق بهذه الآية لا يصح منها شيء .

(**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ**) أي : هؤلاء الملكين : هاروت وماروت .

(**حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ**) أي : يقولا له ناصحين ومحذرين (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) أي : إنما نحن في تعليمنا السحر ابتلاء وامتحان للناس ، ليظهر مدى تمسكهم في دينهم (فَلا تَكْفُرْ) أي : فلا تكفر بتعلم السحر .

قال الحسن في تفسير الآية : نعَم ، أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) .

وقال قتادة : كان أخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولا (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) أي : بلاء ابتلينا به (فلا تكفر) .

- والفتنة الاختبار والابتلاء كما قال تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ) أي : ابتلاؤك واختبارك ، وتكون في الخير والشر كما قال تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)
- والله عز وجل يبتلي عباده بما شاء ومن ذلك ابتلاء العباد بهذا السحر .
- **فإن قيل** : كيف ينزل السحر على الملكين ويعلمانه الناس والله يقول في شأن الملائكة (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

الجواب الأول : أن هذا من قبيل الاختبار والابتلاء ، فهؤلاء الملائكة كانوا يعلمون السحر ولم يكونوا يشتغلون به .

الجواب الثاني : أن هذا من العام المخصوص بمعنى أن عموم الملائكة صالحون مطيعون لله إلا أنه قد يكون فيهم من عصى .

قال ابن كثير : وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان أمرهما ما كان، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد ففي مسنده ، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا ، فيكون تخصيصاً لهما ، فلا تعارض حينئذ ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق .

(**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا**) أي : فيتعلم الذين يجترئون على تعلم السحر بعد تحذيرهم منه (**مِنْهُمَا**) أي : من هاروت وماروت .

(**مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**) (ما) موصولة بمعنى (الذي) أي : السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه ، وهذا من أشد أنواع السحر وأخبثها وأعظمها ضرراً ، يخيل فيه لكل واحد من الزوجين المسحورين صاحبه بأقبح صورة ، حتى يكرهه وينصرف عنه ويفارقه ، وهذا ما يسمى بالصرف .

وهذا من صنيع الشياطين كما قال e (إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ....) رواه مسلم .

- وفي هذا دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب والبغض والجمع والفرقة والقرب والبعد .

(**وَمَا هُمْ**) إشارة إلى السحرة ، **وقيل** : إلى اليهود ، **وقيل** : إلى الشياطين

(**بِضَارِّينَ بِهِ**) أي : بالسحر ، لأن الحديث عنه .

(**مِنْ أَحَدٍ**) أي : أحداً .

(**إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**) أي : إلا بإرادته وقضائه وقدره وعلمه سبحانه وتعالى ، فلا تأثير للسحر بذاته ، فمن قضى الله كوناً وقدراً أن يضره السحر ضره ، ومن قضى أن لا يضره السحر فلا يمكن أن يضره أبداً .

- واختار ابن جرير في قوله (إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) أي : لمن سبق في علم الله أن يحصل له **ذلك** :

فقال رحمه الله (وما هم بضارين) بالذي تعلموا من الملكين من أحد إلا بعلم الله، يعني بالذي سبق له في علم الله أنه يضره .

قال الحسن : (وما هم بضارين به ...) قال : نعم ، من شاء الله سلطهم عليه ، ومن لم يشأ الله لم يسلط ، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله .

- فعلى العبد إخلاص العبادة لله تعالى والتحصن والأذكار والأوراد الشرعية مع صدق التوكل على الله ، وتمام الثقة به ، فهو الحافظ الكافي والواقي من جميع الشرور قبل وقوعها والرافع لها بعد وقوعها ، فمن توكل عليه حفظه ووقاه وكفاه (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .

- **قال السعدي** : وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير تابعة للقضاء والقدر ، ليست مستقلة في التأثير .

(**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ**) أي : الذي يضرهم في دينهم ودنياهم وأخراهم ضرراً محضاً ولهذا قال :

(**وَلا يَنْفَعُهُمْ**) فأثبت ضرره ونفى نفعه .

واختار ابن جرير (مَا يَضُرُّهُمْ) في دينهم (وَلا يَنْفَعُهُمْ) في معادهم ، فقال رحمه الله :

(**وَيَتَعَلَّمُونَ**) أَيْ النَّاسُ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ مِنَ الْمَلَكَيْنِ، مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمَا مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا السِّحْرَ الَّذِي يَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ (**وَلاَ يَنْفَعُهُمْ**) فِي مَعَادِهِمْ . فَأَمَّا فِي الْعَاجِلِ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يَكْسِبُونَ بِهِ وَيُصِيبُونَ بِهِ مَعَاشاً .

- فهم يتعلمون ما يضرهم ضرراً محضاً لا فائدة فيه بوجه من الوجوه وذلك لأمور :

أولاً : أن تعلم السحر كفر ، والكفر ضد الإيمان ، وإذا فقد الإنسان الإيمان فقد خسر خسراناً كبيراً .

ثانياً : أن ما يأخذه الساحر من أموال الناس بالباطل مقابل عمله الباطل ، يذهب سحتاً لا بركة فيه .

(**وَلَقَدْ عَلِمُوا**) أي : اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة النبي e ، النابذون لكتاب الله وراء ظهورهم .

(**لَمَنِ اشْتَرَاهُ**) أي : لمن اختاره واعتاض به عن الإيمان .

(**مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ**) أي : في الدار الآخرة ، وسميت آخرة لأنها متأخرة زمناً بعد الدنيا ، وإلا فهي الدار الحقيقية كما قال تعالى (وإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

(**مِنْ خَلاقٍ**) أي : من نصيب من خير .

- **قال ابن القيم** : أي علموا من أخذ السحر وقبِلَه لا نصيب له في الآخرة ، ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترون به ويقبلونه ويتعلمونه .

- وهذا ديدن اليهود ، ترك الحق بعد معرفته كما قال تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ، ولهذا وصفوا بالمغضوب عليهم في القرآن الكريم في مواضع عديدة كما قال تعالى (غير المغضوب عليهم) .

(**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**) قال ابن كثير : أي : ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول e لو كان لهم علم بما وعظوا به .

وقيل : ولبئس ما شروا : أي بايعوا أنفسهم واختاره ابن جرير حيث قال : معنى (شروا) باعوا ، فمعنى الكلام إذاً : ولبئس ما باع به نفسه من تعلّم السحر لو كان يعلم سوء عاقبتهِ .

- والضمير في قوله (به) يعود إلى السحر .

فباعوا أنفسهم بثمن حقير قبيح زهيد وهو السحر ، فخسروا أنفسهم وخسروا دينهم ودنياهم وأخراهم .

- قوله تعالى (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أي : علماً ينفعهم ، فهم لم ينتفعوا بالعلم فلذلك نفيَ عنهم العلم ، والإنسان إذا لم ينتفع بعلمه فكأنه ما علِمَه .

(**وَلَوْ أَنَّهُمْ**) أي : هؤلاء الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وتعلموا السحر واعتاضوا به عن الإيمان من اليهود وغيرهم .

(**آمَنُوا**) فصدقوا بقلوبهم وألسنتهم وانقادوا بجوارحهم لفعل ما أمرهم الله به .

(**وَاتَّقَوْا**) ربهم فخافوه ، واجتنبوا نواهيه من السحر وغيره ، وخافوا عقابه .

(**لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**) أي : لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر .

- المثوبة : الأجر والجزاء ، وسمي أجرهم وجزاؤهم بالمثوبة أخذاً من ثاب يثوب إذا رجع ، لأن ثمرة عملهم رجعت إليهم .
- وفي وصف المثوبة بأنها من عند الله تعظيم وتفخيم لها ، لأنها من عند الجواد الكريم ، فلا يدرك قدر عظمتها إلا العظيم سبحانه ، وأيضاً في ذلك تأكيد ضمانها ، لأنها من عند الله ، وهو الذي لا يخلف الميعاد .

(**خَيْرٌ**) أن ثواب الله إياهم على ذلك خير لهم من السحر ومما اكتسبوه به ، (**خير**) من كل شيء ، خيرية مطلقة ، خير مما باعوا به أنفسهم من تعلم السحر وتعليمه ، ومما يحصلون عليه من متاع الدنيا ، والثمن القليل وغير ذلك .

(**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**) أي : لو كانوا من ذوي العلم النافع الذين ينتفعون بعلمهم .

وهذه الآية كقوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) .

وقوله تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . والآخرة خير وأبقى) .

وقال تعالى (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وقال تعالى (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وفي قوله (لو كانوا يعلمون) تأكيد لشدة جهلهم وعدم علمهم ، وأن العلم الحقيقي الممدوح ما انتفع به صاحبه ، وأن من أعظم الجهل ترك الحق بعد معرفته والعلم به ، وهذا من أخص أوصاف اليهود ، ولهذا استحقوا غضب الله ومقته .

فالمعنى الإجمالي : أن الشياطين في ذلك الزمن كانوا يسترقون السمع من السماء، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها، ويلقونها إلى كهنة اليهود وأحبارهم، وقد دونها هؤلاء في كتب يقرؤونها، ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان u حتى قالوا: هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه يسخر الإنسان والجن والريح التي تجري بأمره، وهذا من افتراءات اليهود على الأنبياء، فأكذبهم الله بقوله (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) ثم عطف عليه: (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ...) فالمراد بما أنزل هو: علم السحر الذي نزلا ليعلماه الناس، حتى يحذروا منه، فالسبب في نزولهما هو: تعليم الناس أبواباً من السحر، حتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة، وأن سليمان لم يكن ساحراً، وإنما كان نبياً مرسلاً من ربه، وقد احتاط الملكان – عليهما السلام – غاية الاحتياط، فما كانا يعلمان أحداً شيئاً من السحر حتى يحذراه، ويقولا له: (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) أي بلاء واختبار، (فَلا تَكْفُرْ) بتعلمه والعمل به، وأما من تعلمه للحذر منه، وليعلم الفرق بينه وبين النبوة

والمعجزة؛ فهذا لا شيء فيه، بل هو أمر مطلوب مرغوب فيه إذا دعت الضرورة إليه، ولكن الناس ما كانوا يأخذون بالنصيحة، بل كانوا يفرقون بين المرء وزوجه، وذلك بإذن الله ومشيئته.

الفوائد :

١- أن الله سبحانه وتعالى سخر الشياطين لسليمان ، وامتحن الناس بهم ، لقوله تعالى : (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) .

٢- أن سليمان u لم يكفر بكفر هؤلاء الشياطين الذين تعلموا السحر وصاروا يتلونه ويلقونه على الناس، وذلك لأن الأنبياء معصومون من الكفر والشرك .

٣- أن اليهود أخذوا السحر عن الشياطين .

٤- أن العمل بالسحر كفر ، لقوله تعالى : (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ...) .

٥- أن تعليم الناس السحر من الكفر ، لقوله تعالى : (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) .

٦- أن الحق ما أذن الله فيه وأمر به ولو كان في نفسه باطلاً، فهذان الملكان نزلا إلى الأرض ليعلما الناس السحر، وتعليم السحر كما سبق كفر، لكن الله عز وجل أباح لهذين الملكين أن يعلما الناس من أجل هذا الامتحان الذي حصل بتعليمهما.

الشيء قد يكون كفراً ، وقد يكون طاعة ولو كان واحداً من نوعه ، وأضرب لهذا مثلين :

أحدهما : السجود لغير الله ، كفر وشرك ، وإذا سجد الإنسان لغير الله بأمر الله كان عبادة ، ألم تر قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) فهنا نجد أن السجود لغير الله كان طاعة وعبادة ، لأن الله أمر به ، ويكون شركاً في الحالة التي لم يأمر الله به فيها .

الثاني : قتل النفس ، فإنه من كبائر الذنوب ، ولا سيما إذا كان المقتول من أقارب القاتل ، ومع ذلك كان طاعة يمدح عليه ، وذلك في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام .

فالملكان اللذان نزلا يعلمان الناس السحر نزلا بأمر الله وبإذن الله، فكان تعليمهما للسحر طاعة لله ، لكنه باعتبار المعلَّم كفر، ولهذا قال : (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) .

٧- أن الله تعالى قد ييسر للإنسان أسباب المعصية ليبلوه هل يعصي الله أم لا ، فالله يسّر تعلم السحر بما أنزل على الملكين وبما بذلاه من أنفسهما لتعليم الناس ، وكما في قصة أصحاب السبت حين حرّم عليهم صيد البحر يوم السبت ، فلم يصبروا حتى تحيلوا على صيدها يوم السبت فقال الله تعالى (كونوا قردة خاسئين) .

٨- أنه يجب على الإنسان أن ينصح للناس . وإن أوجب ذلك إعراضهم عنه ؛ لقوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما فتنة فلا تكفر) فإذا كانت عندك سلعة رديئة، وأراد أحد شراءها يجب عليك أن تُحذِّره.

٩- أن من أعظم أنواع السحر : التفريق بين الرجل وزوجته ، لقوله : (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) وهذا يسمى بالعطف والصرف .

١٠- أن ما يقع من تأثير السحر ، إنما يقع بأمر الله وإرادته ، لقوله تعالى : (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) .

١١- أن الأسباب وإن عظمت لا تأثير لها إلا بإذن الله .

١٢- الإشارة إلى أنه ينبغي للمسحور أن يلجأ إلى الله، وأن يسأله رفع ما نزل به بصدق وإخلاص وضرورة.

١٣- أن السحر ضرر على الساحر كما هو ضرر على غيره ، وإن ظن الساحر أنه ينتفع بذلك ، وأنه يكسب من ورائه ، فإن هذا الكسب خبيث ، ولهذا قال : (وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ) .

١٤- تقبيح ما حصل من هؤلاء من تعلم السحر ، حيث قال : (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ) .

١٥- أن هؤلاء الذين اختاروا تعلم السحر وأهلكوا أنفسهم به ، كانوا من أجهل الناس .

١٦- سعة فضل الله وإحسانه وكرمه ، فهؤلاء الذين عتوا وبغوا على الخلق بما يتعلمونه من السحر ، بعْرض الله عليهم أن يؤمنوا ويتقوا حتى يكون لهم المثوبة ، وهذا أنموذج من نماذج سعة الله وفضله .

١٧- أن ما عند الله من الثواب خير مما يحصل في الدنيا من المكاسب ، وهذا ظاهر بالأثر والنظر ، أما الأثر فقد بين الله في غير آية أن الآخرة خير من الدنيا ، فقال تعالى : (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال النبي e : (وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري

١٨- أن هؤلاء الذين تعلموا السحر - مع علمهم بأن من اشتراه لا خلاق له في الآخرة - من ذوي الجهالة وكأنهم لا يعلمون، لذا قال : (لو كانوا يعلمون) .

١٩- الحث على العلم والعمل به ، وإن لم يعمل بعلمه فهو كالجاهل بل أشد قبحاً من الجاهل .

قال ابن القيم : لو نفع العلم بلا عمل لما ذم اليهود .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة البقرة: ١٠٤]

- - - - - - - - - - - - - -

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد :

الأولى : العناية والاهتمام به والتنبيه .

الثانية : الإغراء ، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان ، كما تقول يا ابن الأجود جُد .

الثالثة : أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان ، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان .

(لا تَقُولُوا رَاعِنَا) قال ابن كثير : يخاطب الله المؤمنين بصفة الإيمان لينهاهم أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص .

قال ابن عباس : كان المسلمون يقولون للنبي e راعنا على جهة الطلب والرغبة – من المراعاة – أي التفت إلينا ، وكان هذا بلسان اليهود سباً ، أي : اسمعْ لا سمعتَ ، فاغتنموها وقالوا : كنا نسبه سراً ، فالآن نسبه جهراً ، فكانوا يخاطبون بها النبي e ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم ، فقال لليهود : عليكم لعنة الله ، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي e لأضربن عنقه ، فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ، ونهوا عنها لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه .

والأصل أن (راعنا) في اللغة أي : أرعنا سمعك ، أي فرغ سمعك لكلامنا .

واليهود لا يقصدون هذا المعنى ؛ وإنما يقصدون بها من الرعونة ، فتكون (راعنا) أي : إنك ذليل .

قال الشوكاني : وجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سباً ، قيل إنه في لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت؛ وقيل غير ذلك ، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبيّ e راعنا؛طلباً منه أن يراعيهم من المراعاة ، اغتنموا الفرصة ، وكانوا يقولون للنبي e كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي ، مبطنين أنهم يقصدون السبّ الذي هو : معنى هذا اللفظ في لغتهم .

وقيل : إنما نهى الله المسلمين عنها لما فيها من الجفاء وقلة التوقير .

(لا تَقُولُوا رَاعِنَا) النهي للتحريم .

جمهور العلماء أن النهي كان بسبب أن اليهود كانت تستخدم تلك الكلمة للاستهزاء برسول e وسبه والسخرية والنيْل منه، وذهب ابن جرير إلى أنها كلمة كرهها الله أن تقال لنبيه e كما قال النبي e : لا تقولوا للعنب الكرم ، وذكر رحمه الله كلاماً طويلاً . [١ ، ٥٤٢] .

هذه الآية أصل في قاعدة : سد الذرائع .

قال القرطبي : والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يُخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع .

قال ابن القيم : وإذا تأملت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع إلى المحرمات .

فنهى الله عن سب آلهة المشركين ، لكونه ذريعة إلى أن يسبوا الله تعالى عدواً وكفراً على وجه المقابلة .

وأمسك e عن قتل المنافقين مع ما فيه من المصلحة لكونه ذريعة إلى التنفير وقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه .

ومنع النساء إذا خرجن إلى المسجد من الطيب والبخور ، ومنعهن من التسبيح في الصلاة لنائبة تنوب بل جعل لهن التصفيق .

ونهى المرأة أن تصف لزوجها امرأة غيرها ، حتى كأنه ينظر إليها .

ونهى عن بناء المساجد على القبور ، ولعن فاعله .

ونهى عن تعليه القبور وتشريفها وأمر بتسويتها .

ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لكون هاتين الوقتين وقت سجود الكفار للشمس ، ففي الصلاة نوع تشبه بهم في الظاهر .

ونهى عن التشبه بأهل الكتاب وغيرهم من الكفار في مواضع كثيرة ، لأن المشابهة الظاهرة ذريعة إلى الموافقة الباطنة .

وحرم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها ، لكونه ذريعة إلى قطيعة الرحم .

وأمر بالتسوية بين الأولاد في العطية ، وأخبر أن تخصيص بعضهم بها جور لا يصلح ، لكون ذلك ذريعة ظاهرة إلى وقوع العداوة بين الأولاد وقطيعة الرحم بينهم .

ومنع من تجاوز أربع زوجات ، لكونه ذريعة ظاهرة إلى الجور ، وعدم العدل بينهن .

ومن ذلك : نهيه سبحانه رسوله e عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو ، لما في ذلك ذريعة إلى سبهم للقرآن ومن أنزله .

ومن ذلك : أنه سبحانه نهى الصحابة أن يقولوا للنبي e (راعنا) مع قصدهم المعنى الصحيح ، وهو المراعاة ، لئلا يتخذ اليهود هذه اللفظة ذريعة إلى السب ، ولئلا يتشبهوا بهم .

ومن ذلك أن السنة مضت بكراهة إفراد رجب بالصوم ، وإفراد يوم الجمعة ، لئلا يتخذ ذريعة إلى الابتداع في الدين ، وتخصيص زمان لم يخصه الشارع بالعبادة .

ونهى e عن قتال الأمراء والخروج على الأئمة وإن ظلموا وجاروا ، ما أقاموا الصلاة ، سداً لذريعة الفساد العظيم والشر الكبير بقتالهم كما هو الواقع ، فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعاف أضعاف ما هم عليه ، والأمة في بقايا تلك الشرور إلى الآن .

(وَقُولُوا انْظُرْنَا) أي : إذا أردتم من الرسول e أن يراعيكم ويرفق بكم فلا تقولوا (راعنا) ولكن قولوا (انظرنا) أي : ارفق بنا ، وارقبنا وانتظرنا .

(**وَاسْمَعُوا**) فعل أمر من السمع بمعنى الاستجابة ، أي : اسمعوا سمع استجابة وقبول كما قال تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ) .

- (واسمعوا) لم يذكر المسموع ، ليعم كل ما أمر الشرع باستماعه من سماع كلام الله وكلام رسوله e سماع تدبر ، وطاعة وانقياد ، واستجابة وانتفاع .
- **قال الطبري** : أي : واسمعوا ما يقال لكم ويتلى عليكم من كتاب ربكم وعوه وافهموه .

(**وَلِلْكَافِرِينَ**) عامة ، وبخاصة اليهود .

(**عَذَابٌ**) أي : عقاب .

(**أَلِيمٌ**) أي مؤلم موجع حسياً للأبدان ، ومؤلم معنوياً للقلوب .

الفوائد :

١- أنه إذا ذكر باب ممنوع مسدود أمام الناس ، فإن الحكمة تقتضي أن يذكر لهم ما يستغنون به عنه من الأشياء المباحة ، لهذا قال : (وَقُولُوا انْظُرْنَا) فهو لم ينههم ويجعلهم عائمين لا يدرون ما يقولون ، بل أرشدهم إلى القولة المباحة النافعة ، وهي : (انظرنا) .

٢- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام .

٣- النهي عن مشابهة المشركين ، عن عمر قال : قال رسول الله e : (بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم) . رواه أبو داود

قال ابن كثير : ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم ، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم عن حديث (ومن تشبه بقوم فهو منهم) قال: وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم.

٤- تحريم الخطاب بالكلمات المحتملة للحق والباطل بالنسبة للرسول e .

٥- تجني اليهود في تحريف الكلم عن مواضعه ، وجرأتهم على وصف الرسول e والمؤمنين بالمعاني السيئة القبيحة .

٦- وجوب الاحتراز من التعابير التي قد توهم معاني سيئة ، والحرص على الأدب في الألفاظ فذلك أسلم وأكمل .

٧- سد الذرائع الموصلة إلى أمر محظور شرعاً .

٨- وجوب السمع والطاعة لأوامر الله ، لقوله تعالى : (واسمعوا) .

٩- ثبوت الجزاء على العمل لقوله (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

[البقرة : ١٠٥]

- - - - - - - - - - - - - - -

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) أي : ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزّل عليكم شيئاً من الخير، بغضاً فيكم وحسداً ، مهما قلّ، لا في الدين ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ) .

- **قال ابن كثير :** يبين الله عز وجل بهذه الآية شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، والذين حذر الله من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينه .
- **وقال الشيخ ابن عثيمين :** والخير هنا يشمل خير الدنيا والآخر ، والقليل والكثير ، لو حصل للكافرين من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن المشركين أن يمنعوا القطر عن المسلمين لفعلوا ، وليس هذا خاصاً بأهل الكتاب والمشركين في زمان الرسول e ، بل هو عام .

قال الشوكاني : فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يودّون إنزال الخير عليهم من الله سبحانه .

وقال رحمه الله : والظاهر أنهم لا يودّون أن ينزل على المسلمين أيّ خير كان .

(مَا يَوَدُّ) قال القرطبي : ما يتمنى .

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) أي: والله يخص برحمته من يشاء من عباده، كما قال تعالى **(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ).**

واختلف في المراد بالرحمة هنا :

فقيل : بالنبوة ، خص بها محمداً e .

وقيل : القرآن .

وقيل : الرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديماً وحديثاً . [تفسير القرطبي] .

وهذا القول هو الصحيح : أن الرحمة عامة وما ذكر من الأقوال السابقة هو تفسير بالمثال فليس بينها تضاد .

وأعظم هذه الرحمة ما خص به نبينا e وأمته من بعثته فيهم ، وإنزال القرآن عليه .

كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

وقال تعالى (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

قال الطبري: قوله تعالى (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ..) تعريض من الله تعالى بأهل الكتاب، أن الذي آتى نبيه محمد e والمؤمنين به من الهداية تفضلاً منه، وأن نعمه لا تدرك بالأماني، ولكنها مواهب منه يختص بها من يشاء من خلقه .

قوله تعالى (من يشاء) قال الشيخ ابن عثيمين: وليُعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، أي: أنه ليست مشيئة الله مشيئة مجردة هكذا تأتي عفواً، لا، بل هي مشيئة مقرونة بالحكمة، والدليل على ذلك قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله بيّن أن ذلك مبني على علم وحكمة .

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ) أي : ذو العطاء الزائد عما تتعلق به الضرورة ، ومعنى (ذو) صاحب .

(الْعَظِيمِ) أي : الواسع الكثير ، فالعِظم هنا يعود إلى الكمية وإلى الكيفية .

- فالله هو صاحب الإحسان والفضل على عباده كما قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .
- **قال الطبري :** وأما قوله (والله ذو الفضل العظيم) فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم ، فإنه من عنده ابتداء وتفضلاً منه عليهم من غير استحقاق منهم ذلك عليه .
- **قال السعدي :** ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم ، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فلله الحمد والمنة .

كما قال تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

الفوائد :

١- أن اليهود والنصارى والمشركين لا يودون الخير للمسلمين ، وهذا ليس خاص بزمن الرسول e ، بل هو عام إلى يوم القيامة .

٢- أن من كره الخير للمؤمنين عموماً أو البعض منهم على سبيل الخصوص، فإن فيه شبهاً من اليهود والنصارى والمشركين.

٣- تحريم كراهة نزول الخير للمؤمنين ، وكراهة نزول الخير هو الحسد ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إن التفسير الصحيح للحسد : هو أن يكره الإنسان ما أنزل الله على غيره من الخير ، سواء تمنى زواله أو لم يتمنّ .

٤- بيان ما منح الله هذه الأمة من الربوبية الخاصة ، ولهذا قال (من خير من ربكم) .

٥- وجوب الحذر من الكفار .

٦- أن القرآن منزل من عند الله .

٧- إثبات صفة العلو لله تعالى .

٨- أن الخلق والملك والتدبير كله بيد الله .

٩- أن فضل الله قد يختص لأناس دون آخرين (والله يختص برحمته من يشاء) .

١٠- إثبات أن الله موصوف بالفضل العظيم ، حيث قال تعالى (والله ذو الفضل العظيم) .

١١- أنه لا يليق بالإنسان أن يطلب الفضل من غير الله ، بل يطلب الفضل من الله وحده .

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ)

[البقرة : ١٠٦ - ١٠٧]

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ) أي : ما نرفع حكم آية – سواء مع بقاء تلاوتها أو نسخ تلاوتها – لأن النسخ يكون على أنواع كما سيأتي إن شاء الله .

- النسخ يأتي في لغة العرب بمعنيين :

الأول : بمعنى : النقل ، وذلك إما ببقاء الأصل المنقول كما تقول : نسخت الكتاب ، وإما أن يكون مع انتقال أصله ،كما لو أنقل الشيء من مكانه إلى مكان آخر .

الثاني : ويكون بمعنى الإزالة والرفع ، ويكون بإزالة المنسوخ وإحلال مكانه شيء آخر كما تقول : نسخت الشمس الظل – فحل محل الظل الشمس - ، ونسْخ بإذهاب المنسوخ من غير أن يحل مكانه غيره ، كما لو تقول: نسخت الريح الأثر ، أي: أذهبته ومحته . (وهذا المشهور عند العلماء بتفسير النسخ) .

- فالنسخ رفع حكم شرعي بخطاب شرعي بحكم آخر متراخ عنه .

قال الطبري : يعني جل ثناؤه : ما ننقل من حكم آية إلى غيرها فنبدِّله ونغيره ، وذلك أن يُحول الحلال حراماً والحرام حلالاً والمباح محظوراً والمحظور مباحاً ، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ .

(**أَوْ نُنسِهَا**) **قيل** : من النسيان الذي هو بمعنى الترك ، فيكون المعنى : ما ننسخ من آية أو نتركها بلا نسخ نأت بخير منها أو مثلها [أي : يثبت لفظها ونترك حكمها] وقد جاءت قراءة أخرى تؤيد ذلك وهي بفتح النون والهمزة بعد السين (نَنْسَأها) أي: نؤخرها فلا ننسخها، ورجحه الطبري وقال: ومعنى ذلك: ما نبدل من حكم آية فتغيره أو نترك تبديله فنقرّه بحاله .

وقيل : أن المراد النسيان المعروف والمعنى : نرفع لفظها فلا يستقر منها في القلوب والأذهان شيء

نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا) مطلقاً في الدين والدنيا والآخرة ، ومن حيث العمل ومن حيث الثواب والأجر وغير ذلك .

قال الطبري : نأت بخير منها لكم من حكم الآية التي نسخناها فغيرنا حكمها ، إما في العاجل لخفته عليكم ، من أجل أنه وضع فرض كان عليكم فأسقط ثقله عنكم ، وإما في الآجل لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله وثقل عبئه على الأبدان . [وسيأتي أمثلة للنسخ إن شاء الله] .

- فإن كان النسخ إلى أثقل، كما في نسخ التخيير بين الصيام والإطعام بإيجاب الصيام، فالخيرية فيه بمضاعفة الأجر والثواب، لأن الأجر على قدر المشقة .

وإن كان النسخ إلى أخف ، كما في نسخ مصابرة الواحد للعشرة في القتال ، بمصابرته الاثنين فقط ، وكما في نسخ وجوب قيام الليل إلى الندب ، فالخيرية في هذا بالتخفيف على الأمة مع تمام الأجر .

وإن كان النسخ إلى مساوٍ ومماثل ، كما نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة ، فالخيرية في هذا الاستسلام لأمر الله وتمام الانقياد له .

(**أَوْ مِثْلِهَا**) في الخيرية ، من حيث العمل والأجر وغير ذلك ، أو مثلها في العمل ، وإن كان خير منها في العاقبة والأجر .

- اختلف العلماء هل يكون النسخ إلى غير بدل أم لابد من بدل ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن النسخ يكون إلى غير بدل ، ومثلوه بنسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي نجوى رسول الله e في قوله تعالى : (أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ...) .

وقد رد هذا القول الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان ٣٦٢/٣ ، وفي مذكرته على الروضة ص٧٩ وبين أن القول بالنسخ إلى غير بدل غير صحيح وإن قال به جمهور العلماء ، لأنه مخالف لقوله تعالى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) ثم أورد أمثلة الجمهور وأجاب عنها :

وأجاب الجمهور عن هذه الآية : أن النسخ إلى غير بدل لا يعارض الآية ، لأن الله تعالى عليم حكيم ، فقد يكون عدم الحكم خيراً من ذلك الحكم المنسوخ في نفعه للناس .

(**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) أي : ألم تعلم أيها المخاطب ، أن الله عليم حكيم قدير ، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد .

- ومن قدرته أنه سبحانه : يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، وينسخ من الأحكام ما يشاء ويبقي ما يشاء ، كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .
- ووجه ختم قوله تعالى (ما ننسخ ...) بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على ...) ؟ بيان قدرة الله ونفي العجز عنه ، فالله قادر على أن يأتي بالآية المحكمة قبل الآية المنسوخة ، ولكن يؤخر هذه ويُبدل هذه بتلك ، وهو عالم بالأول والآخر ، ويعلم ما يصلح الناس في وقت وما يصلحهم في الوقت الآخر .

(**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي : خلقاً وملكاً وتدبيراً ، فهو سبحانه مالك الأعيان ، ومالك التصرف فيها .

- **قال الشوكاني :** أي له التصرف في السموات والأرض بالإيجاد، والاختراع، ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها، وشرعها لهم . وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال، والأزمنة، والأشخاص، وهذا صنع من لا وليّ لهم غيره، ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول، والامتثال، والتعظيم، والإجلال .
- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين :

الفائدة الأولى : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

الفائدة الثانية : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

قال ابن كثير : يرشد عباده تعالى بهذه الآية إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر وهو المتصرف ، فكما يخلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا .

وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً ، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكاً .

(**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**) أي : وما لكم من غير الله من ولي : يرعى شؤونكم ، أو ناصر ينصركم ، فالله نعم الولي ونعم النصير .

- **قال الشيخ ابن عثيمين :** اعلم أن الولي والنصير إذا اجتمعا صار الولي فيما ينفع ، والنصير من يدافع عنك ممن يعتدي عليك ، وأما إذا أفرد أحدهما شمل الآخر ، فإذا قيل : ولي بدون نصير ، فالمراد به من يجلب لك الخير ويدفع عنك الشر .

الفوائد :

١- أن الله قد يُنسي الرسول e الآية من كتاب الله .

٢- إثبات القدرة لله عز وجل في قوله : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وأن القدرة متقررة عند الإنسان بفطرته .

٣- عموم قدرة الله في كل شيء في قوله : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فهو قادر على الموجود أن يعدمه ، وعلى المعدوم أن يوجده .

٤- قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : الآية عامة ، فهو قدير على كل شيء ، على ما شاءه وما لم يشأه ، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء ، وأما قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة ، ولكنها عائدة على الجمع ، يعني : إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء .

٥- تقرير ملك الله عز وجل للسماوات والأرض ، لقوله : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ).

٦- اختصاص ملك السماوات والأرض لله عز وجل لا يملكهما أحد سواه ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

٧- أن ولاية الله عامة وخاصة ، فالعامة هي تولي أمور الخلق ، وهذه عامة لكل أحد حتى الكفار .
وخاصة وهي الولاية التي تتضمن العناية والتوفيق والسداد ، وهذه خاصة بالمؤمنين .

فائدة : النسخ :

- **تعريفه :** لغة الإزالة والنقل .

مثال الإزالة تقول : نسخت الشمس الظل ، أي أزالته .

وأما النقل فتقول : نسخت الكتاب أي نقلته .

وشرعاً : هو رفع حكم دليل شرعي أو لفظه بدليل شرعي .

قولنا (رفع حكم) أي تغييره من إيجاب إلى إباحة ، مثل : صيام عاشوراء ، أو من إباحة إلى تحريم ، مثل : شرب الخمر .

وقولنا (أو لفظه) لفظ الدليل الشرعي، لأن النسخ: إما أن يكون للحكم دون الفظ، أو بالعكس، أو لهما جميعاً كما سيأتي .

وخرج بقولنا (بدليل من الكتاب والسنة) ما عداهما من الأدلة ، كالإجماع والقياس ، فلا ينسخ بهما .

فالقياس لا ينسخ لأننا لو نسخنا بالقياس، لصادمنا النصوص بالقياس، ولأنه أصلاً لا يوجد قياس صحيح مخالف للنص أبداً.

وأما الإجماع فلا ينسخ لأنه لا يمكن أن يوجد إجماع من الأمة على خلاف النص .

- **النسخ جائز عقلاً وواقع شرعاً .**

أما جوازه عقلاً ، فلأن الله بيده الأمر وله الحكم ، لأنه الرب المالك ، فله أن يشرع لعباده ما تقتضيه حكمته ورحمته ، وهل يمنع العقل أن يأمر المالك مملوكه بما أراد ؟ ثم إن مقتضى حكمة الله ورحمته بعباده أن يشرع لهم ما يعلم تعالى أن فيه قيام مصالح دينهم ودنياهم ، والمصالح تختلف بحسب الأحوال والأزمان ، فقد يكون الحكم في وقت أو حال ، أصلح للعباد ، ويكون غيره في وقت أو حال أخرى أصلح ، والله عليم حكيم .

وأما وقوعه شرعاً فلأدلة منها :

قوله تعالى : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) ثم قال سبحانه : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) وهذا نص صريح في النسخ .

قوله e : (كنت نهيتكم عز زيارة القبور فزوروها) رواه مسلم

فهذا نص صريح في نسخ النهي عن زيارة القبور .

الآراء في النسخ :

١- اليهود : وهؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم في زعمهم البداء وهو الظهور بعد الخفاء ، وهم يعنون بذلك أن النسخ : إما أن يكون لغير حكمة ، وهذا أعبث محال على الله ، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ، ولم تكن ظاهرة من قبل ، وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل ، وهو محال على الله .

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها ، وجاء في نصوص التوراة النسخ ، كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حله ، قال تعالى في إخباره عنهم : (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ) .

٢- الروافض : وهؤلاء غالوا في إثبات النسخ وتوسعوا فيه وأجازوا البداء على الله ، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علي t زوراً وبهتاناً ، وبقوله تعالى : (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) .

٣- أبو مسلم الأصفهاني : قال : يجوز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعاً ، وقيل : يمنعه في القرآن خاصة محتجاً بقوله تعالى : (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ويحمل آيات النسخ على التخصيص .

٤- جمهور العلماء على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً ، وسبقت أدلتهم .

- **النسخ باعتبار المنسوخ :** فهو قسمان :

أ- إلى بدل .

ب- وإلى غير بدل .

أما النسخ إلى غير بدل ، فهو مذهب جمهور العلماء، ومثلوه بنسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي نجوى رسول الله e في قوله تعالى: (أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...).

وقد رد هذا القول الشنقيطي رحمه الله كما تقدم .

وأما النسخ إلى بدل ، فهو ثلاثة أقسام :

إلى بدل أخف. مثاله: قوله تعالى (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) فقد دلت الآية على وجوب مصابرة العشرين من المسلمين المائتين من الكفار، ومصابرة المائة الألف، فنسخ هذا الحكم بقوله: (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ).

إلى بدل أثقل . وهذا محل خلاف، والصحيح الجواز لوقوعه ، ومثاله: نسخ التخيير بين صيام رمضان والإطعام، في قوله تعالى : (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) نسخ بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) الدالة على وجوب الصيام في حق المقيم الصحيح، وإيجاب الصيام أثقل من التخيير بينه وبين الإطعام .

ولا دليل لمن منع هذا القسم محتجاً بآيات التيسير والتخفيف ورفع الحرج عن هذه الأمة ، كقوله تعالى : (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وقوله تعالى : (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) وذلك أن الحكم الجديد يكون ميسراً على المكلفين لا مشقة فيه ، مع ما فيه من زيادة النفع وعظم الثواب ، وثقله وصف له بالنسبة إلى ما قبله .

إلى بدل مساوٍ . ومثاله : نسخ استقبال بيت المقدس الثابت بالسنة كما في الحديث الصحيح (أنه e صلى إلى بيت المقدس بعد الهجرة بضعة عشر شهراً) . متفق عليه

نسخ هذا باستقبال الكعبة الثابت بقوله تعالى : (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) فاستقبال الكعبة مساوٍ لاستقبال بيت المقدس بالنسبة لفعل المكلف .

- **فإن قيل : ما الحكمة في نقل الحكم من الأخف إلى الأثقل ؟**

ابتلاء الناس بالامتثال وعدمه .

بيان حكمة الله تعالى في التدرج في التشريع ، حيث أنه يقابل الناس بالأهون حتى تستقبل نفوسهم الحكم الثاني بسهولة .

النسخ في القرآن :

ينقسم النسخ في القرآن إلى ثلاثة أقسام :

نسخ التلاوة والحكم معاً . مثاله : ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت : (كان فيما أنزل عشر رضعات يحرمن ، فنسخن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله e وهن مما يقرأ من القرآن) .

فآية التحريم بعشر رضعات منسوخ لفظها وحكمها .

وقولها (وهن مما يقرأ من القرآن) ظاهره بقاء التلاوة وليس كذلك، فإنه غير موجود في المصحف العثماني.

والجواب : قيل أن المراد : قارب الوفاة ، والأظهر أن التلاوة نسخت ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله e ، فتوفي وبعض الناس يقرؤها .

نسخ الحكم وبقاء التلاوة . وهذا أكثر أنواع النسخ في القرآن ، وتقدم له أمثلة .

مثال : آية المصابرة ، ومثاله أيضاً قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ) نسخت بقوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً) .

فإن قيل : ما الحكمة من رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟

أ- أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به ، فيتلى لكونه كلام الله تعالى ، فيثاب عليه القارئ فتركت التلاوة لهذه الحكمة .

ب- أن النسخ غالباً يكون للتخفيف ، فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة ورفع المشقة .

- **نسخ التلاوة وبقاء الحكم .**

ومثاله آية الرجم ، ففي الصحيحين عن عمر أنه قال (كان فيما أنزل فيما أنزل آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها وعقلناها ، ورجم رسول الله e ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ...) .

فإن قيل : ما الحكمة من رفع التلاوة وبقاء الحكم ؟

فالجواب ما نقله الزركشي في البرهان ٣٧/٢ عن ابن الجوزي أنه قال : إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به ، فيسرعون بأيسر شيء كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام ، والمنام أدنى طرق الوحي .

- **أقسام النسخ باعتبار الناسخ :**

هي أربعة أقسام :

نسخ القرآن بالقرآن . أمثلة :

o آية المصابرة (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) ثم نسخت بقوله : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) .

o آية الاعتداد بالحول ، نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً .

نسخ السنة بالقرآن . مثال :

o نسخ استقبال بيت المقدس الثابت بالسنة باستقبال الكعبة الثابت بقوله تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ...).

نسخ القرآن بالسنة .

وهذا فيه خلاف ، والصحيح الجواز سواء الحديث متواتراً أو أحاداً ، لأن محل النسخ هو الحكم ، وليس اللفظ ، والحكم لا يشترط في ثبوته التواتر .

وقد رجح جماعة من أهل العلم أن الحديث ولو كان آحاداً ينسخ القرآن، منهم: المحلى في شرحه على جمع الجوامع ٧٨/٢، وابن حزم في الأحكام ٤٧٧/١ ، ورجحه الشنقيطي في أضواء البيان ٣٦٧/٣ ، وفي مذكرته على الروضة /٨٦ .

مثال : قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : ولم أجد له مثالاً سليماً ، ومثل بعضهم بقوله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) مع حديث : (لا وصية لوارث) رواه الترمذي والنسائي . فقالوا : إن

الحديث ناسخ للوصية للوالدين والأقربين ، ولكن هذا فيه نظر ، فإن من شروط النسخ تعذر الجمع بين الدليلين ، وهنا يمكن الجمع عن طريق التخصص ، بأن يخرج من الآية الوارث منهما فلا وصية له بمقتضى الحديث ، فتكون الآية في حق غير الوارث ، ويكون الحديث في حق الوارث .

نسخ السنة بالسنة .

مثاله : قوله e : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) رواه مسلم .

فلما قال (كنت نهيتكم) علم أن النهي من السنة .

- **ما يمتنع نسخه :**

أولاً : الأخبار ، لأن النسخ محله الحكم ، ولأن نسخ أحد الخبرين يستلزم أن يكون أحدهما كذباً ، والكذب مستحيل في إخبار الله ورسوله .

ثانياً : الأحكام التي فيها مصلحة في كل زمان ومكان ، كالتوحيد وأصول الإيمان ، وأصول العبادات ، ومكارم الأخلاق من الصدق والعفاف والكرم والشجاعة ونحو ذلك ، فلا يمكن نسخ الأمر بها ، وكذلك لا يمكن نسخ النهي عما هو قبيح في كل زمان ومكان ، كالشرك والكفر ومساوئ الأخلاق من الكذب والفجور والبخل والجبن .

- **كيفية معرفة الناسخ والمنسوخ :**

النقل الصريح عن النبي e أو عن صحابي ، كحديث : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) . رواه مسلم

ومثال : ما علم بخبر صحابي، كقول عائشة : (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن بخمس معلومات) . رواه مسلم

معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ . مثاله: قوله تعالى: (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) فقوله (الآن) يدل على تأخر هذا الحكم .

- **شروط النسخ :**

١- تعذر الجمع بين الدليلين ، فإن أمكن الجمع فلا نسخ ، لإمكان العمل بكل منهما .

٢- العلم بتأخر الناسخ ، وَيُعْلَمُ ذلك : إما بالنص أو بخبر صحابي أو بالتاريخ ، وقد سبق ذلك قبل قليل .

مثال الجمع بين الدليلين إن أمكن :

ذهب كثير من أهل العلم أن الإمام إذا صلى قاعداً وجب على المأمومين القادرين على القيام أن يصلوا قياماً، واستدلوا : (أن النبي e خرج ذات يوم في مرض موته والناس يصلون خلف أبي بكر ، فتقدم حتى جلس عن يسار أبي بكر فجعل يصلي بهم e قاعداً وهم قيام هم يقتدون بأبي بكر وأبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله e) . رواه مسلم

قالوا : وهذا في آخر حياة النبي e ناسخاً لحديث : (وإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً) . رواه مسلم

وذهب بعض العلماء إلى الجمع بين الدليلين ، فقالوا :

إذا صلى الإمام بالمأمومين قاعداً من أول الصلاة ، فليصلوا قعوداً ، لحديث (وإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً) وإن صلى بهم قائماً ، ثم أصابته علة فجلس ، فإنهم يصلون قياماً .

قال الشيخ محمد حفظه الله : وبهذا يحصل الجمع بين الدليلين ، والجمع بين الدليلين إعمال لهما جميعاً .

(أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) .

[سورة البقرة: ١٠٨]

(أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية عن كثرة سؤال النبي e عن الأشياء قبل كونها ، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ) أي : وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبيّن لكم ، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه ، فلعله أن يحرم من أجل المسألة .

- **قال في التسهيل :** (تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ) أي : تطلبوا الآيات ، ويحتمل السؤال عن العلم ، والأوّل أرجح لما بعده ، فإنه شبهه بسؤالهم لموسى ، وهو قولهم لهم (أَرِنَا الله جَهْرَةً) .

ولهذا جاء في الصحيح (إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته) .

وعن المغيرة بن شعبة (أن رسول الله e كان ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال) .

وفي صحيح مسلم قال e (ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) .

- قوله تعالى (أَمْ تُرِيدُونَ) وهذا استفهام إنكاري عليهم ، وقيل : إنها بمعنى (بل) أي : بل تريدون .
- ويدخل في الآية صوراً كثيرة :

أ-كالسؤال عن الأشياء النادرة .

ب- وكالسؤال عن الأمور التي لا يترب عليها عمل وإنما تثير الشبه والنزاعات .

ج-وكالسؤال عن أمور سكت عنها الشارع ، كما سأل بنو إسرائيل عن صفات البقرة حينما طلب منهم موسى أن يذبحوا بقرة ، فتشددوا بالسؤال عنها وعن لونها فشُدد عليهم .

د-ويدخل في الآية : النهي عن اقتراح الآيات كقولهم (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) وطلبهم نزول الملائكة ، أو يكون له بيت من زخرف وغيرها .

واختلف العلماء لمن الخطاب هنا .

فقيل : للمؤمنين .

لأنه قال في آخر الآية (ومن يتبدل الكفر بالإيمان ...) وهذا الكلام لا يصح إلا في حق المؤمنين .

وقيل: لكفار مكة .

كم قال تعالى عنهم (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً) .

وقد سأل المشركون رسول الله e أن يجعل لهم الصفا ذهباً .

وقيل : المراد اليهود .

لأن هذه السورة من أول قوله (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي ..) حكاية عنهم ومحاجة معهم .

وقيل : يعم المؤمنين والكفار.

- **قال ابن كثير :** وهو يعم المؤمنين والكافرين ، فإنه e رسول الله إلى جميع الخلق .

- **قال الشنقيطي** في قوله (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ...) لم يبين هنا هذا الذي سأل موسى من قبل من هو ؟ ولكنه بينه في مواضع أخرى ، وذلك في قوله تعالى : (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) .

قال ابن كثير : والمراد أن الله ذم من سأل رسول الله e تعنتاً وتكذيباً وعناداً .

(**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ**) أي : ومن يشتر الكفر بالإيمان .

(**فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**) أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال ، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء وأتباعهم ، والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم ، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَار).

الفوائد :

١- توبيخ الأمة لو سألت كما سئل موسى .

٢- بيان حال قوم موسى من التعنت والتشدد .

٣- إثبات أن موسى u رسول .

٤- بيان أن موسى قد أوذي من قبل .

٥- أن من أخذ الكفر بديلاً عن الإيمان فإنه ضال مخطئ مهما ازدهرت له الدنيا .

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

[البقرة : ١٠٩- ١١٠]

(**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**) أي : تمنى وحب كثير من اليهود والنصارى .

وسموا أهل الكتاب، لأن الله أنزل عليهم الكتاب، فأنزل على اليهود التوراة، وعلى النصارى الإنجيل.

(**لَوْ يَرُدُّونَكُمْ**) أي : لو يصيرونكم كفاراً بعد أن آمنتم .

(**مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً**) الخطاب للمؤمنين من هذه الأمة ، أي : ودوا وتمنوا وأحبوا لو يرجعونكم من بعد إيمانكم بالله ورسوله وبما أنزل على رسوله e من الوحي والشرع المطهر .

(**كُفَّاراً**) مرتدين عن دينكم، متبعين لهم في دينهم، كما قال تعالى (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ).

(**حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**) أي : حسداً منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة ، فقوله (من عند أنفسهم) أي : هذا الحسد ناشيء من نفوسهم .

قال الضحاك عن ابن عباس : إن رسولاً أمياً يخبرهم بما في أيديهم في الكتاب والرسل والآيات ، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً .

قوله تعالى (مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) أي من تلقائهم من غير أن يجدوه في الكتاب ولا أمروا به ، ولفظة الحسد تعطي هذا ، فجاء (مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) تأكيداً وإلزاماً ، كما قال تعالى (يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) وقوله (وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) .

والحسد : تمني زوال نعمة الله عن الغير ، سواء تمنى كونها له أو لغيره ، أو مجرد زوالها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : الحسد كراهة نعمة الله على الغير .

قال ابن القيم : الحسد ثلاث مراتب :

أحدها : أن يحسد ويقوم بمقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح ، فهذا الحسد المذموم .

والثاني : تمني استصحاب عدم النعمة ، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة ، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب ، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس، ولا يسود أبداً، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً إلا قهراً .

والثالث : حسد الغبطة ، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه ، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه ، بل هذا قريب من المنافسة (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) .

وفي الصحيح قال e (لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ، ويعلمها الناس) فهذا حسد غبطة ، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه ، وحب خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول في جملتهم ، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما .

(مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) قال أبو العالية: من بعد ما تبين أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً إذ كان من غيرهم .

في هذه الآية أن الكفار يتمنون أن يردوا أهل الإيمان إلى كفر ، وهذا جاء ذلك في آيات أخرى :

قال تعالى (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً) .

وقال تعالى (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) .

وقال تعالى (وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) .

مباحث الحسد :

أولاً : تعريف الحسد :

هو تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يحصل للحاسد مثلها ، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود .

ثانياً : خطر الحسد :

أولاً : أنه من صفات اليهود .

كما في هذا الآية (... حسداً من عند أنفسهم) .

وكما في قوله تعالى (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

ثانياً : أنه من الإيذاء وتعد على المسلم .

قال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) .

ثالثاً : أن النبي e نهى عنه .

قال e (لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا) متفق عليه .

رابعاً : أنه اعتراض على قضاء الله وقدره .

فضل السلامة من الحسد :

أولاً : أن تركه من علامة كمال الإيمان .

فقد سئل رسول الله e : أي المؤمنين أفضل ؟ قال (المؤمن النقي القلب ، ليس فيه غل ولا حسد) رواه ابن ماجه .

ثانياً : أن الله أثنى على الأنصار بذلك .

قال تعالى (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أوتوا) .

من أقوال السلف في الحسد :

قال الأصمعي: رأيت أعرابياً أتى عليه مائة وعشرين سنة، فقلت له : ما أطول عمرك.فقال: تركتُ الحسد فبقيت.

وقال معاوية: كل إنسان أقدر على أن أرضيه، إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة. وقال عمر بن عبد العزيز: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: غم دائم ونفس متتابع. وقيل رأى موسى عليه السلام، رجلاً عند العرش فغبطه، فقال: ما صفته؟ فقيل: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ ، يَعْنِي حَسَدَ إبْلِيسَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ ، يَعْنِي حَسَدَ ابْنِ آدَمَ لِأَخِيهِ حَتَّى قَتَلَهُ .

وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ : لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِنْ الْحَسَدِ ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَى الْمَحْسُودِ .

وقال لابنه : يا بني ! إياك والحسد ، فإنه يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك .

وعن سفيان بن دينار قال : قلت لأبي بشر : أخبرني عن أعمال من كان قبلنا ؟ قال : كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيراً ، قال : قلت : ولم ذاك ؟ قال : لسلامة صدورهم .

وقيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ قال : لا أم لك ، أنسيت إخوة يوسف ، لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه .

وقال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار .

قال الشاعر :

كل العداوة قد تُرجَى إماتتها إلا عداوةَ من عاداك من حسدِ .

وقال الخليل بن أحمد : لا شيء أشبه بالمظلوم من الحاسد .

وقال بعض الحكماء : كل أحد يمكن أن ترضيه إلا الحاسد ، فانه لا يرضيه إلا زوال نعمتك .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً ، يقول : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد ، حزن لازم ، ونفس دائم ، وعقل هائم ، وحسرة لا تنقضي .

وقال عون بن عبد الله : إياك والكبْر ، فإن أول ذنب عصيَ الله به ثم قرأ (وإذ قلنا للملائكة ...) ، وإياك والحرص ، فإنه أخرج آدم من الجنة ثم قرأ (اهبطوا منها) ، وإياك والحسد ، فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق) .

قال بعض العلماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه :

أولها : قد أبغض كل نعمة قد ظهرت على غيره ، **والثاني** : سخط لقسمته كأنه يقول لربه : لم قسمت هكذا ؟ ، **والثالث** : أنه ضن بفضله ، يعني أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهو يبخل بفضل الله ، **والرابع** : خذل ولي الله ، لأنه يريد خذلانه وزوال النعمة عنه ، **والخامس** : أعان عدوه يعني إبليس لعنه الله .

قال بعض العلماء: ليس شيء من الشر أضر من الحسد، لأنه يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل إلى المحسود مكروه:

أولها : غم لا ينقطع .

والثاني : مصيبة لا يؤجر عليها .

والثالث : مذمة لا يحمد عليها .

والرابع : يسخط عليه الرب .

والخامس : تغلق عليه أبواب التوفيق .

(**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا**) العفو : ترك المؤاخذة بالذنب ، والصفح : إزالة أثره من النفس وترك اللوم والتثريب .

قال الآلوسي (فاعفوا واصفحوا) العفو : ترك عقوبة المذنب ، والصفح ترك التثريب والتأنيب وهو أبلغ من العفو إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح .

(**حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**) أي : حتى يأتي الله بأمره بقتالهم .

قال الرازي : (حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ) وذكروا فيه وجوهاً :

أحدها : أنه المجازاة يوم القيامة عن الحسن .

وثانيها : أنه قوة الرسول وكثرة أمته.

وثالثها : وهو قول أكثر الصحابة والتابعين ، إنه الأمر بالقتال لأن عنده يتعين أحد أمرين : إما الإسلام ، وإما الخضوع لدفع الجزية وتحمل الذل والصغار .

وفي هذا دلالة على مراعاة التشريع الإسلامي للظروف والأحوال والتدريج في التشريع .

ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة .

والناسخ لها قوله تعالى (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) .

وقوله (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) وكذا قال ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي .

والصحيح أن هذا ليس من قبيل النسخ ، لأمور :

أولاً : لأن هذه الآية وأشباهها مما أمر الله بالإعراض عن المشركين محمولة على وقت الضعف ، والآيات الأمر بقتالهم محمولة على وقت القوة ، وليست منسوخة .

ثانياً : أن الآية (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتى يأتي الله بأمره) مغياة بغاية ينتهي حكمها عند حلول تلك الغاية ولا يعد نسخاً .

(**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) أي : ذو قدرة تامة ، لا يعجزه شيء كما قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) ، وقال تعالى (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) .

فهو سبحانه ذو قدرة تامة على كل شيء ، يبدل الأحوال ، ويأتي بأمره ، ويعفو مع القدرة .

(**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**) تقدم ، ومعناه : أدوا الصلاة فرضها ونفلها تامة كاملة قائمة ، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها .

وَآتُوا الزَّكَاةَ) تقدم . ومعناه : أعطوا الزكاة المفروضة طيبة بها نفوسكم لمستحقيها .

والزكاة شرعاً : دفع مال مخصوص لطائفة مخصوصة تعبداً لله تعالى .

قال الشيخ ابن عثمين رحمه الله : إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أسباب النصر ، لأن الله ذكرها بعد قوله (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

(**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ**) أي : وما تقدموا لأنفسكم في حياتكم من خير أيا كان ومهما كان ، قل أو كثُر .

(**تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ**) أي : تلقوه عند الله يوم القيامة ، مدخراً لكم ثوابه مضاعفاً لكم أجره .

كما قال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً) .

وفي قوله (لِأَنْفُسِكُمْ) استجاشة للضمائر ، وتحريك للهمم ، بأن الإنسان إذا عمل ، إنما يعمل لنفسه ، كما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ) .

وقال e (كل الناس يغدوا ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) رواه مسلم .

قال الشوكاني: (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ...) حثّ من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة ، من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وتقديم الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم ، وينصرهم على المخالفين لهم .

جاء في الحديث (إن العبد إذا مات قال له الناس ما خلف ، وقالت له الملائكة ما قدم) .

وخرج البخاري عن عبد الله قال : قال رسول الله e (أَيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أحبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟) قالوا : يَا رسول اللهِ ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أحَبُّ إِلَيْهِ . قَالَ : (فإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أخَّرَ) .

وقال e (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم .

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ e (مَا بَقِيَ مِنْهَا ، قَالَتْ مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها ، قَالَ : بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا). رواه الترمذي .

كان أبو هريرة يبكي ويقول : سفري بعيد ، وزادي قليل .

وكان أبو الدرداء يقول : صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور .

وقال ابن السماك : إن الموتى لم يبكوا من الموت ، ولكنهم يبكون من حسرة الفوْت ، فاتَتْهم والله دار لم يتزودوا منها ، ودخلوا داراً لم يتزودوا لها .

قال أحد السلف: إذا أردت اللحاق بالمجدين وأنت صادق، فاجعل نصب عينيك قول الله جل وعلا (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً) . وقوله تعالى (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ).

وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة ، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء

ويروى عن ابن المبارك أنه لما احتضر نظر إلى السماء ، فضحك ثم قال : لمثل هذا فليعمل العاملون .

واحتضر بعض الصالحين فبكت امرأته ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : عليك أبكي ، قال : إن كنتِ باكية فابك على نفسك ، فأما أنا فقد بكيت على هذا اليوم منذ أربعين سنة .

وقيل لبعض السلف لما حضرته الوفاة : ما كان عملك ؟ فقال : لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به ، وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه .

وعن أنس بن عياض ، رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له : غداً القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة .

وهذا بلال – مؤذن رسول الله e - لما حضرته الوفاة قالت امرأته، واحزناه، فقال: بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبَه.

قال أبو حازم سلمة بن دينار : كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه ، ثم لا يضرك متى متّ .

قال النووي : عَبْد اللَّه بْن إِدْرِيس بْن يَزِيد الْأَوْدِيّ الْكُوفِيّ أَبُو مُحَمَّد الْمُتَّفَق عَلَى إِمَامَته وَجَلَالَته وَإِتْقَانه وَفَضِيلَته ، وَوَرَعِهِ وَعِبَادَته ، رُوِّينَا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِبِنْتِهِ حِين بَكَتْ عِنْد حُضُور مَوْته : لَا تَبْكِي فَقَدْ خَتَمْت الْقُرْآن فِي هَذَا الْبَيْت أَرْبَعَة آلَاف خَتْمَة قَالَ أَحْمَد بْن حَنْبَل : كَانَ اِبْن إِدْرِيس نَسِيجًا وَحْده .

(**إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**) يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ، ولا يضيع لديه ، سواء كان خيراً أو شراً ، فإنه سيجازي كل عامل بعمله .

قال الشيخ ابن عثيمين : بصير ، ليس من البصر الذي هو الرؤية ، لكن من البصر الذي بمعنى العلم ، لأنه أشمل حيث يعم العمل القلبي والبدني .

الفوائد :

١- بيان ما عليه أهل الكتاب من الحسد العظيم لهذه الأمة .

٢- شدة عداوة كثير من أهل الكتاب وحسدهم لهذه الأمة .

٣- الإشارة لعظم نعمة الله على هذه الأمة بالإسلام والإيمان وبعثة محمد e .

٤- أن من كان فيه حسد للناس على ما أتاهم الله من فضله ، فإن فيه شبه باليهود .

٥- أن هذا الحسد من أهل الكتاب نابع من عند أنفسهم لم يؤذن لهم فيه ، ولم يكن عن رؤية وتعقل .

٦- وجوب الحذر من الحسد فإنه داء وبيل ، ومرض خطير ، من أعظم أسباب الاعتداء على الغير ورد الحق .

٧- أن هؤلاء الذين يودون هذا لهذه الأمة يؤدونه عن عمد وعناد من بعد ما تبين لهم الحق .

٨- التدرج في معاملة الكفار ، حيث أمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن نعفو ونصفح حتى يأتي الله بأمره .

٩- أن الإنسان يعذر بجهله إذا خالف الأمر والنهي ، لقوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) .

وهذا الأصل دلّ عليه الكتاب والسنة :

قال تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

وقال تعالى : (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) .

وأما السنة : أن النبي e لم يأمر المسيء في صلاته أن يقضي ما فعله ، وكان المسيء في صلاته لا يطمئن لا في ركوع ولا في سجود .

١٠- عموم قدرة الله ، لقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

١١- وجوب إقامة الصلاة .

١٢- وجوب إيتاء الزكاة لمستحقيها .

١٣- أن الصلاة أوكد من الزكاة .

١٤- الحث على تقديم الخير .

١٥- الترغيب في الخير قولاً وعملاً .

١٦- أن ما تقدمه من الخير لن يضيع ، بل ستجده عند الله .

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[البقرة: ١١١- ١١٢]

- - - - - - - - - - - - -

(**وَقَالُوا**) أي : اليهود والنصارى .

(**لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً**) هذا قول اليهود .

(**أَوْ نَصَارَى)** هذا قول النصارى .

قال القرطبي : المعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا.

وقال ابن كثير : يبين الله تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، فاليهود قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، والنصارى قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً .

ومن الدعاوى الكاذبة التي ادعوها :

قولهم (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) .

وقولهم (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً) .

وقولهم (وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا) .

وقولهم في هذه الآية (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) .

فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ، ثم ينتقلون إلى الجنة ، ورد الله تعالى عليهم في ذلك ، وهكذا قال في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال :

(**تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ**) قال أبو العالية : أماني تمنوها على الله بغير حق .

والأماني جمع أمنية ، وهي : ما يتمناه الإنسان بدون سبب يصل به إليه .

قال في التسهيل : (أَمَانِيُّهُمْ) أكاذيبهم أو ما يتمنونه .

ثم قال تعالى :

(**قُلْ**) يا محمد .

(**هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**) قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس : حجتكم . وقال قتادة : بينتكم على ذلك .

(**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)** أي فيما تدعونه ، ثم قال تعالى :

(**بَلَى**) أي : ليس بأمانيكم ودعاويكم ، ولكن :

(**مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ**) أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، وقوله (وجهه) أي دينه ، وهذا الشرط الأول من شروط قبول العمل ، وهو الإخلاص لله تعالى .

قال الطبري : بلى من أسلم لله بدنه ، فخضع له بالطاعة جسده .

فإن قال قائل : هل هذا من التأويل لصفة الوجه ؟

الجواب : لا ، لأن الوجه يطلق ويراد به الوِجْهة والقصد .

فإن قيل : لم خص الوجه بالذكر ؟

فالجواب : وإنما خص الوجه بالذكر لوجوه :

أحدها : لأنه أشرف الأعضاء من حيث أنه معدن الحواس والفكر والتخيل ، فإذا تواضع الأشرف كان غيره أولى .

وثانيها : أن الوجه قد يكنى به عن النفس .

وثالثها : أن أعظم العبادات السجدة ، وهي إنما تحصل بالوجه فلا جرم خصه بالذكر .

وقال القرطبي : وخص الوجه بالذكر ، لكونه أشرف ما يرى من الإنسان ، ولأنه موضع الحواس ، وفيه يظهر العز والذل ، والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية المقصد .

وقال البغوي : وخص الوجه بالذكر ، لأنه إذا جاد بوجهه في السجود ، لم يبخل بسائر جوارحه .

(**وَهُوَ**) مع إخلاصه .

(**مُحْسِنٌ**) أي اتبع فيه الرسول e ، وهذا هو الشرط الثاني من شروط قبول العمل وهو متابعة الرسول e ، فإن العمل المتقبل لا يقبل إلا بشرطين :

أحدهما : أن يكون خالصاً لله وحده ، لحديث (إنما الأعمال بالنيات) متفق عليه .

والآخر : أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، لحديث (من عمل عملاً ...) متفق عليه .

فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً ؛ لم يتقبل ، ولهذا قال الرسول e : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم عن عائشة .

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله .

قال ابن كثير : فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم ، حتى يكون ذلك متابعًا للرسول محمد e المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وأمثالهم ، قال الله تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) .

وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضًا مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين :

كما قال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا) .

وقال تعالى (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) .

ولهذا قال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) .

وقال في هذه الآية الكريمة (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) .

كيف يكون العلم مخلصاً ؟

قال مالك بن دينار : إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمُهُ ، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجوراً أو فخراً .

قال الذهبي : فَمَن طلبَ العلمَ للآخرة كَسَرَه العلمُ وخشع لله .

قال بعض السلف : من ازداد علماً ولم يزدد خشية فليتّهم علمه .

سُئِلَ الحافظ عبد الغني المقدسي : لِمَ لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العجب . [السير ٤٤٩/٢١] .

وقد قيل لذي النون المصري - رحمه الله تعالى - : متى يعلم العبد أنه من المخلصين ؟ فقال: إذا بذل المجهود في الطاعة ، وأحب سقوط المنزلة عند الناس .

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: متى يكون العبد مخلصاً؟ فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع، لا يبالي من مدحه أو ذمه.

قال النووي : من علامة المخلص أن يتكدر إذا اطلع الناس على محاسن عمله كما يتكدر إذا اطلعوا على مساويه فإن فرح النفس بذلك معصية وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي .

(**فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**) أي : ثوابه ، والأجر في الأصل ما يؤخذ مقابل العمل ، وإنما سماه الله أجراً لبيان أنه متكفل به وأنه لا يضيع عنده .

قال الشيخ ابن عثيمين : وسمى الله (الثواب) أجراً ، لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير .

(**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) أي (فلا خوف عليهم) فيما يستقبلونه (ولا هم يحزنون) على ما مضى مما يتركونه .

فالخوف : الغم من أمر مستقبل ، والحزن : الغم من أمر فائت ، وقد يستعمل الحزن بمعنى الخوف ويمكن يفسر به قوله تعالى عن أهل الجنة حين دخلوها (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) أي : أذهب عنهم الخوف .

وقال السعدي : ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فحصل لهم المرغوب ونجوا من المرهوب ، ويفهم منها أن من ليس كذلك ، فهو من أهل النار الهالكين ، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول e .

الفوائد :

١- بيان دعوى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مثلهم يهودياً أو نصرانياً .

٢- أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والجزاء ، لأن الجنة إنما يدخلها أهلها بعد البعث يوم القيامة .

٣- أن الثواب لا يحصل إلا بأمرين :

- إسلام الوجه لله .
- الإحسان ، وهو متابعة النبي e .

٤- قوة المحاجة في كتاب الله التي تدحض الخصم وتفحمه .

٥- أنه لا تقبل الدعوى إلا ببينة ، فمن ادعى حكماً من أحكام الله الأخروية أو الدنيوية ، فإن عليه أن يبرهن فيما قال .

٦- أن اليهود والنصارى لا حجة لهم إطلاقاً فيما ادعوه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، وما أكثر دعاوي اليهود والنصارى بأنهم أهل الجنة .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

[سورة البقرة: ١١٣]

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ) يبين الله تعالى تناقض اليهود والنصارى وتباغضهم وتعاندهم .

قال الطبري:قالت اليهود: ليست النصارى في دينها على صواب،وقالت النصارى:ليست اليهود في دينها على صواب.

كما قال ابن عباس لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله e : أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله e ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى والإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحدوا نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله في ذلك من قولهما (**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ...)**.

قوله تعالى (على شيء) المراد : على شيء معتبر .

قال أبو حيان : قيل : المراد عامة اليهود وعامة النصارى ، فهذا من الإخبار عن الأمم السالفة ، وتكون أل للجنس ، ويكون في ذلك تقريع لمن بحضرة رسول الله e من الفريقين ، وتسلية له e ، إذ كذبوا بالرسل وبالكتب قبله.

وقيل : المراد يهود المدينة ونصارى نجران ، حيث تماروا عند الرسول وتسابوا ، وأنكرت اليهود الإنجيل ونبوّة عيسى ، وأنكرت النصارى التوراة ونبوّة موسى .

قال ابن عاشور : لزيادة بيان أن المجازفة دأبهم وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة ، فقديماً ما رمت اليهود النصارى بالضلال ورمت النصارى اليهود بمثله فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة ، وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب وتطمين لخواطر المسلمين ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوأته وثباتاً على شركهم.

(**وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ**) أي : والحال أنهم يتلون ويقرؤون التوراة والإنجيل .

وفي هذه الآية توبيخ لهم، حيث تعمدوا الكذب والافتراء كل فريق على الآخر مع كونهم يعلمون بكذب ما ذهبوا إليه.

قال في التسهيل : (وَهُمْ يَتْلُونَ) تقبيح لقولهم مع تلاوتهم الكتاب .

وقال الشوكاني : وفي هذا أعظم توبيخ ، وأشدّ تقريع؛ لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة ، والتكلم بما ليس عليه برهان هو : وإن كان قبيحاً على الإطلاق لكنه من أهل العلم ، والدراسة لكتب الله أشدّ قبحاً ، وأفظع جرماً ، وأعظم ذنباً .

(**كَذَلِكَ**) أي مثل ذلك القول .

(**قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**) أي : قال مشركوا العرب : ليس محمد على شيء .

- وقد اختلف فيمن عني بقوله تعالى (قال الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) ؟

قيل : كفار العرب ، قال القرطبي : وهو قول الجمهور ، لأنهم لا كتاب لهم .

وقيل : المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى .

قال ابن كثير : واختار أبو جعفر بن جرير : أنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثَمّ دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال ، والحمل على الجميع أولى .

(**فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) أي أنه يجمع بينهم يوم القيامة ، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، وهذه كقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

قوله تعالى (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) سمي بذلك :

أولاً : لأن الناس يقومون من قبورهم .

قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ثانياً : ولقيام الأشهاد .

لقوله تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

ثالثاً : ولقيام الملائكة .

لقوله تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً) .

الفوائد :

١- بيان عداوة اليهود والنصارى بعضهم لبعض .

٢- أن هذه المقالة التي قالتها اليهود وقالتها النصارى ، يقولها – أيضاً – كل من كان جاهلاً ، أي كل من كان ذا جهالة .

٣- إثبات الجزاء يوم القيامة ، لقوله تعالى : (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

٤- أن الذين اختلفوا في الكتاب وفي الرسل سوف يقضي تعالى بينهم يوم القيامة ويبين من هو على الحق .

٥- إثبات يوم القيامة ، وهو اليوم الآخر .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة البقرة: ١١٤]

(**وَمَنْ أَظْلَمُ**) أي لا أحد أظلم .

(**مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**) والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله : منع من يأتي إليها للصلاة ، والتلاوة ، والذكر ، وتعليمه .

قال الشوكاني : هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم، أي : لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله .

وقد اختلف المفسرون في المراد في الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين :

القول الأول : هم النصارى .

قال مجاهد : النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه .

وقال قتادة في قوله (وسعى في خرابها) قال : هو بختنصَّر ، خرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى ، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب المقدس .

وقال السدي : كانوا ظاهروا بختنصر على تخريب بيت المقدس ، حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف ، وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحي بن زكريا .

وروي نحوه عن الحسن البصري ، وعلى هذا القول فإن الخراب هنا خراب حسي .

القول الثاني : نزلت في صد المشركين النبي e عن البيت الحرام في عمرة الحديبية عام ٦ هـ .

واختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس .

واختار ابن كثير القول الثاني ، حيث قال رحمه الله : والذي يظهر والله أعلم القول الثاني .

ثم قال ابن كثير رداً على ابن جرير: ... وأيضاً فإنه تعالى لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذي أخرجوا الرسول وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده في أن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة؛ فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله e وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم.

ورجح القرطبي رحمه الله العموم ، فقال : وقيل المراد من منع من كل مسجد إلى يوم القيامة ، وهو الصحيح ، لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجميع ، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف .

قال البيضاوي : قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله ...) عام لكل من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة ، وإن نزل في الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلوا أهله ، أو في المشركين لما منعوا رسول الله e أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية .

(**وَسَعَى فِي خَرَابِهَا**) **أي :** وسعى ، أي : اجتهد وبذل وسعه (في خرابها) الحسي والمعنوي ، فالخراب الحسي هدمها وتخريبها وتقذيرها ، والخراب المعنوي : منع الذاكرين لاسم الله فيها .

قال الرازي : السعي في تخريب المسجد قد يكون لوجهين.

أحدهما : منع المصلين والمتعبدين والمتعهدين له من دخوله فيكون ذلك تخريباً.

والثاني : بالهدم والتخريب وليس لأحد أن يقول : كيف يصح أن يتأول على بيت الله الحرام ولم يظهر فيه التخريب ، لأن منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه يكون تخريباً له ، وقيل : إن أبا بكر رضي الله عنه كان له موضع صلاة فخربته قريش لما هاجر .

(**أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ**) **قيل :** هذا خبر معناه الطلب ، أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة أو الجزية ، ولهذا لما فتح رسول الله e مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى : ألا يحجن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان .

وقيل : ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على وجه التهديد وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها .

والمعنى : ما كان الحق والواجب إلا ذلك .

وقيل : إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم ، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم .

قال القرطبي : ومن جعل الآية في النصارى روي أنه مرَّ زمان بعد بناء عمر بيت المقدس في الإسلام لا يدخله نصراني إلا أوجع ضرباً بعد أن كان متعبدهم .

(**لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ**) من جعل الآية في قريش ، جعل الخزي في الدنيا : الفتح ، وأن لا يدخل أحدهم المسجد الحرام إلا خائفاً ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما صَدوا المسلمين عن المسجد الحرام ؛ صُدوا عنه .

(**وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله ، ودعاء غير الله عنده، والطواف به عرياً ، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله .

وأما من جعل الآية في النصارى فقال كعب الأحبار: أن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه، فلما بعث الله محمداً e أنزل عليه : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ...) فليس في الأرض نصرانياً يدخل المسجد إلا خائفاً .

وقال السدي : فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه ، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها .

الفوائد :

١- تحريم منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه .

٢- الإشارة إلى أن ما يتعلق بأمور الدنيا من بيع وشراء وأجارة ونحوها ، لا يحل إيقاعه في المسجد ، ولهذا قال النبي e : (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة فقولوا: لا رد الله عليك).

٣- الإشارة إلى أن المساجد إنما بنيت لذكر الله .

٤- أن ذكر الله يكون بذكر اسمه ، وذلك يقتضي أن يكون باللسان ، وذكر الله يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح .

أما ذكر الله بالقلب : بأن يكون الإنسان متفكراً متأملاً في آيات الله .

وأما الذكر باللسان : فهو يتناول كل قول يقرب إلى الله ، من قراءة أو تسبيح .

وأما الذكر بالجوارح : فيشمل كل فعل يتقرب به الإنسان إلى ربه، كالوضوء والصلاة وغيرها.

٥- أن السعي في خراب المساجد يشمل منع ذكر الله تعالى ، ويشمل الخراب الحسي وذلك بهدمها .

٦- أن هؤلاء المتسلطين على عباد الله ، بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا اسم الله ، لهم عقوبتان :

عقوبة في الدنيا : وهي الخزي والذل .

وعقوبة في الآخرة : وهي العذاب العظيم .

٧- كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً) وبين حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله e : قال الله تعالى : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي) متفق عليه ؟

الجواب :

أن المعنى : أنها مشتركة في الأظلمية ، أي أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم .

أن الأظلمية نسبية : أي أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء .

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة البقرة: ١١٥]

- - - - - - - - - - - - - -

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) أي هما له ملك ، وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع ، وخصهما بالذكر والإضافة له تشريفاً ، نحو : بيت الله ، وناقة الله .

قال السعدي : خصهما بالذكر ، لأنهما محل الآيات العظيمة ، فهما مطالع الأنوار ومغاربها ، فإذا كان مالكاً لها ، كان مالكاً لكل الجهات .

قال الرازي : اللام في قوله تعالى (وَلِلَّهِ المشرق والمغرب) لام الاختصاص أي هو خالقهما ومالكهما ، وهو كقوله (رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين) وقوله (بِرَبّ المشارق والمغارب) وقوله (رَبُّ المشرق والمغرب) .

في هذا الآية قال تعالى (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) وجاء في آية أخرى بلفظ التثنية كقوله تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) وجاء في آية أخرى بلفظ الجمع كقوله تعالى (فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)؟ فاختلف العلماء في الجمع بينها؟

القول الأول : أن المراد بالمشرق والمغرب – بلفظ الإفراد – الجهة التي تشرق منها الشمس ، والجهة المقابلة التي تغيب فيها الشمس ، فالمشرق هو موضع الشروق ، والمغرب : هو موضع الغروب .

والمراد بهما – بلفظ التثنية – فهو مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما ، وأما المراد بهما – بلفظ الجمع – فهو مشارق السنة ومغاربها ، فللشمس مشرق كل يوم يختلف عن مشرقها في اليوم الآخر على مدار السنة ، وكذلك مغربها وهي ثلاثمائة وستون مشرقاً ، وكذلك المغارب بعدد أيام السنة .

ذهب إلى هذا المسلك ابن عباس وتابعه مجاهد وقتادة ورجحه الطبري والبغوي وابن القيم والسمرقندي وابن كثير والسيوطي والشنقيطي .

القول الثاني : أن المراد بالمشرق والمغرب – بلفظ الإفراد – اليوم الذي يستوي فيه الليل والنهار ، والمراد بهما – بلفظ التثنية: أطول يوم في السنة ، وأقصر يوم في السنة، وأما المراد بهما – بلفظ الجمع – مشارق السنة ومغاربها .(آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض) .

(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا) أي : تتجهوا .

(فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) أي : هنالك وجه الله .

اختلف العلماء هل هذه الآية من آيات الصفات أم لا على قولين :

القول الأول : ذهبت طائفة إلى أن ذلك من الصفات ، وأن المراد بالآية وجه الله الذي هو صفة من صفاته سبحانه .

وقال بذلك : ابن خزيمة ، والبيهقي ، وابن القيم ، وعبد الرحمن السعدي ، وابن عثيمين .

قال ابن القيم : الصحيح في قوله تعالى (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) أنه كقوله في سائر الآيات التي ذكر فيها الوجه ، فإنه قد اطرد مجيئه في القرآن والسنة مضافاً إلى الرب تعالى، على طريقة واحدة ، ومعنى واحد، فليس فيه معنيان مختلفان في جميع المواضع غير الموضع الذي ذكر في سورة البقرة ، وهو قوله (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)، وهذا لا يتعين حمله على القبلة والجهة ، ولا يمتنع أن يراد به وجه الرب حقيقة، فحمله على غير القبلة كنظائره كلها أولى .

وقال الشيخ ابن عثيمين : لكن الراجح أن المراد به الوجه الحقيقي ، لأن ذلك هو الأصل ، وليس هناك ما يمنعه ، وقد أخبر النبي e أن الله تعالى قِبَلَ وجه المصلي . ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه ؛ لأن الله قِبَل وجهه فإذا صليت في مكان لا تدري أين القبلة واجتهدت وتحريت وصليت وصارت القبلة في الواقع خلفك فالله يكون قبل وجهه حتى في هذه الحالة . وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية والمعنى الأول لا يخالفه في الواقع .

القول الثاني : ذهبت طائفة إلى أن ذلك ليس من باب الصفات في شيء .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ليست هذه الآية من آيات الصفات ومن عدها في الصفات فقد غلط .

وقد اختلف هؤلاء في معناها على أقوال :

فقيل : أن معنى (فثم وجه الله) أي : فثم قبلة الله ، قالوا : والوجه يأتي في اللغة بمعنى الجهة، يقال : وِجْهَة ووجه وَجِهَة . وممن روي عنه هذا القول :ابن عباس، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن البصري ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان ، والشافعي .

واختاره : الواحدي ، والزمخشري ، وابن عطية ، والرازي ، وابن تيمية .

قال ابن تيمية : (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) أي : قبلة الله ، ووِجْهة الله ، هكذا قال جمهور السلف .

وقيل : (فثم وجه الله) أي : فثم رضا الله وثوابه .

والراجح – والله أعلم – القول الأول .

وقد اختلف العلماء في المعنى الذي نزلت فيه (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّه ِ) على أقوال:

قيل : ما جاء عن ابن عباس قال (كان أول ما نسخ من القرآن : القبلة ، وذلك أن رسول الله r لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله r بضعة عشر شهراً ، فكان رسول الله r يحب قبلة إبراهيم عليه السلام ، فكان يدعو وينظر إلى السماء ، فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك في السماء ... إلى قوله فولوا وجوهكم شطره) فارتاب من ذلك اليهود ، وقالوا : (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) فأنزل الله (قل لله

المشرق والمغرب) وقال (فأينما تولوا فثم وجه الله) رواه ابن جرير ، وهذه الرواية ثابتة عن ابن عباس ، وأيضاً من قبيل الصريح في سبب النزول .

قيل : نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة . أخرجه الترمذي

عن عامر بن ربيعة قال (كنا مع النبي e في سفر فلم ندر أين القبلة ، فصلى كل رجل منا على حياله ، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي e ، فنزلت : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) أخرجه الترمذي وفيه ضعف .

وقيل : نزلت في المسافر يتنفل حيثما توجهت به راحلته .

فعن ابن عمر . قال (كان رسول الله e يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيثما كان وجهه ، قال : وفيه نزلت : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) رواه مسلم .

وقيل : إن الآية منسوخة بقوله : (وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) أي تلقاءه .

روي عن مجاهد والضحاك : أنها محكمة المعنى : أينما كنتم من شرق وغرب فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة .

وقيل : لما نزلت (ادعوني أستجب لكم) قالوا : إلى أين ؟ فنزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله) لكنه ضعيف .

(**إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ**) قال ابن جرير : واسع يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير .

وقال الخطابي : الواسع : هو الغني الذي وسع غناه مفاقر عباده ، ووسع رزقه جميع خلقه .

وقال السعدي : الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها ، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، واسع العظمة ، والسلطان والملك ، واسع الفضل والإحسان ، عظيم الجود والكرم .

فالله عز وجل واسع العطاء ، كثير الإفضال على خلقه ، والخلق كلهم يتقلبون في رحمته وفضله ، يعطي من يشاء ويمنع ، ويخفض من يشاء ويرفع ، بعلمه الذي وسع كل شيء وحكمته .

والله واسع المغفرة .

ومن سعة مغفرته : أنه يغفر لكل من تاب وأناب مهما بلغت ذنوبه وخطاياه .

قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) . وقال حملة العرش عن ربهم تبارك وتعالى (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) .

والله واسع العلم :

كما قال تعالى (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) .

والله واسع الرحمة :

كما قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) ، وقال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) .

(**عَلِيمٌ**) بكل شيء لا يخفى عليه شيء . [تقدمت مباحث العلم] .

الفوائد :

١- عموم ملك الله (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) .

٢- أن هذا العموم لا يأتي لأحد سوى الله ، لقوله (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ).

٣- أن الإنسان مهما تولى واتجه إلى شيء فثم وجه الله .

٤- أن الإنسان إذا صلى إلى جهة مجتهداً حيث يحل له الاجتهاد ، معتقداً أن هذه الجهة هي القبلة ، فإن صلاته تصح .

٥- إثبات الوجه لله ، وعقيدة أهل السنة : إثبات الوجه لله إثباتاً يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ، وهكذا بقية الصفات كاليدين والعينين .

٦- إثبات سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء ، وذلك أن كل الأشياء بالنسبة إليه صغيرة ، قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

٧- الحذر من مخالفة الله عز وجل بترك أوامره أو فعل نواهيه ، لأنه عالم سبحانه وتعالى بذلك ، وعلمه بذلك يقتضي الحذر من مخالفته .

(وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)

[البقرة: ١١٦ - ١١٧]

(وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً) هذا إخبار عن النصارى عليهم لعائن الله ، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله .

قال الشنقيطي : هذا الولد المزعوم على زاعمه لعائن الله، قد جاء مفصلاً في آيات أخر، كقوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) وقوله (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ) .

- فادعاء لله الولد أمر خطير وكبير .

كما قال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً) .

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ (قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً) رواه البخاري .

وقال e (لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم) متفق عليه

(**سُبْحَانَهُ**) أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة : من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به ، نزه نفسه عن ذلك ، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به ، جاء موضحاً في آيات كثيرة :

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ) .

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) .

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) .

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) .

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) .

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً) .

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) .

والله منزه عن الولد لأمور متعددة :

أولاً : لأنه مالك كل شيء ، والمالك لا بد أن يكون المملوك مبايناً له في كل الأحوال .

ثانياً : أنه ليس له زوجة ، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة ، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ) .

ثالثاً : أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء ، أي : بقاء النوع باستمرار النسل ، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك ، لأنه الحي الذي لا يموت .

رابعاً : أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره ، والله سبحانه وتعالى غني ، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني) .   [قاله الشيخ ابن عثيمين] .

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له ، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتَرُون مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون)وقال أيضاً في آخر هذه السورة (وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً) .

(**بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي ليس الأمر كما افتروا ، وإنما له ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف فيهم ، وهو خالقهم ورازقهم ومقدورهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء ، والجميع عبيد له، وملك له، فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له شبيه ولا مشارك في عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له ، فكيف يكون له ولد .

قال ابن عطية : وإنما خص السماوات والأرض بالذكر ، لأنهما أعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا .

(**كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**) أي : مطيعون .

قال مجاهد : (كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ) مطيعون ، قال : طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره .

قال ابن كثير : وهذا القول عن مجاهد هو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها ، وهو أن القنوت : هو الطاعة والاستكانة إلى الله ، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) .

فإن قيل : كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع ؟ فعنه ثلاثة أجوبة.

أحدها : أن يكون ظاهرها ظاهر العموم ، ومعناها معنى الخصوص ، والمعنى : كل أهل الطاعة له قانتون.

والثاني : أن الكفار تسجد ظلالهم لله بالغدوات والعشيات ، فنسب القنوت إليهم بذلك.

والثالث : أن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه ، وجري أحكامه عليه ، فذلك دليل على ذُلهِ للرب.

والرابع : كل له قائم يوم القيامة .

والخامس : مطيعون (في الأمر القدري الكوني) ، كن إنساناً فكان ، كن حماراً فكان .

والصواب ما سبق وهو اختيار ابن جرير كما تقدم .

وقال السعدي : القنوت نوعان : قنوت عام وهو قنوت الخلق كلهم تحت تدبير الخالق ، وخاص وهو قنوت العبادة ، فالنوع الأول كما في هذه الآية ، والنوع الثاني ، كما في قوله تعالى (وقوموا لله قانتين) .

(**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي خالقها على غير مثال سابق .

قال القرطبي : فالله عز وجل بديع السماوات والأرض أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له : مبدع .

(**وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**) يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيمِ سلطانهِ ، وأنه إذا قدّر أمراً وأراد كونه ؛ فإنما يقول له كن ، أي مرة واحدة ، فيكون ، أي فيوجد على وفق ما أراد .

كما قال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

وقال تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) .

المراد بقوله (قضى أمراً) أي : إذا أحكم أمراً وحتمه . (قاله ابن جرير) .

والمراد بأمر الله هنا بمعنى الشأن ، (فإذا قضى أمراً) أي شيئاً مقضياً ، وليس الأمر هنا بمعنى الطلب .

كما في قوله تعالى (وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) أي : وما شأنه .

الفوائد :

١- تنزيه الله عن الولد ، وقد نزه الله نفسه عن ذلك في آيات :

قال تعالى : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) .

وقال تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) .

وقال تعالى : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

وأخرج البخاري عن ابن عباس عن النبي e قال : (قال الله تعالى : كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي : فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي : فقوله لي ولد ، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً) .

وفي الصحيحين أن رسول الله e قال: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم).

٢- بيان تنزيه الله عز وجل عن كل عيب ونقص .

٣- بيان غنى الله عن اتخاذ الولد ، حيث أنه سبحانه وتعالى مالك السماوات والأرض وما فيهما .

٤- أن جميع الخلق قانت لله ، ومنهم : عزير والمسيح والملائكة ، فلا يمكن أن يكون له ولد .

٥- أن الله لا ينبغي أن يتخذ ولداً ، لأنه خالق السماوات والأرض ، فهو مستغن عن الولد .

٦- بيان كمال قدرة الله عز وجل في قوله (وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

٧- أن الأمر مهما كانت عظمته ؛ فإن الله تعالى قادر عليه بكلمة واحدة ، وهي (كن) .

٨- إثبات القول لله ، وأن الله يقول ، وأن قوله بحروف لقوله (كن) .

٩- القنوت له معاني كثيرة :منها: القيام والمداومة، ومنها: الصمت ، ومنها: الوقوف ، ومدارها على الدوام على الطاعة.

(وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) .

[سورة البقرة: ١١٨]

(وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ) اختلف العلماء في قائل هذا :

فقيل : هم النصارى ، ورجحه الطبري ، لأنهم المذكورون في الآية أولاً .

وقيل : هم اليهود ، لأنهم طلبوا من موسى الآيات وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .

وقيل : هذا قول كفار العرب .

ويؤيد هذا القول ، وأن القائلين ذلك هم مشركي العرب :

قوله تعالى (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) .

وقوله تعالى عنهم (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) .

وقوله تعالى : (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) إلى قوله (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً).

وقوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا) .

وقوله تعالى : (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به ، إنما الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم ، كما قال تعالى : (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) وقال تعالى : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً)

قوله تعالى (أو تأتينا آية) أي : يريدون معجزة – عناداً وعتواً –كسؤال رؤية الله ، وكسؤالهم جعل الصفا ذهباً ، وكسؤالهم الرقي في السماء ونحو ذلك .

(كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) المراد بهم اليهود والنصارى .

قال ابن عاشور : وفي هذا الكلام تسلية للنبي e بأن ما لقيه من قومه مثل ما لاقاه الرسل قبله ولذلك أردفت هذه الآية بقوله (إنا أرسلناك بالحق) .

(تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) أي أشبهت قلوب مشركي العرب ، قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو ، كما قال تعالى : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَل) .

قال الرازي : (تشابهت قُلُوبُهُمْ) فالمراد أن المكذبين للرسل تتشابه أقوالهم وأفعالهم ، فكما أن قوم موسى كانوا أبداً في التعنت واقتراح الأباطيل ، كقولهم (لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ واحد) وقولهم (اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ) وقولهم (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) وقولهم (أَرِنَا الله جَهْرَةً) فكذلك هؤلاء المشركون يكونون أبداً في العناد واللجاج وطلب الباطل.

(قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) أي أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة لمن أتقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى .

وأما من ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فأولئك قال الله عنهم (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) .

قال الشنقيطي : هذه الآية تدل بظاهرها على أن البيان خاص بالموقنين ، وقد جاءت آيات أخر تدل على أن البيان عام لجميع الناس كقوله تعالى (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وكقوله (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ) ووجه الجمع : أن البيان عام لجميع الخلق، إلا أنه لما كان الانتفاع به خاصا بالمتقين خص في هذه الآية بهم ، لأن ما لانفع فيه كالعدم ، ونظيرها قوله تعالى (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) وقوله (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْر) الآية، مع أنه منذر للأسود والأحمر، وإنما خص الإنذار بمن يخشى ومن يتبع الذكر لأنه المنتفع به .

الفوائد :

١- بيان عظم عناد الكفار المحادين لله ورسله .

٢- أن القلوب إذا تشابهت ، تشابهت الأقوال والأعمال .

٣- الإشارة إلى أن القلوب هي الموجهة للبدن ، لقوله تعالى : (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) .

٤- تشابه أعمال الكفرة ، أي مشابهة لاحقيهم لسابقيهم .

٥- أن الله بين وأوضح الآيات التي تدل على صدق ما جاءت به رسله .

٦- أن هذه الآيات البينات بنفسها لا تتبين إلا لموفق .

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) .

[سورة البقرة: ١١٩]

(**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ**) المرسِل هو الله عز وجل ، والخطاب للرسول e .

(**بِالْحَقِّ**) يحتمل أن يكون تبياناً للرسالة ، أي أن رسالتك حق ، ليس فيها شيء من الباطل .

ويحتمل أن يكون تبياناً للمرسل به ، والمعنيان صحيحان ، فرسالة النبي e حق ، وما أرسل به من العلم والإيمان والعمل الصالح حق .

قال السعدي : ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه e وصحة ما جاء به فقال (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها ، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور :

الأول : في نفس إرساله ، والثاني : في سيرته وهديه ودلهِ ، والثالث : في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة.

فالأول والثاني ، قد دخلا في قوله (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ) والثالث دخل في قوله (بِالْحَقِّ) .

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته e وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران ، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملا لأنه حكيم عليم، قدير رحيم ، فمن حكمته ورحمته بعباده، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه ، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله ، وأما الثاني: فمن عرف النبي e معرفة تامة ، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة ، ونشوءه على أكمل الخصال ، ثم من بعد ذلك ، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسبر أحواله، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث : فهو معرفة ما جاء به e من الشرع العظيم، والقرآن الكريم، المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح ، والمعجزات الباهرة ، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة .

(**بَشِيراً وَنَذِيراً**) صفتان من صفات الرسول e أنه بشير ونذير، فهو بشير للمؤمنين ، وهو نذير للكافرين، بشير للمؤمنين بالثواب العاجل والآجل ، ونذير للكافرين بالعقاب العاجل والآجل .

كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

(**وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**) أي : أي لا نسألك عن كفر من كفر بك ، وعصيان من عصى ، وتمرد من تمرد ، لأنك قد بلغت ، والحساب على الله .

كقوله تعالى (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) .

وقال تعالى (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) .

وقال تعالى (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) .

الفوائد :

إثبات رسالة النبي e لقوله (إنا أرسلناك) .

أن رسالة النبي e حق ، لقوله (إنا أرسلناك بالحق) .

وجوب اتباع النبي e لكونه رسول الله ، ولكون ما جاء به حق وضد الحق الباطل .

أن النبي e ليس له حق من الربوبية والتصرف في الخلق ، وإنما هو بشير ونذير .

أن رسول الله e لا يسأل عن ضلال الضالين ، ومن كان من أصحاب الجحيم .

أن الإنسان إذا أدى ما عليه من إبلاغ الشرع والدعوة إليه، فإنه لا يناله من ضلال الضالين شيء، إنما يضلون على أنفسهم .

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) .

[سورة البقرة: ١٢٠]

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) قال ابن جرير : يعني جل ثناؤه (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق .

قال القرطبي : والمعنى ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو آتيناهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك ، وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم .

وقال رحمه الله : (ولن ترضى عنك اليهود) يعني إلا باليهودية ، (ولا النصارى) يعني إلا بالنصرانية وهذا شيء لا يتصور إذ لا يجتمع في رجل واحد شيئان في وقت واحد وهو قوله (حتى تتبع ملتهم) يعني دينهم وطريقتهم .

قال ابن عاشور : الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم فهم لا يتبعون ملته ، ولما كان اتباع النبي ملتهم مستحيلاً كان رضاهم عنه كذلك على حد (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وقوله (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) .

(قُلْ) أي : قل يا محمد منكراً عليهم :

(إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) أي: ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذي يضعه في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي، لا ما يدعيه هؤلاء .

قال ابن كثير: أي قل يا محمد؛ إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة .

وفي هذا الخطاب وجهان :

أحدهما : أنه للرسول e لتوجه الخطاب إليه .

والثاني : أنه للرسول e والمراد به أمته ، كقوله تعالى (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) .

وعلى الأول يكون فيه تأديب لأمته ، إذ منزلتهم دون منزلته .

قوله تعالى (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) فإن الهوى رأي ناشيء عن شهوة لا عن دليل .

قوله تعالى (مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) الفرق بين الولي والنصير: أن النصير هو من يدافع عنك ممن يعتدي عليك، فهو ينصرك، وأما الولي فهو الذي يتولاك بالعناية، وبتحصيل مطلوبك ودفع مرهوبك، هذا إذا اجتمعا، أما إذا أفرد أحدهما شمل الآخر، فإذا قيل ولي بدون نصير، فالمراد من يجلب لك الخير ويدفع عنك الشر. [قاله الشيخ ابن عثيمين]

الفوائد :

١ -أن اليهود والنصارى يرضون بمن يتبع ملتهم ، بل يفرحون بذلك ويسرون به ويستبشرون به .

٢ -أن الهدى لا يختص بأمة أو طائفة معينة ، فليس الهدى لليهود فقط ، ولا للنصارى فقط ، بل الهدى هدى الله ، فمن اتبع هدى الله على يد أي رسول فقد اهتدى بهدى الله .

٣ -التحذير من اتباع اليهود والنصارى .

٤ -قوله (ملتهم) استدل بها كثير من الفقهاء على أن الكفر ملة واحدة ، وعلى هذا القول يتوارث الكفار فيما بينهم .

اختلف العلماء في توارث الكفار بعضهم من بعض ، كاليهود مع النصارى أو المجوس :

القول الأول : أن الكفر بجميع نحله ملة واحدة .

وهذا قول الحنفية والشافعية ورواية في مذهب أحمد ، وهو قول الجمهور .

وعلى هذا القول يتوارث الكفار فيما بينهم دون نظر إلى اختلافهم في الديانة .

لقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) .

ولقوله تعالى : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

القول الثاني : أن الكفر ملل متعددة ، لا يرث أهل كل ملة من أهل الملة الأخرى .

وهذا القول رواية عن أحمد ، وهو القول الثاني للمالكية .

لقوله e (لا يتوارث أهل ملتين شتى) . رواه أحمد وأبو داود

وهذا القول هو **الراجح** .

٥-أن العقوبات إنما تقع على العبد بعد أن يأتيه العلم، وأما الجاهل فلا عقوبة عليه، وهذا الأصل يشهد له آيات كثيرة متعددة، منها :

قوله تعالى (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا) .

وقوله تعالى (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) .

وقوله تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

وقوله تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة البقرة: ١٢١]

- - - - - - - - - - - - - - - -

(**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**) اختلف العلماء في المراد بهم على قولين :

فقيل : هم علماء اليهود والنصارى ، ورجحه ابن جرير .

والدليل عليه أن الذين تقدم ذكرهم هم أهل الكتاب فلما ذم طريقتهم وحكى عنهم سوء أفعالهم ، أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم ، بل تأمل التوراة وترك تحريفها وعرف منها صحة نبوة محمد e .

قال الطبري : بل عني الله بذلك علماء بني إسرائيل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسلَه ، فأقروا بحكم التوراة ، فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد r والإيمان به ، والتصديق بما جاء به من عند الله ، وهذا القول أولى بالصواب .

وقيل : هم أصحاب رسول الله e ، والصحيح أن الآية عامة .

(**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ**) أي : أنهم يعلمون بما فيه ، فيحلُّون حلاله ، ويحرّمون حرامه ، فيكون من تلاه يتلوه إذا اتبعه ، ومنه قوله تعالى (والقمر إذا تلاها) أي: اتبعها، كذا قيل، ويحتمل أن يكون من التلاوة : أي: يقرءونه حق قراءته لا يحرّفونه ، ولا يبدّلونه . (فتح القدير) .

والتلاوة يراد بها ثلاث أمور :

١- التلاوة اللفظية ، بأن يقيم الإنسان حروف الكتاب الذي أنزل .

٢- التلاوة المعنوية ، بأن يقيم معناه ، أي معنى الكتاب الذي أنزل ، وذلك بأن يفسره بما أراد الله لا بهوى نفسه .

٣- التلاوة الحكمية العملية ، بأن يؤمن بأخباره ، ويقوم بأوامره ، ويجتنب نواهيه .

قوله تعالى (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) أي التلاوة الحق .

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) يعني هؤلاء هم الذي يؤمنون به حقاً ، وأما من لم يتله حق تلاوته : إما باللفظ أو في المعنى أو في الحكم والعمل ، فإنه لم يؤمن به ، وقد نقص من إيمانه بقدر ما نقص من تلاوته .

قال ابن كثير : وقوله (أولئك يؤمنون به) خبر عن الذين أتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أي من أقام كتابه من أهل الكتاب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) .

صور من تطبيق والعمل بالقرآن :

عن عائشة قالت (لما أنزل الله في براءتي ، قال أبو بكر – وكان ينفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته وفقره – والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قال أبو بكر : بلى والله ، إني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً) رواه البخاري .

وعن ابن عمر قال : حضرتني هذه الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئاً أحب إليّ من مرجانة – جارية رومية – فقلت : هي حرة لوجه الله .

ولما نزلت هذه الآية ، قال زيد بن حارثة : اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليّ من فرسي هذه ، فجاء بها إلى النبي e فقال : هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله e : قد قبله الله منك .

عن أَنَس بْن مَالِك قال (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالاً وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَى وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ r يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ . قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ e فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَى وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ شِئْتَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ e « بَخْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ » . فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) متفق عليه .

(**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ**) أي : بالكتاب المذكور وهو القرآن .

(**فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**) وخسارته ولوج النار ، كما قال تعالى : (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) .

الخاسرون جمع خاسر ، وأصل الخسران : هو ذهاب مال التاجر ، سواء كان ربحاً أو رأس مال ، وكل من خسر شيئاً من ماله فقد خسر ، وخسران الناس : المراد به غبنهم حظوظهم من ربهم جل وعلا ، وقد أقسم الله تعالى على أن هذا الخسران لا ينجو منه أحد إلا بتلك الصفات المقررة المعروفة في تلك السورة الكريمة وهي سورة العصر في قوله تعالى (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

الفوائد :

١- الثناء على من آتاه الله الكتاب فتلاه حق تلاوته .

٢- أن من لم يقم حروف الكتاب ، فإنه لم يؤمن به حق الإيمان ، لأنه لم يتله حق تلاوته .

٣- أن التلاوة تنقسم إلى قسمين :

تلاوة تامة : وهي حسن التلاوة .

وتلاوة ناقصة : وهي ما دون ذلك .

٤- أن من لم يقم بالعمل الصالح الذي دل عليه الكتاب ؛ فإنه لم يتله حق تلاوته ، فيكون ناقص الإيمان .

٥- الثناء على التالين لكتاب الله حق تلاوته ، لقوله تعالى : (أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) .

٦- أن الكافر بالكتاب الذي أنزله الله على رسله ، خاسر في الدنيا والآخرة .

٧- قال ابن القيم في الفوائد : إذا أردت الانتفاع بالقرآن ، فأجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به سبحانه منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله .

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ)

[سورة البقرة: ١٢٢، ١٢٣]

قد تقدم تفسير هذه الآية في صدر السورة آية [٤٧ – ٤٨] .

قال ابن كثير : وكررت هنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعتَه واسمَه وأمره وأمته ، فحذرهم من كتمام هذا .

وقال الخازن : كررها في أول السورة وهنا للتوكيد وتذكير النعم .

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

[سورة البقرة: ١٢٤]

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ) أي : واذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل .

(بِكَلِمَاتٍ) اختلف العلماء في المراد بالكلمات على أقوال :

قيل : شرائع الإسلام .

وقيل : ابتلاه الله بالمناسك .

وقيل : ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد .

وقيل : الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته نمروذ في الله .

وقيل : بذبح ابنه .

وقيل : بأداء الرسالة .

وقال مجاهد في قوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال : ابتلي بالآيات الله بعدها (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) .

• **قال ابن جرير :** ما حاصله أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع ، قال : ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسلم إليه .

ثم قال رحمه الله : ولو قال قائل إن الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس، أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم، كان مذهباً ، لأن قوله (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) وقوله (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ...) وسائر الآيات التي هي نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم .

• **وقال ابن كثير** معقباً على قول ابن جرير : والذي قاله أولاً من الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله ، لأن السياق يعطي غير ما قالوه ، والله أعلم .

• فإبراهيم أخذ ولده إلى المذبح والاستعداد التام لذبحه ، طاعة لأمر الله سبحانه .

وأسكن الزوج والولد في واد غير ذي زرع بمكة ، حيث لم يسكن فيه إنسان .

ونهض بوجه عَبَدة الأصنام وتحطيم الأصنام ، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية ، ثم إلقاؤه في وسط النيران ، وثباته ورباطة جأشه في كل هذه المراحل.

وهاجر من أرض عبدة الأصنام والابتعاد عن الوطن ، والاتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته .

(**فَأَتَمَّهُنَّ**) أي : قام بهن؛ أي قام بهن كلهن، وأداهن أحسن تأدية من غير تفريط ولا توان كما قال تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) أي وفّى جميع ما شرع له ، فعمل به صلوات الله عليه .

- قوله تعالى (فَأَتَمَّهُنَّ) في هذا ثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد أثنى الله عليه في آيات كثيرة :

قال تعالى (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ..).

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) .

- وثناء الله على شخص لفائدتين :

الأولى : لنقوم بالثناء عليه .

والثانية : لنقتدي به .

(**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**) الإمام القدوة ، والمعنى : أي جاعلك إماماً يقتدي بك الناس ويأتمون بك ، ويقتدي بك الصالحون .

- **قال الفخر الرازي :** إن الله تعالى لما وعده بأن يجعله إماماً للناس حقق الله تعالى ذلك الوعد فيه إلى قيام الساعة ، فإن أهل الأديان على شدة اختلافها ونهاية تنافيها يعظمون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويتشرفون بالانتساب إليه إما في النسب وإما في الدين والشريعة حتى إن عبدة الأوثان كانوا معظمين لإبراهيم u ، وقال الله تعالى في كتابه (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا) .

وقال (مِنْ يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إبراهيم إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ) .

وقال في آخر سورة الحج (مّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ) .

وجميع أمة محمد u يقولون في آخر الصلاة وارحم محمداً وآل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .

(**قَالَ**) إبراهيم u .

(**وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**) أي : ومن أولادي أيضاً فاجعل أئمة يُقتدَى بهم .

- قال ابن عطية : هو على جهة الدعاء والرغباء إلى الله ، أي : ومن ذريتي يا رب فاجعل .
- قال ابن عباس : سأل إبراهيم عليه السلام أن يجعل من ذريته إمام ، فأعلمه الله أن في ذريته من يعصي فقال (لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) .
- **قال السعدي :** فلما اغتبط إبراهيم u بهذا المقام ، وأدرك هذا ، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ، ودرجة ذريته .
- هذا وقد جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) .

• **قال السعدي :** فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته ، ولا نزل كتاب إلا على ذريته ، حتى ختموا بابنه محمداً e وعليهم أجمعين .

وهذا من أعظم المناقب والمفاخر أن تكون مواد الهداية والرحمة ، والسعادة والفلاح والفوز في ذريته ، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون ، وآمن المؤمنون ، وصلح الصالحون . (السعدي) .

• قوله تعالى (**ومن ذريتي) يحتمل :** أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم ، أي : واجعل من ذريتي أئمة ، **ويحتمل :** أن يكون هذا من إبراهيم بقصد الاستفهام وإن لم يكن بصيغته، أي : ومن ذريتي ماذا يكون يا رب، فأخبره أن فيهم عصاة وظلمة، **ويحتمل :** دعاء وطلب على جهة الرغباء إلى الله تعالى ، أي من ذريتي يا رب فاجعل ، وهذا أصح .

• الذرية في الأصل تطلق على الأبناء ومن جاء منهم ، كهذه الآية ، وكقوله تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) وكقوله تعالى (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ) ، وقد تطلق على الآباء ، ومنه قوله تعالى (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) .

• **قال ابن عاشور :** وإنما قال إبراهيم (ومن ذريتي) ولم يقل وَذُرِيتي لأنه يعلَم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يُقتدَى بهم فلم يسأل ما هو مستحيل عادة ، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء .

(قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) أي : لا ينال هذا الفضل العظيم - وهو الإمامة في الدين - أحد من المشركين .

قال ابن جرير : هذا خبر من الله جل ثناؤه عن أن الظالم لا يكون إماماً يقتدي به أهل الخير .

• ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل u أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه .

• قوله تعالى (**لا ينال عهدي ...**) واختلف في المراد بالعهد :

فقيل : النبوة ، **وقيل :** الإمامة في الدين ، وروي عن قتادة في قوله (لا ينال عهدي الظالمين) قال : لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به وأكل وعاش وأبصر، قال الزجاج: وهذا قول حسن .

• **وقال ابن الجوزي :** وفي العهد هاهنا سبعة أقوال :

أحدها : أنه الإمامة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير .

والثاني : أنه الطاعة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : الرحمة ، قاله عطاء وعكرمة .

والرابع : الدين ، قاله أبو العالية .

والخامس : النبوة ، قاله السدي عن أشياخه .

والسادس : الأمان ، قاله أبو عبيدة . **والسابع :** الميثاق ، قاله ابن قتيبة . **والأول أصح .**

• فإن قيل : أفما كان إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام عالماً بأن النبوة لا تليق بالظَّالمين ؟

فالجواب : بلى ، ولكن لم يعلم حال ذرّيته ، فبيّن الله تعالى أن فيهم من هذا حاله ، وأن النبوة إنما تحصل لمن ليس بظالم .

• **صفات إبراهيم عليه السلام :**

الصفة الأولى : أمة .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ..) .

قيل معناها هنا : الرجل الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس ، وهذا هو المقصود في حق إبراهيم ، وهذه تدلنا على عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق .

وقيل أن المقصود بالأمة هنا : أي الإمام ، أي قدوة يقتدى به في الخير ، وممن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير .

الصفة الثانية : قانت .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً) .

والقنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع .

الصفة الثالثة : حنيفاً .

والحَنَف : الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والحنيفُ : المائل والجنف : ضده .

والأحنف : مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً ، وقيل لمجرد الميل .

قال ابن كثير : الحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد .

وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين ، قال تعالى : [ولَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكِينَ]، وقال : [ومَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ]، وهكذا فليكن أولياء الله .

الصفة الرابعة : شاكر .

قال تعالى (شَاكِراً لأَنْعُمِهِ) أي قائماً بشكر نعم الله عليه .

نعمة الله على لسان عبده : ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه : شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه : انقياداً وطاعة .

بالقلب ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .

وباللسان ، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

وبالجوارح ، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

الصفة الخامسة : الحلم .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) .

والحلم : ضبط النفس والطبع عن الهيجان عند الاستثارة .

والحليم : الكثير الحلم وموقف إبراهيم من مقالة أبيه (لأَرْجُمَنَّكَ) .

ومن العتاة قوم لوط حينما مرت به الملائكة وأخبرته بما أمرت بها قال (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) .

ولم يكن حلم إبراهيم ذريعة يتذرع للسكوت عن المنكر بل كان يعلن الحق وينكر الباطل (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) .

الصفة السادسة : أوّاه .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) .

والذي يتحقق من معنى الأوّاه أنه الخاشع الدعّاء المتضرع ، وكثرة تأوّه إبراهيم وتضرعه بين يدي ربه قد ذكرت في آيات كثيرة تدل على تحقيق إبراهيم (رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ) وجدير بمن سلك طريق الدعوة أن يجعل تعجيل

الإنابة من أبرز سماته ليكسب عون ربه وتسديده ومحبته .

الصفة السابعة : السخاء .

قال تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ) .

فذكر أن الضيف مكرمون لإكرام إبراهيم لهم ، ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان ، مع أنهم قوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه ، ولم يعلمهم بذلك بل راح : أي ذهب خفية حتى لا يُشعر به ، تجاوباً لضيافة ، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيئاً للضيفان ، وخدمهم بنفسه، فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقربهم إليه، وتلطف مبالغة في الإكرام فقال (أَلا تَأْكُلُونَ) .

الصفة الثامنة : الصبر .

كان إبراهيم مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم الذين أمر رسولنا e أن يصبر كصبرهم (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) .

وكان صبر إبراهيم شاملاً لابتلاءات كثيرة ، سيأتي بيان جملة منها بإذن الله .

الصفة التاسعة : شجاعته .

واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) وقوله لهم (أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ..) .

الصفة العاشرة : تحقيقه الكامل لعقيدة الولاء والبراء .

قال تعالى (وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

فكل عدو لله وإن قربه النسب تجب البراءة منه ، وكل ولي لله وإن باعدت به الأوطان والأزمان تجب موالاته ومحبته وقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم في ذلك (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ ..) .

الصفة الحادية عشرة : سلامة القلب .

قال تعالى (وإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

وسلامة القلب نوعان : كلاهما داخل في مضمون الآية ، **أحدهما :** في حق الله وهو سلامة قلبه من الشرك ، وإخلاصه العبودية لله ، وصدق التوكل عليه .

والثاني : في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم ، وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك .

الفوائد :

١- فضيلة إبراهيم وأنه إمام يقتدى به .

٢- شفقة إبراهيم على أمته حيث قال : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) .

٣- أن الله أعطى إبراهيم ما سأل بأن يجعل من أمته أئمة ، لكنه استثنى من ذلك الظالم فإنه لا يكون إماماً .

٤- كراهية الله تعالى للظلم ، ولذلك لا يكون للظالم إمامة .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) .

[سورة البقرة: ١٢٥]

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ) **(جَعَلْنَا)** بمعنى صيرنا **(الْبَيْتَ)** يعني الكعبة .

(مَثَابَةً لِلنَّاسِ) أي مرجعاً ، **أي** : يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه ، **وقيل** : المثابة من الثواب ، أي : يثابون هنالك .

- **قال في التسهيل** : لأنّ الناس يرجعون إليه عاماً بعد عام .
- **وقال الشيخ ابن عثيمين** : أي يرجعون إليه من كل أقطار الدنيا سواء ثابوا إليه بأبدانهم أو بقلوبهم ، فالذين يأتون إليه حجاجاً أو معتمرين يثوبون إليه بأبدانهم ، والذين يتجهون إليه كل يوم بصلواتهم يثوبون إليه بقلوبهم .

(وَأَمْناً) أي : موضع أمن ، فمن دخله كان آمناً ، فيأمن الناس فيه على دمائهم وأموالهم حتى أشجار الحرم وحشيشه آمن من القطع .

- **قال ابن كثير** : في هذه الآية يذكر الله تعالى شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه مثابة للناس، أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى، لدعاء خليله إبراهيم u في قوله (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) إلى أن قال (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) ، ويصفه تعالى أنه آمناً من دخله أمن .
- **خصائص حرم مكة :**

أولاً : يجب السفر إليها (شد الرحال إليه فرض) .

كما قال تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

ثانياً : قصْدُه مكفراً للذنوب .

قال e (من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) متفق عليه .

وقال e (تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب) رواه الترمذي .

وقال e (والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) متفق عليه .

ثالثاً : أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة .

كما قال e (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) متفق عليه .

رابعاً : أن مكة أفضل البلاد .

كما روى الترمذي عن عبد الله بن عدي . أنه سمع رسول الله e وهو واقف على راحلته بالحَزْوَرَة من مكة يقول (والله إنكِ لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجتُ منك ما خرجت) .

خامساً : أنها قبلة أهل الأرض كلهم .

قال تعالى (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ) .

سادساً : أن المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض .

كما في الصحيحين عن أبي ذر قال (سألت رسول الله e عن أول مسجد وضع في الأرض ؟ فقال : المسجد الحرام ...) متفق عليه .

سابعاً : أنه يحرم استقبال القبلة واستدبارها حال قضاء الحاجة .

كما قال e (لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا) متفق عليه .

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً) نبه الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على مقام إبراهيم وأمر بالصلاة عنده ، قال قتادة : أمروا أن يصلوا عنده .

والمقام في اللغة موضع القدمين ، **وقد اختلف في المراد بالمقام ما هو ؟**

فقيل : مقام إبراهيم الحج كله ، روي هذا عن مجاهد وعكرمة وعطاء .

وقيل : الحرم كله مقام إبراهيم ، روي هذا عن النخعي .

قال القرطبي : أصحها: أنه الحجر الذي تعرفه الناس اليوم الذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم، وهذا قول جابر بن عبد الله وابن عباس وقتادة وغيرهم، وفي حديث مسلم من حديث جابر الطويل (أن النبي e لما رأى البيت استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى ثلاثاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فصلى ركعتين قرأ بهما ب(قل هو الله أحد) و (قل يا أيها الكافرون) .

ورجح هذا القول ابن كثير في تفسيره حيث قال بعد أن ذكر حديث جابر السابق : فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم u يقوم عليه لبناء الكعبة .

ورجحه أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير فقال : والقول الثالث : الحجر ، قاله سعيد بن جبير ، وهو الأصح.

قال عمر بن الخطاب : قلت : يا رسول الله! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلّى ، فنزلت .

ورجحه أيضاً الشوكاني وقال : والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام إبراهيم هو : الحجر الذي كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار ، أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه ، كما في البخاري من حديث ابن عباس ، وهو : الذي كان ملصقاً بجدار الكعبة ، وأوّل من نقله عمر بن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق ، والبيهقي ، بإسناد صحيح .

ورجح هذا القول أيضاً الرازي واحتج له بوجوه :

الأول : ما روى جابر أنه u لما فرغ من الطواف أتى المقام وتلا قوله تعالى (واتخذوا مِن مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى) فقراءة هذه اللفظة عند ذلك الموضع تدل على أن المراد من هذه اللفظة هو ذلك الموضع ظاهر .

وثانيها : أن هذا الاسم في العرف مختص بذلك الموضع ، والدليل عليه أن سائلاً لو سأل المكي بمكة عن مقام إبراهيم لم يجبه ولم يفهم منه إلا هذا الموضع . ثم ذكر بقية الأوجه .

(وَعَهِدْنَا إلى إبراهيم) قيل معناه : أمرنا ، وقيل : أوحينا إلى إبراهيم .

(وَإِسْمَاعِيلَ) أي : وولده إسماعيل .

إسماعيل هو أكبر أولاد إبراهيم ، وهو من سريته هاجر ، وقد أبقاهما u في هذا المكان (مكة) أي أبقى إسماعيل وأمه في هذا المكان حتى شب وكبر وأتاه الأولاد الذين هم العرب المستعربة ، فكان إسماعيل مع أبيه في هذا المكان ، فأمر الله عز وجل أن يطهر بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود .

- إسماعيل هو الذبيح ، وقد ادعت اليهود أن الذبيح هو إسحاق ، وقالوا : إنه مكتوب في التوراة أن الله قال لإبراهيم : اذبح ولدك وبكرك ووحيدك إسحاق ، وقد رد ابن القيم هذه اللفظة (إسحاق) وبأنها من زيادة اليهود ، وبين بطلانها من عشرة أوجه .

(أنْ طَهِّرَا بيتي) وتطهير البيت ينقسم إلى قسمين : تطهير معنوي ، وتطهير حسي .

أما التطهير المعنوي : بأن يطهر من الشرك والمعاصي ، وذلك لأن الشرك نجاسة .

والطهارة الحسية : أن يطهر من الأقذار، من البول والغائط والدم وما أشبه ذلك من الأشياء النجسة، فالواجب أن يطهر منها، فهذا الحكم – أعني التطهير من النجاسة – ثابت للمسجد الحرام ولغيره من المساجد ، ولهذا لما بال الأعرابي في مسجد النبي e أمر النبي e بذنوب من ماء فأهريق عليه .

فان قيل : لم يكن هناك بيت ؛ فما معنى أمرهما بتطهيره؟ فعنه جوابان :

أحدهما : أنه كانت هناك أصنام ، فأمرا بإخراجها ، قاله عكرمة .

والثاني : أن معناه : ابنياه مطهراً . (زاد المسير) .

قال السعدي : وأضاف الباري البيتَ إليه لفوائد :

منها : أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره ، لكونه بيت الله ، فيبذلان جهدهما ، ويستفرغان وسعهما في ذلك .

ومنها : أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام ، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه .

ومنها : أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه . [تفسير السعدي : ٦٦] .

فإن قيل : لم يكن هناك بيت ؛ فما معنى أمرهما بتطهيره ؟

فعنه جوابان :

أحدهما : أنه كانت هناك أصنام، فأمرا بإخراجها ، قاله عكرمة .

والثاني : أن معناه : ابنياه مطهراً . [زاد المسير : ١ / ٤٢١] .

وقال الرازي : إن المفسرين ذكروا وجوهاً :

أحدها : أن معنى (طَهِّرَا بَيْتِيَ) ابنياه وطهراه من الشرك وأسساه على التقوى ، كقوله تعالى (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تقوى مِنَ اللَّهِ) .

وثانيها : عرفا الناس أن بيتي طهرة لهم متى حجوه وزاروه وأقاموا به ، ومجازه : اجعلاه طاهراً عندهم ، كما يقال : الشافعي t يطهر هذا ، وأبو حنيفة ينجسه .

وثالثها : ابنياه ولا تدعا أحداً من أهل الريب والشرك يزاحم الطائفين فيه ، بل أقراه على طهارته من أهل الكفر والريب ، كما يقال : طهر الله الأرض من فلان ، وهذه التأويلات مبنية على أنه لم يكن هناك ما يوجب إيقاع تطهيره من الأوثان والشرك ، وهو كقوله تعالى (وَلَهُمْ فِيهَا أزواج مُّطَهَّرَةٌ) فمعلوم أنهن لم يطهرن من نجس بل خلقن طاهرات، وكذا البيت المأمور بتطهيره خلق طاهراً .

ورابعها : معناه نظفا بيتي من الأوثان والشرك والمعاصي ، ليقتدي الناس بكما في ذلك .

وخامسها : قال بعضهم: إن موضع البيت قبل البناء كان يلقى فيه الجيف والأقذار فأمر الله تعالى إبراهيم بإزالة تلك القاذورات وبناء البيت هناك، وهذا ضعيف لأن قبل البناء ما كان البيت موجوداً فتطهير تلك العرصة لا يكون تطهيراً للبيت، ويمكن أن يجاب عنه بأنه سماه بيتاً لأنه علم أن مآله إلى أن يصير بيتاً ولكنه مجاز .

(للطَّائِفِينَ) الذين يطوفون بالكعبة .

قال في التسهيل : (لِلطَّائِفِينَ) هم الذين يطوفون بالكعبة ، وقيل : الغرباء القادمون على مكة ، والأول أظهر .

قال القرطبي عن القول الثاني : فيه بُعد .

لأن الأصل حمل الألفاظ الواردة في القرآن على المتبادر المشهور دون المعنى البعيد .

(**وَالْعَاكِفِينَ**) أي : للمعتكفين ، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله .

والاعتكاف : لزوم مسجد لطاعة الله بنية .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالعاكفين المقيمين فيه .

(**وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**) أي المصلون عند الكعبة .

قال القرطبي : وخص الركوع والسجود بالذكر ؛ لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى .

وقال الشوكاني : وخص هذين الركنين بالذكر؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة .

● **قال ابن جرير :** فمعنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين ، والتطهير الذي أمرهما به في البيت ؛ هو تطهيره من الأصنام ، وعبادة الأوثان فيه ، ومن الشرك ، ثم أورد سؤالاً ، فقال : فإن قيل : فهل قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه ؟

وأجاب بوجهين :

أحدهما : أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عند زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، قلت : وهذا الجواب مفرغ على أنه كان يعبد عنده أوثان قبل إبراهيم u ، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم e .

الثاني : أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له ، فيبنياه مطهراً من الشرك والريب .

وملخص هذا الجواب : أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده ، المصلين إليه من الركع السجود .

• وقد وردت نصوص كثيرة تدل على فضل تطهير المساجد :

قال تعالى (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) .

وقال e للأعرابي الذي بال في المسجد (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن) رواه مسلم .

وكانت امرأة سوداء تقم المسجد وتنظفه في عهد النبي e ، فلما ماتت ، فقدها النبي e ، فسأل عنها فقالوا : ماتت ، فقال (دلوني على قبرها ، فصلى عليها) متفق عليه .

الفوائد :

١- فيه استحباب الصلاة خلف المقام ، وفيه مباحث :

- o يستحب إذا انتهى من الشوط السابع من الطواف؛ أن ينطلق إلى مقام إبراهيم ويقرأ (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً).
- o أن يجعل المقام بينه وبين الكعبة ويصلي ركعتين ، قال جابر : (ثم أتى مقام إبراهيم فصلى) . رواه مسلم

واتفق العلماء على مشروعيتها .

- o أنه لا يشترط الدنو من المقام ، وأن السنة تحصل بهما وإن كان مكانهما بعيداً من المقام .
- o يقرأ في هاتين الركعتين (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) .
- o حكمها سنة مؤكدة .

٢- قوله (**وأمناً**) استدل به من قال بتحريم إقامة الحدود في الحرم ، وهو قول جمهور التابعين والإمام أبو حنيفة وأصحابه من الفقهاء والإمام أحمد ، وبعض المحدثين ، واستدلوا به بقوله تعالى : (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً) .

وذهب مالك والشافعي ومن تبعهم: إلى أنه يستوفى الحد في الحرم ، واستدلوا بعمومات الأدلة الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل زمان ومكان ، وأن رسول الله e أمر بقتل ابن خطل حينما قال رجل للرسول : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال : (اقتلوه) .

٣- أن الله جعل البيت مثابة للناس وأمناً ، أي مرجعاً لهم وأمناً ، ومن ذلك أنهم يترددون إليه في كل موسم حج ، وفي غير موسم حج .

٤- أن مكة بلد آمن ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله e قال : (إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة) . متفق عليه

فلا يحل القتال في مكة لأحد إلا الرسول e حين الفتح فقط ، فهي لم تحل لأحد قبله ، ولن تحل لأحد بعده ، ولهذا يحرم القتال في مكة المكرمة إلا على سبيل الدفاع عن النفس، فإن الله تعالى يقول : (وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) .

٥- الأمر باتخاذ مصلى من مقام إبراهيم ، وقد بينا أن النبي e صلى خلف المقام بعد الطواف ، وبهذا تعرف أن ما يفعله بعض الناس من التطوع خلف المقام من غير طواف ، أو التطوع بأكثر من ركعتين ، أو إطالة الركعتين ، أو الجلوس بعدهما في هذا المكان لقراء القرآن أو للذكر أو للدعاء ؛ غير مشروع ، لأن النبي e أحرص الناس على الخير بلا شك ، ومع ذلك فقد صلى خلف المقام ركعتين خفيفتين ثم انصرف .

٦- تعلية شأن إبراهيم ، حيث أمرنا الله أن نتخذ من مقامه مصلى ، وهذا من جملة ما يترتب على الإمامة التي قال الله تعالى فيها : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) .

٧- وجوب تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود.

٨- فضيلة الطواف ، لقوله (طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ) ولا شك أن الطواف من الأعمال الجليلة الفاضلة ، ولهذا كان ركناً من أركان الحج والعمرة .

٩- الإشارة إلى أن المشروع للطائف أن يكون متطهراً ، لأنه إذا أمر بتطهير البيت من أجله فتطهيره بنفسه وتطهير ملابسه من الثياب من باب أولى ، ولهذا اختلف العلماء لو طاف وعليه حدث أصغر :

فذهب جمهور العلماء أن الطهارة للطواف شرط ، فلا يصح الطواف بغير وضوء .

واستدلوا بأدلة :

منها حديث عائشة المتفق عليه : (أن النبي e أول شيء بدأ به حين قدم مكة أن توضأ ثم طاف بالبيت).

وحديث ابن عباس أن النبي e قال: (الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام فلا تكلموا فيه إلا بخير). رواه الترمذي والنسائي وابن حبان والبيهقي وابن الجارود والدارمي

وذهب الظاهرية واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية : أن الطواف لا تشترط له الطهارة بل هي أفضل .

أما حديث عائشة فهو فعل مجرد ، والفعل المجرد لا يدل على الوجوب ، بل يدل على الأفضل .

وأما حديث ابن عباس فيجاب عنه أنه موقوف على ابن عباس ولا يصح رفعه إلى النبي e .

والأصل براءة الذمة .

١٠- قوله (**أن طهرا**) قال القرطبي : دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى ، فيكون حكمها حكمه بالتطهير والنظافة ، وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها ، أو لكونها أعظم حرمة ، والأول أظهر .

وفي التنزيل (في بيوت أذن الله أن ترفع) .

١١- واختلف الفقهاء أيهما أفضل : الصلاة عند البيت أو الطواف فيه ؟

فقال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل ، والصلاة لأهل مكة أفضل .

وذُكِر عن ابن عباس ومجاهد وعطاء والجمهور : أن الصلاة أفضل ، وفي الخبر : لولا رجال خشع ، وشيوخ ركع ، وأطفال رضع ، وبهائم رتع ، لصببنا عليكم العذاب صباً .

وفي حديث أبي ذكر : (الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل) .

قال القرطبي : والأخبار في فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور .

١٢- فضيلة الاعتكاف، وهو كذلك ، فهو سنة مؤكدة بالاتفاق، وهذه الآية تدل على أن الاعتكاف حتى في الأمم السابقة.

- تعريف الاعتكاف : لغة : الإقامة ، يقال عكف بالمكان إذا أقام به ، والمعكوف المحبوس .

وشرعاً : لزوم مسجد بنية مخصوصة لطاعة الله .

- حكمه وأدلة مشروعيته :

حكمه سنة باتفاق أهل العلم .

القرآن : قوله تعالى : (وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ) وقوله تعالى : (أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) .

o السنة : فكثيرة جداً ، كقول عائشة (كان e يعتكف الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده) . متفق عليه

o الإجماع : قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الاعتكاف سنة لا يجب على الناس فرضاً .

قال الإمام أحمد : لا نعلم بين العلماء خلاف على أنه مسنون .

يجب الاعتكاف بالنذر ، لحديث عائشة قالت : قال رسول الله e : (من نذر أن يطيع الله فليطعه) . رواه البخاري

- شروط الاعتكاف :

١. الإسلام ، فلا يصح من كافر .

٢. العقل والتمييز ، فلا يصح من مجنون ونحوه ، ولا من صبي غير مميز .

٣. النية ، قال ابن رشد في بداية المجتهد : لا أعلم فيها خلافاً .

٤. الصوم ، وبهذا اختلف العلماء هل يشترط الصوم لصحة الاعتكاف أم لا ؟

والصحيح أن الصوم مستحب للمعتكف وليس شرطاً للصحة .

٥. أن يكون الاعتكاف في مسجد ، واختلف العلماء في أي المساجد يصح الاعتكاف ؟

والصحيح أنه جائز في مسجد تصح فيه الصلوات الخمس ، ويستحب أن يكون في مسجد جامع لكي لا يضطر للخروج منه لصلاة الجمعة .

والأكمل أن يكون الاعتكاف في المساجد الثلاثة (الحرم ، النبوي ، الأقصى) .

ويستثنى من هذا المرأة ، فإنه يجوز لها أن تعتكف في كل مسجد ولو كان لا تقام فيه الجماعة ، لأنه لا يجب عليها أن تصلي مع الجماعة سوى مسجد بيتها فلا يصح اعتكافها فيه .

١٣- فضيلة الركوع والسجود حيث عبر بهما عن الصلاة الكاملة .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

[البقرة : ١٢٦] .

- - - -

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً) يعني مكة .

(آمِناً) أي اجعل هذا المكان - والمراد مكة المكرمة - بلداً ذا أمن يكون أهله في أمنٍ واستقرار .

· **قال ابن كثير :** أي : من الخوف ، أي : لا يرعب أهله ، واجعل هذه البقعة بلداً آمناً .

وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدراً :

فقال تعالى (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا) .

إلى غير ذلك من الآيات ، وفي صحيح مسلم عن جابر . قال : سمعت رسول الله e يقول (لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح) .

· **قال الخازن :** فإن قيل : لم دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ للبلد بالأمن ؟

إنما دعا إبراهيم له بالأمن لأنه بلد ليس فيه زرع ولا ثمر فإذا لم يكن آمناً ، لم يجلب إليه شيء من النواحي فيتعذر المقام به ، فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وجعله بلداً آمناً ، فما قصده جبار إلا قصمه الله تعالى كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم من الجبابرة .

· **قال ابن عاشور :** ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوة ، فإن أمن البلاد والسبُل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها ، وهو يستتبع التعمير والإقبالَ على ما ينفع والثروةَ فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة ، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام .

· **سؤال :** فإن قلت : قد غزا مكة الحجاج وخرب الكعبة ؟

قلت لم يكن قصده بذلك مكة ولا أهلها ولا إخراب الكعبة ، وإنما كان قصده خلع ابن الزبير من الخلافة ولم يتمكن من ذلك إلا بذلك فلما حصل قصده أعاد بناء الكعبة فبناها وشيدها وعظم حرمتها وأحسن إلى أهلها . (تفسير الخازن) .

(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) أي : وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك وخصَّ بدعوته المؤمنين فقط .

· **قال ابن عاشور :** والتعريف في الثمرات تعريف الاستغراق وهو استغراق عُرفي أي من جميع الثمرات المعروفة للناس ودليل كونه تعريف الاستغراق مجيء (مِن) التي للتبعيض ، وفي هذا دعاء لهم بالرفاهية حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه .

· دعاء إبراهيم لهم بالثمرات ليقوموا بعبادة الله ، كما قال تعالى عن إبراهيم (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) .

فلم يكن طلب الرزق مقصوداً لذاته بل صرح في دعائه أن يكون الرزق عوناً لهم على أداء العبادات والطاعات .

· **قال الرازي :** وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات ، وإقامة الطاعات .

- **وقال الخازن:**وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا إنما ليُستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات.
- **وقال ابن عاشور:** والمقصود توفر أسباب الانقطاع إلى العبادة، وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب.

وقد قال تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) .

- فإن قيل : المطلوب من الله تعالى هو أن يجعل البلد آمناً كثير الخصب ، وهذا مما يتعلق بمنافع الدنيا فكيف يليق بالرسول المعظم طلبها ؟!

والجواب عنه من وجوه :

أحدها : أن الدنيا إذا طلبت ليتقوى بها على الدين ، كان ذلك من أعظم أركان الدين ، فإذا كان البلد آمناً وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى ، وإذا كان البلد على ضد ذلك كانوا على ضد ذلك . **وثانيها :** أنه تعالى جعله مثابة للناس ، والناس إنما يمكنهم الذهاب إليه إذا كانت الطرق آمنة والأقوات هناك رخيصة .

وثالثها : لا يبعد أن يكون الأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة ، فحينئذ يشاهد المشاعر المعظمة والمواقف المكرمة فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله في تلك الطاعة .

(**مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ**) الإيمان بالله يتضمن : الإيمان بوجوده وبربوبيته وبألوهيته وبأسمائه وصفاته .

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) هو يوم القيامة ، وسمي آخراً ، لأنه لا يوم بعده .

- خص بدعوته المؤمنين فقط .

قال الرازي عن هذا التخصيص (من آمن بالله واليوم الآخر) بقوله : وسبب هذا التخصيص النص والقياس، أما النص فقوله تعالى (فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين) وأما القياس فمن وجهين :

الوجه الأول : أنه لما سأل الله تعالى أن يجعل الإمامة في ذريته ، قال الله تعالى (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين) فصار ذلك تأديباً في المسألة ، فلما ميز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين في باب الإمامة ، لا جرم خصص المؤمنين بهذا الدعاء دون الكافرين ثم أن الله تعالى أعلمه بقوله (فَأُمَتّعُهُ قَلِيلاً) الفرق بين النبوة ورزق الدنيا، لأن منصب النبوة والإمامة لا يليق بالفاسقين ، لأنه لا بد في الإمامة والنبوة من قوة العزم والصبر على ضروب المحنة حتى يؤدي عن الله أمره ونهيه ولا تأخذه في الدين لومة لائم وسطوة جبار ، أما الرزق فلا يقبح إيصاله إلى المطيع والكافر والصادق والمنافق ، فمن آمن فالجنة مسكنه ومثواه ، ومن كفر فالنار مستقره ومأواه.

الوجه الثاني : يحتمل أن إبراهيم . عليه السلام . قوي في ظنه أنه إن دعا للكل كثر في البلد الكفار فيكون في غلبتهم وكثرتهم مفسدة ومضرة من ذهاب الناس إلى الحج ، فخص المؤمنين بالدعاء لهذا السبب .

- كثيراً ما يقرن الله بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز التي تدفع الإنسان للعمل الصالح ، حيث الجزاء على الأعمال في ذلك اليوم ، فهو أعظم دافع إلى العمل الصالح ، وهو أعظم رادع على التمادي في الباطل لمن وفقه الله تعالى .

(**قَالَ**) الله جواباً له .

(**وَمَنْ كَفَرَ**) أي قال الله : وأرزق من كفر؛ لأن الله يرزق في الدنيا المؤمن والكافر .

- **قال الشوكاني :** وقوله (وَمَن كَفَرَ) الظاهر أن هذا من كلام الله سبحانه ردّاً على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم، أي : وارزق من كفر، فأمتعه بالرزق قليلاً، ثم أضطره إلى عذاب النار .

(**فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً**) : والمتاع : ما يتمتع به ثم يزول ، وذلك بموت الإنسان .

• والقلة هنا : تتناول الزمان ، وتتناول عين الممتّع ، فالزمن قصير ، فمهما طال بالإنسان العمر فهو قليل (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) ، وكذلك عين الممتع به قليل ، فكل ما يحصل للإنسان من هذه الدنيا من اللذة والمتاع قليل بالنسبة للآخرة كما في الحديث (لموضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها) .

(ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ) أي : ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أي : وبئس النار المآل والمرجع للكافر .

• **قال ابن كثير** : ومعناه : أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

كقوله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) .

وفي الصحيحين قال e (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم).

وقال e (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

• وقد أخبر تعالى أنه يمهل الكافرين ويمتعهم ثم يأخذهم .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وقال تعالى (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) .

وقال تعالى (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

• فقوله تعالى (قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ ...) هذا من قول الله تعالى، ورجحه ابن جرير، **وقيل** : هو من تمام دعاء إبراهيم u ، والأول أصح ، فإن إبراهيم أراد أن يحجر الدعوة بالرزق للمؤمنين دون الكافرين ، فأجابه الله عز وجل بقوله (.. ومن كفر فأمتعه ...) والمعنى : ومن كفر فإني أرزقه أيضاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ، وهي كقوله (كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) ، **قال ابن جرير** : فتأويل الآية على ذلك : قال الله : يا إبراهيم قد أجبت دعوتك ، ورزقت مؤمني أهل هذا البلد من الثمرات وكفارهم متاعاً لهم إلى بلوغ آجالهم ، ثم أضطر كفارهم بعد ذلك إلى النار .

الفوائد :

١- فضل الدعاء ، وأنه سبب لحصول المقصود .

٢- رأفة إبراهيم بمن يؤم هذا البيت .

٣- أن رزق الله شامل للكافر والمؤمن (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا) .

٤- أن متاع الدنيا قليل .

٥- التزهيد في الدنيا .

٦- الترغيب بالباقي وهو الآخرة .

٧- الحذر من أن تكون نعم الله على العبد استدراجاً .

٨- إثبات عذاب النار .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

[البقرة : ١٢٧ – ١٢٨] .

- - - - - - - - - - - - - - -

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ) أي : واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل البيت ورفعهما القواعد منه .

- القواعد : جمع قاعدة وهي السارية والأساس ، والمراد بالبيت هنا الكعبة ، وقد نقل ابن عطية الإجماع على هذا .
- وكانا يقولان :

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) أي : اقبل منا عملنا هذا واجعله خالصاً لوجهك الكريم .

-قال ابن كثير : فهما في عمل صالح ، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما ، كما جاء عن وهيب بن الورْد أنه قرأ (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) ثم يبكي ويقول : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يُتقبل منك ، وهذا كما حكى الله عن حال المؤمنين الخلّص في قوله (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) أي : يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أي : خائفة أن لا يتقبل منهم .

وهكذا أهل الصلاح يعملون أعمالاً صالحة ويخافون .

كما قال تعالى عن عباد الرحمن يبيتون لربهم سجداً وقياماً ويقولون (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً) .

وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

وهذا الصديق أبو بكر يصدّق برسول الله e ويجاهد معه وصحبه في هجرته ويتصدق بكل ماله في سبيل الله ويعلمه النبي e أن يقول في صلاته (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم) .

وهذا عمر بن الخطاب يجاهد مع رسول الله e وينفق نصف ماله في سبيل الله ويقول عند موته : وددت أن ذلك كفاف لا عليّ ولا لي .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) قالت عائشة : يا رسول الله ! أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك يسارعون في الخيرات) رواه الترمذي .

قال ابن القيم: والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

قال تعالى (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) .

ثم قال : ومن تأمل أحوال الصحابة وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف ، ونحن جمعنا بين التقصير – بل التفريط – والأمن ، فهذا الصديق يقول : وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن .

وذكر عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان يبكي كثيراً ويقول : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل .

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ (إن عذاب ربك لواقع) بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه .

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء .
وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته .
وهذا علي اشتد بكاؤه وخوفه من اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى .
وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشّراك البالي من الدموع .
وكان أبو ذر يقول : يا ليتني كنت شجرة تعضد وددت أني لم أخلق .
وقال ابن أبي مليْكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي e كلهم خاف على نفسه النفاق ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل .
وقال الحسن : ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق .
وقال إبراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً .
وأما أهل الفساد والريب فكما قال الله (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا) .

- **من أسباب قبول العمل :**

منها : الرجاء وكثرة والدعاء .
كما هنا (ربنا تقبل منا) .
ومنها : الخوف من عدم قبول العمل .
كما قال تعالى في وصف الأبرار أنهم يعملون ويخافون (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) .
عن علي t أنه قال : كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل. ألم تسمعوا الله عز وجل يقول : (إنما يتقبل الله من المتقين) .
(**إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**) هذه الجملة تعليل لطلب القبول ، يعني نسألك أن تقبل ، لأنك أنت السميع لأقوالنا ، العليم بأحوالنا ونياتنا لا تخفى عليك خافية .

- والسميع : اسم من أسماء الله تعالى ، متضمن لصفة السمع لله تعالى ، فهو سبحانه يسمع جميع الأقوال والأصوات ، السر والجهر عنده سواء .

كما قال تعالى (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .
وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .
وقال تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .
وقال تعالى (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) .

- **وسمع الله ينقسم إلى قسمين :**

أولاً : سمع إدراك : أي أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظاهر .
قال تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي...) .
هذا السمع قد يراد به الإحاطة ، كالآية السابقة .
وقد يراد به التهديد ، كقوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء) .
وقد يراد به التأييد ، ومنه قوله تعالى لموسى : (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) أي أسمعك وأؤيدك .

ثانياً : سمع إجابة : أي أن الله يستجيب لمن دعاه .

ومنه قول إبراهيم (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء) أي مجيب الدعاء .

ومنه قول المصلي (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده .

ومنه كقوله e (اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع) أي : من دعاء لا يستجاب .

- **آثار الإيمان بهذا الاسم :**

أولاً : مراقبة الله تعالى فيما يقوله اللسان ، سواء أسر أو جهر به ، وسواء كان ذلك في جماعة أو في خلوة .

ثانياً : اللجوء إلى الله وسؤاله سبحانه من حاجات الدنيا والآخرة ، فهو السميع لدعاء عباده سرهم ونجواهم ، وهذا المعنى من معاني السميع (المجيب) يسكب في القلب الطمأنينة والأنس بالله وحسن الظن به سبحانه ، والرجاء فيما عنده ، وعدم الملل من دعائه .

وقد دعا الأنبياء والصالحون ربهم سبحانه بهذا الاسم ليقبل منهم طاعتهم أو ليستجيب لدعائهم :

فإبراهيم وإسماعيل قالا (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وامرأة عمران عندما نذرت ما في بطنها خالصاً لله لعبادته ولخدمة بيت المقدس قالت (فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

ودعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية صالحة ثم قال (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) .

ودعا يوسف u ربه أن يصرف عنه كيد النسوة (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وأمر بالالتجاء إليه عند حصول وساوس شياطين الإنس والجن، قال تعالى (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

(العليم) اسم من أسماء الله ، وقد تقدم مباحثه .

- **قال السعدي :** هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي ، وبالماضي والحاضر والمستقبل ، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء .

ومن علم الله أنه يعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت .

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ)، وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا).

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً ، لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون ، كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) .

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) قال ابن جرير : يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، ولا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك ، ولا في العبادة غيرك .

(وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) أي : واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ، ويخضع لعظمتك .

- وفي هذا أنه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته بالدعاء ، لأن الذرية الصالحة من آثار الإنسان الصالحة ، كما قال إبراهيم في آية أخرى (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) . (ابن عثيمين) .

• فائدة تكرير النداء بقوله (ربنا) إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هذه الدعوات مقصودة بالذات ، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي (ربنا وابعث فيهم رسولاً) .

• فإن قلت : لم خص ذريتهما بالدعاء ، قلت : لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة ، قال الله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم ألا ترى أن المتقدمين من العلماء والكبراء : إذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم . (تفسير الخازن) .

• وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً ، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له .

• **سؤال :** لم خصا بعض الذرية بالدعاء ؟

الجواب : وخصا البعض لما علما من قوله سبحانه (وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظالم لِّنَفْسِهِ) أو من قوله عز شأنه (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين) باعتبار السياق أن في ذريتهما ظلمة وأن الحكمة الإلهية تستدعي الانقسام إذ لولاه ما دارت أفلاك الأسماء ولا كان ما كان من أملاك السماء.

(**وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**) اختلف في ذلك : قيل : مذابحنا ، وقيل : مناسك حجنا .

• **قال السعدي :** أي علمناها على وجه الإرادة والمشاهدة ، ليكون أبلغ .

ثم قال : يحتمل أن يكون المراد بالمناسك : أعمال الحج كلها ، كما يدل عليه السياق والمقام ، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعظم من ذلك : وهو الدين كله ، والعبادات كلها ، كما يدل عليه عموم اللفظ ، لأن النسك التعبد ، لكن غلب على متعبدات الحج تغليباً عرفياً ، فيكون حاصل دعائهما : يرجع إلى التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح .

• هذه من الرؤية البصرية ، أي : أنهم يرونها ويشاهدونها ، **وقيل :** من رؤية القلب .

(**وَتُبْ عَلَيْنَا**) أي : وفقنا للتوبة فنتوب ، والتوبة : هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة .

• واختلف في معنى قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (وتب علينا) وهم أنبياء معصومون :

فقالت : طلبا التثبيت والدوام .

وقيل : أرادا من بعدهما من الذرية

وقيل : إنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا أرادا أن يبينا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة .

• **وقال الطبري :** إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معانٍ يحب أن تكون أحسن مما هي. (المحرر الوجيز) (**إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ**) اسم من أسماء الله تعالى .

معناه : التواب على من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه .

• **وقال السعدي :** هو التائب على التائبين أولاً : بتوفيقهم للتوبة ، والإقبال بقلوبهم إليه ، وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قبولاً لها وعفواً عن خطاياهم .

• ووصف نفسه سبحانه بالتواب – وهي صيغة مبالغة – لكثرة من يتوب عليهم ، ولكثرة توبته على العبد

• **وتوبة الله على العبد نوعان :**

أحدهما : توفيق الله للعبد للتوبة ، كما قال تعالى (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) بمعنى وفقهم للتوبة ليتوبوا .

الثاني : قبولها من العبد إذا تاب ، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) . [قاله الشيخ ابن عثيمين] .

- **أثر الإيمان بهذا الاسم :**

أولاً : أن الله يتوب على التائبين ، ويغفر ذنوب المنيبين ، مهما كثرت وعظمت .

قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) .

ثانياً : إفراد الله بالتوبة وطلب العفو وغفران الذنوب ، لأنه لا يغفر الذنوب ولا يوفق إلى التوبة ويقبلها إلا الله وحده كما قال تعالى (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

ثالثاً : الحياء من الله ، البر الرحيم التواب الغفور ، الذي يفرح بتوبة عبده ، وهذا الحياء إذا تمكن من القلب أثمر تعظيماً لله وحياء منه ، ومبادرة إلى طاعته وترك معاصيه قدر الجهد والاستطاعة .

رابعاً : عدم اليأس من رحمة الله ، والقوة في رجائه .

(**الرَّحِيمُ**) اسم من أسماء الله دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى ، كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

- **من آثار رحمته :**

من رحمته سبحانه وتعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور ، فالرسل رحمة من عند الله لعباده قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

ومن رحمته سبحانه وتعالى مغفرته لذنوب عباده والصفح عنهم ، وتكفير سيئاتهم ، وفتح لهم باب التوبة لهم

ومن رحمته إلى غير ذلك .

- **الآثار المرتبة على معرفتنا بهذا الاسم :**

أولاً : محبة الله المحبة العظيمة، وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله في الآفاق وفي النفس والتي لا تعد ولا تحصى، وهذا يثمر تجريد المحبة لله والعبودية الصادقة له سبحانه وتقديم محبته على النفس والأهل والمال والناس جميعاً .

ثانياً : عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله وعدم اليأس من رحمة الله تعالى ، فإن الله قد وسعت رحمته كل شيء ، وحسن الظن بالله وانتظار الفرج بعد الشدة من أجل العبادات .

ثالثاً : اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى ، وقد حض الله عباده على التخلق بها ، ومدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ومن أسمائه e أنه نبي الرحمة ، ومدح الصحابة بقوله (رحماء بينهم) وخُص أبو بكر بينهم بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل حيث قال e فيه (أرحم أمتي أبو بكر) رواه أحمد .

رابعاً : التعرض لرحمة الله بفعل أسبابها .

- **أسباب تنال بها رحمة الله :**

أولاً : رحمة الناس . كما قال e (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه .

ثانياً : المحسنين . قال تعالى (إن رحمت الله قريب من المحسنين) .

ثالثاً : طاعة الله ورسوله . قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

رابعاً : السماحة في البيع والشراء .

قال رسول الله e (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) رواه البخاري.

خامساً : عيادة المريض.

قال رسول الله e (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) .

سادساً : قيام الليل وإيقاظ الأهل.

قال رسول الله e (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) .

سابعاً : الحلق في النسك.

قال رسول الله e : (اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً) .

ثامناً : مجالس الذكر.

قال رسول الله e (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ...) رواه مسلم.

تاسعاً : الجلوس في المسجد.

قال رسول الله e (إن الملائكة تستغفر للمصلي مادام في مصلاه تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه) .

عاشراً : سماع حديث الرسول وتبليغه.

قال رسول الله e (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه ابن حبان

- قوله تعالى (**إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرحيم**) هذا من باب التوسل بأسماء الله المناسبة للمطلوب .

- **والحكمة من قرن توبته برحمته :**

أولاً : أن الله تعالى رحيم بعباده فلا يعاقبهم بعد التوبة .

ثانياً : أنه تعالى لا يخذل ولا يرد من جاء منهم تائباً ، ولو بلغت ذنوبه عنان السماء وملء الأرض .

ثالثاً : أن قبوله لتوبة عباده تفضل منه عليهم ، وهو مقتضى رحمته تعالى بهم .

الفوائد :

١- فضل عمارة الكعبة .

٢- فضل التعاون على الخير .

٣- فضل بناء بيوت الله (المساجد) .

٤- أهمية اهتمام العبد بقبول عمله ، فالمدار على القبول وليس على كثرة العمل ، فكم من إنسان يعمل أعمالاً كثيرة ولا يقبل منه ، فليس له من عمله إلا التعب ، وكم من إنسان عمل أعمالاً قليلة قبلت منه وفي الحديث (رب صائم حظه من صيامه الجوع والظمأ ، ورب قائم حظه من قيامه السهر) رواه أحمد .

٥- الحذر كل الحذر من محبطات الأعمال التي تحبط العمل بعد القيام به ، وهي كثيرة منها : المنّ بها والتحدث بها رياء ، والعجب وغير ذلك .

٦- إثبات اسم السميع من أسماء الله المتضمن لصفة السمع الكامل .

٧- إثبات اسم العليم من أسماء الله ، المتضمن لصفة العلم الكامل ، فلا يخفى عليه شيء سبحانه .

٨- افتقار العبد لربه .

٩- كمال عبودية الأنبياء لربهم .

١٠- أن الإنسان – مهما كانت منزلته – محتاج إلى تثبيت الله له .

١١- أهمية الإخلاص لله تعالى لقوله (واجعلنا مسلمين لك) .

١٢- تحريم التعبد لله بما لم يشرعه .

١٣- إثبات اسم التواب من أسماء الله .

١٤- إثبات اسم الرحيم من أسماء الله .

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .
[البقرة : ١٢٩] .

(**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ**) الضمير راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقاً، ويحتمل : أن يكون راجعاً إلى الذرية، وقد استجاب الله لإبراهيم u هذه الدعوة .

· **قال ابن عاشور** : إن قيل لم قال (فيهم) ولم يقل لهم ؟

فالجواب : إنما قال (فيهم) ولم يقل لهم لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة فلا يكون ذلك الرسول رسولاً إليهم فقط ، ولذلك حذف متعلق (رسولاً) ليعم .

· **وأجاب الآلوسي** عن هذا السؤال بقوله : ليكون أشفق عليهم ، ويكونوا أعز به وأشرف ، وأقرب للإجابة ، لأنهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته.

(**رَسُولاً مِنْهُمْ**) يعني محمداً r .

· قال الرازي : وأما إن الرسول هو محمد e فيدل عليه وجوه .

أحدها : إجماع المفسرين وهو حجة .

وثانيها : ما روي عنه u أنه قال (أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى) وأراد بالدعوة هذه الآية ، وبشارة عيسى u ما ذكر في سورة الصف من قوله (مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ) .

وثالثها : أن إبراهيم u إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين يكونون بها وبما حولها ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة وما حولها إلا محمداً e ..

· **قال ابن كثير** : يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله رسولاً منهم ، أي : من ذرية إبراهيم .

· قوله تعالى (**وابعث**) أصل البعث الإنشاء ، وسميت الرسالة بعثاً ، لأنها إخراج للناس من حال إلى حال ، فكأنهم بُعثوا خلقاً جديداً ، وأُنْشِئوا خلقاً جديداً .

· قوله تعالى (**منهم**) كما في آية أخرى (رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ) أي : من جنسهم ، وكونه من جنسهم أتم في النعمة ، لأنه لو كان من الملائكة ما ألِفه الناس ولا ركنوا إليه وربما لا يقبلون منه .

· قوله تعالى (**رسولاً منهم**) أن يكون ذلك المبعوث منهم لا من غيرهم لوجوه :

أحدها : أنه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه فيقرب الأمر عليهم في معرفة صدقه وأمانته.

وثانيها : أنه إذا كان منهم كان أحرص الناس على خيرهم وأشفق عليهم من الأجنبي لو أرسل إليهم .

• **قال ابن كثير :** وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد e رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن كما قال تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

ولذلك قال e (سأنبئكم عني : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي) رواه أحمد .

(**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**) التلاوة هنا تشمل التلاوة لفظاً ، والتلاوة معنى ، والتلاوة حكماً .

فالتلاوة لفظاً : أن يقرأ الكتاب بينهم .

والتلاوة معنى : أن يعلمهم معانيه .

والتلاوة حكماً : أن يعمل بأحكامه .

كما قال تعالى (وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقالت عائشة (كان النبي e يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، يتأول القرآن) يعني يعمل به.

• والمراد بالآيات هنا الآيات الشرعية وهي القرآن .

(**ويعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**) وهو القرآن ، وليس هذا تكرار مع قوله (يتلو عليهم آياته) لأن الأول تلاوة والثاني تعليم ، والتعليم أخص من التلاوة ، والتعليم هنا شامل لتعليم اللفظ وتعليم المعنى وتعليم الحكم .

وذهب بعضهم إلى أن معنى (ويعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ) هو الكتابة ، ويدل عليه أن الله ذكر القرآن قبله ، فلو قلنا إن المراد بالكتاب هو القرآن لصار تكراراً .

• وسبق لماذا سمي القرآن كتاباً .

(**والْحِكْمَةَ**) يعني السنة ، قاله الحسن وقتادة ومقاتل كما قال تعالى (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) ، **وقيل :** الفهم في الدين ولا منافاة .

(**وَيُزَكِّيهِمْ**) أي : يطهر قلوبهم من الشرك والنفاق وسوء الأخلاق ، ويهذب أخلاقهم ، فطهارة النفوس بطاعة الله وترك الشرك والذنوب .

قال ابن جرير : ويطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان وينميهم ويكثرهم بطاعة الله .

• وقد أقسم الله بفلاح من زكى نفسه فقال (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا . .... قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) .

ومن أسباب تزكية النفس الصدقة كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

ومنها : غض البصر وحفظ الفرج كما قال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ) .

ومنها : الدعاء بذلك : كان e يقول (اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا) رواه مسلم .

(**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيز**) اسم من أسماء الله وهو : العزيز ، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله ، وهي ثلاثة أنواع :

عزة القدْر : بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ، كما قال النبي e (السيد الله) .

وعزة القهر : بمعنى أن الله القاهر لكل شيء ، لا يُغلب ، كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .

وعزة الامتناع : بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص .

· **قال السعدي :** (العزيز) الذي له العزة كلها : عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته .

· **الآثار المترتبة على معرفة هذا الاسم :**

أولاً : أن اسمه سبحانه (العزيز) يستلزم توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، إذ الشركة تنافي كمال العزة .

ثانياً : ومن كمال العزة تبرئته سبحانه من كل سوء وتنزيهه من كل شر ونقص ، قال ابن القيم : ومن تمام عزته : براءته عن كل سوء وشر وعيب ، فإن ذلك ينافي العزة التامة .

ثالثاً : من كمال عزته سبحانه نفاذ حكمه وأمره في عباده وتصريف قلوبهم على ما يشاء ، وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله ، وهذا يجعل العبد خائفاً من ربه سبحانه ، لائذاً بجنابه معتصماً به متبرئاً من الحول والقوة ذليلاً حقيراً بين يدي ربه سبحانه .

رابعاً : أن الإيمان بهذا الاسم الكريم يثمر العزة في قلب المؤمن ، ومهما ابتغى العبد العزة عند غير الله وفي غير دينه فلن يجدها ولن يجد إلا الذل والضعف والهوان كما قال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً) . والشعور بهذه العزة تثمر التعالي على الباطل وأهله وعدم الاستكانة لهم مهما تسلطوا على العبد .

خامساً : أن الإيمان بهذا الاسم يثمر عدم الركون إلى شيء من هذه الدنيا الفانية وجعلها مصدر العزة والقوة ، فكم رأينا وسمعنا من كثير من الناس اغتر بعضهم بماله أو جاهه أو ولده أو سلطانه ومنصبه فكانت كلها سبباً في إذلاله وشقائه .

سادساً : من أسباب العزة: العفو والتواضع والذلة للمؤمنين، قال تعالى في وصف عباده الذين يحبهم ويحبونه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال e (... وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) رواه مسلم .

(**الْحَكِيمُ**) في أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله [وقد تقدم مباحثه] .

الفوائد :

١- استجابة الله لدعاء إبراهيم عليه السلام .

٢- ضرورة الناس إلى بعث الرسل .

٣- أن كون الرسول منهم أقرب إلى قبول دعوته .

٤- أن دعوة الرسول تتضمن تعليم الكتاب تلاوة ومعنى .

٥- أهمية تزكية الأخلاق وتطهيرها ، وأن ذلك من منهج الرسل .

٦- على الداعية أن يحرص أن يزكي نفسه ويزكي غيره بتطهيرها من الأخلاق الرديئة وإلزامها بالأخلاق الرفيعة ، وقد قال تعالى (قد أفلح من زكاها) .

٧- إثبات اسمين من أسماء الله : العزيز والحكيم .

٨- إثبات الحكمة الكاملة لله تعالى .

٩- أن الإنسان لا يعترض على قضاء الله ، لأنه صادر عن حكمة .

١٠- إثبات العزة لله ، فمن أراد العزة فليطلبها من الله ، وذلك بطاعته .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

[البقرة : ١٣٠ – ١٣٢] .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) أي : عن طريقته ومنهجه ، فيخالفُها ويرغب عنها .

• وملة إبراهيم : هي الحنيفية السمحة ، وهي الإسلام كما قال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

• والحَنِيفِيَّةُ :دِينُ جَمِيعِ الأنبِيَاءِ؛ ولكِن أُضِيفت إلى إبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ u ؛ لأنَّه أكْمَلُ الخَلْقِ تحقِيقًا للتَّوحيدِ مع نبيِّنا e ؛ وإبْرَاهِيمُ: الأبُ، ومُحَمَّدٌ e : الابنُ؛ فاستَحَقَّ أن تُنْسَبَ إلى الأَبِ دُون الابْنِ؛ فيقال: مِلَّةُ إبْرَاهِيمَ على جهةِ التَّشْرِيفِ له؛ وإن كانَت هي مِلَّةَ الأنبِيَاء جَميعاً .

(إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) أي : فقد ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطُفيَ في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً ، فمن ترك طريقة هذا ومسلكه وملته ، واتبع طريق الضلالة والغي ، فأي سفه أعظم من هذا ؟ أم أي ظلم أكبر من هذا ؟

• فمعنى **(سَفِهَ نَفْسَهُ)** :

قيل : ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره .

وقيل : أي : جهل أمر نفسه فيما يصلحها ويُقَوِّمُهَا .

وقيل : سفه نفسه أي : أهلكها .

وقيل : لم يفكر في نفسه .

• **وقال ابن جرير :** وما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية إلا سفيه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويضرها في معادها .

• قال قتادة : نزلت هذه الآية في اليهود ، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

• فإن ملة إبراهيم هي عبادة الله مخلصين له الدين ، فهي توحيد الله فلم يدعو معه غيره ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال (يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) . وقال تعالى (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) .

وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

(وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) أي : ولقد اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة .

(وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) الذين لهم أعلى الدرجات .

(**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ**) أي استسلم لأمر ربك وأخلص لربك .

• قال بعض العلماء : الإسلام ورد فى القرآن على ثلاثة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى الإخلاص .

قال تعالى (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ) أي أَخْلِص.

الثاني : بمعنى الإقرار .

قال تعالى (وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ) أي أقرّ له العبوديّة.

الثالث : بمعنى الدّين .

قال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ) . وقال تعالى (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) .

(**قَالَ**) امتثالاً لأمر ربه مبادراً .

(**أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) إخلاصاً وتوحيداً ومحبة وإنابة .

قال بعض العلماء : إنما قال لرب العالمين دون أن يقول أسلمت لك ليكون قد أتى بالإسلام وبدليله .

• من أسباب اصطفاء إبراهيم في الدنيا وعلو منزلته في الآخرة :

سرعة امتثاله لأمر الله عز وجل .

وصبره ، فلما ابتلاه ربه بالكلمات أتمهن ووفى بهن .

وشكره لنعم الله كما قال تعالى (شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

(**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ**) اختلف في مرجع الضمير في قوله [بها] :

فقيل : هذه الملة .

وقيل : هذه الكلمة : أسلمت لرب العالمين ، ورجحه القرطبي وقال : هو أصوب لأنه أقرب مذكور ، ورجح الشوكاني الأول وقال : لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع لا مجرد التكلم لكلمة الإسلام ، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم وأولى بهم .

• قوله تعالى (**وَوَصَّى بِهَا**) الوصية : العهد المؤكد في الأمر الهام .

• **قال ابن الجوزي :** ووصى أبلغ من أوصى ، لأنها تكون لمرات كثيرة .

• **وقال الماوردي :** ووصّى أبلغ من أوصى ، لأن أوصى يجوز أن يكون قاله مرة واحدة ، وَوَصَّى لا يكون إلا مراراً.

• فإن قلت ، لم قال : وصى بها إبراهيم بنيه ولم يقل أمرهم ؟.

الجواب : قلت : لأن لفظ الوصية أوكد من لفظ الأمر لأن الوصية إنما تكون عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لولده أشد وأعظم ، وكانوا هم إلى قبول وصيته أقرب وإنما خص بنيه بهذه الوصية لأن شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقته على غيرهم . وقيل : لأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم فكان صلاحهم صلاحاً لغيرهم . [تفسير الخازن : ١ / ٨٥] .

(**وَيَعْقُوبُ**) معطوف على إبراهيم : أي وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه .

قال ابن كثير : لحرصهم عليها ومحبتهم لها ، حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم كقوله تعالى (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

• وقرأ بعض السلف (ويعقوبَ) بالنصب عطفاً على بنيه ، وكأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب ابن إسحاق وكان حاضراً ذلك ، ورجح هذا ابن كثير وقال : فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً ، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين .

• **قال الشيخ ابن عثيمين :** وسمي يعقوب ، قيل : لأنه عقب إسحاق .

(**يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ**) أي : اختار لكم دين الإسلام ديناً ، وهذه حكاية لما قاله إبراهيم ويعقوب لأبنائهما .

• والدين هو الإسلام وذلك لقوله (فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) كما قال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) . [أضواء البيان : ١ / ١٠٢] .

(**فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**) أي : أحسنوا في حال الحياة ، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ، ومن نوى صالحاً ثُبّتَ عليه [قاله ابن كثير : ١ / ١٧٤] .

• وما ذكره ابن كثير هنا كلام رائع ، لأن لقائل أن يقول في قوله تعالى (فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) هل يملك الإنسان أن يحدد الأمر الذي يموت عليه ؟ فالجواب ما ذكره ابن كثير ، فالمراد : الإحسان في حال الحياة مع ملازمة هذا حتى يختم للإنسان خاتمة طيبة . [قاله الشيخ خالد السبت حفظه الله] .

• **ولهذا قال الطبري** في معنى الآية : أي : فلا تفارقوا هذا الدين وهو الإسلام أيام حياتكم ، وذلك أن أحداً لا يدري متى يأتيه منيته ، فلذلك قالا لهم (فلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) لأنكم لا تدرون متى تأتيكم مناياكم من ليل أو نهار ، فلا تفارقوا الإسلام فتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا .

• **وقال الخازن :** أي مؤمنون مخلصون ، فالمعنى دوموا على إسلامكم حتى يأتيكم الموت وأنتم مسلمون لأنه لا يعلم في أي وقت يأتي الموت على الإنسان .

• فإن قال قائل ما الجواب عن حديث (... إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا) متفق عليه .

فالجواب: جاء في رواية تبين معنى الحديث ، وهي (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار).
فقد جاء في حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ e الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا . فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ e إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَفِى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ e رَجُلٌ لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً إِلاَّ اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ فَقَالُوا مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ e « أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » . فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَنَا صَاحِبُهُ أَبَداً . قَالَ فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ - قَالَ - فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحاً شَدِيداً فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ e فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ « وَمَا ذَاكَ » . قَالَ الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفاً أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ فَقُلْتُ أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى جُرِحَ جُرْحاً شَدِيداً فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ e عِنْدَ ذَلِكَ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ **فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ** وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ **فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ** وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ). رواه مسلم

• فقوله **(فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ)** إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك ، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس ، إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك ، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت ، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفيةٌ من خصال الخير ، فتغلب عليه تلك الخصلةُ في آخر عمره ، فتوجب له حسن الخاتمة . [قاله ابن رجب]

• الموت على الإسلام مطلب لأهل الصلاح :

كما قال تعالى عن يوسف أنه قال (تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) .

وقول المؤمنين بموسى (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) .

وقول إبراهيم ويعقوب لأبنائهما (فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

• ولذلك تمنى جماعة من السلف الموت خشية الفتنة .

لما حج عمر آخر حجة حجها رفع يديه وقال : اللهم إنه كبر سني ورق عظمي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيِّع ولا مفتون ، ثم رجع إلى المدينة ، فما انسلخ حتى قتل .

ودعا علي ربه أن يريحه من رعيته حيث سئم منهم فقتل عن قريب .

ودعت زينب بنت جحش لما جاءها عطاء عمر من المال فاستكثرته وقالت : اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعدها ، فماتت قبل العطاء الثاني .

ولما ضجر عمر بن عبد العزيز من رعيته حيث ثقل عليهم قيامه فيهم بالحق طلب من رجل كان معروفاً بإجابة الدعوة أن يدعو له بالموت ، فدعا له ولنفسه بالموت فماتا .

ودعي طائفة من السلف الصالح إلى ولاية القضاء فاستُهْمِلوا ثلاثة أيام ، فدعوا الله لأنفسهم بالموت فماتوا .

واطلع على حال بعض الصالحين ومعاملاته التي كانت سراً بينه وبين ربه ، فدعا الله أن يقبضه إليه خوفاً من فتنة الاشتهار ، فمات ، فإن الشهرة بالخير فتنة .

وكان سفيان الثوري يتمنى الموت كثيراً فسئل عن ذلك فقال : ما يدريني لعلي أدخل في بدعة ، لعلي أدخل فيما لا يحل لي ، لعلي أدخل في فتنة أكون قد مت فسبقت هذا .

وفي الحديث (وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون) .

جاء في الحديث في المسند قال e (اثنتان يكرهما ابن آدم : يكره الموت والموت خير له من الفتنة ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب) .

ولما ابتلي الإمام أحمد بفتنة الضراء صبر ولم يجزع وقال : كانت زيادة في إيماني ، فلما ابتلي بفتنة السراء جزع وتمنى الموت صباحاً ومساء وخشي أن يكون نقصاً في دينه .

الفوائد :

١- أن الرشد في اتباع ملة إبراهيم .

٢- أن مخالفة ملة إبراهيم سفه .

٣- فضيلة إبراهيم حيث اصطفاه الله .

٤- إثبات الآخرة .

٥- أن الصلاح وصف للأنبياء .

٦- فضل المبادرة للإسلام وعدم التردد .

٧- إثبات ربوبية الله تعالى .

٨- أهمية هذه الوصية ، لأنه اعتنى بها إبراهيم ويعقوب .

٩- ينبغي التواصي على الحق والثبات عليه .

١٠- على الإنسان أن يدعو ربه بالثبات والموت على الإسلام .

١١- أن الأعمال بالخواتيم .

(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

[البقرة : ١٣٣ – ١٣٤] .

(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ) أم هنا منقطعة ، وهي بمعنى بل والمعنى : بل أكنتم حضوراً .

• والخطاب قيل : إنه لليهود الذين ادعوا إنهم على حق ، وأن هذه وصية أبيهم يعقوب .

ويحتمل أن يكون عائداً على جميع المخاطبين ، ويكون المقصود الإعلام بما حصل من يعقوب حين حضره الموت .

• **قال الشوكاني :** قوله (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء) أم هذه قيل : هي المنقطعة . وقيل : هي المتصلة . وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ ، والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم ، وإلى بنيه أنهم على اليهودية والنصرانية ، فردّ الله ذلك عليهم ، وقال لهم : أشهدتم يعقوب ، وعلمتم بما أوصى به بنيه ، فتدّعون ذلك عن علم ، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون .

(إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ) أي حين احتضر وأشرف على الموت وجاءت مقدماته .

(إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ) على وجه الاختبار ، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به .

• وبنيه : يوسف وإخوته : أحد عشر رجلاً .

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي) أي : من بعد موتي .

• إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوي الإيحاء ، عميق التأثير ، ميت يحتضر ، فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات ؟ .

إنها العقيدة .. هي التركة، وهي الذخر، وهي القضية الكبرى، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته (ما تعبدون من بعدي ؟) .

هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله . وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها . وهذه هي الأمانة والذخر والتراث (قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . إلهاً واحداً . ونحن له مسلمون).

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه ، إنهم يتسلمون التراث ويصونونه . [في ظلال القرآن : ١ / ٩٠] .

(قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) أي : لا نعبد إلا إلهاً واحداً هو اله رب العالمين .

• **قال الطبري :** تأويل الكلام : أكنتم يا معشر اليهود والنصارى المكذبين بمحمد e الجاحدين نبوته حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت : أي : أنكم لم تحضروا ذلك ، فلا تدّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل وتنحلوهم اليهودية والنصرانية ، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم بالحنيفية المسلمة ، وبذلك وصّوا بنيهم ، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم ، فلو حضرتموهم فسمعتم منهم علمتم أنهم على غير ما نحلتموهم من الأديان والملل من بعدهم .

• **وقال ابن عطية :** هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية فرد الله عليهم وكذّبهم وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية والإسلام .

• قوله (وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) هذا من باب التغليب ، لأن إسماعيل عمه ، قال النحاس : والعرب تسمي العم أباً ، **وقيل :** إن العم يقال له : أب .

(**إِلَهاً وَاحِداً**) نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً .

(**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**) أي : مطيعون خاضعون كما قال تعالى (وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

كما قال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) .

(**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ**) أي : مضت ، يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ولهذا جاء في الحديث (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم. وقال تعالى (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) وقال تعالى (وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) .

• الأمة في القرآن تطلق على معان :

منها : الجماعة من الناس .

كما في قوله تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) . وقوله تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ) .

ومنها : الإمام في الدين المقتدى به .

كما في قوله تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) .

ومنها : البرهة من الزمن .

كما في قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) أي : تذكر بعد بُرهة من الزمن .

وكقوله تعالى (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ) أي : إلى قطعة من الزمن معينة .

ومنها : الشريعة والدين .

كقوله تعالى (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) أي : على شريعة وملة ودين .

(**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ**) أي إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم .

(**وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) أي : لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا ، بل كل نفس تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء .

• **قال الشوكاني :** وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه ويرّوح نفسه بالأماني الباطلة ، والمعنى : أنكم لا تنتفعون بحسناتهم ولا تؤاخذون بسيآتهم ولا تسألون عن أعمالهم كما لا يسألون عن أعمالكم .

كما قال تعالى (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) .

وقال تعالى (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) .

وقال تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ) .

وقال e (من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم .

وفي حديث أبي هريرة . قال (قام رسول الله e حين أنزل الله (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال : يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد e سليني من مالي ما شئتِ ، لا أغني عنك من الله شيئاً) متفق عليه .

فائدة : حكي عن بعض العلماء أنه سئل عما وقع من الفتن بين علي ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة - رضوان الله عليهم - فقرأ (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

الفوائد :

١- أن التوحيد وصية الأنبياء .

٢- ينبغي الاقتداء بالأنبياء والوصية بالتوحيد .

٣- أهمية التوحيد .

٤- أن الموت حق على الأنبياء .

٥- وجوب إخلاص الإسلام لله تعالى .

٦- أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئاً .

٧- أن الإنسان يجازى بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

[البقرة : ١٣٥] .

(**وَقَالُوا**) أي : اليهود والنصارى الزاعمين أنهم على حق .

(**كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا**) أي : قالت اليهود كونوا على ملتنا يهوداً تهتدوا ، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا .

• والمراد بقولهم (**تهتدوا**) أي : إلى الحق وتدخلون الجنة كما قالوا (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) .

(**قُلْ**) أي : قل لهم يا محمد .

(**بَلْ**) نتبع .

(**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**) مستقيماً مائلاً عن الشرك إلى التوحيد .

(**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) هذه توكيد للتي قبلها .

• في هذا ثناء على إبراهيم من وجوه ثلاثة :

أولاً : إمامته ، ووجهها : أننا أمرنا باتباعه ، والمتبوع هو الإمام .

ثانياً : أنه حنيف ، والحنيف هو المائل عن كل دين سوى الإسلام .

ثالثاً : أنه ليس فيه شرك في عمله لقوله (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

الفوائد :

١- أن أهل الباطل يدعون إلى باطلهم .

٢- أن كل داع إلى ضلال ففيه شبه من اليهود والنصارى .

٣- أن الشرك ممتنع في حق الأنبياء .

٤- أن ملة إبراهيم أفضل الملل .

(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

[البقرة : ١٣٦- ١٣٧] .

(**قُولُوا**) الخطاب هنا للرسول e وأمته ، وهذا القول يشمل القول باللسان مع اعتقاد القلب .

• فالخطاب هنا للمؤمنين ، ولهذا قال ابن كثير : أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد e مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء .

وقيل : الخطاب للكفار ، أي : أمروا أن يقولوا : آمنا بالله ، حتى يكون على الحق ، ورجح الشوكاني الأول .

• **قال السعدي :** في قوله (قولوا) فيها إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه .

(**آمَنَّا بِاللَّهِ**) والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجود الله ، والإيمان بربوبيته ، والإيمان بألوهيته ، والإيمان بأسمائه وصفاته .

(**وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا**) أي القرآن العظيم ، ويشمل السنة لقوله تعالى (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) .

(**وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ**) أي : وآمنا بما أنزل على إبراهيم .

• ولم يبين هنا هذا الذي أنزل إلى إبراهيم ، ولكن بيّن في سورة الأعلى أنه صحف ، وأن من جملة ما في تلك الصحف (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وذلك في قوله (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) . [أضواء البيان : ١ / ١٠٢] .

(**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ**) أي : آمنا بما أنزل على هؤلاء ، ولم يذكر ما أنزل إليهم بالتحديد .

• والأسباط : هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً ، ولد كل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا الأسباط ، وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل .

قال البخاري : الأسباط قبائل بني إسرائيل ، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل ، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم ، وهذا اختيار الطبري .

(**وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى**) أي من التوراة والإنجيل والآيات كاليد والعصا وكإخراج الموتى بإذن الله .

قال تعالى (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) وهو التوراة بالإجماع ، وذكر ما أوتيه عيسى وهو الإنجيل كما في قوله تعالى (وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ) .

- سؤال : لم أفرد موسى وعيسى بالذكر (وَمَا أُوتِيَ موسى وعيسى) ؟

الجواب : لكون أهل الكتاب زادوا ونقصوا وحرفوا فيهما وادعوا أنهما أنزلا كذلك ، والمؤمنون ينكرونه اهتم بشأنهما فأفردهما بالذكر وبين طريق الإيمان بهما ولم يدرجهما في الموصول السابق .

(**وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ**) أي : ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً ونصدق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات .

- سؤال : فإن قيل : كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة ؟ قلنا : نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه فلا يلزم منا المناقضة ، أما اليهود والنصارى لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز عليه، وأنكروا نبوة محمد e مع قيام المعجز على يده، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق . (مفاتيح الغيب) .

(**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**) أي نؤمن على هذا الوجه ، فلا نفرق بين أحد منهم في الإيمان بهم ، لا في الاتباع ، فلا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى .

(**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**) أي : منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه ، ظاهراً وباطناً .

(**فَإِنْ آمَنُوا**) يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم .

(**بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ**) أي : بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، الذين أول من دخل فيهم وأولى: هو خاتمهم وأفضلهم محمد e والقرآن ، من غير تحريف لهذه الكتب .

- **قال ابن عاشور** : والباء في قوله (بمثل ما آمنتم به) للملابسة وليست للتعدية أي إيماناً مماثلاً لإيمانكم.

(**فَقَدِ اهْتَدَوْا**) أي فقد أصابوا الحق وأُرشِدوا إليه ، فلا سبيل للهداية إلا بهذا الإيمان ، لا كما زعموا بقولهم (كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) .

- والهدى : هو العلم بالحق والعمل به .

(**وَإِنْ تَوَلَّوْا**) أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم .

- التولي هو الإعراض .

(**فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**) معنى الشقاق في الأصل الفراق ، والمراد أن هؤلاء المعاندين أصبحوا في شق ، والحق والحنيفية السمحة في شق آخر .

قال قتادة : (فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) أي : في فراق .

قال القرطبي : ... وقيل : الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادي ، وأصله من الشِّق وهو الجانب ، فكأن كل واحد من الفريقين في شق غير شق صاحبه ، وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب ، فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه .

(**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**) أي : فسينصرك عليهم ويظفر بهم .

- وقد أتم الله لنبيه e هذا الوعد الذي وعده إياه فسلطه على بعضهم بالقتل والإجلاء من الديار وسبي بعضهم وضرب الجزية على آخرين منهم .

• **قال ابن عاشور :** وفرع قوله (فسيكفيكهم الله) على قوله (فإنما هم في شقاق) تثبيتاً للنبي e لأن إعلامه بأن هؤلاء في شقاق مع ما هو معروف من كثرتهم وقوة أنصارهم مما قد يتحرج له السامع فوعده الله بأنه يكفيه شرهم الحاصل من توليهم .

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فالله سينصر نبيه لأنه هو السميع لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم ، وبالغيب والشهادة ، بالظواهر والبواطن ، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم .

الفوائد :

١- وجوب الإيمان بالله .

٢- إثبات علو الله لقوله (وما أنزل إلينا) .

٣- وجوب الإيمان بالأنبياء .

٤- أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل .

٥- أن من خالف عليه النبي فهو ضلال .

٦- الوعيد الشديد لمن تولى عن شريعة محمد e .

٧- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : السميع العليم .

٨- الحذر من معصية الله ، لأن الله يسمع ويعلم كل شيء .

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) .

[البقرة : ١٣٨] .

(صِبْغَةَ اللَّهِ) أي الزموا صبغة الله ، وهو دينه ، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة ، وجميع عقائده في جميع الأوقات ، حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم .

• والمراد بصبغة الله : دين الله ، والصبغ مأخوذة من الصَّبغ وهو تغيير الشيء بلون من الألوان ، وسمي الدين صبغة لظهور أثره على العامل به ، وقيل : سمي صبغة كلزوم الصبغ للثوب .

قال قتادة : إن اليهود تصبغ أبناءها يهود ، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى ، وإن صبغة الله الإسلام فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر ، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً والأنبياء بعده .

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) أي : لا أحسن صبغة من صبغته .

(وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) أي : نحن نعبده جل وعلا ولا نعبد أحداً سواه .

• قال السعدي **(وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)** فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً .

الفوائد :

١- وجوب الالتزام بدين الله .

٢- أن دين الله أحسن الأديان .

٣- وجوب إخلاص العبادة لله .

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

[البقرة : ١٣٩ – ١٤١] .

(**قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ**) يقول تعالى مرشداً نبيه e إلى درء مجادلة المشركين (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ) أي : تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره .

- اختلف العلماء في هذه المحاجة كانت مع من ؟ **ذكروا فيه وجوهاً :**

أحدها : أنه خطاب لليهود والنصارى .

وثانيها : أنه خطاب مع مشركي العرب حيث قالوا (لَوْلا أُنزِلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ) والعرب كانوا مقرين بالخالق .

وثالثها : أنه خطاب مع الكل ، والقول الأول أليق بنظم الآية . [مفاتيح الغيب : ٤ / ٨٠] .

(**وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**) المتصرف فينا وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له .

(**وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**) أي : نحن برآء منكم ومما تعبدون وأنتم برآء منا .

كما في الآية الأخرى (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ).

وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ) .

(**وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**) أي : مخلصون له في العبادة والتوجه . وفيه توبيخ لليهود والنصارى ، والمعنى وأنتم به مشركون .

- والإخلاص أن يخلص العبد دينه ، وعمله لله تعالى فلا يشرك في دينه ولا يرائي بعمله .

والأدلة على وجوب الإخلاص كثيرة .

قال تعالى (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) .

وقال تعالى (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) .

وقال تعالى (قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين) .

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وقال e (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه .

وقال e (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجه الله) رواه النسائي .

وقال e . قال تعالى (من عمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه) رواه مسلم .

وعن محمود بن لبيد . أن رسول الله e قال (إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر؟ قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء ، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) رواه أحمد .

• وللإخلاص فضائل :

أولاً : أنه سبب لمغفرة الذنوب .

والدليل : قصة المرأة الزانية التي سقت الكلب فغفر الله لها "والقصة عند البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل ما قام في قلبها من حقائق الإيمان والعبودية في هذه اللحظة فمنها : أنها لم تعمله ابتغاء الأجر من أحد لأنها تعطي كلباً فلا تنتظر منه جزاء أو شيئاً - وأنه لم يرها أحد إلا الله وهذا يدل عليه ظاهر الحديث - أنها أتعبت نفسها في سقايتها لهذا الكلب فنزلت في البئر مع أنها امرأة ثم ملئت خفها بالماء وحملته بفيها ثم سقت هذا الكلب الحقير ، فتأمل ما قام في قلبها من أسرار الإخلاص فعندما تمت هذه الحقائق في قلبها، أحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء والزنا فغفر الله لها .

ثانياً : أنه يصرف الفتنه عن القلب .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل .

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

ثالثاً : أنه به تكمل العبودية لله تعالى.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٩٨/١٠) : وكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته .

لأن بالإخلاص تقبل الأعمال وترفع إلى الله ، وكلما قبل العمل ارتفعت المنزلة والدرجة عند الله تعالى لذلك العبد، ولهذا كان من أبرز صفات المقربين والسابقين عند الله هو "إخلاصهم لله"فبالإخلاص ارتفعوا عن الناس وأصبحوا في أعالي عليين .

رابعاً : أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

خامساً : أنه سبب لمضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) .

قال ابن كثير : وقوله ههنا (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال e (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ....) رواه البخاري .

قال ابن رجب : ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل .

وقال e (صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه) رواه ابن ماجة وصححه الألباني .

سادساً : أنه سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .

والدليل على ذلك: قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وفيها أنهم قالوا: (اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه ففرج الله عنهم) والقصة معروفه وهي عند البخاري ومسلم .

سابعاً : أنه سبب للنصر على الأعداء .

لحديث سعد t قال: قال e (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) .

ثامناً : أنه ينجي العبد من النار يوم القيامة .

لقول النبي e (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله) رواه البخاري .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/٢٦١) : فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله ، فإن ذلك دليل على أنه لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار .

وقال ابن القيم في عدة الصابرين : من عوّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره ، ومن عوّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله ، وهذا في جميع أبواب الأعمال ، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس .

وقال في المدارج : ومما يخلصه من طلب العوض : علمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته .

قال الربيع بن خثيم : كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل .

وقال ابن المبارك : ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة .

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى) ينكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم ، إما اليهودية وإما النصرانية ، فقال :

(قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ) يعني بل الله أعلم ، وقد أخبر تعالى أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى كما قال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

- **قال السعدي :** رد الله عليهم بقوله (أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ) فالله يقول (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وهم يقولون : بل كان يهوديا أو نصرانيا.

فإما أن يكونوا ، هم الصادقين العالمين ، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك ، فأحد الأمرين متعين لا محالة ، وصورة الجواب مبهم ، وهو في غاية الوضوح والبيان ، حتى إنه - من وضوحه - لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق ، ونحو ذلك ، لانجلائه لكل أحد ، كما إذا قيل : الليل أنور ، أم النهار ؟ والنار أحر أم الماء ؟ والشرك أحسن أم التوحيد ؟ ونحو ذلك .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ) أي : لا أحد أظلم ممن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله .

- وفي الذي كتموه قولان :

قيل : هي ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنيفية لا على ما ادعوا هم .

وقيل : المراد هنا ما كتموه من صفة محمد e .

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) تهديد ووعيد شديد ، أي : أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه .

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تقدم شرحها .

وقد قيل في تكرارها أقوال :

قيل : أنه كررها للتهديد والتخويف ، والمعنى : أنه إذا كان أولئك الأنبياء على طاعتهم لله وفضلهم يُجازون يوم القيامة بكسبهم فأنتم أحرى أن تجازون بكسبكم كذلك . [تفسير القرطبي : ٢ / ٤٧] .

وقيل : أنه كررها لقطع التعلق بالمخلوقين وتنبيهاً لليهود ولمن يتكل على فضل آبائه وأجداده وشرفهم كي لا يتكلوا على فضل الآباء .

وقيل : كررها لشدة الحاجة إليها .

الفوائد :

١- وجوب البراءة من أعمال الكفار .

٢- أنه لا يجوز التشبه بأعداء الله .

٣- وجوب الإخلاص لله تعالى .

٤- إبطال دعوى هؤلاء اليهود والنصارى أن إبراهيم وإسماعيل كانوا هوداً أو نصارى .

٥- عظم كتم العلم .

٦- كمال علم الله ومراقبته .

٧- تخويف الإنسان وتحذيره من المخالفة .

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

[سورة البقرة: ١٤٢] .

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا) أي : سيقول ضعفاء العقول من الناس .

(مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا) ما صرفهم وحولهم عن القبلة التي كانوا عليها وهي بيت المقدس ، قبلة المرسلين قبلهم ؟

- اختلف العلماء بالمراد بالسفهاء هنا :

فقيل : مشركوا العرب ، **وقيل :** أحبار اليهود ، **وقيل :** المنافقون ، قال ابن كثير : والآية عامة في هؤلاء كلهم .

- **قال السعدي :** دلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفيه جاهل معاند ، وأما الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم .

- **قال ابن القيم :** وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ؛ ثم تحويلها إلى الكعبة حِكَم عظيمة ، ومحنةٌ للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .

فأما المسلمون ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، وقالوا (آمنا به كل من عند ربنا) وهم الذين هدى الله ، ولم تكن كبيرة عليهم .

وأما المشركون ، فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق .

وأما اليهود ، فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبياً لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء .

وأما المنافقون ، فقالوا : ما يدري محمد أين يتوجه ، إن كانت الأولى حقاً فقد تركها ، وإن كانت الثانية هي الحق ، فقد كان على باطل ، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس .

- قوله تعالى **(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ...)** فيه قولان .

القول الأول : أن هذا إخبار من الله تعالى لنبيه e وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة .

وفائدة ذلك :

أولاً : أنه عليه الصلاة والسلام إذا أخبر عن ذلك قبل وقوعه ، كان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً . **وثانيها :** أنه تعالى إذا أخبر عن ذلك أولاً ثم سمعه منهم ، فإنه يكون تأذيه من هذا الكلام أقل مما إذا سمعه منهم .

وثالثها : أن الله تعالى إذا أسمعه ذلك أولاً ثم ذكر جوابه معه فحين يسمعه النبي u منهم يكون الجواب حاضراً ، فكان ذلك أولى مما إذا سمعه ولا يكون الجواب حاضراً . [مفاتيح الغيب : ٤ / ٨٣] .

القول الثاني : أن (سيقول) بمعنى قال ، وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته واستمراره عليه .

- **قال الشوكاني :** قوله (سَيَقُولُ) هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه e وللمؤمنين ، بأن السفهاء من اليهود ، والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة .

وقيل : إن (سَيَقُولُ) بمعنى : قال ، وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته ، والاستمرار عليه ، وقيل : إن الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة ، وأن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهوين لصدمته ، وتخفيف لروعته ، وكسراً لسَوْرته .

- قوله تعالى (**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ...**) فائدة وصفهم بأنهم من الناس مع كونه معلوماً هو التنبيه على بلوغهم الحد الأقصى من السفاهة بحيث لا يوجد في الناس سفهاء غير هؤلاء فإذا قسم نوع الإنسان أصنافاً كان هؤلاء صنف السفهاء فيفهم أنه لا سفيه غيرهم على وجه المبالغة ، والمعنى أن كل من صدر منه هذا القول هو سفيه سواء كان القائل اليهود أو المشركين من أهل مكة . [التحرير والتنوير : ٢ / ٧] .

- سميت القبلة قبلة لأن المصلي يستقبلها .

- النبي e حينما كان يستقبل بيت المقدس هل كان ذلك بوحي من الله أو باجتهاد منه ؟ اختلف العلماء في ذلك :

فقيل : كان ذلك منه عن رأي واجتهاد ، **وقيل :** أنه كان مخيراً بين بيت المقدس والكعبة فاختار القدس طمعاً في إيمان اليهود واستمالتهم ، **وقيل :** أن ذلك كان بأمر الله ووحيه ثم نسخ بعد ذلك وأمره أن يستقبل بصلاته الكعبة ، واستدلوا بقوله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم ...) وهي واضحة الدلالة ، وهذا القول هو **الصحيح** .

- **قال القرطبي :** دلت الآية على جواز نسخ السنة بالقرآن ، وذلك أن النبي e صلى نحو بيت المقدس ، وليس في ذلك قرآن ، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة ثم نسخ ذلك بالقرآن ، وعلى هذا يكون (كنت عليها) بمعنى أنت عليها . [تفسير القرطبي : ٢ / ١٠٢] .

(**قُلْ**) أي : أنزل الله جواباً لهم .

(**لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**) أي : الحكم والتصرف والأمر كله لله (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) و (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ) فحيثما وجهنا توجهنا ، فالطاعة في امتثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة ، فنحن عبيده وفي تصرفه ، وخدامه حيثما وجهنا توجهنا ، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد e وأمته عناية عظيمة ، إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن ، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله في الأرض ، إذ هي بناء الخليل u . [تفسير ابن كثير : ١ / ١٧٨]

- **وقال القرطبي :** أي : له ملك المشارق والمغارب وما بينهما ، فله أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء .

(**يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) إشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي لأهل ملته إلى الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه .

• قوله تعالى (مَنْ يَشَاءُ) فيه إثبات المشيئة لله، وليعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، أي: أنه ليست مشيئة الله مجردة هكذا تأتي عفواً، لا، هي مشيئة مقرونه بالحكمة، والدليل على ذلك، قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله ، بيّن أن ذلك مبني عن علم وحكمة. (الشيخ ابن عثيمين)

الفوائد :

١- سفه من يعترض على أقدار الله .

٢- تسلية النبي e وأصحابه .

٣- الرد على المعترضين ، ومن الرد العام الذي يرد به : أن الله رب العالمين مالك الملك ، وأن الخلق كلهم ملكه وعبيده ، فله أن يشرع لهم ما يشاء ، لأنه يعلم ما صلح لهم (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

٤- وجوب الانقياد لله والسمع والطاعة ، لأن هذا هو مقتضى العبودية الحق .

٥- عموم ملك الله تعالى .

٦- الرد على من يقول : لماذا الله أعطى فلاناً ولم يعط فلاناً .

٧- أن الهداية بيد الله .

٨- استحباب طلب الهداية من الله ، وفي الحديث القدسي (فاستهدوني أهدكم) .

٩- إثبات مشيئة الله .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

[البقرة: ١٤٣] .

(**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**) أي : كما هديناكم إلى قبلة هي أوسط القبل وكذلك جعلناكم أمة وسطاً .

قال ابن كثير : يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم u ، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم ، والوسط ههنا الخيار والأجود ، كما يقال : قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي : خيرها ، وكان رسول الله e وسطاً في قومه ، أي : أشرفهم نسباً، ومنه الصلات الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر ، وفي القرآن (قَالَ أَوْسَطُهُمْ) أي : أعدلهم وخيرهم .

وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري . عن النبي e في قوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) قال : عدلاً) .

• **وقال السعدي :** وما عدا الوسط، فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة، وسطاً في كل أمور الدين .

وسطاً في الأنبياء : بين من غلا فيهم، كالنصارى، وبين من جفاهم، كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك .

ووسطا في الشريعة : لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى .

وفي باب الطهارة والمطاعم: لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات، عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئا، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها .

ووهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا (أُمَّةً وَسَطًا) .

- وهذا يدل على فضيلة هذه الأمة ، **ومن فضائلها :**

قوله تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

وقوله تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) .

وقال e (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ...) متفق عليه .

وقال e (إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها ، وأكرمها على الله) رواه أحمد .

وقال e (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله ...) متفق عليه .

وقوله e (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرجل ... الحديث وفيه : ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) متفق عليه .

وقال e (وجعلت أمتي خير الأمم) رواه أحمد .

(**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**) أي : لتشهدوا على الأمم والناس كافة يوم القيامة أن رسلهم بلّغتهم ، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري . قال : قال رسول الله e (يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلغت؟ فيقول: نعم ، فيقال : لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول: محمد وأمته ، فتشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيداً ، فذلك قوله جل ذكره: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) والوسط : العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم) رواه البخاري .

- ووصفت أمة محمد e بالوسط، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذي غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها . [تفسير الطبري : ٢ / ١١]

(**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**) أي : يشهد عليكم بالتبليغ أنه قد بلغ .

- **قال الشنقيطي :** لم يبين هنا هل هو شهيد عليهم في الدنيا أو الآخرة ؟ ولكنه بين في موضع آخر أنه شهيد عليهم في الآخرة ، وذلك في قوله (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول ...) .

(**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا**) وهي بيت المقدس ، كما روى البخاري عَنِ الْبَرَاءِ (أَنَّ النَّبِيَّ e كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ - أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ - مِنَ الأَنْصَارِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلاَّهَا صَلاَةَ الْعَصْرِ ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ e قِبَلَ مَكَّةَ ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ . قَالَ زُهَيْرٌ حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا ، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) .

ويدل له أيضاً قوله (الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا) .

(**إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**) أي : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي : مرتداً عن دينه. قوله تعالى (**إلا لنعلم ...**) المراد علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس .

- **قال القرطبي :** هذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء ، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم .
- **الشنقيطي :** ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون ، وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا (وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور) فقوله (والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور) بعد قوله (وَلِيَبْتَلِيَ) دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به ، ... ومعنى (إِلاَّ لِنَعْلَمَ) أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك ، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس . أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون ، كما لا يخفى .
- **وقال الشيخ ابن عثيمين :** المراد علم ظهور أو علم يترتب عليه الجزاء ، لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترب عليه الجزاء حتى يُمتحن العبد ويُنظر .
- ومثل هذه الآية قوله تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) وقوله تعالى (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) وقوله تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

(**وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً**) أي : هذه الفعلة ، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أي : وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس .

(**إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**) قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق ، كما قال تعالى (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) .

(**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**) أي : صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله .

كما جاء في الحديث السابق عن البراء قال (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ - أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ - مِنَ الأَنْصَارِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلاَّهَا صَلاَةَ الْعَصْرِ ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ ، أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا ، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) ، فجمهور المفسرين فسروا (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي : صلاتكم .

• **قال السعدي** : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي : ما ينبغي له ولا يليق به تعالى ، بل هي من الممتنعات عليه ، فأخبر أنه ممتنع عليه ، ومستحيل ، أن يضيع إيمانكم ، وفي هذا بشارة عظيمة لمن مَنَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان ، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم ، فلا يضيعه ... ، وفي هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح .

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ) قال الطبري : إن الله بجميع عباده ذو رأفة ، والرأفة أعلى معاني الرحمة .

وقال الخطابي : الرؤوف هو الرحيم العاطف برأفته على عباده .

وقال بعضهم : الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها .

• ومن رأفته سبحانه وتعالى: أنه لا يضيع لعباده طاعة أطاعوه بها فلا يثيبهم عليها ، فمن مات قبل تحويل القبلة لهم ثوابهم وأجرهم .

ومن رأفته سبحانه وتعالى بنا : أنه خوفنا من عقوبته وعذابه ، ونهانا عن معصيته ، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ليستعد للقائه ، ويتجنب سخطه وغضبه ((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) .

ومن رأفته : أنه أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه ، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

ومن رأفته : أنه يقبل توبة التائبين ، ولا يُرد عن بابه العاصين المنيبين ، مهما كثرت سيئاتهم ، وتعاظمت خطيئاتهم (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

ومن رأفته : تسخيره لما في السماوات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته ، وخلقه الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة ، هو ومتاعه وزاده (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

(**رَحِيمٌ**) الرحيم اسم من أسماء الله ، فيجب إثبات ذلك ، وهو متضمن لصفة الرحمة الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) .

وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (ورحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

ورحمته سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين :

رحمة ذاتية ثابتة لله تعالى .

ورحمة فعليه يوصلها من شاء من عباده ،كما قال تعالى (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) ، والرحمة الفعلية تنقسم أيضاً إلى قسمين :

رحمة عامة لجميع الخلق في الدنيا والآخرة .

ورحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة ،كما قال تعالى (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) .

• وإذا كان الله رحيماً فينبغي أن نعمل بالأسباب التي تنال بها الرحمة ، **وهي** :

أولاً : رحمة الناس .

قال e (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال e (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) .

وقال e (والشاة إن رحمتها رحمك الله) .

ثانياً : الإحسان .

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

ثالثاً : طاعة الرسول e .

قال تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

رابعاً : السماحة في البيع والشراء .

قال رسول الله e (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) . رواه البخاري

خامساً : عيادة المريض .

قال رسول الله e (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) .

سادساً : قيام الليل وإيقاظ الأهل .

قال رسول الله e (رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) رواه أبو داود .

سابعاً : الحلق في النسك .

قال رسول الله e (اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً) .

ثامناً : مجالس الذكر.

قال رسول الله : لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ...) . رواه مسلم .

تاسعاً : الجلوس في المسجد .

قال رسول الله e (إن الملائكة تستغفر للمصلي مادام في مصلاه تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه) متفق عليه .

عاشراً : سماع حديث الرسول وتبليغه .

قال رسول الله e (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه ابن حبان.

الحادي عشر : الإنصات للقرآن .

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الفوائد :

١ - أن هذه الأمة هي خير الأمم وأفضلها .

٢ - إثبات رسالته e وشهادته على أمته وتشريفه وتكريمه e .

٣ -تشريف هذه الأمة وتكريمها بحيث تشهد على جميع الأمم ، ولا يشهد عليها إلا رسولها .

٤ - اشتراط العدالة في الشهود .

٥ -أن في أمره e بالتوجه في الصلاة إلى بيت المقدس ثم تحويله إلى الكعبة ابتلاء وامتحاناً للناس ، ليظهر من يتبع الرسول ويطيعه ، وحال من يرجع على عقبيه ويرتد .

٦ - وجوب اتباع الرسول وتأكيد ذلك .

٧ - إثبات علم الله .

٨ -أن صرف القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام أمر كبير وحدث عظيم ، ليس من السهل التسليم به وقبوله إلا على من هداهم الله من أهل الإيمان واليقين .

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) .

[سورة البقرة : ١٤٤] .

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ) (قد) إذا دخلت على المضارع منسوباً إلى الله ، فإن ذلك يعني المبالغة في التحقيق . أي : قد رأينا ذلك (تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ) أي : توجهك بوجهك وبصرك إلى السماء حال الدعاء ، تنظر إليها ، وتنتظر أمر الله لك ووحيه إليك ، بتحويل القبلة إلى الكعبة .

قال ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله r لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله e بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى ... إلى قوله : فولوا وجوهكم شطره) . (تفسير ابن كثير) .

- **قال ابن عطية :** المقصد تقلب البصر ، وذكر الوجه لأنه أعم وأشرف ، وهو المستعمل في طلب الرغائب ، تقول : بذلت وجهي في كذا ، وفعلت لوجه فلان .

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ) أي : فلنجعلنك متولياً إلى جهتها ، **وقيل :** هو من الولاية ، أي : فلنعطينك ذلك ، والأول أولى .

(قِبْلَةً تَرْضَاهَا) وهي المسجد الحرام ، كما في حديث البراء بن عازب وفيه (... ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلاَّهَا صَلاَةَ الْعَصْرِ ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ e قِبَلَ مَكَّةَ ....) .

- قوله تعالى (**تَرْضَاهَا**) المراد بهذا الرضا رضا المحبة بالطبع ، لا رضا التسليم والانقياد لأمر الله .

(فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) المراد بالشطر هنا : الناحية والجهة ، والمراد بشطر المسجد : الكعبة .

(وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) أي : وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة .

- بهذا الخطاب والأمر له e ولأمته ، حولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، ونسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة .

- وكان أول صلاة صلاها رسول الله e إلى الكعبة صلاة العصر ، كما في حديث البراء ، وروي أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة الظهر ، وكان ذلك في منتصف رجب ، وقيل في منتصف شعبان .

- **قال ابن كثير :** أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة ، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئاً في نفس الأمر ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

- **قال الرازي :** قوله تعالى **(وجوهكم)** المراد من الوجه ههنا جملة بدن الإنسان لأن الواجب على الإنسان أن يستقبل القبلة بجملته لا بوجهه فقط والوجه يذكر ويراد به نفس الشيء لأن الوجه أشرف الأعضاء ولأن بالوجه تميز بعض الناس عن بعض، فلهذا السبب قد يعبر عن كل الذات بالوجه .

• قوله تعالى (**فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**) وإنما ذكر الحق تعالى شطر المسجد ، أي : جهته ، دون عين الكعبة ، لأنه **u** كان في المدينة ، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة ، فإن استقبال عينها حَرَجٌ عليه ، بخلاف القريب ، فإنه يسهل عليه مسامته العين . وقيل : إن جبريل **u** عيّنها له بالوحي فسميت قبلة وحْي .

• فإن قيل : هل في الآية الكريمة تكرار ؟

هذا ليس بتكرار ، وبيانه من وجهين .

أحدهما : أن قوله تعالى (فَوَلّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام) خطاب مع الرسول **u** لا مع الأمة ، وقوله (حيثمَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) خطاب مع الكل .

وثانيهما : أن المراد بالأولى مخاطبتهم وهم بالمدينة خاصة ، وقد كان من الجائز لو وقع الاختصار عليه أن يظن أن هذه القبلة قبلة لأهل المدينة خاصة ، فبين الله تعالى أنهم أينما حصلوا من بقاع الأرض يجب أن يستقبلوا نحو هذه القبلة .

(**وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**) أي : وإن اليهود يعلمون أن تحويل القبلة من بيت المقدس هو الحق من ربهم .

• **فإن قيل :** كيف يعلمون أنه حق وليس ذلك من دينهم ولا في كتابهم ؟

قيل : أنهم لما علموا من كتابهم أن محمداً **e** نبي علموا أنه لا يقول إلا الحق .

وقيل : أنهم علموا من دينهم جواز النسخ .

وقيل : أن في كتابهم الأمر بالتوجه إليها .

وقيل : أنهم يعلمون أن المسجد الحرام قبلة إبراهيم . [زاد المسير : ١ / ١٥٧] [تفسير القرطبي : ٢ / ١٠٩] .

• **قال ابن كثير** : أي : وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس – يعلمون أن الله تعالى – سيوجهك إليها ، بما في كتبهم عن أنبيائهم ، من النعت والصفة لرسول الله **e** وأمته ، وما خصه الله تعالى به وشرفه ، من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً .

(**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**) تقدم تفسيرها عند آية [٧٤] .

الفوائد :

١ -إثبات علو الله .

٢ -إثبات عظمة الله لقوله (فلنولينك) فإن ضمير الجمع للتعظيم .

٣ - وجوب الاتجاه إلى المسجد الحرام في الصلاة .

٤ - عظمة هذا المسجد لوصفه بالحرام .

٥ - بيان عناد اليهود والنصارى .

٦ - انتفاء الغفلة عن الله تعالى لكمال علمه وإحاطته بهم .

٧ - تهديد هؤلاء المعاندين .

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ) .

[سورة البقرة: ١٤٥] .

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ) يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله e ، وأنه لو قام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) .

- وفائدة إخبار النبي e بذلك : إراحة قلب النبي e وإبعاد الشغل والفكر في هؤلاء عنه ، أي : لا تشتغل بهم ولا تفكر فيهم .

(وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ) هذا الإخبار يمكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه e ، أي : لا تتبع يا محمد قبلتهم ، ويمكن أن يكون على ظاهره دفعاً لأطماع أهل الكتاب ، وقطعاً لما يرجونه من رجوعه e إلى القبلة التي كان عليها . (قاله الشوكاني) .

والثاني أولى ، ولهذا **قال ابن كثير** : هو إخبار عن شدة متابعة الرسول e لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم ، فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله .

(وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ) أي : إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود ، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد .

كما قال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) أي : ما يهوونه ويريدونه .

والهوى : هو الميل عن الحق والمخالفة له بلا دليل من شرع أو عقل ، وهو ضد الهدى كما قال تعالى (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) .

- **قال السعدي :** إنما قال: (أهواءهم) ولم يقل دينهم ، لأن ما هم عليه مجرد أهوية نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين، اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) .

(مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) أي : من بعد ما وصل إليك من العلم بإبلاغي إياك أنهم مقيمون على باطل وعلى عناد منهم للحق ومعرفة منهم أن القبلة التي وجهتك إليها هي القبلة التي فرضت على أبيك إبراهيم u وسائر ولده من بعده من الرسل التوجه نحوها .

(إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ) يعني : إنك إذا فعلت ذلك من عبادي الظلمة أنفسهم المخالفين أمري والتاركين طاعتي .

وأي ظلم أعظم، من ظلم، من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له e فإن أمته داخلة في ذلك، وأيضاً، فإذا كان هو e لو فعل ذلك -وحاشاه- صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته، فغيره من باب أولى وأحرى. (تفسير السعدي) .

- هذا الخطاب للنبي e والمراد أمته .
- وفي الآية تهديد ووعيد للعالم عن مخالفة الحق الذي يعلمه ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره .

كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً) .

وقال تعالى (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ...) .

وفي الحديث (... يؤتى بالرجل فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه ... الحديث وفيه : أنه يقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه) متفق عليه .

وحديث (أول من تسعر بهم النار ثلاثة ، ... ومنهم : عالم تعلم العلم ليقال : عالم) رواه مسلم .

● **قال الشوكاني :** ... وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم وختم على قلبه ، وصار نقمة على عباد الله ومصيبة صبها الله على المقصرين ، لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى حق ، ولا يتبع إلا الصواب ، فيضلون بضلاله ، فيكون عليه إثمه وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة .

الفوائد :

١ - أن رد الحق بعد معرفته وقيام الأدلة عليه من صفات أهل الكتاب وبخاصة اليهود .

٢ - اختلاف قبلة اليهود والنصارى ، فاليهود قبلتهم إلى بيت المقدس ، والنصارى قبلتهم إلى المشرق .

٣ -ذم أهل الكتاب باتباعهم أهواءهم .

٤ - وجوب اتباع الحق إذا ظهرت آياته .

٥ - تحذير الأمة من اتباع أهواء غير المؤمنين .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) .

[سورة البقرة: ١٤٦ – ١٤٧] .

(**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**) من علماء أهل الكتاب .

(**يَعْرِفُونَهُ**) اختلف في مرجع الضمير :

فقيل : إنه عائد إلى رسول الله e أي يعرفونه معرفة جلية ، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم ، لا تشتبه عليهم وأبناء غيرهم.

وقيل : إن الضمير في قوله (يَعْرِفُونَهُ) راجع إلى أمر القبلة : أي علماء أهل الكتاب يعرفون أمر القبلة التي نقلت إليها كما يعرفون أبناءهم وهو قول ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد .

ورجح هذا القول الطبري والشوكاني ، لأن السياق في أمر القبلة .

ورجح الرازي القول الأول ، وقال : واعلم أن القول الأول أولى من وجوه :

أحدها : أن الضمير إنما يرجع إلى مذكور سابق ، وأقرب المذكورات العلم في قوله (مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم) والمراد من ذلك العلم : النبوة ، فكأنه تعالى قال : إنهم يعرفون ذلك العلم كما يعرفون أبناءهم ، وأما أمر القبلة فما تقدم ذكره البتة.

وثانيها : أن الله تعالى ما أخبر في القرآن أن أمر تحويل القبلة مذكور في التوراة والإنجيل ، وأخبر فيه أن نبوة محمد e مذكورة في التوراة والإنجيل ، فكان صرف هذه المعرفة إلى أمر النبوة أولى.

وثالثها : أن المعجزات لا تدل أول دلالتها إلا على صدق محمد u ، فأما أمر القبلة فذلك إنما يثبت لأنه أحد ما جاء به محمد e فكان صرف هذه المعرفة إلى أمر النبوة أولى.

(**كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**) أي : كما يعرف أحدهم ابنه لا امتراء ولا شك .

- قال في التسهيل (كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) مبالغة في وصف المعرفة ، وقال عبد الله بن سلام معرفتي بالنبي e أشدّ من معرفتي بابني؛ لأن ابني قد يمكن فيه الشك .

- وإنما كانوا يعرفونه كمعرفتهم أبناءهم ، لما جاء في كتبهم من البشارة به e وذكر صفاته ، وكمال دينه ، وفضيلة أمته ، قال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) .

عن عمر t أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله e فقال (أنا أعلم به مني بابني ، قال : ولم ؟ قال : لأني لست أشك في محمد أنه نبي وأما ولدي فلعل والدته خانت . فقبل عمر رأسه) .

وقيل : كما يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم .

- **فإن قيل** : لم خص الأبناء الذكور ؟

الجواب : لأن الذكور أعرف وأشهر وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق .

(**وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ**) أي: ومع هذا التحقق والإتقان العلمي ليكتمون الحق وما في كتبهم من صفة محمد e ، وعلى القول الثاني يكتمون الحق في أمر القبلة .

(**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) أن محمد على الحق ومع هذا كتموه .

- فيه تحريم كتم العلم والحق ، وأن من فعل ذلك ففيه شبه من اليهود .

- **قال السعدي** : فالعالم عليه إظهار الحق، وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه، وتقبيحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك، فهؤلاء الكاتمون، عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

(**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**) أي : ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة هو الحق الثابت .

(**فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**) أي : فلا تكونين من الشاكين .

- والخطاب للنبي e والمراد أمته .

- **قال الطبري** : فإن قال قائل : أو كان النبي e شاكاً في أن الحق من ربه ، أو في أن القبلة التي وجهه الله إليها حق من الله حتى نهي عن الشك ؟ قيل : ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به والمراد به غيره ، كما قال جل ثناؤه (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) .

الفوائد :

١- معرفة أهل الكتاب للنبي e وصدق رسالته ، وأن ما جاء به حق ، كما يعرفون أبناءهم .

٢- أن من صفات أهل الكتاب كتم العلم .

٣- أن من كتم العلم من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود .

٤- أن من رد الحق وخالفه عن علم ومعرفة أعظم جرماً وأشد ذماً ممن رده وخالفه عن جهل .

٥-إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة لرسله وأوليائه .

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

[سورة البقرة: ١٤٨] .

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا) أي : لكل أمة من الأمم قبلة هو موليها ومتوجه لها ، يعني بذلك أهل الأديان ، لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة .

- **قال ابن كثير** : وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً) .

وقيل : المراد لكل قوم من المسلمين وجهة أي جهة من الكعبة يصلي إليها : جنوبية أو شمالية ، أو شرقية أو غربية ، لكن هذا فيه ضعف والأول **أصح** .

- قوله تعالى (**هو موليها**) الضمير راجع إلى لفظ (كل) أي : لكل صاحب ملة قبلة ، صاحب القبلة موليها وجهه، وقيل: إن الضمير في قوله (هو موليها) إلى الله ، والمعنى : ولكلٍّ وجهة الله عز وجل موليه إياها ، والأول **أصح** .

(**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**) أي : بادروا إلى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيده السياق ، وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خير كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات .

- **قال السعدي** : والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات ، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها ، وإيقاعها على أكمل الأحوال ، والمبادرة إليها .

- فينبغي للمسلم أن يبادر للخيرات والأعمال الصالحات الواجبات والمستحبات كما أمر الله بذلك .

كما قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) .

وقال تعالى (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) .

وامتدح أولياءه بأنهم (يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) و(أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) .

وقال e (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً) متفق عليه .

وقال e (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً) رواه مسلم .

- وقد كان الرسول e وصحابته يبادرون للخيرات .

فقد ثبت في البخاري عن عقبة بن الحارث قال (صليتُ وراء النبي e بالمدينة العصر ، فسلم ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجَر نسائه ، ففزع الناس من سرعته ، فخرج عليهم ، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته ، قال : ذكرت شيئاً من تِبْرٍ عندنا ، فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته) [التبر : قطع ذهب أو فضة] .

وعن ربيعة بن كعب قال (كنت أبيت مع رسول الله e فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : سلني ، فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - وَهَذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ e فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ . فَقَالَ « وَمَا ذَاكَ » . قَالُوا يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ e « أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئاً تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ » . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ مَرَّةً » . قَالَ أَبُو صَالِحٍ فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ e فَقَالُوا سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ e « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) رواه مسلم .

قال ابن القيم : ... كما كان أصحاب رسول الله e يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه ، بل يحض بعضهم بعضاً ، وهي نوع من المسابقة ، وقد قال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) .

وعن عبد الله بن عمرو (أن رجلاً قال : يا رسول الله ! إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله e : قل كما يقولون ، فإذا انتهيت فسل تعط) رواه أبو داود .

- ومن المسارعة إلى الخيرات التأسف على فواتها ، ومن الأمثلة على ذلك :

أولاً : ما جاء في الحديث السابق : حيث كان الفقراء يحزنون على ما يتعذر عليهم فعله من الخير مما يقدر عليه غيرهم .

ثانياً : الحزن على التخلف عن الخروج في الجهاد لعدم القدرة على آلته .

كما قال تعالى (وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) .

ثالثاً : التأسف على فعل الطاعة .

فإن ابن عمر لما بلغه حديث (من شهد الجنازة حتى تدفن فله قيراط ، ومن شهدها حتى يصلى عليها فله قيراطان) قال : لقد فرطنا في قراريط كثيرة .

- لماذا ينبغي أن نبادر ونسارع إلى الخيرات ؟

أولاً : استجابة لأمر الله ورسوله .

كما في الآيات والأحاديث التي سبقت، وقد تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...).

ثانياً : قبل حدوث الشواغل من فقر أو موت أو هرم أو ... .

كما في الحديث قال e (بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلى فقْراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو موتاً مجهزاً ...) رواه الترمذي وفيه ضعف .

وفي الحديث قال e (اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وفراغك قبل شغلك ، وصحتك قبل مرضك ، وغناك قبل فقرك ، ...) رواه الحاكم .

فالإنسان إذا انشغل بفقره لا يستطيع أن يؤدي ويسارع للأعمال الصالحات ، وكذا إذا مرض ، فإنه ينشغل بمرضه ، وكذا لا يدري متى يأتيه الموت ، فالموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل .

ثالثاً : قبل الفتن المانعة من العمل .

كما قال e (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً). رواه مسلم

فالإنسان ينبغي أن يبادر بالأعمال الصالحة قبل وقوع الفتن فينشغل بها ، فتشغله عن التفرغ للعمل الصالح ، كما هو حال كثير من الناس الآن ، وأيضاً الأعمال الصالحة سبب للنجاة من الفتن ، ولهذا قال (بادروا بالأعمال – أي الصالحة – فتناً ، أي ،

قبل وقوع الفتن ، فالعمل الصالح من إخلاص لله ومتابعة للرسول وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وصلاة وخاصة بالليل وغيره سبب للنجاة من الفتن إذا حدثت وانتشرت ، ولهذا قام النبي e ليلة من الليل فزعاً وهو يقول : (من يوقظ صواحب الحجرات كي يصلين ، ما أنزل الليلة من الفتن) .

- **من أقوال السلف :**

قال عمر بن عبد العزيز : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما .

وقال أبو حازم : إن بضاعة الآخرة كاسدة فاستكثروا منها في أوان كسادها فإنه لو جاء وقت نفاقها لم تصلوا فيها إلى قليل ولا كثير .

وكان أبو بكر بن عياش يقول : لو سقط من أحدكم درهم لظل يومه يقول : إنا لله ذهب درهمي وهو يذهب عمره ولا يقول : ذهب عمري وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات ويحفظون الساعات ويلازمونها بالطاعات .

وقال سعيد بن المسيب : ما تركت الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة .

وكان سعيد بن جبير يختم القرآن في ليلتين .

وقيل لعمرو بن هانيء : لا نرى لسانك يفتر من الذكر فكم تسبح كل يوم ؟ قال : مائة ألف إلا ما تخطيء الأصابع .

وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليلها وكان الليل كله يبكي فتقول له أمه : يا بني قتلت قتيلا فيقول : أنا أعلم بما صنعت نفسي .

قال الجماني : لما حضرت أبو بكر بن عياش الوفاة بكت أخته فقال : لا تبك وأشار إلى زاوية في البيت : إنه قد ختم أخوك في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة .

من قدم اليوم شيئاً قدم عليه غداً ، ومن لم يقدم شيئاً قدم على غير شيء ، قيل لبعضهم جمع فلان مالاً ؟ قال : هل جمع عمراً ينفقه فيه ، قالوا : لا ، قال : ما جمع شيئاً .

وقال بعض السلف : اعمل للدنيا على قدر مكثك فيها ، واعمل للآخرة على قدر مكثك فيها .

- **قال السعدي :** ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها ، ما رتب الله عليها من الثواب قال :

(**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً**) أي : في موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قمم الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) .

(**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) ومن قدرته سبحانه وتعالى جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

الفوائد :

١ - أن الإنسان يجب عليه أن يتبع الحق أينما كان ولا ينظر إلى كثرة المخالف .

٢ - الحث على المسابقة إلى الخير .

٣ -إحاطة الله بالخلق أينما كانوا .

٤ -إثبات البعث والجزاء .

٥ -عموم قدرة الله لكل شيء .

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

[سورة البقرة : ١٤٩ – ١٥٠] .

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض ، **وقد اختلفوا في حكمة التكرار ثلاث مرات :**

أحدها : أن الأحوال ثلاثة، **أولها :** أن يكون الإنسان في المسجد الحرام، **وثانيها :** أن يخرج عن المسجد الحرام ويكون في البلد، **وثالثها :** أن يخرج عن البلد إلى أقطار الأرض، فالآية الأولى محمولة على الحالة الأولى، والثانية على الثانية، والثالثة على الثالثة، لأنه قد كان يتوهم أن للقرب حرمة لا تثبت فيها للعبد ، فلأجل إزالة هذا الوهم كرر الله تعالى هذه الآيات .

والجواب الثاني : أنه سبحانه إنما أعاد ذلك ثلاث مرات لأنه علق بها كل مرة فائدة .

أما في المرة الأولى فبين أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر نبوة محمد e وأمر هذه القبلة حق ، لأنهم شاهدوا ذلك في التوراة والإنجيل ، وأما في المرة الثانية فبين أنه تعالى يشهد أن ذلك حق ، وشهادة الله بكونه حقاً مغايرة لعلم أهل الكتاب بكونه حقاً ، وأما في المرة الثالثة فبين أنه إنما فعل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة ، فلما اختلفت هذه الفوائد حسنت إعادتها لأجل أن يترتب في كل واحدة من المرات واحدة من هذه الفوائد ، ونظيره قوله تعالى (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أيديهم وويل لهم مما يكسبون) .

والجواب الثالث : أنه تعالى قال في الآية الأولى (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) فكان ربما يخطر ببال جاهل أنه تعالى إنما فعل ذلك طلباً لرضا محمد e. لأنه قال (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) فأزال الله تعالى هذا الوهم الفاسد بقوله : (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبّكَ) أي نحن ما حولناك إلى هذه القبلة بمجرد رضاك ، بل لأجل أن هذا التحويل هو الحق الذي لا محيد عنه فاستقبالها ليس لأجل الهوى والميل كقبلة اليهود المنسوخة التي إنما يقيمون عليها بمجرد الهوى والميل ، ثم أنه تعالى قال ثالثاً (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) والمراد دوموا على هذه القبلة في جميع الأزمنة والأوقات ، ولا تولوا فيصير ذلك التولي سبباً للطعن في دينكم ، والحاصل أن الآية السالفة أمر بالدوام في جميع الأمكنة والثانية أمر بالدوام في جميع الأزمنة والأمكنة ، والثالثة أمر بالدوام في جميع الأزمنة وإشعار بأن هذا لا يصير منسوخاً ألبتة .

والجواب الرابع : أن الأمر الأول مقرون بإكرامه إياهم بالقبلة التي كانوا يحبونها وهي قبلة أبيهم إبراهيم u ، والثاني مقرون بقوله تعالى (وَلِكُلّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلّيهَا) أي لكل صاحب دعوة وملة قبلة يتوجه إليها فتوجهوا أنتم إلى أشرف الجهات التي يعلم الله تعالى أنها حق وذلك هو قوله (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبّكَ) والثالث مقرون بقطع الله تعالى حجة من خاصمه من اليهود في أمر القبلة فكانت هذه عللاً ثلاثاً ، قرن بكل واحدة منها أمر بالتزام القبلة ، نظيره أن يقال : الزم هذه القبلة فإنها القبلة التي كنت تهواها ، ثم يقال : الزم هذه القبلة فإنها قبلة الحق لا قبلة الهوى ، وهو قوله (وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبّكَ) ثم يقال : الزم هذه القبلة فإن في لزومك إياها انقطاع حجج اليهود عنك ، وهذا التكرار في هذا الموضع كالتكرار في قوله تعالى (فَبِأَيّ ءَالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ) وكذلك ما كرر في قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ).

والجواب الخامس : أن هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة وإيضاح البينات .   (تفسير الرازي) .

ورجح القرطبي القول الأول .

والخلاصة :

أن الأمر الأول : لتقرير حكم النسخ واستجابة لرغبة النبي ﷺ .

والأمر الثاني : لبيان أن الحق من ربك ، وأن لكل ملة وجهة وهذا وجهتكم .

والأمر الثالث : حيثما توجهتم فهذه قبلتكم ، ولقطع حجج المعاندين .

(**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**) المراد بالناس هنا أهل الكتاب ، وهذا قول جمهور المفسرين ، ووجه حجتهم : أنهم يقولون يجحد ديننا ويتبع قبلتنا .

(**إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**) المراد بهم : مشركي قريش .

ذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء هنا منقطع – على القول الراجح – ويكون بمعنى (لكن) الذين ظلموا منهم (وهم مشركوا العرب) لا حجة لهم فلا يلتفت إليهم .

- **قال الشيخ ابن عثيمين** : والأقرب عندي -والله أعلم – أنه استثناء منقطع والمعنى : لئلا يكون للناس عليكم حجة ، لكن الذين ظلموا منهم لن تنجوا من محاجتهم ومخاصمتهم .

وذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء متصل ، أي : لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا سيحتجون ولن تنقطع دعواهم الباطلة . (يقولون رجع محمد إلى قبلتنا فسيرجع إلى ديننا) .

- **فإن قيل** : لماذا سميت حجة ؟

فالجواب: الحجة تأتي بالقرآن بمعنى ما يحتج وبه ويتمسك به سواء كان صحيحاً أو باطلاً كما قال الله تعالى (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ) فسماها حجة مع أنها باطلة ، وقال تعالى (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم) والمحاجة هي أن يورد كل واحد منهم على صاحبه حجة ، وهذا يقتضي أن يكون الذي يورد المبطل يسمى بالحجة ، ولأن الحجة اشتقاقها من حجه إذا علا عليه، فكل كلام يقصد به غلبة الغير فهو حجة، وقال بعضهم : إنها مأخوذة من محجة الطريق ، فكل كلام يتخذه الإنسان مسلكاً لنفسه في إثبات أو إبطال فهو حجة، وإذا ثبت أن الشبهة قد تسمى حجة كان الاستثناء متصلاً .

وممن رجح أن الاستثناء متصلاً ابن جرير الطبري ورجحه ابن تيمية وابن القيم .

- **قال السعدى** : وكان صرف المسلمين إلى الكعبة ، مما حصلت فيه فتنة كبيرة ، أشاعها أهل الكتاب ، والمنافقون ، والمشركون ، وأكثروا فيها من الكلام والشبه ، فلهذا بسطها الله تعالى ، وبينها أكمل بيان ، وأكدها بأنواع من التأكيدات ، التي تضمنتها هذه الآيات.

منها : الأمر بها ، ثلاث مرات ، مع كفاية المرة الواحدة .

ومنها : أن المعهود أن الأمر ، إما أن يكون للرسول ، فتدخل فيه الأمة تبعاً ، أو للأمة عموماً ، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول ﷺ بالخصوص في قوله (فَوَلِّ وَجْهَكَ) والأمة عموماً في قوله (فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ) .

ومنها : أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة ، التي أوردها أهل العناد وأبطلها شبهة شبهة ، كما تقدم توضيحها .

ومنها : أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب .

ومنها : قوله (وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال (وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ).

ومنها : أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم، صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم .

(**فَلا تَخْشَوْهُمْ**) أي : فلا تخشوا هؤلاء الظلمة المعاندين المخالفين للحق من اليهود والمشركين والمنافقين مهما قالوا ، ومهما أرادوا بكم من أذى .

(**وَاخْشَوْنِي**) أي : وخافوني وأفردوني بالخشية ، فأنا القادر على نصركم ، وحفظكم منهم .

- والخشية أخص من الخوف ، **والفرق بينهما من وجوه :**

أولاً : الخشية مع العلم ، والخوف قد لا يكون .

ثانياً : الخشية تكون لعظمة المخشي ، وأما الخوف لضعف الخائف أو يكون المخوف منه قوياً ، قال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

- **قال الرازي :** فالمعنى لا تخشوا من تقدم ذكره ممن يتعنت ويجادل ويحاج ، ولا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لا يضرونكم ، واخشوني ، يعني احذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم وفرضت عليكم ، وهذه الآية يدل على أن الواجب على المرء في كل أفعاله وتروكه أن ينصب بين عينيه : خشية عقاب الله ، وأن يعلم أنه ليس في يد الخلق شيء ألبتة ، وأن لا يكون مشتغل القلب بهم ، ولا ملتفت الخاطر إليهم .
- **وقال القرطبي :** ومعنى الآية التّحقير لكل مَن سوى الله تعالى ، والأمر باطراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى .
- في الآية الأمر بخشية الله وخوفه ، وللخوف من الله فضائل :

أولاً : أنه من علامات الإيمان .

قال تعالى (فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

ثانياً : مدح الله أنبياءه بالخوف منه .

كما قال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

ثالثاً : الخوف من الله يجعل الإنسان في ظل العرش يوم القيامة .

ذكر النبي **e** في حديث السبعة (ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) فالخشية الموجبة لدمع العين تؤدي إلى أن النار لا تمس العين يوم القيامة.

رابعاً : الخوف سبب للنجاة من كل سوء

قال **e** (ثلاث منجيات : وذكر منها : خشية الله تعالى في السر والعلانية)

خامساً :: أثنى الله على ملائكته بشدة خوفهم منه .

كما قال تعالى (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) .

سادساً : من صفات الرجال العظماء .

قال تعالى (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) .

سابعاً : من صفات الأبرار خوفهم من عدم القبول .

قال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أي: والذين يعطون ويعملون ويخافون أن لا يتقبل منهم .

ثامناً : وعد الله الخائفين الجنة .

كما قال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) .

تاسعاً : أنه من صفات نبينا محمد e وأصحابه .

قال e (إني أخشاكم لله وأتقاكم له) رواه مسلم .

وعن أنس قال (خطبنا رسول الله e خطبة ما سمعت مثلها قط قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله وجوههم ولهم خنين) متفق عليه .

عاشراً : من أسباب النجاة من النار .

قال e (عينان لا تمسهما النار : عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله) رواه الترمذي .

وقد قال e (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة) .

الحادي عشر : الخوف سبب للبعد عن المعاصي .

قال تعالى (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) .

قال بعض السلف: إذا سكن الخوف في القلب أحرق موضع الشهوات منه.

الثاني عشر : سبب في إخلاص العمل لله .

قال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) .

الثالث عشر : سبب لعلو الهمة في العبادة .

قال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

الرابع عشر : الخوف يجعل العبد سائراً على طريق الهداية .

قال ذو النون المصري : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق .

الخامس عشر : الخوف يضفي المهابة على صاحبه .

قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : على قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق .

السادس عشر : الخوف من أسباب قبول الدعاء:

قال تعالى (وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين) .

السابع عشر : الخوف من أسباب الانتفاع بكلام الله تعالى .

قال تعالى (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) .

- من أقوال السلف :

قال أبو سليمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

وقال حاتم الأصم : لكل شيء زينة ، وزينة العبادة الخوف من الله .

وقال عامر بن قيس : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء .

وحين سئل عطاء السليمي : ما هذا الحزن ؟ قال ويحك ؟ الموت في عنقي ، والقبر بيتي ، وفي القيامة موقفي ، وعلى جسر جهنم طريقي ، لا أدري ما يصنع بي ؟

وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير .

وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبدالعزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما .

وقال السبكي رحمه الله : ما خفت الله يوما ، إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط .

وقال حكيم : الحزن يمنع الطعام ، والخوف يمنع الذنوب ، والرجاء يقوي على الطاعة ، وذكر الموت يزهد في الفضول .

وقال الحسن : الرجا والخوف مطيتا المؤمن .

وقال إبراهيم التيمي: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار لأن أهل الجنة قالوا (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) .

(**وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ**) أي: لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها.

- فبين الله تعالى أنه حولهم إلى هذه الكعبة لهاتين الحكمتين :

إحداهما : لانقطاع حجتهم عنه .

والثانية : لتمام النعمة .

(**وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) أي : إلى ما ضلت عنه الأمم وهديناكم إليه وخصصناكم به .

- **قال الشنقيطي :** (لعل) تأتي في القرآن بمعنيين ، قال بعض العلماء : هي على الترجي ، ولكن الترجي بحسب ما يظهر للناس ، أما الله فهو عالم بما كان فلا يصدق عليه الترجي كقوله لموسى وهارون (فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى) أي : على رجائِكما وعلم بني آدم القاصر ، أما الله فهو عالم أنه لا يذكر ولا يخشى .

الثاني : ما قاله بعض العلماء : إن كل (لعل) في القرآن مشتملة معنى التعليل بمعنى (لأجل) وعليه ف(لعلكم تذكرون) ، لأجل أن تتذكروا وتتعظوا بآياتنا وغرائب صنعنا وعجائبنا .

الفوائد :

١ - تكرار الأمر الهام .

٢ -أن أهل الباطل يحاجون في الحق لإبطاله .

٣ - وجوب تنفيذ شرع الله ، وألا يخشى الإنسان لومة لائم .

٤ - أن خشية الناس من أسباب كتم العلم وتبديله .

٥ - أن تنفيذ أوامر الله وخشيته سبب للهداية .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

[البقرة : ١٦٤]

- - - - - - - - - - - - - -

- **قال العلامة ابن عاشور :** موقع هذه الآية عقب سابقتها موقع الحجة من الدعوى ، ذلك أن الله تعالى أعلن أن الإله إله واحد لا إله غيره ، وهي قضية من شأنها أن تُتلقى بالإنكار من كثير من الناس ، فناسب إقامة الحجة لمن لا يقتنع فجاء بهذه الدلائل الواضحة التي لا يسع الناظر إلاّ التسليم إليها.

(**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي : تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع .

وقد أمرنا الله بالنظر والتفكر في السماوات والأرض الدالة على توحيده وعظمته وجلاله في آيات كثيرة :

فقال تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) .

وقال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) .

وقال تعالى (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) .

وقال تعالى (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

- وهما من أعظم المخلوقات ، بل جعلها الله من أدلة البعث ، حيث أن من قدر على خلق الأعظم فهو على غيره من باب أحرى .

قال تعالى (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقال تعالى (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) .

- وخلقهما سبحانه بالحق كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ) .

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله : إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جل وعلا .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) .

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض ، تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) .

ومن الحق الذي من أجله خلق السماوات والأرض وما بينهما : هو تكليف الخلق ، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزاؤهم على أعمالهم ، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

(**وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**) هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) .

• **قال السعدي :** قوله تعالى (وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض، من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير، تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره، الذي تفرد به، وعظمته، وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

• وهذا البرهان ذكره الله تعالى في عدة مواضع :

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وقال تعالى (وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) .

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون) .

(**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ**) أي : والسفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء ، بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع .

فمن الذي ألهمهم صنعتها، وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر، تجري فيه بإذنه وتسخيره، والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية، النار والمعادن المعينة على حملها، وحمل ما فيها من الأموال ؟

فهل هذه الأمور، حصلت اتفاقاً، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه، لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة، وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد، حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف ، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب ، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة ، والذل والتعظيم . (تفسير السعدي) .

(**وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**) أي : وما أنزل الله من السحاب المطر به حياة البلاد والعباد . كمال تعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) .

• أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله، وأخرج به ما أخرج ورحمته، ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم ؟ (تفسير السعدي) .

• وهذا البرهان ذكره الله تعالى في عدة مواضع :

قال تعالى (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) .

وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) .

وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) .

• المراد بالسماء هنا العلو ، وذلك أن السماء يُطلق على معنيين :

المعنى الأول : العلو ، كقوله تعالى هنا (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ) المراد بالسماء هنا العلو ، لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف ، بل ينزل من العلو .

المعنى الثاني : المراد بالسماء السقف ، كما في قوله تعالى (والسَّمَاءَ بِنَاءً) .

(وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) أي: نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب، على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك .

كما قال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

• قوله تعالى (من كل دابة) قال القرطبي : ودابة تجمع الحيوان كله ، وقد أخرج بعض الناس الطير وهو مردود ، قال الله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) فإن الطير يدب على رجليه في بعض حالاته .

• فمن الدواب : ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دره ، ومنها: ما يركبون، ومنها : ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم ، ومنها: ما يعتبر به، ومع أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها. (تفسير السعدي) .

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) أي : تقليب الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً ، حارة وباردة ، وليّنة وعاصفة .

• **قال ابن كثير :** فتارة تأتي بالرحمة ، وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه ، وتارة تجمعه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية ، وتارة تأتي من ناحية اليمن .

• **وقال الطبري** وتصريف الله إياها : أن يرسلها مرة لواقح ، ومرة يجعلها عقيماً ، ويبعثها عذاباً تدمر كل شيء بأمر ربها .

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أي : سائر بين السماء والأرض، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن كما يصرفه تعالى .

• **قال الشنقيطي :** لم يبين هنا كيفية تسخيره ، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله (وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون)، وقوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ) .

(لَآيَاتٍ) أي : لعلامات ودلالات وبراهين .

• قال القاسمي : عظيمة كثيرة ، فالتنكير للتفخيم كمّاً وكيفاً .

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي : يتفكرون فيها وينظرون إليها بعين العقول، فيستدلون على قدرته، سبحانه ، القاهرة، وحكمته الباهرة، ورحمته الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به جل شأنه .

قال السعدي : والحاصل، أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك، أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر

به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها .

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه .

- يختم الله كثيرًا من الآيات عندما يبين للعباد الأصول و الأحكام النافعة بقوله : لعلكم تعقلون وهذا يدل على أمور :

منها : أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه و إرشاداته و تعليماته ، فنحفظها و نفهمها و نعقلها بقلوبنا ، ونؤيد هذا العقل ونثبته بالعمل بها.

ومنها : أنه كما يحب منا أن نعقل هذا الحكم الذي بينه بيانًا خاصًا، فإنه يحب أن نعقل بقية ما أنزل من الكتاب و الحكمة، وأن نعقل آياته المسموعة و آياته المشهودة .

و **منها :** أن هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله إلينا من أعظم ما يربي عقولنا ويجعلها عقولاً تفهم الحقائق النافعة والضارة، وترجح هذه على هذه ، ولا تميل بها الأهواء و الأعراض و الخيالات و الخرافات المفسدة للعقول .

- قال البقاعي : وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة .
- **قال ابن القيم :** الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين :

أحدهما : النظر في مفعولاته ، **والثاني :** التفكر في آياته وتدبرها ، فتلك آياته المشهودة ، وهذه آياته المسموعة .

فالنوع الأول كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ...) .

وقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وهو كثير في القرآن

والثاني كقوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) وقوله (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) .

- قال ابن القيم مبيناً من يعتبر بآيات الله الكونية والشرعية :

قال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) وقال (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر ، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ومَن كان قصده اتباع رضوانه ، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) وقال في الساعة (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) .

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية ، ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما حل بهم في الدنيا من الخزي ، قال بعد ذلك (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة .

- وآيات الله تنقسم إلى قسمين :

الآيات الكونية القدرية . (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها) .

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة، كالشمس والسماء والأرض ونحوها، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة .

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي : لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون، وهو المعبود وحده.

الآيات الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم . (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله) .

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) .

وسميت آيات ، جمع آية ، لأنها علامة على صدق من جاء بها .

الكفر بالآيات الكونية يكون بأمور: أن يجحد أن الخالق سبحانه خلقها فيدعي أن الذي خلقها غير الله، أو أن يعتقد أن له شريكاً في خلقه ، أو أن له معيناً في خلقه .

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها ، أو بتكذيبها ، أو بالاستكبار والعناد .

الفوائد :

١- عظم خلق السماوات والأرض .

٢- أن السموات متعددة .

٣- أنه ينبغي للإنسان أن يتأمل في هذه المخلوقات وعظم خلقتها ، ليزداد إيمانه .

٤- أن من أعظم الآيات اختلاف الليل والنهار وما يحدث بسبب ذلك .

٥- أن اختلاف الليل والنهار من رحمة الله وحكمته .

٦- عظم نعمة الله بالفلك التي تجري بالبحر .

٧- من رحمة الله إنزال المطر .

٨- قدرة الله العظيمة .

٩- وجوب تعظيم الله .

١٠- أن الله يدعو للنظر والتفكر في آياته الكونية والشرعية .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ . إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَاب . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

[البقرة : ١٦٥ – ١٦٧] .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) يخبر تعالى عن حال المشركين حيث جعلوا له نداً يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه ، والند : النظير والمماثل المناوىء، والمراد به هنا الأوثان .

• وقد اختلف العلماء في معنى (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) على قولين :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً .

ورجح هذا القول ابن تيمية وقال: إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

والثاني : أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله .

• **قال ابن القيم :** فأخبر سبحانه أن المشرك يحب الند كما يحب الله تعالى ، وأن المؤمن أشد حبا لله من كل شيء وقال أهل النار في النار (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به سبحانه في الحب

والتأله والعبادة ، وإلا فلم يقل أحد قط أن الصنم أو غيره من الأنداد مساو لرب العالمين في صفاته وفي أفعاله ، وفي خلق السماوات والأرض ، وفي خلق عباده أيضاً ، وإنما كانت السوية في المحبة والعبادة .

- وعقوبة جعل لله نداً النار ، لأنه ارتكب أعظم ذنب .

قال ﷺ (من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار) متفق عليه .

وحينما سئل النبي ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : (أن تجعل لله نداً وهو خلقك) متفق عليه .

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّه**) أي : أثبت وأدوم على حبه لأنهم لا يختارون على الله ما سواه ، والمشركون إذا اتخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثاني .

قال قتادة : إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى كما أخبر الله عز وجل عنهم فقال (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) والمؤمن لا يعرض عن الله في السراء والضراء والشدة والرخاء .

- **قال ابن كثير :** ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه .

(**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**) أي : الذين جعلوا مع الله أنداداً وأشركوا به .

- فإن الشرك ظلم ، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك ظالم ، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده ، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير ، أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر ، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك .

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال : بشرك ، ثم تلا قول لقمان (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين .

ولم يأت الظلم في القرآن إلا بهذا المعنى ، إلا في موضع واحد في سورة الكهف ، بمعنى النقص ، كما قال تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) أي ولم تنقص .

- الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الشرك .

وهو أعظم الظلم وأشده .

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين .

قال ابن رجب : فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

والثاني : ظلم العبد نفسه بالمعاصي .

كما قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث : ظلم العبد لغيره .

كما في الحديث (قال الله : إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم .

وقال e في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه .

وعن ابن عمر . قال : قال e (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه .

(إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ) أي : حين يرون العذاب .

- والرؤية هنا بصرية (على قراءة فتح الياء : يَرون) ، أي : بأبصارهم .

والمعنى : لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القوة لله جميعاً .

(أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً) أي : أن الحكم له وحده لا شريك له ، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه .

(وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) أي : قوي العقوبة .

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) أي : (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا) تبرأ الذين عُبدوا من دون الله كالأوثان والملائكة والجن والشيطان والرؤساء وعيسى u ، فكل من عُبِد من دون الله يتبرأ من عابديه (مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) أي : من أتباعهم .

فالملائكة تتبرأ : كما قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) .

وكذلك الشيطان يتبرأ من تابعيه : كما قال تعالى عنه (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وكذلك الأوثان تتبرأ من عابديها : قال تعالى (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

والجن تتبرأ منهم وينتصلون من عبادتهم لهم : كما قال تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) . [بعض العلماء حمل هذه الآية على أن المعبودين من دون الله هم الجن] .

وقال تعالى (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً) أي : سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم .

وقال الخليل لقومه (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وكذلك الجبابرة والرؤساء والظلمة يتبرأون : قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) .

(وَرَأَوُا الْعَذَابَ) أي : عاينوا عذاب الله .

(وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) أي : تقطعت بهم الحيَل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً .

(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا) أي : لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم ، فلا نلتفت إليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة ، وهم كاذبون في هذا كما قال تعالى (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون) .

(**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ**) أي: أنه تعالى كما أراهم شدة عذابه، كذلك يريهم أعمالهم حسرات عليهم، أي: كذلك يري الله الكافرين أعمالهم الخبيثة حسرات عليهم، لِمَ عملوا بها؟ وهلاّ عملوا بغيرها؟ فندموا على ما فرط منهم من أعمالهم الرديئة إذ رأوا جزاءها من الله وعقابها، لأن الله أخبر أنه يريهم أعمالهم ندماً عليهم. [تفسير الطبري : ٢ / ٩١]

فأعمالهم تذهب وتضمحل .

كما قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) .

وقال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

قال تعالى عن يوم القيامة (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) .

- **قال ابن عاشور** : سؤال : لم أضيفت الأعمال إليهم ؟

الجواب : وأضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها ، وأما إضافة الفاسدة إليهم فمن حيث عملوها .

- قوله تعالى (حسرات ..) الحسرة شدة الأسف .

(**وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**) أي : ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار ، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي .

كما قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ)

وقال تعالى (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُون) .

وقال تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) .

الفوائد :

١ - تحريم اتخاذ الند لله .

٢ - وجوب إخلاص العبادة لله في المحبة .

٣ - أن المحبة من العبادة .

٤ - أن من جعل لله نداً في المحبة فهو ظالم .

٥ - تحريم الظلم ، وأشده الشرك بالله تعالى .

٦ - أن المتبوعين بالباطل لا ينفعون أتباعهم .

٧ - ثبوت العقاب .

٨ - ثبوت العذاب .

٩ - تحسر هؤلاء وأمثالهم تحسراً عظيماً .

١٠ - إثبات نكال الله بهم .

١١ - أن المشركين مخلدون في النار .

١٢ - إثبات النار .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) .

[البقرة : ١٦٨ – ١٦٩] .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً) الخطاب لجميع البشر ، أي : كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات .

- قوله تعالى (حلالاً) أي : ما كان حلالاً في كسبه . (طيباً) أي : طيباً في ذاته .نافعاً لآكله في دينه .

وهذا القول أولى من قول إن (طيباً) تأكيد ، لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد .

- قوله تعالى (حلالاً طيباً) فلا يجوز أكل الخبيث والمحرّم .

(وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) نهي من الله عن اتباع خطوات الشيطان وهي : طرائقُه ومسالكه .

والخطوات جمع خُطْوة ، ويقال بالفتح خَطوة ، وهي ما بين القدمين حال الخَطْو .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) أي : ظاهر العداوة ، وذلك لأن الشيطان التزم أموراً سبعة في العداوة أربعة منها في قوله تعالى (وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءاذَانَ الأنعام وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيّرُنَّ خَلْقَ الله) وثلاثة منها في قوله تعالى (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين) فلما التزم الشيطان هذه الأمور كان عدواً متظاهراً بالعداوة فلهذا وصفه الله تعالى بذلك . [تفسير الرازي] .

- وقد حذرنا الله في آيات كثيرة عن اتباع خطواته :

كما قال تعالى (وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) .

وقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) .

- فيجب الحذر من خطوات الشيطان لأنه عدو ظاهر مبين لنا .

فهو يحب أن يحزن المؤمن كما قال تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وأحب شيء إلى الشيطان : أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه .

- وهو يخوف المؤمنين بالأعداء .

كما قال تعالى (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أي : يخوفكم بأوليائه .

- ويخوف بالفقر .

كما قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) فيخوف المسلم من الفقر وذلك لأمور :

أولاً : ليُمسك عن الصدقة فيحرمه أجرها وثوابها العظيم .

ثانياً : ليصيبه بالقلق والحزن .

ثالثاً : ليشك بوعد الله (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) .

رابعاً : ليقدم على أكل الحرام خوفاً من الفقر كما قال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

- ويحث على الرياء في الإنفاق والتبذير .

قال تعالى (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً) .

وكما قال تعالى (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً) .

- ومن أعماله : الدعوة إلى الكفر والارتداد عن الدين

كما قال تعالى (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) .

وقال تعالى عن الهدهد (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ) .

وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ) .

- ومن أعماله : زرع العداوة والبغضاء بين الناس .

كما قال تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) .

وقال تعالى عن يعقوب (قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً) .

ومن تزيينه تسمية المعاصي بأسماء محببة لكي يخفي خبثها .

كما قال لآدم (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى) .

قال ابن القيم : وقد ورّث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تُحِبُ النفوسُ مسمياتها ، فسموا الخمر بأم الأفراح .

وفي عصرنا يسمون الربا بالفائدة ، والتبرج الفاضح بحرية المرأة ، والمغنية الفاسقة بالفنانة .

- عقبات الشيطان :

العقبة الأولى : عقبة الكفر بالله تعالى .

فإنه إن ظفر في هذه بة بردت نار عداوته واستراح .

العقبة الثانية : عقبة البدعة .

إما باعتقاد خلاف حق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه ، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله .

فإن نجا منها بنور السنة :

العقبة الثالثة : عقبة الكبائر .

فإن ظفر به فيها زينها له ، وحسنها في عينه ، وسوّف به .

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله أو بتوبة نصوح طلبه على :

العقبة الرابعة : عقبة الصغائر .

فكان له منها بالقُفز ، وقال : ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم ، أوما علمت بأنها تكفّر باجتناب الكبائر وبالحسنات ، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها ، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه .

العقبة الخامسة : عقبة المباحات التي لا حرج على فعلها .

فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات ، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ، وأقل ما ينال منه : تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية .

العقبة السادسة : عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات .

فأمره بها وحسنها في عينه ، وزينها له ، وأراه ما فيها من الفضل والربح ، ليشغله بها عما هو أفضل منها ، وأعظم كسباً وربحاً ؟
[مدارج السالكين : ١ / ٢٣٧] .

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) فهذا كالتفصيل لجملة عداوته ، وهو مشتمل على أمور ثلاثة: **أولها:** السوء، وهو متناول جميع المعاصي سواء كانت تلك المعاصي من أفعال الجوارح أو من أفعال القلوب، أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة .

وثانيها : الفحشاء : وهي نوع من السوء ، لأنها أقبح أنواعه ، وهو الذي يستعظم ويستفحش من المعاصي . **وثالثها :** (أَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) وكأنه أقبح أنواع الفحشاء ، لأنه وصف الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم أنواع الكبائر ، فصارت هذه الجملة كالتفسير لقوله تعالى (وَلاَ تَتَّبِعُواْ خطوات الشيطان) فيدخل في الآية أن الشيطان يدعو إلى الصغائر والكبائر والكفر والجهل بالله .

قوله تعالى (والسوء) أي الأعمال السيئة ، وسميت سيئة ،لأنها تسوء صاحبها في الدنيا وفي الآخرة ، في الدنيا بظهور آثارها عليه من الهمّ والضيق في الصدر والخلق والرزق ، فيفقد من السعادة في الحياة بقدر ما عمل من السوء ، قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقال تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) . وتسوؤه آجلاً بعد موته لمعاقبته عليها إن لم يتب منها أو يتداركه الله بعفوه ، وربما تسوء غيره بأن يتعدى ضررها إلى الغير مباشرة ، أو بأن يكون لها أثرها السيئ على البلاد والعباد عامة بمحق البركات وقلة الخيرات ، كما قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقال e (ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء) . رواه ابن ماجه

- قوله تعالى (والفحشاء ...) أي : الزنا واللواط هذه نوع من السوء، فيكون من باب عطف الخاص على العام، فالفحشاء: ما قبح من الأعمال الشنيعة .

الفوائد :

١- منّة الله على عباده ، حيث أباح لهم جميع ما في الأرض .

٢- أن الأصل في الأشياء الطهارة .

٣- تحريم اتباع خطوات الشيطان .

٤- ينبغي على المسلم معرفة عدوه الشيطان ليتجنبه .

٥- تأكيد عداوة الشيطان لبني آدم .

٦- أن الشيطان لا يأمر بالخير .

٧- أن الإنسان إذا وقع في قلبه همّ بالسيئة أو بالفاحشة فليعلم أنها من الشيطان .

٨- تحريم القول على الله بلا علم .
٩- أن القول على الله بلا علم من أوامر الشيطان .
(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ)
[البقرة : ١٧٠ – ١٧١] .

(**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ**) **قيل** : المراد بهؤلاء : متخذي الأنداد ، ويكون المعنى : ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، واختاره ابن كثير حيث لم يذكر في تفسيره غيره .
[تفسير ابن كثير : ١ / ١٩٠] .

وقيل : أن المراد (وإذا قيل لهم) أي الناس الذين خوطبوا بقوله (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) والمعنى : يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان ... وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، وهذا اختيار ابن جرير الطبري رحمه الله . [تفسير الطبري : ٢ / ٩٤] .

(**اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**) على رسوله ، واتركوا ما أنتم عليه من الضلالة والجهل .

- فيه وجوب اتباع ما أنزل الله :

كما قال تعالى (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) .
وقال تعالى (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) .

(**قَالُوا**) في جواب ذلك :

(**بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**) بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أي : من عبادة الأصنام والأنداد ، كما في الآية الأخرى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

قال الرازي : (أَلْفَيْنَا) بمعنى وجدنا ، بدليل قوله تعالى في آية أخرى (بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا) ويدل عليه أيضاً قوله تعالى (إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَاءهُمْ ضَالّينَ) .

قال تعالى منكراً عليهم :

(**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ**) الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم .

(**لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ**) أي : ليس لهم فهم ولا هداية .

(**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) أي : فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل .

(**كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً**) أي: كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي : دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه ، بل إنما تسمع صوته فقط .

هذا التأويل الأول للآية : أي : مثل واعظ الذين كفروا الذي يعظهم مع هؤلاء الكفار كمثل صاحب بقر أو غنم أو بهيمة يناديها وينعق بها فتسمع ما يقول لكنها لا تفقه منه شيئاً ، واختار هذا ابن كثير .

- **قال السعدي** : ... أخبر تعالى أن مثلهم – عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان – كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها ، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها .

وعلى هذا القول يكون المثل قد ضُرب بالمدعو الذي لا يستجيب لا الداعي .

والتأويل الثاني : أن هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً ، ورجح هذا ابن جرير .
وعلى هذا القول يكون هذا المثل في حال المشركين مع معبوداتهم ، والأول أصح .
(**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**) أي : صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه .
(**فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**) أي : لا يعلمون شيئاً ولا يفهمونه .
الفوائد :
١- ذم التعصب بغير هدى .
٢- أن من تعصب لمذهب مع مخالفة الدليل ففيه شبه من هؤلاء .
٣- وجوب اتباع ما أنزل الله .
٤- أن كل من خالف الحق ، وما أنزل الله فليس بعاقل ، وليس عنده هدى ، وقد قال تعالى (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .
٥- ذم من يسمع ولا يستجيب .
٦- أن من يسمع الحق ولا يستجيب له فيه شبه من هؤلاء الذين ذكرهم الله .
٧- فضل من سمع الحق واستجاب له وقد قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .
وقال تعالى (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .
وقال تعالى (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى) .
٨- أن من طبع الله على قلبه فإنه يكون كالبهيمة ، فلا يسمعون الحق ولا يقولون به .
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .
[البقرة : ١٧٢ – ١٧٣] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم تعالى .
والآيات الدالة على إباحة الطيبات وتحريم الخبائث كثيرة :
قال تعالى (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) .
وقال تعالى (يَسْأَلونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ) .
وقال تعالى (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) .
والله أمر المرسلين بذلك فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)
وفي الحديث قال e (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ..) .
- واختلف بالمراد بالطيب الذي أباحه الله :

فقيل : الطيبات هي المحللات ، وقيل : المراد بالطيبات ما تستطبه العرب ، وقيل : الطيبات التي أحلها الله ما كان نافعاً لآكلهِ في دينه ، وهذا اختيار ابن تيمية .
- هذه الآية تدل على أن الأصل في الأشياء الحل والإباحة .

(**وَاشْكُرُوا لِلَّهِ**) أي : قوموا بشكره على نعمه عليكم ، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم . [وقد تقدم مباحث الشكر]

(**إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**) أي : اشكروا لله تعالى إن كنتم فعلاً تعبدونه وتخضعونه له .

والعبادة : هي التذلل لله بالطاعة ، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

- إن رزق الله للعبد يستلزم شكره :

فسليمان عندما رأى عرش بلقيس عنده مستقراً (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) .

ونبينا e كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ، ويقول : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً .

(**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ**) أي : ما حرم عليكم ربكم إلا الخبائث كالميتة وهي : التي تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة .

- والميتة إنما حرمت لاحتقان الرطوبات والفضلات والدم الخبيث فيها ، والذكاة لما كانت تزيل ذلك الدم والفضلات كانت سبب الحل .
- يستثنى من ذلك : ميتة البحر لقوله تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ) ، قال ابن عباس : صيد البحر ما أخذ حي ، وطعامه ما أخذ ميتاً .

وعن أبي هريرة . أن رسول الله e قال في البحر (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) رواه أبو داود .

ويستثنى كذلك الجراد .

(**وَالدَّمَ**) أي : وحرم عليكم الدم ، والمراد هنا الدم المسفوح كما قال تعالى (قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ) .

(**وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ**) أي : وحرم عليكم لحم الخنزير .

قال القرطبي : لا خلاف في تحريم خنزير البر .

وقد ذكر الله تحريمه في عدة آيات :

فقال تعالى كما في سورة المائدة (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ) .

وقال تعالى في سورة الأنعام (قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ) .

- وهو حيوان سمج والعين تكرهه، له نابان كنابي الفيل، ورأسه كرأس الجاموس، وهو حرام لحمه وشحمه وجميع أجزائه.
- الحكمة من تحريمه :

كثرة الديدان في لحم الخنزير ، ولأن أشهى غذائه القاذورات والنجاسات ، وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة القاتلة ، ويقال : إن له تأثيراً سيئاً في العفة والغيرة .

(**وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**) الإهلال المراد به رفع الصوت ، والمعنى : وما ذبح وذكر عليه اسم غير الله تبارك وتعالى ، وكانوا يذكرون اسم آلهتهم على الذبيحة ويرفعون أصواتهم بذلك .

(**فَمَنِ اضْطُرَّ**) أي : اللجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات .

لكن بشرط :

(**غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ**) لا يكون باغياً ولا عادياً [وسيأتي المراد بهما] (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) أي : فلا عقوبة عليه في الأكل .

• في هذه الآية جواز الأكل من الميتة عند الضرورة وهنا مباحث :

أولاً : تعريف الضرورة لغة وشرعاً :

قال ابن منظور : الاضطرار الاحتياج إلى الشيء وقد اضطره إليه أمر .

وشرعاً : للضرورة تعاريف متقاربة في المعنى عند الفقهاء ، ومن ذلك ما يأتي :

قيل : إنها بلوغه حداً إن لم يتناول الممنوع هلك إذا قارب وهذا يبيح تناول الحرام .

وقيل : ومعنى الضرورة هاهنا خوف الضرر على نفسه أو بعض أعضائه بتركه الأكل ، والمعنى متقارب .

ثانياً : بيان حد الاضطرار الذي يبيح تناول المحرم :

حد الاضطرار هنا يتبين من مجموع الآيات الواردة في الموضوع ، وهي :

قوله تعالى (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) .

فأطلق في هذه الآية الإباحة بوجود الضرورة في كل حال وجدت الضرورة فيها .

قوله تعالى (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) .

فقيد الإباحة في هذه الآية بأن يكون المضطر غير باغ ولا عاد لكنه لم يبين سبب الاضطرار ولم يبين المراد بالباغي والعادي .

قوله تعالى (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

فبين سبحانه سبب الاضطرار وهو المخمصة .

وإذاً : يمكننا أن نقول : إن حد الاضطرار المبيح لتناول المحرم هو أن يخاف على نفسه التلف بسبب الجوع ولم يجد ما يتغذى به من الحلال ، بشرط أن يكون غير متجانف لإثم ، وهو الباغي والعادي .

• وقد اختلف العلماء في المراد بالباغي والعادي على قولين :

القول الأول : أن المراد بالباغي هو الخروج على إمام المسلمين ، والإثم الذي يتجانف إليه العادي هو إخافة الطريق وقطعها على المسلمين ، ويلحق بذلك كل سفر معصية لله ، لأن في ذلك إباحة على المعصية وذلك لا يجوز .

فعلى هذا القول :الباغي : الخارج على الإمام ، والعادي : قاطع الطريق ، وكل مسافر سفر معصية .

القول الثاني : أن المراد بالباغي : الذي يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال ، والعادي الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه .

ورجح هذا التفسير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، **وقال:** وأما الآية فأكثر المفسرين قالوا**:** المراد بالباغي الذي يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال، والعادي الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه، وهذا التفسير هو الصواب، وهو قول أكثر السلف**...**وليس في الشرع ما يدل على أن العاصي بسفره لا يأكل الميتة ولا يقصر، بل نصوص الكتاب والسنة عامة مطلقة.

ورجح هذا القول القرطبي والإمام ابن جرير .

ثالثاً : بيان حكم تناول الطعام المحرم في حال الضرورة .

اختلف العلماء في ذلك على قولين :

القول الأول : يجب على المضطر الأكل من الميتة ونحوها .

وهذا قول الحنفية والصحيح من مذهب المالكية وأحد الوجهين في مذهب الحنابلة ، وأصح الوجهين عند الشافعية .

لقوله تعالى (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) .

ولقوله تعالى (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وترك الأكل مع إمكانه في هذه الحال ؛ إلقاء بيده إلى التهلكة ، ولأنه قادر على إحياء نفسه بما أحل الله له فلزمه ، كما لو كان معه طعام حلال .

القول الثاني : أنه لا يلزمه في هذه الحال الأكل من المحرم .

لأن له غرضاً في تركه وهو أن يتجنب ما حرم عليه ، ولأن إباحة الأكل رخصة فلا تجب عليه كسائر الرخص .

والراجح القول الأول أنه يجب عليه أن يأكل في هذه الحال ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، حيث قال : ويجب على المضطر أن يأكل ويشرب ما يقيم به نفسه ، فمن اضطر إلى الميتة أو الماء النجس فلم يشرب ولم يأكل حتى مات دخل النار .

رابعاً : بيان مقدار ما يباح للمضطر تناوله من المحرم .

يباح له أكل ما يسد به الرمق ويأمن معه الموت بالإجماع ، ويحرم ما زاد على الشبع بالإجماع .

واختُلف في حكم الشبع على ثلاثة أقوال :

القول الأول : لا يباح له الشبع .

وهو قول أبي حنيفة وأحد الروايتين عن أحمد وأحد القولين للشافعي .

وهو قول ابن الماجشون من المالكية .

قالوا : لأن الآية دلت على تحريم ما ذكر فيها ، واستثنى ما اضطر إليه ، فإذا اندفعت الضرورة لم يحل الأكل كحال الابتداء .

ولأنه بعد سد الرمق غير مضطر فلم يحل له الأكل للآية ، يحققه أن حاله بعد سد رمقه كحاله قبل أن يضطر وثم لم يبح له الأكل كذا هاهنا .

القول الثاني : أن له الشبع .

وهذا قول مالك وأحد القولين في مذهب الشافعي .

لحديث جابر بن سمرة (أن رجلاً نزل الحرة فنفقت عنده ناقة ، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نقدر شحمها ولحمها ونأكله، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ ، فسأله فقال : (هل عندك غنى يغنيك ؟) قال: لا، قال: فكلوها) فأطلق النبي ﷺ الأمر بأكل ولم يحدد .

القول الثالث : التفصيل بين من يخشى استمرار الضرورة فيحل له الشبع ، ومن ضرورته مرجوة الزوال فلا يحل له إلا سد الرمق ، لأن من ضرورته مستمرة إذا اقتصر على سد الرمق عادت الضرورة إليه عن قرب ولا يتمكن من البعد من الميتة مخافة الضرورة ، ويفضي إلى ضعف بدنه ، وربما أدى ذلك إلى تلفه بخلاف من ليست ضرورته مستمرة فإنه يرجو الغنى عنها بما يحل له .

وهذا احتمال في مذهب الحنابلة ، ذكره صاحب المغني ، وقول في مذهب الشافعي .

وهذا القول هو **الراجح .**

خامساً : هل يجوز للمضطر أن يتزود من الطعام المحرم ؟

الصحيح أنه يجوز له ذلك ، وهذا قول مالك ورواية عن أحمد وهو قول الشافعية .

لأنه لا ضرر في استصحابها ولا في إعدادها لدفع ضرورته وقضاء حاجته ، ولا يأكل منها إلا عند ضرورته .

سادساً : إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى ، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير .

سابعاً : كل المحرمات إذا اضطر إليها ، وزالت بها الضرورة كانت مباحة ، قلنا (وزالت بها الضرورة) احترازاً مما لا تزول به الضرورة ، كما إذا ما اضطر الإنسان إلى أكل سم ، فلا يجوز أن يأكل ، لأنه لا تزول بها ضرورته ، بل يموت به ، ولو اضطر إلى

شرب خمر لعطش لم يحل له ، لأنه لا تزول به ضرورته ، ولذلك لو احتاج إلى شربه لدفع لقمة غص بها حل له ، لأنه تزول به ضرورته .

ثامناً : لو اضطر لميتة آدمي ، فالمشهور عند الحنابلة أنه لا يجوز أن يأكلها ، وقالت الشافعية : إنه يجوز أكلها عند الضرورة ، وهو الصحيح . (الشيخ ابن عثيمين) .

(**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) هذا تعليل للحكم ، فالحكم انتفاء الإثم ، والعلة (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(**غَفُورٌ**) سبق شرحها .

- **قال السعدي:** ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها، أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة (الضرورات تبيح المحظورات) فكل محظور ، اضطر إليه الإنسان ، فقد أباحه له ، الملك الرحمن ، فله الحمد والشكر ، أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً .

(**رَحِيمٌ**) ومن رحمته أنه أباح المحرمات حال الضرورة ، ومن رحمته يغفر الزلات والخطيئات .

الفوائد :

١- فضيلة الإيمان .

٢- الأمر بالأكل من طيبات ما رزق الله .

٣- أن الخبائث لا يؤكل منها .

٤- أن ما يحصل للإنسان من مأكول فإنه من رزق الله .

٥- وجوب شكر الله .

٦- وجوب الإخلاص لله تعالى .

٧- أن الشكر من تحقيق العبادة .

٨- تحريم أكل الميتة .

٩- نجاسة الميتة والدم ولحم الخنزير وكل ما أهل لغير الله .

١٠- أن التحريم والتحليل إلى الله .

١١- أن الضرورة تبيح المحظور ، لكن هذه الضرورة تبيح المحرم بشرطين :

الأول : صدق الضرورة ، بحيث لا يندفع الضرر إلا بتناول المحرّم .

والثاني : زوال الضرورة به حيث يندفع الضرر ، كما تقدم .

١٢- أن تناول المحرم بدون عذر إثم ومعصية .

١٣- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغفور ، والرحيم .

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) .

[البقرة : ١٧٤ – ١٧٦] .

(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ**) يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد e في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف ، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصل لهم من ذلك ، وهو نزر يسير ، فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير ، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة .

ولهذا قال تعالى :

(**وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً**) الضمير في قوله (به) يرجع إلى الشيء المكتوم ، أي : أنهم يشترون بالشيء الذي كتموه ثمناً قليلاً من متاع الدنيا ، كالرشا أو المناصب أو الجاه عند أتباعهم .

- معنى اشتروا : أي استعاضوا عنه بثمن قليل من المنافع الدنيوية .
- وسماه قليلاً لانقطاع مدته وسوء عاقبته .
- وفي الآية أن من موانع الهداية أن يكون للإنسان في الباطل شهرة ومكانة .
- وهذه الآية وإن كانت في اليهود لكنها لا تختص بهم ، فكل من كتم علماً فهو داخل في هذه الآية .
- **قال الشيخ ابن عثيمين** : المنحرف عن الدين وعن نشر العلم ينحرف لأحد سببين :

السبب الأول : خشية الناس .

السبب الثاني : الطمع في الدنيا .

قال تعالى في سورة المائدة (فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قليلاً) .

(**أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ**) أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) وفي الحديث الصحيح عن رسول الله e (إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم) .[تفسير ابن كثير: ٩٢/١]

وقيل : معنى (مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ) أي : أنه يوجب عليهم عذاب النار ، فسمى ما أكلوه (من الرشا وغيرها) ناراً لأنه يؤول بهم إليها ، وما ذكره ابن كثير أقرب وأصح .

- وهذا الحكم وإن كان خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ ، فهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله ، وأخذ عليه الرشا .

(**وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي : لا يكلمهم تكليم رضا ، فالنفي هنا ليس نفياً لمطلق الكلام ، وإلا فالله عز وجل يكلم الكفار ويوبخهم كما قال تعالى (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ) .

- يوم القيامة ، سمي بذلك :

أولاً : لأن الناس يقومون من قبورهم ، قال تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) .

ثانياً : ولقيام الأشهاد ، لقوله تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

ثالثاً : ولقيام الملائكة ، لقوله تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً ...) .

(**وَلا يُزَكِّيهِمْ**) أي : لا يثني عليهم بخير .

(**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي : موجع ، والعذاب هو : النكال والعقوبة .

(**أُولَئِكَ**) المشار إليهم (الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) .

(**الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى**) أي : (الَّذِينَ اشْتَرَوُا) أي : اختاروا واعتاضوا (الضَّلالَةَ) وهي هنا كتمان العلم ، وهو تكذيب النبي e وكتم صفته التي في كتبهم (بِالْهُدَى) وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به واتباعه وتصديقه .

- **قال أبو حيان :** وفي لفظ اشتروا إشعار بإيثارهم الضلالة والعذاب ، لأن الإنسان لا يشتري إلا ما كان له فيه رغبة ومودة ، واختيار وذلك يدل على نهاية الخسارة ، وعدم النظر في العواقب .
- **قال الشيخ ابن عثيمين:** (اشتروا) بمعنى اختاروا، ولكنه عبر بهذا، لأن المشتري طالب راغب في السلعة، فكان هؤلاء - والعياذ بالله - طالبون راغبون في الضلالة بمنزلة المشتري .

(**وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ**) أي : واختاروا العذاب بالمغفرة ، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة وهو كتم العلم .

(**فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**) هذه الآية للتعجب ، قال الطبري : أي : ما أجرأهم على النار ، أي : ما أجرأهم على عذاب النار وأعملهم بأعمال أهلها .

- **وقال ابن كثير :** يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذاً بالله من ذلك . [تفسير ابن كثير : ١ / ١٩٢] .

وقيل : إن (ما) استفهامية ، والمعنى : ما الذي أصبرهم على النار ؟ والقول الأول هو الصحيح وهو مذهب الجمهور كما ذكر ذلك الشوكاني .

(**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**) أي : ذلك العذاب الذي يجازون به بسبب كتمهم للكتاب ، بسبب أن الله أنزل الكتاب –التوراة – بالحق ، فكفروا به واختلفوا فيه .

وقيل : المراد ب (الكتاب) جنس الكتب ويشمل التوراة والإنجيل والقرآن .

(**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ**) قيل : المراد بالكتاب التوراة ، والذين اختلفوا فيه هم اليهود والنصارى ، وقيل : المراد بالكتاب القرآن ، والذين اختلفوا فيه هم اليهود والنصارى والمشركين ، فبعضهم يقول : هو سحر ، وبعضهم يقول : هو شعر ، وبعضهم يقول : كهانة .

(**لَفِي شِقَاقٍ بَعِيد**) أي : في خلاف بعيد عن الحق والصواب مستوجب لأشد العذاب .

الفوائد :

١ - تحريم كتم العلم .

٢ - أن كتم العلم من صفات اليهود .

٣ - عظم جرم كتم العلم .

٤ -وجوب نشر العلم .

٥ - أن الكتب منزلة من عند الله .

٦-علو الله عز وجل .
٧- أن متاع الدنيا قليل ولو كثر .
٨- خطر فتنة الدنيا ، ولذلك قال e (فاتقوا الدنيا ..) .
٩-إقامة العدل في الجزاء .
١٠-إثبات الكلام لله تعالى .

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)
[سورة البقرة: ١٧٧]

- -

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) لما أمر الله تعالى المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا قال (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...) وقال الثوري: (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ...) قال: هذه أنواع البر كلها. قال ابن كثير: وصدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله .

- البر اسم جامع للطاعات ، وأعمال الخير المقربة إلى الله تعالى .

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ) الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بوجود الله تعالى .

وقد دل على وجوده : الفطرة ، والعقل ، والشرع ، والحس .

أما دلالة الفطرة على وجوده : فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه .

وأما دلالة العقل على وجوده تعالى : فلأن هذه المخلوقات سابقها ولاحقها ، لا بد لها من خالق أوجدها ، إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها ، ولا يمكن أن توجد صدفة .

وأما دلالة الحس على وجود الله : فإننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين ، وغوث المكروبين ، ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى ، قال تعالى : (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) .

الثاني : الإيمان بربوبيته .

أي بأنه وحده الرب لا شريك له ولا معين .

الثالث : الإيمان بألوهيته .

أي بأنه وحده الإله لا شريك له .

الرابع : الإيمان بأسمائه وصفاته .

أي إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه ، أو سنة رسوله e من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) الإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور :

الأول : الإيمان بالبعث .

وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس لرب العالمين حفاة غير منتعلين .

الثاني : الإيمان بالحساب والجزاء .

الثالث : الإيمان بالجنة والنار ، وأنهما المآل الأبدي للخلق .

(**وَالْمَلائِكَةِ**) الملائكة : عالم غيبي مخلوقون ، عابدون لله تعالى ، وليس لهم من خصائص الروبية والألوهية شيء ، خلقهم الله تعالى من نور ، ومنحهم الانقياد التام لأمره ، والقوة على تنفيذه .

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بوجودهم .

الثاني : الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه ، كجبريل ، ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالاً .

الثالث : الإيمان بما علمنا من صفاتهم ، كصفة جبريل ، فقد أخبر النبي e أنه رآه على صفته التي خلق عليها وله ستمائة جناح قد سد الأفق .

الرابع : الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى ، وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة .

(**وَالْكِتَابِ**) اسم جنس يشمل جميع الكتب المنزلة على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله .

- والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن نزولها من عند الله حقاً .

الثاني : الإيمان بما علمنا اسمه من عند الله باسمه .

الثالث : تصديق ما صح من أخبارها ، كأخبار القرآن ، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة .

الرابع : العمل بأحكام ما لم ينسخ منها ، والرضا والتسليم به .

(**وَالنَّبِيِّينَ**) أي : وآمن برسل الله كلهم من أولهم إلى آخرهم .

والإيمان بالرسل والأنبياء يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى .

الثاني : الإيمان بمن علمنا اسمه منهم ، مثل : محمد ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونوح ، وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً .

الثالث : تصديق ما صح عنهم من أخبارهم .

الرابع : العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم ، وهو خاتمهم محمد e .

(**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ**) أي أخرجه وهو محب له راغب فيه، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً (أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتخشى الفقر) .

- وهذه الآية مثل : قوله تعالى (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً) .

وقوله (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

وقوله (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) .

- فقوله تعالى (على حبه) على حب المال ، هذا القول هو الصحيح ، وهو قول الأكثر ، خلافاً لمن قال إن الضمير في قوله (على حبه) يرجع إلى الله ، أو من قال يرجع إلى الإيتاء ، أي على حب الإيتاء .
- فإنفاق المال على حبه من أفضل القربات وأعظمها ، لأن المال محبوب للنفس .
- واختلف العلماء في هذه الآية (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ) فقيل: يَحْتَمِلُ بِهِ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الصَّدَقَةَ الْوَاجِبَةَ ويحتمل: أَنْ يُرِيدَ بِهِ التَّطَوُّعَ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا الْوَاجِبَةُ، وَإِنَّمَا فِيهَا حَثٌّ عَلَى الصَّدَقَةِ، وَوَعْدٌ بِالثَّوَابِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا فِيهَا أَنَّهَا مِنْ الْبِرِّ، وَهَذَا لَفْظٌ يَنْطَوِي عَلَى الْفَرْضِ وَالنَّفَلِ، إلَّا أَنَّ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ، وَنَسَقِ التِّلَاوَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الزَّكَاةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ) فَلَمَّا عَطَفَ الزَّكَاةَ عَلَيْهَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الزَّكَاةَ بِالصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلَهَا.
- **قال الرازي :** وهذا التأويل يدل على أن الصدقة حال الصحة أفضل منها عند القرب من الموت ، والعقل يدل على ذلك أيضاً من وجوه :

أحدها : أن عند الصحة يحصل ظن الحاجة إلى المال وعند ظن قرب الموت يحصل ظن الاستغناء عن المال ، وبذل الشيء عند الاحتياج إليه أدل على الطاعة من بذله عند الاستغناء عنه على ما قال (لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ) .

وثانيها : أن إعطاءه حال الصحة أدل على كونه متيقناً بالوعد والوعيد من إعطاءه حال المرض والموت .

وثالثها : أن إعطاءه حال الصحة أشق ، فيكون أكثر ثواباً قياساً على ما يبذله الفقير من جهد المقل فإنه يزيد ثوابه على ما يبذله الغني .

ورابعها : أن من كان ماله على شرف الزوال فوهبه لأحد مع العلم بأنه لو لم يهبه لضاع فإن هذه الهبة لا تكون مساوية لما إذا لم يكن خائفاً من ضياع المال ثم إنه وهبه منه طائعاً وراغباً فكذا ههنا .

وخامسها : أنه متأيد بقوله تعالى (لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ) وقوله (وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبّهِ) أي على حب الطعام .

- **وقال السعدي :** بيَّن به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد ، فمن أخرجه مع حبه له تقرباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه .

ومن إيتاء المال على حبه :أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة، كانت أفضل، لأنه في هذه الحال، يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر.

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه . (تفسير السعدي) .

(**ذَوِي الْقُرْبَى**) وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث (الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذوي الرحم ثنتان : صدقة وصلة) رواه الترمذي ، فهم أولى الناس بك وببرك وإحسانك ، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز .

(**وَالْيَتَامَى**) هم الذين لا كاسب لهم ، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب .

(**وَالْمَسَاكِينَ**) وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم .

- **قيل :** سمي المسكين بذلك لأن الفقر أسكنه ، **وقيل :** سمي بذلك لأنه ساكن إلى الناس من أجل أن يجد كفايته .

(**وَابْنَ السَّبِيلِ**) وهو المسافر المحتاز الذي قد فرغت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة الله، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه .

- والسبيل الطريق ، وسمي بابن السبيل لأنه ملازم لها .

(**وَالسَّائِلِينَ**) وهم الذين يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات .

(**وَفِي الرِّقَابِ**) وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم (والمكاتب : العبد إذا اشترى نفسه من سيده بمبلغ من المال على أقساط معلومة) ، ويدخل في الرقاب إعتاق العبيد ابتداء ، وكذلك يدخل فيه فك الأسارى .

(**وَأَقَامَ الصَّلاةَ**) أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي .

(**وَآتَى الزَّكَاةَ**) أي : وأعطى الزكاة الواجبة .

والزكاة : هي قدر واجب في مال مخصوص لطائفة أو جهة مخصوصة بشروط مخصوصة ، وسميت بذلك لأنها تزكي المال وصاحب المال (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) .

ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين قبل ذلك ، إنما هو التطوع والصلة .

(**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**) أي : ويوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) .

وقال تعالى (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) .

وعكس هذه الصفة النفاق كما في الحديث عنه **e** أنه قال (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان) متفق عليه .

(**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ**) أي في حال الفقر .

- **قال السعدي** : لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم ، وإن جاع أو جاعت عياله تألم ، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم ، وإن عرى أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم، فكل هذه ونحوها، مصائب، يؤمر بالصبر عليها، والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

(**وَالضَّرَّاءِ**) وفي حال المرض والأسقام ، وخصوصاً مع تطاول ذلك ، لأن النفس تضعف، والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، فإنه يؤمر بالصبر، احتساباً لثواب الله .

(**وَحِينَ الْبَأْسِ**) أي : في حال القتال والتقاء الأعداء .

قال السعدي : لأن الجلاد، يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً، ورجاء لثواب الله الذي منه النصر والمعونة، التي وعدها الصابرين.

- ونص على هذا الصبر في هذه المواضع لصعوبته وشدته .
- والبأس يطلق في القرآن على ٣ إطلاقات :

بمعنى العذاب : كقوله تعالى (لينذر بأساً شديداً من لدنه) وقوله (فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا) .

وبمعنى القتال والمعركة : كقوله تعالى (وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً) .

وبمعنى : الفقر والضيق : كقوله تعالى (مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ) .
(**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**) أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات ، هم الذين صدقوا في إيمانهم ، لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا .
(**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**) لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

- **قال القرطبيُّ :** تضمَّنت هذه الآية الكريمة ستَّ عشرة قاعدةً من أُمَّهات الأحكام :

الإيمان بالله وبأسمائه، وصفاته، والحشر ، والنشر ، والصراط ، والحوض ، والشَّفاعة ، والجنة ، والنار ، والملائكة ، والرُّسل ، والكتب المنزلة ، وأنَّها حقٌّ من عند الله ؛ كما تقدم ، والنَّبيين ، وإنفاق المال فيما يعنُّ له من الواجب ، والمندوب ، وإيصال القرابة ، وترك قطعهم ، وتفقُّد اليتيم ، وعدم إهماله المساكين كذلك ، ومراعاة ابن السبيل ، وهو : المسافر المنقطع ، **وقيل:** الضعيف ، والسُّؤَّال ، وفكّ الرقاب ، والمحافظة على الصَّلوات ، وإيتاء الزَّكاة ، والوفاء بالعهود ، والصَّبر في الشَّدائد ، وكلُّ قاعدةٍ من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب .

- **وقال ابن عاشور :** فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم. وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال .

فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها الأخوة والاتحاد وتسدد مصالح للأمة كثيرة، وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتى يصير الناس كلهم أحراراً. والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض.

والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة ولذلك قال تعالى هنا (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادعائياً للمبالغة، ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم ، لأنهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين ، ولأنهم حرموا كثيراً من الناس حقوقهم ، ولم يفوا بالعهد ، ولم يصبروا.

وفيها أيضاً تعريض بالمشركين إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر ، والنبيين ، والكتب وسلبوا اليتامى أموالهم ، ولم يقيموا الصلاة ، ولم يؤتوا الزكاة .

الفوائد :

١- أن البر حقيقة هو الإيمان بالله وما ذكره تعالى في هذه الآية .
٢- أن الإيمان باليوم بالآخر من أكبر الحوافز على الإيمان بالله ، ولذلك دائماً يقرن الله بينه وبين الإيمان به .
٣- وجوب الإيمان بالملائكة .
٤- وجوب الإيمان بالكتب .
٥- وجوب الإيمان بالرسل جميعهم وأنهم بلغوا الأمانة ونصحوا للأمة .
٦- فضل ومنزلة إعطاء المال على حبه وفي الحديث (والصدقة برهان) .
٧- أن المال محبوب للنفوس .
٨- أن إعطاء القريب من الصدقة وغيرها أفضل وأولى .
٩- فضل الصدقة على المسكين واليتيم وابن السبيل والسائلين .
١٠- أن إقامة الصلاة من البر .

١١- أن المعتبر إقامتها بخشوعها وأركانها ليس فقط فعلها جسدياً من غير خشوع .
١٢- الحرص والاجتهاد في إقامة الصلاة على أكمل الوجوه .
١٣- عظم منزلة الزكاة وأنها بعد الصلاة .
١٤- الثناء على الموفين بالعهد سواء مع الله أو مع الخلق .
١٥- فضل الصبر وأنه من أعلى المنازل .
١٦- أن من حقق هذه الصفات فقد صدق مع الله .
١٧- أن الصدق ليس بالدعاوى ولكن بالعمل والفعل .
١٨- أن القيام بالبر من التقوى .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
[سورة البقرة: ١٧٨]

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) أي : يا أيها الذين آمنوا بقلوبهم وانقادوا وعملوا بجوارحهم .

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات ، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي ، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وبكل ما يجب الإيمان به .
- والإيمان شرعاً : قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان .
- تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد :

الأولى : العناية والاهتمام به .

الثانية : الإغراء ، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان ، كما تقول يا ابن الأجود جُد .

الثالثة : أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان ، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان . (الشيخ ابن عثيمين) .

(**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**) أي : فرض عليكم المماثلة والعدل في القصاص حركم بحركم ، وعبدِكم بعبدِكم وأنثاكم بأنثاكم ، ولا تتجاوزا وتعتدوا فتقتلوا غير الجاني ، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء .

- **قال السعدي :** يمتن تعالى على عباده المؤمنين ، بأنه فرض عليهم (الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى) أي : المساواة فيه ، وأن يقتل القاتل على الصفة ، التي قتل عليها المقتول ، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين، فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول، إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل ، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ، ويمنعوا الولي من الاقتصاص ، كما عليه عادة الجاهلية ، ومن أشبههم من إيواء المحدثين .

- كتب عليكم : أي فرض عليكم .
- **قال الرازي :** قوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمْ) فمعناه : فرض عليكم فهذه اللفظة تقتضي الوجوب من وجهين :

أحدهما : أن قوله تعالى (كتب) يفيد الوجوب في عرف الشرع قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام) .

والثاني : لفظة (عَلَيْكُمْ) مشعرة بالوجوب كما في قوله تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت) .

والقصاص: لغة تتبع الأثر كالقصص، واصطلاحاً: هو أن يفعل بالجاني كما فَعل، إن قَتل قُتِل، وإن قطع طرفاً قُطِع طرفه، وهكذا .

- **قال الرازي :** أما القصاص فهو أن يفعل بالإنسان مثل ما فعل ، من قولك : اقتص فلان أثر فلان إذا فعل مثل فعله ، قال تعالى (فارتدا على ءاثَارِهِمَا قَصَصًا) وقال تعالى (وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصّيهِ) أي اتبعي أثره ، وسميت القصة قصة لأن بالحكاية تساوي المحكي ، وسمي القصص لأنه يذكر مثل أخبار الناس ، ويسمى المقص مقصاً لتعادل جانبيه .
- ففي هذه الآية وجوب القصاص ، لكن إذا عفا أولياء المقتول أو قبلوا الهدية سقط القصاص لقوله تعالى بعد ذلك (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) ولقوله e (ومن قتُل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يُودي وإما أن يُقاد) متفق عليه .
- قوله تعالى (الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ....) أي : فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به ، وإذا قتل العبدُ العبدَ فاقتلوه به ، وإذا قتلت الأنثى الأنثى فاقتلوا الأنثى ، وهذا لا إشكال فيه .
- وظاهر الآية أن الرجل لا يقتل بالمرأة لقوله (وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى) مع أن جماهير العلماء على أن الرجل يقتل بالمرأة بل نقل بعضهم الإجماع كالقرطبي ، ويدل لذلك حديث أنس (أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها فقتلها بحجر فجيء بها إلى النبي e وبها رمق ، فقال : أقتلك فلان ؟ فأشارت برأسها أن لا ، ثم قال الثانية فأشارت برأسها أن لا ، ثم سألها الثالثة فأشارت برأسها أن نعم ، فقتله النبي e بحجرين) متفق عليه .

والجواب عن ظاهر الآية :

أولاً : قال بعض العلماء : إن الآية نزلت في قوم لا يرضون إذا قُتل العبد منهم أن يقتل قاتله العبد من القبيلة التي تركته ويقولون لا نرضى مقابله إلا رجلاً حراً أفضل من قاتله ، وإذا قتلت امرأة من غيرهم امرأة منهم لا يرضون بقتل المرأة القاتلة فقط ولكنهم يقولون نقتل مكانها رجلاً ، وإذا قُتل منهم حر قالوا لا نرض بأن نقتل قاتله فقط بل لا بد أن نقتل أكثر من قاتله فنزلت الآية فيهم .

ثانياً : أنها منسوخة بقوله تعالى (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) .

(**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**) أي : إذا عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية ، أو عفا بعض الأولياء ، فإنه يسقط القصاص وتجب الدية .

- **قال الشيخ ابن عثيمين** (فمن عفي له) المعفو عنه القاتل (من أخيه) المراد به المقتول – أي من دم أخيه – فأيّ قاتل عفي له من دم أخيه شيء سقط القصاص .
- **قال السعدي** (فمن عفي له من أخيه) ترقيق وحث على العفو إلى الدية ، وأحسن من ذلك العفو مجاناً .
- **وقال الخازن :** (فمن عفي له من أخيه شيء) أي : ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد ، ورضي بالدية أو العفو عنها ، أو قبول الدية في قتل العمد من أخيه أي من دم أخيه وأراد بالأخ ولي المقتول ، وإنما قيل له أخ لأنه لابسه من قبل أنه ولي الدم والمطالب به. وقيل : إنما ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بما هو ثابت بينهما من الجنسية وأخوة الإسلام .
- **وقال ابن عاشور** (فمن عفي له) هو ولي المقتول وإن المراد بأخيه هو القاتل وصفاً بأنه أخ تذكيراً بأخوة الإسلام وترقيقاً لنفس ولي المقتول ؛ لأنه إذا اعتبر القاتل أخاً له كان من المروءة ألا يرضى بالقَوَد منه ؛ لأنه كمن رضي بقتل أخيه .

وقال : في قوله (وأخيه) دليل على أن القاتل لا يكفر ، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان ، فلم يخرج بالقتل منها ، ومن باب أولى سائر المعاصي التي هي دون الكفر ، ولا يكفر بها فاعلها ، وإنما ينقص بذلك إيمانه .

(**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**) أي : فإذا عفى عنه، وجب على الولي (أي ولي المقتول) أن يتبع القاتل ويطالبه (بالمعروف) من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق ، بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يحرجه .

- **قال الخازن** (فاتباع بالمعروف) أي : فليتبع الولي القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه ولا يعنفه .
- **قال الرازي** : الاتباع بالمعروف أن لا يشدد بالمطالبة ، بل يجرى فيها على العادة المألوفة فإن كان معسراً فالنظرة ، وإن كان واجداً لعين المال فإنه لا يطالبه بالزيادة على قدر الحق ، وإن كان واجداً لغير المال الواجب ، فالإمهال إلى أن يبتاع ويستبدل ، وأن لا يمنعه بسبب الاتباع عن تقديم الأهم من الواجبات .

(**وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**) وعلى القاتل [أداء إليه بإحسان] من غير مطل ولا نقص ولا إساءة فِعْليّة أو قولية، فهل جزاء الإحسان بالعفو، إلا الإحسان بحسن القضاء، فكما أنه عفَى عنه فينبغي أن يحسن إليه بحسن القضاء . فالضمير في قوله (إليه) يعود على العافي بإحسان ، والمؤدَّى : ما وقع الاتفاق عليه .

- **قال الرازي** : فأما الأداء بإحسان فالمراد به أن لا يدعي الإعدام في حال الإمكان ولا يؤخره مع الوجود ، ولا يقدم ما ليس بواجب عليه ، وأن يؤدي ذلك المال على بشر وطلاقة وقول جميل .
- **قال الخازن** (وأداء إليه بإحسان) أي : على القاتل أداء الدية إلى ولي الدم من غير مماطلة ، أمر كل واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه .
- وحسن القضاء هذا مأمور به في كل ما يثبت في ذمم الناس للإنسان ، مأمور من له حق بالاتباع بالمعروف ، ومن عليه الحق بالأداء بالإحسان .

(**ذَلِكَ**) المشار إليه كل ما سبق من جواز العفو إلى الدية .

(**تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ**) إشارة إلى ما شرعه لهذه الأمة ، من أخذ الدية ، وكانت بنو إسرائيل لا ديَةَ عندهم ، إنما هو القِصَاصُ فَقَط .

(**وَرَحْمَةٌ**) بالجميع ، بالقاتل ، حيث سقط عنه القتل ، وبأولياء المقتول حيث أبيح لهم أن يأخذوا العوض .

(**فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ**) أي : فمن اعتدى بعد أخذ الدية وقبولها .

- **قال الرازي** : المراد أن لا يقتل بعد العفو والدية ، وذلك لأن أهل الجاهلية إذا عفوا وأخذوا الدية ، ثم ظفروا بعد ذلك بالقاتل قتلوه ، فنهى الله عن ذلك .

وقيل المراد : أن يقتل غير قاتله ، أو أكثر من قاتله أو طلب أكثر مما وجب له من الدية أو جاوز الحد بعد ما بين له كيفية القصاص ويجب أن يحمل على الجميع لعموم اللفظ .

(**فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) عذاب أليم موجع شديد يوم القيامة وقد جاء في الحديث (من أصيب بقتل فإنه يختار إحدى ثلاث : إما أن يقتص منه ، وإما أن يعفو ، وإما أن يأخذ الدية ، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها) رواه أحمد .

وقيل : العذاب في الدنيا : القتل في الدنيا ، لأنه قتله بعد عفوه وأخذ الدية منه ، فلما قتله بعد ذلك صار معتدياً قاتلاً فوجب قتله .

ورجح الرازي الأول وقال المراد العذاب الأليم في الآخرة ، وضعف القول الثاني وأن المراد به العذاب في الدنيا ، لأن المفهوم من العذاب الأليم عند الإطلاق هو عذاب الآخرة .

الفوائد :

١- وجوب إقامة القصاص .

٢- أن تنفيذ القصاص من مقتضى الإيمان ، لأن الخطاب موجه للمؤمنين .

٣- أن ترك تنفيذه نقص في الإيمان .

٤- أن الذكر يقتل بالذكر ، وهذا بالإجماع ، لقوله (الحر بالحر) لكن يشترط أن يكون القاتل مكلفاً ، فأما الصبي والمجنون فلا قصاص عليهما بلا خلاف . قاله في الشرح .

ويشترط أن يكون المقتول معصوماً ، فلا يجب القصاص بقتل حربي .

والمعصوم هو المسلم والذمي والمعاهد والمستأمن .

٥- أن العبد يقتل بالعبد ، لقوله (والعبد بالعبد) .

واختلف العلماء : هل يقتل الحر بالعبد ؟

القول الأول : أن الحر يقتل بالعبد .

وهذا مذهب الجمهور . الأدلة :

قوله تعالى : (الحر بالحر ...) .

ولحديث ابن عباس : (لا يقتل حر بعبد) رواه الدار قطني وفيه ضعف

القول الثاني : أن الحر يقتل بالعبد .

وهذا مذهب الأحناف ، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ، لقوله تعالى : (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) .

قال ابن كثير : ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد ، لعموم آية المائدة ، وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود ، وهو مروي عن علي وابن مسعود وإبراهيم النخعي وقتادة والحكم .

وأما قوله : (الحر بالحر) فقد اختلف في تأويلها :

فقالت طائفة : جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قتل نوعه ، فبينت حكم الحر إذا قتل حراً ، والعبد إذا قتل عبداً ، والأنثى إذا قتلت أنثى ، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر ، فالآية محكمة وفيها إجمال بينه قوله تعالى : (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) وبينه النبي e بسنته لما قتل اليهودي بالمرأة . قاله مجاهد.

وروي عن ابن عباس أنها منسوخة بآية المائدة .

٦- أن الأنثى تقتل بالأنثى .

لقوله تعالى : (وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى) .

وتقتل المرأة بالرجل والرجل بالمرأة .

قال القرطبي : وأجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل .

وقال في المغني : وهذا قول أكثر أهل العلم .

لقوله تعالى : (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) .

ولما رواه أنس أن النبي e قتل يهودياً بجارية قتلها على أوضاح لها . رواه البخاري

- هل يقتل أحد الأبوين بالولد ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أنه لا يقتل الوالد بولده .

لحديث عمر قال : سمعت النبي e يقول (لا يقاد الوالد بولده) رواه أحمد

قال الترمذي بعد إخراجه : والعمل على هذا عند أهل العلم ، أن الأب إذا قتل ابنه لا يقتل بولده .

ولأن الأب هو سبب لوجود الابن .

وقال بعض العلماء : إن الوالد يقتل بالولد .

وهذا قول ابن نافع وابن الحكم وابن المنذر ، لعموم قوله تعالى : (النفس بالنفس) ورجحه الشيخ محمد رحمه الله .

- لا يقتل مسلم بكافر .

قال في الشرح : هذا قول أكثر أهل العلم ، وروي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت ومعاوية ، وهو قول جمهور العلماء .

لحديث : (لا يقتل مؤمن بكافر) رواه أبو داود

وأما الكافر فيقتل بالمسلم بإجماع العلماء ، كما في الصحيح أن النبي e قتل يهودياً رضخ رأس جارية من الأنصار .

ولأن المسلم أعلى مرتبة بإسلامه من الكافر .

٧- فضيلة العفو في القصاص .

قال في الشرح : وهو أفضل بالإجماع .

لقوله تعالى : (فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) وقوله : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) .

واختار شيخ الإسلام أنه إذا كان القاتل معروفاً بالشر والفساد ، فإن القصاص منه أفضل

٨- في قوله (أخيه) قال الشيخ السعدي : دليل على أن القاتل لا يكفر ، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان ، فلم يخرج بالقتل منها ، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر ؛ لا يكفر بها فاعلها ، وإنما ينقص بذلك إيمانه .

٩- أن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان .

١٠- الرد على الخوارج والمعتزلة .

١١- وجوب الأداء على القاتل بالإحسان بلا مماطلة ولا تأخير .

١٢- أن المعتدي بعد انتهاء القصاص أو أخذ الدية متوعد بالعذاب الأليم .

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: ١٧٩]

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم، وهو قتل القاتل، حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل ، أنكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفوس ، وفي الكتب المتقدمة : القتل أنفى للقتل ، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل ، فتمنعه مخافة أن يقتل . (ابن كثير) .

- **قال البقاعي** (ولكم) أي يا أيها الذين آمنوا (في القصاص) أي : هذا الجنس وهو قتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة من غير مجاوزة ولا عدوان (حياة) أي :عظيمة بديعة لأن من علم أنه يُقتل لا يَقْتُل.
- **قال الرازي :** اعلم أنه ليس المراد من هذه الآية أن نفس القصاص حياة ، لأن القصاص إزالة للحياة وإزالة الشيء يمتنع أن تكون نفس ذلك الشيء ، بل المراد أن شرع القصاص يفضي إلى الحياة في حق من يريد أن يكون قاتلاً ، وفي حق من يراد

جعله مقتولاً ، وفي حق غيرهما أيضاً ، أما في حق من يريد أن يكون قاتلاً فلأنه إذا علم أنه لو قَتل قُتل ترك القتل فلا يقتل فيبقى حياً ، وأما في حق من يراد جعله مقتولاً فلأن من أراد قتله إذا خاف من القصاص ترك قتله فيبقى غير مقتول ، وأما في حق غيرهما فلأن في شرع القصاص بقاء من هَمّ بالقتل ، أو من يهم به وفي بقائهما بقاء من يتعصب لهما ، لأن الفتنة تعظم بسبب القتل فتؤدي إلى المحاربة التي تنتهي إلى قتل عالم من الناس ، وفي تصور كون القصاص مشروعاً زوال كل ذلك وفي زواله حياة الكل .

- **وقال الرازي :** اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعاني باللغة بالغة إلى أعلى الدرجات ، وذلك لأن العرب عبروا عن هذا المعنى بألفاظ كثير ، كقولهم : قتل البعض إحياء للجميع ، وقول آخرين : أكثروا القتل ليقل القتل ، وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم : القتل أنفى للقتل ، ثم إن لفظ القرآن أفصح من هذا ، وبيان التفاوت من وجوه :

أحدها : أن قوله (وَلَكُمْ فِي القصاص حياة) أخصر من الكل ، لأن قوله (وَلَكُمْ) لا يدخل في هذا الباب ، إذ لا بد في الجميع من تقدير ذلك ، لأن قول القائل : قتل البعض إحياء للجميع لا بد فيه من تقدير مثله ، وكذلك في قولهم : القتل أنفى للقتل فإذا تأملت علمت أن قوله (فِي القصاص حياة) أشد اختصاراً من قولهم : القتل أنفى للقتل .

وثانيها : أن قولهم : القتل أنفى للقتل ظاهرة يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال ، وقوله (فِي القصاص حياة) ليس كذلك ، لأن المذكور هو نوع من القتل وهو القصاص ، ثم ما جعله سبباً لمطلق الحياة لأنه ذكر الحياة منكرة ، بل جعله سبباً لنوع من أنواع الحياة .

وثالثها : أن قولهم القتل أنفى للقتل ، فيه تكرار للفظ القتل وليس قوله (فِي القصاص حياة) كذلك.

ورابعها : أن قول القائل : القتل أنفى للقتل لا يفيد إلا الردع عن القتل ، وقوله (فِي القصاص حياة) يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرهما فهو أجمع للفوائد .

وخامسها : أن نفي القتل مطلوب تبعاً من حيث إنه يتضمن حصول الحياة ، وأما الآية فإنها دالة على حصول الحياة وهو مقصود أصلي ، فكان هذا أولى .

- **وقال الإمام السيوطي :** وقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) فإن معناه كثير ، ولفظه قليل ، لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتل قُتل كان ذلك داعياً إلى أن لا يقدم على القتل ، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ، وكان ارتفاع القتل حياة لهم.

وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى وهو قولهم : القتل أنفى للقتل بعشرين وجهاً أو أكثر .

(يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) يقول : يا أولي العقول والأفهام والنهى .

- قيل : إنما خصهم بالنداء مع أن الخطاب السابق عام لأنهم أهل التأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس .

قال ابن عاشور : (يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) فالمراد به العقلاء الذين يعرفون العواقب ويعلمون جهات الخوف، فإذا أرادوا الإقدام على قتل أعداءهم، وعلموا أنهم يطالبون بالقود صار ذلك رادعاً لهم، لأن العاقل لا يريد إتلاف غيره بإتلاف نفسه، فإذا خاف ذلك كان خوفه سبباً للكف والامتناع ، إلا أن هذا الخوف إنما يتولد من الفكر الذي ذكرناه ممن له عقل يهديه إلى هذا الفكر ، فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر لا يحصل له هذا الخوف ، فلهذا السبب خص الله سبحانه بهذا الخطاب أولي الألباب.

(**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه ، لأن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة ، والحكم البديعة ، والآيات الرفيعة ، أوجب ذلك أن ينقاد لأمر الله ، ويعظم معاصيه فيتركها ، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين .

- والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

الفوائد :

١- الحكمة العظمى في القصاص وهي الحياة الكاملة .

٢- أن أحكام الله كلها غاية في الحكمة والعلم .

٣- فضل معرفة حكم الله في تشريعاته وأحكامه .

٤- أن يُفعل بالجاني كما فَعل ، لأن بذلك يتم القصاص .

٥- أن من فوائد القصاص أن يتقي الجناة القتل ، واتقاهم للقتل من تقوى الله .

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ . فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

[سورة البقرة : ١٨٠-١٨٢]

(**كُتِبَ عَلَيْكُمْ**) أي فرض عليكم يا معشر المؤمنين .

(**إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**) أي أسبابه ، كالمرض المشرف على الهلاك ، وحضور أسباب المهالك .

(**إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ**) وهو المال الكثير عرفاً ، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف ، على قدر حاله من غير سرف ، ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب .

- **قال القرطبي :** قوله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمْ) هذه آية الوصية ، وليس في القرآن ذكر للوصية إلا في هذه الآية ، وفي " النساء" (مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ) وفي " المائدة" (حِينَ الوصية) والتي في البقرة أتمها وأكملها ونزلت قبل نزول الفرائض والمواريث .

قوله تعالى (إن ترك خيراً) قال الرازي :فلا خلاف أنه المال ههنا ، والخير يراد به المال في كثير من القرآن كقوله (وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ) (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير) ، والمراد بالمال هنا الكثير : ويدل لهذا وجوه :

أولاً : أن من ترك درهماً لا يقال : إنه ترك خيراً، كما يقال : فلان ذو مال، فإنما يراد تعظيم ماله ومجاوزته حد أهل الحاجة، وإن كان اسم المال قد يقع في الحقيقة على كل ما يتموله الإنسان من قليل أو كثير ، وكذلك إذا قيل : فلان في نعمة ، وفي رفاهية من العيش ، فإنما يراد به تكثير النعمة ، وإن كان أحد لا ينفك عن نعمة الله .

ثانياً : لو كانت الوصية واجبة في كل ما ترك ، سواء كان قليلاً ، أو كثيراً ، لما كان التقييد بقوله (إِن تَرَكَ خَيْرًا) كلاماً مفيداً ، لأن كل أحد لا بد وأن يترك شيئاً ما ، قليلاً كان أو كثيراً ، أما الذي يموت عرياناً ولا يبقى معه كسرة خبز ، ولا قدر من الكرباس الذي يستر به عورته ، فذاك في غاية الندرة .

- قال الخازن (إن ترك خيراً) يعني مالاً، قيل يطلق على القليل والكثير وهو قول الزهري، فتجب الوصية في الكل، وقيل : إن لفظة الخير لا تطلق إلاّ على المال الكثير وهو قول الأكثرين .

- والمراد بالمعروف : أن يوصي لأقربيه وصيةً لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير ، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال (يا رسول الله! إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنةٌ لي، أفأوصي بثلثيْ مالي؟ قال: لا، قال : فبالشطر؟ قال: لا، قال: فالثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير، إنك أن تذرَ ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس) متفق عليه .

§ اختلف العلماء في هذه الآية التي تدل على وجوب الوصية ، هل هي منسوخة أم لا ؟

القول الأول : أنها منسوخة .

ومن المفسرين الذين قالوا بالنسخ : الزمخشري ، وابن عطية ، والرازي ، والألوسي ، وابن عاشور .

فذهب جمهور أهل التفسير والفقه : إلى أنها منسوخة بآية المواريث (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ...) .

وبعضهم يرى أنها منسوخة بحديث (إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) . رواه الترمذي

ورجح هذا القول ابن كثير .

وذهب بعضهم إلى عدم النسخ ، وأنه يمكن الجمع ، فقالوا : وهنا يمكن الجمع عن طريق التخصيص ، بأن يخرج من الآية الوارث منهما فلا وصية له بمقتضى الحديث ، فتكون الآية في حق غير الوارث ، ويكون الحديث في حق الوارث .

ورجح عدم النسخ السعدي وقال بالجمع حيث قال : واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث ، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين ، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل ، والأحسن في هذا أن يقال : إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة ، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري .

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث ، بعد أن كان مجملاً وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف ، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره ، وهذا القول تتفق عليه الأمة ، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين ، لأن كلاً من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظاً ، واختلف المورد.

فبهذا الجمع ، يحصل الاتفاق ، والجمع بين الآيات ، لأنه مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح .

- قوله تعالى (إن تَرَكَ خَيْراً) لم يبين الله عز وجل في كتابه مقدار ما يوصى به من المال ، لكن بينت السنة على أنه يجوز الوصية بالثلث ، لحديث سعد أن رسول الله e قال له : (الثلث والثلث كثير) متفق عليه

والأفضل أن يوصي بالخمس، اقتداء بأبي بكر فإنه أوصى بالخمس وقال (رضيت بما رضي الله به لنفسه) يعني قوله (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) .

(**حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ**) قال ابن عاشور : لم خص هذا الحق بالمتقين ؟

وخص هذا الحق بالمتقين ترغيباً في الرضى به ؛ لأن ما كان من شأن المتقي فهو أمر نفيس فليس في الآية دليل على أن هذا الوجوب على المتقين دون غيرهم من العصاة ، بل معناه أن هذا الحكم هو من التقوى وأن غيره معصية ، وقال ابن عطية : خص المتقون بالذكر تشريفاً للرتبة ليتبارى الناس إليها.

- **بعض أحكام الوصية :**

o **تعريفها :**

الوصية : هي الأمر بالتبرع بالمال بعد الموت ، أو الأمر بالتصرف بعد الموت .

مثال تبرع بالمال : أوصيت لفلان بعد موتي بـ (١٠٠) درهم .

مثال تصرف : وَصِيٌّ على أولادي الصغار فلان من الناس .

o تجري الوصية في الأحكام التكليفية الخمسة :

١. الاستحباب : تستحب الوصية لمن ترك خيراً ، وهو المال الكثير .

٢. لا تجوز الوصية بأكثر من الثلث لغير الوارث ، لحديث سعد : (الثلث والثلث كثير) .

ولا تجوز الوصية لوارث بشيء ، وهذا بالإجماع .

٣. تكره وصية فقير محتاج ، لأن هذا يضر بالوارث .

٤. تجوز بالمال كله لكن لا وارث له .

٥. تجب الوصية على من عليه دين لا بينة به . مثال : إنسان في ذمته دين لشخص ، وليس لصاحب الحق بينة ، فهنا يجب أن يوصي حتى لا يضيع الحق .

o يجوز الرجوع في الوصية من الموصي وتغييرها ، لأن الوصية لا تثبت إلا بعد الموت ، أما قبل الموت فهو حر .

(**فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ**) يقول تعالى : فمن بدل الوصية وحرفها ، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى .

كمن أوصى لفلان من الناس ، فجاء أحد الورثة وكتم هذه الوصية لئلا يذهب شيء من الميراث .

- **قال القرطبيُّ** : لا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز ؛ مثل : أن يوصي بخمرٍ ، أو خنزير ، أو شيءٍ من المعاصي ، فإنه لا يجوز إمضاؤه ، ويجوز تبديله .
- قوله تعالى (فمن بدله) عائد إلى الوصية ، مع أن الكناية المذكورة مذكرة والوصية مؤنثة ، وذكروا فيه وجوهاً :

أحدها : أن الوصية بمعنى الإيصاء ودالة عليه، كقوله تعالى (فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ) أي وعظ، والتقدير: فمن بدل ما قاله الميت، أو ما أوصى به أو سمعه عنه .

وثانيها : قيل الهاء راجعة إلى الحكم والفرض، والتقدير: فمن بدل الأمر المقدم ذكره .

وثالثها : أن الضمير عائد إلى ما أوصى به الميت فلذلك ذكره ، وإن كانت الوصية مؤنثة .

ورابعها : أن الكناية تعود إلى معنى الوصية وهو قول أو فعل .

(**فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ**) قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدّلوا ذلك.

(**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم**) تهديد ووعيد ، أي : قد اطلع على ما أوصى به الميت ، وهو عليم بذلك وبما بدّله الموصَى إليهم .

قال ابن عاشور : (إن الله سميع عليم) وعيد للمبدل ، لأن الله لا يخفى عليه شيء وإن تحيل الناس لإبطال الحقوق بوجوه الحيل ، وجارُوا بأنواع الجور فالله سميع وصية الموصي ويعلم فعل المبدل ، وإذا كان سميعاً عليماً وهو قادر فلا حائل بينه وبين مجازاة المبدل .

- والسميع : اسم من أسماء الله متضمن لصفة السمع لله تعالى ، فهو سبحانه يسمع جميع الأقوال والأصوات ، السر والجهر عنده سواء .

كما قال تعالى (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وقال تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) .

- وسمع الله ينقسم إلى قسمين :

أولاً : سمع إدراك : أي أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظهر .

قال تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي...) .

هذا السمع قد يراد به الإحاطة ، كالآية السابقة .

وقد يراد به التهديد ، كقوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء) .

وقد يراد به التأييد ، ومنه قوله تعالى لموسى : (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) أي أسمعك وأؤيدك .

ثانياً : سمع إجابة : أي أن الله يستجيب لمن دعاه .

ومنه قول إبراهيم : (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء) أي مجيب الدعاء .

ومنه قول المصلي : (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده .

- وسمع الله ليس كسمع أحد من خلقه ، فإن الخلق وإن وصفوا بالسمع والبصر كما في قوله تعالى (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) ، لكن هيهات أن يكون سمعهم وبصرهم كسمع وبصر خالقهم جل شأنه ، قد نفى الرب سبحانه المشابهة عن نفسه بقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) لأن سمع الله وبصره مستغرق لجميع المسموعات والمرئيات ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن دق وخفي سراً كان أو جهراً .
- والله هو السميع الذي يسمع المناجاة ويجيب الدعاء عند الاضطرار، ويكشف السوء ويقبل الطاعة ، وقد دعا الأنبياء والصالحون ربهم سبحانه بهذا الاسم ليقبل منهم طاعتهم أو ليستجيب لدعائهم ، فإبراهيم وإسماعيل قالا (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وامرأة عمران عندما نذرت ما في بطنها خالصاً لله لعبادته ولخدمة بيت المقدس قالت (فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

ودعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية صالحة ثم قال (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) .

ودعا يوسف **u** ربه أن يصرف عنه كيد النسوة (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وأمر بالالتجاء إليه عند حصول وساوس شياطين الإنس والجن قال تعالى (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

(**عَلِيمٌ**) أي : قد اطلع على ما أوصى به الميت ، وهو عليم بذلك ، وبما بدّله الموصي إليهم .

- وفي الآية وعيد شديد .

(فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً) الخطاب لجميع المسلمين ، قيل لهم : إن خفتم من موص ميلاً في الوصية ، وعدولاً عن الحق .

- الجنف ، الميل ، وذلك بأن يقع منه بغير قصد لجهله .
- **قال الرازي :** اعلم أنه تعالى لما توعد من يبدل الوصية ، بين أن المراد بذلك التبديل أن يبدله عن الحق إلى الباطل ، أما إذا غيره عن باطل إلى حق على طريق الإصلاح فقد أحسن ، وهو المراد من قوله (فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ) لأن الإصلاح يقتضي ضرباً من التبديل والتغيير فذكر تعالى الفرق بين هذا التبديل وبين ذلك التبديل الأول ، بأن أوجب الإثم في الأول وأزاله عن الثاني بعد اشتراكهما في كونهما تبديلين وتغييرين ، لئلا يقدر أن حكمهما واحد في هذا الباب.
- قوله تعالى (فمن خاف) بعض العلماء فسره بالعلم فقال (فمن خاف) أي : من علِم ، وبعضهم فسرها على بابها .

(**أَوْ إِثْماً**) أي: ووقوعاً في إثم – عن عمد - ولم يخرجها بالمعروف، وذلك بأن يوصي بالمال إلى زوج ابنته ، أو لولد ابنته، لينصرف المال إلى ابنته ، أو إلى ابن ابنه ، والغرض أن ينصرف المال إلى ابنه ، أو أوصى لبعيد وترك القريب .

(**فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ**) أي : أصلح الوصية وبدل فيها وغيرها إلى الوجه الصحيح الشرعي ، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل بشيء .

وقيل **:** أصلح بينهم **:** بين الموصِي والموصَى له وبين الورثة ، وهذا اختيار ابن جرير .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال في تأويل الآية أن يكون تأويلها : فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً ، وهو أن يميل إلى غير الحق خطأً منه، أو يتعمد إثماً في وصيته بأن يوصي لوالديه وأقربيه الذين لا يرثونه بأكثر مما يجوز له أن يوصي لهم به من ماله، وغيّر ما أذن الله له به مما جاوز الثلث ، أو بالثلث كله ، وفي المال قلة ، وفي الورثة كثرة ، فلا بأس على من حضره أن يصلح بين الذين يوصَى لهم وبين ورثة الميت وبين الميت، بأن يأمر الميت في ذلك بالمعروف، ويعرّفه ما أباح الله له في ذلك، وأذن له فيه من الوصية في ماله ، وينهاه أن يجاوز في وصيته المعروف الذي قال الله تعالى ذكره في كتابه (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ) وذلك هو الإصلاح الذي قال الله تعالى (فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ) وكذلك إذا كان في المال فضل وكثرة، وفي الورثة قلة، فأراد أن يقصّر في وصيته لوالديه وأقربيه عن ثلثه، فأصلح من حضره بينه وبين ورثته وبين والديه وأقربيه الذين يريد أن يوصي لهم بأن يأمر المريض أن يزيد في وصيته لهم ، ويبلغ بها ما رخص الله فيه من الثلث ، فلذلك أيضاً هو من الإصلاح بينهم بالمعروف .

- والإصلاح فرض على الكفاية ، فإذا قام أحدهم به ، سقط عن الباقين ، وإن لم يفعلوا أثم الكل .

(**إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ**) الغفور اسم من أسماء الله متضمن للمغفرة الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) ، وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (ورحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله e قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه – عز وجل – حتى يضع كنفه – أي ستره ورحمته – فيقرره بذنوبه ، فيقول **:** أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم ، أي ربي ، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال الله **:** سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري ومسلم .

ومنه سمي المغفر ، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام .

- فمهما عظمت ذنوب العبد فإن مغفرة الله ورحمته أعظم كما قال تعالى (إن ربك وسع المغفرة) .

وقد تكفل الله بالمغفرة لمن تاب (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) .

بل من فضله وجوده وكرمه أن تعهد بأن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات قال تعالى عن التائبين (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

(**رَحِيمٌ**) اسم من أسماء الله ، متضمن لصفة الرحمة لله الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) .

الفوائد :

١ - مشروعية الوصية .

٢ - أن الوصية تكون مستحبة لمن ترك مالاً كثيراً .

٣-تأكيد الوصية على من ترك مالاً كثيراً .

٤- أن المتقين هم الذين يراعون فرائض الله .

٥- أن من فعل الخير ثم غُيّر بعده كتِبَ له ما أراد .

٦- أن من بدل الوصية جهلاً فلا إثم عليه .

٧- تحريم تغيير الوصية .

٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : السميع – العليم .

٩- أن من خاف جوراً أو معصية من موص فإنه يصلح .

١٠- رفع الإثم عن الوصي إذا أصلح لخوفه جنفاً أو إثماً .

١١- فضيلة الإصلاح .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة : ١٨٣ – ١٨٤] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة ، وآمراً لهم بالصيام ، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع ، بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة ، وذكر كما أنه أوجبه عليهم فقد أوجبهم على من كان قبلهم فلهم فيهم أسوة ، وليجتهد هؤلاء في أداء الفرض أكمل مما فعله أولئك ، كما قال تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) ولهذا قال هاهنا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) .

- **قال الرازي :** قوله تعالى (كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) في هذا التشبيه قولان :

أحدهما : أنه عائد إلى أصل إيجاب الصوم، يعني هذه العبادة كانت مكتوبة واجبة على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم.

والقول الثاني : أن التشبيه يعود إلى وقت الصوم وإلى قدره .

- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (كما كتب على الذين من قبلكم) تشبيه في أصل فرض ماهية الصوم لا في الكيفيات ، والتشبيهُ يكتفَى فيه ببعض وجوه المشابهة وهو وجه الشبه المراد في القصد ، وليس المقصود من هذا التشبيه الحوالةَ في صفة الصوم على ما كان عليه عند الأمم السابقة ، ولكن فيهم أغراضاً ثلاثة تضمنها التشبيه :

أحدها : الاهتمام بهذه العبادة ، والتنويه بها لأنها شرعَها الله قبلَ الإسلام لمن كانوا قبل المسلمين ، وشرعها للمسلمين ، وذلك يقتضي اطِّراد صلاحها ووفرة ثوابها ، وإنهاض همم المسلمين لتلقي هذه العبادة كي لا يتميز بها من كان قبلهم .

والغرض الثاني : أن في التشبيه بالسابقين تهويناً على المكلفين بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم ؛ فإن في الاقتداء بالغير أسوة في المصاعب ، فهذه فائدة لمن قد يستعظم الصوم من المشركين فيمنعه وجوده في الإسلام من الإيمان ولمن يستثقله من قريبي العهد بالإسلام ، وقد أكّد هذا المعنى الضّمني قوله بعده (أياماً معدودات) .

والغرض الثالث : إثارة العزائم للقيام بهذه الفريضة حتى لا يكونوا مقصرين في قبول هذا الفرض بل ليأخذوه بقوة تفوق ما أدى به الأمم السابقة .

- **قال القفال رحمه الله :** انظروا إلى عجيب ما نبّه الله عليه من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف ، فقد نبّه إلى ما يلي :

أولاً : أنّ لهذه الأمة في شريعة الصيام أسوة بالأمم المتقدمة .

ثانياً : أن الصوم سبب لحصول التقوى ، فلو لم يُفرض لفات هذا المقصود الشريف .

ثالثاً : أنه مختص بأيام معدودات ، فإنه لو جعله أبداً لحصلت المشقة العظيمة .

رابعاً : أنه خصّه من بين الشهور بالشهر الذي أُنزل فيه القرآن ، لكونه أشرف الشهور .

خامساً : إزالة المشقة في إلزامه - فقد أباح تأخيره لمن يشق عليه من المسافرين والمرضى - فهو سبحانه قد راعى في فريضة الصيام هذه الوجوه من الرحمة ، فله الحمد على نعمه التي لا تحصى .

(**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) بيان لحكمة الصيام وما لأجله شرع .

فالصيام فيه تقوى لله ، لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان ، ولهذا ثبت في الصحيحين (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) .

- قال القاسمي (لعلكم تتقون) تأكيد للحكم ، وترغيب فيه ، وتطييب لأنفس المخاطبين به ، فإن الشاق إذا عمّ سهل عمله . والمماثلة إنما هي في أصل الوجوب لا في الوقت والمقدار ، وفيه دليل على أن الصوم عبادة قديمة .
- فالصوم شرع من أجل حصول التقوى .
- قال ابن رجب الحنبلي : الصيام يقي صاحبه من المعاصي في الدنيا كما قال عز وجل (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) فإذا كان له جنة من المعاصي كان له في الآخرة جنة من النار ومن لم يكن له جنة في الدنيا من المعاصي لم يكن له جنة في الآخرة من النار.
- قوله تعالى (كتب عليكم الصيام) الصيام لغة : الإمساك ، يقال : صامت الخيل ، إذا أمسكت عن العلف والسير ، ومنه قوله تعالى : (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً) أي صمتاً ، والصمت إمساك عن الكلام .

وأما في الشرع : إمساك بنية عن جميع المفطرات ، كالأكل والشرب وغيرهما مما يفطر الصوم ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

- (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) أي فرض ، كان فرض صوم رمضان في السنة الثانية للهجرة ، وقد صام النبي e تسع رمضانات إجماعاً .
- (كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) اختلفوا في هذا التشبيه :قال سعيد بن جبير : كان الصوم في ابتداء الإسلام واجباً من العتمة إلى الليلة القابلة ، وكذا كان واجباً على من قبلنا .

وقيل : أراد صوم رمضان كتب على المسلمين كما كتب على الذين من قبلهم ، يعني : النصارى .

(**أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ**) أي : والصيام أيامه معدودات ، وهي أيام قلائل ، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمة بكم .

- اختلف في المراد بها : فقال بعض العلماء : ثلاثة أيام من كل شهر ، وقال بعضهم : هي رمضان ، وهذا هو **الراجح** ، ورجحه الطبري .
- **قال الطبري :** وأولى الأقوال بالصواب عندي قول من قال : عنى جل ثناؤه بقوله (أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ) أيام شهر رمضان ، وذلك أنه لم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الإسلام غير صوم شهر رمضان ثم نسخ بصوم رمضان ،

لأن الله تعالى قد بيّن في سياق الآية أن الصوم الذي أوجبه علينا هو صوم شهر رمضان دون غيره من الأوقات ، بإبانته عن الأيام التي كتب علينا صومها بقوله (شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن) فتأويل الآية كتب عليكم أيها المؤمنون الصيام ، كما كتب على من قبلكم لعلكم تتقون ، أياماً معدودات هي شهر رمضان .

قال ابن عاشور : المراد بالأيام من قوله (أياماً معدودات) شهر رمضان عند جمهور المفسرين ، وإنما عبر عن رمضان بأيام وهي جمع قلة ووصف بمعدودات وهي جمع قلة أيضاً ؛ تهوينا لأمره على المكلفين ، والمعدودات كناية عن القلة ؛ لأن الشيء القليل يعد عداً ؛ ولذلك يقولون : الكثير لا يعد ، ولأجل هذا اختير في وصف الجمع مجيئه في التأنيث على طريقة الجمع بألف وتاء وإن كان مجيئه على طريقة الجمع المكسر الذي فيه هاء تأنيث أكثر .

(**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً**) أي : كان به مرض يؤلمه ويؤذيه أو يخاف تماديه أو تزيُّده فإنه يفطر .

(**أَوْ عَلَى سَفَرٍ**) أي : كان صحيحاً لبس مرض لكنه على سفر .

(**فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**) أي : فعليه عدة الأيام التي أفطرها مرضه أو في سفره .

قال ابن كثير : المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر لما في ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام أخر .

(**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**) كان ذلك في ابتداء الإسلام : من شاء صام ، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فقد روى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) كان من أراد أن يفطر يفتدي ، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها ، وبالنسخ قال أكثر المفسرين .

- فالمراد بقوله (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ) المقيم الصحيح فخيره الله تعالى أولاً بين هذين ، ثم نسخ ذلك وأوجب الصوم عليه مضيقاً معيناً ، وهذا قول أكثر المفسرين .

وقيل : وعلى الذين يطيقونه في حال الشباب ، وعجزوا عنه في الكبر ، الفدية إذا أفطروا ، وهو مروي عن علي ، فعلى هذا لا تكون الآية منسوخة .

(**فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ**) قال ابن عباس : أراد به من أطعم مسكينين وعليه طعام مسكين واحد ، أو أطعم صاعاً وعليه مد ، فهو خير له .

قال الرازي : أما قوله تعالى (فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ) ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يطعم مسكيناً أو أكثر .

والثاني : أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب .

والثالث : قال الزهري : من صام مع الفدية فهو خير له .

(**وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) أي ما كتب عليكم من شهر رمضان، فهو خير لكم من أن تفطروا أو تفتدوا. (وسبق أن الآية منسوخة) .

الفوائد :

١ -أهمية الصيام ، حيث فرضه الله عز وجل على الأمم من قبلنا ، وهذا يدل على محبة الله عز وجل له وأنه لازم لكل أمة .

٢ -التخفيف على هذه الأمة ، حيث أنها لم تكلف وحدها بالصيام الذي قد يكون فيه مشقة على النفوس والأبدان .

٣ -الإشارة إلى أن الله تعالى أكمل لهذه الأمة دينها ، حيث أكمل لها الفضائل التي سبقت لغيرها .

٤ -أن الصيام من أسباب تقوى الله عز وجل ، لماذا ؟

أ- لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه .

ب- أن الصائم يترك ما أحل الله له من الأكل والشرب والجماع ونحوها مما تميل إليه نفسه متقرباً بذلك إلى الله .

ج- أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله ، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه ، لعلمه باطلاع الله عليه .

د- أن الصيام يضيق مجاري الشيطان ، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم .

هـ- أن الصائم في الغالب تكثر طاعته ، والطاعات من خصال التقوى .

و- أن الغني إذا ذاق ألم الجوع ، أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين ، وهذا من خصال التقوى .

ولهذا قال ابن رجب : في التقرب بترك هذه الشهوات بالصيام فوائد :

منها : كسر النفس ، فإن الشبع والري ومباشرة النساء تحمل النفس على الأَشَر والبطر والغفلة .

ومنها : تخلي القلب للفكر والذكر ، فإن تناول هذه الشهوات قد تقسي القلب وتُعميه .

ومنها : أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه بإقداره له على ما منعه كثيراً من الفقراء .

ومنها : أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم ، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان .

٥ -كان فرض رمضان على التدرج ، على ثلاث مراحل :

أ-فرض صيام عاشوراء ، فقد أمر النبي ﷺ بصيامه .

ب-فرض صوم رمضان على التخيير بين الصيام وبين الفدية ، قال تعالى : (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ...) .

ج-التأكد على فرض الصوم بدون تخيير ، قال تعالى : (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) .

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة البقرة: ١٨٥]

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور ، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه .

سمي الشهر بذلك لشهرته ، وأما رمضان فقيل : سمي بذلك لأنهم كانوا يصومون في الحر الشديد ، ومنه الرمضاء للرمل الذي حمي بالشمس .

- أن إنزال القرآن كان في رمضان .

فإن قال قائل : إنما أنزل القرآن في ثلاث وعشرين سنة ، فكيف أنزل فيه القرآن ؟

فالجواب : قال ابن عباس : أنزل الله تعالى القرآن جملة في رمضان إلى بيت في السماء يسمى (بيت العز) ثم منه أنزله إلى الأرض أرسالاً .

(هُدىً لِلنَّاسِ) أي : هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه .

- في هذه الآية أن القرآن هدى لجميع الناس ، وجاء في آية أخرى أنه هدى للمتقين ؟

والجمع : أن الهدى يستعمل في القرآن استعمالين : أحدهما عام ، والثاني خاص .

أما الهدى العام فمعناه : إبانة طريق الحق وإيضاح المحجة ، سواء سلكها المبيَّن له أم لا .

ومنه بهذا المعنى قوله تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي : بينا لهم طريق الحق على لسان نبينا صالح عليه السلام مع أنهم لم يسلكوها ، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) أي : بينا له طريق الخير والشر .

وأما الهدى الخاص : فهو تفضل الله بالتوفيق على العبد حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه ، ويكون سبب دخوله الجنة .

ومنه بهذا المعنى قوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) وقوله (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ)

فإذا علمت ذلك فاعلم أن الهدى الخاص بالمتقين هو الهدى الخاص ، وهو التفضل بالتوفيق عليهم .

(وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) أي : دلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها ، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال ، والرشد ، المخالف للغي ، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام .

- **قال ابن عاشور :** المراد بالهدى الأول : ما في القرآن من الإرشاد إلى المصالح العامة والخاصة التي لا تنافي العامة ، وبالبينات من الهدى : ما في القرآن من الاستدلال على الهدى الخفي الذي ينكره كثير مِن الناس مثل أدلة التوحيد وصدق الرسول وغير ذلك من الحجج القرآنية .
- وقد وصف الله القرآن بأوصاف منها :

أ-أنه (نور) ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً) .

ب-(هدىً) و (شفاء) و (رحمة) و (موعظة) ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

ج-(مبارك) ، قال تعالى (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) .

د-(مبين) ، قال تعالى (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) .

ه-(بشرى) ، قال تعالى (مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) .

و-(عزيز) ، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) .

ز-(مجيد) ، قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) .

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ...) هذا إيجاب حكم على من شهد استهلال الشهر ، أي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان ، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم ، ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء ، فقال :

(وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) معناه : ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه ، أو يؤذيه ، أو كان على سفر ، أي في حالة سفر ، فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام ، ولهذا قال :

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ) أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم .

- وفي هذا دليل على أن الدين يسر .

عن أبي قتادة عن الأعرابي الذي سمع النبي e يقول (إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره). رواه أحمد

وعن أنس بن مالك قال : إن رسول الله e قال (يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تفرقوا) . متفق عليه

(وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وهو ضد اليسر .

(**وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ**) أي عدة ما أفطرتم من أيام أخر .

(**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ**) أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم .

كما قال تعالى (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا) .

وقال (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ) .

وقال تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وقال (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجود) .

ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح ، والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات.

(**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) أي لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق وتيسير ما لو شاء عسر عليكم . (وقد تقدمت مباحث الشكر) .

الفوائد :

١- فضيلة هذا الشهر .
٢- أن الله أنزل القرآن في هذا الشهر .
٣- أن القرآن منزل .
٤- القرآن هداية لجميع الناس .
٥- وجوب الصوم إذا ثبت الشهر .
٦- يسر الشريعة الإسلامية .
٧- انتفاء الحرج والمشقة .
٨- مشروعية التكبير عند اكتمال العدة .
٩- أن الله يشرع الشرائع لحكم عظيمة .
١٠- فضل شكر الله .
١١- الإشارة إلى أن القيام بطاعة الله من شكر الله .
١٢- أن من عصى الله فإنه لم يقم بالشكر .

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)
[سورة البقرة: ١٨٦]

(**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي**) روي أن سبب نزول هذه الآية : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبي e ، فأنزل الله : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ...) ، لأنه تعالى ، الرقيب الشهيد ، المطلع على السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فهو قريب أيضاً من داعيه ، بالإجابة ، ولهذا قال :

(**فَإِنِّي قَرِيبٌ**) والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه ، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق . فمن دعا ربه بقلب حاضر ، ودعاء مشروع ، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء ، كأكل الحرام ونحوه ، فإن الله قد وعده بالإجابة ، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به ،

الموجب للاستجابة ، فلهذا قال :(فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة.

- وقُرب الله تعالى هل هو مختص بالمؤمنين أو يعم غيرهم ؟

بعض أهل السنة – وهو جمهورهم - من يجعل القُرب نوعان :

القرب الأول : قرب عام .

وهو قرب الله من جميع الخلائق جميعاً .

كما قال تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) .

والثاني : القرب الخاص .

وهو قربه تعالى من المؤمنين بالإجابة والرعاية .

كما قال تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وحديث (... اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً وإن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) .

قال السعدي في تفسير (إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) أي : قريب ممن دعاه دعاء مسألة ، أو دعاء عبادة ، يجيبه بإعطائه سؤاله ، وقبول عبادته ، وإثابته عليها ، أجل الثواب .

واعلم أن قربه تعالى نوعان :

عام، وخاص . فالقرب العام، قربه بعلمه، من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

والقرب الخاص، قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى (واسجد واقترب) .

وفي هذه الآية ، وفي قوله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) ، وهذا النوع ، قرب يقتضي إلطافه تعالى ، وإجابته لدعواتهم ، وتحقيقه لمراداتهم ، ولهذا يقرن باسمه (القريب) .

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن القرب خاص بالمؤمنين وهذا القول أصح .

لأن الآيات التي استدل بها من عمم القرب وأن له قرباً عاماً إنما المذكور فيها قرب الملائكة .

فقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) قال ابن القيم : ... أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه ، فيكون أقرب إليه من ذلك العرق ، اختاره شيخنا .

وقال أيضاً ابن القيم : المراد بقوله (نحن) أي : ملائكتنا كما قال (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) أي : إذا قرأه عليك رسولنا جبريل، قال : ويدل عليه قوله (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ) فقيد القرب المذكور بتلقي الملكين ، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطل .

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة.

- **قال القرطبى :**قوله تعالى (أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ) أي : أقبل عبادة من عبدني ؛ فالدعاء بمعنى العبادة ، والإجابة بمعنى القبول ، دليله ما رواه أبو داود عن النُّعمان بن بَشير عن النبيّ e قال (الدعاء هو العبادة قال ربكم ادعوني أستجب لكم) فسُمِّيَ الدعاء عبادة ؛ ومنه قوله تعالى (إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) أي دعائي. فأمر تعالى بالدعاء وحض عليه وسمّاه عبادة ، ووعد بأن يستجيب لهم .

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي) فليدعو لي ، وقيل : فليطلبوا أن أجيبهم .

(وَلْيُؤْمِنُوا بِي) الإيمان الحق ، وليثقوا بوعدي .

(**لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**) أي : يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره ، سبب لحصول العلم كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً) . (تفسير السعدي) .

- قوله تعالى (عبادي) تأمل في هذا اللفظ من الرافة بالعباد، حيث أضافهم إلى نفسه العليّة سبحانه وبحمده، فأين الداعون؟ وأين الطارقون لأبواب فضله .

الفوائد :

١- الحث على الدعاء ، وأنه لا يضيع تعالى لديه شيء ، ولا يشغله عنه شيء .

عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله e (إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين) . رواه أبو داود

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله e : (ما من مسلم يدعو الله تعالى بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ، قالوا : إذاً نكثر ، قال : الله أكثر) . رواه أحمد

٢- أن الدعاء عبادة (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) ولولا ذلك ما صح أن يقال : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) .

وإذا ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك أكبر .

٣- إن قيل : فما للداعي قد يدعو فلا يجاب ؟

قال بعض العلماء : إن قوله (أجيب) إن شئت ، كما قال : (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ) فيكون هذا من باب المطلق المقيد .

وقال بعضهم : إنما مقصود هذا الإخبار تعريف جميع المؤمنين أن هذا وصف ربهم سبحانه أن يجيب دعوة الداعين في الجملة ، وأنه قريب من العبد يسمع دعاءه ويعلم اضطراره .

وقال بعضهم : إن الله يجيب كل الدعاء ، فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا ، وإما أن يدخر له في الآخرة ، وإما أن يكفر عنه ، لما رواه أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله e : (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها) .

- آداب الدعاء :

أولاً : أن لا يستعجل الإجابة .

عن أبي هريرة t قال: قال رسول الله e : (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي) . متفق عليه

ثانياً : أن يرفع يديه .

لحديث سلمان قال : قال رسول الله e : (إن الله تعالى حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين) . رواه أحمد وأبو داود

ثالثاً : الإلحاح بالدعاء موقناً بالإجابة .

قال e : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ) . رواه الترمذي وحسنه

رابعاً : أن يتحرى الأوقات الفاضلة :

(**الثلث الأخير**) عن جابر t قال : قال رسول الله e : (في الليلة ساعة لا يسأل فيها عبد سؤالاً إلا أعطاه الله وذلك كل ليلة) . رواه مسلم

وعن أبي هريرة t قال : قال رسول الله e : (ينزل الله عز وجل كل ليلة إلى السماء الدنيا الثلث الآخر يقول : من ذا الذي يدعوني فأستجب له ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ...) . متفق عليه

(**بين الأذان والإقامة**) قال e : (الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة) . رواه الترمذي

(**وفي يوم الجمعة ويوم عرفة**) عن أبي هريرة ، عن النبي e ، قال : (إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها خيراً إلا أعطاه) .

- موانع إجابة الدعاء .

أولاً : أن يكون في كسب الرجل حرام .

لحديث أبي هريرة t قال : قال رسول الله e : (أيها الناس ؛ إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ... ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك) . رواه مسلم

وعن سعد بن أبي وقاص أنه قال : يا رسول الله ؛ ادعو الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ؟ فقال النبي e : (يا سعد ؛ أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل الله منه عملاً أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به) . رواه الطبراني

ثانياً : أن يكون الدعاء في إثم أو ظلم .

لحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله e قال : (ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم) فقال رجل من القوم : إذن نكثر ؟ قال : الله أكثر) رواه الترمذي وحسنه

ثالثاً : ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

عن حذيفة t عن النبي e قال : (والذي نفسي بيده ؛ لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) . رواه أحمد والترمذي

رابعاً : أن يعتدي في دعائه ، كأن يرفع صوته ، أو يحدث فيه بدعة .

قال تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

وقال e : (سيكون قوم يعتدون في الدعاء) . رواه أحمد

٤- أن الله قريب من عباده .

٥- الحذر من الله ، لأنه سميع وقريب وبصير .

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: ١٨٧]

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

(**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ**) هذه رخصة من الله للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا في ذلك مشقة عظيمة .

وكأن السبب في نزول هذه الآية حديث البراء قال (كان أصحاب محمد e إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وأن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن انطلق فاطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فقالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي e فنزلت هذه الآية: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ) والرفث هنا: الجماع .

- **قال الرازي :** ذهب جمهور المفسرين إلى أن في أول شريعة محمد e ،كان الصائم إذا أفطر حل له الأكل والشرب والوقاع بشرط أن لا ينام وأن لا يصلي العشاء الأخيرة فإذا فعل أحدهما حرم عليه هذه الأشياء ، ثم إن الله تعالى نسخ ذلك بهذه الآية .

(**أُحِلَّ لَكُمْ**) أي أبيح لكم .

(**لَيْلَةَ الصِّيَامِ**) في ليلة الصيام .

(**الرَّفَثُ**) الرفث هنا : الجماع .

(**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**) يعني تعالى بذلك نساؤكم لباس لكم وأنتم لباس لهن .

- قال أبو السعود (هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُم لِبَاسٌ لَّهُنَّ)استئنافٌ مبينٌ لسبب الإحلالِ وهو صعوبةُ الصبر عنهنّ مع شِدة المخالطة وكَثرةِ الملابَسة بهن .
- **قال ابن كثير :** يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن .
- قال بعض العلماء : سكون لكم ، كما قال تعالى : (جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً) يعني بذلك تسكنون فيه ، وكذلك زوجة الرجل سكنه يسكن إليها ، فيكون كل واحد منهما (لباساً) لصاحبه ، بمعنى سكون إليه .

وقيل : أن يكون كل واحد منهما جعل لصاحبه لباساً ، لتجردهما عند النوم ، واجتماعهما في ثوب واحد ، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه ، بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه ، فقيل لكل واحد منهما هو لباس .

- سؤال : لم قدّم قوله (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ) على (وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) ؟

الجواب : قدّم قوله (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ) على (وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) تنبيهاً على ظهور احتياج الرجل للمرأة وعدم صبره عنها ؛ ولأنَّه هو البادىءُ بطلب ذلك ، وكَنى باللباس عن شِدَّةِ المخالطة .

(عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ) إن قال قائل : ما هذه الخيانة التي كان القوم يختانون أنفسهم التي تاب الله فيها عليهم فعفا عنهم ؟

قيل: كانت خيانتهم أنفسهم التي ذكرها الله في شيئين: الجماع، والمطعم والمشرب في الوقت الذي كان حراماً ذلك عليهم.

- قال بعضهم : (تختانون) من الخيانة ، أي تخونون أنفسكم بمخالفة الأمر وترك الوقاية .

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ ...) أي : تاب عليكم مما وقع منكم من الخيانة لأنفسكم ، وتاب عليكم أيضاً بالتوسعة لكم ، والتخفيف عنكم بنسخ المنع من الجماع والأكل والشرب بعد النوم ، أو بعد صلاة العشاء ليالي الصيام بإباحة ذلك .

والنسخ إلى أخف توبة من الله على عباده ، كما قال تعالى في نسخ وجوب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول (أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) .

وكما قال تعالى في نسخ وجوب قيام الليل إلى استحبابه كما قال تعالى (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) .

(وَعَفَا عَنْكُمْ) أي : تجاوز عن عقوبتكم .

(فَالْآنَ) فالآن بعد هذه الرخصة والسعة من الله

(بَاشِرُوهُنَّ) وطئاً وقبلة ولمساً وغير ذلك .

وسمي الجماع مباشرة لالتقاء البشرتين فيه ، بشرة المرأة وبشرة الرجل .

(وَابْتَغُوا) أي : اطلبوا .

(مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) أي : واطلبوا ما كتب الله لكم .

اختلف العلماء في المراد من ذلك :

قال بعضهم : الولد .

قاله أبو هريرة وابن عباس وأنس وشريح والقاضي ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والربيع بن أنس والسدي وزيد بن أسلم والحكم بن عتبة ومقاتل بن حيان والحسن البصري والضحاك وقتادة وغيرهم .

وقال بعضهم : ليلة القدر .

وقال بعضهم : الجماع .

ورجح ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله ، حيث قال : .....غير أن أشبه المعاني بظاهر الآية قول من قال: معناه : وابتغوا ما كتب الله لكم من الولد، لأنه عقيب قوله (فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ) بمعنى جامعوهن، فلأن يكون قوله (وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) بمعنى : وابتغوا ما كتب الله في مباشرتكم إياهن من الولد والنسل، أشبه بالآية من غيره من التأويلات التي ليس على صحتها دلالة من ظاهر التنزيل، ولا خبر عن الرسول e .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ...) أباح الله تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصبح من سواد الليل ، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ورفع اللبس بقوله (مِنَ الْفَجْرِ) .

(الخيط الأبيض) أي : بياض النهار (من الخيط الأسود) أي : سواد الليل .

كما جاء في الحديث عند البخاري عن سهل بن سعد قال (أنزلت : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ، ولم ينزل (مِنَ الْفَجْرِ) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل بعد (مِنَ الْفَجْرِ) فعلموا أنه يعني الليل والنهار) . رواه البخاري

وعن عدي بن حاتم قال (لما نزلت هذه الآية : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ، عمدت إلى عقالين : أحدهما أسود والآخر أبيض ، فجعلتهما تحت وسادتي ، قال : فجعلت أنظر إليهما ، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله e فأخبرته بالذي صنعت ، فقال : إن وسادتك إذاً لعريض ، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل) . متفق عليه

وعليه فمعنى الآية : وكلوا بالليل في شهر صومكم واشربوا وباشروا نساءكم مبتغين ما كتب الله لكم من الولد ، من أول الليل إلى أن يقع لكم ضوء النهار بطلوع الفجر من ظلمة الليل وسواده .

(**مِنَ الْفَجْرِ**) أي : حتى طلوع الفجر .

(**ثُمَّ**) أي : إذا طلع الفجر

(**أَتِمُّوا الصِّيَامَ**) أي : أكملوا الصيام ، وهو الإمساك عن المفطرات .

(**إِلَى اللَّيْلِ**) وهو غروب الشمس .

عن عمر بن الخطاب . قال : قال e (إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا ، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم) متفق عليه .

(**وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**) أي ولا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره .

فلا يجوز للمعتكف في المسجد في رمضان ولا في غيره جماع زوجته ، ولا فعل مقدمات الجماع ، لا ليلاً ولا نهاراً ، ولو خرج لحاجة فليس له فعل شيء من ذلك .

وأما المباشرة بمعنى لمس البشرة لمعاطاة شيء ونحو ذلك فلا حرج فيها ، لما روته عائشة قالت (كان النبي e يدني إليّ رأسه وهو معتكف ، فأرجله وأنا حائض) متفق عليه .

- الاعتكاف لغة : لزوم الشيء والمداومة عليه ، كما قال تعالى (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) .

وشرعاً : لزوم مسجد لطاعة الله والتعبد له والانقطاع إليه .

وفي الآية مشروعية الاعتكاف ، ومن أدلة مشروعيته :

أ- قوله تعالى (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) .

ب- حديث الباب .

ج- قوله e (... فمن أحب أن يعتكف فليعتكف العشر الأواخر) رواه مسلم .

- والحكمة منه : التفرغ للعبادة ، والانقطاع عن العوائق والشواغل .

قال ابن تيمية : ولما كان المرء لا يلزم ويواظب إلا من يحبُّه ويعظِّمه، كما كان المشركون يعكفون على أصنامهم وتماثيلهم، ويعكف أهل الشهوات على شهواتهم شرع الله لأهل الإيمان أن يعكفوا على ربهم سبحانه وتعالى .

- ويجب بالنذر .

قال الحافظ : وليس واجباً إجماعاً إلا على من نذره .

لحديث عمر أنه قال (يا رسول الله إني نذرت أني أعتكف ليلة في المسجد الحرام ، فقال : أوف بنذرك) . متفق عليه

ولحديث عائشة (من نذر أن يطيع الله فليطعه) . رواه البخاري

• وآكد الاعتكاف في رمضان ، وأفضله العشر الأواخر ، لأن النبي e اعتكفها حتى توفاه الله عز وجل .

ففي حديث الباب (كَانَ يَعْتَكِفُ اَلْعَشْرَ اَلْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اَللَّهُ) .

• **مبطلات الاعتكاف ؟**

أولاً : الجماع .

قال ابن المنذر : وأجمعوا على أنه من جامع امرأته وهو معتكف عامداً لذلك في فرجها أنه يفسد اعتكافه .

وقال ابن حجر : واتفقوا على فساده بالجماع .

قال تعالى (وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ) .

وقد نقل ابن المنذر الإجماع على أن المراد بالمباشرة في الآية الجماع .

ثانياً : الخروج بجميع بدنه بلا عذر .

فهذا يبطل اعتكافه باتفاق الأئمة .

لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : (السنة للمعتكف أن لا يخرج لحاجة إلا لما لا بد له) . رواه أبو داود

• **هل يشترط لصحة الاعتكاف أن يكون في مسجد ؟**

نعم ، يشترط أن يكون في مسجد .

لقوله تعالى (وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ) .

قال القرطبي : أجمع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد .

وقال في المغني : لا نعلم فيه خلافاً .

• **اذكر الخلاف في ضابط المسجد الذي يصح فيه الاعتكاف :**

اختلف العلماء في ذلك على أقوال :

القول الأول : أنه لا يصح إلا في المساجد الثلاثة .

لحديث حذيفة مرفوعاً (لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة) رواه سعيد بن منصور

القول الثاني : لا يصح إلا في مسجد تقام فيه الجماعة .

وهذا مذهب الحنفية والحنابلة .

لقوله تعالى (وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ) .

وجه الدلالة : أن الآية تعم كل مسجد ، وخص منها ما تقام فيه الجماعة لأدلة وجوب الجماعة .

قال ابن قدامة في المغني : وَإِنَّمَا اُشْتُرِطَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ وَاجِبَةٌ ، وَاعْتِكَافُ الرَّجُلِ فِي مَسْجِدٍ لَا تُقَامُ فِيهِ الْجَمَاعَةُ يُفْضِي إلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا تَرْكُ الْجَمَاعَةِ الْوَاجِبَةِ ، وَإِمَّا خُرُوجُهُ إلَيْهَا ، فَيَتَكَرَّرُ ذَلِكَ مِنْهُ كَثِيرًا مَعَ إمْكَانِ التَّحَرُّزِ مِنْهُ ، وَذَلِكَ مُنَافٍ لِلاعْتِكَافِ ، إذْ هُوَ لُزُومُ الْمُعْتَكَفِ وَالْإِقَامَةُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِيهِ .

القول الثالث : أنه في كل مسجد سواء تقام فيه الجماعة أم لا .

وهذا مذهب الشافعية .

لقوله تعالى (وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ) . قالوا : وهذا عام يشمل كل المساجد ولا يقبل تخصيصها ببعض المساجد إلا بدليل .

القول الرابع : أنه لا بد في مسجد جامع .
وهذا اختيار الصنعاني .
لقول عائشة (لا اعتكاف إلا في مسجد جامع) أخرجه ابن أبي شيبة .
والراجح القول الأول وأنه يصح في كل مسجد جماعة .
(تِلْكَ) الإشارة إلى ما سبق في الآية من إحلال الجماع والأكل والشرب ليالي الصيام حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود بطلوع الفجر الثاني، ومن ثم إتمام الصيام إلى الليل بغروب الشمس، والنهي عن المباشرة حال الاعتكاف في المساجد.
(حُدُودُ اللَّهِ) حدود الله تنقسم إلى قسمين : حدود أوامر وواجبات يجب فعلها ، وعدم تركها وتعديها كما قال تعالى (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا) .
والقسم الثاني: حدود نواه ومحرمات وممنوعات يجب تركها والبعد عنها وعدم قربها كما قال تعالى (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا).
(فَلا تَقْرَبُوهَا) أي : فلا تقربوا حدود الله ومحرماته ، بل ابتعدوا عنها واجتنبوها كما قال تعالى (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) .
وذلك لأن الوسائل لها أحكام الغايات والمقاصد ، فالوسيلة المؤدية إلى المحرّم محرمة .

- **قال السعدي :** قوله تعالى (فَلا تَقْرَبُوهَا) أبلغ من قوله (فلا تفعلوها) لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه، والعبد مأمور بترك المحرمات، والبعد عنها ، غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليه.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ) أي كما بين الصيام وأحكامه ، وبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد e .
(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أي أبيّن لهم ذلك ليتقوا محارمي ومعاصيّ ، ويتجنبوا سخطي وغضبي .

- **قال السعدي :** قوله تعالى (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته، لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سبباً للتقوى .

قال ابن عاشور : (لعلهم يتقون) أي إرادةً لاتقائهم الوقوع في المخالفة، لأنه لو لم يبين لهم الأحكام لما اهتدوا لطريق الامتثال، أو لعلهم يلتبسون بغاية الامتثال والإتيان بالمأمورات على وجهها فتحصل لهم صفة التقوى الشرعية ، إذ لو لم يبين الله لهم لأتوا بعبادات غير مستكملة لما أراد الله منها ؛ وهم وإن كانوا معذورين عند عدم البيان وغير مؤاخذين بإثم التقصير إلاّ أنهم لا يبلغون صفة التقوى، أي كمال مصادفة مراد الله تعالى ، فلعل يتقون على هذا منزل منزلة اللازم لا يقدَّر له مفعول مثل (هل يستوي الذين يعلمون) ، وهو على الوجه الأول محذوف المفعول للقرينة .

الفوائد :

١- رحمة الله بعباده لنسخ الحكم الأول .
٢- جواز الجماع ليالي رمضان .
٣- أن الزوجة ستر للزوج ، وهو ستر لها .
٤- علم الله بما في النفوس .
٥- إثبات العفو لله .
٦- أن النسخ إلى الأخف نوع من النوبة .
٧- جواز مباشرة الزوجة على الإطلاق بدون تقييد ، ويستثنى من ذلك الوطء في الدبر وحال الحيض أو النفاس .

٨- جواز الأكل والشرب والجماع لليالي رمضان .

٩- جواز أن يصبح الصائم جنباً .

١٠- أن الأفضل المبادرة بالفطر .

١١- أن الصيام الشرعي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

١٢- مشروعية الاعتكاف .

١٣- أن الجماع مبطل للاعتكاف .

١٤- أن الله يبين للناس الآيات الكونية والشرعية .

١٥- أن العلم سبب للتقوى .

١٦- علو مرتبة التقوى .

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: ١٨٨]

(**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**) يعني تبارك وتعالى بذلك : ولا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل ، فجعل سبحانه بذلك أكل مال أخيه بالباطل كالآكل مال نفسه بالباطل .

ونظير ذلك قوله تعالى (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) وقوله (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) بمعنى : لا يلمز بعضكم بعضاً ولا يقتل بعضكم بعضاً ، لأن الله جعل المؤمنين إخوة ، فقاتل أخيه كقاتل نفسه ، ولامزه كلامز نفسه .

فتأويل الكلام : ولا يأكل بعضكم أموال بعض فيما بينكم بالباطل .

- **قال السعدي :** (وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ) أي : ولا تأخذوا أموالكم أي : أموال غيركم ، أضافها إليهم ، لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله كما يحترم ماله ؛ ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة.
- قوله تعالى (ولا تأكلوا ..) المراد الأكل وسائر الانتفاعات ، وإنما خص الأكل ، لأنه الأهم في جمع المال ، وأقوى وجوه الانتفاع .
- **قال البقاعي :** (ولا تأكلوا) أي : يتناول بعضكم مال بعض ، ولكنه عبر بالأكل لأنه المقصد الأعظم من المال .
- قوله (بِالْبَاطِلِ) الباطل في اللغة : الذاهب الزائل ، وآكل المال بالباطل : آكله من غير الوجه الذي أباحه الله لآكليه .

قال السعدي : ويدخل بذلك أكلها على وجه الغصب ، والسرقة ، والخيانة في وديعة أو عارية أو نحو ذلك ، ويدخل في ذلك أيضاً أخذها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة ؛ كعقود الربا ، والقمار كلها فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح ، ويدخل بذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ونحوها ، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم ، وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه ، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا لمن ليس له حق منها أو فوق حقه ، فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه .

(**وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**) قال الطبري : فإنه يعني : وتخاصموا بها ، يعني بأموالكم إلى الحكام .

فالضمير في (بها) يعود على الأموال، أي: تتوصلوا وتتقدموا بها إلى الحكام والقضاة احتيالاً منكم ، لتجعلوها وسيلة لأكلها، وذلك بالتلبيس عليهم ، والأيمان الفاجرة ، وقد قال e عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رضى الله عنها - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ e قَالَ (إِنَّكُمْ

تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا) متفق عليه .

قال ابن كثير : فدلت هذه الآية ، وهذا الحديث ، على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حراماً وهو حرام ، ولا يحرم حلالاً وهو حلال ، وإنما هو ملزم في الظاهر ، فإن طابقه في نفس الأمر فذاك ، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره .

- **قال ابن عاشور :** (وتدلوا بها إلى الحكام) عطف على (تأكلوا) أي لا تدلوا بها إلى الحكام لتتوسلوا بذلك إلى أكل المال بالباطل ، وخص هذه الصورة بالنهي بعد ذكر ما يشملها وهو أكل الأموال بالباطل ؛ لأن هذه شديدة الشناعة جامعة لمحرمات كثيرة ، وللدلالة على أن معطي الرشوة آثم مع أنه لم يأكل مالاً بل آكلَ غيره .

قوله تعالى (تدلوا) من إرسال الدلو ، والرشوة من الرشاء ، كأنه يمد بها ليقضي الحاجة .

(**لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً**) طائفة ، واللام للعاقبة : أي : لتكون العاقبة والنهاية أن تأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم ، ويحتمل أن تكون اللام للتعليل ، أي : لأجل أن تأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم .

(**مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ**) وهي أموال المدلى بأموالهم إلى الحكام أو بعضها .

(**بِالْإِثْمِ**) أي : بالذنب ، لأنه أكل بغير حق .

(**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) الواو حالية ، أي : والحال أنكم تعلمون أن أكلكم لها باطل وإثم ، وأنها حرام عليكم .

قال القرطبي : (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي بطلان ذلك وإثمه ، وهذه مبالغة في الجرأة والمعصية .

وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله e قال (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا) متفق عليه .

الفوائد :

١- تحريم أكل أموال الناس بالباطل ، من أي طريق كان .

وقد قال e (إن دماءكم وأموالكم وأعرضاكم حرام عليكم ...) .

٢- وجوب حفظ المال ، لأن به قوام الحياة والمعاش ، وهو أحد الضروريات التي جاء الدين بحفظها .

٣- تحريم الرشوة ، وهي محرمة لما يلي :

أولاً: للحديث الصحيح: أن النبي e (لعن الراشي والمرتشي) واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذا يقتضي أن تكون الرشوة من كبائر الذنوب.

ثانياً : أن فيها فساد الخلق؛ فإن الناس إذا كانوا يُحكم لهم بحسب الرشوة فسد الناس، وصاروا يتباهون فيها أيهم أكثر رشوة، فإذا كان الخصم إذا أعطى ألفاً حكم له، وإذا أعطى ثمانمائة لم يحكم له، فسيعطي ألفاً، وإذا ظن أن خصمه سيعطي ألفاً أعطى ألفين، وهكذا فيفسد الناس.

ثالثاً : أنها سبب لتغيير حكم الله عزّ وجل؛ لأنه بطبيعة الحال النفس حيّافة ميّالة، تميل إلى من أحسن إليها، فإذا أعطي القاضي رشوة حكم بغير ما أنزل الله، فكان في هذا تغيير لحكم الله عزّ وجل .

رابعاً : أن فيها ظلماً وجَوراً ، لأنه إذا حكم للراشي على خصمه بغير حق فقد ظلم الخصم، ولا شك أن الظلم ظلمات يوم القيامة، وأن الجور من أسباب البلايا العامة، كالقحط وغيره.

خامساً : أن فيها أكلاً للمال بالباطل، أو تسليطاً على أكل .

سادساً : أن فيها ضياع الأمانات، وأن الإنسان لا يؤتمن، والإنسان لا يدري أيحكم له بما معه من الحق، أو يحكم عليه؟ وهذا فساد عظيم، ولذلك استحق الراشي والمرتشي لعنة الله ـ والعياذ بالله ـ.

٤ -الوعيد والتهديد لمن يُقدمون على أكل أموال الناس بالباطل .

٥ - وجوب الحذر من فتنة الدنيا والمال .

(يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة البقرة: ١٨٩] .

(**يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ**) قيل في سبب نزولها : أن الناس سألوا رسول الله e عن كون الهلال يبدو ضعيفاً ثم يأخذ في الزيادة حتى يتم ، ثم يأخذ في النقص ، فأجيبوا عن الحكمة في ذلك ، لأنها الأهم ، وهي التي يحتاجون لبيانها .

(**الْأَهِلَّةِ**) جمع هلال، وهو اسم للقمر أول ما يبدو دقيقاً، وإنما سمي الهلال هلالاً، لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته، يقال: استهل الصبي إذا صاح بالبكاء .

سؤال : لم جمع الأهلة ؟

الجواب : جمع الأهلة إما لتعددها بتعدد الأشهر أو لاختلاف أحواله وإن كان واحداً فهو كالمتعدد.

(**قُلْ**) الأمر للنبي e .

(**هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**) أي جعلها الله بلطفه ورحمته على هذا التدبير – يبدو الهلال ضعيفاً ، ثم يشرع في النقص إلى كماله ، وهكذا – ليعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم من الصيام وأوقات الزكاة والكفارات وأوقات الحج ، وكذلك تعرف أوقات الديون المؤجلات ، ومدة الإجارات ، ومدة التعدد والحمل ، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق .

وخص الحج بالذكر لكثرة أشهره ، ولأن هذه الآيات توطئة وتمهيد لذكر أشهر الحج وأحكامه .

وقال ابن عاشور : وعطف الحج على الناس مع اعتبار المضاف المحذوف من عطف الخاص على العام للاهتمام به واحتياج الحج للتوقيت ضروري ؛ إذ لو لم يوقّت لجاء الناس للحج متخالفين فلم يحصل المقصود من اجتماعهم ، ولم يجدوا ما يحتاجون إليه في أسفارهم وحلولهم بمكة وأسواقها .

(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) روى البخاري عن البراء قال (كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها ، فأنزل الله : (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا) .

فالأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها تعبداً بذلك وظناً أنه بر ، فأخبر تعالى أنه ليس من البر ، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، ثم بين تعالى أن البر من اتقى الله فخافه وتجنب محارمه، وأطاعه بأداء فرائضه التي أمره بها ، فأما إتيان البيوت من ظهورها فلا بر لله فيه .

قال الشنقيطي : قوله تعالى (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) لم يصرح بالمراد بمن اتقى ، ولكنه بينه بقوله (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ ...) .

والبر يفسر بالتقوى ، كما تفسر التقوى بالبر في حال انفراد كل منهما عن الآخر ، لكن في حال اجتماعهما يفسر كل منهما بمعنى كما في قوله تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) فالبر هنا يراد به فعل المأمورات ، والتقوى ترك المنهيات.

(**وَاتَّقُوا اللَّهَ**) بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذ إن هذا هو حقيقة البر .

(**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) أي : لأجل أن تفلحوا ، وتفوزوا وتحصلوا على المطلوب ، وهي الجنة غاية المطالب ، وتنجو من المرهوب وهي النار .

الفوائد :

١- حرص الصحابة على العلم ومعرفة أمور دينهم ودنياهم .

٢- أن معرفة الحكمة من جعل الأهلة أهم من معرفة ماهيتها .

٣- تولي الله الإجابة عن رسوله e .

٤-رحمة الله تعالى بعباده ، حيث جعل لهم ما يعرفون به عباداتهم ومعاملاتهم .

٥-أن ما لا يشرعه الله قربة ولا ندب إليه لا يصير قربة يتقرب به متقرب .

٦-أن حقيقة البر : تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

٧- وجوب تقوى الله .

٨- أن تقوى الله سبب للفلاح والسعادة في الدنيا .

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) .

[البقرة : ١٩٠- ١٩٣] .

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ) هذا أمر من الله بقتال الكفار الذين يقاتلوننا .

وهذا الأمر قد يكون واجباً عينياً وقد يكون واجباً كفائياً .

- **قال الشنقيطي** : هذه الآية تدل بظاهرها على أنهم لم يؤمروا بقتال الكفار إلا إذا قاتلوهم، وقد جاءت آيات أخر تدل على وجوب قتال الكفار مطلقا ؛ قاتلوا أم لا، كقوله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ)، وقوله (فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد) والجواب عن هذه بأمور :

الأول : - وهو من أحسنها وأقربها - أنّ المراد بقوله (الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ) تهييج المسلمين، وتحريضهم على قتال الكفار، فكأنه يقول لهم : هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم هم خصومكم وأعداؤكم الذين يقاتلونكم، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

الوجه الثاني : أنها منسوخة ، بقوله تعالى (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) وهذا من جهة النظر ظاهر حسن جدا، وإيضاح ذلك أنّ من حكمة الله البالغة في التشريع أنه إذا أراد تشريع أمر عظيم على النفوس ربما يشرعه تدريجيا لتخف صعوبته بالتدريج .

الوجه الثالث : وهو اختيار بن جرير، ويظهر لي أنه الصواب : أن الآية محكمة، وأن معناها : قاتلوا الذين يقاتلونكم أي من شأنهم أن يقاتلوكم، أما الكافر الذي ليس من شأنه القتال كالنساء، والذراري، والشيوخ الفانية، والرهبان، وأصحاب الصوامع، ومن ألقى إليكم السلم، فلا تعتدوا بقتالهم ؛ لأنهم لا يقاتلونكم، ويدل لهذا الأحاديث المصرحة بالنهي عن قتال الصبي،

وأصحاب الصوامع، والمرأة، والشيخ الهرم إذا لم يستعن برأيه، أما صاحب الرأي فيقتل كدريد بن الصمة، وقد فسر هذه الآية بهذا المعنى عمر بن العزيز رضي الله عنه وابن عباس والحسن البصري .

قوله تعالى (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) حث على الإخلاص ، أي : لأجل دين الله ورفعته .

عن عبد الله بن قيس قال (سئل رسول الله e عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله e : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله). متفق عليه

لا يذكر في القرآن الكريم لفظ (القتال) أو (الجهاد) إلا وهو مقرون بعبارة (سبيل الله) وذلك يدل على أن الغاية من القتال غاية مقدسة نبيلة ، هي (إعلاء كلمة الله) لا السيطرة أو المغنم ، أو إظهار الشجاعة ، أو الاستغلال في الأرض ، وقد وضح هذه الغاية النبيلة قوله e (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) .

(**الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**) ليصدوكم عن دين الله .

وفي هذا أن الذين يقاتَل هو من يقاتل المسلمين حقيقة أو حكماً ، ممن يساعدون على ذلك بالمال والرأي ونحو ذلك ، وأما من لا يقاتل فإنهم لا يقتلون كالنساء والصبيان والشيوخ والرهبان .

عن بريدة . أن رسول الله e كان يقول (اغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوليد) . رواه مسلم

وعن ابن عمر (أن رسول الله e رأى امرأة مقتولة في بعض مغازيه، فأنكر قتل النساء والصبيان). متفق عليه

(**وَلا تَعْتَدُوا**) الاعتداء : مجاوزة الحد المباح ، أي قاتلوا في سبيل الله ، ولا تعتدوا في ذلك .

ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي من المثلة والغلول كما سبق في الحديث (... ولا تغدروا ، ولا تغُلّوا ، ولا تُمثّلوا ...) .

ومن الاعتداء أيضاً : ابتداء القتال في الأشهر الحرام ، وفي الحرم .

لقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) .

وقال تعالى (وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ) .

(**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**) تعليل للنهي عن الاعتداء .

(**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**) أمر الله بقتال الكفار أينما وجدوا في كل وقت وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة.

(**وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**) قال الطبري : يعني بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ومنازلهم بمكة ، فقال لهم تعالى ذكره : أخرجوا هؤلاء الذين يقاتلونكم - وقد أخرجوكم من دياركم - من مساكنهم وديارهم كما أخرجوكم منها .

- **قال ابن عاشور :** قوله (وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ) أي يحل لكم حينئذٍ أن تخرجوهم من مكة التي أخرجوكم منها ، وفي هذا تهديد للمشركين ووعد بفتح مكة ، فيكون هذا اللقاء لهذه البشرى في نفوس المؤمنين ليسْعوا إليه حتى يدركوه وقد أدركوه بعد سنتين ، وفيه وعد من الله تعالى لهم بالنصر كما قال تعالى (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ) .

ولما كان الجهاد فيها إزهاق النفوس وقتل الرجال ، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله ، والشرك بالله ، والصد عن سبيله ، أبلغ وأشد وأعظم من القتل ، فقال :

(**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**) قال مجاهد : أي من أن يقتل المؤمن ، فالقتل أخف عليه من الفتنة .

قال الطبري : وابتلاء المؤمن في دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركاً بالله بعد إسلامه ، أشد عليه وأضر من أن يقتل مقيماً على دينه ، متمسكاً عليه محقاً فيه .

(**وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**) أي لا تبدءوا – أيها المؤمنون – المشركين بالقتال عند المسجد الحرام، حتى يبدأوكم به هناك عند المسجد الحرام في الحرم ، فاقتلوهم ، فإن الله جعل ثواب الكافرين على كفرهم وأعمالهم السيئة القتل في الدنيا والخزي الطويل في الآخرة .

وقد جاء في الصحيحين قال e : (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، ولم يحل إلا ساعة من نهار ، وإنما ساعتي هذه ، حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة) .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنها منسوخة ، ورجحه الطبري .

نسخها قوله تعالى (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) .

وحكى ابن عطية في المحرر على أن الجمهور على القول بالنسخ .

قال القرطبي : ومما احتجوا به أن (براءة) نزلت بعد سورة البقرة بسنتين ، وأن النبي e دخل مكة وعليه المغفر ، فقيل : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة ، فقال : (اقتلوه) .

وقال مكي في الإيضاح : والبين الظاهر في الآية أنها منسوخة ، وهو قول أكثر العلماء ، لأن قتال المشركين فرض لازم في كل موضع كانوا فيه .

والراجح الأول وأنها غير منسوخة .

قال مجاهد : الآية محكمة ، ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يقاتل ، وبه قال طاووس .

قال القرطبي : وهو الذي يقتضيه نص الآية ، وهو الصحيح من القولين ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه .

واستدلوا بقوله e (إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شوكاً ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله e فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها كحرمتها بالأمس) . متفق عليه

فبين e أنه خص في تلك الساعة بالإباحة على سبيل التخصيص ، لا على وجه النسخ .

وكذلك آية السيف عامة وهذه الآية خاصة ، والعام لا ينسخ الخاص ، بل يعمل العام فيما عدا الخاص .

قال القرطبي : وأما ما استدلوا به من قتل ابن خطل فلا حجة فيه ، فإن ذلك كان في الوقت الذي أحلت له مكة وهي دار حرب وكفر ، وكان له أن يريق دماء من شاء من أهلها في الساعة التي أحل له فيها القتال .

(**فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**) أي : فإن قاتلوكم في الحرم ، ولم يراعوا حرمة الحرم فاقتلوهم فيه معاملة لهم بالمثل ، ودفاعاً عن دينكم ودمائكم وأعراضكم وأوطانكم وأموالكم وحرمات المسلمين .

(**كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**) أي : ذلك عقوبة الكافرين بالله ، المكذبين لرسله وشرعه ، وهي قتلهم في الدنيا ، مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الأليم كما قال تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

(**فَإِنِ انْتَهَوْا**) أي : فإن انتهى الكافرون الذين يقاتلونكم عن قتالكم وكفرهم بالله ، فتركوا ذلك وتابوا .

(**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**) لذنوب من آمن منهم وتاب من شركه .

ومثل هذه الآية : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

(**رَحِيمٌ**) بعباده .

(**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ**) أمر الله بقتال المشركين حتى لا تكون فتنة ، يعني : لا يكون شرك بالله حتى لا يعبد دونه أحد.

قال ابن تيمية : والدين هو الطاعة ، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون الدين كله تعالى .

قال السعدي : يستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة وهي : أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما .

(**وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**) أي: يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين أنه e قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى) .

فالحكمة من قتال الكفار : حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله تعالى .

قال تعالى في سورة الأنفال (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

- وسمي الكفر فتنة لأنه يؤدي إلى الهلاك .

(**فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**) أي فإن انتهى الذين يقاتلونكم من الكفار عن قتالكم ، ودخلوا في ملتكم ، وأقروا بما ألزمكم الله من فرائضه ، وتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان ، فدعوا الاعتداء عليهم وقتالهم وجهادهم ، فإنه لا ينبغي أن يعتدي إلا على الظالمين ، وهم المشركون بالله .

وسمي ما يصنع بالظالمين عدواناً من حيث هو جزاء عدوان ، إذ الظلم يتضمن العدوان ، فسمي جزاء العدوان عدواناً ، كقوله : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) .

قال الرازي : فإن قيل : لم سمي ذلك القتل عدواناً مع أنه حق وصواب ؟

قلنا : لأن ذلك القتل جزاء العدوان ، فصح إطلاق اسم العدوان عليه ، كقوله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) .

قال الزجاج : والعرب تقول : ظلمني فلان فظلمته ، أي جازيته بظلمه .

الفوائد :

١ - وجوب القتال في سبيل الله .

٢ -فضيلة الجهاد في سبيل الله .

عن عبد الرحمن بن جبر قال : قال رسول الله e : (ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار) . رواه البخاري

٣ - الحكمة من الجهاد في سبيل الله :

أولاً : إعلاء كلمة الله .

قال تعالى (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) .

ثانياً : تمحيص المؤمنين ، ومحق الكافرين .

قال تعالى (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) .

٤ - أن ترك الجهاد له عواقب :

أولاً : ترك الجهاد سبب للهلاك في الدنيا والآخرة .

فأما في الدنيا ، فإن الجبان يكون ذليلاً مستعبداً تابعاً غير متبوع .

وأما في الآخرة ، فهو يهلك إن لم يتغمده الله برحمته بترك فريضة محكمة أنزلها الله في كتابه ، بها عز الإسلام والمسلمين .

ثانياً : ترك الجهاد سبب للذل والهوان .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله e (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) . رواه البخاري

ثالثاً : وترك الجهاد سبب للبلاء .

قال رسول الله e (إذا ظن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم) . رواه أبو داود

وقال e : (من لم يغز أو يجهز غازياً أو يخلف غازياً في أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة). رواه أبو داود

رابعاً : ترك الجهاد سبب لعذاب الله وبطشه .

قال تعالى (إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً) .

خامساً : وترك الجهاد سبب لإفساد أهل الأرض بالقضاء على دينهم .

قال تعالى (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) .

سادساً : وترك الجهاد يفوت مصالح عظيمة للمسلمين ، منها : الأجر والثواب والشهادة والمغنم والتربية الإيمانية التي لا تحصل بدون الجهاد ، ودفع شر الكفار وإذلالهم .

٥ - تحريم الاعتداء .

٦ - إثبات محبة الله .

٧ - الإشارة إلى أن المسلمين أحق الناس بأرض الله .

٨ -أن الفتنة بالكفر والصد عن سبيل الله أعظم من القتل .

٩ - تعظيم حرمة المسجد الحرام .

١٠ - جواز القتال عند المسجد الحرام إذا بدأنا بذلك أهله .

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

[البقرة : ١٩٤] .

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ) (ال) في الشهر للجنس ، لأن الشهر الحرام ليس شهراً واحداً وإنما هي أربعة أشهر ، كما قال تعالى (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) ، وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب .

و كما في حديث أبي بكرة . أن رسول الله e قال (إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاَثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ) متفق عليه .

وسميت هذه الأشهر بالأشهر الحرم ، لأن الله حرم فيها القتال ، والاعتداء والظلم ، كما قال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) .

ومعنى الآية : لما منعكم المشركون من دخول مكة في الشهر الحرام (ذي القعدة) سنة ست من الهجرة ، قاضاكم الله بالدخول من قابل ، سنة سبع في (ذي القعدة) أي : هذا بهذا .

- **قال الرازي :** روي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك أن رسول الله e خرج عام الحديبية للعمرة وكان ذلك في ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، فصده أهل مكة عن ذلك ثم صالحوه عن أن ينصرف ويعود في العام القابل ، حتى يتركوا له مكة ثلاثة أيام ، فرجع رسول الله e في العام القابل وهو في ذي القعدة سنة سبع ودخل مكة واعتمر ، فأنزل الله تعالى هذه

الآية يعني إنك دخلت الحرم في الشهر الحرام ، والقوم كانوا صدوك في السنة الماضية في هذا الشهر فهذا الشهر بذاك الشهر .

وفي هذا تطييب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم .

وقيل : فإن بدأوكم في القتال في الشهر الحرام ، فانتهكوا حرمته ، فقاتلوهم فيه ولا تبالوا بحرمته ، فإنه قصاص بما فعلوا .

والراجح القول الأول ولذلك قال القرطبي في تفسيره : والقول الأول أشهر وعليه الأكثر .

(وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) الحرمات : جمع حرمة ، كالظلمات جمع ظلمة ، والحجرات جمع حجرة .

قال الشوكاني : وإنما جمعت الحرمات ؛ لأنه أراد حرمة الشهر الحرام ، وحرمة البلد الحرام ، وحرمة الإحرام .

والحرمة : ما منعْت من انتهاكه (يعني كل ما حرّم الشارع انتهاكه) ، والقصاص : المساواة .

والمعنى : أن هذه الحرمات إذا انتهك شيء منها أو اعتدي عليه يقتص من المعتدي بمثله ، فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل في الشهر الحرام ، ومن اعتدى في الحرم اقتص منه في الحرم .

- **قال ابن عاشور :** ومعنى كونها قصاصاً أي مماثلة في المجازاة والانتصاف ، فمن انتهكها بجناية يعاقب فيها جزاء جنايته ، وذلك أن الله جعل الحرمة للأشهر الحرم لقصد الأمن، فإذا أراد أحد أن يتخذ ذلك ذريعة إلى غدر الأمن أو الإضرار به، فعلى الآخر الدفاع عن نفسه ، لأن حرمة الناس مقدمة على حرمة الأزمنة ، ويشمل ذلك حرمة المكان كما تقدم في قوله تعالى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلونكم فيه) ، والإخبار عن الحرمات بلفظ (قصاص) إخبار بالمصدر للمبالغة .

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) أي : فمن اعتدى عليكم من الكفار بقتال أو قتل أو انتهاك عرض أو سلب مال ، فخذوا حقكم منه بمثل اعتدائه عليكم ، في هيئته ، وفي كيفيته ، وفي زمانه ، وفي مكانه .

- **قال القرطبي :** (فَمَنِ اعتدى) الاعتداء هو التجاوز ؛ قال الله تعالى (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ) أي يتجاوزها ؛ فمن ظلمك فخذ حقّك منه بقدر مظلمتك ، ومن شتمك فردّ عليه مثلَ قوله ، ومن أخذ عِرْضَك فخذ عِرضه ؛ لا تتعدّى إلى أبويه ولا إلى ابنه أو قريبه ، وليس لك أن تَكذِب عليه وإن كذب عليك ، فإن المعصية لا تُقابل بالمعصية .
- روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أن قوله (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ...) نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة .

وقد رد هذا القول ابن جرير وقال : بل الآية مدنية بعد عمر القضية .

- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (بمثل ما اعتدى عليكم) يشمل المماثلة في المقدار وفي الأحوال ككونه في الشهر الحرام أو البلد الحرام.
- قوله (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ...) سمى أخذهم بحقهم اعتداء ، لأن سببه الاعتداء عليهم .

وأيضاً من باب المجانسة والمشاكلة ، كما قال تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) .

- أمر الله بالعدل حتى في المشركين .

كما قال تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) .

وقال تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) .

- والأمر في قوله تعالى (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .....) للإباحة بدليل قوله تعالى في آخر سورة النحل (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) .

وقوله تعالى (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) .

وقوله تعالى (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) .

- **قال الشنقيطي :** قوله تعالى (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) الآية .

هذه الآية تدل على طلب الانتقام، وقد أذن الله في الانتقام في آيات كثيرة :

كقوله تعالى (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) الآية .

وكقوله (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ) .

وكقوله (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ) الآية .

وقوله (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) .

وقوله (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) .

وقد جاءت آيات أخر تدل على العفو وترك الانتقام :

كقوله (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) وقوله (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)، وقوله (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) ، وقوله (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)، وكقوله : (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً) والجواب عن هذا بأمرين :

أحدهما : أن الله بيّن مشروعية الانتقام ثم أرشد إلى أفضلية العفو .

ويدل لهذا قوله تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِين) .

وقوله (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ)، أذن في الانتقام بقوله (إِلا مَنْ ظُلِمَ)، ثم أرشد إلى العفو بقوله (إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً) .

الوجه الثاني : أنّ الانتقام له موضع يحسن فيه، والعفو له موضع كذلك .

وإيضاحه أن من المظالم ما يكون في الصبر عليه انتهاك حرمة الله، ألا ترى أنّ من غصبت منه جاريته مثلاً إذا كان الغاصب يزني بها فسكوته وعفوه عن هذه المظلمة قبيح وضعف وخور، تنتهك به حرمات الله، فالانتقام في مثل هذه الحالة واجب، وعليه يحمل الأمر (فَاعْتَدُوا) الآية، أي كما بدأ الكفار بالقتال فقتالهم واجب، بخلاف من أساء إليه بعض إخوانه من المسلمين بكلام قبيح، ونحو ذلك فعفوه أحسن وأفضل .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ) بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، أي : اتقوا الله إذا انتصرتم ممن ظلمكم فلا تظلموهم بأخذ أكثر من حقكم ولا تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم .

- **قال ابن عاشور :** أمر بالاتقاء في الاعتداء أي بألا يتجاوز الحد، لأن شأن المنتقم أن يكون عن غضب فهو مظنة الإفراط.
- **قال السعدي :** ولما كانت النفوس - في الغالب - لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي ، أمر تعالى بلزوم تقواه ، التي هي الوقوف عند حدوده ، وعدم تجاوزها .

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) معية خاصة بنصره وعونه وتوفيقه .

- **قال السعدي :** ومن كان الله معه ، حصل له السعادة الأبدية ، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه ، وخذله ، فوكله إلى نفسه فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد .
- وفي هذا فضل عظيم للمتقين ، (وقد تقدمت فضائل التقوى في أول السورة) .

الفوائد :

١ - أن الحرمات قصاص .

٢ -أن المعتدي لا يجازى بأكثر من عدوانه .

٣ - وجوب تقوى الله في معاملة الآخرين .

٤ -فضل التقوى .

٥ -إثبات معية الله تعالى .

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .
[البقرة : ١٩٥] .

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) قال حذيفة وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور الناس : المعنى : لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة .

- **قال ابن عاشور :** هذه الجملة معطوفة على جملة (وقاتلوا في سبيل الله) الخ فإنهم لما أمروا بقتال عدوهم ، وكان العدو أوفر منهم عدة حرب أيقظهم إلى الاستعداد بإنفاق الأموال في سبيل الله ، فالمخاطبون بالأمر بالإنفاق جميع المسلمين لا خصوص المقاتلين.

ووجه الحاجة إلى هذا الأمر مع أن الاستعداد للحرب مركوز في الطباع : تنبيه المسلمين فإنهم قد يقصرون في الإتيان على منتهى الاستعداد لعدو قوي ، لأنهم قد ملئت قلوبهم إيماناً بالله وثقة به ، وملئت أسماعهم بوعد الله إياهم النصر وأخيراً بقوله (واعلموا أن الله مع المتقين) نبهوا على أن تعهد الله لهم بالتأييد والنصر لا يسقط عنهم أخذ العدة المعروفة فلا يحسبوا أنهم غير مأمورين ببذل الوسع لوسائل النصر التي هي أسباب أناط الله تعالى بها مسبباتها على حسب الحكمة التي اقتضاها النظام الذي سنه الله في الأسباب ومسبباتها ، فطلب المسببات دون أسبابها غلط وسوء أدب مع خالق الأسباب ومسبباتها كي لا يكونوا كالذين قالوا لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) .

روى البخاري عن حذيفة قال : نزلت الآية في النفقة .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه ، وابن حبان عن أبي أيوب الأنصار قال (نزلت الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سراً : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام ، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منا ، فأنزل الله يرد علينا ...) .

فكانت التهلكة الإقامة على أموالنا وصلاحها وتركنا الغزو .

وقال بعضهم : أن يذنب الرجل الذنب ، فيقول : لا يغفر لي ، فيلقي بيده إلى التهلكة ، أي يستكثر من الذنوب فيهلك .

فالتهلكة والهلاك نوعان : حسي بالموت، وهلاك معنوي: بالكفر والمعاصي، وترك الجهاد والإنفاق في سبيل الله والعمل للآخرة ، والتعرض لعذاب الله ، والحرمان من ثوابه ، وهذا أشد وأعظم ، وهذا هو المراد بالتهلكة في الآية ، كما قال أبو أيوب في سبب نزول الآية (فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد) .

وقد قال e (إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم) رواه أبو داود .

ولا يمتنع أن يشمل النهي في الآية أيضاً المعنى الأول وهو التسبب لإهلاك النفس بالموت ، بقتل الإنسان نفسه بأي سبب من الأسباب .

عن أبي هريرة . قال : قال e (من تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسى سماً فقتل نفسه ، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ..) متفق عليه .

ومع ذلك ، فإن العلماء - من المتقدمين والمتأخرين - يستدلون بهذه الآية أيضاً على النهي عن قتل النفس وإيذائها وإلقائها إلى التهلكة بأي طريقة من طرق التهلكة ، آخذين بعموم لفظ الآية ، وبالقياس

الجلي ، مقررين بذلك القاعدة الأصولية القائلة (العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب) .

- **قال الحافظ ابن حجر** رحمه الله : وأما قصرها عليه – يعني قصر الآية على موضوع ترك النفقة في سبيل الله - ففيه نظر ، لأن العبرة بعموم اللفظ .
- **وقال الشوكاني** : أي : لا تأخذوا فيما يهلككم ، وللسلف في معنى الآية أقوال . والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا ، وبه قال ابن جرير الطبري .

ويدل على ذلك أيضاً تنوع تفسيرات السلف لهذه الآية ، فقد ورد عن البراء بن عازب t أنه اعتبر من يذنب الذنب ثم ييأس من رحمة الله : أنه ألقى بيده إلى التهلكة ، قال ابن حجر : أخرجه ابن جرير وابن المنذر بإسناد صحيح .

(**وَأَحْسِنُوا**) يأمر الله تعالى بالإحسان ، وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان ، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء ، فيدخل فيه الإحسان بالمال ، ويدخل فيه الإحسان بالجاه ، وبالشفاعة ونحو ذلك ، وتعليم العلم النافع ، وقضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم ، وإزالة شدائدهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ، وإرشاد ضالهم .

ويدخل في ذلك الإحسان في عبادة الله ، إخلاصاً لله تعالى ، ومتابعة للرسول e ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) .

فالإحسان في عبادة الله : أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة .

والإحسان إلى المخلوق : بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة ، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك .

وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي e في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك).

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي e معنى الإحسان ، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون

- **قال ابن رجب :** قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ، وقد ثبت في "صحيح مسلم" عنِ النَّبِيِّ - e تفسيرُ الزِّيادةِ بالنّظرِ إلى وجهِ الله - عز وجل - في الجنة ، وهذا مناسبٌ لجعلِه جزاءً لأهلِ الإحسّانِ ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمنُ ربّه في الدُّنيا على وجهِ الحُضورِ والمراقبةِ ، كأنّه يراهُ بقلبِهِ وينظرُ إليه في حال عبادتِهِ ، فكانَ جزاءُ ذلك النَّظرَ إلى الله عياناً في الآخرة ، وعكس هذا ما أخبرَ الله تعالى به عَنْ جَزاءِ الكُفّار في الآخرةِ (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) ، وجعلَ ذلك

جزاءً لحالهم في الدُّنيا ، وهو تراكُم الرَّانِ على قُلوبِهم ، حتّى حُجِبَتْ عن معرفتِهِ ومُراقبته في الدُّنيا ، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبوا عن رُؤيته في الآخرة .

(**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) هذا تعليل للأمر بالإحسان، أي: إن الله يحب المحسنين بنوعي الإحسان، الإحسان في عبادته، والإحسان إلى عباده . (وقد تقدمت فضائل الإحسان) .

• وفي هذا إثبات المحبة لله تعالى .

الفوائد :

١ - وجوب الإنفاق في سبيل الله .

٢ -الإشارة إلى الإخلاص في الإنفاق .

٣ -تحريم إلقاء النفس بالتهلكة ، ومن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله .

٤ - الأمر بالإحسان .

٥ - فضل الإحسان والحث عليه .

٦ - إثبات المحبة لله .

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة البقرة: ١٩٦]

------------- ------

(**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**) لما ذكر تعالى أحكام الصيام ، وعطف بذكر الجهاد ، شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة .

والمعنى : أي وأكملوا الحج والعمرة لله بأركانهما وواجباتهما وسننهما بعد الإحرام بهما ، على الصفة التي شرع الله .

فمن أحرم بنسك حج أو عمرة وجب عليه إتمام ذلك النسك حتى ولو كان نفلاً .

• قوله (**لله**) أي : مخلصين لله عز وجل ، وهكذا في جميع الطاعات والعبادات تنبغي أن تكون لله تعالى وحده .

قال تعالى (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) .

وقال تعالى (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) .

وقال تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) .

وقال **e** (من بنى مسجداً لله بنى الله ...) متفق عليه .

وقال **e** (من صام رمضان إيماناً واحتساباً ...) متفق عليه .

وقال **e** (صَلاَةُ الرَّجُلِ في جماعةٍ تزيدُ عَلَى صلاَتِهِ في سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضْعاً وعِشْرينَ دَرَجَةً ، وذلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدِ لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاَةَ ، لا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَّلاَةُ ، لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها دَرجةٌ ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ

حتَّى يَدْخلَ الْمَسْجِدَ ، فَإذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ فِي الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ التي تحبِسُهُ ، وَالْمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ ما دام فِي مَجْلِسِهِ الَّذي صَلَّى فِيهِ ، يقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ ، ما لَمْ يُؤْذِ فِيهِ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ » متفقٌ عليه ،وهَذَا لَفْظُ مُسْلمٍ . وَقوْلُهُ e : «ينْهَزُهُ » هُوَ بِفتحِ الْياءِ وَالْهاءِ وَبالزَّاي : أَي يُخْرِجُهُ ويُنْهِضُهُ .

وقال e (إذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ . فَقَالَ أَحَدُكُمْ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ . ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ . ثُمَّ قَالَ حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ . قَالَ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ . ثُمَّ قَالَ حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ . قَالَ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ . ثُمَّ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ . قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ . ثُمَّ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ) رواه مسلم .

وقال e (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ) متفقٌ عليه .

وقال e (من تواضع لله رفعه الله) رواه مسلم .

وقال e (مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً ، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا ، وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ) متفق عليه .

- **قال السعدي** : يستدل بقوله تعالى (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ) على أمور:

أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما ..

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما، وواجباتهما، التي قد دل عليها فعل النبي e وقوله: (خذوا عني مناسككم) .

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة ..

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلاً ..

الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما ..

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله، وهو الحصر ..

(**فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**) الإحصار في اللغة : المنع والحبس ، يقال : حصره عن السفر وأحصره عنه إذا حبسه ومنعه .

والمعنى : أي : منعتم من إتمام الحج أو العمرة أو أحدهما .

واختلف العلماء هل المراد بالإحصار فقط بالعدو أو هو عام بالعدو وغيره كمرض أو ضياع نفقة أو غير ذلك على قولين :

القول الأول : أن المراد به حصر العدو دون المرض ونحوه .

وهذا قول ابن عباس وابن عمر وأنس وابن الزبير ، وهو قول سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير .

وهو الرواية المشهورة الصحيحة عن أحمد بن حنبل ، وهو مذهب مالك والشافعي .

وعلى هذا القول أن المراد بالإحصار ما كان من العدو خاصة ، فمن أحصر بمرض ونحوه لا يجوز له التحلل حتى يبرأ من مرضه ، ويطوف بالبيت ويسعى .

وحجة هذا القول متركبة من أمرين :

الأمر الأول : أن الآية الكريمة التي هي (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) نزلت في صد المشركين النبي e وأصحابه وهم محرمون بعمرة عام الحيبية عام ست بإطباق العلماء ، قاله الشنقيطي .

الأمر الثاني : ما ورد من الآثار من أن المحصر بمرض ونحوه لا يتحلل إلا بالطواف والسعي .

عن ابن عباس أنه قال (لا حصر إلا حصر العدو) رواه البيهقي .
قال النووي في شرح المهذب : إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم ، وصححه أيضاً ابن حجر .
القول الثاني : أن الإحصار أنه يشمل ما كان من عدو ونحوه ، وما كان من مرض ونحوه من جميع العوائق المانعة من الوصول إلى الحرم .
وممن قال بهذا القول : ابن مسعود ، ومجاهد وعطاء وقتادة وعروة بن الزبير وإبراهيم النخعي وعلقمة والثوري والحسن وأبو ثور وداود ، وهو مذهب أبي حنيفة ، ورجحه الطبري .
وحجة هذا القول من جهة شموله لإحصار العدو قد تقدم في حجة الذي قبله .
ومن جهة شموله للإحصار بمرض فهي ما رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن خزيمة والحاكم والبيهقي عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال : سمعت رسول الله e يقول (من كسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى) فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا : صدق .
قال النووي في شرح المهذب بعد أن ساق حديث عكرمة هذا : رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي وغيرهم بأسانيد صحيحة .
وهذا القول هو **الصحيح** .
(فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) أي : فاذبحوا ما تيسر من الهدي ، أي : فعليكم للخروج من النسك والتحلل من الإحرام ذبح أو نحر الذي تيسر من الهدي .
- فالذي يجب على المحصر :

أولاً : أن يذبح هدي .
لظاهر القرآن (فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) والجمهور على أن مكان ذبح الهدي هو مكان الإحصار، سواء كان حلاً أو حرماً، حيث أن الرسول e أحصر بالحديبية ونحر بها ، وهي ليست من الحرم .
ثانياً : الحلق أو التقصير .
قال بعض العلماء : إنه يلزمه أيضاً الحلق أو التقصير ، وهو مذهب مالك وأصحابه .
لما ثبت في الأحاديث الصحيحة عنه e أنه حلق لما صده المشركون عام الحديبية وهو محرم ، وأمر أصحابه أن يحلقوا .
وهذا أمر والأمر للوجوب .
وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يلزمه حلق ، وهذا قول مذهب الحنفية ، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد ، وهو ظاهر كلام الخرقي .
واحتج أهل هذا القول بأن الله تعالى قال (فما استيسر من الهدي) ولم يذكر الحلق ، ولو كان لازماً لبينه.
والراجح القول الأول ، ورجحه الشنقيطي .
- **الصحيح** أن المحصر إذا لم يستطع على الهدي فلا شيء عليه لا صيام ولا غيره ، خلافاً للمذهب .

(وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) قوله (وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) معطوف على قوله (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) وليس معطوفاً على قوله (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) لأن النبي e وأصحابه عام الحديبية لما أحصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم ، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم ، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز

الحلق (حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً ، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً .

ومعنى الآية : لا تزيلوا شعر رؤوسكم ، لأن ذلك من محظورات الإحرام ، إلى غاية وصول الهدي محله ، ومحله : أي زمان حلوله وهو يوم العيد ، ومكان حلوله وهو الحرم ، والمعنى : حتى يذبح الهدي يوم العيد .

- في هذا أن حلق الرأس من محظورات الإحرام، وقاس جمهور العلماء بقية شعور البدن، كالشارب والإبط والعانة وغير ذلك.

(**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً**) أي : به مرض يحتاج بسببه إلى حلق رأسه .

(**أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ**) بسبب القمل ونحو ذلك ، واحتاج إلى حلقه .

(**فَفِدْيَةٌ**) أي : فليحلق رأسه وعليه فدية .

(**مِنْ صِيَامٍ**) أي : تكون هذه الفدية من صيام ، وهو ثلاثة أيام .

(**أَوْ صَدَقَةٍ**) وهي إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع .

(**أَوْ نُسُكٍ**) وهو ذبح شاة .

وقد جاء ذلك مبيناً في حديث كعب بن عجرة :

عن كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ . (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ e وَقَفَ عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ يَتَهَافَتُ قَمْلاً فَقَالَ : أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ . قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ : فَاحْلِقْ رَأْسَكَ ، قَالَ: فَفِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ r : صُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ أَوِ انْسُكْ مَا تَيَسَّر) متفق عليه .

- ومثل حلق الرأس حلق الشارب والإبط والعانة ونحو ذلك .
- وفي الآية أنه يجوز فعل المحظور للضرورة وفيه الفدية ، ففاعل المحظور له ثلاث حالات :

أولاً : أن يفعل المحظور عالماً متعمداً ذاكراً غير معذور .

فهذا آثم وعليه الفدية .

ثانياً : أن يفعله عالماً مختاراً ذاكراً معذوراً .

فهذا عليه الفدية ولا إثم عليه .

فلو احتاج الإنسان إلى تغطية رأسه من أجل برد أو حر يخاف منه ، جاز له تغطيته وعليه الفدية .

ثالثاً : أن يفعله معذور بجهل أو نسيان .

فهذا لا شيء عليه لأنه جاهل أو ناسي .

- وفي التخيير في الفدية بين الصيام والصدقة والنسك تيسير على من احتاج إلى حلق الرأس ونحوه من المحظورات .

(**فَإِذَا أَمِنْتُمْ**) أي : بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره .

(**فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ**) أي : بأن توصل بها إليه ، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها .

(**فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**) أي : فعليه ما تيسر من الهدي وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى على نعمة التحلل والتمتع بين النسكين.

- ففيه أن المتمتع يجب عليه هدي ، وأما القارن ، فذهب جمهور العلماء على وجوب الهدي عليه ، وخالف داود الظاهري ولم يوجب على القارن دم ، قال : لأن الله قال (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج) فلا بد من تمتع فاصل بين العمرة والحج ، وهذا قول قوي .

لكن قول الجمهور أحوط ، وأما المفرد فليس عليه هدي ، قال النووي : بالإجماع .

(**فَمَنْ لَمْ يَجِدْ**) أي الهدي ، بأن عدمه ، وله صورتان :

الأولى : ألا يوجد هدي ، بحيث لا يجد في الأسواق شيئاً من بهيمة الأنعام .

الثانية : أن لا يوجد معه ثمن .

(**فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ**) أي : فعليه صيام ثلاثة أيام .

(**فِي الْحَجِّ**) أي : في أثناء الحج .

- وأول وقتها منذ إحرامه إلى آخر أيام التشريق ، عدا يوم العيد فيحرم صومه لنهي النبي e عن صوم يومي العيد .

وقد ذكر بعض العلماء أن الأفضل أن تكون اليوم السابع والثامن والتاسع ، لكون آخرها يوم عرفة ، قالوا : وفي هذه الحال ينبغي أن يحرم بالحج في اليوم السابع .

وفي هذا نظر من جهتين :

من جهة تقديم الإحرام بالحج ، ومن جهة كون آخرها يوم عرفة .

أما الأول : فإن تقديم إحرام الحج على اليوم الثامن خلاف هدي النبي e .

وأما الثاني : وهو كون آخرها يوم عرفة ، ففيه نظر أيضاً ، لأن النبي e (نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة) . رواه أبو داود ، وأتي بقدح فشربه أمام الناس ضحى يوم عرفة . متفق عليه

والذي يظهر أن الصحابة كانوا يصومونها في أيام التشريق ، لقول عائشة وابن عمر (لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدي) . رواه البخاري

فظاهر هذا النص : أن الصحابة كانوا يصومونها أيام التشريق ، وصومها في أيام التشريق صوم لها في أيام الحج ، لأن أيام التشريق أيام للحج ، ففيها : الرمي .

ويجوز أن يبدأ بصيامها من حين أن يحرم بالعمرة .

- هل يشترط أن تكون متتابعة ؟

إن ابتدأها في أول يوم من أيام التشريق ؛ لزم أن تكون متتابعة ضرورة ، لأنه لم يبق من أيام التشريق إلا ثلاثة ، ولا يجوز أن تؤخر عن أيام التشريق ، وأما إذا صامها قبل أيام التشريق ؛ فيجوز أن يصومها متفرقة ومتتابعة .

(**وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ**) قيل : إلى رحالكم، وقيل : إلى أوطانكم، روي هذا عن سعيد بن جبير، وأبي العالية، ومجاهد ، وعطاء، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والزهري ، والربيع بن أنس ، وحكى على ذلك ابن جرير الإجماع .

- وإذا صامها في الطريق أجزأه ذلك ، لأن المقصود من كونها رجع إلى أهله أن لا تكون في الحج .

(**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**) تأكيد لقوله تعالى (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ) كما في قوله تعالى (وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) وقوله تعالى (ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ) .

(**ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) أي : ذلك الهدي خاص بغير أهل الحرم .

- **قال ابن جرير :** واختلف أهل التأويل فيمن عني بقوله : (ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) بعد إجماعه في أن أهل الحرم معنيون به وأنه لا هدي لهم .

فقال بعضهم : هم من كان من دون المواقيت .

وقيل : هم أهل مكة فقط .

وقيل : هم أهل الحرم من أهل مكة وغيرهم .

وقيل : أهل الحرم ممن بينهم وبينه مسافة قصر ، لأن من دون المسافة يعتبر من أهل البلد .

- **قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله :** وأحسن ما يقال : إن حاضري المسجد الحرام هم : أهل مكة ، أو أهل الحرم ، أي من كان من أهل مكة ولو كان في الحل ، أو من كان في الحرم ولو كان خارج مكة .

(**وَاتَّقُوا اللَّهَ**) بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**) أي : واعلموا أن الله شديد العقوبة والمؤاخذة لمن خالف أمره وارتكب نهيه ، لأن العلم بذلك مع توفيق الله ، يحمل الإنسان على تقوى الله .

الفوائد :

١- وجوب إتمام الحج والعمرة بعد الشروع فيهما .

٢- أن الحج والعمرة يخالفان غيرهما في وجوب إتمام نفلهما .

٣- وجوب الهدي على من أحصر .

٤- استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن وجوب الحج على التراخي ليس على الفورية .

قالوا : لأن فرض الحج كان بقوله (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ...) فهذه الآية نزلت في السنة السادسة ، ولم يحج الرسول e إلا في العام العاشر من الهجرة .

وهذا قول ضعيف ، **والصحيح :** أن وجوب الحج على الفور .

وهذا قول المالكية وبعض الشافعية ، وهو ظاهر المذهب عند الحنابلة .

قالوا : لأن فرض كان في السنة التاسعة في قوله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) وأما الآية السابقة فإنما فيها وجوب إتمام الحج والعمرة بعد الشروع فيهما .

ثم إن الرسول e في قصة الحديبية أنه قال لأصحابه (قوموا فانحروا ، ثم احلقوا ، قال : فوالله ما قام منهم رجل ... فغضب النبي e ... دخل على أم سلمة مغضباً) ولو لم يكن الأمر للفور ما دخل رسول الله e على أم سلمة مغضباً .

٥- استدل بعض العلماء في هذه الآية على وجوب العمرة ، وهذا مذهب الحنابلة .

قال ابن قدامة : روي ذلك عن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وعطاء وطاووس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي .

واستدلوا أيضاً بما رواه أحمد وابن ماجه عن عائشة قالت (قلت : يا رسول الله ؛ على النساء جهاد ؟ قال : نعم ، عليهم جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة) .

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : فقوله (عليهن) ظاهرة في الوجوب ، لأن (على) من صيغ الوجوب .

وبما رواه الخمسة وصححه الترمذي أن النبي e قال للسائل (حج عن أبيك واعتمر) .

وذهب بعض العلماء إلى أنها غير واجبة ، وهذا مذهب المالكية وأهل الرأي .

لحديث جابر قال (أتى النبي e أعرابي فقال: يا رسول الله؛ أخبرني عن العمرة، أواجبة هي ؟ قال: (لا، وأن تعتمر خير لك) رواه أحمد والترمذي وهو ضعيف .

وعن طلحة قال : قال رسول الله e : (الحج جهاد والعمرة تطوع) . رواه ابن ماجه وهو ضعيف .

ورجح هذا القول الشوكاني والصنعاني ، حيث قال في سبل السلام : الأدلة لا تنهض عند التحقيق على الإيجاب الذي الأصل فيه عدمه .

٥-تحريم حلق شعر الرأس ، وأن حلقه من محظورات الإحرام .

قال العلماء : إن العلة هي الترفه ، لأن حلق شعر الرأس تحصل به النظافة .

وأكثر العلماء أن ذلك يشمل شعر الرجل والساق والصدر والشارب قياساً على شعر الرأس لاتحاد العلة .

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر ، تقليم الأظافر بجامع الترفه .

٦- أن من حلق رأسه لمرض أو قمل أو غيره ؛ فعليه الفدية ، لقوله (فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) .

والفدية : ما يعطى فداء لشيء .

والفدية : هي إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع ، أو صيام ثلاثة أيام متتابعة أو متفرقة ، أو ذبح شاة .

الدليل قوله تعالى : (فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) .

(صيام) مجمل لم يبينه الله عز وجل ، لكن بينها رسول الله e .

(أو صدقة) مجملة أيضاً ، لكن بينها الرسول e .

(أو نسك) مبين ، لأن النسك هو الذبيحة ، كما مر في حديث كعب بن عجرة .

وقد اختلف العلماء في القدر الذي تجب فيه الفدية .

قال بعضهم : إذا حلق ثلاث شعرات ، قال القاضي : هذا المذهب ، وهو قول الحسن وعطاء والشافعي .

وقال بعضهم : إذا حلق أربع شعرات .

وقال بعضهم : إذا حلق ما به إماطة الأذى فعليه الفدية ، وهذا مذهب مالك .

وهذا القول هو **الراجح** ، لأن النبي e حجم وهو محرم في رأسه ، ولم ينقل عن النبي e أنه افتدى .

٧- أن هذه الفدية على التخيير .

٨- التيسير على العباد ، وذلك بوقوع هذه الفدية على التخيير .

٩- جواز التمتع .

١٠- أن من لم يجد الهدي فإنه يصوم ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع .

١١- وجوب تقوى الله وتهديد من خالف ذلك .

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) .

[البقرة : ١٩٧] .

(**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ**) أي : الحج وقته أشهر معلومات .

- قوله (مَعْلُومَاتٌ) أي : معروفات مشهورات ، وهي ثلاثة أشهر : شول وذو القعدة وذو الحجة .

وقيل : شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة وهذا المذهب **والصحيح** الأول ، وأن أشهر الحج ثلاثة : شوال وذو القعدة وشهر ذي الحجة كاملاً لأن الله يقول (الحج أشهر معلومات) وأشهر جمع ، وأقل الجمع ثلاثة في اللغة ، وما يضعف القول الأول أن من أيام الحج (١١ ، ١٢ ، ١٣) من ذي الحجة يفعل فيها الحج الرمي والمبيت ، فكيف نخرجها من أشهر الحج ؟

- فلا يصح الإحرام بالحج قبل أشهره كرمضان .

(فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ) أي: فمن أحرم فيهن بالإحرام، لأن الإحرام والشروع به يصيره فرضاً حتى ولو كان حج نفل.

- **قال ابن كثير :** (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ) أي: أوجب بإحرامه حجاً، وفيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه.
- **قال ابن جرير :** أجمعوا على أن المراد من الفرْض هاهنا الإيجاب والإلزام .
- قوله (فِيهِنَّ) أي : في أشهر الحج ، والمراد بعضها ، أي : شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، لأن ما بعد طلوع الفجر يوم النحر ليس محلاً للإحرام لانتهاء وقت الوقوف بعرفة ، وقد قال e (الحج عرفة ، فمن جاء ليلة جمع قبل الفجر فقد أدرك) رواه أبو داود .

(فَلا رَفَثَ) الرفث : الجماع ومقدماته القولية والفعلية .

- **قال ابن كثير :** أي : من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث ، وهو الجماع كما قال تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك .

(وَلا فُسُوقَ) الفسوق المعاصي جميعها ، بترك المأمورات وارتكاب المحظورات .

فالواجب على الحاج اجتناب جميع المعاصي لقوله e (من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) رواه البخاري ، وقيل المراد بالفسوق هاهنا السباب ، والأول أرجح ورجحه ابن كثير .

- **قال ابن الجوزي :** وفي الفسوق ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه السباب ، قاله ابن عمر ، وابن عباس ، وإبراهيم في آخرين .

والثاني : أنه التنابز بالألقاب ، مثل أن تقول لأخيك : يا فاسق ، يا ظالم ، رواه الضحاك عن ابن عباس . **والثالث :** أنه المعاصي ، قاله الحسن ، وعطاء ، وطاووس ، ومجاهد ، وقتادة في آخرين ، وهو الذي نختاره ، لأن المعاصي تشمل الكل ، ولأن الفاسق : الخارج من الطاعة إلى المعصية .

(وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) الجدال والخصام والمنازعة والمغاضبة ، أي: ولا جدال ولا خصام في الحج، لا في أحكامه ومسائله، ولا في غير ذلك من المخاصمات والمنازعات في أمور الدين والدنيا وقت الحج .

- **قال ابن عاشور :** واتفقوا على أن المجادلة في إنكار المنكر وإقامة حدود الدين ليست من المنهي عنه ، فالمنهي عنه هو ما يجر إلى المغاضبة والمشاتمة وينافي حرمة الحج ، ولأجل ما في أحوال الجدال من التفصيل كانت الآية مجملة فيما يفسد الحج من أنواع الجدال فيرجع في بيان ذلك إلى أدلة أخرى .
- **وقال السعدي :** والمقصود من الحج ، الذل والانكسار لله ، والتقرب إليه بما أمكن من القربات ، والتنزه عن مقارفة السيئات ، فإنه بذلك يكون مبروراً ، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان ، فإنه يتغلظ المنع عنها في الحج .

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ) قليلاً كان أو كثيراً ، صغيراً كان أو كبيراً .

(يَعْلَمْهُ اللَّهُ) أي : يحيط به علماً ويحصيه عدداً ويجازيكم عليه .

- وفي هذا ترغيب وحث على الإكثار من أفعال الخير من أنواع القربات ، وأنه لن يضيع عند الله .

كما قال تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) .

وقال تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) .

وقال تعالى(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) .

(**وَتَزَوَّدُوا**) أي : تزودكم في سفركم إلى الحج بما تحتاجونه من مال ومأكل ومشرب وأثاث وغير ذلك ، لأن الواجب على الإنسان أن يستغني بما آتاه الله عما في أيدي الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

عن عكرمة عن ابن عباس قال (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) رواه البخاري .

- **قال في التسهيل :** (وَتَزَوَّدُواْ) **قيل :** احملوا زاداً في السفر ، **وقيل :** تزوّدوا للآخرة بالتقوى ، وهو الأرجح لما بعده .
- **وقال الشوكاني :** قوله (وَتَزَوَّدُواْ) فيه الأمر باتخاذ الزاد؛ لأن بعض العرب كانوا يقولون كيف نحجّ بيت ربنا ، ولا يطعمنا؟ فكانوا يحجون بلا زاد ، ويقولون : نحن متوكلون على الله سبحانه ، وقيل : المعنى تزوّدوا لمعادكم من الأعمال الصالحة (فَإِنَّ خَيْرَ الزاد التقوى) والأوّل أرجح كما يدل على ذلك سبب نزول الآية .

(**فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**) أي : فإن خير الزاد وأنفعه للعباد في الحال والمآل والمعاد وأبلغه وأوصله إلى المقصود : تقوى الله ، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فهي خير الزادين في الدنيا والآخرة، وهي الزاد الذي لا ينقطع نفعه، للدار التي لا تزول ولا تحول، في جنات الخلود .

- **قال ابن كثير :** لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى .

قال الشاعر :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى   وشاهدتَ بعد الموت من قد تزودا

ندمتَ على ألا تكون كمثلهِ   وأنك لم ترصد لما كان أرصدا .

وقال النبي e لابن عمر (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وكان ابن عمر يقول : إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح .

قال ابن رجب : وهذا الحديث أصلٌ في قِصَر الأمل في الدنيا ، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذ الدُّنيا وطناً ومسكناً ، فيطمئنّ فيها ، ولكن ينبغي أنْ يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر : يُهَيِّئُ جهازَه للرحيل .

وقد اتَّفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم ، قال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنّه قال (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) .

وكان النَّبيُّ e يقول (مالي وللدُّنيا إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كمثل راكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركها) .

ومن وصايا المسيح u لأصحابه أنَّه قال لهم : اعبُروها ولا تَعمُرُوها ، ورُوي عنه أنَّه قال : من ذا الذي يبني على موجِ البحر داراً ، تلكُمُ الدُّنيا ، فلا تتَّخذوها قراراً .

ودخلوا على بعض الصالحين ، فقلبوا بصرهم في بيته ، فقالوا له : إنَّا نرى بيتَك بيتَ رجلٍ مرتحلٍ ، فقال : أمرتحلٌ ؟ لا ، ولكن أُطْرَدُ طرداً .

وكان عليُّ بنُ أبي طالب t يقول : إنَّ الدُّنيا قدِ ارتحلت مدبرةً ، وإنَّ الآخرة قدِ ارتحلت مقبلةً ، ولكُلٍّ منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب ، وغداً حسابٌ ولا عمل .

قال بعضُ الحكماء : عجبتُ ممَّنِ الدُّنيا موليةٌ عنه ، والآخرة مقبلةٌ إليه، يشتغلُ بالمدبرة ، ويُعرِض عن المقبلة .

وقال عُمرُ بنُ عبد العزيز في خطبته : إنَّ الدُّنيا ليست بدارِ قرارِكُم ، كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظَّعَن ، فكم من عامرٍ موثَّق عن قليلٍ يَخْرَبُ ، وكم من مقيمٍ مُغتَبطٍ عما قليل يَظعَنُ ، فأحسنوا - رحمكم الله - منها الرِّحلة بأحسن ما بحضرتكم مِن النقلة ، وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّاد التقوى .

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ، ولا وطناً ، فينبغي للمؤمن أنْ يكون حالُه فيها على أحد حالين : إما أنْ يكونَ كأنَّه غريب مقيمٌ في بلد غُربةٍ ، هَمُّه التزوُّد للرجوع إلى وطنه ، أو يكون كأنَّه مسافرٌ غير مقيم البتَّة ، بل هو ليله ونهارَه ، يسيرُ إلى بلدِ الإقامة ، فلهذا وصّى النَّبيُّ e ابنَ عمر أنْ يكونَ في الدُّنيا على أحد هذين الحالين .

(**وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَاب**) بعد الترغيب بالتقوى ، أمر بها (يَا أُولِي الْأَلْبَاب) أي : يا أصحاب العقول والأفهام النيرة ، التي تهدي أصحابها وترشدهم إلى ما ينفعهم ، وتمنعهم عما يضرهم .

- **قال ابن كثير** : (وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَاب) يقول : واتقوا عقابي ، ونكالي ، وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري ، يا ذوي العقول والأفهام .
- **قال الشوكاني** : وقوله (واتقون يأُوْلِي الألباب) فيه التخصيص لأولي الألباب بالخطاب بعد حثّ جميع العباد على التقوى؛ لأن أرباب الألباب هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها ، ولبّ كل شيء خالصه .
- والألباب : جمع لُبٍ .

الفوائد :

١ -أن للحج أشهر معلومات .

٢ -أن الإحرام بالحج لا يصح إلا في أشهره .

٣ -أن الإحرام بالحج أو العمرة ينعقد بمجرد نية الدخول في النسك .

٤ -أن من أحرم بالحج وجب عليه إتمامه ولو كان نفلاً .

٥ - تحريم الجماع ومقدماته والفسوق والجدال والخصام والنزاع على المحرم .

٦ -الترغيب في فعل الخير .

٧ - علم الله بجميع الأشياء .

٨ - وجوب الاستعداد بالزاد لسفر الحج والعمرة والاستغناء عن الناس .

٩ -الحث على التزود بتقوى الله .

(لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ . ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

[البقرة : ١٩٨ – ١٩٩] .

(**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ**) عن ابن عباس، قال (كانت عكاظ ومَجَنَّة، وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأثَّموا أن يتجروا في المواسم فنزلت (لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ) في مواسم الحج .

وروى أبو داود عن ابن عباس، قال: كانوا يَتَّقون البيوع والتجارة في الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله (لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ) .

- والمعنى: ليس عليكم حرج ولا إثم أن تطلبوا زيادة الرزق من ربكم بالتجارة في موسم الحج، بالبيع والشراء وغير ذلك.

- لكن إن كان هو المقصود بالسفر للحج ، فليس لصاحبه سواه ، لأن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى .

(**فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ**) الإفاضة من عرفات : الدفع والانصراف منها إلى مزدلفة .

وعرفات : علم على مكان وقوف الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة .

- سميت بذلك :

قيل : لارتفاعها عما حولها .

وقيل : لأن الناس يعترفون فيها بذنوبهم .

وقيل : لأن آدم لما أهبط هو وزوجته حواء تعارفا في هذا المكان ، وقيل غير ذلك .

- **قال الشوكاني :** وسميت عرفات؛ لأن الناس يتعارفون فيه . وقيل : إن آدم التقى هو وحواء فيها ، فتعارف . وقيل : غير ذلك ، قال ابن عطية : والظاهر : أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع .

- والوقوف بعرفة هو أهم وأعظم أعمال الحج وأركانه قال e (الحج عرفة) .

(**فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**) المشعر الحرام مكان أداء الشعيرة من شعائر الله ، والمراد هنا المزدلفة كلها ، أي : فاذكروا الله بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم بصلاة المغرب والعشاء والفجر ودعائه وتكبيره وتهليله وتوحيد .

وقيل : المشعر الحرام جبل هناك ، لحديث جابر في صفة حج النبي e وفيه (... حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين وصلى الفجر حين تبين له الصبح ... ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس ...) رواه مسلم .

ففي قوله : حتى أتى المزدلفة ... ثم قال: حتى أتى المشعر الحرام ما يدل على التغاير، ويفيد أن المشعر الحرام جزء من مزدلفة.

- وقوله (الحرام) أي : ذو الحرمة ، لأنه داخل الحرم ، فمزدلفة داخل الحرم .

(**وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**) أمر الله عز وجل بذكره عند المشعر الحرام ، ثم أكد الأمر بذلك مقروناً بتنبيههم بما أنعم به عليهم من هدايتهم وتوفيقهم للطريق المستقيم ، ولمعرفة مشاعر الحج ومناسكه وأحكامه خاصة .

- الكاف في قوله (كما هداكم) يحتمل أن تكون للتشبيه، أي: واذكروه على الصفة التي هداكم وأرشدكم إليها، أي: وفق شرعه .

ويحتمل أن تكون للتعليل ، أي : واذكروه لهدايته لكم .

قال السعدي : قوله تعالى (وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ) أي : اذكروا الله تعالى ، كما منّ عليكم بالهداية بعد الضلال ، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعِم بالقلب واللسان .

(**وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ**) أي : قبل هداه لكم بما أنزل عليكم من القرآن وبعثة محمد e .

(**لَمِنَ الضَّالِّينَ**) أي : التائهين البعيدين عن طريق الحق ، وعن معرفة مشاعر الحج ومناسكه وأحكامه .

(**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**) يحتمل : أن يكون المراد بالإفاضة هنا الدفع من المشعر الحرام ، أي : من مزدلفة إلى منى لرمي جمرة العقبة وذبح الهدي .

ويحتمل أن يكون تأكيد لقوله تعالى قبل هذا (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ) أي : ثم ادعوا (مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ) من المكان الذي وقف فيه الناس ودفعوا منه وهو عرفات .

- **قال الشوكاني :** قيل : الخطاب في قوله (ثُمَّ أَفِيضُواْ) للحمس من قريش ، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات ، بل كانوا يقفون بالمزدلفة ، وهي من الحرم ، فأمروا بذلك ، وعلى هذا تكون «ثم» لعطف جملة على جملة لا للترتيب .

وقيل : الخطاب لجميع الأمة ، والمراد بالناس إبراهيم ، أي : ثم أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم ، فيحتمل أن يكون أمراً لهم بالإفاضة من عرفة، ويحتمل أن يكون إفاضة أخرى، وهي التي من المزدلفة، وعلى هذا تكون، «ثم» على بابها أي: للترتيب، وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير .

(**وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ**) أي : اطلبوا من الله مغفرة الذنوب .

- وكثيراً ما يأتي الأمر بالاستغفار بعد الانتهاء من الأعمال :

ففي هذه الآية أمر الله وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات وهو أجل المواقف وأفضلها ، فقال (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقال تعالى (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) .

وفي الصحيح (أن النبي e كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً ...) .

وأمره بالاستغفار بعد أداء الرسالة ، واقتراب أجله ، فقال في آخر سورة أنزلت عليه (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) .

- والحكمة من ذلك : قال ابن القيم : لشهودهم تقصيرهم فيها ، وترْك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه .

ولعل من الحِكم : دفع العجب ورؤية النفس .

- **قال السعدي** : ينبغي للعبد ، كلما فرغ من عبادة ، أن يستغفر الله عن التقصير ، ويشكره على التوفيق ، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة ، ومنّ بها على ربه ، وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة ، فهذا حقيق بالمقت ، ورد الفعل ، كما أن الأول ، حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر .

(**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**) أي : ذو مغفرة واسعة كما قال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) وقال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) .

قال السعدي : الغفور : الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب .

قال ابن القيم :

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان
لأتاه بالغفران ملء قرابها ... سبحانه هو واسع الغفران

والمغفرة : هي ستر الذنب عن الخلق ، والتجاوز عن عقوبته ، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله e قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه – عز وجل – حتى يضع كنفه – أي ستره ورحمته – فيقرره بذنوبه ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم ، أي ربي ، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال الله : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري ومسلم .

ومنه سمي المغفر ، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام .

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : محبة الله وحمده وشكره على رحمته لعباده وغفرانه لذنوبهم .

ثانياً : فتح باب الرجاء والمغفرة للشاردين عن الله تعالى والمسرفين على أنفسهم ، فمهما عظمت ذنوب العبد فإن مغفرة الله ورحمته أعظم كما قال تعالى (إن ربك واسع المغفرة) ، وقد تكفل الله بالمغفرة لمن تاب (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) ، بل من فضله وجود وكرمه أن تعهد بأن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات قال تعالى عن التائبين (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

ثالثاً : الإكثار من الأعمال الصالحة والحسنات لأنها من أسباب الحصول على مغفرة الله للسيئات السالفة، قال سبحانه (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) .

رابعاً : أن كونه سبحانه غفوراً وغفاراً للذنوب لا يعني أن يسرف المسلم في الخطايا والذنوب ويتجرأ على معصية الله تعالى بحجة أن الله غفور رحيم، لأن المغفرة لا تكون إلا بشروطها وانتفاء موانعها قال سبحانه (إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً).

خامساً : سؤال الله عز وجل بهذا الاسم الكريم مغفرة الذنوب ووقاية شرها، لأنه سبحانه وحده الذي يملك غفران الذنوب، ولا يملك ذلك أحد سواه .

سادساً : مجاهدة النفس على التخلق بخلق الصفح عن الناس وستر أخطائهم وعوراتهم والاهتداء بهدي القرآن الكريم الذي يأمر بالعفو عن الناس ومقابلة السيئة بالحسنة ، قال سبحانه في وصف المتقين (والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) .

(**رَحِيمٌ**) . اسم من أسماء الله ، متضمن لصفة الرحمة لله الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) .

- ورحمة الله تنقسم إلى قسمين :

رحمة ذاتية ثابتة لله عز وجل – ورحمة فعلية يوصلها من شاء من عباده ، كما قال تعالى (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) .

- من آثار رحمته :

من رحمته سبحانه وتعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور ، فالرسل رحمة من عند الله لعباده قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

ومن رحمته سبحانه وتعالى مغفرته لذنوب عباده والصفح عنهم ، وتكفير سيئاتهم ، وفتح باب التوبة لهم .

إلى غير ذلك .

- الآثار المرتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : محبة الله المحبة العظيمة، وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله في الآفاق وفي النفس والتي لا تعد ولا تحصى، وهذا يثمر تجريد المحبة لله والعبودية الصادقة له سبحانه وتقديم محبته على النفس والأهل والمال والناس جميعاً .

ثانياً : عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله وعدم اليأس من رحمة الله تعالى ، فإن الله قد وسعت رحمته كل شيء ، وحسن الظن بالله وانتظار الفرج بعد الشدة من أجل العبادات .

ثالثاً : اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى ، وقد حض الله عباده على التخلق بها ، ومدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ومن أسمائه e أنه نبي الرحمة ، ومدح الصحابة بقوله (رحماء بينهم) وخُص أبو بكر بينهم بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل حيث قال e فيه (أرحم أمتي أبو بكر) رواه أحمد .

الفوائد :

١- جواز الاتجار في الحج وطلب الرزق في البيع والشراء .

٢- امتنان الله على عباده والتوسعة عليهم ودفع الحرج عنهم .

٣- مشروعية الوقوف بعرفات .

٤- وجوب المبيت بمزدلفة .

٥- مشروعية ذكر الله عند المشعر الحرام .

٦- وجوب ذكر الله وشكره على نعمه العظيمة ومنها هدايته لعباده .

٧- فضل ذكر الله ، وأن العبادات إنما شرعت لذكر الله .

٨- تأكيد الوقوف بعرفة والإفاضة منها .

٩- مشروعية الاستغفار بعد الاستفاضة من عرفات والانتهاء من أعمال الحج .

١٠- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغفور والرحيم .

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

[البقرة : ٢٠٠ – ٢٠٢] .

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ) يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها .

(كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ) عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ، ويحمل الحمالات ، ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمد e (فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً) .

وقيل : استغيثوا بالله والجئوا إليه كما يستغيث الصغير بأبيه إذا مسه سوء .

- **قال ابن عاشور** : والمراد تشبيه ذكر الله بذكر آبائهم في الكثرة والتكرير وتعمير أوقات الفراغ به .

(أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً) ليست (أو) هاهنا للشك قطعاً ، وإنما هي لتحقيق الخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه .

(فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) هذا ذم لمن يسأل الله تعالى الدنيا وملذاتها دون الآخرة .

- **قال الشوكاني** : والخَلاق : النصيب ، أي : وما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب؛ لأن همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها ، ولا يطلب سواها ، وفي هذا الخبر معنى النهي عن الاقتصار على طلب الدنيا ، والذمّ لمن جعلها غاية رغبته ، ومعظم مقصوده .

(وَمِنْهُمْ) أي : ومن الناس قسم موفقون يدعون ربهم ويسألونهم من خيري الدارين ، في أمور دينهم ودنياهم فيقولون :

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) المراد بالحسنة في الدنيا، تشمل كل خير الدنيا من التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، ومن المتاع الحسن في هذه الحياة ، من صحة في البدن ، وفسحة في السكن ، وسعة في الرزق .

(وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) الحسنة في الآخرة الجنة وما فيها من ألوان وأنواع النعيم ، وأعلاها النظر إلى وجه الله الكريم .

(وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) أي : اجعل لنا وقاية من عذاب النار، ولك بحفظنا من الذنوب الموجبة لها ، وحفظنا أيضاً من دخولها.

ومن صفات عباد الله الخوف منها ،كما قال تعالى (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً) .

- فإن قيل : لم زاد في الدعاء (وقنا عذاب النار) ؟

الجواب : إنما زاد في الدعاء (وقنا عذاب النار) لأن حصول الحسنة في الآخرة قد يكون بعد عذاب منها فأريد التصريح في الدعاء بطلب الوقاية من النار. (تفسير ابن عاشور) .

- وهذا الدعاء من أعظم الأدعية وأجمعها وأكملها .

عن أنس . قال (كان أكثر دعاء النبي e (اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة ...) .

- **قال ابن كثير :** جمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا ، وصرَفت كلّ شر ، فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي ، من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هنيء ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين ، ولا منافاة بينها ، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا ، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات ، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا ، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام .

(**أُولَئِكَ**) فيه قولان :

أحدهما : أنه إشارة إلى الفريق الثاني فقط الذين سألوا الدنيا والآخرة ، والدليل عليه أنه تعالى ذكر حكم الفريق الأول حيث قال (وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خلاق) .

والقول الثاني : أنه راجع إلى الفريقين أي لكل من هؤلاء نصيب من عمله على قدر ما نواه .

(**لَهُمْ نَصِيبٌ**) أي : لهم حظ .

(**مِمَّا كَسَبُوا**) أي : فكل من هؤلاء وهؤلاء نصيب من كسبهم وجزاء أعمالهم كما قال تعالى (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) .

(**وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) يحتمل معنيان : يحتمل أن يوم الأخر – الذي يقع فيه الحساب – أن مجيئه قريب وسريع ، وكل ما هو آت قريب والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب .

كما قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

ويحتمل - وهو المتبادر - : أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم ، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك عليهم فإن ذلك يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة .

كما قال تعالى (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) .

- ووصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه .

الفوائد :

١- فضل ذكر الله .

٢- ينبغي أن يكون ذكر الله أكثر من كل شيء .

٣-انقسام الناس فيما يطلبون .

٤-إثبات الآخرة .

٥- فضل هذا الدعاء : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

٦-عدل الله .

٧- إثبات الحساب .

٨- تمام قدرة الله تعالى .

٩- إثبات علم الله

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

[البقرة : ٢٠٣] .

(**وَاذْكُرُوا اللَّهَ**) بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم ، بتكبيره وتهليله وتحميده وغير ذلك من أنواع الذكر .

(**فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**) وهي أيام التشريق ، الحادي عشر ، والثاني عشر ، والثالث عشر من ذي الحجة .

(**فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ**) أي : خرج من منى ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني .

(**فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**) أي : فلا حرج عليه .

(**وَمَنْ تَأَخَّرَ**) بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد .

(**فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**) أي : فلا حرج عليه أيضاً .

فكل ذلك، التعجل في يومين والتأخر، وهذا من التخفيف والتيسير على الأمة، لكن لمن تأخر زيادة أجر عمله في اليوم الثالث.

(**لِمَنِ اتَّقَى**) للذي اتقى الله في أعمال الحج ومناسكه وغيرها ، فعلاً لما أمر الله به ، وانتهاء عما نهى الله عنه .

كما قال e (من حج فلم يرفث ولم يفسق ...) .

وقال e (الحج المبرور ليس جزاء إلا الجنة) .

(**وَاتَّقُوا اللَّهَ**) بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

- **قال ابن عاشور :** (واتقوا الله) وصية جامعة للراجعين من الحج أن يراقبوا تقوى الله في سائر أحوالهم وأماكنهم ، ولا يجعلوا تقواه خاصة بمدة الحج كما كانت تفعله الجاهلية فإذا انقضى الحج رجعوا يتقاتلون ويغيرون ويفسدون ، وكما يفعله كثير من عصاة المسلمين عند انقضاء رمضان.

(**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) أي : واعلموا أنكم إليه ترجعون ، ولديه تجمعون ، وعليه تعرضون يوم القيامة وتحاسبون .

قال تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) .

وأمر الله بأن نعلم بأننا إليه راجعون ، لأن العلم بذلك أعظم واعظ يحمل على تقوى الله .

- **قال السمرقندى :** وإنما حذرهم الله تعالى ، لأنهم إذا رجعوا من حجهم ، يجترئون على الله تعالى بالمعاصي ، فحذرهم عن ذلك فقال (واتقوا الله واعلموا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) فيجازيكم بأعمالكم.

الفوائد :

١-ذكر الله في هذه الأيام المعدودات .

٢-جواز التعجل والتأخر في الحج .

٣- سعة فضل الله وتيسيره على عباده .

٤-وجوب تقوى الله .

٥-قرن المواعظ بالتخويف .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) .

[البقرة : ٢٠٤- ٢٠٦] .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي : ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابك بخلابة لسانه وقوة بيانه .

- و(من) بمعنى بعض كما في قوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ) .
- قال ابن عاشور : والخطاب إما للنبي ﷺ أي ومن الناس من يظهر لك ما يعجبك من القول وهو الإيمان وحب الخير والإعراض عن الكفار .

ويجوز أن الخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب ، تحذيراً للمسلمين من أن تروج عليهم حيل المنافقين ، وتنبيهه لهم إلى استطلاع أحوال الناس وذلك لا بد منه .

- **قال بعض العلماء :** إنها نزلت في الأخنس بن شَرِيق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك.

وقال بعضهم : أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خُبَيب وأصحابه الذين قتلوا بالرّجيع وعابُوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خُبَيب وأصحابه (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّه) .

قال ابن كثير : وقيل بل ذلك عام في المنافقين كلهم وهذا قول قتادة، ومجاهد، والرّبيع ابن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح.

- **قال الرازي :** ... اختيار أكثر المحققين من المفسرين ، أن هذه الآية عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات المذكورة .
- **قال ابن عاشور :** والمراد من القول هنا ما فيه من دلالته على حاله في الإيمان والنصح للمسلمين، لأن ذلك هو الذي يهم الرسول ويعجبه، وليس المراد صفة قوله في فصاحة وبلاغة؛ إذ لا غرض في ذلك هنا ، لأن المقصود ما يضاد قوله: وهو ألد الخصام إلى آخره .
- قوله تعالى (في الحياة الدنيا) قيل : أي في هذه الحيا الدنيا فقط ، وأما في الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطلع على القلوب والسرائر .

(وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ) قيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حَلَف وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسانه. وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير .

قال ابن عاشور : ومعنى (يشهد الله على ما في قلبه) أنه يقرن حسن قوله وظاهر تودده بإشهاد الله تعالى على أن ما في قلبه مطابق لما في لفظه ، ومعنى إشهاد الله حلفه بأن الله يعلم إنه لصادق.

قال تعالى (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) .

وقال تعالى (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ) .

(وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) الألد في اللغة هو الأعوج، وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب، ويَزْوَرّ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر، كما قال ﷺ (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان) متفق عليه .

وفي البخاري عن عائشة . قالت . قال رسول الله e (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) .

(وَإِذَا تَوَلَّى) أي : أدبر ، وذهب عنك يا محمد ، وقيل : إنه بمعنى الولاية : أي : إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض ، قال الرازي : والقول الأول أقرب إلى نظم الآية ، لأن المقصود بيان نفاقه ، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ويظهر المحبة ، وعند الغيبة يسعى في إيقاع الفتنة والفساد .

(سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) السعي هنا القصد ، كما قال تعالى إخباراً عن فرعون (ثم أدبر يسعى ...) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) أي : اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي منهي عنه بالسنة النبوية (إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة والوقار) .

- **قال الشوكاني:** والسعي المذكور يحتمل أن يكون المراد به: السعي بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض، كقطع الطريق، وحرب المسلمين، ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد، وإن لم يكن فيه سعي بالقدمين، كالتدبير على المسلمين بما يضرّهم، وأعمال الحيل عليهم، وكل عمل يعمله الإنسان بجوارحه، أو حواسه يقال له سعي، وهذا هو الظاهر من هذه الآية.
- **قال ابن كثير :** فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وهو محل نماء الزروع والثمار ، والنسل، وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوَام للناس إلا بهما.
- والحرث هنا مراد منه الزرع، والنسل أطفال الحيوان .

وقال مجاهد: إذا سُعي في الأرض فسادًا، منع الله القطْرَ، فهلك الحرث والنسل .

- **قال الشوكاني :** قال الزجاج: وذلك، لأن النفاق يؤدي إلى تفريق الكلمة، ووقوع القتال، وفيه هلاك الخلق، وقيل معناه: أن الظالم يفسد في الأرض، فيمسك الله المطر، فيهلك الحرث والنسل .
- فالمعاصي سبب لنزول المصائب وزوال النعم .

قال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) .

وقال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

وقال تعالى (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) .

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

(وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ) بيان أن عمله هذا مكروه إلى الله ، لأن الله لا يحب الفساد ، وإذا كان لا يحب هذا الفعل فإنه لا يحب من اتصف به ، ولهذا جاء في آية أخرى (واللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ) أي: إذا وُعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له : اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق امتنع وأبى، وأخذته الحميَّة والغضب بالإثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام .

وقيل المعنى : حملته العزة على الإثم ، من قولك أخذته بكذا : إذا حملته عليه ، وألزمته إياه .

وقيل : الباء في قوله (بالإثم) بمعنى اللام ، أي : أخذته العزّة ، والحمية عن قبول الوعظ للإثم الذي في قلبه ، وهو : النفاق .

وقيل : الباء بمعنى : مع ، أي : أخذته العزّة مع الإثم .

(**فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ**) أي : هي كافيته عقوبة في ذلك ، فتكون له جهنم مهاداً وفرشاً .

(**وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**) أي : ولبئس هذا الفراش والمهاد .

- والمهاد جمع المهد ، وهو الموضع المهيأ للنوم ، ومنه مهد الصبي ، وسميت جهنم مهاداً لأنها مستقرّ الكفار .

الفوائد :

١ - عدم الاغترار بظواهر الحال .

٢ - وجود النفاق والمنافقين في كل زمان ومكان .

٣ - من أعظم صفات المنافقين الكذب ، فهم يحلفون على صدقهم وهم كاذبون .

٤ - الإشارة إلى ذم الجدل والخصام .

٥ - أن المعاصي سبب لهلاك الحرث والنسل .

٦ - إثبات محبة الله للصلاح .

٧ - الحرص على السعي للصلاح .

٨ - التحذير من الفساد في الأرض .

٩ - الحذر من رد النصيحة .

١٠ - أن رد النصيحة من علامات المنافقين .

١١ - أن الأنفة تحمل صاحبها على الإثم .

١٢ - الحذر من الكبر .

(وَمِن النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) .

[البقرة : ٢٠٧] .

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ**) لما أخبر تعالى عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ) أي : ومن الناس فريق من أهل الخير باع نفسه .

قال ابن كثير : قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النّهدي، وعكرمة، وجماعة: نزلت في صُهيب بن سنَان الرومي، وذلك أنَّه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإنْ أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، فَعَل ، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرّة ، فقالوا : رَبح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أنّ الله أنزل فيه هذه الآية ، ويروى أن رسول الله e قال له (ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب) .

وأما الأكثرون فحمَلوا ذلك على أنها نزلت في كل مُجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ، ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين، أنكر عليه بعضُ الناس، فردّ عليهم عُمَر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَاد).

(**ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**) أي : طلباً لمرضات الله ورغبة في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله .

قال الرازي : أكثر المفسرين على أن المراد بهذا الشراء : البيع ، قال تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) أي باعوه ، وتحقيقه أن المكلف باع نفسه بثواب الآخرة ، وهذا البيع هو أنه بذلها في طاعة الله ، من الصلاة والصيام والحج والجهاد ، ثم توصل بذلك إلى وجدان ثواب الله ، كان ما يبذله من نفسه كالسلعة ، وصار الباذل كالبائع ، والله كالمشتري ، كما قال (إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة) وقد سمى الله تعالى ذلك تجارة ، فقال (ياأيها الذين ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ على تجارة تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وتجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ) .

(**وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**) أي : ذو رأفة ، وهي أشد الرحمة .

- **قال الرازي :** فمن رأفته أنه جعل النعيم الدائم جزاء على العمل القليل المنقطع ، ومن رأفته جوز لهم كلمة الكفر إبقاء على النفس ، ومن رأفته أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ومن رأفته ورحمته أن المصر على الكفر مائة سنة إذا تاب ولو في لحظة أسقط كل ذلك العقاب وأعطاه الثواب الدائم ، ومن رأفته أن النفس له والمال ، ثم أنه يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً .

الفوائد :

١ - فضل من باع نفسه لله .

٢ -الإشارة إلى الإخلاص في سبيل الله .

٣ -تقديم مرضات الله على النفس .

٤ - رأفة الله بعباده .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) .

[البقرة : ٢٠٨- ٢٠٩] .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**) يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين المصدقين برسوله ، أن يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك .

وذهب بعض العلماء إلى أن المعنى : ادخلوا في الإسلام كلكم .

وقيل : إنها نزلت في قوم من اليهود أسلموا وأرادوا أن يعظموا السبت كما كانوا فالمعنى على هذا : ادخلوا في الإسلام ، واتركوا سواه .

وقيل : (السلم) بفتح السين المسالمة ، والمراد بها هنا عقد الذمة بالجزية ، والأمر على هذا لأهل الكتاب ، وخوطبوا بالذين آمنوا لإيمانهم بأنبيائهم وكتبهم المتقدمة .

قال ابن كثير : والصحيح الأول ، وأنهم أمروا أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام .

قال ابن تيمية : (ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) أي : الإسلام كافة ، أي في جميع شرائع الإسلام .

ورجحه الشيخ ابن عثيمين، **فقال :** هل المراد ادخلوا في السلم جميعه ، فتكون (كافة) حالاً من (السلم) أو ادخلوا أنتم جميعاً في السلم وتكون (كافة) حالاً من الواو في قوله (ادخلوا) ؟ الأقرب المعنى الأول ، لأننا لو قلنا بالمعنى الثاني : ادخلوا جميعاً في

السلم صار معنى ذلك أن بعض المؤمنين لم يدخل في الإسلام وحينئذ فلا يصح أن يوجه إليه النداء بوصف الإيمان ، فالمعنى الأول هو الصواب أن (كافة) حال من (السلم) يعني ادخلوا في الإسلام كله ، ولا تدعوا شيئاً من شعائره .

(**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**) تقدم شرحها .

ومناسبتها هنا ، لأن الشيطان يريد منكم عدم الدخول في الإسلام ، ويريد أيضاً عدم العمل بجميع شرائع الإسلام .

(**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**) جملة تعليلية أي: لا تتبعوا خطوات ومسالك الشيطان، لأنه ظاهر العداوة لكم، وذلك لأن الشيطان التزم أموراً سبعة في العداوة أربعة منها في قوله تعالى (وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الأنعام وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله) وثلاثة منها في قوله تعالى (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين) فلما التزم الشيطان هذه الأمور كان عدواً متظاهراً بالعداوة فلهذا وصفه الله تعالى بذلك. [مفاتيح الغيب : ٤/٥]

- وقد حذرنا الله في آيات كثيرة عن اتباع خطواته :

كما قال تعالى (وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (وِمنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

(**فَإِنْ زَلَلْتُمْ**) أي: عدلتم عن الحق .

(**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ**) أي : بعد ما قامت عليكم الحُجَجُ .

- **قال الشوكاني** : (مّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ البينات) أي : الحجج الواضحة ، والبراهين الصحيحة ، أن الدخول في الإسلام هو الحق .

(**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**) فاعلموا أن الله عزيز في انتقامه، لا يفوته هارب، ولا يَغلبه غالب .

(**حَكِيمٌ**) حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه .

قال في التسهيل : (فاعلموا أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ) تهديد لمن زل بعد البيان .

الفوائد :

١- فضل الإيمان .

٢- أن الإيمان مقتض لامتثال الأوامر .

٣- وجوب العمل بالشرع جملة وتفصيلاً .

٤- تحريم اتباع خطوات الشيطان .

٥- أن من أعظم خطوات الشيطان الصد عن الدخول في الإسلام .

٦- عداوة الشيطان .

٧- شدة عداوة الشيطان للإنسان كما قال تعالى عنه (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) .

٨- قرن الحكم بعلته .

٩- الوعيد لمن زل بعد قيام الحجة عليه .

١٠- أن الله تعالى أقام البينات على العباد .

١١- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : العزيز والحكيم .

١٢- إثبات الحكمة الكاملة لله تعالى .

١٣- إثبات العزة – بجميع أنواعها – لله تعالى .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

[البقرة : ٢١٠] .

(**هَلْ يَنْظُرُونَ**) يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد e (**هَلْ يَنْظُرُونَ**) أي : ما ينتظر هؤلاء المكذبون الذين زلوا بعدما جاءتهم البينات .

(**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ**) أي : لفصل القضاء .

- وفيه إثبات إتيان الله تعالى إتياناً يليق بجلاله .

(**فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**) (في) بمعنى (مع) يعني يأتي مصاحباً لهذه الظلل ، وإنما أخرجناها عن الأصل الذي هو الظرفية ، لأنا لو أخذناها على أنها للظرفية صارت هذه الظلل محيطة بالله عز وجل ، والله أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته .

- والغمام قيل إنه السحاب الأبيض الرقيق ، وهذا الغمام يأتي مقدمة بين يدي مجيء الله تعالى كما قال تعالى (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً) .

(**وَالْمَلائِكَةُ**) أي : وتأتيهم الملائكة أيضاً محيطة بهم .

قال ابن كثير : يقول تعالى مُهَدّدًا للكافرين بمحمد e (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ) يعني: يوم القيامة، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كُلّ عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر .

كما قال (كَلا إِذَا دُكَّتِ الأرْضُ دَكًّا دَكًّا* وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفاً . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) .

وقال (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) .

(**وَقُضِيَ الْأَمْرُ**) أي : فرغ منه ، وصار أهل النار إلى النار وأهل الجنة إلى الجنة .

(**وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**) أي : إلى الله وحده لا إلى غيره ترجع الأمور ، أمور الدنيا والآخرة كما قال تعالى (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) ومنها أن الناس يرجعون يوم القيامة إلى ربهم فيحاسبهم .

الفوائد :

١- وعيد هؤلاء بيوم القيامة .

٢-إثبات إتيان الله يوم القيامة للفصل بين عباده .

٣- إثبات الملائكة .

٤- إثبات عظمة الله تعالى .

٥- أن الملائكة أجسام .

٦- أن يوم القيامة به ينقضي كل شيء ، فليس بعده شيء ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

٧- عظمة الله وتمام سلطانه .

٨- إثبات البعث والجزاء .   [الاثنين ١٨ / ١٢ / ١٤٣٢هـ] .

(سَلْ بَنِي إِسْرائيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .
[البقرة : ٢١١- ٢١٢] .

(سَلْ بَنِي إِسْرائيلَ) يقول الله تعالى لنبيه e ، سل – أيها الرسول – بني إسرائيل المعاندين لك .

- وفي المراد بالسؤال : التقرير والإذكار بالنعم ، والتوبيخ على ترك الشكر .
- **قال الشوكاني :** وهو سؤال تقريع وتوبيخ .

(كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ) أي : كم شاهدوا مع موسى (مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ) أي : حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به ، كيده وعصاه وفَلَقِهِ البحر وضربِهِ الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المنّ والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، أي : استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها .

كما قال تعالى عن كفار قريش (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ).

- **قال السعدي :** وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها ، لأن من أنعم الله بنعمةٍ دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقم بواجبها اضمحلت عنه وذهبت ، وتبدلت بالكفر والمعاصي ، فصار الكفر بدل النعمة .

(وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) أي : قوي الجزاء بالعقوبة .

- وسمي الجزاء عقوبة وعقاباً ، لأنه يقع عقب الذنب مؤاخذة به .

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أي: زين وحسّن للذين كفروا بالله وبرسله الحياة الدنيا وشهواتها وما فيها من المتاع الزائل ونسوا الآخرة ، فجمعوا الأموال من غير حلها، وصرفوها في غير مصرفها، وعظموا الدنيا وأهلها وعملوا من أجلها ، فرضوا بها، واطمأنوا لها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها ، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموا من شاركهم في صنيعهم .

- والتزيين جعل الشيء بهياً في عين الإنسان أو في سمعه أو في مذاقه أو في فكره .
- والمزيِّن إما أن يكون الله ، كما في قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ) وإما أن يكون الشيطان ، كما قال تعالى (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) ولا منافاة بين الأمرين ، فإن الله زين لهم سوء أعمالهم ، لأنهم أساءوا كما يفيده قوله تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) ، والتزيين من الله باعتبار التقدير ، أما الذي باشر التزيين ووسوس لهم بذلك فهو الشيطان . (ابن عثيمين) .
- فعلى المسلم أن يحذر من الحياة الدنيا وشهواتها ، ولهذا نهانا الله عن الاغترار بالكفار وما عليهم من الشهوات والملذات .

قال تعالى (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) .

وقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

(وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) أي : ويستهزؤن بأهل الإيمان ويرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا والتقلل منها .

- فيسخرون من أهل الإيمان : لفقرهم ، ولتصديقهم بالبعث ، ولإيمانهم بمحمد e .

والسخرية والاستهزاء سنة ماضية من قِبل أعداء الإسلام لأهله ، فقد سخر واستهزأ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) .

ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الْكُفَّارَ اسْتَهْزَءُوا بِرُسُلٍ قَبْلَ نَبِيِّنَا e وَأَنَّهُمْ حَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَلَمْ يُفَصِّلْ هُنَا كَيْفِيَّةَ اسْتِهْزَائِهِمْ ، وَلَا كَيْفِيَّةَ الْعَذَابِ الَّذِي أُهْلِكُوا بِهِ ، وَلَكِنَّهُ فَصَّلَ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ ، فِي ذِكْرِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ ، وَهُودٍ وَقَوْمِهِ ، وَصَالِحٍ وَقَوْمِهِ ، وَلُوطٍ وَقَوْمِهِ ، وَشُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

فَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِنُوحٍ قَوْلُهُمْ لَهُ (بَعْدَ أَنْ كُنْتَ نَبِيًّا صِرْتَ نَجَّارًا) .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) .

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) ، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِهُودٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) .

وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ أَيْضًا (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ الْآيَةَ) .

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ..) ، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِصَالِحٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ (يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

وَقَوْلُهُمْ (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ..) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِلُوطٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ...) وَقَوْلُهُمْ لَهُ أَيْضًا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِشُعَيْبٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) .

(وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فيكون المتقون في أعلى الدرجات ، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور ، والكفار تحتهم في أسفل الدركات ، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا منتهى له

- **قال الشوكاني :** والمراد بالفوقية هنا : العلوّ في الدرجة؛ لأنهم في الجنة ، والكفار في النار ، ويحتمل أن يراد بالفوق : المكان؛ لأن الجنة في السماء ، والنار في أسفل سافلين ، أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام ، وسقوط الكفر ، وقتل أهله ، وأسرهم ، وتشريدهم ، وضرب الجزية عليهم ، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة .

- ويوم القيامة سمي بذلك لأمور ثلاثة :

أولاً : لقيام الناس من قبورهم .

قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ثانياً : ولقيام الأشهاد .

كما قال تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

ثالثاً : ولقيام الملائكة .

لقوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) .

- وفي الآية فضل التقوى .

(وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) أي : يرزق من يشاء من خلقه ، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة .

كما قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

وقال e (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وينزل فيه ملكان : يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

ومن أسماء الله: الرزاق، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) المتضمن لصفة الرَّزْق (بالتشديد وفتح الراء) .

وأما الرِّزق بالكسر فهو العين المرزوقة ، فإذا أتاك طعام فهو رِزق ، وإذا أتاك مال فهو رِزق .

- **قال السعدي :** (الرزاق) لجميع عباده فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ورزقه لعباده نوعان :

الأول : رزق عام شمل البر والفاجر والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان .

والثاني : رزق خاص وهو رزق القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين ، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته .

- وقد جاء في السنة اسم (الرازق) :

عن أنس ، قال : قد غلا السعر على عهد رسول الله e ، فقالوا : يا رسول الله ، قد غلا السعر فسعر لنا ، فقال : (إن الله هو المسعر القابض الباسط الرزاق ، وإني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال). رواه أبو داود

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا :

أولاً : محبة الله ، وإفراده سبحانه بالعبادة والانخلاع من الشرك بجميع أنواعه وأشكاله ، لأن الخالق لعباده والرازق لهم هو وحده المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

وهذا ما احتج به سبحانه على المشركين حيث قال تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ) .

وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

ثانياً : إن اليقين بأنه سبحانه المتفرد برزق عباده ، يثمر التوكل الصادق على الله ، والتعلق به وحده مع فعل الأسباب الشرعية في طلب الرزق (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) .

ثالثاً : كما أن اليقين بذلك يثمر ترك الأسباب المحرمة في طلب الرزق ، وعدم الخوف من المخلوق في قطع الرزق .

رابعاً : قدرة الله ، حيث إن المتكفل بأرزاق جميع خلقه لا يمكن أن يكون إلا قادراً مقتدراً على فعل كل ما يشاء .

خامساً : إن أعظم ما استجلب به رزق الله والبركة فيه تقوى الله وطاعته ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

سادساً : إيمان العبد باسمه سبحانه (الرزاق) يبعد عن القلب الشح والبخل .

سابعاً : وجوب طلب الرزق من الله لا من غيره .

قال تعالى عن الخليل (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) ولم يقل : فابتغوا الرزق عند الله ، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر ، كأنه قال : لا تبتغوا الرزق إلا عند الله . (قاله ابن تيمية) .

الفوائد :

١ - بيان كثرة ما أعطاه الله بني إسرائيل من الآيات البينات .

٢ -تقريع وتوبيخ بني إسرائيل .

٣ - التحذير من تبديل نعمة الله .

٤ - تهديد ووعيد من يبدل نعمة الله كفراً .

٥ - انخداع الكافرين بالحياة الدنيا .

٦ - أن المؤمن الحق ليست الدنيا في عينه شيئاً .

٧ - حقارة الدنيا .

٨ - أن الاستهزاء بالمؤمنين سنة ماضية من أعداء الإسلام .

٩ - أن العبرة بكمال النهاية .

١٠ - البشرى للمؤمنين .

١١ - كثرة رزق الله . [الثلاثاء ١٩ / ١٢ / ١٤٣٢هـ] .

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

[البقرة : ٢١٣] .

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي : كان الناس على الإيمان والفطرة ، وهذا بين آدم ونوح .

- فالمراد بالناس هنا: الذين هم بين آدم ونوح، فسار هؤلاء على التوحيد من عهد آدم إلى أن انتشر الشرك في عهد نوح، وهذا قول أكثر المحققين .

قال ابن عباس: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

- **قال ابن الجوزي :** قوله تعالى (كان الناس أمةً واحدةً) في المراد بـ (الناس) ها هنا ثلاثة أقوال :

أحدها : جميع بني آدم ، وهو قول الجمهور .

والثاني : آدم وحده ، قاله مجاهد .

والثالث : آدم وأولاده كانوا على الحق ، فاختلفوا حين قتل قابيلُ هابيلَ . ذكره ابن الأنباري . والأمَّة هاهنا : الصنف الواحد على مقصد واحد .

- **قال ابن عاشور :** والأمة بضم الهمزة: اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، مشتقة من الأم بفتح الهمزة وهو القصد أي يؤمون غاية واحدة، وإنما تكون الجماعة أمة إذا اتفقوا في الموطن أو الدين أو اللغة أو في جميعها.

(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) أي : فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

- **قال ابن عاشور :** ولأجل هذه القرينة يتعين تقدير فاختلفوا بعد قوله (أُمَّةً وَاحِدَةً) لأن البعثة ترتبت على الاختلاف لا على الكون أمة واحدة ، وعلى هذا الفهم قرأ ابن مسعود (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله...) ، ويؤيد هذا التقدير قوله في آية سورة يونس (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) لأن الظاهر اتحاد غرض الآيتين، ولأنه لما أخبر هنا عن الناس بأنهم كانوا أمة واحدة ونحن نرى اختلافهم علمنا أنهم لم يدوموا على تلك الحالة .

والمقصود من الآية على هذا الوجه التنبيه على أن التوحيد والهدى والصلاح هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها حين خلقهم كما دلت عليه آية (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) .

- فيه أن مهمة الرسل والنبيين التبشير والإنذار ، **وإرسال الرسل له حكم :**

أولاً : التبشير للمؤمن والإنذار للكافر .

قال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

ثانياً : رحمة للناس .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

ثالثاً : البلاغ المبين .

قال تعالى (وإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) .

وقال تعالى (مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .

وقال تعالى (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) .

رابعاً : الدعوة إلى الله .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

خامساً : إقامة الحجة .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) .

وعندما يصيحون بالنار بعد أن يحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة جهنم:كما قال تعالى (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) .

- قوله (النَّبِيِّينَ) النبي مشتق من النبأ ، وهو الخبر ، قال تعالى (عم يتساءلون عن النبأ العظيم) ، وإنما سمي النبي نبياً لأنه مخبرٌ مخبَر ، أي : أن الله أخبره وأوحى إليه .

وقيل : مشتق من النبْوة ، وهي ما ارتفع من الأرض .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والتحقيق أن هذا المعنى – أي العلو والارتفاع – داخل في الأول ، فمن أنبأه الله فلا يكون إلا رفيع القدر علياً .

- واختلف العلماء في الفرق بين الرسول والنبي ؟

فجماهير العلماء يرون أن الرسول : من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه .
والدليل على التفريق قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) .
وشيخ الإسلام يرى : أن الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ، أو من أوحي إليه بشرع من قبله ولكنه بعث إلى قوم مخالفين يدعوهم إلى هذا الشرع الذي معه ، وأما النبي فهو المبعوث لتقرير شرع من قبله ، فالنبي مأمور بالبلاغ ، لكنه يبلغه لقوم مؤمنين كأكثر أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يعملون بالتوراة من بعد موسى .
(**وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ**) أي : وأنزل مع كل نبي كتاب ، فالكتاب هنا جنس يشمل جميع الكتب .
وقد قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) .

- **قال ابن الجوزي :** والكتاب : اسم جنس ، كما تقول : كثر الدرهم في أيدي الناس . وذكر بعضهم أنه في التوراة .

(**بِالْحَقِّ**) الباء للملابسة وللتعدية : أي أن القرآن نفسه نزل حقاً من عند الله لا من عند غيره ، وتكون للتعدية : بمعنى أن الكتاب نزل بالحق أي : أن ما اشتمل عليه القرآن فهو حق ، فعلى الوجه يكون المراد بقوله : بالحق تأكيد أنه نزل من عند الله ، وعلى الوجه الثاني يكون المعنى : أن كل ما اشتمل عليه القرآن من أوامر ونواهي وأخبار فهو حق .
وكلا المعنيين صحيح ، فهي حق من عند الله ، وما جاءت به من الشرائع والأخبار فهو حق .
(**لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ**) في الحاكم هاهنا ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه الله تعالى .
والثاني : أنه النبي الذي أنزل عليه الكتاب .
والثالث : الكتاب ، كقوله تعالى (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) .
والمعنى ليحكم النبي بالكتاب كما قال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا).
(**فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**) فكل شيء اختلفوا فيه فالكتاب يحكم بينهم .
(**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ**) أي : في الكتاب المذكور ، وقيل : يعود في الحق .
(**إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ**) أي : أوتوا وأعطوا الكتاب .
(**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**) أي : الآيات الواضحات ، والحجج الساطعات .
(**بَغْياً بَيْنَهُمْ**) أي : أن ذلك بسبب الحسد والتعدي والبغي من بعضهم على بعض .
قال الشوكاني : أي لم يختلفوا إلا للبغي : أي الحسد والحرص على الدنيا ، وفي هذا تنبيه على السفه في فعلهم ، والقبح الذي وقعوا فيه ، لأنهم جعلوا نزول الكتاب سبباً في شدّة الخلاف .

- **قال ابن عاشور :** والمعنى أن داعي الاختلاف هو التحاسد ، وقصد كل فريق تغليط الآخر ، فيحمل الشريعة غير محاملها ليفسد ما حملها عليه الآخر فيفسد كل فريق صواب غيره وأما خطؤه فأمره أظهر.

وقوله(بَيْنَهُمْ) متعلق بقوله (بَغْياً) للتنصيص على أن البغي بمعنى الحسد، وأنه ظلم في نفس الأمة وليس ظلما على عدوها.
(**فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ**) في جميع الأبواب ، فهداهم للدين الحق وهو الإسلام ، وهداهم إلى الحق فيما اختلفوا فيه في أنبيائهم كعيسى ، وهداهم إلى الحق .
عن أبي هريرة في قوله (فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ) قال: قال النبي e (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أوّلُ الناس دخولا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا له فالناس لنا فيه تبع، فغدًا لليهود، وبعد غد للنصارى) متفق عليه .

قال ابن كثير : قال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه في قوله (فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ) فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد. فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة.

واختلفوا في القبلة؛ فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة.

واختلفوا في الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد e للحق من ذلك.

واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك.

واختلفوا في إبراهيم، عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهوديًا، وقالت النصارى: كان نصرانيًا، وجعله الله حنيفًا مسلمًا، فهدى الله أمة محمد e للحق من ذلك.

واختلفوا في عيسى u ، فكذّبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا، وجعلته النصارى إلهًا وولدًا، وجعله الله روحه، وكلمته، فهدى الله أمة محمد e للحق من ذلك.

- **قال ابن الجوزي :** وفي الذي اختلفوا فيه ستة أقوال :

أحدها : أنه الجمعة ، جعلها اليهود السبت ، والنصارى الأحد ، وسبق الحديث في ذلك .

والثاني : أنه الصلاة ، فمنهم من يصلي إلى المشرق ، ومنهم من يصلي إلى المغرب .

والثالث : أنه إبراهيم . قالت اليهود : كان يهودياً ، وقالت النصارى : كان نصرانياً .

والرابع : أنه عيسى ، جعلته اليهود لِفرية ، وجعلته النصارى إلهاً .

والخامس : أنه الكتب ، آمنوا ببعضها ، وكفروا ببعضها .

والسادس : أنه الدين ، وهو الأصح ، لأن جميع الأقوال داخلة في ذلك .

- في الآية أنه كلما قوي إيمان العبد كان أقرب إلى إصابة الحق لقوله تعالى (فهدى الله الذين آمنوا) لأن الله علق الهداية على وصف الإيمان ، وما علق على وصف يقوى بقوته ويضعف بضعفه .

(**بِإِذْنِهِ**) أي: بعلمه، بما هداهم له ، وقيل : بأمره .

(**وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**) أي : من خلقه ، أي ممن يستحق الهداية ، لأن كل شيء علق بمشيئة الله فإنه تابع لحكمته ، كما أنه سبحانه يجعل الرسالة في أهلها كما قال تعالى (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) فكذلك هو أعلم حيث يجعل هدايته .

(**إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) الذي يجمع بين العلم والعمل ، كما قال تعالى (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) .

عن عَائِشَةَ . قَالَتْ كَانَ النبي e إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاَتَهُ (اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِى لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم) رواه مسلم .

وفي الدعاء المأثور (اللهم، أرنا الحق حَقّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا ووفّقنا لاجتنابه، ولا تَجْعَلْه ملتبسًا علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً) .

فالإنسان قد يعرف الحق ولا يعمل به ولا يوفق لاتباعه ، وقد لا يعرف الحق .

الفوائد :

١- أن دين الإسلام هو الفطرة .

٢ - الحكمة في إرسال الرسل وهي التبشير والإنذار .

٣ -أن الشرائع التي جاءت بها الرسل تنقسم إلى قسمين : أوامر ونواهي .

٤ - الترغيب والترهيب في الدعوة .

٥ - إثبات علو الله تعالى بأنواعه .

٦ -أن الكتب منزلة من عند الله .

٧ -أن الواجب الرجوع إلى الكتاب عند النزاع .

٨ - أن الناس لو رجعوا إلى الكتاب المنزل لحصل بينهم الائتلاف .

٩ - أن كل مخالف للحق بعدما تبين فهو باغ ضال .

١٠ - رحمة الله بالمؤمنين .

١١ - أن الإيمان سبب للهداية للحق .

١٢ - ينبغي على العبد أن يسأل ربه الهداية .

١٣ - أن كل ما سوى دين الله فهو معوج . [الأربعاء ٢٠ / ١٢ / ١٤٣٢هـ] .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

[البقرة : ٢١٤] .

(**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ ...**) أي : أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة .

(**وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ**) أي : والحال أنه لم يصبكم مثلُ ما أصاب مَن قبلكم مِن أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار .

- (مثل) أي : صفة ما وقع لهم ، و المثل يكون بمعنى الصفة مثل قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي : صفتها كذا وكذا .

ويكون بمعنى الشبه ، كقوله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً) أي : شبههم كشبه الذي استوقد ناراً .

(**مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ**) أي : الفقر .

(**وَالضَّرَّاءُ**) أي : الأمراض في أبدانهم .

(**وَزُلْزِلُوا**) بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل ، والنفي ، وأخذ الأموال ، وقتل الأحبة ، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال وآل بهم الزلزال إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به .

فتكون الإصابات هنا في ثلاثة مواضع : في المال ، والبدن ، والنفس .

- **قال ابن عاشور** : إن القصد من ذكر الأمم السالفة حيثما وقع في القرآن هو العبرة والموعظة والتحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه بسوء عملهم والاقتداءُ في المحامد ، فكان في قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة) الآية إجمال لذلك وقد ختم بقوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) ، ولما كان هذا الختام منقبة للمسلمين أُوقِظوا أنْ لا يُزْهَوْا بهذا الثناء فيحسبوا أنهم قضَوْا حق شكر النعمة ، فعقب بأن عليهم أن يصبروا لما عسى أن يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء

والضراء اقتداء بصالحي الأمم السالفة ، فكما حذرهم الله من الوقوع فيما وقع فيه الضالون من أولئك الأمم ، حرضهم هنا على الاقتداء بهدي المهتدين منهم على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة وعكس ذلك .

كما جاء في الحديث الصحيح عن خَبَّاب بن الأرَتّ قال (قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال : إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفْرَق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يَصْرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون) .

وقال الله تعالى (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) .

وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة، رضي الله عنهم، في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا) .

ولما سأل هرقلُ أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كان الحرب بينكم؟ قال: سِجَالاً يدال علينا ونُدَال عليه. قال: كذلك الرسل تُبْتَلى، ثم تكون لها العاقبة .

- **قال السعدي :** من سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل ، أن من قام بدينه وشرعه ، لا بد أن يبتليه ، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة آلتها ، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني، ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه .
- **وقال ابن تيمية** في الحكمة من هذا الابتلاء : فإن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء كالذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يفتن في كير الامتحان ، إذ كانت النفس جاهلة ظالمة وهي منشأ كل شر يحصل للعبد ، فلا يحصل له شر إلا منها ، قال تعالى (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) .

قال ابن القيم مبيناً الحكمة مما أصاب النبي وأصحابه يوم أحد :

فمنها: تعريفُهم سوءَ عاقبة المعصية، والفَشَل، والتنازُع، وأن الذي أصابَهم إنما هو بِشُؤمِ ذلِكَ، كما قال تعالى (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ، مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ

ومنها: أن حِكمة الله وسُنَّته في رُسله، وأتباعِهم، جرت بأن يُدَالوا مَرَّةً، ويُدَالَ عليهم أُخرى، لكن تكونُ لهم العاقبةُ، فإنهم لو انتصرُوا دائماً، دخلَ معهم المؤمنون وغيرُهم، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِن غيره، ولو انْتُصِرَ عليهم دائماً، لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة، فاقتضت حِكمة الله أن جمع لهم بينَ الأمرين ليتميز مَن يتبعُهم ويُطيعهُم للحق، وما جاؤوا به ممن يتبعُهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا مِن أعلام الرسل، كما قال هِرَقْلُ لأبى سفيان: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قال: نعم. قَالَ: كَيْفَ الحَرْبُ بَيْنَكُم وبَيْنَه ؟ قالَ: سِجَال، يُدالُ علينا المرة، ونُدالُ عليه الأخرى. قال: كَذلِكَ الرُّسُل تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَة.

ومنها: أن يتميَّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِن المنافقِ الكاذب .

ومنها: استخراجُ عبوديةِ أوليائه وحزبِه فى السَّراء والضرَّاء، وفيما يُحبُّون وما يكرهون، وفى حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتُوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيدهُ حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد مِن السَّراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدوِّهم فى كُلِّ موطن، وجعل لهم التَّمْكِينَ والقهرَ لأعدائهم أبداً، لطغتْ نفوسُهم، وشمخت وارتفعت .

ومنها: أن النفوسَ تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يَعُوقُها عن جِدِّها فى سيرها إلى الله والدارِ الآخرة، فإذا أراد بها ربُّهَا ومالِكُهَا وراحِمُهَا كرامته، قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليلَ الدواءَ الكريه، ويقطع منه العروقَ المؤلمَةَ لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه، لَغَلَبَتْهُ الأدواءُ حتى يكون فيها هلاكه.

(**حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ**) من شدة الكرب والبلاء ، قالوا ذلك: استعجالاً للنصر وليس للشك .

(**أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**) يحتمل أن يكون جواباً من الله تعالى لهم ، إذ قالوا (متى نَصْرُ الله) فيكون كلامهم قد انتهى عند قوله (متى نَصْرُ الله) ثم قال الله عند ذلك (أَلا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ) .

ويحتمل أن يكون ذلك قولاً لقوم منهم ، كأنهم لما قالوا (متى نَصْرُ الله) رجعوا إلى أنفسهم فعلموا أن الله لا يعلي عدوهم عليهم ، فقالوا (أَلا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ) فنحن قد صبرنا يا ربنا ثقة بوعدك ، وكلاهما صحيح .

- في هذه الآية البشارة العظيمة بأن نصر الله وتفريج الكربات مقرون بالكرب .

كما قال e (وَأَنْ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) ويشهد لهذا :

قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا) .

وقوله تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) .

وقوله تعالى (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

قال ابن رجب رحمه الله: وكم قص سبحانه من قصص تفريج كربات أنبيائه عند تناهي الكرب، كإنجاء نوح ومن معه في الفلك، وإنجاء إبراهيم من النار ، وفدائه لولده الذي أمر بذبحه ، وإنجاء موسى وقومه من اليم ، وإغراق عدوهم .

قال رحمه الله : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر : أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهي ، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال الفضيل : لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد .

الفوائد :

١ - إثبات الجنة .

٢ - أن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي .

٣ -حكمة الله في الابتلاء بهذه المصائب .

٤ - حكمة الله حيث يمنع النصر لفترة معينة من الزمن .

٥ - أن الصبر على البلاء من أسباب دخول الجنة .

٦ - تبشير المؤمنين بالنصر ليتقووا على الاستمرار في الجهاد .

٧- أنه لا وصول إلى الكمال إلا بعد تجرع الصبر .

(يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢١٥] .

(**يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ**) أي : الصحابة يسألونك ماذا ينفقون ، والسؤال هنا عن المنفَق ، لا على المنفق عليه ، أي : يسألونك ماذا ينفقون من أموالهم جنساً وقدراً وكيفاً .

والعلة من سؤال الصحابة : حرصهم على تعلم دينهم وتطبيقه .

وقد تكرر سؤال الصحابة للنبي e في عدة مواطن .

والنفقة : هي بذل المال في وجوه الخير .

(**قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ**) أي : مال قليل أو كثير .

(**فَلِلْوَالِدَيْنِ**) فهما أعظم الناس به وأحقهم بالتقديم ، وأعظمهم حقاً عليه .

قد يبدو للإنسان في أول وهلة أن الله إنما أجابهم عن محل الإنفاق – لا عن (ماذا ينفقون) لكن من تأمل الآية تبين له أن الله أجابهم عما ينفقون ، وعما ينفقون فيه ، لقوله (ما أنفقتم من خير) ففي هذا بيان ما ينفقون ، وفي قوله (فللوالدين ...) بيان ما ينفقون فيه .

(**وَالْأَقْرَبِينَ**) على اختلاف طبقاتهم ، الأقرب فالأقرب ، على حسب القرب والحاجة ، فالإنفاق عليه صدقة وصلة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ قَالَ « أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أَبُوكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ) رواه مسلم .

وأبا طلحة لما أراد أن يتصدق ببيرحاء قال له رَسُولُ اللَّهِ e (بَخْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ » . فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) متفق عليه .

(**وَالْيَتَامَى**) واليتيم : هو من مات أبوه وهو لم يبلغ .

- قال في التسهيل : جمع يتيم : وهو من فقد والده قبل البلوغ ، واليتيم من سائر الحيوان من فقد أمه .
- وقد أوصت الشريعة بالعناية باليتيم وبماله وحذرت من أكل ماله .

فقد أوصى الله باليتيم في آيات كثيرة .

كقوله تعالى (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) .

وقال تعالى (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ) .

وحذر الله من أكل مال اليتامى .

فقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) .

وأخبر النبي e أن كافل اليتيم في الجنة .

فقال e (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما) متفق عليه .

وقال e (اللهم إني أحرّج حق الضعيفين اليتيم والمرأة) رواه النسائي ، أي : ألحق الحرج وهو الإثم بمن ضيع حقهما ، وأحذّر من ذلك تحذيراً بليغاً .

(**وَالْمَسَاكِينِ**) والمساكين جمع مسكين، وهو من لا يجد تمام كفايته، سموا بذلك، لأن الفقر أذله وأسكنه، وقد استعاذ النبي e من الفقر والجوع ، فعن أبي هريرة . أن النبي e كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع) . رواه أبو داود
وفي حديث أبي بكرة أن النبي e كان يقول دبر كل صلاة (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر) . رواه النسائي

- ويدخل في المساكين هنا : الفقراء ، لأن كلاً منهما يطلق على الآخر إذا انفرد كل واحد منهما ، لكن إذا ذكرا معاً كما في قوله تعالى (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) كان لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر .
- وسمي المعدم مسكيناً ، لأن الفقر أسكنه وأذله ، فلا يطمع أن يصل إلى مرتبة الأغنياء .

(**وَابْنِ السَّبِيلِ**) وهو المسافر المنقطع به .
(**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ**) من صدقة على هؤلاء وعلى غيرهم ، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات .
(**فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**) فيجازيكم به ويحفظه لكم ، كل حسب نيته وإخلاصه ، وكثرة نفقته وقلتها ، وشدة الحاجة إليها ، وعظم وقعها وموقعها ، فإنه سبحانه لا يَظلم أحداً مثقال ذرة .

الفوائد :

١ - حرص الصحابة على السؤال عن العلم .
٢ - فضل الإنفاق على الوالدين والأقربين .
٣ - اهتمام الشريعة باليتامى والمساكين .
٤ - فضل الإنفاق والصدقة .
٥ - الحث على فعل الخير ولو كان قليلاً .
٦ -عموم علم الله تعالى .
٧ - في الآية وعد من الله بالإثابة على العمل الصالح .

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) .
[البقرة : ٢١٦] .

(**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ**) هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين .
والجهاد في الأصل فرض كفاية .
والدليل على ذلك :
قول الله تعالى (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) وهذا يدل على أن القاعدين غير آثمين مع جهاد غيرهم .
وقال الله تعالى (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا) .
ولأن رسول الله e كان يبعث السرايا ويقيم هو وسائر أصحابه .
قال ابن قدامة : ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع :

احدها : إذا التقا الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف وتعين عليه المقام .

لقول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

الثاني : إذا نزل الكفر ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

الثالث : إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفي معه .

لقول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) .

وقال النبي e (وإذا استنفرتم فانفروا) متفق عليه .

- والجهاد في سبيل الله فضله عظيم :

أولاً : أن الروحة في سبيل الله خير من الدنيا بما فيها .

لقوله e (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها) .

ثانياً : أنه من أفضل الأعمال .

عن أبي ذر قال : (قلت يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال : الإيمان بالله ، والجهاد في سبيل الله) . متفق عليه

ثالثاً : أن المجاهد أفضل الناس .

عن أبي سعيد الخدري قال: (أتى رجل رسول الله e فقال: أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله). متفق عليه

رابعاً : الجهاد لا يعدله شيء .

عن أبي هريرة t قال : (قيل : يا رسول الله ، ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : لا تستطيعونه ، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول : لا تستطيعونه ، ثم قال : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم ، القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله) . متفق عليه

خامساً : للمجاهدين مائة درجة في الجنة .

قال e : (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض). رواه البخاري

سادساً : الجهاد سبب للنجاة من النار .

قال e : (ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار) . رواه البخاري

قال الحافظ ابن حجر : وفي ذلك إشارة إلى عظم قدر التصرف في سبيل الله، فإذا كان مجرد مسّ الغبار للقدم يحرم عليها النار، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفذ وسعه ؟ .

سابعاً : من أسباب دخول الجنة .

قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

ثامناً : المجاهد يكون الله في عونه .

قال e : (ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف). رواه أحمد

تاسعاً : الجهاد ذروة سنام الإسلام .

قال e : (وذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله) . رواه الترمذي

ذروة الشيء : أعلاه .

عاشراً : نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين المجاهدين وغير المجاهدين .

قال تعالى : (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) .

الحادي عشر : أن الجهاد سبب لمغفرة الذنوب .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

(وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ) أي : شديد عليكم ومشقة ، وهو كذلك ، فإنه إما أن يُقتلَ أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء .

- **قال الرازي :** أن المراد من الكره ، كونه شاقاً على النفس ، والمكلف وإن علم أن ما أمره الله به فهو صلاحه ، لكن لا يخرج بذلك عن كونه ثقيلاً شاقاً على النفس ، لأن التكليف عبارة عن إلزام ما في فعله كلفة ومشقة ، ومن المعلوم أن أعظم ما يميل إليه الطبع الحياة ، فلذلك أشق الأشياء على النفس القتال.

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) لما فيه من الثواب العظيم ، والتحرز من العقاب الأليم ، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم ، والأمن والاطمئنان ، ورد العدو عن التفكير في غزو المسلمين .

قال ابن تيمية : فَأَمَرَ بِالْجِهَادِ وَهُوَ مَكْرُوهٌ لِلنُّفُوسِ لَكِنَّ مَصْلَحَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى مَا يَحْصُلُ لِلنُّفُوسِ مِنْ أَلَمِهِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَشْرَبُ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ لِتَحْصُلَ لَهُ الْعَافِيَةُ ، فَإِنَّ مَصْلَحَةَ حُصُولِ الْعَافِيَةِ لَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى أَلَمِ شُرْبِ الدَّوَاءِ ، وَكَذَلِكَ التَّاجِرُ الَّذِي يَتَغَرَّبُ عَنْ وَطَنِهِ وَيَسْهَرُ وَيَخَافُ وَيَتَحَمَّلُ هَذِهِ الْمَكْرُوهَاتِ ، مَصْلَحَةُ الرِّبْحِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى هَذِهِ الْمَكَارِهِ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ e أَنَّهُ قَالَ (حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) .

- **وقال الرازي:** معنى الآية أنه ربما كان الشيء شاقاً عليكم في الحال، وهو سبب للمنافع الجليلة في المستقبل وبالضد، ولأجله حسن شرب الدواء المر في الحال لتوقع حصول الصحة في المستقبل، وحسن تحمل الأخطار في الأسفار لتوقع حصول الربح في المستقبل، وحسن تحمل المشاق في طلب العلم للفوز بالسعادة العظيمة في الدنيا وفي العقبى، وههنا كذلك وذلك لأن ترك الجهاد وإن كان يفيد في الحال صون النفس عن خطر القتل، وصون المال عن الإنفاق، ولكن فيه أنواع من المضار :

منها: أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم فإما أن يأخذكم ويستبيح دماءكم وأموالكم، وإما أن تحتاجوا إلى قتالهم من غير إعداد آلة وسلاح ، وهذا يكون كترك مداواة المرض في أول ظهوره بسبب نفرة النفس عن تحمل مرارة الدواء ، ثم في آخر الأمر يصير المرء مضطراً إلى تحمل أضعاف تلك النفرة والمشقة ، والحاصل أن القتال سبب لحصول الأمن ، وذلك خير من الانتفاع بسلامة الوقت .

ومنها: وجدان الغنيمة .

ومنها: السرور العظيم بالاستيلاء على الأعداء.

أما ما يتعلق بالدين فكثيرة : **منها** ما يحصل للمجاهد من الثواب العظيم إذا فعل الجهاد تقرباً وعبادة وسلك طريقة الاستقامة فلم يفسد ما فعله ، **ومنها** أنه يخشى عدوكم أن يستغنمكم فلا تصبرون على المحنة فترتدون عن الدين ، **ومنها** أن عدوكم إذا رأى جدكم في دينكم وبذلكم أنفسكم وأموالكم في طلبه مال بسبب ذلك إلى دينكم ، فإذا أسلم على يدكم صرتم بسبب ذلك

مستحقين للأجر العظيم عند الله ، **ومنها** أن من أقدم على القتال طلباً لمرضاة الله تعالى كان قد تحمل ألم القتل بسبب طلب رضوان الله ، وما لم يصر الرجل متيقناً بفضل الله وبرحمته وأنه لا يضيع أجر المحسنين ، وبأن لذات الدنيا أمور باطلة لا يرضى بالقتل ومتى كان كذلك فارق الإنسان الدنيا على حب الله وبغض الدنيا ، وذلك من أعظم سعادات الإنسان.

- **وقال القرطبي :** ومثاله في الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه كقطع عضو وقلع ضرس وفصدٍ وحِجامةٍ ابتغاء العافية ودوام الصحة ، ولا نعيم أفضل من الحياة الدائمة في دار الخلد والكرامة في مقعد صدقٍ.
- **وقال ابن القيم :** ... الإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول ، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يصره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه ، بل المعيار علي ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه ، فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه ، وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه ، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له ، فكل ما يجرى عليه مما يكرهه يكون خيراً له ، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له ، فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته ، علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع لتي لا يحصيها علمه ولا فكرته ، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب ، فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها ، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها .
- **وقال رحمه الله :** في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد :

فان العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه ، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة ، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة ، لعدم علمه بالعواقب ، فإن الله يعلم منها مالا يعلمه العبد وأوجب له ذلك أمورا :

منها : أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء ، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح ، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع ، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهى وان هويته نفسه ومالت إليه وإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب .

ومن أسرار هذه الآية : أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة .

ومنها : أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم ، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئاً بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك .

ومنها : أنه إذا فوض إلى ربه ورضى بما يختاره له ، أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه ، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه .

ومنها : أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منه في عقبة وينزل في أخرى ، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه ، فلو رضى باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه .

(**وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**) وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة ، فإنه شر، لأنه يعقب الخذلان ، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله ، وحصول الذل والهوان ، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب.

وهذه الآيات عامة مطردة، في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحب النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك.

(**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**) فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره ، سواء سرتكم أو ساءتكم .

- **قال الرازي :** (واللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) فالمقصود منه الترغيب العظيم في الجهاد ، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد قصور علم نفسه ، وكمال علم الله تعالى ، ثم علم أنه سبحانه لا يأمر العبد إلا بما فيه خيرته ومصلحته ، علم قطعاً أن الذي أمره الله تعالى به وجب عليه امتثاله ، سواء كان مكروهاً للطبع أو لم يكن فكأنه تعالى قال : يا أيها العبد اعلم أن علمي أكمل من علمك فكن مشتغلاً بطاعتي ولا تلتفت إلى مقتضى طبعك فهذه الآية في هذا المقام تجري مجرى قوله تعالى في جواب الملائكة (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

الفوائد :

١- فرضية الجهاد .

٢- فضل الجهاد .

٣- الحث على الجهاد .

٤- أن النفس قد تكره الشيء لمشقته ، لكن قد يكون فيه خيراً عظيماً كالجهاد .

٥- أن البشر لا يعلمون الغيب .

٦- ينبغي على المسلم أن يثق بأن أوامر الله كلها خير ومصالح ولو كانت بظاهرها مشقة .

٧- عموم علم الله تعالى .

(يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[البقرة : ٢١٧] .

(يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ) أي : يسألك يا محمد الناس عن القتال في الشهر الحرام .

- **قال ابن الجوزي :** وفي السائلين النبي e عن ذلك قولان :

أحدهما : أنهم المسلمون سألوه : هل أخطؤوا أم أصابوا ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ومقاتل .

والثاني : أنهم المشركون سألوه على وجه العيب على المسلمين ، قاله الحسن وعروة ، ومجاهد .

- والمراد بالشهر الحرام، الجنس، أي: أن المراد الأشهر كلها وهي ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ورجب.

وقد اختلف العلماء هل القتال في الأشهر الحرم منسوخ أم لا على قولين :

القول الأول : أنه منسوخ .

وهذا مذهب جماهير العلماء .

القول الثاني : أنه محكم ليس بمنسوخ .

(قِتَالٍ فِيهِ) أي : أيحل القتال فيه .

(قُلْ) لهم مجيباً .

(قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) أي : القتال فيه عظيم عند الله ، لكن هناك ما هو أعظم خطراً .

- وقد اختلف العلماء هل القتال في الأشهر الحرم منسوخ أم باق على قولين :

القول الأول : أنه منسوخ ، وأن القتال في الأشهر الحرم كان حراماً ثم نسخ .

وهذا قول جماهير العلماء .
لقوله تعالى (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) .
ولغزوه e الطائف في شهر ذي القعدة .
القول الثاني : أنه باق غير منسوخ .
لحديث جابر (أن النبي e كان لا يغزو في الشهر الحرام حتى يغزى) .
وأما قتال النبي e في الشهر الحرام فهو قتال مدافعة لا ابتداء ، والله أعلم .
- وأما قتال الدفاع فهو جائز جماعاً .

(وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي : ومنع الناس عن دين الله .
(وَكُفْرٌ بِهِ) أي : والكفر بالله .
(وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أي : وصدهم عن المسجد الحرام كما قال تعالى (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) .
قال الرازي : وأما قوله (والمسجد الحرام) فإن عطفناه على الضمير في (بِهِ) كان المعنى : وكفر بالمسجد الحرام ، ومعنى الكفر بالمسجد الحرام هو منع الناس عن الصلاة فيه والطواف به ، فقد كفروا بما هو السبب في فضيلته التي بها يتميز عن سائر البقاع ، ومن قال : إنه معطوف على سبيل الله كان المعنى : وصد عن المسجد الحرام ، وذلك لأنهم صدوا عن المسجد الحرام الطائفين والعاكفين والركع السجود .
(وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ) أي : أهل المسجد الحرام ، وهم النبي e وأصحابه ، لأنهم أحق به من المشركين ، وهم عماره على الحقيقة فأخرجوهم منه ولم يمكنوهم من الوصول إليه ، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد .
(أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ) أي : أعظم إثماً وجرماً عند الله من القتال في الشهر الحرام .
(وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) أي : فتنة المسلم وصده عن دين الله أكبر عند الله من القتل .
قال ابن القيم : والمقصود : أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ، ولم يُبرئ أولياءَه من ارتكاب الإثم بالقتالِ في الشهر الحرام ، بل أخبر أنه كبير ، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبرُ وأعظمُ مِن مجردِ القتالِ في الشهر الحرام ، فهم أحقُّ بالذمِّ والعيبِ والعُقوبَةِ ، لا سيما وأولياؤه كانوا متأوِّلين في قتالهم ذلك ، أو مقصِّرين نوعَ تقصير يغفِره الله لهم في جنب ما فعلوه مِن التوحيد والطاعات ، والهِجرة مع رسوله ، وإيثارِ ما عند الله ، فهم كما قيل :
وإذَا الحَبِيبُ أَتى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُه بِأَلْفِ شَفِيع
فكيف يُقاس ببغيضٍ عدوٍ جاء بكُلِّ قبيح ، ولم يأت بشفيع واحد مِن المحاسن.
(وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) ابتداء خبر من الله تعالى ، وتحذير منه للمؤمنين من شرّ الكفرة ، أي : ولا يزال هؤلاء الكفار جاهدين في قتالكم حتى يرجعوكم إلى الكفر والضلال .
- **قال أبو حيان :** وهذا إخبار من الله للمؤمنين بفرط عداوة الكفار ، ومباينتهم لهم ، ودوام تلك العداوة ، وأن قتالهم إياكم معلق بإمكان ذلك منهم لكم ، وقدرتهم على ذلك .

كما قال تعالى (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً) .
وقال تعالى (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ) .
وقال تعالى (وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

وقال تعالى (وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً) .

وقال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ...) .

- **قال ابن عاشور :** قوله (إن استطاعوا) تعريض بأنهم لا يستطيعون رد المسلمين عن دينهم .

(وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ) أي : ومن يرجع منكم عن دينه إلى الكفر .

(فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ) ثم يستمر حتى الموت .

(فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) أي : بطلت واضمحلت أعمالهم الصالحة في الدنيا والآخرة .

- **قال ابن عاشور :** وحَبَطُ الأعمال : زوال آثارها المجعولة مرتبة عليها شرعاً ، فيشمل آثارها في الدنيا والثواب في الآخرة وهو سر قوله (في الدنيا والآخرة) .

فالآثار التي في الدنيا هي ما يترتب على الإسلام من خصائص المسلمين وأولها آثار كلمة الشهادة من حُرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليه بعد الموت والدفن في مقابر المسلمين ، وآثار العبادات وفضائل المسلمين بالهجرة والأخُوَّة التي بين المهاجرين والأنصار وولاء الإسلام وآثار الحقوق مثل حق المسلمين في بيت المال والعطاء وحقوق التوارث والتزويج فالولايات والعدالة وما ضمنه الله للمسلمين مثل قوله (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) .

وأما الآثار في الآخرة فهي النجاة من النار بسبب الإسلام وما يترتب على الأعمال الصالحات من الثواب والنعيم.

- اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الْمُرْتَدِّ ، هَلْ يُحْبِطُ عَمَلَهُ نَفْسُ الرِّدَّةِ أَمْ لَا يَحْبَطُ إِلَّا عَلَى الْمُوَافَاةِ عَلَى الْكُفْرِ ؟

فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يَحْبَطُ لَهُ عَمَلٌ إِلَّا بِالْمُوَافَاةِ كَافِرًا ، وهذا هو الصحيح .

وَقَالَ مَالِكٌ : يَحْبَطُ بِنَفْسِ الرِّدَّةِ.

وَيَظْهَرُ الْخِلَافُ فِي الْمُسْلِمِ إِذَا حَجَّ ثُمَّ ارْتَدَّ ثُمَّ أَسْلَمَ ، فَقَالَ مَالِكٌ : يَلْزَمُهُ الْحَجُّ لِأَنَّ الْأَوَّلَ قَدْ حَبَطَ بِالرِّدَّةِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ لِأَنَّ عَمَلَهُ بَاقٍ .

قال الإمام النووي : ومن حج ثم ارتد ثم أسلم لم يلزمه الحج بل يجزئه حجته السابقة عندنا ، وقال أبو حنيفة وآخرون يلزمه الحج ، ومبنى الخلاف على أن الردة متى تحبط العمل ؟ فعندهم تحبطه في الحال سواء أسلم بعدها أم لا فيصير كمن لم يحج . وعندنا لا تحبطه إلا إذا اتصلت بالموت لقوله تعالى (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ).

وقال أيضاً : ... وهو أنه عندنا لا تبطل الأعمال بالردة إلا أن تتصل بالموت وعندهم يبطل بنفس الارتداد احتجوا بقول الله تعالى :(وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) واحتج أصحابنا بقول الله تعالى (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) فعلق الحبوط بشرطين الردة والموت عليها والمعلق بشرطين لا يثبت بأحدهما والآية التي احتجوا بها مطلقة وهذه مقيدة فيحمل المطلق على المقيد

- **قال الشنقيطي :** قوله تعالى (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) هذه الآية الكريمة تدل على أن الرّدة لا تحبط العمل إلا بقيد الموت على الكفر بدليل قوله (فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ) وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الردة تحبط العمل مطلقاً ولو رجع إلى الإسلام؛ فكل ما عمل قبل الردة أحبطته الردة كقوله تعالى (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) الآية، وقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) وقوله (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

والجواب عن هذا : أن هذه من مسائل التعارض المطلق والمقيد، فيحمل المطلق على المقيد، فتقيد الآيات المطلقة بالموت على الكفر، وهذا مقتضى الأصول، وعليه الإمام الشافعي ومن وافقه، وخالف مالك في هذه المسألة، وقدم آيات الإطلاق، وقول الشافعي في هذه المسألة أجرى على الأصول، والعلم عند الله تعالى.

(**وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**) الملازمون لها .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) لا يخرجون منها أبداً .

الفوائد :

١ - أن النبي e هو المرجع للصحابة في الفتوى .

٢ - تحريم القتال في الأشهر الحرم .

٣ -أن الذنوب تنقسم إلى قسمين : كبائر وصغائر .

٤ - أن الصد عن سبيل الله أعظم من القتال في الأشهر الحرم .

٥ - عظم الصد عن الحق .

٦ - عِظم الصد عن المسجد الحرام .

٧ - تفاوت الذنوب .

٨ - أن الفتنة — وهي صد الناس عن دينهم — أكبر من قتلهم .

٩ - حرص الكفار على ارتداد المشركين .

١٠ -الحذر من الكافرين .

١١ - أن الردة مبطلة للإعمال إذا مات عليها .

١٢ - أن المرتد مخلد في النار .

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) .
[البقرة : ٢١٨] .

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) أي : الذين صدقوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه .

(**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا**) أي : تركوا ديارهم وهاجروا إلى الله ورسوله .

- **قال ابن عاشور :** هم الذين خرجوا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم .

(**وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) لإعلاء كلمة الله تعالى .

والجهاد : بذل الوسع في قتال الكفار .

(**أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ**) أي : أولئك يطمعون في فضل الله وثوابه .

- **قال ابن عاشور :** الرجاء : ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله ، فإن وعد الله وإن كان لا يخلف فضلاً منه وصدقاً ، ولكن الخواتم مجهولة ومصادفة العمل لمراد الله قد تفوت لموانع لا يدريها المكلف ولئلا يتكلوا في الاعتماد على العمل.
- **وقال رحمه الله :** والذي يظهر لي أن تعقيب ما قبلها بها من باب تعقيب الإنذار بالبشارة وتنزيه للمؤمنين من احتمال ارتدادهم فإن المهاجرين لم يرتد منهم أحد ، وهذه الجملة معترضة بين آيات التشريع .
- **قال السعدي :** وفي قوله (أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ) إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ، ويعول عليها ، بل يرجو رحمة ربه ، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه ، وستر عيوبه.
- هذه الأعمال الثلاثة (الإيمان والهجرة والجهاد) من أفضل الأعمال .

- **قال السعدي :** هذه الأعمال الثلاثة ، هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية ، وبها يعرف ما مع الإنسان ، من الربح والخسران ، فأما الإيمان ، فلا تسأل عن فضيلته ، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد، قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض، ولا نفل .

وأما الهجرة : فهي مفارقة المحبوب المألوف ، لرضا الله تعالى ، فيترك المهاجر وطنه وأمواله ، وأهله ، وخلانه ، تقرباً إلى الله ونصرة لدينه.

وأما الجهاد : فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء ، والسعي التام في نصرة دين الله ، وقمع دين الشيطان ، وهو ذروة الأعمال الصالحة ، وجزاؤه أفضل الجزاء ، وهو السبب الأكبر ، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام ، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً .

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله ، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة ، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة ، وأما الرجاء المقارن للكسل ، وعدم القيام بالأسباب ، فهذا عجز وتمن وغرور ، وهو دال على ضعف همة صاحبه ، ونقص عقله ، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح ، ووجود الغلة بلا بذر وسقي ، ونحو ذلك .

- فضل الإيمان بالله :

مِنْهَا : الْأَجْرُ الْعَظِيمُ (وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) .

وَمِنْهَا : الدَّفْعُ عَنْهُمْ شُرُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) .

وَمِنْهَا : اسْتِغْفَارُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ لَهُمْ .

قال تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) .

وَمِنْهَا : مُوَالَاةُ اللَّهِ لَهُمْ ، وَلَا يَذِلُّ مَنْ وَالَاهُ اللَّهُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) .

وَمِنْهَا : أَمْرُهُ مَلَائِكَتَهُ بِتَثْبِيتِهِمْ .

قال تعالى (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) .

وَمِنْهَا : الْعِزَّةُ .

قال تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) .

وَمِنْهَا : مَعِيَّةُ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ .

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) .

وَمِنْهَا : الرِّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ :.

قال تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

وَمِنْهَا : أَمَانُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ يَوْمَ يَشْتَدُّ الْخَوْفُ .

قال تعالى (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وَمِنْهَا : أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ هُدًى لَهُمْ وَشِفَاء .

قال تعالى: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).
وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْإِيمَانَ سَبَبٌ جَالِبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ الْإِيمَانُ ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ .

- في الآية فضل الهجرة لله تعالى .

فمن فضائلها : أن الله يعوضه خيراً مما ترك .

كما قال تعالى (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً) .

ومن فضائلها : يجد مراغماً وسعة .

كما قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) .

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين : أولهما : مراغماً كثيراً ، وثانيهما : سعة

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي : (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية .

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق .

وفي الآية فضل الجهاد ، وقد سبقت فضائله .

وفي هذه الآية أن هؤلاء جمعوا بين فعل السبب بحسن العمل بالإيمان والهجرة والجهاد وبين حسن الظن بالله تعالى .

قال ابن القيم : فتأمل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات ، وقال المغترون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله .

وسر المسألة: أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ، ويصرف ما يعرضها للحبوط ويبطل أثرها .

(**وَاللَّهُ غَفُورٌ**) أي : لمن تاب توبة نصوحاً .

(**رَحِيمٌ**) وسعت رحمته كل شيء ، وعم جوده وإحسانه كل حي .

قال السعدي : وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة ، حصل له مغفرة الله ، إذ الحسنات يذهبن السيئات وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة، حصل على كل خير في الدنيا والآخرة؛ بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها، لم يقدروا عليها ، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخراً، وهو الذي منّ بالسبب والمسبب .

الفوائد :

١- أن الإيمان أساس وشرط لصحة الأعمال .

٢- فضل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله .

٣- أن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني .

٤- وجوب الإخلاص لله عز وجل في الهجرة والجهاد .
٥- تعظيم الله عز وجل للمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيله ، والتنويه بهم ، وأنهم هم الراجون لرحمة الله .
٦- فضل الرجاء .
٧-إثبات صفة المغفرة لله تعالى .
٨-إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى .

(يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .
[البقرة : ٢١٩ – ٢٢٠] .

(**يَسْأَلونَكَ**) الخطاب للنبي ﷺ ، والسائلون هم الصحابة رضي الله عنهم .
عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) أي : عن حكمهما .
والخمر : لغة مأخوذ من الستر والتغطية ومنه قوله ﷺ (خمروا آنيتكم ..) أي : غطوا آنيتكم .
وفي الشرع: اسم لكل ما أسكر العقل، أي: خامره وستره وغطاه على سبيل اللذة والنشوة والطرب، قال ﷺ (كل مسكر خمر).
والميسر : مأخوذ من اليسر وهو القمار ، وكسب المال على وجه المخاطرة والمراهنة والمغالبة التي يكون فيها عوض من الطرفين ، ويكون الطرفان فيها بين غانم وغارم .

- **قال السعدي :** وأما الميسر: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد، والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية، بعوض سوى مسابقة الخيل، والإبل، والسهام، فإنها مباحة، لكونها معينة على الجهاد، فلهذا رخص فيها الشارع.
- وقدم الخمر على الميسر ، لأنه أكثر انتشاراً ، وأعم ضرراً ، ولأنه يذهب العقل مع المال .

(**قُلْ**) أي : قل لهم محمد .
(**فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**) أي : ذنب عظيم في الدين ، وكبيرة من كبائر الذنوب يستوجب العقوبة الشديدة ، لأنهما رجس من عمل الشيطان يسبب العداوة والبغضاء .
فالخمر فيه إزالة العقل الذي هو من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان وميزه به .
وأما الميسر فلما فيه من المقامرة والمخاطرة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وتعريض النفس للإضطرابات النفسية .
(**وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**) أي : وفيهما منافع للناس دنيوية فقط .
فالمنافع في الخمر ما فيها من اللذة والنشوة والطرب ، وكذا ما فيها من منافع ثمنها والاتجار بها .
وأما منافع الميسر فهي ما فيها من الترويح عن النفس ، والكسب لمن حالفه الحظ في هذه المقامرة ، وكون المال يجلب لبعضهم من غير تعب .

- **قال ابن كثير :** أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية، من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضيم الطعام، وإخراجَ الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذّة الشدّة المطربة التي فيها، كما قال حسان بن ثابت في جاهليته:

ونشربها فتتركنا ملوكًا ... وأسْدًا لا يُنَهْنهها اللقاءُ ...

وكذا بيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان يُقَمِّشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرّته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال:

(**وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**) فإثمهما كبير وكثير ، لا تساويه تلك المنافع ، وذلك لأن إثمهما وضررهما في الدين ، ومنافعهما في الدنيا فقط ، ومنافع الدنيا كلها لا تساوي شيئاً بالنسبة للدين .

- **قال ابن تيمية :** وهذا شأن جميع المحرمات ، فإن فيها من القوة الخبيثة التي تؤثر في القلب ثم البدن في الدنيا والآخرة ما يربي على ما فيها من منفعة قليلة تكون في البدن وحده في الدنيا خاصة .

- وهذه الآية نزلت تمهيداً وتعريضاً بتحريم الخمر ، فإن الخمر نزل على مراحل حتى حرم بتاتاً :

ففي هذه الآية التعريض بتحريمها ، فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئاً إثمه أكبر من نفعه .

ثم نزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات .

ثم نزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

عن عمر أنَّه قال (لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت هذه الآية التي في البقرة (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) فدُعي عمر فقرئتْ عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في النساء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) فكان منادي رسول الله e إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربنّ الصلاة سكرانُ. فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في المائدة. فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)؟ قال عمر: انتهينا، انتهينا) رواه أحمد .

- وهذا من حكم نزول القرآن مفرقاً ، فمن هذه الحكم :

أولاً : تثبيت قلب النبي e .

لقوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً) .

ثانياً : أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به ، حيث يقرأ عليهم شيئا فشيئاً .

لقوله تعالى (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) .

ثالثاً : تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القران وتنفيذه ، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية ، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان .

رابعاً : التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال ، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه ، ألفوه ، وكان من الصعب عليهم أن يجابهوا بالمنع منه منعا باتاً . [الإربعاء : ٢٧ / ١٢ / ١٤٣٢هـ]

(**وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ**) أي : ويسألك أصحابك يا محمد ما الذي ينفقون .

(**قُلِ الْعَفْوَ**) أي : الفضل ، وما لا يبلغ الجهد واستفراغ الوسع .

والمعنى : أنفقوا ما يفضل عن حاجتكم ولا يشق عليكم .

عن أبي هريرة. قال: قال e (خير الصدقة ما كان عن ظهر غني واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول) . متفق عليه

(**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ**) أي : مثل ذلك البيان والإيضاح والتفصيل لحكم الخمر والميسر وبيان قدر المنفق (**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ**) أي : يوضح لكم الآيات ويفصلها في سائر الأحكام كما قال تعالى (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال تعالى (قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) .

(**لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**) (لعل) للتعليل ، أي : لأجل أن تتفكروا ، والتفكر : إعمال الفكر والعقل ، والتأمل والنظر والتدبر .

(**فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**) أي: لعلكم تتفكرون فيما هو أنفع لكم في الدنيا والآخرة من البعد عن الخمر والميسر، ومن إنفاق العفو، وتتفكرون في الدنيا وأنها دار ابتلاء وعمل، دار حقيرة، نهايتها الزوال والفناء، وتتفكرون في الآخرة وقربها، وعظم مكانتها، وأنها دار ثواب وجزاء، وخلود وبقاء (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) .

(**وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى**) أي : ويسألك أصحابك يا محمد عن اليتامى ، كيف يعاملونهم ، إشفاقاً منهم وخوفاً من التقصير في حقوقهم .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ (لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وَ(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا) ، الآيَةَ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ e فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) ، فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِه) رواه أبو داود .

(**قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ**) أي : عمل الأصلح لهم ، أو اعملوا الأصلح لهم في أنفسهم وأموالهم وغير ذلك ، من تربيتهم وتعليمهم وتأديبهم وحفظ أموالهم وتنميتها .

(**وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**) أي : وإن تخالطوهم في طعامهم وأموالهم ، وتخلطوا أموالهم مع أموالكم فتتجروا فيها جميعاً فهم إخوانكم في الدين أو في النسب أو فيهما جميعاً .

(**وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**) أي : والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم ، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازي كلاً بعمله .

قال ابن كثير : أي : يعلم من قَصدُه ونيته الإفساد أو الإصلاح .

- **قال ابن عاشور** : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) وعد ووعيد ، لأن المقصود من الإخبار بعلم الله الإخبار بترتب آثار العلم عليه .

وفي هذا إشارة إلى أن ما فعله بعض المسلمين من تجنب التصرف في أموال اليتامى تنزه لا طائل تحته ، لأن الله يعلم المتصرف بصلاح والمتصرف بغير صلاح .

وفيه أيضاً ترضية لولاة الأيتام فيما ينالهم من كراهية بعض محاجيرهم وضربهم على أيديهم في التصرف المالي وما يلاقون في ذلك من الخصاصة ، فإن المقصد الأعظم هو إرضاء الله تعالى لا إرضاء المخلوقات ، وكان المسلمون يومئذٍ لا يهتمون إلاّ بمرضاة الله تعالى وكانوا يحاسبون أنفسهم على مقاصدهم .

وفي هذه إشارة إلى أنه ليس من المصلحة أن يعرض الناس عن النظر في أموال اليتامى اتقاء لألسنة السوء ، وتهمة الظن بالإثم فلو تمالأ الناس على ذلك وقاية لأعراضهم لضاعت اليتامى ، وليس هذا من شأن المسلمين ، فإن على الصلاح والفساد دلائل ووراء المتصرفين عدالة القضاة وولاة الأمور يجازون المصلح بالثناء والحمد العلن ، ويجازون المفسد بالبعد بينه وبين اليتامى وبالتغريم بما أفاته بدون نظر.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأعْنَتَكُمْ) أي: ولو شاء الله لشدد عليكم وشق عليكم وأحرجكم، فيما شرعه لكم من أمر اليتامى وغيره، ومن ذلك أن يحظر عليكم مخالطتهم في طعامهم وشرابهم وأموالهم ولكنه تعالى خفف عنكم ، فطلب منكم الإصلاح لليتامى ما استطعتم .

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ) له معان العزة كاملة .

(حَكِيمٌ) في أقواله وأحكامه يضع الأمور مواضعها .

- **قال أبو حيان :** في وصفه تعالى بالعزة ، وهو الغلبة والاستيلاء ، إشارة إلى أنه مختص بذلك لا يشارك فيه ، فكأنه لما جعل لهم ولاية على اليتامى نبههم على أنهم لا يقهرونهم ، ولا يغالبونهم ، ولا يستولون عليهم استيلاء القاهر ، فإن هذا الوصف لا يكون إلاَّ لله.

وفي وصفه تعالى بالحكمة إشارة إلى أنه لا يتعدّى ما أذن هو تعالى فيهم وفي أموالهم ، فليس لكم نظر إلاَّ بما أذنت فيه لكم الشريعة ، واقتضته الحكمة الإلهية. إذ هو الحكيم المتقن لما صنع وشرع ، فالإصلاح لهم ليس راجعاً إلى نظركم ، إنما هو راجع لاتباع ما شرع في حقهم.

الفوائد :

١- حرص الصحابة على معرفة ما ينفعهم في دينهم ودنياهم .

٢- عظم إثم الخمر والميسر .

٣- أن في الخمر بعض المنافع .

٤- أن دفع المضار والمفاسد مقدم على جلب المصالح .

٥- أن الخمر أشد ضرراً على الميسر ، لهذا قدم في الذكر .

٦- أن الإنفاق إنما يكون مما فضل عن حاجة المنفق وأهله .

٧- فضل الإنفاق .

٨- أن الحكمة من إنزال الآيات وتبيينها وتفصيلها التفكر في آيات الله .

٩- عناية الإسلام في اليتامى .

١٠- الحث على الإصلاح لليتامى في أنفسهم وأموالهم .

١١- إثبات مبدأ الإخوة الدينية في الإسلام .

١٢- إثبات علم الله ، وفي هذا وعيد للمفسد وتحذير من الإفساد ، ووعد للمصلح وترغيب في الإصلاح .

(وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) .

[البقرة : ٢٢١] .

(وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ) هذا تحريم من الله عزّ وجل على المؤمنين أن يتزوّجوا المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومُها مرادًا ، وأنَّه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خَص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله (وَالْمُحْصَنَاتُ

مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) .

(**وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**) أي : ولامرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة خير وأفضل من مشركة ولو أعجبتكم هذه المشركة بجمالها وحسبها ومالها ، فكل هذا لا قيمة له ولا يساوي شيئاً مع الإشراك بالله تعالى وفقدان الدين ، فالمؤمنة طيبة والمشركة خبيثة وقد قال تعالى (قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) .

- **قال ابن الجوزي :** وفي المراد بالأمة قولان :

أحدهما : أنها المملوكة ، وهو قول الأكثرين ، فيكون المعنى : ولَنكاح أمَة مؤمنة خير من نكاح حرة مشركة .

والثاني : أنها المرأة ، وإن لم تكن مملوكة ، كما يقال : هذه أمة الله ، وهذا قول الضحاك ، والأول أصح .

- **قال الشوكاني** مرجحاً أن المراد (الأمَة) : لأنه الظاهر من اللفظ ، ولأنه أبلغ ، فإن تفضيل الأمة الرقيقة المؤمنة على الحرّة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرّة المؤمنة على الحرّة المشركة بالأولى .
- **وقال ابن عاشور :** ووقع في (الكشاف) حمل الأمة على مطلق المرأة ، لأن الناس كلهم إماء الله وعبيده وأصله منقول عن القاضي أبي الحسن الجرجاني كما في القرطبي وهذا باطل من جهة المعنى ومن جهة اللفظ ، أما المعنى فلأنه يصير تكراراً مع قوله (ولا تنكحوا المشركات) إذ قد علم الناس أن المشركة دون المؤمنة ، ويُفيت المقصود من التنبيه على شرفِ أقلِّ أَفرادِ أحد الصنفين على أشرَف أفراد الصنف الآخر ، وأما من جهة اللفظ فلأنه لم يرد في كلام العرب إطلاق الأمة على مطلق المرأة ، ولا إطلاق العبد على الرجل إلاّ مقيَّدين بالإضافة إلى اسم الجلالة في قولهم يا عبدَ الله ويا أمةَ الله ، وكونُ الناس إماءَ الله وعبيدَه إنما هو نظر للحقائق لا للاستعمال ، فكيف يخرَّج القرآن عليه.
- قوله تعالى (وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ ...) الأمَة تطلق على المرأة كما في حديث ابن عمر. أن رسول الله e قال (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) متفق عليه، وتطلق الأمة على المملوكة كما في قوله e (ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها).

ولهذا قال e (تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك) .

وقال e (الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة) رواه مسلم .

(**وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا**) أي: لا تُزَوّجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى (لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) ، والخطاب للمؤمنين ، وبخاصة أولياء الأمور منهم .

لأن للزوج ولاية على الزوجة كما قال تعالى (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) والإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، فلا يجوز أن يكون لمشرك ولاية على مؤمنة، قال تعالى (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) .

- **قال القرطبي :** وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه ؛ لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام ، وأجمع القراء على ضم التاء من تنكحوا .
- **وقال الرازي :** فلا خلاف ههنا أن المراد به الكل ، وأن المؤمنة لا يحل تزويجها من الكافر البتة على اختلاف أنواع الكفرة.
- وفي الآية دليل على اشتراط الولي في النكاح .

(**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ**) أي : ولعبد مؤمن حراً كان أو مملوكاً خير وأفضل من مشرك خيرية مطلقة من جميع الوجوه .

(**وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**) الواو : حالية ، أي : ولو أعجبكم وسركم المشرك بمظهره أو بماله ، أو بمنصبه ونحو ذلك كما قال تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ) .

(**أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**) هذه الجملة كالتعليل لما قبلها ، أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة .

• **قال السعدي :** ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز التزوج مع أن فيه مصالح كثيرة فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها .

(**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ**) أي : والله يدعو بما أرسل به الرسل من الوحي والشرع ، والأمر والنهي إلى الجنة ، دار السلام كما قال تعالى (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

(**وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ**) أي : ويدعو إلى مغفرة الذنوب ، كما قال تعالى (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً) .

(**وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**) أي : ويوضح ويبين ويفصل آياته الشرعية والكونية (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) أي : لأجل أن يتذكروا ويتعظوا بما فيها من الوعد والوعيد ونحو ذلك ، ويمتثلوا ما فيها من الأمر والنهي ، فيثابوا بالجنة والمغفرة بإذنه عز وجل.

الفوائد :

١- تحريم نكاح المؤمنين للمشركات ، وسبق أنه خص من ذلك الكتابيات .

٢- إذا آمنت المشركة جاز نكاحها .

٣- أن المؤمنة حرة كانت أو كتابية خير من المشركة خيرية مطلقة من جميع الوجوه .

٤- تحريم تزويج المشركين بالمؤمنات .

٥- يشترط لصحة النكاح الولي .

٦- إذا آمن المشرك جاز تزويجه .

٧- عدم الاغترار بمظاهر المشركين والمشركات .

٨- أن الميزان المعتبر في تفاضل الناس هو الدين والإيمان .

٩- التحذير من المشركين ومخالطتهم ، لأنهم دعاة إلى النار .

١٠- إقامة الله الحجة على الناس . [السبت / ١ / ١ / ١٤٣٣هـ] .

(وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

[البقرة : ٢٢٢- ٢٢٣] .

(**وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**) أي : ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم ؟

• **قال ابن عاشور :** والباعث على السؤال أن أهل يثرب قد امتزجوا باليهود واستنوا بسنتهم في كثير من الأشياء ، وكان اليهود يتباعدون عن الحائض أشد التباعد بحكم التوراة .

(**قُلْ هُوَ أَذىً**) أي : قذر نتن نجس ، قدره الله على النساء ، ولهذا أوجب الشرع على الحائض الاغتسال بعد انقطاعه ، ومنعت بسببه الحائض من الصلاة والصوم والطواف ومس المصحف .

(**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**) أي : فاجتنبوا جماع النساء الحائضات في مكان الحيض وهو الفرج ، وقت الحيض .

- **قال الشوكاني :** والمراد من هذا الاعتزال : ترك المجامعة لا ترك المجالسة ، أو الملامسة ، فإن ذلك جائز ، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج .

عَنْ أَنَسٍ (أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ e النَّبِيَّ e فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) إِلَى آخِرِ الآيَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ e (اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ) رواه مسلم (النكاح : الجماع) .

وفي هذا إبطال لما عليه اليهود في معاملة الحائض ، حيث إنهم لا يؤاكلونها ولا يجتمعون معها في البيوت ، فلا يحرم من الحائض إلا جماعها في الفرج .

عن عائشة . قالت (كان رسول الله e يتكىء في حجري ، وأنا حائض فيقرأ القرآن) متفق عليه .

(وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) أي : حتى يطهرن من الدم ، وفي قراءة (حتى يَطّهّرنَ) أي : حتى يغتسلن ، أي : لا تجامعوهن حتى ينقطع الدم عنهن ويغتسلن .

وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم ، فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء ، وذهب بعض العلماء إلى أنه يجوز بمجرد انقطاع الدم .

- **قال الشوكاني :** ... والأولى أن يقال: إن الله سبحانه جعل للحلّ غايتين كما تقتضيه القراءتان: إحداهما: انقطاع الدم، والأخرى : التطهر منه ، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى ، فيجب المصير إليها . وقد دلّ أن الغاية الأخرى هي المعتبرة . قوله تعالى بعد ذلك (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ) فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر ، لا مجرد انقطاع الدم ، وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين ، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة ، كذلك يجب الجمع بين القراءتين .

(فَإِذَا تَطَهَّرْنَ) أي : اغتسلن بالماء .

(فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) أي : فجامعوهن في المكان الذي أمركم الله بإتيانهن فيه وأحله لكم وهو الفرج كما قال تعالى (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) ، وقيل : طاهرات غير حيّض .

- **قال ابن عاشور :** وقوله (فأتوهن) الأمر هنا للإباحة لا محالة لوقوعه عقب النهي مثل (وإذا حللتم فاصطادوا) .

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) تعليل لما سبق من الأمر باعتزال النساء في المحيض وعدم جماعهن حتى يطهرن .

والتوابين جمع تواب على وزن (فعال) صيغة مبالغة تفيد الكثرة .

والتوبة هي الإنابة والرجوع إلى الله ، من معصيته إلى طاعته .

- وفي الآية فضل عظيم للتوبة .

عن أبي هريرةَ t ، قَالَ : سمعْتُ رسولَ الله e ، يقول (والله إنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْه في اليَوْمِ أَكْثَر مِنْ سَبْعِينَ مَرَّة) رواه البخاري .

وعن الأَغَرِّ بنِ يسار المزنِيِّ t ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله e (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تُوبُوا إِلَى اللهِ واسْتَغْفِرُوهُ ، فإنِّي أتُوبُ في اليَومِ مئةَ مَرَّة) رواه مسلم .

وعن أبي حمزةَ أنسِ بنِ مالكٍ الأنصاريِّ t - خادمِ رسولِ الله e - قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله e : ((للهُ أفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاة) مُتَّفَقٌ عليه .

وعن أبي موسَى عبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ الأشعريِّ t ، عن النَّبيِّ e ، قَال (إنَّ الله تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) رواه مسلم .

- فضائل التوبة :

أولاً : أن التوبة سبب الفلاح، والفوز بسعادة الدارين .

قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يتلذذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه.

ثانياً : بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)

ثالثاً : بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات .

قال تعالى (إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح .

رابعاً : التوبة سبب للمتاع الحسن، ونزول الأمطار، وزيادة القوة، والإمداد بالأموال والبنين .

قال تعالى (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَه) .

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) .

وقال على لسان نوح u (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

خامساً : أن الله يحب التوبة والتوابين، فعبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله وأكرمها؛ كما أن للتائبين عنده عز وجل محبة خاصة .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

سادساً : أن الله يفرح بتوبة التائبين .

كما في حديث أنس السابق (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم ....) .

(**وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**) أي : ويحب المتطهرين من الأذى والنجاسات الحسية .

فجمعوا بين طهارة الباطن بالتطهر من النجاسات المعنوية ومن الشرك والمعاصي ، وبين طهارة الظاهر بالتطهر من النجاسات الحسية باعتزال النساء في المحيض وفي أدبارهن .

(**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**) أي : زوجاتكم أيها المؤمنون (حرث لكم) أي : موضع حرث وزرع وبذر لكم تضعون فيه هذا الماء الدافق فيخرج الولد بإذن الله .

(**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ**) أي : موضع حرثكم وهو الفرج .

(**أَنَّى شِئْتُمْ**) أي : من أي وجه شئتم مقبلة ومدبرة ما دمت تأتي الحرث ، والحرث موطن الزرع وهو الفرج .

عن جابر قال (كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ إِذَا أَتَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا كَانَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ فَنَزَلَتْ (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) .

- **قال الشنقيطى :** (مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) لم يبين هنا هذا المكان المأمور بالإتيان منه المعبر عنه بلفظه " حيث " ولكنه بين أن المراد به الإتيان في القبل في آيتين.

إحداهما : هي قوله هنا (فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ) ؛ لأن قوله (فَأْتُواْ) أمر بالإتيان بمعنى الجماع ، وقوله (حَرْثَكُمْ) يبين أن الإتيان المأمور به إنما هو في محل الحرث ، يعني بذر الولد بالنطفة ، وذلك هو القبل دون الدبر كما لا يخفى ؛ لأن الدبر ليس محل بذر للأولاد ، كما هو ضروري.

الثانية : قوله تعالى (فالآن بَاشِرُوهُنَّ وابتغوا مَا كَتَبَ الله لَكُمْ) لأن المراد بما كتب الله لكم الولد، على قول الجمهور، وهو اختيار ابن جرير ، وقد نقله عن ابن عباس، ومجاهد، والحكم، وعكرمة والحسن البصري، والسدي، والربيع، والضحاك بن مزاحم، ومعلوم أن ابتغاء الولد إنما هو بالجماع في القبل، فالقبل إذن هو المأمور بالمباشرة فيه، بمعنى الجماع، فيكون معنى الآية: فالآن باشروهن، ولتكن تلك المباشرة في محل ابتغاء الولد، الذي هو القبل دون غيره، بدليل قوله (وابتغوا مَا كَتَبَ الله لَكُمْ) يعني الولد.

- وفي الآية تحريم إتيان الزوجة في دبرها .

وقد جاءت أحاديث في ذلك يقوي بعضها بعضاً :

قال ﷺ (إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن) رواه الدارمي، والطحاوي، والخطابي وسنده صحيح

وقال ﷺ (إن الله لا ينظر إلى رجلٍ يأتي امرأته في دبرها) رواه النسائي والترمذي وابن حبان وسنده حسن، وحسنه الترمذي، وصححه ابن راهويه .

وقال ﷺ (ملعون من يأتي النساء في محاشّهن. يعني : أدبارهن) رواه ابن عدي بسند حسن .

وقال ﷺ (من أتى حائضاً، أو امرأة في دبرها، أو كاهناً فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنزل على محمد) رواه الترمذي .

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ) أي : من التقرب إلى الله بفعل الخيرات ، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجامعها على وجه القربة والاحتساب ، وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ) وذلك باجتناب نواهيه عموماً ، وفي أمر النساء خصوصاً .

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ) أي : واعلموا أنكم ملاقوه يوم القيامة ، فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) .

وقال تعالى (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) .

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) أي : وبشر يا محمد المؤمنين بشارة مطلقة في الدنيا والآخرة بما يسرهم .

كما قال تعالى (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

- **قال السعدي :** قوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) لم يذكر المبشر به ليدل على العموم ، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وكل خير واندفاع كل ضير رتب على الإيمان فهو داخل في هذه البشارة ، وفيها محبة الله للمؤمنين ، ومحبة ما يسرهم ، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي .

الفوائد :

١ -حرص الصحابة على العلم .

٢- أن الحيض قذر وأذى .

٣- تعليل الأحكام الشرعية .

٤- تحريم جماع المرأة حال الحيض .

٥- تحريم الوطء بعد الطهر قبل الغسل .

٦- جواز وطء المرأة في فرجها من ورائها .

٧- تحريم الوطء في الدبر .

٨-إثبات المحبة لله تعالى .

٩- محبة الله للمتطهرين .

١٠- فضل التوبة .

١١- وجوب تقوى الله .

١٢- تهديد الإنسان من المخالفة .

١٣- البشارة للمؤمنين .

١٤- فضيلة الإيمان حيث علق البشارة عليه .

(وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢٢٤- ٢٢٥] .

(وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ) يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها، كقوله تعالى (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، فالاستمرار على اليمين آثمٌ لصاحبها من الخروج منها بالتكفير .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ) قال: لا تجعلن عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير.

وهكذا قال مسروق، والشعبي، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ومكحول، والزهري، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسدي. ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري t قال: قال رسول الله e (إني والله -إن شاء الله -لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها) .

وثبت فيهما أيضًا أن رسول الله e قال لعبد الرحمن بن سمرة (يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيرًا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك) .

- قوله تعالى (أَنْ تَبَرُّوا) أي : أن تعملوا الخير (وَتَتَّقُوا) المراد بها هنا اجتناب النواهي لذكر البر قبلها وهو فعل الأمر (وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ) أي : التوفيق بين المتنازعين والمتخاصمين .

- والإصلاح بين الناس من أعمال البر ، وخص بالذكر لفضله وعظيم أثره ، لأنه من النفع المتعدي ، ولأن فساد ذات البين من أعظم وأخطر ما يقع بين الناس ، ولهذا قال تعالى (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) .

(**وَاللَّهُ سَمِيعٌ**) أي : لجميع الأصوات .

(**عَلِيمٌ**) بالمقاصد والنيات ، ومنه سماعه لأقوال الحالفين ، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر .

الفوائد :

١- نهي الإنسان أن يجعل اليمين مانعة له من فعل البر والتقوى والإصلاح .

٢- الحث على البر والتقوى والإصلاح بين الناس .

٣- فضيلة الإصلاح بين الناس ، لأنه نص عليها بعد التعميم ، والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدل على العناية به والاهتمام به .

٤- يستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة ، أنه " إذا تزاحمت المصالح ، قدم أهمها " فهنا تتميم اليمين مصلحة ، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء ، مصلحة أكبر من ذلك ، فقدمت لذلك .

٥- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : السميع والعليم .

(لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢٢٥] .

(**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**) أي : لا يعاقبكم الله بما صدر منكم من لغو الأيمان ، أي : لا يلزمكم بها ولا بكفارتها .

ولغو اليمين : ما يجري على اللسان من غير قصد اليمين ولا توكيدها ، كقول الرجل : لا والله ، وبلى والله .

قالت عائشة في قوله تعالى (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ) هي في قول الرجل : لا والله ، وبلى والله) رواه البخاري .

(**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**) أي : ولكن يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم القلب عليه من الأيمان إذا حنثم ، كما قال تعالى في المائدة (ولَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ) .

كأن يحلف على شيء وهو يعلم أنه كاذب ، وهي اليمين الغموس ، وهذا متوعد عليه بالنار .

وكأن يحلف على شيء أن يفعله أو لا يفعله ثم يحنث في يمينه فعليه الكفارة .

- واليمين الغموس من الكبائر :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ e قَالَ (الْكَبَائِرُ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ) رواه البخاري .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ e قَالَ (مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ شَيْئاً يَسِيراً يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « وَإِنْ قَضِيباً مِنْ أَرَاكٍ) رواه مسلم .

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ e يَقُولُ « مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ [وفي رواية هو فيها فاجر] لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ e مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) إِلَى آخِرِ الآيَةِ) متفق عليه .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ e (ثَلاَثٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلاَةِ يَمْنَعُهُ مِنِ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلاً بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ لأَخَذَهَا بِكَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَاماً لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَّ لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ) متفق عليه .

وهذا لا كفارة لها عند جماهير العلماء ، قال ابن قدامة : وهو قول أكثر أهل العلم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وأما الأكثرون فقالوا : هذه أعظم من أن تكفر ، وهذا قول مالك وأبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه ، قالوا : والكبائر لا كفارة فيها كما لا كفارة في السرقة والزنا وشرب الخمر .

- اليمن المنعقدة ، وهي التي تجب فيها الكفارة :

كأن يحلف على شيء أن يفعله أو لا يفعله ، ثم يحنث في يمينه ، فعليه الكفارة (لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

- **تجب الكفارة بشروط :**

الشرط الأول : الحنث .

وهو : أن يفعل ما حلف على تركه ، أو يترك ما حلف على فعله مختاراً .

مثال : لو أن رجلاً قال : والله لأصومن غداً ، فلما جاء الغد صام ، فإنه لا كفارة عليه لأنه لم يحنث .

الشرط الثاني : أن يحلف مختاراً .

فإن كان مكرهاً فلا تنعقد يمينه وهذا مذهب الجمهور .

لقوله e (إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) رواه ابن ماجه .

الشرط الثالث : القصد .

لأنه لا مؤاخذة إلا بقصد ونية ، ولذلك أسقط الله تبارك وتعالى الكفارة في لغو اليمين .

الشرط الرابع : أن تكون على مستقبل .

فلا كفارة على أمر ماض ، لأنه إن كان صادقاً فالأمر ظاهر [قد برت يمينه] وإن كان كاذباً فهو آثم [وهي اليمين الغموس كما سبق] .

الشرط الخامس : العقل .

فإن كان مجنوناً فلا يعتد بيمينه ، لأنه لا قصد له ، ولحديث (رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق) .

الشرط السادس : البلوغ

الصبي لا يخلو من حالين :

أن كان غير مميز فلا عبرة بيمينه .

أن يكون مميزاً لكنه لم يبلغ ، فالراجح لا تجب عليه الكفارة إذا حنث .

الشرط السابع : ذاكراً .

فلو حنث ناسياً فلا شيء عليه ، كأن يقول : والله لا أسافر إلى مكة ، ثم نسي فسافر إلى مكة ، فإنه لا يحنث ، لكن لا تنحل يمينه بل لا تزال باقية .

والكفارة : قال تعالى (فكفارتهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) .

- فالثلاثة الأولى على التخيير (إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة) .

فإن لم يجد فإنه ينتقل لصيام ثلاثة أيام ، فلا يجوز أن يصوم وهو قادر على الإطعام أو الكسوة أو العتق .

(**وَاللَّهُ غَفُورٌ**) أي : ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده .

(**حَلِيمٌ**) لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يمهله لعله يتوب .

الفوائد :

١- عدم مؤاخذة العبد بما لم يقصده في لفظه .

٢- أن اليمين تنقسم إلى قسمين منعقدة وغير منعقدة .

٣- أن المدار على ما في القلوب .

٤- إثبات هذين الاسمين : الغفور والحليم .

(لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).
[البقرة : ٢٢٦ – ٢٢٧] .

(**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ**) أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم .

- الإيلاء : هو الحلف على ترك جماع زوجته أكثر من أربعة أشهر .
- فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور.

(**تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ**) أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق.

- اختلف العلماء إن حلف أربعة أشهر فأقل هل يسمى إيلاء أم لا ؟

رجح بعض العلماء أنه يسمى إيلاء ، لأن الله يقول (**تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ**) فأثبت الله الإيلاء لكن جعل المدة التي ينظرون فيها أربعة أشهر ، فإذا حلف أن لا يطأ زوجته ثلاثة أشهر فهو إيلاء ، فإذا انتهت المدة انحلت اليمين .

- واختلف العلماء متى تبدأ مدة الإيلاء ، والصحيح أنها تبدأ من الإيلاء لا من المطالبة ، لقوله تعالى (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ) فجعل الله التربص مقروناً بالوصف وهو الإيلاء ، ويثبت هذا الوصف من اليمين ، لأنه من حين أن يحلف يصدق عليه بأنه مولٍ .
- **قال القرطبي :** وأما فائدة توقيت الأربعة الأشهر فيما ذكر ابن عباس عن أهل الجاهلية كما تقدّم ، فمنع الله من ذلك وجعل للزوج مدّة أربعة أشهر في تأديب المرأة بالهجر ؛ لقوله تعالى (واهجروهن في المضاجع) وقد آلى النبي e من أزواجه شهراً تأديباً لهنّ. وقد قيل : الأربعة الأشهر هي التي لا تستطيع ذات الزوج أن تصبر عنه أكثر منها ؛ وقد روي أن عمر بن الخطاب t كان يطوف ليلة بالمدينة فسمع امرأة تنشِد :

ألا طال هذا اللّيْلُ واسود جانبُه... وأرّقَني أن لا حَبِيبَ ألاَعِبُهْ

فواللّهِ لولا اللّهُ لا شيءَ غيره... لزُعْزِعَ من هذا السّرِيرِ جوانِبُهْ

مخافةَ ربّي والحَيَاءُ يكفّني... وإكرامَ بَعْلِي أن تُنال مراكِبُهْ

فلما كان من الغد استدعى عمر بتلك المرأة وقال لها : أين زوجك ؟ فقالت : بعثتَ به إلى العراق! فاستدعى نساء فسألهنّ عن المرأة كم مقدار ما تصبِر عن زوجها ؟ فقلن : شهرين ، ويَقلّ صبرها في ثلاثة أشهر ، وينفَدُ صبرُها في أربعة أشهر ، فجعل عمر مدّة غزوِ الرجل أربعة أشهر ؛ فإذا مضت أربعةُ أشهر استرد الغازين ووجه بقوم آخرين ؛ وهذا والله أعلم يقوّي اختصاص مدّة الإيلاء بأربعة أشهر.

(**فَإِنْ فَاءُوا**) أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، ومسروق والشعبي، وسعيد بن جبير، وغير واحد، ومنهم ابن جرير رحمه الله .

(**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**) أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين.

وفي ختم الآية بقوله (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ترغيب بالفيء والعود إلى جماع الزوجة والإحسان إليها ، لأنه أحب إلى الله .

(**رَحِيمٌ**) حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة ، ولم يجعلها لازمة لهم ، غير قابلة للانفكاك .

(**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ**) أي : قصدوا الطلاق ، أي : طلاق زوجاتهم اللاتي مضى على إيلائهم منهن أربعة أشهر .

- وفي هذا دلالة على أنه لا يقع الطلاق بمجرد مضي أربعة أشهر على الإيلاء، وهذا مذهب جماهير العلماء، فإذا انقضت المدة يخيّر الحالف إما أن يفيء (يرجع) وإما أن يطلق، فإن أبى أن يطلق أمره الحاكم بالطلاق إذا طلبت المرأة، لأن الحق لها.

(**فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**) ذو سمع تام يسمع جميع الأصوات .

(**عَلِيمٌ**) ذو علم واسع يعلم كل شيء، كما قال تعالى (وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) .

- وفي ختم الآية بذلك ما يشبه التخويف والتحذير، وذلك لعظم أمر الطلاق وبغضه عند الله، ولوجوب مراعاة أحكامه، والإشارة إلى أنه خلاف الأولى .
- **قال السعدي** : قوله تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) فيه وعيد وتهديد ، لمن يحلف هذا الحلف ، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

الفوائد :

١ - ثبوت حكم الإيلاء .

٢ - وجوب معاشرة الزوجة بالمعروف .

٣ - أن للزوجة حقاً في الجماع .

٤ -أن الإيلاء خاص بالزوجة لقوله (من نسائهم) .

٥ - أن المولي يضرب له مدة أربعة أشهر من إيلائه .

٦ - أن رجوع الإنسان عما هو عليه من المعصية سبب للمغفرة .

٧ - أن الله لا يحب الطلاق .

٨ -إثبات هذه الأسماء لله تعالى : وهي الغفور ، والرحيم ، والسميع ، والعليم .

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

[البقرة : ٢٢٨] .

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ) هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، أي : بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ، ثم تتزوج إن شاءت .

- **قال ابن عاشور :** وجملة (والمطلقات يتربصن) خبرية مراد بها الأمر .
- الطلاق حل قيد النكاح كله أو بعضه .

قوله تعالى (والمطلقات ... ثَلاثَةَ قُرُوءٍ) ظاهره يشمل عموم المطلقات ، لكن هذا العموم مخصوص :

أولاً : الحامل فعدتها الوضع .

قال تعالى (وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) .

ثانياً : المطلقة قبل الدخول فليس لها عدة .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا) .

ثالثاً : الأمَة تعتد بقرءين (أي حيضتين) .

وهذا مذهب الأئمة الأربعة .

وأما اللواتي لا يحضن لكبر أو صغر فقد بيّن أن عدتهن ثلاثة أشهر في قوله (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ) .

- الحكمة من العدة :

أولاً : تعظيم حق الزوج ، وإتاحة الفرصة له لمراجعتها إذا كان الطلاق رجعياً .

ثانياً : التأكد من براءة الرحم وخلوه من الحمل .

ثالثاً : تعظيم أمر عقد النكاح .

كما قال تعالى (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) .

وقال e (اتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فرجهن بكلمة الله) .

- قوله تعالى (ثَلاثَةَ قُرُوءٍ) اختلف العلماء في المراد بالقروء هنا على قولين :

القول الأول : هو الحيض .

وهو مروي عن الخلفاء الراشدين وأكابر الصحابة والصحيح عند الإمام أحمد وهو مذهب الحنفية .

وتفسير القروء بالحيض مستقر معلوم مستفيض وأدلتهم في ذلك.

أ-أن الأصل الاعتداد بالحيض ، فإن لم يكن فبالأشهر قال تعالى (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) .

والمبدل - الحيض - هو الذي يشترط عدمه لجواز إقامة البدل - الأشهر - مقامه، والمبدل هو الحيض فكان هو المراد من القرء.

ب-ظاهر النص في قوله تعالى (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ ...) .

أن العدة ثلاثة، فمن جعل معنى القروء الطهر لم يوجب ثلاثة لأنه يحسب لها الطهر الذي طلقت فيه ولو بقي منه جزء يسير، وهذا يخالف ظاهر النص ، ومن جعل معناه الحيض فاشترط له ثلاثة كاملة وهذا الموافق للنص.

ج-قوله e (دعي الصلاة أيام أقرائك) .

والصلاة لا تترك إلا في الحيض ، لذلك استعمل لفظ القروء هنا بمعنى الحيض وهو أصل ما تنقضي به العدة ، ولفظ القرء لم يستعمل في الشرع إلا للحيض ، وحمله في الآية على ذلك متعين.

د-قوله e (طلاق الأمة تطليقتان وقرؤها حيضتان) وفيه تصريح بأن القرؤ هو الحيض ، وقد أمرت عائشة رضي الله عنها بريرة أن تعتد ثلاث حيض.

هـ-ما يدل على الاستبراء هو الحيض ، والاستبراء من حكم العدة . والطهر بعد الطلاق لا يدل على براءة الرحم فلا يجوز إدخاله في العدة الدالة على البراءة.

القول الثاني : هو الطهر .

وذلك عند الشافعية والمالكية ورواية للحنابلة وهو مروي عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

أ-قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ...) .

أي لوقت عدتهن كقوله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) أي : في يوم القيامة ، فدل على أنه وقت العدة .

ب-أمره e في حديث ابن عمر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يراجع ابن عمر زوجته والحديث الوارد في ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما (أنه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله e فسأل عمر بن الخطاب رسول الله e فقال : مره فليراجعها . ثم ليتركها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله عز وجل أن يطلق لها النساء) .

وهنا قد فسر النبي e القرء بالطهر بأن جعله زمان العدة والطلاق ؛ لأن الطلاق المأمور به في الطهر فوجب أن يكون الطهر هو العدة دون الحيض.

وفي رواية أخرى (طلق ابن عمر امرأته وهي حائض ، فسأل عمر النبي e قال : مره فليراجعها، قلت : تحتسب ؟ قال : أرأيته إن عجز واستحمق؟) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال (حسبت على تطليقة) .

الراجح : القول الأول القائل بأن معنى القروء الحيض لا الطهر لذهاب أكابر الصحابة رضوان الله عليهم إليه ومنهم الخلفاء الراشدون ، وقد رجحه وصوبه جمع من العلماء .

(وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ) أي : حبَل أو حيض .

- **قال الرازي :** ... وذلك لأن المرأة لها أغراض كثيرة في كتمانهما ، أما كتمان الحبل فإن غرضها فيه أن انقضاء عدتها بالقروء أقل زماناً من انقضاء عدتها بوضع الحمل ، فإذا كتمت الحبل قصرت مدة عدتها فتزوج بسرعة ، وربما كرهت مراجعة الزوج الأول ، وربما أحبت التزوج بزوج آخر.

أو أحبت أن يلتحق ولدها بالزوج الثاني ، فلهذه الأغراض تكتم الحبل ، وأما كتمان الحيض فغرضها فيه أن المرأة إذا طلقها الزوج وهي من ذوات الأقراء فقد تحب تطويل عدتها لكي يراجعها الزوج الأول ، وقد تحب تقصير عدتها لتبطيل رجعته ولا يتم لها ذلك إلا بكتمان بعض الحيض في بعض الأوقات .

- **وقال السعدي :** وأما كتمان الحيض ، فإن استعجلت فأخبرت به وهي كاذبة ، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره ، وما يتفرع عن ذلك من الشر ، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدة ، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه ، بل هي سحت عليها محرمة من وجهين :

من كونها لا تستحقه ، ومن كونها نسبته إلى حكم الشرع وهي كاذبة ، وربما راجعها بعد انقضاء العدة ، فيكون ذلك سفاحاً لكونها أجنبية عنه .

(**إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) أي : إن كن يصدقن بالله واليوم الآخر ، وفي هذا تخويف وتحذير لهن من الكتمان .

- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) شرط أريد به التهديد دون التقييد .

والإيمان بالله : هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه .

والإيمان باليوم الآخر : هو التصديق بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال ، وسمي يوم القيامة باليوم الآخر لأنه آخر الأيام .

- وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الإيمان به واليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل الناس على مراقبة الله، ولهذا قال عمر : لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى .
- **قال ابن كثير :** ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن، لأنه لا يعلم إلا من جهتهن، وتتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن ، وتوعدن فيه ، لئلا تخبر بغير الحق ، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة ، أو رغبة منها في تطويلها ، لما لها في ذلك من المقاصد ، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك ، من غير زيادة ولا نقصان .

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ) أي : وأزواجهن أحق وأولى برجعتهن منهن ومن أوليائهن وغيرهم ، فكما أن الطلاق بأيدي الأزواج ، فكذلك الرجعة بأيديهم .

- **قال ابن كثير :** أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها .
- قوله تعالى (وَبُعُولَتُهُنَّ) جمع بعل ، وهو الزوج كما قال تعالى (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً) أي : زوجي .
- قوله تعالى (وَبُعُولَتُهُنَّ) يقتضي أنهن أزواج بعد الطلاق الرجعي .
- قوله تعالى (فِي ذَلِكَ) الإشارة إلى التربص المفهوم من قوله تعالى (يتربصن) .

والمعنى : وأزواجهن أحق بإرجاعهن إذا رغبوا في ذلك مادمن في العدة .

قال العلامة الشنقيطى : قوله تعالى (وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أرادوا إِصْلاَحاً) .

ظاهر هذه الآية الكريمة أن أزواج كل المطلقات أحق بردهن ، لا فرق في ذلك بين رجعية وغيرها.

ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن البائن لا رجعة له عليها ، وذلك في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا) .

وذلك لأن الطلاق قبل الدخول بائن .

كما أنه أشار هنا إلى أنها إذا بانت بانقضاء العدة لا رجعة له عليها، وذلك في قوله تعالى (وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ) لأن الإشارة بقوله (ذَلِكَ) راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه في الآية بثلاثة قروء.

(**إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً**) في هذا الإرجاع، ويفهم من هذا أنهم إن لم يريدوا الإصلاح، بل أرادوا المضارة وتطويل العدة عليهن ونحو ذلك ، فليسوا أحق بردهن ولا تجوز لهم مراجعتهن .

- **قال الشنقيطي :** واشترط هنا في كون بعولة الرجعيات أحق بردهن إرادتهم الإصلاح بتلك الرجعة ، في قوله (إِنْ أرادوا إِصْلاَحاً) ولم يتعرض لمفهوم هذا الشرط هنا ، ولكنه صرح في مواضع أخر : أن زوج الرجعية إذا ارتجعها لا بنية الإصلاح بل بقصد الإضرار بها لتخالعه أو نحو ذلك ، أن رجعتها حرام عليه ، كما هو مدلول النهي في قوله تعالى (وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تتخذوا آيَاتِ الله هُزُواً) .

فالرجعة بقصد الإضرار حرام إجماعاً ، كما دل عليه مفهوم الشرط المصرح به في قوله (وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً) .

(**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**) أي : ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف .

- **قال ابن عاشور :** وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال ، وتشبيهه بما للرجال على النساء ؛ لأن حقوق الرجال على النساء مشهورة ، مسلمة من أقدم عصور البشر ، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاوناً بها ، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها ، حتى جاء الإسلام فأقامها.
- **قال ابن القيم :** فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها ، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها ، فهو حق لها على الزوج ، بنص القرآن ، وأيضاً فإنه سبحانه أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف ، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة ، ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة .

كما ثبت في صحيح مسلم، عن جابر، أن رسول الله e قال في خطبته، في حجة الوداع (فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهُنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف) .

وفي حديث بهز بن حكيم، عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيري، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا؟ قال: "أن تطعمها إذا طعمْتَ، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقَبِّح، ولا تهجر إلا في البيت) رواه أبو داود وقال معنى (لا تقبح) أي : لا تقل قبحكِ الله .

وقال e (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم) رواه الترمذي .

كما أن للزوج حقوقاً على زوجته :

قال e (إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح) .

وقال e (لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لامرأة المرأة أن تسجد لزوجها) رواه الترمذي .

وقال e (لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه) متفق عليه .

وهذه الحقوق على الزوجين لكل منهما على الآخر تشمل جميع حقوق المعاشرة بالمعروف قولاً وفعلاً وبذلاً وخلقاً وغير ذلك .

قال ابن عباس: إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة لأن الله يقول (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ).

- وقدم – في الذكر – حق النساء فقال (ولهن) – والله أعلم – تأكيداً لذلك ، ولئلا يعتقد الرجال أن جعل القوامة فيهم يبرر لهم التساهل في حقوقهن عليهم ، وقدم حقهن أيضاً ، لأن المرأة أسيرة عند الرجل ، فلا يجوز التهاون في حقها كما قال e (فاتقوا الله في النساء ، فإنهن عوان عندكم) .

(**وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**) أي : في الفضيلة في العقل والدين الخَلق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة .

• وذكر تعالى ذلك عقب قوله (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) احترازاً من أن يظن مساواة النساء للرجال مطلقاً .

قال تعالى (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) .

قال e (... وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أذهب لِذِى لُبٍّ مِنْكُنَّ » . قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ قَالَ « أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَتَمْكُثُ اللَّيَالِىَ مَا تُصَلِّى وَتُفْطِرُ فِى رَمَضَانَ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ) .

ولهم فضل في خَلقهم وخلقهم ، فهم أشد خَلقاً وأقوى أجساماً منهن ، وهم أقدر منهن على الصبر والتحمل .

قال تعالى (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) .

وأيضاً لهم فضل في كون النبوة فيهم والقضاء والإمامة الصغرى والكبرى، ولهذا قال e (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة). رواه البخاري

وقال القرطبي : ولا يخفى على لبيب فضل الرجال على النساء ؛ ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل فهو أصلها ، وله أن يمنعها من التصرف إلا بإذنه ؛ فلا تصوم إلا بإذنه ولا تحج إلا معه.

(**وَاللَّهُ عَزِيزٌ**) له العزة التامة بأنواعها الثلاثة : عزة القوة ، وعزة القهر ، وعزة الغلبة .

(**حَكِيمٌ**) له الحكمة البالغة الكاملة ، فهو سبحانه حكيم في شرعه وخلقه وأمره ، يضع الأمور مواضعها .

• وكثيراً ما يقرن الله بين هذين الوصفين، لأن باجتماعهما في حقه – تعالى – زيادة كماله إلى كمال، فعزته مقرونة بالحكمة، وحكمته مقرون بالعزة .

الفوائد :

١- إباحة الطلاق .

٢- وجوب العدة على المطلقة .

٣- تحريم كتمان المطلقات ما خلق الله في أرحامهن من الحمل و الحيض .

٤-وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر .

٥-أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل على مراقبة الله .

٦-أن للزوج الحق أن يرجع زوجته الرجعية ما دامت في زمن العدة .

٧-يجب أن يكون قصد من يراجع مطلقته الإصلاح لا المضارة .

٨- وجوب العناية بأداء حقوق الزوجات وعدم التهاون بها .

٩- اهتمام الإسلام بحقوق النساء .

١٠-فضل الرجال وزيادة حقهم على النساء من حيث العموم .

١١- إثبات صفة العزة التامة لله تعالى .

١٢- إثبات صفة الحكمة الكاملة البالغة لله تعالى. [٨ / ١ / ١٤٣٢هـ] .

(الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

[البقرة : ٢٢٩ – ٢٣٠] .

(الطَّلاقُ مَرَّتَانِ) أي : الطلاق الذي تمكن فيه الرجعة ما دامت المطلقة في العدة (مَرَّتَانِ) أي : طلقتان ، بأن يطلق مرة ثم يراجع ، ثم يطلق مرة ثم يراجع ، وهو طلاق السنة .

- وقد كانوا في الجاهلية، بل وفي أول الإسلام يطلق الرجل امرأته ما شاء، وهو أحق برجعتها ما دامت في العدة، ولو طلقها مائة طلقة ، فأبطل الله ذلك ، لما فيه من الضرر على الزوجات ، وبيّن أن الطلاق الذي تمكن فيه الرجعة الطلقة والطلقتان فقط .

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) أي : إذا طلقها واحدة أو اثنتين ، فأنت مخير مادامت العدة باقية ، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها ، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها ، فتبين منك ، وتطلق سراحها محسناً إليها ، لا تظلمها من حقها شيئاً ، ولا تضارّ بها .

إمساك بمعروف : بما عرف عند الله وعند الناس من حسن المعاشرة قولاً وفعلاً وبذلاً .

- **قال الرازي :** ومعنى الإمساك بالمعروف هو أن يراجعها لا على قصد المضارة ، بل على قصد الإصلاح والإنفاع .
- وقدم الإمساك بمعروف لأنه أحب إلى الله ، لما فيه من استمرار الحياة الزوجية ، وذلك خير من الفراق .
- **قال ابن عاشور :** وقدم الإمساك على التسريح إيماء إلى أنه الأهم ، المرغب فيه في نظر الشرع.
- (أو تسريح بإحسان) أي إطلاق لهن بإحسان، بتركهن حتى تنقضي عدتهن، وتخلية سبيلهن، وإعطائهن مالهن من حقوق، وتمتيعهن جبراً لخواطرهن، وتطييباً لقلوبهن، وتخفيفاً لمرارة الفراق عليهن كما قال تعالى (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ).
- **قال الرازي :** واعلم أن المراد من الإحسان ، هو أنه إذا تركها أدى إليها حقوقها المالية ، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ولا ينفر الناس عنها.

(وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً) هذا من التسريح بإحسان ، بأن لا يأخذوا مما أعطوهن شيئاً .

أي : لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا من الذي أعطيتموهن من المهور والنفقات والهدايا وسائر الأعطيات (شيئاً) مهما كان صغيراً أو كبيراً ، قليلاً أو كثيراً .

كما قال تعالى (وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) .

- لكن لو أعطت المرأة زوجها شيئاً مما دفعه إليها عن طيب نفس منها حل له أخذه لقوله تعالى (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) .

(إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ) أي : إلا أن يخافا الزوجان أن لا يقيما حدود الله فيما بينهما .

وقرئت بضم الياء (يُخافا) والمعنى : إلا أن يَخاف الحاكم أو القاضي أو أهل الزوجين أو من علم حالهما من المسلمين (أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ) .

(**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**) الخطاب لحكام المسلمين وقضاتهم وأهل الزوجين ، ومن علم حالهما من المسلمين ممن يمكنه الإصلاح بينهما .

- **قال الشوكاني :** (فَإِنْ خِفْتُمْ ألاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله) أي : إذا خاف الأئمة ، والحكام ، أو المتوسطون بين الزوجين ، وإن لم يكونوا أئمة ، وحكاماً عدم إقامة حدود الله من الزوجين ، وهي : ما أوجبه عليهما كما سلف .

(**فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**) أي : فلا حرج ولا إثم عليهما .

- **فإن قيل :** لماذا جاءت الآية بنفي الجناح عليهما ؟ فالجواب : أن طلب الفداء والطلاق حرام على الزوجة بدون سبب ، وحرام على الزوج أيضاً أن يأخذ شيأً مما آتاها بدون سبب .

(**فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**) أي : في الذي افتدت به نفسها منه ، برد بعض ما أعطاها إليه ، أو كله أو أكثر منه ، أي : فلا حرج عليها في طلب الطلاق والخلع وبذل الفداء في هذه الحالة .

- وأما من غير سبب فطلبها للطلاق حرام . قال **e** (أيما امرأة سألت الطلاق من غير ما بأس فالجنة عليها حرام) رواه الترمذي .
- هذه الآية فيها جواز الخلع .

تعريف الخلع : وهو فراق الزوج زوجته بعوض منها أو من غيرها .

قوله (بعوض) يخرج ما إذا كان الفراق بغير عوض ، كالفسخ لوجود عيب أو غيره .

- والحكمة منه : تخليص الزوجة من الزوج على وجه لا رجعة له عليها إلا برضاها وعقد جديد ، وسماه الله افتداء ، لأن المرأة تفتدي نفسها من أسْر زوجها ، كما يفتدي الأسير نفسه بما يبذله .

والأصل فيه قوله تعالى (وإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) .

وحديث ابْنِ عَبَّاسٍ (أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتِ النَّبِيَّ **e** فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتُبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلاَ دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الإِسْلاَمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **e** : أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ ؟ قَالَتْ نَعَمْ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **e** : اقْبَلِ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً) .

[ثابت بن قيس] بن شماس الأنصاري الخزرجي ، مشهور بخطيب الأنصار ، أول مشاهده غزوة أحد ، وقد بشره النبي **e** بالجنة ، قتل يوم اليمامة شهيداً سنة ١٢ هـ .

[ما أعتب عليه] يعني ما ألوم عليه أي تصرف ، وفي رواية (ما أعيب) العيب معناه الرداءة والنقص . **[في خُلق ولا دين]** أي لا أريد مفارقته لسوء خلقه ، ولا لنقصان دينه ولكن أكرهه بغضاً، وقد جاء في رواية (لا أطيقه) .**[أكره الكفر في الإسلام]** هذه الجملة فيها قولان للعلماء : **القول الأول :** الأخذ بظاهرها ، والمعنى أنها خشيت من شدة بغضها أن يحملها ذلك الكفر لأجل أن ينفسخ النكاح ، **القول الثاني :** أن المراد بالكفر كفران العشير والتقصير فيما يجب له بسبب شدة البغض له ، وهذا أصح ، وأما الذي قبله فما أبعده احتمالاً ، في صحابيّة فاضلة ، تكلم النبي **e** بمثله ويسكت عنها ، إن هذا لشيء بعيد ، قال الطيبي : المعنى أخاف على نفسي في الإسلام ما ينافي حكمه ، من نشوز وفرك وغيره ، مما يقع من الشابة الجميلة المبغضة لزوجها إذا كان بالضد منها ، فأطلقت على ما ينافي مقتضى الإسلام الكفر .**[أتردين عليه حديقته]** هذا استفهام حقيقي ولذلك قالت : نعم .(الاستفهام الذي يطلب به الجواب فيكون على معناه الحقيقي) والحديقة : هي البستان من النخيل وفي رواية عند البزار (وكان قد تزوجها على حديقة نخل) وعند أبي دواد (فإني أصدقتها حديقتين) .**[اقبل الحديقة وطلقها]** قيل :

هذا أمر إيجاب ، لأن النبي e لما نظر بحالها وواقعها أمَره أمْر إيجاب ، وقيل : أمر إرشاد وإصلاح ، **والراجح** القول الأول .

[وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً] أي طلقة واحدة بائنة فليس له رجعة عليها إلا برضاها وعقد جديد .

فالحديث دليل على مشروعية الخلع إذا وجدت أسبابه ودواعيه .

وقد أجمع العلماء على مشروعيته إلا بكر المزني فانه قال : لا يحل للرجل أن يأخذ من امرأته في مقابل فراقها شيئاً .

- **متى يشرع طلب الخلع ؟**

إذا كرهت المرأةُ خلُق زوجها أو خَلقَه ، وخافت ألا تقيم حقوقه الواجبة بإقامتها معه ، فلا بأس أن تبذل له عوضاً ليفارقها .

الخُلق بالضم هو الصورة الباطنة ، فإذا كرهت الزوجة أخلاقه كأن أخلاقه سيئة ، **أو خَلْقَه** والخلقة هي الصورة الظاهرة ، فإذا كرهت الزوجة خلقَه بأن تكون صورته دميمة ، فإنه في هذه الحالة يباح لها أن تخالع .

لحديث ابن عباس السابق ، فإن امرأة ثابت بن قيس قالت (يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتُبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلاَ دِينٍ ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الإِسْلاَمِ) وجاء في رواية (ولكني لا أطيقه) .

(وخافت ألا تقيم حقوقه الواجبة بإقامتها معه ، فلا بأس أن تبذل له عوضاً ليفارقها) أي : وإذا خافت المرأة ألا تقوم بالحقوق الواجبة عليها وهي (حدود الله) أي : شرائعه التي أوجبها الله عليها لزوجها ، بسبب بغضها له فله فداء نفسها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الخلع الذي جاء به الكتاب والسنة أن تكون المرأة كارهة للزوج تريد فراقه ، فتعطيه الصداق أو بعضه فداء نفسها ، كما يفتدي الأسير ، وأما إذا كل منهما مريداً لصاحبه فهذا الخلع محرم في الإسلام .

- اختلف العلماء في حكم الخلع إذا كانت الحالة مستقيمة ؟ وإذا قيل بالخلع هل يقع أم لا ؟

القول الأول : أن الخلع مكروه أو محرم ولكنه يقع .

وهذا قول الأكثر .

استدلوا على كراهته أو تحريمه :

مفهوم قوله تعالى (فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما) فان نفي الجناح وهو الإثم يدل على أنه يقع الإثم إذا كانت الحالة مستقيمة .

ولحديث ثوبان. قال: قال رسول الله e (أيما امرأة سالت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة). رواه الترمذي

أن الخلع في حال الاستقامة إضرار بالزوجين وإزالة لمصالح النكاح من غير حاجة وهدم لبيت الزوجية وتشتيت الأسرة .

القول الثاني : أن الخلع في حال استقامة الحال محرم ولا يقع .

هذا القول اختاره بعض الحنابلة ورجحه الشيخ ابن عثيمين رحمه الله .

لقوله تعالى (فإن خفتم ..) .

ولحديث ثوبان السابق .

والله أعلم .

- ويحرم بالنسبة للرجل إذا عضلها ظلماً لتفتدي .

لقوله تعالى (ولا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) .

مثال : رجل عنده زوجة وملّ منها أو رغب عنها ، فقال : لو طلقتها ذهب مالي ، فبدأ يعضلها ، وأصبح يقصر في حقوقها ويسيء في عشرتها ، حتى تفتدي ويأخذ المال ، فهذا حرام .

- ويصح في كل قليل وكثير .

لقوله تعالى (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) قالوا : إن (ما) من صيغ العموم ، لأنها اسم موصول تصدق على القليل والكثير .

واختلف العلماء في أخذ الزيادة على الصداق على أقوال :

القول الأول : يجوز للزوج أخذ الزيادة .

مثال : الصداق (١٠) آلاف ، فخالعها على (٢٠) ألفاً ، فعلى هذا القول يجوز .

وهذا قول الجمهور .

واستدلوا بالآية (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) قالوا : إن (ما) من صيغ العموم ، لأنها اسم موصول تصدق على القليل والكثير .

وعللوا : قالوا إن عوض الخلع كسائر الأعواض الأخرى بالمعاملات ، فعلى أي شيء وقع الاتفاق جاز .

القول الثاني : أنه لا يجوز الخلع بأكثر مما أعطاها .

وهذا القول قال به عطاء والزهري ، وعلى هذا القول يرد ما أخذ من غير زيادة .

واستدلوا برواية عند ابن ماجه (أن النبي r أمر ثابتاً أن يأخذ حديقته ولا يزداد) .

القول الثالث : أن أخذ الزيادة مكروه ويصح الخلع .

وهذا مذهب الحنابلة .

واستدلوا بنفس أدلة القول الأول ، لكنهم يرون أن أخذ الزيادة ليس من المروءة .

ولهذا قال ميمون بن مهران : مَن أخذ أكثر مما أعطى لم يسرّح بإحسان .

والراجح أن الزوجة إن بذلت له الزيادة ابتداءً جاز له أخذها ، مع أن هذا ليس من مكارم الأخلاق ، وأما إذا طلب هو الزيادة فإنه يمنع لأمرين :

الأمر الأول : أن الزيادة ليس لها حد ، والنفوس مجبولة على حب الطمع .

الأمر الثاني : أن إباحة الزيادة قد تغري الأزواج بالعضل .

(**تِلْكَ**) الإشارة إلى ما سبق من الأحكام الشرعية في الطلاق والخلع وغيرهما .

(**حُدُودُ اللَّهِ**) أي : أحكامه وشرائعه ، وسميت حدوداً لأنه يجب القيام بها ولا يجوز تجاوزها ولا تعديها .

- وحدود الله تنقسم إلى قسمين :

حدود أوامر وواجبات ، فلا يجوز تعديها .

قال تعالى هنا (فَلا تَعْتَدُوهَا) وقال سبحانه (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) .

والقسم الثاني : حدود نواهٍ ومحرمات ، فهذه يجب تركها وعدم قربها .

قال تعالى (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا) ؟

(**فَلا تَعْتَدُوهَا**) أي : أقيموها ولا تتجاوزوها .

(**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ**) أي : ومن يتجاوز أوامر الله ويرتكب نواهيه .

(**فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) الذين ظلموا أنفسهم وزوجاتهم ، واقتحموا الحرام ولم يسعهم الحلال .

- والظلم وضع الشيء في غير موضعه .

وأظلم الظلم الشرك ، قال تعالى حاكياً عن لقمان أنه قال لابنه (يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال السعدي : قوله تعالى (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال ، وتعدى منه إلى الحرام ، فلم يسعه ما أحل الله .

(**فَإِنْ طَلَّقَهَا**) أي : الطلقة الثالثة .

(**فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ**) أي : فإن زوجته تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أي : حتى يطأها زوج آخر بنكاح صحيح .

- في هذا أن المطلقة ثلاثاً لا تعود لزوجها الأول إلا بشروط :

الشرط الأول : أن تنكح زوجاً غيره .

لقوله تعالى (فَإِنْ طَلَّقَهَا [يعني الثالثة] فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَه) .

ولحديث عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ إِلَى النَّبِيِّ e فَقَالَتْ كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلاَقِي فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ e فَقَالَ « أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ لاَ حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ » . قَالَتْ وَأَبُو بَكْرٍ عِنْدَهُ وَخَالِدٌ بِالْبَابِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فَنَادَى: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلاَ تَسْمَعُ هَذِهِ مَا تَجْهَرُ بِهِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ e) متفق عليه .

[**فبت طلاقي**] البت بمعنى القطع ، يحتمل أنه قال لها : أنت طالق البتة ، ويحتمل أنه طلقها الطلقة الأخيرة ، **وهذا الراجح** ، فقد جاء عند البخاري : (طلقني آخر ثلاث تطليقات) فيكون طلقها ثم راجعها ثم طلقها ثم راجعها ثم طلقها .

[**عبد الرحمن بن الزَّبير**] الزَبير : بفتح الزاي ، بعدها باء مكسورة .[**مثل هدبة الثوب**] هدبة بضم الهاء وسكون الدال هو طرف الثوب ، وأرادت أن ذكره يشبه الهدبة في الاسترخاء وعدم الانتشار .[**عسيلته**] العسيلة حلاوة الجماع الذي يحصل بتغييب الحشفة في الفرج ، قال الجمهور : ذوق العسيلة كناية عن المجامعة ، وهو تغييب حشفة الرجل في فرج المرأة .

الشرط الثاني : أن يجامعها في الفرج .

لقوله e (حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته) فعلق النبي e الحل على ذواق العسيلة منها ، ولا يحصل هذا إلا بالوطء في الفرج .

ولقوله (حتى تنكح زوجاً غيره) فالمراد بالنكاح هنا الوطء لدلالة حديث عائشة السابق .

وهذا مذهب جمهور العلماء أنه لا بد من الجماع ، قال ابن المنذر : أجمع العلماء على اشتراط الجماع لتحل للأول ، إلا سعيد بن المسيب . يعني أنه قال : يكفي العقد .

- يكفي لحلها لمطلقها ثلاثاً ، تغييب حشفة الرجل في الفرج ، ولا بد من انتشار الذكر .
- لا يشترط الإنزال ، وهذا مذهب الجمهور خلافاً للحسن البصري .

الشرط الثالث : أن يكون النكاح صحيحاً .

فإن كان فاسداً كنكاح التحليل أو الشغار ، فإنه لا يحلها وطئها .

ونكاح التحليل هو : أن يعمد الرجل إلى المرأة المطلقة ثلاثاً فيتزوجها ليحلها لزوجها الأول .

وهو حرام ولا تحل به المرأة لزوجها الأول .

لحديث ابن مسعود قال : (لعن رسول الله المحلل والمحلل له) . رواه أحمد والترمذي

وسماه النبي e تيساً مستعاراً .

فمتى نوى الزوج الثاني أنه متى حللها طلقها ، فإنه لا تحل للأول ، والنكاح باطل .

فالملعون على لسان الرسول e هو :

المحلل : هو الزوج الثاني إذا قصد التحليل ونواه ، وكان عالماً .

والمحلل له : هو الزوج الأول ، فيلحقه اللعن إذا كان عالماً .

- لو وطأها الثاني بحيض أو نفاس أو إحرام ، **هل تحل** ؟

قيل : لا تحل بالوطء المحرَّم .

قالوا لأنه وطء حرام لحق الله ، فلم يحصل به الإحلال .

وقيل : أنه يحلها .

وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي ، ورجحه ابن قدامة في المغني ، **حيث قال :**وظاهر النص حلها ، وهو قوله تعالى (حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ) وهذه قد نكحت زوجاً غيره ، وأيضاً قوله **e** : (حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك) وهذا قد وُجِد، ولأنه وطء في نكاح صحيح في محل الوطء على سبيل التمام فأحلها كالوطء الحلال ، وهذا أصح إن شاء الله ، وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي .

وهذا هو **الصحيح** .

- الحكمة من كون الزوج الأول لا يحل له نكاح مطلقته ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره :

أولاً : تعظيم أمر الطلاق ، حتى لا يكثر وقوعه ، فإنه إذا علم أنه لا ترجع إليه بعد الثلاث حتى يتزوجها غيره ، لم يستعجل بإيقاعه .

ثانياً : الرفق بالمرأة ، فإن المرأة إذا طلقت ثلاثاً فإنها تتزوج غيره ، وقد يكون خيراً من زوجها الأول فتسعد به .

(**فَإِنْ طَلَّقَهَا**) أي : الزوج الثاني بعد الدخول بها .

(**فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا**) أي : المرأة والزوج الأول .

(**إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**) أي : يتعاشرا بالمعروف .(بأن يقوم كل شخص بحق صاحبه) .

- **قال الشوكاني :** قوله تعالى (إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ الله) أي : حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر ، وأما إذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلما ، أو أحدهما عدم الإقامة لحدود الله ، أو تردداً ، أو أحدهما ، ولم يحصل لهما الظنّ ، فلا يجوز الدخول في هذا النكاح؛ لأنه مظنة للمعصية لله ، والوقوع فيما حرّمه على الزوجين .
- **قال السعدي :** ومفهوم الآية الكريمة، أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً ، لأن جميع الأمور ، إن لم يقم فيها أمر الله ، ويسلك بها طاعته ، لم يحل الإقدام عليها.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان ، إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور ، خصوصاً الولايات ، الصغار ، والكبار ، نظر في نفسه ، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ، ووثق بها ، أقدم ، وإلا أحجم.

(**وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ**) أي : شرائعه وأحكامه .

- **قال ابن عاشور :**هي أحكامه وشرائعه ، شبهت بالحدود لأن المكلف لا يتجاوزها فكأنه يقف عندها.

(**يُبَيِّنُهَا**) أي : يوضحها .

(**لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) لأنهم هم المنتفعون بها ، النافعون لغيرهم.

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ، ما لا يخفى ، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده ، خاصاً بهم ، وأنهم المقصودون بذلك ، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده ؛ معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها . (تفسير السعدي) .

الفوائد :

١ - حكمة الله في حصر الطلاق بثلاث .

٢ -أن الواجب على المرء الذي طلق زوجته أحد أمرين : إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

٣ -جواز افتداء المرأة نفسها من زوجها بعوض .

٤ - أن ذلك يكون إذا خافا ألا يقيما حدود الله .

٥ - أن طلب الخلع من غير سبب حرام .

٦ -تحريم المطلقة ثلاثاً على زوجها حتى تنكح زوجاً غيره .

٧ -عناية الله بعباده في بيان ما يجب عليهم .

٨ - فضل أهل العلم .

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢٣١] .

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها، أي: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أي: يتركها حتى تنقضي عدتها، ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح .

والمعنى : إما أن تراجعوهن ونيتكم القيام بحقوقهن وهذا أولى ، ولهذا قدّم ، وإما أن تتركوهن وتخلوا سبيلهن بلا مضارة .

- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) بلوغ الأجل : الوصول إليه ، والمراد به هنا مشارفة الوصول إليه بإجماع العلماء ؛ لأن الأجل إذا انقضى زال التخيير بين الإمساك والتسريح ، وقد يطلق البلوغ على مشارفة الوصول ومقاربته ، توسعاً أي مجازاً بالأوْل.
- **وقال أبو حيان :** ولا يحمل : بلغن أجلهنّ على الحقيقة ، لأن الإمساك إذ ذاك ليس له ، لأنها ليست بزوجة ، إذ قد تقضت عدتها فلا سبيل له عليها.
- **وقال ابن العربي** (بَلَغْنَ) مَعْنَاهُ قَارَبْنَ الْبُلُوغَ ؛ لِأَنَّ مَنْ بَلَغَ أَجَلَهُ بَانَتْ مِنْهُ امْرَأَتُهُ وَانْقَطَعَتْ رَجْعَتُهُ ؛ فَلِهَذِهِ الضَّرُورَةِ جُعِلَ لَفْظُ بَلَغَ بِمَعْنَى قَارَبَ ، كَمَا يُقَالُ : إذَا بَلَغْت مَكَّةَ فَاغْتَسِلْ.
- **قال ابن الجوزي :** والمعروف في الإمساك : القيام بما يجب لها من حق . والمعروف في التسريح : أن لا يقصد إضرارها ، بأن يطيل عدتها بالمراجعة .

(وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا) قال ابن عباس، ومجاهد، ومسروق، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضرارًا، لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه .

قال الشنقيطى : قوله تعالى (وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ) صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بالنهي عن إمساك المرأة مضارة لها لأجل الاعتداء عليها بأخذه ما أعطاها ، لأنها إذا طال عليها الإضرار افتدت منه ابتغاء السلامة من ضرره ، وصرح في موضع آخر بأنها إذا أتت بفاحشة مبينة جاز له عضلها ، حتى تفتدى منه وذلك في قوله تعالى (وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) واختلف العلماء في المراد بالفاحشة المبينة .

فقال جماعة منهم هي : الزنا ، وقال قوم هي : النشوز والعصيان وبذاء اللسان ، والظاهر شمول الآية للكل كما اختاره ابن جرير.

وقال ابن كثير : إنه جيد ، فإذا زنت أو أساءت بلسانها ، أو نشزت جازت مضاجرتها. لتفتدي منه بما أعطاها على ما ذكرنا من عموم الآية .

(**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**) بمخالفته أمر الله تعالى .

- **قال ابن عاشور :** جعل ظلمهم نساءهم ظلماً لأنفسهم ، لأنه يؤدي إلى اختلال المعاشرة واضطراب حال البيت وفوات المصالح بشغب الأذهان في المخاصمات ، وظلم نفسه أيضاً بتعريضها لعقاب الله في الآخرة .
- **وقال الشيخ ابن عثيمين :** وأضاف الظلم إلى نفسه – وإن كان ظلماً واقعاً على غيره – لأنه جلب على نفسه الإثم والعقوبة .

(**وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً**) أي : لا تجعلوها موضع استهزاء .

- **قال ابن عاشور :** عطف هذا النهي على النهي في قوله (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) لزيادة التحذير من صنيعهم في تطويل العدة ، لقصد المضارة ، بأن في ذلك استهزاء بأحكام الله التي شرع فيها حق المراجعة ، مريداً رحمة الناس ، فيجب الحذر من أن يجعلوها هزواً .

وآيات الله هي ما في القرآن من شرائع المراجعة نحو قوله (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) إلى قوله (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) .

- **وقال رحمه الله :** ولما كان المخاطب بهذا المؤمنين ، وقد علم أنهم لم يكونوا بالذين يستهزئون بالآيات ، تعين أن الهزء مراد به مجازه وهو الاستخفاف وعدم الرعاية ، لأن المستخف بالشيء المهم يعد لاستخفافه به ، مع العلم بأهميته ، كالساخر واللاعب ، وهو تحذير للناس من التوصل بأحكام الشريعة إلى ما يخالف مراد الله ، ومقاصد شرعه ، ومن هذا التوصل المنهي عنه ، ما يسمى بالحيل الشرعية .

(**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**) عموما باللسان ثناء وحمداً ، وبالقلب اعترافاً وإقراراً ، وبالأركان بصرفها في طاعة الله .

أي : اذكروا باللسان وبالقلب والجوارح ، نعمة الله عليكم حتى تقوموا بشكرها ، فإن الغفلة عن ذكر النعم سبب لعدم الشكر .

- قوله (نعمة الله) مفرد مضاف، والمفرد المضاف يدل على العموم . وهذا يتناول كل نعم الله على العبد في الدنيا وفي الدين، ثم إنه تعالى ذكر بعد هذا نعم الدين ، وإنما خصها بالذكر لأنها أجل من نعم الدنيا ، فقال :

(**وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ**) أي : القرآن .

(**وَالْحِكْمَةِ**) أي : السنة .

(**يَعِظُكُمْ بِهِ**) أي : يخوفكم به ترغيباً وترهيباً .

قال تعالى (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) .

- **قال ابن عاشور :** والموعظة والوعظ : النصح والتذكير بما يلين القلوب ، ويحذر الموعوظ.

(**وَاتَّقُوا اللَّهَ**) بفعل أوامره واجتناب نواهيه .
(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك.
الفوائد :
١- جواز الطلاق .
٢- وجوب العدة على المطلقات ، وأن لها أجلاً .
٣- يجب على الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً رجعياً ، وقاربت انتهاء عدتها ، إما مراجعتها ومعاشرتها بالمعروف ، أو تخلية سبيلها بمعروف من غير تضييق عليها أو مضارة .
٤- وجوب التعامل بين الزوجين بالمعروف .
٥- تحريم المضارة .
٦- أن من عمد إلى مراجعة مطلقته لأجل المضارة لها والاعتداء عليها وظلمها ، فهو في الحقيقة إنما يظلم نفسه .
٧- عناية الإسلام بحقوق المرأة .
٨- التحذير من جعل آيات الله وأحكامه هزواً .
٩- وجوب ذكر نعم الله .
١٠- أن أعظم النعم إنزال القرآن والسنة .
١١- وجوب تقوى الله .
١٢- إثبات عموم علم الله تعالى . [١٦/ ١/ ١٤٣٣هـ] .
(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) .
[البقرة : ٢٣٢] .

(**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**) الخطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة .
(**فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**) أي : فانقضت عدتهن .
(**فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ**) الخطاب للأولياء ، أي : فلا تضيقوا عليهن وتمنعوهن أن ينكحن أزواجهن ، ويرجعن إليهم بنكاح جديد ، عقوبة لهم بسبب طلاقهم لهن .

- **قال السعدي :** الخطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها، ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أبٍ أو غيره ، أن يعضلها ، أي : يمنعها من التزويج به حنقاً عليه وغضباً ، واشمئزازاً لما فعل من الطلاق الأول .
- فالأكثر على أن الخطاب في قوله (فَلا تَعْضُلُوهُنَّ) للأولياء .

عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها ، وكذا روى العوفي، عنه، وكذا قال مسروق، وإبراهيم النخعي، والزهري والضحاك إنها أنزلت في ذلك ، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية . (تفسير ابن كثير) .

عَنِ الْحَسَنِ (أَنَّ أُخْتَ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا ، فَتَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا ، فَخَطَبَهَا فَأَبَى مَعْقِلٌ ، فَنَزَلَتْ (فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ) رواه البخاري .

وعنِ الْحَسَنِ (فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ) قَالَ : حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ قَالَ (زَوَّجْتُ أُخْتاً لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا ، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا ، فَقُلْتُ لَهُ زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ ، فَطَلَّقْتَهَا ، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا ، لاَ وَاللَّهِ لاَ تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَداً ، وَكَانَ رَجُلاً لاَ بَأْسَ بِهِ وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ (فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ) فَقُلْتُ الآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ) رواه البخاري .

وعند الترمذي : عن معقل بن يسار (أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله e فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع أكرمتك بها وزوجتكها، فطلقتها! والله لا ترجع إليك أبدًا، آخر ما عليك قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) إلى قوله (وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) فلما سمعها معقل قال: سَمْعٌ لربي وطاعة ثم دعاه، فقال: أزوجك وأكرمك) زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني .

- وفي الآية دليل على اشتراط الولي .

(**إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ**) أي : إذا تراضى الزوج وزوجته ، وحصل الرضا من كل منهم .

(**ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ**) أي: هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له .

(**مَنْ كَانَ مِنْكُمْ**) أيها الناس .

(**يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) أي : يؤمن بالله وبشرع الله ، ويؤمن باليوم الآخر ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة وما فيها من الجزاء .

(**ذَلِكُمْ**) أي : اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزواجهن ، وترك الحمية في ذلك .

(**أَزْكَى لَكُمْ**) أي : أعظم وأكثر إيماناً .

(**وَأَطْهَرُ**) لقلوبكم ، فهو أقطع لأسباب العداوات والأحقاد بخلاف العضل الذي قصدتم منه قطع العود إلى الخصومة .

(**وَاللَّهُ يَعْلَمُ**) أي : المصالح فيما يأمر به وينهى عنه .

(**وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**) الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون .

الفوائد :

١ -تحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة .

٢ -تحريم منع الولي موليته أن ينكح من رضيته .

٣ - أن من شروط النكاح الولي ، وهذا مذهب جماهير العلماء ، وأن المرأة لا تزوج نفسها .

٤ -اشتراط الرضا في النكاح .

٥ -إثبات اليوم الآخر .

٦ - أن الاتعاظ بأحكام الله تزكية للنفس .

٧ - أن تطبيق الأحكام أطهر للإنسان .

٨ -عموم علم الله .   [١٧/ ١ / ١٤٣٣هـ] .

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

[البقرة : ٢٣٣] .

(**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**) **هذا** انتقال من أحكام الطلاق والبينونة ؛ فإنه لما نهى عن العضل ، وكانت بعض المطلقات لهن أولاد في الرضاعة ويتعذر عليهن التزوج وهن مرضعات ؛ لأن ذلك قد يضر بالأولاد ، ويقلل رغبة الأزواج فيهن، كانت تلك الحالة مثار خلاف بين الآباء والأمهات ، فلذلك ناسب التعرض لوجه الفصل بينهم في ذلك ، فإن أمر الإرضاع مهم ، لأن به حياة النسل ، ولأن تنظيم أمره من أهم شؤون أحكام العائلة .
(تفسير ابن عاشور) .

- **قال ابن كثير في تفسير الآية :** هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات: أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا قال (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم .
- قوله تعالى (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ ..) اختلف في المراد :

فقيل : أن المراد منه ما أشعر ظاهر اللفظ وهو جميع الوالدات، سواء كن مزوجات أو مطلقات، والدليل عليه أن اللفظ عام.

وقيل : المراد منه : الوالدات المطلقات ، قالوا : والذي يدل على أن المراد ذلك ، أن الله تعالى ذكر هذه الآية عقيب آية الطلاق، فكانت هذه الآية تتمة تلك الآيات .

قال ابن عاشور : (والوالدات ..) أي : المطلقات اللائي لهن أولاد في سن الرضاعة ، ودليل التخصيص أن الخلاف في مدة الإرضاع لا يقع بين الأب والأم إلاّ بعد الفراق ، ولا يقع في حالة العصمة ؛ إذ من العادة المعروفة عند العرب ومعظم الأمم أن الأمهات يرضعن أولادهن في مدة العصمة ، وأنهن لا تمتنع منه من تمتنع إلاّ لسبب طلب التزوج بزوج جديد بعد فراق والد الرضيع ؛ فإن المرأة المرضع لا يرغب الأزواج منها ؛ لأنها تشتغل برضيعها عن زوجها في أحوال كثيرة .

(**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ**) أي : وعلى أبي المولود ، أي : والده .

- **قال ابن عاشور :** عبر عن الوالد بالمولود له ، إيماء إلى أنه الحقيق بهذا الحكم ؛ لأن منافع الولد منجرة إليه ، وهو لاحق به ومعتز به في القبيلة حسب مصطلح الأمم ، فهو الأجدر بإعاشته ، وتقويم وسائلها.
- **وقال أبو حيان :** ولطيفة أخرى في قوله (وعلى المولود له) وهو أنه لما كلف بمؤن المرضعة لولده من الرزق والكسوة ، ناسب أن يسلى بأن ذلك الولد هو وُلِد لك لا لأمه ، وأنك الذي تنتفع به في التناصر وتكثير العشيرة ، وأن لك عليه الطواعية كما كان عليك لأجله كلفة الرزق ، والكسوة لمرضعته.

(**رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**) أي : وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي : بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار ، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره كما قال تعالى (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً) .

- **قال ابن الجوزي :** في قوله (بالمعروف) دلالة على أن الواجب على قدر حال الرجل في إعساره ويساره ، إذ ليس من المعروف إلزام المعسر مالا يطيقه ، ولا الموسر النزر الطفيف .
- **قال الرازي :** إنه تعالى كما وصى الأم برعاية جانب الطفل في قوله تعالى (والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) وصى الأب برعاية جانب الأم حتى تكون قادرة على رعاية مصلحة الطفل فأمره برزقها وكسوتها بالمعروف .
- **قال ابن العربي :** قوله تعالى (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ..) في هذا دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ نَفَقَةِ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ لِعَجْزِهِ وَضَعْفِهِ ؛ فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ عَلَى يَدَيْ أَبِيهِ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِ ؛ وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْأُمَّ لِأَنَّ الْغِذَاءَ يَصِلُ إلَيْهِ بِوَسَاطَتِهَا فِي الرَّضَاعَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ) لِأَنَّ الْغِذَاءَ لَا يَصِلُ إلَى الْحَمْلِ إلَّا بِوَسَاطَتِهِنَّ فِي الرَّضَاعَةِ ؛ وَهَذَا بَابٌ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَهُوَ أَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ وَاجِبٌ مِثْلُهُ .

(لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا) أي : لا تكلف نفس في الشرع إلا طاقتها وقدرتها ، فلا يكلف الله نفساً إلا ما تقدر عليه .

كما قال تعالى (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) .

وعلى هذا فلا يكلف المولود له فوق طاقته وما لا يقدر عليه ، وإنما عليه الإنفاق والكسوة حسب حاله .

(لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا) أي : لا تضار والدة بسبب ولدها ، فتمتنع مثلاً من إرضاعه لتضر أباه بتربيته ، أو تطلب زيادة على الواجب لها ، ونحو ذلك مضارة لوالده .

(وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ) فلا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ، أو لا يعطيها ما يجب لها من النفقة والكسوة .

(وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ) أي : وعلى وارث المولود مثل ما على أبيه من النفقة والكسوة للمرضعة إذا فقد الأب ، وكان الطفل ليس له مال .

- واختار ابن جرير أن المراد وارث الأب .

(فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) أي : فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما .

- **قال الشوكاني :** قوله تعالى (فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً) الضمير للوالدين . والفصال : الفطام عن الرضاع . أي : التفريق بين الصبيّ ، والثدي ، ومنه سمي الفصيل؛ لأنه مفصول عن أمه .
- المراد بالفصال هنا الفطام ، وهذا قول أكثر المفسرين .
- **قال الرازي :** وإنما سمي الفطام بالفصال لأن الولد ينفصل عن الاغتذاء بلبن أمه إلى غيره من الأقوات .
- **قال ابن كثير :** يؤخذ منه : أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي ، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر .
- وقال رحمه الله : وهذا فيه احتياط للطفل ، والزام للنظر في أمره ، وهو من رحمة الله بعباده ، حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما وأرشدهما إلى ما يصلحه ويصلحهما .
- **قال الشيخ ابن عثيمين :** التشاور تبادل الرأي بين المتشاورين لاستخلاص الأنفع والأصوب .
- سؤال : لم عطف التشاور على التراضي ؟

الجواب : عطف التشاور على التراضي تعليماً للزوجين شؤون تدبير العائلة، فإن التشاور يظهر الصواب ويحصل به التراضي. (التحرير والتنوير) .

(**وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ**) أي: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يتسلم منها الولد إما لعذر منها، أو عذر له، فلا جناح عليهما في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. قاله غير واحد.

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ....) انتقال إلى حالة إرضاع الطفل غيرَ والدته إذا تعذر على الوالدة إرضاعه ، لمرضها ، أو تزوجها أو إن أبت ذلك حيث يجوز لها الإباء ، كما تقدم في الآية السابقة ، أي إن أردتم أن تطلبوا الإرضاع لأولادكم فلا إثم في ذلك.

(**وَاتَّقُوا اللَّهَ**) أي: في جميع أحوالكم .

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**) أي: فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

- وفي الأمر بالعلم بذلك تنبيه وترغيب بتقوى الله ، ووعد لمن اتقاه ، وتحذير ووعيد لمن خالف أمره وعصاه .
- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (واعلموا أن الله ...) تذكير لهم بذلك ، وإلاّ فقد علموه.

الفوائد :

١ - وجوب الإرضاع على الأم .

٢ -أن الله أرحم بخلقه من الوالدة بولدها .

٣ -أن الرضاع التام يكون في الحولين .

جمهور العلماء على أن الرضاع المحرّم ما كان في الحولين

لقوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) .

والحديث عَائِشَةُ قالت (دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ e وَعِنْدِي رَجُلٌ قَاعِدٌ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَرَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ. قَالَتْ فَقَالَ (انْظُرْنَ إِخْوَتَكُنَّ مِنَ الرَّضَاعَةِ فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ) . متفق عليه

فهذا دليل على أن الرضاعة المعتبرة التي يثبت بها الحرمة ، وتحل بها الخلوة ، هي حيث يكون الرضيع طفلاً يسد اللبن جوعته .

ومثله حديث أم سلمة قالت : قال رسول الله e : (لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي ، وكان قبل الفطام) رواه الترمذي وصححه . **قوله (الثدي)** أي وقت الحاجة إلى الثدي ، أي في الحولين .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله e : (لا رضاع إلا ما شد العظم ، وأنبت اللحم) . رواه أبو داود

٤ -أنه يجوز النقص عن الحولين ، لكن ذلك بالتشاور والتراضي .

٥ -أن الولد ينسب لأبيه .

٦ - اعتبار العرف بين الناس .

٧ -أن الله لا يكلف نفساً ما لا تطيق .

٨ - تحريم المضارة .

٩ - وجوب نفقة الابن على أبيه .

١٠ -جواز استرضاع الإنسان لولده المرضع .

١١ - فضل التشاور .

١٢ - وجوب تقوى الله .

١٣ - إثبات بصر الله .

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) .

[البقرة : ٢٣٤] .

(**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ**) أي : والذين يتوفاهم الله منكم أيها المؤمنون ، أي : يموتون .

(**وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً**) أي : ويتركون أزواجاً بعدهم .

(**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ**) أي : ينتظرن ويحبسن أنفسهن عن الزواج بعدهم .

(**أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً**) أي : أربعة أشهر هلالية وعشر ليال .

- **قال ابن كثير** : هذا أمر من الله للنساء اللاتي يُتَوَفى عنهن أزواجهن: أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع ، ومستنده في غير المدخول بها عُمُوم الآية الكريمة ، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي: أن ابن مسعود سُئِل عن رجل تزوّج امرأة فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مرارًا في ذلك فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكُن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً ، وفي لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شَطَط، وعليها العدّة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: سمعت رسول الله e قَضى به في بَرْوَع بنت واشق ، ففرح عبد الله بذلك فرحًا شديداً .

قال ابن قدامة : أجمع أهل العلم على أن عدة المرأة المسلمة غير ذات الحمل من وفاة زوجها أربعة أشهر وعشراً ، مدخولاً بها أو غير مدخول بها .

- ففي الآية وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر .

وقد قال e (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً) متفق عليه .

- يستثنى من ذلك الحامل فعدتها بالوضع عند الجمهور (وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) .
- ويجب عليها في هذه العدة الإحداد ، وهو أن تجتنب ما يدعو إلى نكاحها .
- الحكمة من الإحداد :

أولاً : تعظيم خطر هذا العقد ورفع قدره .

ثانياً : تعظيم حق الزوج وحفظ عشرته .

ثالثاً : تطييب نفس أقارب الزوج ومراعاة شعورهم .

رابعاً : سد ذريعة تطلع المرأة للنكاح أو تطلع الرجال إليها .

خامساً : موافقة الطباعة البشرية .

- اختلف العلماء في المرأة يموت عنها زوجها وهو غائب ، أو طلقها وهو غائب ، من متى تعتد ؟

فقيل : تعتد من يوم مات زوجها .

وهذا مذهب الجمهور .

لعموم الأدلة .

فلو فرض أنه طلقها ، ولم تعلم ، وحاضت حيضتين ثم علمت ، فإنه يبقى عليها حيضة واحدة ، وكذلك إذا مات عنها زوجها ، ولم تعلم إلا بعد مضي شهرين ، فإنه يبقى عليها شهران وعشرة أيام .

وقيل : تعتد من يوم يأتيها الخبر .

وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز .

لأن العدة اجتناب أشياء وما اجتنبتها .

والراجح الأول .

- ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله عز وجل (والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الحول غَيْرَ إِخْرَاجٍ) فقد كانت العدة حولاً كاملاً ، ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر ، وهذه الآية وإن كانت متقدمة في (التلاوة) على آية الاعتداد بالحول ، إلاّ أنها متأخرة في (النزول) .

(**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**) أي : فإذا انقضت عدتهن ، وهي أربعة أشهر وعشراً .

(**فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ**) أي : فلا إثم ولا حرج – والخطاب للأولياء – في فعلهن من التزين والتحلي والتعرض للخطاب .

- **قال السعدي :** وفي هذا دليل على أن الولي ينظر على المرأة ، ويمنعها مما لا يجوز فعله ، ويجبرها على ما يجب ، وأنه مخاطب بذلك ، واجب عليه .

(**بِالْمَعْرُوفِ**) أي : بما هو معروف في الشرع وبين الناس مما لا يخالف الشرع .

- **قال القرطبي :** في هذه الآية دليل على أن للأولياء منعهن من التبرُّج والتشوّف للزوج في زمان العِدّة.
- **قال القاسمي :** (**بِالْمَعْرُوفِ**) أي : بوجه لا ينكره الشرع ، وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع ، فعليهم أن يكفوهن عن ذلك ، وإلا فعليهم الجناح .

(**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**) مطلع على بواطن الأمور .

الفوائد :

١ - وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها .

٢ - هذا الحكم يشمل الصغيرة والكبيرة لقوله (أزواجاً) وأطلق .

٣ - أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام ، ويستثنى من ذلك الحامل فعدتها بوضع حملها .

٤ -أن العدة إذا انتهت جاز للمرأة أن تفعل كل ما كان معروفاً من تجمل وغير ذلك .

٥ -أن الولي مسؤول عن موليته .

٦ - إثبات علم الله الكامل .

(وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢٣٥] .

(وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ) أي : لا إثم عليكم – أيها الرجال – فيما تُلمّحون به من طلب الزواج بالنساء المتوفَّ عنهن أزواجهن ، أو المطلقات طلاقاً بائناً في أثناء عدتهن .

قال الرازي : التعريض في اللغة ضد التصريح ، ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده ويصلح للدلالة على غير مقصوده إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح .

- في الآية أن التصريح حرام .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها وتنبيه عليه لا يجوز .

(أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ) أي : ولا ذنب عليكم أيضاً فيما أضمرتموه في أنفسكم من نية الزواج بهن بعد انتهاء عدتهن .

(عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ) أي : علم الله أنكم ستذكروهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن ، فرفع عنكم الحرج .

(وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً) اختلف العلماء في المراد بذلك :

فقيل : معناه نكاحاً، أي لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوّجيني؛ بل يعرّض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها ألا تنكح غيره في استسرار وخفية .

هذا قول ابن عباس وابن جبير ومالك وأصحابه والشعبيّ ومجاهد وعكرمة والسدّيّ وجمهور أهل العلم .

وقيل : السر الزنا ، أي لا يكونن منكم مواعدة على الزنا في العدّة ثم التزوّج بعدها.

قال معناه جابر بن زيد وأبو مِجْلَز لاحق بن حُميد ، والحسن بن أبي الحسن وقتادة والنخعيّ والضحاك ، وأن السر في هذه الآية الزنا ، أي لا تواعدوهنّ زنا ، واختاره الطبريّ . (تفسير القرطبي) .

وقيل : السرّ : الجماع ، أي : لا تصفوا أنفسكم لهنّ بكثرة الجماع ترغيباً لهنّ في النكاحٓ ، وإلى هذا ذهب الشافعي في معنى الآية . (فتح القدير) .

- قال أبو حيان : وأما تفسير (السر) هنا بالزنا فبعيد ، لأنه حرام على المسلم مع معتدة وغيرها.

(إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً) ما تقدم من إباحة التعريض كقوله : إني فيك لراغب ونحو ذلك .

(وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ) أي : ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة .

- **قال ابن كثير :** وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة .

واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها ، فإنه يفرق بينهما ، وهل تحرم عليه أبداً ؟ على قولين :

الجمهور على أنها لا تحرم عليه ، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها ، وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد .

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) إنه تعالى ختم الآية بالتهديد فقال (واعلموا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فاحذروه) وهو تنبيه على أنه تعالى لما كان عالماً بالسر والعلانية ، وجب الحذر في كل ما يفعله الإنسان في السر والعلانية ثم ذكر بعد الوعيد الوعد فقال :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) لمن صدرت من الذنوب فتاب منها ورجع إلى ربه .

(**حَلِيمٌ**) حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم ، مع قدرته عليهم .

الفوائد :

١- جواز التعريض في خطبة المتوفى عنها زوجها .

٢- تحريم التصريح بخطبة المعتدة من وفاة .

٣- جواز إضمار الإنسان في نفسه خطبة امرأة لا يجوز له التصريح بخطبتها .

٤- لا يجوز للإنسان أن يواعد المعتدة من وفاة بالنكاح .

٥- تحريم النكاح في أثناء العدة .

٦- إثبات اسمين من أسماء الله : وهما الغفور والرحيم .

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ) .

[البقرة : ٢٣٦] .

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً) أي : لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس (الجماع) وقبل أن تفرضوا لهن مهراً .

قوله تعالى (أو تفرضوا ..) (أو) حرف عطف بمعنى الواو ، والجملة معطوفة على قوله (تمسوهن) أي : مالم تمسوهن وتفرضوا لهن فريضة .

- **قال القرطبي :** (أو) في (أَوْ تَفْرِضُوا) قيل هو بمعنى الواو ؛ أي ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن ؛ كقوله تعالى (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ) أي : وهم قائلون.

وقوله (وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) أي : ويزيدون.

وقوله (وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً) أي : وكفوراً.

وقوله (وَإِنْ كُنتُمْ مرضى أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الغآئط) معناه وجاء أحد منكم من الغائط وأنتم مرضى أو مسافرون.

- **قال الرازي** مبيناً أقسام المطلقات :

أحدها : المطلقة التي تكون مفروضاً لها ومدخولاً بها وقد ذكر الله تعالى فيما تقدم أحكام هذا القسم وهو أنه لا يؤخذ منهن على الفراق شيء على سبيل الظلم ثم أخبر أن لهن كمال المهر ، وأن عدتهن ثلاثة قروء.

والقسم الثاني : من المطلقات ما لا يكون مفروضاً ولا مدخولاً بها وهو الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية ، وذكر أنه ليس لها مهر ، وأن لها المتعة بالمعروف.

والقسم الثالث : من المطلقات : التي يكون مفروضاً لها ، ولكن لا يكون مدخولاً بها .

وهي المذكورة في الآية التي بعد هذه الآية ، وهي قوله سبحانه وتعالى (وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) .

واعلم أنه تعالى بين حكم عدة غير المدخول بها وذكر في سورة الأحزاب أنه لا عدة عليها البتة ، فقال (إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ) .

(**وَمَتِّعُوهُنَّ**) أي : أعطوهن ما يتمتعن به من مال أو طعام أو لباس أو غير ذلك ، جبراً لخواطرهن ، وتعويضاً لهن عما فاتهن من الزواج والمهر .

- المتعة : بضم الميم هي ما يعطيه الزوج لمن طلقها لجبر خاطرها المنكسر بألم الفراق .
- ففي هذه الآية دليل على وجوب المتعة على المطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها .

وجه الدلالة من الآية : (.. ومتعوهن ..) فأمر بالمتعة لا بغيرها ، والأمر للوجوب ، والأصل براءة ذمته من غيرها ، والله عز وجل قسم المطلقات إلى قسمين : فأوجب المتعة لمن لم يسمِّ لها إذا طلقت قبل الدخول ، ونصف المسمى لمن سميَ لها ، وذلك يدل على اختصاص كل قسمٍ بحكمه .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المتعة واجبة لكل مطلقة ، سواء طلقت قبل الدخول أم بعده ، وسواء فرض لها صداق أم لم يفرض .

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وجماعة من أهل العلم .

لقوله تعالى (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ) ولفظ المطلقات عام ، وأكد ذلك بقوله (حقاً) .

وذهب بعض العلماء إلى أن المتعة مستحبة لكل مطلقة .

لقوله تعالى (.... حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ) (... حقاً على المحسنين) قالوا : ولو كانت واجبة لما خُص بها المحسنون والمتقون ، بل كانت حقاً على كل أحد .

والراجح – والله أعلم – ما تقدم أن المتعة واجبة لمن طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر ، وأما غيرها من المطلقات فالمتعة في حقها مستحبة .

(**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ**) أي : على الغني الموسر في ماله قدر سعته وغناه ويسره ، بحيث يزيد في المتعة .

(**وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ**) أي: وعلى المقتر الفقير المضيق عليه في ماله قدر استطاعته، فلا يكلف نفسه ما يضره أو ما لا يطيق.

(**مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ**) أي : بما هو معروف في الشرع وعرف المسلمين ، مما يُتمتع به أمثالهن من المطلقات ، وأن يعطى لهن من غير مماطلة أو أذى .

يلحظ في هذا أمران :

الأول : حرص الشريعة على إزالة وتخفيف ما يؤثر على النفوس ويكسر القلوب، فإن في إيجاب المتعة للمطلقات قبل المسيس، وقبل فرض المهر جبراً لقلوبهن وتعويضاً لهن عما فاتهن من الزواج والمهر .

الثاني : مراعاة التشريع أحوال المكلفين ، حيث جعل المتعة للمطلقات حسب حال الزوج يسراً وعسراً .

(**حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ**) أي : فاعلي الإحسان .

- سؤال : لم خص المحسنين بالذكر ؟

الجواب : في سبب تخصيصه بالذكر وجوه :

أحدها : أن المحسن هو الذي ينتفع بهذا البيان : كقوله (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها) .

والثاني : قال أبو مسلم : المعنى أن من أراد أن يكون من المحسنين فهذا شأنه وطريقه ، والمحسن هو المؤمن ، فيكون المعنى أن العمل بما ذكرت هو طريق المؤمنين .

الثالث : (حَقّاً عَلَى المحسنين) إلى أنفسهم في المسارعة إلى طاعة الله تعالى .

قال السعدي : فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن، وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة.

فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارعه ورحمته (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر.

الفوائد :

١ - إباحة طلاق النساء بعد العقد عليهن وقبل الدخول وفرض المهر .

٢ - جواز عقد النكاح بدون تسمية المهر وتقديره .

٣ - وجوب المتعة للمطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر .

٤ - أن المتعة تكون بقدر حال الزوج .

٥ - حرص الشرع على تخفيف ما يؤثر في النفوس .

(وإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

[البقرة : ٢٣٧] .

(وإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ) أي : وإن طلقتم النساء من قبل الدخول بهن وجماعهن .

(وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً) أي : والحال أنكم قد فرضتم لهن فريضة ، أي : قدرتم وحددتم لهن مهراً .

(فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) أي : فنصف الذي فرضتم لهن ، أي : فالواجب لهن نصف المهر الذي قدرتموه .

- فمن طلقت قبل المسيس وقبل فرض المهر فلها المتعة كما سبق في الآية السابقة ، ومن طلقت قبل المسيس وبعد فرض المهر فلها نصف المفروض من المهر .

قال القرطبي : قوله تعالى (فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) أي : فالواجب نصف ما فرضتم ، أي من المهر فالنصف للزوج والنصف للمرأة بإجماع .

- قوله تعالى (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ) مفهومه أن بعد المسيس – وكذلك بعد الخلوة بها – وجب لها المهر كاملاً ، لأن الصحابة أعطوا الخلوة حكم الدخول والجماع .

(إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ) أي : المطلقات ، أي : إلا أن تعفو المطلقات قبل المسيس عما وجب لهن على أزواجهن من نصف المهر المفروض .

- **قال الرازي :** المعنى إلا أن يعفون المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة : ما رآني ولا خدمته، ولا استمتع بي فكيف آخذ منه شيئاً .

- **قال ابن عاشور :** وتسمية هذا الإسقاط عفواً ظاهرة ، لأن نصف المهر حق وجب على المطلق للمطلقة قبل البناء بما استخف بها ، أو بما أوحشها ، فهو حق وجب لغرم ضر، فإسقاطه عفو لا محالة، أو عند عفو الذي بيده عقدة النكاح .

(أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) وهو الزوج على القول الصحيح ، فهو الذي بيده عقدة النكاح ، والمعنى : أو يعفو الذي بيده النكاح – وهو الزوج – فيترك للزوجة المهر كاملاً ولا يطالبها برد نصف المهر .

- فالمراد بقوله (أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) الزوج ، وهو قول علي بن أبي طالب ، وسعيد بن المسيب ، وكثير من الصحابة والتابعين وهو قول أبي حنيفة .

ورجحه ابن جرير وابن الجوزي وقال : لأن عقدة النكاح خرجت من يد الولي ، فصارت بيد الزوج ، والعفو إنما يُطلق على ملك الإنسان ، وعفو الولي عفو عما لا يملك ، ولأنه قال (ولا تنسَوا الفضل بينكم) والفضل فيه هبة الإنسان مال نفسه ، لا مال غيره .

(وَأَنْ تَعْفُوا) أيها الأزواج ، أو أيها الأزواج والزوجات .

وقال بعض العلماء الخطاب للأزواج .

قال أبو حيان : وكون عفو الزوج أقرب للتقوى من حيث إنه كسر قلب مطلقته ، فيجبرها بدفع جميع الصداق لها ، إذ كان قد فاتها منه صحبته ، فلا يفوتها منه نحلته ، إذ لا شيء أصعب على النساء من الطلاق ، فإذا بذل لها جميع المهر لم تيأس من ردّها إليه ، واستشعرت من نفسها أنه مرغوب فيها ، فانجبرت بذلك .

(أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) أي : إلى تقوى الله .

وفي هذا ترغيب بالعفو والتسامح ، وبخاصة بين الزوجين ، فمن عفا عن صاحبه فهو أقرب لتقوى الله عز وجل .

- **قال الشوكاني :** وفي هذا دليل على ما رجحناه من أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج؛ لأن عفو الوليّ عن شيء لا يملكه ليس هو أقرب إلى التقوى ، بل أقرب إلى الظلم والجور .
- **قال ابن عاشور :** ومعنى كون العفو أقرب للتقوى : أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق ؛ لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته ، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته ، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد ، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع ، والوازع شرعي وطبيعي ، وفي القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزعه عن المظالم والقساوة ، فتكون التقوى أقرب إليه ، لكثرة أسبابها فيه.
- **قال الرازي :** قوله تعالى (وأن تعفو أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) وإنما كان لذلك لوجهين :

الأول : أن من سمح بترك حقه فهو محسن ، ومن كان محسناً فقد استحق الثواب ، ومن استحق الثواب نفى بذلك الثواب ما هو دونه من العقاب وأزاله .

والثاني : أن هذا الصنع يدعوه إلى ترك الظلم الذي هو التقوى في الحقيقة ، لأن من سمح بحقه وهو له معرض تقرباً إلى ربه كان أبعد من أن يظلم غيره يأخذ ما ليس له بحق .

- **قال السعدي :** رغب الله في العفو ، وأن من عفا ، كان أقرب لتقواه ، لكونه إحساناً موجبا لشرح الصدر ، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف ، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة ، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين : إما عدل وإنصاف واجب ، وهو : أخذ الواجب ، وإعطاء الواجب ، وإما فضل وإحسان ، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق ، والغض مما في النفس ، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ، ولو في بعض الأوقات ، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة ، أو مخالطة ، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم .
- في الآية الترغيب في العفو :

قال تعالى (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) .

وقال تعالى : (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) .

وقال النبي **e** : (وما ازداد عبد بعفو إلا عزاً) . رواه مسلم

(وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) أي : لا تتركوا الفضل والإحسان والتسامح بينكم وتهملوه وتغفلوا عنه .

- **قال ابن عاشور** : ...ففي تعاهده عون كبير على الإلف والتحابب ، وذلك سبيل واضحة إلى الاتحاد والمؤاخاة والانتفاع بهذا الوصف عند حلول التجربة .

والنسيان هنا مستعار للإهمال وقلة الاعتناء كما في قوله تعالى (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) وهو كثير في القرآن ، وفي كلمة (بينكم) إشارة إلى هذا العفو .

- **وقال الرازي** : قوله تعالى (وَلاَ تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ) وليس المراد منه النهى عن النسيان لأن ذلك ليس في الوسع بل المراد منه الترك ، فقال تعالى : ولا تتركوا الفضل والإفضال فيما بينكم .
- قال سفيان ، عن أبي هارون قال : رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي ، فكان عون يحدثنا ولحيته تُرَش من البكاء ويقول : صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم همًّا ، حين رأيتهم أحسن ثيابًا ، وأطيب ريحًا ، وأحسن مركبًا منى ، وجالست الفقراء فاسترحت بهم ، وقال (وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فَلْيَدْعُ له : رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير) .

(**إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**) أي : مطلع عليه كله ، وعالم به ، ولا يخفى عليه شيء منه ، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه .

الفوائد :

١ - أن الرجل إذا طلق زوجته قبل الدخول وقد سمى لها صداقاً وجب لها نصف المهر .

٢ - أن الصحابة قضوا أنه إذا خلا بها فهو كالمسيس .

٣ - جواز الطلاق قبل المسيس مع تعيين المهر .

٤ - جواز إسقاط المرأة ما وجب لها من المهر عن الزوج أو بعضه ، وكذلك جواز عفو الزوج .

٥ - الترغيب في العفو .

٦ - أن الأعمال تتفاضل .

٧ - إحاطة علم الله تعالى وبصره بكل شيء .

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ . فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) .

[البقرة : ٢٣٨ – ٢٣٩] .

(**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ**) يأمر الله تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها .

قال أبو حيان : الألف واللام فيها للعهد ، وهي : الصلوات الخمس. قالوا : وكل صلاة في القرآن مقرونة بالمحافظة ، فالمراد بها الصلوات الخمس .

وقد مدح الله المحافظين عليها بقوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) .

وقال e (... من حافظ عليها ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة) .

وقال e (من حافظ عليهن كن له نوراً ونجاة وبرهاناً يوم القيامة) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال (سألت رسول الله e ، أي العمل أفض؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله ، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قال: حدثني بهن رسول الله e ، ولو استزدتُه لزادني) متفق عليه

(**وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى**) تخصيص بعد تعميم ، فخص الصلاة الوسطى بمزيد التأكيد من بين الصلوات .

وقد اختلف العلماء في بالمراد بالصلاة الوسطى ، والصحيح أنها صلاة العصر .

عن علي . قال : قال رسول الله e يوم الأحزاب (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً) رواه مسلم .

وعن سمرة . قال : قال رسول الله e (صلاة الوسطى صلاة العصر) رواه الترمذي .

فهي الوسطى بين الصلوات وقتاً وفضلاً :

فهي من حيث الوقت وسط بين صلاة النهار وصلاة اليل .

وهي من حيث الفضل الفضلى بين الصلوات ، أي : أفضل الصلوات .

- **قال الماوردي :** وفي تسميتها بالوسطى ثلاثة أوجه :

أحدها : لأنها أوسط الصلوات الخمس محلاً ، لأنها بين صلاتي ليل وصلاتي نهار .

والثاني : لأنها أوسط الصلاة عدداً ، لأن أكثرهن أربع وأقلهن ركعتان .

والثالث : لأنها أفضل الصلوات ووسط الشيء ووسطاه أفضله ، وتكون الوُسْطَى بمعنى الفُضْلَى .

- فضل صلاة الفجر والعصر .

أولاً : أن المحافظة عليهما من أسباب دخول الجنة .

لقوله e (من صلى البردين دخل الجنة) متفق عليه .

ثانياً : سبب للنجاة من النار .

قال e : (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) يعني الفجر والعصر .

ثالثاً : الملائكة يجتمعون في هاتين الصلاتين .

قال e : (يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم الله وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون) . متفق عليه

رابعاً : سبب لرؤية الله في الآخرة .

قال e : (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) . متفق عليه

- وقد جاء الترهيب في التهاون بصلاة العصر وتركها :

قال e (من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله) رواه البخاري .

وقال e (الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله) متفق عليه .

- قوله تعالى (حافظوا على الصلوات ..) هناك أمور ينبغي المحافظة عليها :

أولاً : الصلاة .

كما في هذه الآية .

ثانياً : حفظ الله .

كما قال e (احفظ الله يحفظك) .

ثالثاً : الطهارة .

قال e (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) رواه ابن ماجه .

رابعاً : الأيْمان .

قال تعالى (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) .

خامساً : اللسان والفرج

قال e (من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة) رواه الحاكم .

وقال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ) .

وقال تعالى (وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) .

(**وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**) أي : خاشعين ذليلين مستكنين بين يديه .

- قوله تعالى (.. لِلَّهِ قَانِتِينَ) أي : مخلصين لله ذليلين له .

(**فَإِنْ خِفْتُمْ**) أي : فإذا كنتم في خوف من عدو أو غيره .

(**فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً**) أي : فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب .

- **قال ابن كثير :** أي فصلوا على أي حال كان – رجالاً أو ركباناً – يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها .
- **قال القرطبي :** لما أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة بحال قُنوت وهو الوَقار والسّكينة وهدوء الجوارح وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطُّمأنينة ذكر حالة الخوف الطارئة أحياناً ، وبيّن أن هذه العبادةَ لا تسقط عن العبد في حال ، ورخّص لعبيده في الصلاة رجالاً على الأقدام ورُكباناً على الخيل والإبل ونحوها ، إيماءً وإشارة بالرأس حيثما توجّه ؛ هذا قول العلماء ، وهذه هي صلاة الفَذّ الذي قد ضايقه الخوف على نفسه في حال المسَايفة أو من سَبُع يطلبه أو من عدوّ يتبعه أو سَيْل يحمله ، وبالجملة فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح ما تضمّنته هذه الآية .

(**فَإِذَا أَمِنْتُمْ**) أي : فإذا زال الخوف وجاء الأمن .

(**فَاذْكُرُوا اللَّهَ**) أي : أقيموا صلاتكم كما أمرتم ، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها ، وهذه الآية كقوله تعالى (فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ) .

(**كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**) أي : مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، فقابلوه بالشكر والذكر .

الفوائد :

١ - وجوب المحافظة على الصلاة .

٢ -فضيلة عظيمة لصلاة العصر .

٣ -وجوب القيام .

٤ - وجوب الإخلاص لله .

٥ - سعة رحمة الله .

٦ - جواز الصلاة على الراحلة حال الخوف .

٧ - يجب على المرء القيام بالعبادة على وجه التمام متى زال العذر .

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ . كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

[البقرة : ٢٤٠-٢٤٢] .

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ) أي : والذين يقبضون ويموتون منكم أيها المؤمنون .

(وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً) أي : ويتركون زوجات لهم .

(وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ) من رفع (وصيةٌ) أي : عليهم وصية لأزواجهم .

ومن قرأ بالنصب (وصيةً) أي : يوصون وصية ، أو نوصيهم وصية لأزواجهم .

- **قال الرازي :** القائلون بأن هذه الوصية كانت واجبة أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا : الله تعالى ذكر الوفاة ، ثم أمر بالوصية ، فكيف يوصي المتوفى ؟ وأجابوا عنه بأن المعنى : والذين يقاربون الوفاة ينبغي أن يفعلوا هذا ، فالوفاة عبارة عن الإشراف عليها ، وجواب آخر وهو أن هذه الوصية يجوز أن تكون مضافة إلى الله تعالى بمعنى أمره وتكليفه ، كأنه قيل : وصية من الله لأزواجهم ، كقوله (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أولادكم) وإنما يحسن هذا المعنى على قراءة من قرأ بالرفع .

(مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ) أي : بأن تمتّع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً ، يُنفق عليهن من تركته .

(غَيْرَ إِخْرَاجٍ) ولا يُخرجن من مساكنهم .

(فَإِنْ خَرَجْنَ) أي : الزوجات باختيارهن قبل انقضاء السنة .

(فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ) أي : فلا إثم عليكم – أيها الورثة – في ذلك ، ولا حرج على الزوجات فيما فعلن في أنفسهن من أمور مباحة .

- وفي رفع الجناح وجهان :

أحدهما : لا جناح في قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول .

والثاني : لا جناح عليكم في ترك منعهن من الخروج ، لأن مقامها حولاً في بيت زوجها ليس بواجب عليها .

- هذه الآية منسوخة عند أكثر العلماء .

قال ابن كثير : قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله (يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) .

روى البخاري عن ابن أبي مُلَيْكة، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها -أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه .

ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها.

- **قال القرطبي :** ذهب جماعة من المفسرين في تأويل هذه الآية أنّ المتوفّى عنها زوجها كانت تجلس في بيت المتوفَّى عنها حولاً ، ويُنفق عليها من ماله ما لم تخرج من المنزل ؛ فإن خرجت لم يكن على الورثة جُناح في قطع النفقة عنها ؛ ثم نُسخ الحولُ بالأربعة الأشهر والعشر ، ونُسخت النفقةُ بالرُّبُع والثُّمن في سورة " النساء" قاله ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد والربيع. وفي السكنى خلاف للعلماء .

(**وَاللَّهُ عَزِيزٌ**) له جميع أنواع العزة ، عزة القوة ، وعزة الامتناع ، وعزة القهر .

وهذه العزة مستلزمة للوحدانية ، إذا الشركة تنقص العزة ، ومستلزمة لصفات الكمال ، لأن الشركة تنافي كمال العزة ، ومستلزمة لنفي أضدادها ، ومستلزمة لنفي مماثلة أضدادها له في شيء منها .

(**حَكِيمٌ**) له الحكمة الكاملة البالغة .

(**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**) سبق في الآية (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ) أن فيها دليلاً على وجوب المتعة على المطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها .

وذهب بعض العلماء إلى أن المتعة واجبة لكل مطلقة ، سواء طلقت قبل الدخول أم بعده ، وسواء فرض لها صداق أم لم يفرض .

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وجماعة من أهل العلم .

لقوله تعالى (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ) ولفظ المطلقات عام ، وأكد ذلك بقوله (حقاً) .

وذهب بعض العلماء إلى أن المتعة مستحبة لكل مطلقة .

لقوله تعالى (... حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ) (... حقاً على المحسنين) قالوا : ولو كانت واجبة لما خُص بها المحسنون والمتقون ، بل كانت حقاً على كل أحد .

والراجح – والله أعلم – ما تقدم أن المتعة واجبة لمن طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر ، وأما غيرها من المطلقات فالمتعة في حقها مستحبة .

(**حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ**) الذين يتقون الله ، بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه ، ولهذا خصهم بالذكر .

- **قال الشنقيطي** : واستدل بعض المالكية على عدم وجوب المتعة بأن الله تعالى قال (حَقّاً عَلَى المحسنين) (حَقّاً عَلَى المتقين) قالوا : فلو كانت واجبة لكانت حقاً على كل أحد ، وبأنها لو كانت واجبة لعين فيها القدر الواجب.

قال مقيده - عفا الله عنه - هذا الاستدلال على عدم وجوبها لا ينهض فيما يظهر ، لأن قوله (عَلَى المحسنين) و (عَلَى المتقين) تأكيد للوجوب وليس لأحد أن يقول لست متقياً مثلاً ، لوجوب التقوى على جميع الناس ، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى ومتعوهن الآية ما نصه : وقوله على المتقين تأكيد لإيجابها. لأن كل واحد يجب عليه أن يتقي الله في الإشراك به ومعاصيه وقد قال تعالى في القرآن (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) ، وقولهم لو كانت واجبة لعين القدر الواجب فيها ، ظاهر السقوط. فنفقة الأزواج والأقارب واجبة ولم يعين فيها القدر اللازم ، وذلك النوع من تحقيق المناط مجمع عليه في جميع الشرائع كما هو معلوم .

(**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ**) أي : مثل ذلك البيان السابق يوضح ويفصل لكم آياته الشرعية والكونية .

(**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) (لعل) للتعليل ، أي : لأجل أن تنتفعوا بعقولكم وتتدبروا وتتفهموا عن الله آياته ، وما فيها من الأحكام والحكم ، والأوامر والنواهي ، والحلال والحرام .

الفوائد :

١ -أنه يشرع للزوج أن يوصي لزوجته أن تبقى في بيته ، وينفق عليها من تركته لمدة حول كامل ، وقد تقدم أن هذا الحكم منسوخ عند أكثر العلماء .

٢ - أن المسؤولين عن النساء هم الرجال .

٣ - إثبات اسمين من أسماء الله وهما : العزيز والحكيم .

٤ - إثبات العزة والحكمة على سبيل الإطلاق .

٥- إباحة الطلاق .
٦- وجوب المتعة لكل مطلقة . (وقد تقدم الخلاف في ذلك) .
٧-أنه ينبغي تأكيد الحقوق التي قد يتهاون الناس بها .
٨-اعتبار العرف .
٩-أن التقوى تحمل على طاعة الله .
١٠-منّة الله على عباده بتبيين الآيات .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) .
[البقرة : ٢٤٣] .

(**أَلَمْ تَرَ**) أي : ألم يصل سمعك يا محمد ، أو أيها المخاطب .

(**إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ**) أي : حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وهم ألوف) قال الجمهور : هي جمع ألف ، قال بعضهم : كانوا ستمائة ألف ، وقيل : كانوا ثمانين ألفاً. ابن عباس : أربعين ألفاً. أبو مالك : ثلاثين ألفاً. السدّي : سبعة وثلاثين ألفاً. وقيل : سبعين ألفاً ؛ قاله عطاء ابن أبي رباح. وعن ابن عباس أيضاً أربعين ألفاً ، وثمانية آلاف ؛ رواه عنه ابن جُريج. وعنه أيضاً ثمانية آلاف ، وعنه أيضاً أربعة آلاف ، وقيل : ثلاثة آلاف. والصحيح أنهم زادوا على عشرة آلاف لقوله تعالى (وَهُمْ أُلُوفٌ) وهو جمع الكثرة ، ولا يقال في عشرة فما دونها أُلوف .

وقيل (وهم ألوف) أي : مؤلفة قلوبهم ، قال في التسهيل : وهو ضعيف .

(**حَذَرَ الْمَوْتِ**) أي : خوفاً من الموت وفراراً منه .

قيل : فراراً من الطاعون حين نزل بهم ، وقيل : أمروا بالجهاد ففروا منه .

والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم .

(**فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ**) أي : أماتهم الله ثم أحياهم ، وهم قوم من بني إسرائيل.

- قوله تعالى (فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ) ففي تفسير (قَالَ الله) وجهان :

الأول : أنه جار مجرى قوله (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وقد تقدم أنه ليس المراد منه إثبات قول ، بل المراد أنه تعالى متى أراد ذلك وقع من غير منع وتأخير ، ومثل هذا عرف مشهور في اللغة ، ويدل عليه قوله (ثُمَّ أحياهم) فإذا صح الإحياء بالقول ، فكذا القول في الإماتة.

والقول الثاني : أنه تعالى أمر الرسول أن يقول لهم : موتوا ، وأن يقول عند الإحياء ما رويناه عن السدي ، ويحتمل أيضاً ما رويناه من أن الملك قال ذلك ، والقول الأول أقرب إلى التحقيق.

(**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**) وجه إفضال الله على الناس في هذه القصة :

أولاً : أنه يريهم الآيات الباهرات والحجج القاطعات ما يبصرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .

ثانياً : إثبات البعث والمعاد ، فإذا علموا ذلك عملوا له ، فكان في عملهم نجاة لهم من النار بإذن الله .

ثالثاً : تشجيع الناس على القتال في سبيل الله ، وبيان أنه لن يقدم أجلاً ولن يؤخره ، فإذا جاهدوا في سبيل الله نالوا جنة الله عز وجل .

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**) كما قال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

- **قال ابن كثير :** وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلبًا لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعًا في آن واحد.
- **قال ابن عاشور :** استئناف ابتدائي للتحريض على الجهاد والتذكير بأن الحذر لا يؤخر الأجل ، وأن الجبان قد يلقى حتفه في مظنة النجاة.
- **قال الشنقيطي :** المقصود من هذه الآية الكريمة ، تشجيع المؤمنين على القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي ، فإذا علم الإنسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه ، هانت عليه مبارزة الأقران، والتقدم في الميدان ، وقد أشار تعالى أن هذا هو مراده بالآية حيث أتبعها بقوله (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله) الآية وصرح بما أشار إليه هنا في قوله (قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفرار إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الموت أَوِ القتل وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً) وهذه أعظم آية في التشجيع على القتال ، لأنها تبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه ولو فرض نجاته منه فهو ميت عن قريب .

ويؤخذ من هذه الآية عدم جواز الفرار من الطاعون إذا وقع بأرض وأنت فيها ، وقد ثبت عن النّبي e النهي عن الفرار من الطاعون وعن القدوم على الأرض التي هو فيها إذا كنت خارجاً عنها.

- **وقال أبو حيان :**مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى متى ذكر شيئاً من الأحكام التكليفية ، أعقب ذلك بشيء من القصص على سبيل الاعتبار للسامع ، فيحمله ذلك على الانقياد وترك العناد ، وكان تعالى قد ذكر أشياء من أحكام الموتى ومن خلفوا ، فأعقب ذلك بذكر هذه القصة العجيبة ، وكيف أمات الله هؤلاء الخارجين من ديارهم ، ثم أحياهم في الدنيا ، فكما كان قادراً على إحيائهم في الدنيا هو قادر على إحياء المتوفين في الآخرة ، فيجازي كلاً منهم بما عمل.

ففي هذه القصة تنبيه على المعاد ، وأنه كائن لا محالة ، فيليق بكل عاقل أن يعمل لمعاده : بأن يحافظ على عبادة ربه ، وأن يوفي حقوق عباده.

وقال أيضاً : (وهم ألوف) في هذا تنبيه على أن الكثرة والتعاضد ، وإن كانا نافعين في دفع الأذيات الدنيوية ، فليسا بمغنيين في الأمور الإلهية .

- في الآية أن الحذر لا ينجي من القدر .

كما تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

وكما قال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ) .

وكما قال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ...) .

وقال تعالى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ) .

وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) .

- **قال السعدي :** وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله ، تارة بالترغيب في فضله وثوابه ، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه ، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم ، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها .

وقوله تعالى (فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) المراد بها الحصون التي في الأرض المبنية ، لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة ، وهذا قول الأكثر [قاله القرطبي] ، **وقيل** : المراد بالبروج بروج مبنية في السماء ، لكن هذا القول ضعيف ، لأن الله قال (مشيّدة) وهذا الوصف لا يكون أبداً للبروج السماوية ، وإنما يكون للقصور العالية . [قاله الشيخ ابن عثيمين] .

قال الحسن : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي عقل عقلاً .

قال بعض العلماء لأحد إخوانه :احذر الموت في هذه الدنيا قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده .

قال أبو الدرداء : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك أحدهم .

قالت عائشة لامرأة : أكثري ذكر الموت يرق قلبك .

وقال إبراهيم التيمي : شيئان قطعا عني لذة الدنيا : ذكر الموت ، والوقوف بين يدي الله .

وقال الحسن : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا .

وقال الحسن : ما ألزم عبد ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عنده .

وقال أبو الدرداء : من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده .

وقال سعيد بن جبير : لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد عليّ قلبي .

وقال الأوزاعي : من أكثر ذكر الموت كفا ه اليسير .

وقال الثوري : لو أن البهائم تعقل من الموت ما تعقلون ما أكلتم منها سميناً .

وقال الحسن بن عبد العزيز : من لم يردعه القرآن والموت ، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع .

وقال أبو نعيم :كان الثوري إذا ذكر الموت لم يُنتفع به أياماً ، وفي الحديث : (أكثروا ذكر هاذم اللذات) .

تزود من الدنيا فإنك لا تدري -------- إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة ------- وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ---- وأكفانه في الغيب تنسج وهو لا يدري

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ------- وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر

وكم من عروس زينوها لزوجها ---------- وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

فمن عاش ألفا وألفيـن ----------فلا بد من يوم يسير إلى القبر

- فالقتال في سبيل الله لا يقرّب أجلاً ولا يباعده .

الفوائد :

١ -أنه لا فرار من قدر الله .

٢ -قدرة الله تعالى بإماتة الحي ، وإحياء الميت .

٣ - إثبات البعث .

٤ - إذا كان الموت لابد منه ، فيجب الاستعداد له .

٥ - أن الشاكر من الناس قليل .

٦ - فضل شكر الله .

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .
[البقرة : ٢٤٤] .

- - - - - - - - -

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أي : قاتلوا – أيها المسلمون الكفار لنصرة دين الله .

قيل : إن هذا خطاب للذين أحيوا ، قال الضحاك : أحياهم ثم أمرهم بأن يذهبوا إلى الجهاد لأنه تعالى إنما أماتهم بسبب أن كرهوا الجهاد.

وقيل : - وهو اختيار جمهور المحققين - أن هذا استئناف خطاب للحاضرين ، يتضمن الأمر بالجهاد إلا أنه سبحانه بلطفه ورحمته قدم على الأمر بالقتال ذكر الذين خرجوا من ديارهم لئلا ينكص عن أمر الله بحب الحياة بسبب خوف الموت ، وليعلم كل أحد أنه يترك القتال لا يثق بالسلامة من الموت ، كما قال في قوله (قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفرار إِن فَرَرْتُم مِّنَ الموت أَوِ القتل وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً) فشجعهم على القتال الذي به وعد إحدى الحسنيين ، إما في العاجل الظهور على العدو ، أو في الآجل الفوز بالخلود في النعيم ، والوصول إلى ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

- قال القرطبي :قوله تعالى (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هذا خطاب لأُمة محمد e بالقتال في سبيل الله في قول الجمهور. وهو الذي يُنْوَى به أن تكون كلمة الله هي العليا .

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) لأقوالكم .

(عَلِيمٌ) بنياتكم وأعمالكم .

الفوائد :

١- وجوب الجهاد في سبيل الله .

٢- أن الحكمة من الجهاد هو إعلاء كلمة الله .

٣- التنبيه على الإخلاص في الجهاد .

٤- التحذير من إرادة غير الله في الجهاد .

٥- تهديد من أراد غير سبيل الله في جهاده ، لأن الله عز وجل مطلع عليه .

٦- إثبات اسمين من أسماء الله ، وهما : السميع والعليم .

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .
[البقرة : ٢٤٥] .

- - - - - - - - - - -

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) أي : من ذا الذي يقرض الله بالإنفاق في سبيله في وجوه البر كلها ، من الزكوات والصدقات ، والإنفاق على الأهل والأولاد ، وعلى المحتاجين من الأقارب واليتامى والمساكين وغيرهم .

- **قال ابن كثير :** فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية .
- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ..) اعتراض بين جملة (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) إلى آخرها ، وجملة (ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل) الآية ، قصد به الاستطراد للحث على الإنفاق لوجه الله في طرق البر ، لمناسبة الحث على القتال ، فإن القتال يستدعي إنفاق المقاتل على نفسه في العُدَّة والمؤونة مع الحث على إنفاق

الواجد فضلاً في سبيل الله بإعطاء العُدَّة لمن لا عُدَّة له ، والإنفاق على المعسرين من الجيش ، وفيها تبيين لمضمون جملة (واعلموا أن الله سميع عليم) فكانت ذات ثلاثة أغراض.

- **قال أبو حيان :** ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه تعالى لما أمر بالقتال في سبيل الله ، وكان ذلك مما يفضي إلى بذل النفوس والأموال في إعزاز دين الله ، أثنى على من بذل شيئاً من ماله في طاعة الله ، وكان هذا أقل حرجاً على المؤمنين ، إذ ليس فيه إلاَّ بذل المال دون النفس ، فأتى بهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة معنى الطلب.
- **قال القرطبي :** وسمّي قرضاً ؛ لأن القرض أخْرج لاسترداد البدل ، أي من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدِله الله بالأضعافِ الكثيرة .
- **وقال بعض العلماء :** وسمي الإنفاق قرضاً حسناً لله تعالى ، مع أن المال ماله ، والملك ملكه ، والخلق عبيده ، حثاً وترغيباً فيه .
- **قال ابن القيم :** سمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً ، حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل ، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوّعت له نفسه بذله ، وسهل عليه إخراجه ، فإن علم أن المستقرض مليّ وفيّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه ، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح ، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض ، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان ، وذلك من ضعف إيمانه .
- قوله تعالى (حسناً) : قال بعض العلماء : القرض لا يكون حسناً حتى يجمع أوصافاً عشرة **الأول :** أن يكون من الحلال قال عليه الصلاة والسلام (إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب) وقال عليه الصلاة والسلام (لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غلول) .

والثاني : أن يكون من أكرم ما يملكه دون أن ينفق الرديء ، قال الله تعالى (وَلاَ تَيَمَّمُواْ الخبيث مِنْهُ تُنفِقُونَ) .

و الثالث : أن تتصدق به وأنت تحبه وتحتاج إليه بأن ترجو الحياة وهو المراد بقوله تعالى (وآتى المال على حبه) وبقوله (وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ) على أحد التأويلات، وقال u (الصدقة أن تعطي وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ، ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا) .

والرابع : أن تصرف صدقتك إلى الأحوج الأولى بأخذها ، ولذلك خص الله تعالى أقواماً بأخذها وهم أهل السهمان .

الخامس : أن تكتم الصدقة ما أمكنك لأنه تعالى قال (وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) .

السادس : أن لا تتبعها مناً ولا أذى ، قال تعالى (لاَ تُبْطِلُواْ صدقاتكم بالمن والأذى) .

السابع : أن تقصد بها وجه الله ولا ترائي ، كما قال (إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبّهِ الأعلى * وَلَسَوْفَ يرضى) .ولأن المرائي مذموم بالاتفاق .

الثامن : أن تستحقر ما تعطي وإن كثر ، لأن ذلك قليل من الدنيا ، والدنيا كلها قليلة ، وهذا هو المراد من قوله تعالى (وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) في أحد التأويلات .

التاسع : أن يكون من أحب أموالك إليك ، قال تعالى (لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ) .

العاشر : أن لا ترى عز نفسك وذل الفقير ، بل يكون الأمر بالعكس في نظرك ، فترى الفقير كأن الله تعالى أحال عليك رزقه الذي قبله بقوله (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) وترى نفسك تحت دين الفقير ، فهذه أوصاف عشرة إذا اجتمعت كانت الصدقة قرضاً حسناً . [تفسير الرازي]

- **وقال ابن القيم :** القرض الحسن يجمع أموراً ثلاثة :

أحدها : أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه .

الثاني : أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله .

الثالث : أن لا يمن به ولا يؤذي .

(**فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً**) أي : خلفاً في الدنيا كما قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) ويضاعفه له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وقال تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

وفي الآخرة كما في قوله تعالى في سورة الحديد (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيم) أي : وله ثواب عظيم وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم، كما قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

(**وَاللَّهُ يَقْبِضُ**) أي : يقتّر على من يشاء .

(**وَيَبْسُطُ**) أي : ويوسع على من يشاء ابتلاء وحكمة .

(**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) بعد الموت ، فيجازيكم على أعمالكم .

الفوائد :

١ - الحث على الإنفاق في طاعة الله عز وجل .

٢ - أنه لا يضيع شيء عند الله عز وجل ، وأن الله يعوض المنفق .

٣ - ينبغي الحرص على أن يكون الإنفاق والعطاء حسناً ، فلا يمن به ولا يقصد به رياء ولا سمعة .

٤ - وعد من الله عز وجل أن من أنفق بطاعة الله عز وجل يريد ما عند الله أن الله يضاعف له ذلك ويخلفه وله الأجر الكبير يوم القيامة .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) .

[البقرة : ٢٤٦] .

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى**) أي : ألم يصل خبر القوم إليك ؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع ، وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام .

(**إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أي : حين قالوا لنبيهم (شمعون) وهو من نسل هارون ، أقم لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله .

(**قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا**) أي : قال لهم نبيهم : أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه .

(**قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**) قالوا مستنكرين توقع نبيهم : وأي مانع يمنعنا عن القتال في سبيل الله ، وقد أخرجنا عدونا من ديارنا ، وأبعدنا عن أولادنا بالقتل والأسر .

(**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ**) أي : فلما فرض عليهم القتال .

(**تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ**) نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا .

- **قال القرطبي** : وهذا شأن الأُمم المتنعِّمَة المائلة إلى الدَّعَة تتمنّى الحرب أوقات الأنفة فإذا حَضرتِ الحرب كَعَّت وانقادت لِطبعها ، وعن هذا المعنى نهى النبيّ e بقوله (لا تتمنوا لِقاء العدوّ وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا) .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**) وعيد وتهديد لمن تقاعد عن القتال بعد أن فرض عليه بسؤاله ورغبته ، وأن الإعراض عما أوجب الله على العبد ظلم ، إذ الظلم وضع الشيء في غير موضعه .

الفوائد :

١- الحث على النظر والاعتبار بما يحدث وما يذكر الله من القصص .

٢- تحذير هذه الأمة عن التولي عن القتال إذا كتب عليهم .

٣- أنه لا بد للجيوش من قائد يتولى قيادتها .

٤- الإشارة إلى الإخلاص .

٥- الإشارة إلى قول النبي e (لا تتمنوا لقاء العدو) .

٦- أن الإنسان لا ينبغي له أن يسأل شيئاً قبل وقوعه .

٧- تحريم الظلم بأنواعه . (الأحد ٣٠ / ١ / ١٤٣٣هـ) .

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

[البقرة : ٢٤٧ – ٢٤٨] .

(**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً**) أي: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا منهم فعين لهم طالوت ، وكان رجلاً من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط فلهذا قالوا :

(**قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا**) أي: كيف يكون ملكًا علينا .

- **قال القرطبي** : جَروا على سنّتهم في تَعْنِيتهم الأنبياء وحَيْدهم عن أمر الله تعالى .

وقال ابن عاشور : وأَنَّى في قوله (أنى يكون له الملك علينا) بمعنى كيف ، وهو استفهام مستعمل في التعجب ، تعجبوا من جعل مِثله ملكاً ، وكان رجلاً فلاحاً من بيت حقير ، إلاّ أنه كان شجاعاً ، وكان أطول القوم .

(**وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ**) أي : لأنا فينا من هو من أولاد الملوك .

(**وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ**) أي: ثم هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء وقيل: دباغًا ، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف .

- **قال أبو حيان :** هذا كلام من تعنتَ وحادَ عن أمر الله ، وهي عادة بني إسرائيل ، فكان ينبغي لهم إذ قال لهم النبي عن الله (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) أن يسلموا لأمر الله ، ولا تنكره قلوبهم ، ولا يتعجبوا من ذلك ، ففي المقادير أسرار لا تدرك ، فقالوا : كيف يملك علينا من هو دوننا.

(**قَالَ**) أي : نبيهم مجيباً لهم :

(**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ**) أي: اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم. يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك .

(**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**) أي: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبرًا في الحرب ومعرفة بها، أي: أتم علمًا وقامة منكم .

- **قال الشوكاني :** قوله تعالى (اصطفاه عَلَيْكُمْ) أي : اختاره ، واختيار الله هو الحجة القاطعة ، ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء : بأن الله زاده بسطة في العلم ، الذي هو ملاك الإنسان ، ورأس الفضائل ، وأعظم وجوه الترجيح ، وزاده بسطة في الجسم الذي يظهر به الأثر في الحروب ، ونحوها ، فكان قوياً في دينه ، وبدنه ، وذلك هو المعتبر ، لا شرف النسب . فإن فضائل النفس مقدّمة عليه .

- **وقال الرازي :** قال بعضهم : المراد بالبسطة في الجسم طول القامة ، وكان يفوق الناس برأسه ومنكبه ، وإنما سمي طالوت لطوله .

وقيل : المراد من البسطة في الجسم الجمال ، وكان أجمل بني إسرائيل .

وقيل : المراد القوة ، وهذا القول عندي أصح لأن المنتفع به في دفع الأعداء هو القوة والشدة ، لا الطول والجمال .

- **قال الرازي :** إنه تعالى قدم البسطة في العلم ، على البسطة في الجسم ، وهذا منه تعالى تنبيه على أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية .

- **وقال ابن عاشور :** قدم النبي في كلامه العلم على القوة لأن وقعه أعظم ، قال أبو الطيب :

الرأي قبلَ شجاعةِ الشجعان --- هو أَوَّلٌ وهي المحل الثاني .

فالعلم المراد هنا ، هو علم تدبير الحرب وسياسة الأمة ، وقيل : هو علم النبوة ، ولا يصح ذلك لأن طالوت لم يكن معدوداً من أنبيائهم .

- **قال أبو السعود :** لما استبعدوا تملُّكه بسقوط نسَبِه وبفقره ردَّ عليهم ذلك :

أولاً : بأن مَلاكَ الأمرِ هو اصطفاءُ الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم .

وثانياً : بأن العُمدة فيه وُفورُ العلم ليتمكَّنَ به من معرفة أمورِ السياسةِ ، وجسامةُ البدن ليعظُم خطرُه في القلوب ويقدِرَ على مقاومة الأعداءِ ومكابدةِ الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظٍّ وافرٍ.

- **قال الرازي :** واعلم أن القوم لما كانوا مقرين بنبوة ذلك النبي ، كان إخباره عن الله تعالى أنه جعل طالوت ملكاً عليهم حجة قاطعة في ثبوت الملك .
- **قال ابن كثير :** ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه .

(وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ) أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه .

كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ).

- هذا جواب عن شبهتم ، وتقريره أن الملك لله ، والعبيد لله ، فهو سبحانه يؤتي ملكه من يشاء ولا اعتراض لأحد عليه في فعله ، لأن المالك إذا تصرف في ملكه فلا اعتراض لأحد عليه في فعله .
- **قال الشوكاني :** قوله تعالى (والله يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاء) فالملك ملكه ، والعبيد عبيده ، فما لكم والاعتراض على شيء ليس هو لكم ، ولا أمره إليكم . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله (والله يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاء) من قول نبينا محمد e ، وقيل : هو من قول نبيهم ، وهو الظاهر .
- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (والله يؤتي ملكه من يشاء) يحتمل أن يكون من كلام النبي ، فيكون قد رجع بهم إلى التسليم إلى أمر الله ، بعد أن بين لهم شيئاً من حكمة الله في ذلك.

ويحتمل أن يكون تذييلاً للقصة من كلام الله تعالى .

- قوله تعالى (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ) قال الشيخ ابن عثيمين: وليُعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، أي : أنه ليست مشيئة الله مشيئة مجردة هكذا تأتي عفواً ، لا ، بل هي مشيئة مقرونة بالحكمة ، والدليل على ذلك قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله بيّن أن ذلك مبني على علم وحكمة .

(وَاللَّهُ وَاسِعٌ) قال ابن جرير : واسع يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير .

وقال الخطابي : الواسع : هو الغني الذي وسع غناه مفاقر عباده ، ووسع رزقه جميع خلقه .

وقال السعدي : الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها ، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، واسع العظمة ، والسلطان والملك ، واسع الفضل والإحسان ، عظيم الجود والكرم .

- فالله عز وجل واسع العطاء ، كثير الإفضال على خلقه ، والخلق كلهم يتقلبون في رحمته وفضله ، يعطي من يشاء ويمنع ، ويخفض من يشاء ويرفع ، بعلمه الذي وسع كل شيء وحكمته .
- والله واسع المغفرة .

ومن سعة مغفرته : أنه يغفر لكل من تاب وأناب مهما بلغت ذنوبه وخطاياه .

قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) . وقال حملة العرش عن ربهم تبارك وتعالى (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) .

- والله واسع العلم .

كما قال تعالى (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) .

- والله واسع الرحمة .

كما قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) ، وقال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) .

(**عَلِيمٌ**) بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، عَلِيمٌ بمن يستحق الملك ، ويصلح له .

(**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ**) يقول نبيهم لهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم.

- **قال الشوكاني :** أي : علامة ملكه إتيان التابوت الذي أخذ منهم ، أي : رجوعه إليكم ، وهو صندوق التوراة .
- التابوت صندوق ، لكن ما هي صفة التابوت الوارد في الآية ، الله أعلم بذلك .

(**فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**) اختلف في المراد بالسكينة ، ورجح الطبري أنها ما تسكن إليه النفوس من الآيات التي يعرفونها .

(**وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ**) اختلف في المراد بالبقية ، قيل : عصا موسى ، وقيل : رضاض الألواح ، وقيل : هي بعض ما تركه آل موسى وآل هارون من ثياب .

- **قال الطبري :** وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر عن التابوت الذي جعله آية لصدق قول نبيه e الذي قال لأمته : " إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا" أن فيه سكينة منه ، وبقية مما تركه آل موسى وآل هارون. وجائز أن يكون تلك البقية : العصا ، وكسر الألواح ، والتوراة ، أو بعضها ، والنعلين ، والثياب ، والجهاد في سبيل الله وجائز أن يكون بعض ذلك ، وذلك أمر لا يدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة ، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم. ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصفة التي وصفنا ، وإذ كان كذلك ، فغير جائز فيه تصويب قول وتضعيف آخر غيره ، إذ كان جائزاً فيه ما قلنا من القول .
- **قال ابن عطية :** والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى ، فالمعهود أن الله ينصر الحق والأمور الفاضلة عنده ، والسكينة على هذا فعيلة مأخوذة من السكون ، كما يقال عزم عزيمة وقطع قطيعة .

(**تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ**) قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لكم**) أي: على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت .

(**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**) أي : بالله واليوم الآخر .

الفوائد :

١ - تعظيم الأنبياء لله تعالى وحسن أدبهم .

٢ - وجوب الإيمان بالقدر .

٣ - فضل العلم .

٤ - أن الملك يقوى بالعلم وقوة البدن .

٥ - أنه كلما كان ولي الأمر ذا سلطة في العلم وتدبير الأمور والجسم والقوة كان أقوم لملكه .

٦ - إثبات المشيئة لله .

٧ - سعة رحمة الله وعلمه وملكه .

٨ - إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الواسع والعليم .

٩ - ما في التابوت من الآيات العظيمة .

١٠- أن للسكينة تأثيراً على القلوب .

١١- إثبات الملائكة .

١٢- أن الآيات إنما ينتفع بها المؤمنون .

١٣- فضيلة الإيمان .

١٤- أن الملائكة أجسام .

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين) .

[البقرة : ٢٤٩] .

(**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ**) أي : خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه .

(**قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ**) أي : مختبركم بنهر .

- **قال ابن الجوزي :** ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من له نية في القتال منهم ومن ليس له نية .
- **وقال الرازي :** في حكمة هذا الابتلاء وجهان :

الأول : قال القاضي : كان مشهوراً من بني إسرائيل أنهم يخالفون الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات الباهرة فأراد الله تعالى إظهار علامة قبل لقاء العدو يتميز بها من يصبر على الحرب ممن لا يصبر، لأن الرجوع قبل لقاء العدو لا يؤثر كتأثيره حال لقاء العدو، فلما كان هذا هو الصلاح قبل مقاتلة العدو لا جرم قال (فَإِنَّ الله مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ) .

الثاني : أنه تعالى ابتلاهم ليتعودوا الصبر على الشدائد .

- **وقال القرطبي :** ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم ، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء عُلِم أنه مطيع فيما عدا ذلك ، ومن غلبته شهوته (في الماء) وعصى الأمر فهو في العصيان في الشدائد أحرى .

(**فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي**) أي : من شرب منه فلا يصحبني – وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض غمار الحرب - .

- **قال ابن عاشور :** ومعنى قول طالوت (ليس مني) يحتمل أنه أراد الغضب عليه والبعد المعنوي .

ويحتمل أنه أراد أنه يفصله عن الجيش ، فلا يكمل الجهاد معه .

والظاهر الأول لقوله (ومن لم يطعَمْه فإنه مني) لأنه أراد به إظهار مكانة من ترك الشرب من النهر وولائه وقربه ، ولو لم يكن هذا مراده لكان في قوله (فمن شرب منه فليس مني) غنية عن قوله : ومن لم يطعمه فإنه مني ؛ لأنه إذا كان الشارب مبعداً من الجيش فقد علم أن من لم يشرب هو باقي الجيش .

(**وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي**) أي : ومن لم يشرب منه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي .

- **قال القرطبي :** ولم يقل ومن لم يشربه لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئاً أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات، فلا عِبرة بقدح من يقول : لا يقال طعمت الماء .

(**إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**) أي : لكن من اغترف قليلاً من الماء ليبل عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك .

(**فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ**) أي : فلما وصلوا إلى النهر انكبوا على الماء وأفرطوا في الشرب منه إلا عدداً قليلاً منه صبروا على العطش والحر ، واكتفوا بغُرفة اليد .

- **قال ابن الجوزي :** وفي عدد القليل الذين لم يشربوا إلا غرفة قولان :

أحدهما : أنهم أربعة آلاف ، قاله عكرمة والسدي .

والثاني : ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وهو الصحيح ، لما روي عن النبي e ، أنه قال لأصحابه يوم بدر (أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت) وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً .

- في هذا أن أكثر عباد الله لا ينفذ أمر الله .

وقد روى أحمد والدارمي عن عبد الله بن سلام قال (قعدنا نفر من أصحاب رسول الله e ، فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه ، فأنزل الله تعالى (سبح لله ...) حتى ختمها ، قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله e حتى ختمها) .

والآية إنكار لمن يقول قولاً ولا يفعله ، أو يعد وعداً لا يفي به .

قال القرطبي : قوله تعالى (لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ) استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله ، أما في الماضي فيكون كذباً ، وأما في المستقبل فيكون خلفاً وكلاهما مذموم .

- وفي الآية تعريض بأن العافية لا يعدلها شيء ، وأن السلامة غنيمة ، وأن الأولى أن الإنسان لا يسأل أو يتمنى أمر قد لا يفي بفعله ، أو يلزم نفسه بما لم يلزمه الله به .

- وقد جاءت آيات في معنى هذه الآية :

كقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) .

وقال تعالى (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً) .

وقال تعالى (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

(**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**) أي: فلما عبر طالوت النهر هو والقلة المؤمنة معه - وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً - لملاقاة العدو ، ورأوا كثرة عدوهم وعدتهم .

- فلم يعبر معه إلا المطيع ويدل لذلك أمور :

الحجة الأولى : أن الله تعالى قال (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه) فالمراد بقوله (الذين ءامَنُواْ مَعَهُ) الذين وافقوه في تلك الطاعة ، فلما ذكر الله تعالى كل العسكر ، ثم خص المطيعين بأنهم عبروا النهر ، علمنا أنه ما عبر النهر أحد إلا المطيعين.

الحجة الثانية : الآية المتقدمة وهي قوله تعالى حكاية عن طالوت (فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّي) أي ليس من أصحابي في سفري، كالرجل الذي يقول لغيره: لست أنت منا في هذا الأمر، قال: ومعنى (فَشَرِبُواْ مِنْهُ) أي ليتسببوا به إلى الرجوع، وذلك لفساد دينهم وقلبهم .

الحجة الثالثة : أن المقصود من هذا الابتلاء أن يتميز المطيع عن العاصي والمتمرد ، حتى يصرفهم عن نفسه ويردهم قبل أن يرتدوا عند حضور العدو ، وإذا كان المقصود من هذا الابتلاء ليس إلا هذا المعنى كان الظاهر أنه صرفهم عن نفسه في ذلك الوقت وما أذن لهم في عبور النهر.

(قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) أي : لا قدرة لنا اليوم بجالوت وجنوده الأشداء .

- **قال ابن الجوزي :** واختلفوا في القائلين لهذا على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم الذين شربوا أكثر من غرفة ، فإنهم انصرفوا ، ولم يشهدوا ، وكانوا أهل شك ونفاق ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : أنهم الذين قلت بصائرهم من المؤمنين ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

والثالث : أنه قول الذين جاوزوا معه ، وإنما قال ذلك بعضهم لبعض ، لما رأوا من قلتهم ، وهذا اختيار الزجاج .

وقد رجح هذا القول ابن جرير وابن عاشور وقال ابن عاشور : وقد دل قوله (فشربوا منه) على قِلة صبرهم ، وأنهم ليسوا بأهل لمزاولة الحروب ، ولذلك لم يلبثوا أن صرحوا بعدَ مجاوزة النهر فقالوا (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) فيحتمل أن ذلك قالوه لما رأوا جنود الأعداء ، ويحتمل أنهم كانوا يعلمون قوة العدو ، وكانوا يسرون الخوف ، فلما اقترب الجيشان ، لم يستطيعوا كتمان ما بهم .

(قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ) أي : قال الذين يوقنون بلقاء الله ، مذكرين لإخوانهم بالله وقدرته .

- معنى الظن هنا اليقين . والظن يطلق على اليقين .

كما في قوله تعالى (وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً) أي: فأيقنوا، وكقوله تعالى (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ) .

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) كم من جماعة قليلة مؤمنة صابرة ، غلبت – بإذن الله – وأمره – جماعة كثيرة كافرة باغية .

- **قال الرازي :** المراد منه تقوية قلوب الذين قالوا (لاَ طَاقَةَ لَنَا اليوم بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ) والمعنى أنه لا عبرة بكثرة العدد إنما العبرة بالتأييد الإلهي ، والنصر السماوي ، فإذا جاءت الدولة فلا مضرة في القلة والذلة ، وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعدة.
- **قال القرطبي :** هكذا يجب علينا نحن أن نفعل ، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدّام اليسير من العدوّ كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاريّ: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم.

وفي المسْند أن النبيّ e قال (هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم) فالأعمال فاسدة والضعفاء مُهْمَلون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال الله تعالى (اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ واتقوا الله) وقال (وَعَلَى الله فتوكلوا) وقال (إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ) وقال (وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ) وقال (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ) .

فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا! بل لم يبق من الإسلام إلى ذكره ، ولا من الدِّين إلاّ رَسْمُه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدوّ شرقاً وغرباً براً وبحراً ، وعَمّت الفتن وعظُمت المحَن ولا عاصم إلا من رحِم .

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين) بنصره وتوفيقه وتأييده .

قال الرازي : يحتمل أن يكون هذا قولاً للذين قالوا (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ) ويحتمل أن يكون قولاً من الله تعالى ، وإن كان الأول أظهر.

الفوائد :

١ -يجب على القائد أن يمنع من لا يصلح للحري كالمخذل والمرجف .

٢ -أن من الحكمة اختبار الجند ، ليظهر من أهل للقتال ، ومن ليس بأهل .

٣ -أن أكثر عباد الله لا ينفذ أمر الله .

٤ - أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ تَعَالَى وَالتَّصْدِيقَ بِلِقَائِهِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ فِي مَوَاقِفِ الْجِلَادِ؛ فَإِنَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِأَنَّ لَهُ إِلَهًا غَالِبًا عَلَى أَمْرِهِ يَمُدُّهُ بِمَعُونَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ .

٥ - أن القليل من الناس من يصبر عند البلوى .

٦ - أهمية اليقين وأنه يحمل الإنسان على الصبر والتحمل .

٧ - إثبات ملاقاة الله .

٨ - أنه قد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة .

٩ - فضيلة الصبر .

١٠ -إثبات المعية لله تعالى .

(وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ . تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

[البقرة : ٢٥٠ – ٢٥٢] .

(**وَلَمَّا بَرَزُوا**) أي : ولما واجه حزب الإيمان – وهم قليل – من أصحاب طالوت .

- **قال الشوكاني :** أي لما صاروا في البراز وهو المتسع من الأرض .

(**لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**) وشاهدوا ما هم عليه من العَدد والعُدد وأيقنوا أنهم غيرُ مطيقين لهم عادة .

- جالوت أمير العمالقة .

(**قَالُوا**) داعين ربهم .

كما قال تعالى عن أولئك (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين) وهكذا كان يفعل رسول الله e في كل المواطن ، وروي عنه في قصة بدر أنه عليه السلام لم يزل يصلي ويستنجز من الله وعده ، وكان متى لقي عدواً قال (اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم " وكان يقول (اللهم بك أصول وبك أجول) .

(**أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً**) أي : أنزل علينا صبراً من عندك .

(**وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**) أي : في لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز .

(**وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**) أي : وانصرنا بعونك وتأييدك على القوم الكافرين .

وفي هذا تنبيه على أن قتالهم إياهم إنما هو لوصف كفرهم لا لغرض دنيوي

(**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ**) أي : غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ، بإذنه تعالى الكوني القدري .

وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ) أي : وقتل داود – عليه السلام – جالوت قائد الجبابرة .

(**وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**) مع النبوة .

قال ابن الجوزي : يعني آتى داود ملك طالوت .

(**وَالْحِكْمَةَ**) قيل النبوة ، وقيل : الزبور .

(**وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**) أي : مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به **e** .

من ذلك ما ذكره تعالى في قوله (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ) .

وقال (وَأَلَنَّا لَهُ الحديد . أَنِ اعمل سابغات وَقَدّرْ فِي السرد) .

قال تعالى حكاية عنه (عُلّمْنَا مَنطِقَ الطير) .

وقال تعالى (وَءاتَيْنَا دَاوُودُ زَبُوراً) وذلك لأنه كان حاكماً بين الناس ، فلا بد وأن يعلمه الله تعالى كيفية الحكم .

(**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**) أي : لولا يدفع عن قوم بآخرين ، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

- **قال أبو حيان :** والذي يظهر : أن المدفوع بهم هم المؤمنون ، ولولا ذلك لفسدت الأرض ، لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها ، ولكنه تعالى لا يخلي زماناً من قائم يقوم بالحق ويدعو إلى الله تعالى ، إلى أن جعل ذلك في أمّة محمد **e** .
- **وقال الزمخشري :** لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ، ويكف بهم فسادهم ، لغلب المفسدون ، وفسدت الأرض ، وبطلت منافعها ، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض. انتهى.

(**وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**) أي : منّ عليهم ورحمة بهم ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً ، وله الحكم والحكمة ، والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله .

(**تِلْكَ**) أي : المذكورات من إماتة الألوف وإحيائهم وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام جالوت وقتل داود إياه وتملكه .

(**آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ**) أي : هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم (نتلوها عليك) أي : ننزل عليك جبريل بها .

(**بِالْحَقِّ**) أي : بالواقع الذي كان عليه الأمر ، المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق ، الذي يعلمه علماء بني إسرائيل .

(**وَإِنَّكَ**) يا محمد .

(**لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) خطاب للرسول **e** تنويهاً بشأنه وتثبيتاً لقلبه ، وتعريضاً بالمنكرين رسالته ، وتأكيد الجملة بإنَّ للاهتمام بهذا الخبر ، وجيء بقوله (من المرسلين) دون أن يقول : وإنك لرسول الله ، للرد على المنكرين بتذكيرهم أنه ما كان بدْعاً من الرسل ، وأنه أرسله كما أرسل من قبله ، وليس في حاله ما ينقص عن أحوالهم. (تفسير ابن عاشور) .

وقال رحمه الله : تذكير بأنّ إعلامه بأخبار الأمم والرسل آية على صدق رسالته ، إذ ما كان لمثله قِبَلٌ بعلم ذلك لولا وحي الله إليه ، وفي هذا كلّه حجة على المشركين وعلى أهل الكتاب الذين جحدوا رسالة محمد **e** .

- **قال القاسمي :** وفي هذه القصص معتبر لهذه الأمة في احتمال الشدائد في الجهاد كما احتملها المؤمنون في الأمم المتقدمة ، كما أن فيها تسلية للرسول **e** من الكفار والمنافقين ، فكأنه قيل : قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء عليهم

السلام في بني إسرائيل من الخلاف عليهم والرد لقولهم ، فلا يعظمن عليك كفر من كفر بك ، وخلاف من خالف عليك لأنك مثلهم ، وإنما بعث الكل لتأدية الرسالة ولامتثال الأمر على سبيل الاختيار والطوع ، لا على سبيل الإكراه ، فلا عتب عليك في خلافهم وكفرهم . والوبال في ذلك يرجع عليهم .

الفوائد :

١ - أن من تمام العبودية أن يلجأ العبد إلى ربه عند الشدائد .

٢ - أن التجاء الإنسان إلى الله عند الشدائد سبب لنجاته .

٣ - اضطرار الإنسان إلى ربه في تثبيت قدمه .

٤ - أن من صدق اللجوء إلى الله وأحسن الظن به أجاب الله دعاءه .

٥ - شجاعة داود حيث قتل جالوت .

٦ - أن الأنبياء ليس عندهم من العلم إلا ما علمهم الله .

٧ -أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض لتصلح الأرض .

٨ - إثبات حكمة الله تعالى .

٩ - إثبات فضل الله على جميع الخلق .

١٠ - أن القرآن كله حق من الله .

١١ - إثبات رسالة النبي e .

١٢ - أن هناك رسلاً غير الرسول .

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) .

[البقرة : ٢٥٣] .

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً) .

وقد أجمع العلماء على أن الأنبياء بعضهم أفضل من بعض ، وأجمعوا على تفضيل الرسل منهم على الأنبياء ، لتميزهم بالرسالة التي هي أفضل من النبوة ، وأجمعوا على تفضيل أولي العزم منهم على بقيتهم ، وعلى تفضيل نبينا على الجميع .

- فإن قيل : ما الجمع بين هذه الآية وبين الأحاديث الواردة في النهي عن التفضيل :

كحديث أبي هريرة . قَالَ (اسْتَبَّ رَجُلاَنِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ ، قَالَ الْمُسْلِمُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّداً عَلَى الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ . فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِي r فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ ، فَدَعَا النَّبِيُّ e الْمُسْلِمَ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ e : لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِى أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي ، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ) متفق عليه .

وفي رواية (لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ...) .

الجمع من وجوه :

الأول : أن النهي في الحديث محمول على ما إذا كان التفضيل يؤدي إلى توهم النقص في المفضول أو الغض منه ، أو كان على وجه الازدراء به .

واختاره الخطابي ، والبغوي ، وابن تيمية ، وابن أبي العز ، وحافظ حكمي .

الثاني : أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل يؤدي إلى المجادلة والمخاصمة والتشاجر والتنازع .

ويؤيد هذا القول سبب ورود الحديث كما تقدم في حديث أبي هريرة .

الثالث : أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل بمجرد الرأي والهوى ، لا بمقتضى الدليل .

الرابع : أن نهيه e على سبيل التواضع منه e .

الخامس : أن النهي الوارد في الأحاديث كان قبل نزول الآيات ، وقبل أن يعلم النبي e أنه سيد ولد آدم .

(**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ**) يعني موسى ومحمداً e ، وكذلك آدم .

قال تعالى (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) .

وقال تعالى (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) .

(**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**) كما ثبت في حديث الإسراء ، حين رأى النبي e الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله .

يحتمل : أن المراد منه بيان أن مراتب الرسل متفاوتة ، وذلك لأنه تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يؤت أحداً مثله هذه الفضيلة، وجمع لداود الملك والنبوة ولم يحصل هذا لغيره ، وسخر لسليمان الإنس والجن والطير والريح ، ولم يكن هذا حاصلاً لأبيه داود u ، ومحمد عليه السلام مخصوص بأنه مبعوث إلى الجن والإنس وبأن شرعه ناسخ لكل الشرائع.

ويحتمل : أن المراد بهذه الآية محمد عليه السلام ، لأنه هو المفضل على الكل ، وإنما قال (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات) على سبيل التنبيه والرمز كمن فعل فعلاً عظيماً فيقال له : من فعل هذا فيقول أحدكم أو بعضكم ويريد به نفسه ، ويكون ذلك أفخم من التصريح به .

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ) أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم .

كما قال تعالى (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) .

- قوله تعالى (عيسى ابن مريم) قال ابن تيمية : لما ذكر الله المسيح في القرآن قال (ابن مريم) بخلاف سائر الأنبياء وفي ذلك فائدتان : **إحداهما :** بيان أنه مولود ، والله لم يولد ، **والثانية :** نسبته إلى مريم ، بأنه ابنها ليس هو ابن الله .

(**وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**) يعني: أن الله أيده بجبريل عليه السلام .

● **فإن قيل :** لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر ؟ وهل يدل ذلك على أنهما أفضل من غيرهما ؟

والجواب : سبب التخصيص أن معجزاتهما أبر وأقوى من معجزات غيرهما ، وأيضاً فأمتهما موجودون حاضرون في هذا الزمان ، وأمم سائر الأنبياء ليسوا موجودين ، فتخصيصهما بالذكر تنبيه على الطعن في أمتهما ، كأنه قيل : هذان الرسولان مع علو درجتهما وكثرة معجزاتهما لم يحصل الانقياد من أمتهما ، بل نازعوا وخالفوا ، وعن الواجب عليهم في طاعتهما أعرضوا.

(**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**) أي : لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها الرسل ، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا ، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل .

● **قال القرطبي :** قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) أي : من بعد الرسل.

قيل : الضمير لموسى وعيسى ، والاثنان جمع ، وقيل : من بعد جميع الرسل ، وهو ظاهر اللفظ.

وقيل : إن القتال إنما وقع من الذين جاءوا بعدهم وليس كذلك المعنى ، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبيّ ، وهذا كما تقول : اشتريت خيلاً ثم بعتها ، فجاز لك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرساً وبعته ثم آخر وبعته ، ثم آخر وبعته ، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبيّ فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغياً وحسداً وعلى حطام الدنيا ، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بِسرّ الحكمة في ذلك الفعل لما يريد .

(**وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا**) أي : ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم .

(**فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ**) أي : فمنهم من ثبت على الإيمان .

(**وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ**) أي : ومنهم من حاد وكفر .

(**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا**) أي : لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون .

(**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**) كل ذلك عن قضاء الله وقدره .

الفوائد :

١ - أن الرسل عليهم السلام يتفاضلون .

٢ - أن فضل الله يؤتيه من يشاء .

٣ -إثبات الكلام لله تعالى .

٤ - أن كلام الله للإنسان يعتبر رفعة .

٥ - إثبات نبوة عيسى .

٦ - أن عيسى مولود .

٧ - الرد على النصارى في زعمهم أن عيسى إله .

٨ - إثبات المشيئة لله تعالى .

٩ - بيان حكمة الله في انقسام الناس إلى مؤمن وكافر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).
[البقرة : ٢٥٤] .

- - - - - - - -

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد :

الأولى : العناية والاهتمام به والتنبيه .

الثانية : الإغراء ، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان ، كما تقول يا ابن الأجود جُد .

الثالثة : أن امتثال هذا الأمر يعد من مقضيات الإيمان ، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان .

(أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) أي : أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه ، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات .

قيل : هذا الأمر مختص بالزكاة ، لأن قوله (مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ) كالوعد والوعيد لا يتوجه إلا على الواجب .

وقال الأكثرون : هذا الأمر يتناول الواجب والمندوب ، وليس في الآية وعيد ، فكأنه قيل : حصلوا منافع الآخرة حين تكونون في الدنيا ، فإنكم إذا خرجتم من الدنيا لا يمكنكم تحصيلها واكتسابها في الآخرة .

والقول الثالث : أن المراد منه الإنفاق في الجهاد : والدليل عليه أنه مذكور بعد الأمر بالجهاد ، فكان المراد منه الإنفاق في الجهاد ، وهذا قول الأصم .

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ) يعني يوم القيامة .

(لا بَيْعٌ فِيهِ) أي : لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه ، ولو جاء بملء الأرض ذهباً ، فلا تنفعه صداقة أحد بل ولا نسابته .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وقال تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ) .

فالبيع ههنا بمعنى الفدية ، كما قال تعالى (فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ) .

وقال تعالى (وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ)

وقال تعالى (وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا) . فكأنه قال : من قبل أن يأتي يوم لا تجارة فيه فتكتسب ما تفتدي به من العذاب .

والثاني : أن يكون المعنى : قدموا لأنفسكم من المال الذي هو في ملككم قبل أن يأتي اليوم الذي لا يكون فيه تجارة ولا مبايعة حتى يكتسب شيء من المال.

- وإنما قال سبحانه وتعالى (ولا بيع) لأن عادة الإنسان أن ينتفع بالشيء عن طريق البيع والشراء ، فيشتري ما ينفعه ، ويبيع ما يضره ، لكن يوم القيامة ليس فيه بيع .

(وَلا خُلَّةٌ) أي : ولا صديق يدفع عنكم العذاب .

كما قال تعالى (الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين) وقال (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب) وقال : (وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً) .

(**وَلا شَفَاعَةٌ**) أي : ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله تعالى .

- **قال الرازي :** المقصود من الآية أن الإنسان يجيء وحده ، ولا يكون معه شيء مما حصله في الدنيا ، قال تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) وقال (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً) .
- وينبغي على الإنسان أن ينفق قبل هجوم الموت عليه ، قال تعالى (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

وقال تعالى (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) .

- واعلم أن السبب في عدم الخلة والشفاعة يوم القيامة أمور :

أحدها : أن كل أحد يكون مشغولاً بنفسه ، على ما قال تعالى (لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ) .

والثاني : أن الخوف الشديد غالب على كل أحد ، على ما قال (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى) .

- **قال السعدي :** وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله ، من صدقة واجبة ومستحبة ، ليكون لهم ذخراً وأجراً موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير ، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه ، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة ، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين .

(**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه ، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام ، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله ، فلهذا قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) وهذا من باب الحصر ، أي : الذين ثبت لهم الظلم التام ، كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) (تفسير السعدي) .

الفوائد :

١ - الأمر بالإنفاق في سبيل الله ومرضاته .

٢ -فضيلة الإنفاق مما أعطانا الله .

٣ -بيان منّة الله علينا في الرزق .

٤ -أن الإنسان إذا مات انقطع عمله .

٥ - ينبغي على الإنسان الإنفاق في حياته قبل موته .

٦ - أن القيامة دار جزاء لا دار عمل .

٧ - أن الدنيا هي دار العمل ، فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل .

٨ - أن يوم القيامة لا ينفع إلا العمل الصالح من إنفاق وغيره .

٩ - أن الكفر أعظم الظلم .

(اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيم) .

هذه الآية أعظم سورة في القرآن الكريم كما جاء في صحيح مسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ e (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ . قَالَ قُلْتُ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ « وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ) رواه مسلم .

(**وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِر**) أي : ليكن العلم هنيئاً لك .

- هنأه النبي e بهذا البصر والفقه والفهم في كتاب الله تبارك وتعالى الذي أهّله ليتعرف على هذا المعنى من بين آلاف الآيات القرآنية ، فحكم بأن هذه الآية هي أعظم آية في كتاب الله عز وجل .
- لماذا هي أعظم آية ؟

لأن شرف العلم بشرف المعلوم ...... وشرف الذكر بشرف المذكور

فهذه الآية تتعلق بأسماء الله عز وجل وصفاته بل تتعلق بأعظم الأسماء والصفات ، بل تتعلق بأسماء ترجع إليها سائر الأسماء الحسنى التي تدل على أوصاف الكمال ، ولذلك كانت هذه الآية أعظم من غيرها .

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي ، وإنما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة .
- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ (وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ e بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ ، وَقُلْتُ وَاللَّهِ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ e . قَالَ إِنِّي مُحْتَاجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ . قَالَ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ e « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ » . قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ . قَالَ « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ » . فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ e إِنَّهُ سَيَعُودُ . فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ e . قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ لاَ أَعُودُ ، فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ e « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ » . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ . قَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ » . فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ e ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ . قَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا . قُلْتُ مَا هُوَ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ . فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ e « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ » . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ ، يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ . قَالَ « مَا هِيَ » . قُلْتُ قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ . فَقَالَ النَّبِيُّ e « أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ » . قَالَ لاَ . قَالَ «ذَاكَ شَيْطَانٌ) رواه البخاري .

(**اللّهُ**) اسم من أسماء الله ، متضمن للألوهية لله تعالى .

ومعناه : المألوه المعبود الذي تعبده الخلائق ، وتتأله له محبة وتعظيماً وخضوعاً له ، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب ، لما له من صفات الألوهية ، وهي صفات الكمال .

- لا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، وهو مختص بالله لفظاً ومعنى .

لفظاً : أي أن هذا اللفظ لا يصح أن يسمى به أحد .

ومعنى : أي أن الصفة التي تضمنها هذا الاسم وهي الإلهية لا يصلح شيء منها للمخلوق .

- جميع الأسماء ترجع إليه لفظاً ومعنى : أي أن أسماء الله تأتي بعده ولا يأتي بعد شيء منها .

ومعنى ترجع إليه معنى : أي أن هذا الاسم يتضمن صفة الإلهية وهي أوسع الصفات ، وهذه الصفة ترجع إليها جميع الصفات .

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا :

أولاً : محبة الله محبة عظيمة تتقدم على محبة النفس والأهل والولد والدنيا جميعاً ، لأنه المألوه المعبود وحده وهو المنعم المتفضل وحده .

ثانياً : تعظيمه سبحانه وإجلاله وإخلاص العبودية له وحده من توكل وخوف ورجاء ورغبة ورهبة وغير ذلك من أنواع العبادات .

ثالثاً : الشعور بالعزة به سبحانه والتعلق به وحده ، وسقوط الخوف والهيبة من الخلق والتعلق بهم .

رابعاً : طمأنينة القلب وسعادته وأنسه بالله .

خامساً : إرادة الله تعالى بالمحبة والولاء ، وإفراده تعالى بالحكم والتحاكم .

(لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أي: لا معبود بحق سواه .

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبداً لربه، ممتثلاً أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة .

- في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر .

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة ، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى .

- **قال ابن كثير :** إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق .
- **وقال السعدي :** فأخبر أنه الله ، الذي له جميع معاني الألوهية ، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو ، وعبودية غيره باطلة .
- **قال ابن رجب :** قَوْل : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ ، فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي يُطَاعُ ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً . وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَانَ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ بِحَسَبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ . قَالَ تَعَالَى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) .
- فضائل كلمة التوحيد :

أولاً : وَهِيَ كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ ، وَشَهَادَةُ الْحَقِّ وَدَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ ، وَلِأَجْلِهَا خُلِقَ الْخَلْقُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون) .

ثانياً : وَلِأَجْلِهَا أُرْسِلَتْ اَلرُّسُلُ وَأُنْزِلَتْ اَلْكُتُبُ .

قَالَ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون) .

وقال تعالى (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) .

وَهَذِهِ اَلْآيَةُ أَوَّلُ مَا عَدَّدَ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ اَلنِّعَمِ فِي سُورَةِ اَلنِّعَمِ اَلَّتِي تُسَمَّى سُورَةَ اَلنَّحْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ اِبْنُ عُيَيْنَةَ : مَا أَنْعَمَ اَللَّهُ عَلَى اَلْعِبَادِ نِعْمَةً أَعْظَمَ مِنْ أَنْ عَرَّفَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، وَإِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ لِأَهْلِ اَلْجَنَّةِ كَالْمَاءِ اَلْبَارِدِ لِأَهْلِ اَلدُّنْيَا؛ وَلِأَجْلِهَا أُعِدَّتْ دَارُ اَلثَّوَابِ وَدَارُ اَلْعِقَابِ ، فِي اَلْآخِرَةِ ، فَمَنْ قَالَهَا وَمَاتَ عَلَيْهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ دَارِ اَلثَّوَابِ ، وَمَنْ رَدَّهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ اَلْعِقَاب ، وَمِنْ أَجْلِهَا أُمِرَتْ اَلرُّسُلُ بِالْجِهَادِ ، فَمَنْ قَالَهَا عُصِمَ مَالُهُ وَدَمُهُ .

ثالثاً : هي ثَمَنُ اَلْجَنَّةِ

قال e (مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ دَخَلَ اَلْجَنَّةَ) رواه أبو داود .

رابعاً : وهي نَجَاةٌ مِنْ اَلنَّارِ .

وَسَمِعَ اَلنَّبِيَّ e مُؤَذِّنًا يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، فَقَالَ خَرَجَ مِنْ اَلنَّارِ . خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ

خامساً : وهي أَحْسَنُ اَلْحَسَنَاتِ :

قَالَ أَبُو ذَرٍّ : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اَللَّهِ ! عَلِّمْنِي عَمَلاً يُقَرِّبُنِي مِنَ اَلْجَنَّةِ ، وَيُبَاعِدُنِي مِنْ اَلنَّارِ ، قَالَ : إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً ، فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا قُلْتُ : يَا رَسُولَ اَللَّهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ مِنَ اَلْحَسَنَاتِ ؟ قَالَ هِيَ أَحْسَنُ اَلْحَسَنَات) .

سادساً : وَهِيَ : تُجَدِّدُ مَا دُرِسَ مِنَ اَلْإِيمَانِ فِي اَلْقَلْبِ .

كما فِي اَلْمُسْنَدِ أَنَّ اَلنَّبِيَّ e قَالَ لِأَصْحَابِهِ (جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ قَالُوا كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ : قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

سابعاً : وَهِيَ اَلَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ فِي اَلْوَزْنِ ، فَلَوْ وُزِنَتْ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ رَجَحَتْ بِهِنَّ .

كَمَا فِي اَلْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ اَلنَّبِي e (أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ : آمُرُكَ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اَللَّهُ ، فَإِنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ كُنَّ فِي حَلْقَةٍ مُبْهَمَةٍ قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو . عَنْ اَلنَّبِي e (أَنَّ مُوسَى u قَالَ : يَا رَبُّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ ، قَالَ : يَا مُوسَى ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، قَالَ : يَا رَبِّ ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا . قَالَ : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ . فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ . قَالَ : يَا مُوسَى ! لَوْ أَنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ فِي كِفَّةٍ ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

ثامناً : وَهِيَ أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ .

كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ اَلْمَرْفُوعِ (أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) رواه الترمذي .

تاسعاً : ومن أعظم فضائلها :

ما جاء فِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t عَنْ اَلنَّبِي e مَنْ قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ اَلْمُلْكُ وَلَهُ اَلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ اَلشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَلَمْ يَأْتِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِك) .

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي أَيُّوبَ ، عَنْ اَلنَّبِي e قال (مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيل) .

عاشراً : وَمِنْ فَضَائِلِهَا أَنَّهَا تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَاب اَلْجَنَّةِ اَلثَّمَانِيَةِ .يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ .

كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَر . قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ e (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُسْبِغُ اَلْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ اَلْجَنَّةِ") أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ

وَفِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ عَنْ اَلنَّبِيِّ e قال (مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اَللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ اَلْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ اَلنَّارَ حَقٌّ وَأَنَّ اَللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي اَلْقُبُورِ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ مِنَ اَلْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاء) .

(**الْحَيُّ**) الذي له الحياة الكاملة .

ومعناه : أي : ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه .

- **قال ابن كثير :** أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً .
- **وقال البغوي :** الباقي الدائم على الأبد .
- **وقال الطبري :** الذي له الحياة الدائمة ، والبقاء الذي لا أول له بحد ، ولا آخره له أمد ، إذ كل ما سواه فإنه وإن كان حياً فلحياته أول محدود ، وآخر ممدود ينقطع بانقطاع أمدها ، وينقضي بقضاء غايتها .
- وقد ورد اسم الحي لله تعالى في عدة آيات :

قال تعالى (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) .

وقال تعالى (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ) .

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

- واسم الحي من أعظم الأسماء ، لأنه يستلزم جميع صفات الكمال لله تعالى .
- كل ما سوى الله ميت .

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ) .

وقد جاء في الحديث (أن جبريل قال للنبي e : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنه مفارقه ، واعمل ...) .

- وفي ذكر صفة (الحي) بعد قوله عز وجل (الله لا إله إلا هو) استدلال على إثبات تفرّده بالألوهية وإبطال عبودية كل من سواه ، وذلك لأنه لا يستحق العبادة إلا من كان حياً بالحياة الذاتية الدائمة الأبدية ، وحيث لا حيّ بهذه الحياة إلا الله الأحد فلا يستحق العبادة إلا هو ، ولهذا قال ابن عاشور : والمقصود إثبات الحياة وإبطال استحقاق آلهة المشركين وصف الإلهية لانتفاء الحياة عنهم كما قال إبراهيم عليه السلام (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً) .
- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : محبة الله تعالى وإجلاله .

ثانياً : التوكل الصادق على الله ، كما قال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ) .

ومن أعظم ما يتوكل على الله فيه طلب الهداية والثبات على الإيمان وعدم الزيغ عنه ، ولذلك كان النبي e يقول في دعائه (اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضلني أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون) رواه مسلم .

ثالثاً : الزهد في الدنيا الفانية وعدم الاغترار بها ، لأنه مهما أعطي العبد من العمر فلابد من الموت

(**الْقَيُّومُ**) أي : القائم بنفسه القائم على غيره ، المتضمن لصفة القيومية .

- **قال ابن كثير :** هو القيّم لغيره ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها ، ولا قوام لها بدون أمره .
- **وقال ابن القيم :** هو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد ، وقام كل شيء به فكل ما سواه محتاج إليه بالذات .
- **وقال السعدي :** القيوم : القائم بنفسه ، القيوم لأهل السماوات والأرض ، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم .

وهذا الاسم له شأن عظيم ، قال ابن أبي العز : وأما القيوم ، فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته ، فإنه القائم بنفسه ، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته .

- وقد وردت عدة نصوص في القرآن الكريم تدل على أن قيام الموجودات وبقاءها وحفظها بأمر الله ولا قوام لها بدونه .

قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) .

وقال تعالى (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ) .

- آثار الإيمان المترتب على الإيمان بهذا :

أولاً : محبته سبحانه وحمده وإجلاله وتعظيمه .

ثانياً : التبرؤ من الحول والقوة والافتقار التام لله ، وإنزال جميع الحوائج بالله .

ثالثاً : إخلاص الاستعانة والاستغاثة والاعتصام لله عز وجل، وقطع التعلق بالمخلوق الضعيف المربوب لله تعالى المفتقر إلى ربه.

رابعاً : قال ابن القيم : وهو سبحانه (القيوم) المقيم لكل شيء من المخلوقات – طائعها وعاصيها – فكيف تكون قيوميته بمن أحبَّه وتولاه ، وآثره على ما سواه ، ورضي به دون الناس حبيباً ، ورباً ووكيلاً ، وناصراً ومعيناً وهادياً .

خامساً : الخوف منه سبحانه ومراقبته ، لأنه القائم على كل نفس ، المتولي أمرها ، الحافظ لأعمالها الذي لا يخفى عليه شيء من أمرها .

(**لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**) السنة : النعاس ، والنوم هو النوم ، وهذه الجملة تأكيد للقيومية .

- **قال ابن كثير :** ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم .
- فالله عز وجل لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، فلا تأخذه سنة ولا نوم لكمال حياته وقيوميته .
- **قال ابن عاشور :** ونفي استيلاء السنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير ، وإثبات لكمال العلم ؛ فإنّ السنة والنوم يشبهان الموت ، فحياة النائم في حالهما حياة ضعيفة ، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل في وقت استيلائهما على الإحساس.
- فالله لا ينام لكمال حياته وقيوميته ، وهذه قاعدة : كل صفة نفي يستلزم نفيها وإثبات كمال ضدها .

فكل صفة نفاها الله عن نفسه فإننا ننفيها عن الله مع إثبات كمال ضدها ، وذلك : لأن النفي لا يدل على الكمال حتى يكون متضمناً لصفة ثبوتية يحمد عليها ، فإن مجرد النفي قد يكون سببه العجز فيكون نقصاً ، وقد يكون سببه عدم القابلية فلا يقتضي مدحاً ، كما لو قلت : الجدار لا يظلم .

فقوله تعالى (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) لكمال عدله .

وقوله تعالى (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) لكمال قدرته .

وقوله تعالى (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) لكمال علمه .

وقوله تعالى (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) لكمال حياته وقيوميته .

وقوله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) .

فالله لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته .

قال الشيخ ابن عثيمين : فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته، ولهذا قال بعده (إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) لأن العجز سببه : إما الجهل بأسباب الإيجاد، وإما قصور القدرة عنه، فلكمال علم الله تعالى وقدرته لم يكن ليعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض .

- فالنوم من صفات النقص التي يُنزه الله عنها لكمال حياته ، قال ﷺ (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام) . رواه مسلم

فالنوم يحتاجه المخلوق لنقصه وعجزه، فهو يحتاج للنوم للاستراحة، ولذلك لما كان أهل الجنة كاملي الحياة، كانوا لا ينامون.

- ما الحكمة من ذكر النوم بعد نفي السنة ، لأنه إذا قال (لا تأخذه سنة) فقد دل ذلك على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى .

قيل : لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه النوم .

وقيل : إنما جمع بين نفييهما لأنه لا يلزم من نفي أحدهما نفي الآخر ، إذ يتصور مجيء النوم دفعة من غير مبادئ الوسن ، ومجيء الوسن دون النوم فلذلك نفي كل واحد منهما على حدته بدليل تكرير (لا) .

ولذلك قال ابن عاشور : ونفي السنة عن الله تعالى لا يغني عن نفي النوم عنه ، لأنّ من الأحياء من لا تعتريه السنة فإذا نام نام عميقاً ، ومن الناس من تأخذه السنة في غير وقت النوم غلبة ، وقد تمادحت العرب بالقدرة على السهر .

- موعظة بليغة : تعلق قلب رجل بامرأة بدوية وقد ذهبت ذات ليلة إلى حاجة لها فتبعها الرجل فلما خلا بها في البادية والناس نيام راودها عن نفسها ، فقالت له: انظر أنام الناس جميعاً ففرح الرجل وظن أنها قد أجابته إلى ما ابتغاه فقام وطاف حول مضارب الحي فإذا الناس نيام فرجع مسروراً وأخبرها بخلو المكان إلا من النيام ، فقالت: ما تقول في الله تبارك وتعالى ؟ أنائم هو في هذه الساعة ؟ قال الرجل: إن الله لا ينام ولا تأخذه سنة ، فقالت المرأة: إن الذي لم ينم ولا ينام ويرانا وإن كان الخلق لا يرون فذلك أولى أن نخشاه ، فاتعظ الرجل وتركها وتاب خوفاً من الله تعالى ، ولما مات رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي لخوفي منه وتوبتي إليه .

وصدق من قال :

وإذا خلوت بريبة في ظلمة	والنفس داعية إلا العصيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها	إن الذي خلق الظلام يراني

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أي : كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً .

- **قال ابن جرير :** أي أنه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد ، وخالق جميعه دون آلهة ومعبود .

- **وقال ابن كثير** : إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه ، وتحت قهره وسلطانه .
- **وقال أبو بكر الجزائري** : خلقاً وملكاً وتصرفاً .
- **وقال ابن عاشور** : قوله تعالى (له ما في السماوات وما في الأرض) تقرير لانفراده بالإلهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته ، وتعليل لاتّصافه بالقيّوميّة ، لأنّ من كانت جميع الموجودات مِلكاً له فهو حقيق بأن يكون قيّومها وألاّ يهملها ولذلك فُصلت الجملة عن التي قبلها.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم :

قال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

وقال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً) .

وقال تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

- وهذه الجملة تؤيد تفرده سبحانه بالألوهية ، وذلك من جانبين :

الأول : حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله ، وليس للعبد أن يعبد غير مالكه ، أو يُشرِك غيره معه في العبادة ، وقد نهاه عن ذلك .

الثاني : وحيث إن الجميع عبيد له ، فكيف يُعبد مملوك – كائناً من كان – ويُترك المالك ، أو يُشرَك مملوك في العبادة مع المالك ، وقد نهى عن ذلك .

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين :

الفائدة الأولى : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

ويدل لذلك أيضاً ما بينّه النبي e لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) .

الفائدة الثانية : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

الفائدة الثالثة : أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

وقال e (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم .

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) أي : لا أحد يشفع عنده سبحانه إلا بإذنه ، وذلك لكمال سلطانه .

- **قال الرازي** : استفهام معناه الإنكار والنفي ، أي : لا أحد يشفع عنده أحد إلا بأمره ، وذلك لأن المشركين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم ، وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم يقولون (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) وقولهم (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) ثم بين تعالى أنهم لا يجدون هذا المطلوب فقال (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ) فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة عنده لأحد إلا من استثناه الله تعالى بقوله (إِلَّا بِإِذْنِهِ) .
- وهذا – كما تقدم - يدل على كمال ملك الله عز وجل ، لأن المخلوق إذا كان موصوفاً بالملك ، فإن الناس قد يتقدمون بين يديه بالشفاعة من غير استئذان ، وقد يشفع هو من غير رغبة في هذه الشفاعة التي قدمت بين يديه ، لكنه قد يُحرج أو

يستحي أو قد يقبل هذه الشفاعة خوفاً من غائلة الشافع ، لأن ملكه لا يقوم إلا به ، لأنه قد يكون من أعوانه الذين لا يقوم ملكه إلا بهم فيقبل الشفاعة خوفاً من غائلة هذا الشافع ، وقد يقبلها حياء منه وخجلاً وإحراجاً ، وقد يقبلها رداً لجميله السابق عليه وإفضاله (الشيخ خالد السبت) .

وأما الله عز وجل فهو لا يخاف من أحد ، ولا يقبل الشفاعة إحراجاً من أحد ، وليس لأحد فضل على الله عز وجل حتى يكون ذلك القبول على سبيل المقايضة .

كما قال تعالى (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) .

وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) .

وقال تعالى (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) .

بل بيّن سبحانه وتعالى أن الملائكة ومنهم الروح الأمين عليهم لن يتجرأ أحد منهم الكلام إلا من بعدما أن يأذن له الرحمن كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً) .

وأخبر النبي **e** أنه لن يتقدم يوم القيامة أحد من الأنبياء والمرسلين للشفاعة لدى الرب إلا هو **e** ، وحتى هو لن يبدأ في الشفاعة إلا بعدما يأذن الله له ، وفي الحديث (... بعد أن يتأخر عنها آدم وموسى وإبراهيم ونوح وعيسى ، يشفع النبي **e** فيقال له : ارفع رأسك ، وسل تعْطَه ، وقل يُسمع ، واشفع تشفّع) .

- والشفاعة في اللغة : جعل الشيء شفيعاً ، وهي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) اختلف في معناها :

فقيل : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) يعني الآخرة لأنهم يُقدِمون عليها (وَمَا خَلْفَهُمْ) من الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم .

وقيل : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) بعد انقضاء آجالهم (وَمَا خَلْفَهُمْ) أي : ما كان من قبل أن يخلقهم ، **وقيل :** ما فعلوا من خير وشر وما يفعلونه بعد ذلك .

والمراد من الآية : أن الله يعلم كل شيء من ماض ومستقبل ، وأن علمه شامل لكل شيء سبحانه وتعالى .

- **قال ابن كثير :** دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها .
- **وقال أبو حيان :** والذي يظهر أن هذا كناية عن إحاطة علمه تعالى بسائر المخلوقات من جميع الجهات .
- **وقال الشيخ صديق حسن خان :** والمقصود أنه عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه ، حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الأرض الغبراء ، وحركة الذرة في جو السماء ، والطير في الهواء ، والسمك في الماء .
- **وقال السعدي:** (يعلم ما بين أيديهم)أي : ما مضى من جميع الأمور (وما خلفهم) أي : ما يستقبل منها ، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور ، متقدمها ومتأخرها ، بالظواهر والبواطن ، بالغيب والشهادة ، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى .
- مباحث علم الله تعالى :

أولاً : فالله تعالى يعلم كل شيء ، يشمل الجزئيات والكليات .

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) .

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

ثانياً : يعلم سبحانه الماضي والمستقبل .
قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .
ما بين أيديهم] الحاضر والمستقبل [وما خلفهم] الماضي .
ثالثاً : الله يعلم الخفايا وما في الصدور .
كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .
وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .
وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) . وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ) .
رابعاً : وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً .
قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) .
خامساً : ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت .
كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .
وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .
والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً ، لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون ، كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) .
سادساً : ويستوي في علم الله السر والعلانية ، والصغير والكبير والغيب والشهادة .
قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .
وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .
وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) .
وقال تعالى (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .
سابعاً : وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان .
قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) .
وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) .
أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً) .
ثامناً : علمنا قليل بالنسبة لعلم الله .
قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

- الآثار المترتبة من علمنا بهذه الصفة :

أ- الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً .

ب-اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر .

قال ابن القيم : فإن قلت : فما السبيل إلى حفظ الخواطر ، قلت : أسباب عدة ، **أحدها** : العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك ، وعلمه بتفصيل خواطرك ، **والثاني** : حياؤك منه ، **الثالث** : إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته .

ج- إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام ، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب .

د-ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء : وجوب مراقبة الله ، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء ، فسوف يراقب ربه ، بلسانه وجنانه وأركانه ، فبلسانه : لا ينطق بما حرم الله ، وبجنانه : لا يعتقد بقلبه خلاف الحق ، وبجوارحه : لا يستعملها في المحرمات ، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام ، ويستعمل اليد في البطش الحرام ، ويستعمل الآذان في السماع الحرام .

وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء : الرغبة والنشاط والرجاء ، لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة ، وأنه لن يضيع منها شيء .

- صلة هذه الجملة بما قبلها :

في هذه الجملة – والله أعلم – بيان لسبب حرمان الخلق من الشفاعة إلا بإذنه تعالى ، لأنه وحده تعالى عالم بأحوال الشافع والمشفوع له ، وهو سبحانه وتعالى وحده يعلم من له أن يشفع ومن يستحق أن يُشفع له .

(**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**) قوله (من علمه) ذكر المفسرون قولان :

الأول : العلم هنا بمعنى المعلوم .

والثاني : العلم هنا علم ذاته وصفاته .

فعلى القول الأول : قال الطبري : لا يعلم أحد سواه شيئاً إلا بما شاء هو أن يُعلمه ، فأراد فعلّمه .

وقال ابن عطية : لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يُعلمه .

وعلى القول الثاني : لا يحيط أحد علماً بذاته جل جلاله وصفاته إلا ما أطلعه تعالى عليه كقوله (ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) .

- **قال الشيخ ابن عثيمين** : وقد علمنا الله تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصفاته، وعن أحكامه الكونية وأحكامه الشرعية، ولكن هذا الكثير هو بالنسبة لمعلومه قليل كما قال تعالى (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

(**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) وسع بمعنى شمل وأحاط كرسيه السماوات والأرض .

والكرسي ، **قيل** : هو العرش ، **وقيل** : وسع كرسيه علمه ، والصحيح أن الكرسي غير العرش ، وأن الكرسي هو موضع قدميّ الله تعالى .

- قول : وسع كرسيه : أي وسع علمه هذا ضعيف ولا يصح ولا يثبت عن ابن عباس .
- وهذا يدل على عظمة الكرسي ، وقد جاء في الحديث (والذي نفسي بيده ، ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحَلْقَةٍ ملقاةٍ في فلاةٍ من الأرض ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلْقة) .

وهذا على عظم هذه المخلوقات ، وعظم المخلوق يدل على عظم الخالق .

وقد جاء في الحديث (أُذِن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة ...) .

(**وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا**) أي : لا يثقله ولا يشق عليه حفظ السماوات والأرض لكمال علمه وقدرته وإحاطته .

- **قال ابن كثير** : أي لا يثقله ولا يكرثه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ، ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء .
- وهذه من الصفات المنفية ، فالله لا يثقله حفظ السماوات والأرض لكمال قدرته وعلمه وقوته .

(**وَهُوَ الْعَلِيُّ**) فالله له العلو المطلق ، علو الذات ، وعلو الصفات .

أولاً : علو الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : قدر .

القسم الثاني : علو شرف .

وهذان القسمان لم يخالف فيهما أحد ممن ينتسب إلى الإسلام .

وهو سبحانه عالي الصفات والقدر ، منزه عن النقائص والعيوب .

القسم الثالث : علو ذات : وهذا وقع فيه خلاف بين أهل السنة وأهل البدع .

فمذهب أهل السنة والسلف : أن الله تعالى عال بذاته فوق جميع خلقه ، بائن من خلقه مستو على عرشه .

ولهم أدلة كثيرة من الكتاب والسنة والعقل والفطرة .

أما أدلة الكتاب والسنة فقد تنوعت دلالتهما بطرق كثيرة :

أحدها : التصريح بالفوقية .

كقوله تعالى (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) .

وكقوله تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .

الثاني : التصريح بالعروج إليه .

كقوله تعالى (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) .

وقوله e (يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم .) .

الثالث : التصريح بالصعود إليه .

كقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) .

الرابع : التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه .

كقوله تعالى (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) .

وقوله تعالى (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) .

الخامس : التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو .

كقوله تعالى (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

وقوله تعالى (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) .

وقوله تعالى (إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) .

السادس : التصريح بتنزيل الكتاب منه .

كقوله تعالى (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) .
وقوله تعالى (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) .
وقوله تعالى (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .
وقوله تعالى (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) .
وقوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) .

السابع : التصريح بأن الله تعالى في السماء .

كقوله تعالى (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) .

وقال الرسول e (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

الثامن : التصريح بالاستواء على العرش .

كقوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) .

التاسع : التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى .

كقوله e : (إن الله يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً) .

والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة ، وهذا يجده من نفسه كل داع .

العاشر : التصريح بنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم ، إنما يكون من علو إلى أسفل .

الحادي عشر : الإشارة إليه حساً إلى العلو كما أشار إليه من هو أعلم به وبما يجب له ، لما كان بالجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم ، في المكان الأعظم ، قال لهم : (أنتم مسؤولون عني ، فما ذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فرفع إصبعه الكريمة إلى السماء ، رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء ، قائلاً : اللهم اشهد) .

الثاني عشر : التصريح بلفظ (الأين) كقول أعلم الخلق به ، وأنصحهم لأمته ، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح ، بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه: (أين الله) .

الثالث عشر : شهادته e لمن قال : إن ربه بالسماء بالإيمان .

الرابع عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى ، فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات ، فقال : (يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً) فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ، ومن أثبتها فهو موسوي محمدي .

الخامس عشر : إخباره e أنه تردد بين موسى u وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة .

من العقل :

أن العلو صفة كمال والسفل صفة نقص ، فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده .

وأما الفطرة :

قال شارح الطحاوية : وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله .

وأما الإجماع :

فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله فوق سمواته مستو على عرشه .

- قوله (أأمنتم من في السماء) .

قد يتوهم واهم أن الله تعالى داخل السماء ، وأن السماء تحيط به ، كما لو قلنا : فلان في الحجرة ، فإن الحجرة تحيط به .

ومنشأ الوهم : ظنه أن (في) التي للظرفية تكون بمعنى واحد في جميع مواردها ، وهذا ظن فاسد ، فإن (في) يختلف معناها بحسب متعلقها .

فقوله (أأمنتم من في السماء) هذا عند أهل التفسير من أهل السنة على أحد وجهين :

الوجه الأول : أن تكون السماء بمعنى العلو ، فإن السماء يراد بها العلو ، كما في قوله تعالى (وأنزل لكم من السماء ماء) والمطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض لا من السماء نفسها .

الوجه الثاني : أن تكون (في) بمعنى (على) ، كما جاءت بمعناها في مثل قوله تعالى (فسيروا في الأرض) أي على الأرض وقوله عن فرعون (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل .

- **فإن قيل ما الجواب عن قوله تعالى (وهو في السماء إله وفي الأرض) ؟**

وكذلك قوله تعالى (وهو الله في السموات وفي الأرض) ؟

قال ابن تيمية : ليس معناهما أن الله في الأرض كما أنه في السماء ، ومن توهم هذا ، أو نقله عن أحد من السلف فهو مخطىء في وهمه ، وكاذب في نقله .

وإنما معنى الآية الأولى : أن الله مألوه في السماوات وفي الأرض ، كل من فيهما فإنه يتأله ويعبده .

وأما الآية الثانية فمعناها : أن الله إله في السماء ، وإله في الأرض ، فألوهيته ثابتة فيهما .

(**الْعَظِيمُ**) قال الطبري : ذو العظمة الذي كل شيء دونه ، فلا شيء أعظم منه .

وقال الجزائري : العظيم : الذي كل شيء أمام عظمته صغير وحقير .

فالله عظيم في ذاته ، عظيم في أسمائه كلها ، عظيم في صفاته كلها .

قال السعدي : العظيم الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء الذي تحبه القلوب ، وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء وإن جلت في الصفة ، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم .

- واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان :

أحدهما : أنه موصوف بكل صفة كمال ، وله من ذلك الكمال أكمله ، وأعظمه وأوسعه .

والثاني : أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا :

أولاً : الخشوع والخضوع لله تعالى والاستكانة والتذلل لعظمته وجبروته ومحبته .

ثانياً : ومن تعظيمه سبحانه نفي الشركاء والأنداد عنه ، قال تعالى (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً) .

ثالثاً : ومن تعظيمه سبحانه : تعظيم أمره ونهيه ، وتعظيم نصوص الكتاب والسنة والاستسلام لها .

رابعاً : ومن تعظيمه سبحانه : تعظيم شعائره ، قال تعالى (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) .

خامساً : الاستعانة بالله وحده وصدق التوكل عليه ، وتفويض الأمور إليه .

سادساً : الخوف منه سبحانه وحده ، وعدم الخوف من المخلوق الضعيف .

الفوائد :

١ - أنه لا إله بحق إلا الله تعالى .

٢ - أن هذه الآية أعظم آية في كتاب الله تعالى .

وقد اختلف العلماء هل كلام الله يتفاضل أم لا على قولين :

القول الأول : مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا يَتَفَاضَلُ فِي نَفْسِهِ .

لِأَنَّهُ كُلَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ اللَّهِ صِفَةٌ لَهُ قَالُوا : وَصِفَةُ اللَّهِ لَا تَتَفَاضَلُ .

كَذَلِكَ قَالَ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) قَالُوا فَخَيْرٍ إنَّمَا يَعُودُ إلَى غَيْرِ الْآيَةِ مِثْلَ نَفْعِ الْعِبَادِ وَثَوَابِهِمْ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ .

وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ مِنْ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ .

أ-قوله e فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الْفَاتِحَةِ (أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا الزَّبُورِ وَلَا الْقُرْآنِ مِثْلُهَا) فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلٌ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ مُتَمَاثِلٌ ؟

ب- وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ (أَنَّهُ قَالَ لأبي بْنِ كَعْبٍ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ (اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ لَهُ ليهنك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ) فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَهَذَا بَيَّنَ أَنَّ بَعْضَ الْآيَاتِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ .

ج-وَأَيْضًا فَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَالْكَلَامُ يَشْرُفُ بِالْمُتَكَلِّمِ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ خَبَرًا أَوْ أَمْرًا، فَالْخَبَرُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْمُخْبِرِ وَبِشَرَفِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ، وَالْأَمْرُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْآمِرِ وَبِشَرَفِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَالْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ مُشْتَرِكًا فَإِنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ لَكِنَّ مِنْهُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ وَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، فَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ فِيهِ بِالْإِيمَانِ وَنَهَاهُمْ فِيهِ عَنْ الشِّرْكِ، وَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ وَنَهَاهُمْ فِيهِ عَنْ الرِّبَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أَعْظَمُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) وَمَا أَمَرَ فِيهِ بِالْإِيمَانِ وَمَا نَهَى فِيهِ عَنْ الشِّرْكِ أَعْظَمُ مِمَّا أَمَرَ فِيهِ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ وَنَهَى فِيهِ عَنْ الرِّبَا . مجموع الفتاوى (١٧ / ٢١١)

٣- إثبات اسم الله المتضمن للألوهية الحق .

٤- إثبات اسم الحي لله تعالى المتضمن الحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال .

٥-أن كل مخلوق يموت حتى الملائكة .

٦- أنه يجب الاعتماد على الله ، لأنه هو الحي الذي لا يموت ، فأما من يموت ويمرض فلا يعتمد عليه .

٧-إثبات اسم القيوم لله تعالى المتضمن لصفة القيومة .

٨- غنى الله عن كل أحد ، وكل أحد محتاج لله تعالى كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

٩-امتناع السنة والنوم عن الله تعالى لكمال حياته وقيوميته .

١٠- أن الله منزه عن كل نقص وعيب .

١١- عموم ملك الله تعالى .

١٢- أن نطلب الملك ممن يملكه وهو الله سبحانه .

١٣-رضا الإنسان بقضاء الله ، لأنه ملك له .

١٤-كمال سلطان الله تعالى .

١٥- إثبات الشفاعة بإذن الله .

١٦- إثبات علم الله الكامل .

١٧- وجوب الحذر من معصية الله الظاهرة والباطنة ، لأن الله لا يخفى عليه شيء .

١٨-أننا لا نعلم شيئاً إلا ما علمنا الله .

١٩- من أراد العلم فليطلبه من العليم سبحانه .

٢٠- إثبات الكرسي .

٢١- عظمة خلق الكرسي .

٢٢- عظمة خالق الكرسي ، لأن عظم المخلوق يدل على عظمة الخالق .

٢٣- إثبات قوة الله .

٢٤- أن الله لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته .

٢٥- أن الله لا يثقل عليه حفظ السماوات والأرض .

٢٦- أن السماوات والأرض تحتاج إلى حفظ ، ولولا حفظ الله لفسدتا ، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) .

٢٧- إثبات علو الله تعالى بأنواعه كلها .

٢٨- إثبات العظمة لله تعالى .

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢٥٦] .

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ظاهر الآية على أنه لا يكره أحد على الدخول في دين الإسلام ، لكن جاء في آيات أخر ظاهرها يدل على إكراه الكفار على الدخول في الإسلام كقوله تعالى (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) وقوله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) .

وقد اختلف العلماء في معنى (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ؟

فقيل : أن هذا الدين لكماله ، وظهور براهينه ، واتضاح آياته ، وقبول الفطرة له لا يحتاج إلى الإكراه عليه ، لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب ، ويتنافى مع الحقيقة والحق .

واختار هذا السعدي .

وقيل : إن المعنى : لا تقولوا لمن دخل في الدين بعد الحرب إنه دخل مكرهاً ، لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره ، فمعناه : لا تنسبوهم إلى الإكراه .

وقيل : إن هذه الآية خبر في معنى النهي ، أي : لا تكرهوا أحداً على الدخول في الدين .

قال بهذا طائفة كثيرة من العلماء : كالطبري ، وابن القيم ، والشوكاني ، والشنقيطي ، وهو ظاهر اختيار ابن كثير .

وعلى هذا القول فكيف الجمع بين هذه الآية وبين الآيات الآمرة بالقتال والجهاد ؟

ذهب بعض العلماء : إلى عمومها وأنه لا أحد يكره على اعتناق دين الإسلام ، وأما الآيات الأخرى الموجبة للجهاد فلا تتنافى مع هذه الآية ، لأنها لم تأمر بإجبار أحد على اعتناق دين الإسلام ، وإنما جاء فيها الأمر بالجهاد لإقامة النظام الإسلامي وتقريره وحمايته ، ولدفع الأذى والفتنة عن المؤمنين .

ورجح هذا المسلك ابن القيم رحمه الله .

وذهب بعض العلماء : إلى أن الآية (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) في أهل الكتاب خاصة ، فهم لا يكرهون على الإسلام إذا بذلوا الجزية لقوله تعالى (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) وأما الذين يكرهون فهم أهل الأوثان ، فلا يقبل منهم إلا الإسلام ، وهم الذين نزل فيهم قوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) .

وهذا احتيار ابن جرير ورجحه الشوكاني والشنقيطي .

والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمِي أيتها العجوز تسلمي ، إن الله بعث محمداً بالحق ، قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إليّ قريب! فقال عمر : اللهم اشهد ، وتلا (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) .

وعن ابن عباس قال : نزلت هذه في الأنصار ، كانت تكون المرأة مِقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده ؛ فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي) .

قال أبو داود : والمِقلاتُ التي لا يعيش لها ولدٌ.

وقيل : إن آية (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) منسوخة بآيات القتال ، لكنه قول ضعيف .

قال القرطبي : وروي هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين.

- **قال ابن كثير** : فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس: أن رسول الله e قال لرجل: أسلم ، قال: إني أجدني كارها ، قال : وإن كنت كارهاً ، فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل فإنه لم يكرهه النبي e على الإسلام بل دعاه إليه فأخبر أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة فقال له : أسلم وإن كنت كارهًا ، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص .

(**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**) أي : تميز الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر ، والهدى من الضلالة بكثرة الحجج والآيات الدالة .

- **قال البيضاوي** : قوله تعالى (قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي) تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة ، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية ، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة ، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء .

(**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ**) أي : من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (فَمَن يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ) فيه سبعة أقوال :

أحدها : أنه الشيطان وهو قول عمر بن الخطاب.

والثاني : أنه الساحر ، وهو قول أبي العالية.

والثالث : الكاهن ، وهو قول سعيد بن جبير.

والرابع : الأصنام.

والخامس : مَرَدَة الإنس والجن.

والسادس : أنه كل ذي طغيان طغى على الله ، فيعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، أو بطاعة له ، سواء كان المعبود إنساناً أو صنماً ، وهذا قول أبي جعفر الطبري .

(**وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ**) أي : وحد الله فعبده وحده ، وشهد أن لا إله إلا الله .

- وفي هذا أن التوحيد لابد فيه من الكفر بالطاغوت وهذا معنى : لا إله إلا الله .

كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

ففي هذه الآية معنى : لا إله إلا الله (إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) لأن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) تنطوي على نفي وإثبات ، فعبر عن المنفي فيها بقوله (إنني براء مما تعبدون) وعبّر عن المثبت فيها بقوله (إلا الذي فطرني) ففيه تفسير التوحيد بإثبات العبادة لله وحده ونفيها عما سواه .

وقال تعالى (اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) هذه الآية هي معنى (لا إله إلا الله) لأن التوحيد نفي وإثبات ، النفي في قوله (واجتنبوا الطاغوت) والإثبات في قوله (اعبدوا الله) ، ففيه إثبات العبادة لله وحده وبنفي عبادة ما سواه .

وقال e (من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل).

فلم يكتفِ باللفظ المجرد عن المعنى في قول : لا إله إلا الله ، بل لابد من قولها مع اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها وفي ضمن ذلك : الكفر بما سوى الله من المعبودات ، وهذه هي حقيقة التوحيد .

- هذا الحديث من أعظم ما يبين لا إله إلا الله ، وأنه الكفر بكل ما يعبد من دون الله .
- أن مجرد التلفظ بلا إله إلا الله مع عدم الكفر بما يعبد من دون الله لا يحرم الدم والمال ولو عرف معناها وعمل بها ما لم يضف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله .
- أن البراءة من الكفر تكون بثلاثة أشياء : بالقلب ، واللسان ، والجوارح .

o **براءة القلب :** وهو كراهة الكفر وأهله ، وبغضهم وتمني زوالهم واعتقاد بطلان الكفر وتركه .

وحكمه : فرض لازم ، ولا يسقط بحال من الأحوال ، لأنه لا يتصور فيه الإكراه ، لأن عمل القلب خفي .

o **براءة اللسان :**وهو التصريح باللسان على أن عبادة غير الله باطلة .

وحكمه : واجب .

لقوله تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) .

ولقوله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ...) .

ولقوله تعالى عن إبراهيم (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً) .

o **براءة الجوارح :** وتكون بالجهاد وإزالة الكفر والكافرين وقتالهم ، وهي مرتبطة بالقدرة والمصلحة .

ويسقط مع الإكراه وعدم الاستطاعة ، لقوله تعالى (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) .

(**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**) أي : فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم .

وقيل : فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم ، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية ، وربطها قوي شديد .

وقيل : يعني الإيمان ، وقيل : الإسلام ، وقيل : لا إله إلا الله .

- **قال ابن كثير :** وكل هذه الأقوال صحيح ولا تنافي بينها .
- **قال أبو حيان :** قال ابن عطية وقدّم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت.

(**لا انْفِصَامَ لَهَا**) أي : لا انقطاع لها ولا زوال .

- عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ (كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ فِي نَاسٍ فِيهِمْ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ e فَجَاءَ رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ . فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ يَتَجَوَّزُ فِيهِمَا ثُمَّ خَرَجَ فَاتَّبَعْتُهُ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ وَدَخَلْتُ فَتَحَدَّثْنَا فَلَمَّا اسْتَأْنَسَ قُلْتُ لَهُ إِنَّكَ لَمَّا دَخَلْتَ قَبْلُ قَالَ رَجُلٌ كَذَا وَكَذَا قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لاَ يَعْلَمُ وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ e فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ رَأَيْتُنِي فِي رَوْضَةٍ - ذَكَرَ سَعَتَهَا وَعُشْبَهَا وَخُضْرَتَهَا - وَوَسْطَ الرَّوْضَةِ عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ أَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ وَأَعْلاَهُ فِي السَّمَاءِ فِي أَعْلاَهُ عُرْوَةٌ . فَقِيلَ لِي ارْقَهْ . فَقُلْتُ لَهُ لاَ أَسْتَطِيعُ . فَجَاءَنِي مِنْصَفٌ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ وَالْمِنْصَفُ الْخَادِمُ - فَقَالَ بِثِيَابِي مِنْ خَلْفِي - وَصَفَ أَنَّهُ رَفَعَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِيَدِهِ - فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى الْعَمُودِ فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ فَقِيلَ لِيَ اسْتَمْسِكْ . فَلَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ e فَقَالَ « تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلاَمُ وَذَلِكَ الْعَمُودُ عَمُودُ الإِسْلاَمِ وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى وَأَنْتَ عَلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى تَمُوتَ) قَالَ وَالرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ ، متفق عليه .

(**وَاللَّهُ سَمِيعٌ**) لأقوال العباد ، يسمع جميع الأصوات ويسمع السر والنجوى .

- وسمع الله ينقسم إلى قسمين :

أولاً : سمع إدراك : أي أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظاهر .

قال تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي...) .

هذا السمع قد يراد به الإحاطة ، كالآية السابقة .

وقد يراد به التهديد ، كقوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء) .

وقد يراد به التأييد ، ومنه قوله تعالى لموسى : (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) أي أسمعك وأؤيدك .

ثانياً : سمع إجابة : أي أن الله يستجيب لمن دعاه .

ومنه قول إبراهيم (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء) أي مجيب الدعاء .

ومنه قول المصلي (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده .

(**عَلِيمٌ**) بأفعالهم ، يعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة .

الفوائد :

١ - أنه لا أحد يكره على الدين .

٢ -أنه ليس هناك إلا رشد أو غي .

٣ - أنه لا يتم الإخلاص لله إلا بنفي جميع الشرك .

٤ - أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت .

٥ - أنه لا نجاة إلا بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله .

٦ - إثبات اسمين من أسماء الله وهما : السميع والعليم .

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

[البقرة : ٢٥٧] .

- - - - - - - - -

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) أي : حافظ المؤمنين ومتولي أمورهم وناصرهم ، والمراد بالولاية هنا الولاية الخاصة .

لأن الولاية تنقسم إلى قسمين :

ولاية عامة : مقتضاها أن يرزقهم ويعطيهم وأيضاً القهر والسلطان والملك ، وهذه للمؤمنين والكفار .

ودليلها هذه الآية (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) .

وقوله تعالى (ورُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

ولاية خاصة ، وهذه خاصة بالمؤمنين مقتضاها النصر والتأييد والتسديد والتوفيق والإخراج من الظلمات إلى النور .

كما قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) .

وقال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ) .

وقال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) .

فالله ولي المؤمنين : لأنه يواليهم بالنصر والثواب الجزيل ، كما قال e في الحديث القدسي (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) رواه البخاري .

والمؤمنون أولياء الله كقوله تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) لأنهم يوالونه بالطاعة .

قال ابن القيم : فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، وليست بكثرة صوم ولا صلاة .

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أي : يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الهداية والإيمان .

- **قال الرازي :** أجمع المفسرون على أن المراد هاهنا من الظلمات والنور : الكفر والإيمان .
- **قال الشنقيطي :** هذه ثمرة ولايته تعالى للمؤمنين ، وهي إخراجه لهم من الظلمات إلى النور بقوله تعالى (الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور) .

وبين في موضع آخر أن من ثمرة ولايته إذهاب الخوف والحزن عن أوليائه ، وبين أن ولايتهم له تعالى بإيمانهم وتقواهم وذلك في قوله تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) .

وصرح في موضع آخر أنه تعالى ولي نبيه e وأنه أيضاً يتولى الصالحين وهو قوله تعالى (إِنَّ وَلِيِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكتاب وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين) .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) أي : وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين .

- **قال الشيخ ابن عثيمين :** وإذا تأملت هذه الجملة ، والتي قبلها تجد فرقاً بين التعبيرين في الترتيب ، ففي الجملة الأولى قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) لأمور ثلاثة :

أحدها : أن هذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولاً استبشر به .

ثانياً : التبرك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل .

ثالثاً : إظهار المنة على هؤلاء بأن الله هو الذي امتن عليهم أولاً ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور .

وأما الجملة الثانية (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) ولو كانت على سياق الأولى لقال : والطاغوت أولياء الذين كفروا ، **ومن الحكمة في ذلك :**

أولاً : ألا يكون الطاغوت في مقابلة اسم الله .

ثانياً : أن الطاغوت أهون وأحقر من أن يُبدأ به ويقدّم .

ثالثاً : إن البداءة بقوله (والذين كفروا) أسرع إلى ذمهم مما لو تأخر ذكره .

- **قال الشنقيطي :** قال بعض العلماء : الطاغوت الشيطان ويدل لهذا :

قوله تعالى (إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) أي يخوفكم من أوليائه .

وقوله تعالى (الذين آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله والذين كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطاغوت فقاتلوا أَوْلِيَاءَ الشيطان إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً) .

وقوله (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) الآية .

وقوله (إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ) الآية.

والتحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت والحظ الأكبر من ذلك للشيطان كما قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان) الآية .

وقال (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً) .

وقال عن خليله إبراهيم (يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان) الآية .

وقال (وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

(يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) أي : يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلالة .

- **قال الخازن :** إنما سمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه ، ولأن الظلمة تحجب الأبصار عن إدراك الحقائق فكذلك الكفر يحجب القلوب عن إدراك حقائق الإيمان وسمي الإسلام نوراً لوضوح طريقه وبيان أدلته.

- **فإن قيل :** فكيف يخرجونهم من النور ، وهم لم يدخلوا فيه ؟

قيل : إن الآية مخصوصة بأهل الكتاب الذين كانوا مقرين بنبوة موسى وكذلك المقرين بنبوة عيسى ، وكانوا متبعين لملتهم ، فهؤلاء كانوا على نور ، فلما جاءهم محمد e كفروا به فدخلوا في ظلمات الكفر بعد أن خرجوا من نور الإيمان .

وقيل : إن المراد بإخراجهم من الظلمات إلى النور الحيلولة بينهم وبين الإيمان حتى يضلوهم عن طريق الإيمان ، فيكون التضليل إخراج من النور إلى الظلمات .

وقيل : إنه لما ظهرت معجزات رسول الله e كان المخالف له خارجاً من نور قد علمه ، والموافق له خارجاً من ظلمات الجهل إلى نور العلم .

- **قال الشنقيطي :** المراد بالظلمات الضلالة ، وبالنور الهدى ، وهذه الآية يفهم منها أن طرق الضلال متعددة لجمعه الظلمات وأن طريق الحق واحدة لإفراده النور ، وهذا المعنى المشار إليه هنا بينه تعالى في مواضع أخر كقوله (وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه : ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال (وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وقال تعالى (وَجَعَلَ الظلمات والنور) .

- **وقال ابن القيم :** والمقصود أن طريق الحق واحد إذ مرده إلى الله الملك الحق وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شيء موجود ولا غاية لها يوصل إليها بل هي بمنزلة بنيات الطريق وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود فهي وإن تنوعت فأصلها طريق واحد ، ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل والنور بمنزلة طريق الحق فقد أفرد النور وجمعت الظلمات وعلى هذا جاء قوله (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) .

فوحد ولي الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد ، وجمع الذين كفروا لتعددهم وكثرتهم وجمع الظلمات وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ووحد النور وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه .

(**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**) الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه ، والغريم لغريمه ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

- والنار هي الدار التي أعدها الله للكافرين .

قوله تعالى (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) وهذا الأسلوب يطلق على الذين يخلدون فيها ، فالمؤمن العاصي – وإن كان يستحق العذاب بالنار – فإنه لا يسمى من أصحاب النار ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) لا يخرجون منها ، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

وقد ذكر الله تأبيده في ثلاث آيات من القرآن الكريم .

في سورة النساء : قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .

وفي سورة الأحزاب : قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً) .

وفي سورة الجن : قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

الفوائد :

١ - فضيلة الإيمان .

٢ -إثبات الولاية لله تعالى .

٣ -أن من ثمرات الإيمان هداية الله للمؤمن .

٤ - الحذر من دعاة الضلال الذين يخرجون الناس من النور إلى الظلمات .

٥ - إثبات النار .

٦ - أن الكافرين مخلدون في النار .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

[البقرة : ٢٥٨] .

(**أَلَمْ تَرَ**) أي : بقلبك يا محمد .

(**إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ**) هذا الذي حاج إبراهيم في ربه وهو ملك بابل: نمروذ بن كنعان .

قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين. والكافران: نمروذ بن كنعان وبختنصر. فالله أعلم (تفسير ابن كثير) .

- **قال القرطبي :** هو النُّمْروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح مِلك زمانه وصاحبُ النار والبَعُوضَة! هذا قول ابن عباس ومجاهد وقَتادة والرّبيع والسُّدِّي وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم.

وكان إهلاكه لما قصد المحاربة مع الله تعالى بأن فتح الله تعالى عليه باباً من البَعُوض فستروا عين الشمس وأكلوا عسكره ولم يتركوا إلا العظام ، ودخلت واحدة منها في دماغه فأكلته حتى صارت مثل الفأرة ؛ فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عَتيدَة لذلك ، فبقي في البلاء أربعين يوماً.

- **وقال أبو حيان :** مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى : لما أخبر أنه ولي الذين آمنوا ، وأخبر : أن الكفار أولياؤهم الطاغوت، ذكر هذه القصة التي جرت بين إبراهيم والذي حاجه، وأنه ناظر ذلك الكافر فغلبه وقطعه ، إذ كان الله وليه، وانقطع ذلك الكافر وبهت إذ كان وليه هو الطاغوت (ألا إن حزب الله هم الغالبون) (ألا إن حزب الله هم المفلحون) فصارت هذه القصة مثلاً للمؤمن والكافر اللذين تقدّم ذكرهما .

(**فِي رَبِّهِ**) أي : في وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك؛ وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه .

- **قال أبو حيان :** قوله تعالى (في ربه) يحتمل أن يعود الضمير على إبراهيم ، وأن يعود على النمروذ ، والظاهر الأول.

(**أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**) أي : لأن آتاه الله تعالى ذلك ، (فتكون [أن] هنا تعليلية ، وعلى هذا المعنى : أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك .

كما قال تعالى (وَمَا نَقَمُوا إِلّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

وقال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ) .

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ) ، فهذا دأب الإنسان، يبدأ في الطغيان إذا رأى نفسه مستغنياً عن الناس.

وقال تعالى (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) .

وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) .

وفرعون لما أغناه الله وملّكه مصر قال (يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ) .

وقارون لما أنعم الله عليه قال (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) .

وقال e (لكل أمة فتنة وفتنة أمتي بالمال) رواه الترمذي .

والأبرص والأقرع لما آتاهما الله مالاً جحدا نعم الله عليهما .

وعن عَمْرِو بْنَ عَوْفٍ وَهُوَ حَلِيفُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ e (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ e بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ فَقَدِمَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ وَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَوْا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ e فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ e انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ e حِينَ رَآهُمْ ثُمَّ قَالَ « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ ». قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ

اللَّهِ. قَالَ : فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) متفق عليه .

وقال e (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) .

قال ابن رجب : هذا مثل عظيم ضربه النبي e لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا ، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم ، قد غاب عنها رعاؤها ليلاً ، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها .

فأخبر النبي e أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم .

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا .

إذا أكرمت الكريم ملكته وإذا أكرمت اللئيم تمرداً .

(**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**) وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) أي : الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ، لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج -وهو النمروذ :

(**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**) قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد : وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل ، فذلك معنى الإحياء والإماتة .

- **قال ابن كثير :** والظاهر -والله أعلم-أنه ما أراد هذا ، لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يَدّعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) .

(**قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**) أي : إذا كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب.

- وقد قال كثير من العلماء أن هذا من إبراهيم انتقال من دليل إلى دليل أو ضح وأكبر لا يستطيع المكابرة معه .

وقال بعض العلماء: إن هذا ليس من باب الانتقال من دليل إلى دليل آخر أوضح ، وإنما هو من باب طرد الدليل ، فكأنه قال له : ما دام أنك أنت تحيي وتميت ، وأنت تملك هذه القدرة الهائلة ، فأنت الذي تتصرف في هذا الكون فأت بالشمس من المشرق .

واختار هذا الحافظ ابن القيم حيث قال : ... فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت ، أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة ، وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد فقد أحيا هذا وأمات هذا ، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة ، فإن كان صادقاً فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه ، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار ، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة .

واختاره ابن كثير حيث قال : وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية ، وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويُبَيّن بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني، ولله الحمد والمنة.

(**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**) أي : فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة .

(**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) أي : لا يهديهم في الحجة عند الخصومة لما هم عليه من الضلالة .

- **قال ابن عاشور** : وإنّما انتفى هدي الله للقوم الظالمين ، لأنّ الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمّل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع ؛ إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره.

الفوائد :

١ - أن المجادلة لإبطال الباطل ، وإحقاق الحق من مقام الرسل .

٢ - فضل إبراهيم الخليل u حيث قام بالدعوة إلى التوحيد .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) .

وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) .

٣ - الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة والمحاجة ، لأنها وسيلة لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل .

٤ - أن النعمة والترف قد تكون سبباً للطغيان .

٥ - أن الإحياء والإماتة بيد الله .

٦ - إثبات أن من جحد الله فهو كافر .

٧ - التحذير من الظلم بجميع أنواعه .

٨ - فضل العدل .

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

[البقرة : ٢٥٩] .

(**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ**) هذه هي القصة الثانية .

- اختلف في المار :

فقيل : عزير ، وهذا هو المشهور .

وقيل : هو رجل من بني إسرائيل .

وأما القرية : فالمشهور أنها بيت المقدس ، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها .

(**وَهِيَ خَاوِيَةٌ**) أي : ليس فيها أحد ، من قولهم : خوت الدار تخوي خواءً وخُوياً .

(**عَلَى عُرُوشِهَا**) أي : ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، ولهذا قال :

(**قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها .

- **قال ابن الجوزي** (قال أنى يحيي هذه الله) أي : كيف يحييها . فإن قلنا : إن هذا الرجل نبي ، فهو كلام من يؤثر أن يرى كيفية الإعادة ، أو يستهولها ، فيعظم قدرة الله ، وإن قلنا : إنه كان رجلاً كافراً ، فهو كلام شاك ، والأول أصح .
- **قال في التسهيل** : (أنى يُحْيِي هذه الله) ظاهر هذا اللفظ إحياء هذه القرية بالعمارة بعد الخراب ، ولكن المعنى إحياء أهلها بعد موتهم ، لأنّ هذا الذي يمكن فيه الشك والإنكار ، ولذلك أراه الله الحياة بعد موته ، والقرية كانت بيت المقدس لما أخربها بختنصر ، وقيل : قرية الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف .

(**فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**) أي : أمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة ثم بعثه .

- **قال ابن كثير** : قالوا: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجعت بنو إسرائيل إليها .

(**قَالَ كَمْ لَبِثْتَ**) أي : قال له ربه بواسطة الملك كم لبثت في هذه الحالة .

- **قال القرطبي** : اختُلف في القائل له (كم لبثت) **فقيل** : الله جل وعز ، **وقيل** : سمع هاتفاً من السماء يقول له ذلك ، **وقيل** : خاطبه جبريل ، وقيل : نبيّ ، **وقيل** : رجل مؤمن ممن شاهده من قومه عند موته وعمر إلى حين إحيائه فقال له : كم لبثت.

ويقال : كان هذا السؤال بواسطة الملك على جهة التقرير.

ثم قال رحمه الله : قلت : والأظهر أن القائل هو الله تعالى ؛ لقوله (وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً) .

(**قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**) قالوا : وذلك أنه أماته أول النهار ، ثم بعثه الله في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال (أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) .

- **قال في التسهيل** : (قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) استقل مدّة موته، قيل: أماته الله غدوة يوم ثم بعثه قبل الغروب من يوم آخر بعد مائة عام؛ فظنّ أنه يوم واحد، ثم رأى بقية من الشمس فخاف أن يكذب في قوله: يوماً فقال: أو بعض يوم .
- **قال القرطبي** : (قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) إنما قال هذا على ما عنده وفي ظنه ، وعلى هذا لا يكون كاذباً فيما أخبر به ؛ ومثله قول أصحاب الكهف (قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) وإنما لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين على ما يأتي ولم يكونوا كاذبين لأنهم أخبروا عما عندهم ، كأنهم قالوا : الذي عندنا وفي ظنوننا أننا لبثنا يوماً أو بعض يوم.

ونظيره قول النبيّ e في قصة ذي اليَدَين : " لم أقصر ولم أَنْس" " ومن الناس من يقول : إنه كذبٌ على معنى وجود حقيقة الكذب فيه ولكنه لا مؤاخذة به ، وإلا فالكذب الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه وذلك لا يختلف بالعلم والجهل .

(**قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ**) أي : بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة .

(**فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ**) أي : فإن شككت فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنب وتين وعصير فوجدها على حالها لم تفسد .

(**وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ**) أي : كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر .

(**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ**) أي : دليلاً على المعاد .

(**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا**) أي : نرفعها فتركب بعضها على بعض .

- **قال ابن الجوزي:** قوله تعالى (كيف ننشزها) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (ننشرها) بضم النون الأولى، وكسر الشين وراء مضمومة. ومعناه: نحييها، يقال: أنشر الله الميت، فنشرهم. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ننشزها، بضم النون مع الزاي، وهو من النشز الذي هو الارتفاع. والمعنى: نرفع بعضها إلى بعض للأحياء .
- **قال الرازي :** قوله تعالى (وانظر إِلَى العظام) فأكثر المفسرين على أن المراد بالعظام عظام حماره ، فإن اللام فيه بدل الكناية ، وقال آخرون أرادوا به عظام هذا الرجل نفسه .

(**ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً**) أي : ثم نكسوها لحماً وأنت تنظر .

(**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ**) بأن له إحياء الموتى .

(**قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) (قَالَ أَعْلَمُ) بهمزة قطع وضم الميم أي : قال الرجل ذلك اعترافاً ، وقرئ بألف وصل ، والجزم على الأمر أي قال له الملك ذلك .

الفوائد :

١ - بلاغة القرآن حيث ينوع الأدلة والبراهين على الأمور العظيمة .

٢ -أن العبرة بالمعاني والمقاصد دون الأشخاص .

٣ - أن الإنسان إذا استبعد وقوع الشيء ولكنه لم يشك في قدرة الله لا يكفر بهذا .

٤ - إثبات البعث .

٥ - أنه ينبغي التفكر فيما خلقه الله وأحدثه في الكون .

٦ - بيان عموم قدرة الله تعالى .

٧ - ثبوت كرامات الله .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

[البقرة : ٢٦٠] .

(**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**) أي : واذكر حين طلب ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى .

- سأل الخليل عليه الصلاة والسلام عن الكيفية مع إيمانه الجازم بقدرة الله تعالى ، فالسؤال هنا عن الكيفية لا عن الإمكان .

(**قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ**) هذا الاستفهام للتقرير ، وليس للإنكار ولا للنفي ، فهو كقوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) أي : قد شرحنا لك صدرك .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (أَوَلَمْ تُؤْمِن) ففيه وجهان أحدهما : أنه استفهام بمعنى التقرير ، قال الشاعر :
  ألستم خير من ركب المطايا.. وأندى العالمين بطون راح

والثاني : المقصود من هذا السؤال أن يجيب بما أجاب به ليعلم السامعون أنه **u** كان مؤمناً بذلك عارفاً به وأن المقصود من هذا السؤال شيء آخر .

(**قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**) أي : ليزداد طمأنينة .

● فإبراهيم u أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين .

فالدرجات ثلاث :

علم اليقين : كما قال تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) ، وهو العلم الثابت الراسخ الذي لا يداخله شك .

عين اليقين : قال تعالى (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) ، وهذا لا يُتوصل إليه إلا بالمشاهدة .

حق اليقين : قال تعالى (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) ، وهذا لا يتحقق إلا بملابسة شيء .

وقد قال e (ليس الخبر كالمعاينة) ولهذا لما اخبر الله موسى : أنه قد فتن قومه ، وأن السامري أضلهم ، لم يحصل له من الغضب والكيفية والقاء الألواح ، ما حصل له عند مشاهدة ذلك .

مثال يوضح ذلك : قلت إن معي تفاحة – وأنا عندك ثقة - فهذا علم اليقين .

فإن أخرجتها من جيبي ، فهذا عين اليقين .

فإن أعطيتك لتأكلها فهذا حق اليقين .

قال القرطبي : اختلف الناس في هذا السؤال هل صدر من إبراهيم عن شكّ أم لا ؟ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم u شاكّاً في إحياء الله الموتى قطُّ وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به ؛ ولهذا قال u (ليس الخبر كالمعانية) .

قال الأخفش : لم يُرد رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين.

وقال الحسن وقَتادة وسعيد ابن جُبير والربيع : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه.

● فإن قال قائل : ما الجواب عن قوله e (نحن أحق بالشك من إبراهيم) ؟

الجواب : **قيل** : معنى الحديث أن الشك يستحيل في حق إبراهيم ، فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أن إبراهيم لم يشك ، وإنما خص إبراهيم لكون الآية قد يسبق منها إلى بعض الأذهان الفاسدة احتمال الشك ، وإنما رجح إبراهيم على نفسه تواضعاً وأدباً ، أو قبل أن يعلم أنه خير ولد آدم .

بهذا التأويل قال الخطابي ، والطحاوي ، وابن حزم ، والقاضي عياض ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، والنووي ، وابن حجر ، وابن عثيمين .

وقيل : إن الحديث كان رداً على قوم أثبتوا الشك لإبراهيم .

وقيل : أن المراد بقوله e : (نحن) أمته الذين يجوز عليهم الشك . والأول أصح .

(قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ) أي : فخذ أربعة طيور .

● **قال ابن كثير** : اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُتَّهم لنص عليه القرآن، فروي عن ابن عباس أنه قال : هي الغرنوق ، والطاوس ، والديك ، والحمامة . وعنه أيضًا : أنه أخذ وزًّا، ورألاً -وهو فرخ النعام -وديكاً، وطاووسًا. وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة، وديكا، وطاووسًا، وغرابًا.

(فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) بضم الصاد أي : أمِلْهنّ إليك، وقيل : ضُمّهُنّ إليك .

وفي قراءة (فصِرهن) تكون بمعنى قَطّعْهُنّ .

أي : ضُمّهُنّ إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة .

(ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً) أي : فرّق أجزاءهن على رؤوس الجبال .

(ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً) أي : بسرعة .

- **قال ابن كثير :** فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن ونتف ريشهن، ومزقهن وخلط بعضهن في ببعض، ثم جزأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءًا، قيل: أربعة أجبل . وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل، أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم **u** ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته .

وقال أبو حيان : أمره بدعائهنّ وهنّ أموات ، ليكون أعظم له في الآية ، ولتكون حياتها متسببة عن دعائه ، ولذلك رتب على دعائه إياهنّ إتيانهنّ إليه .

- **وقال السعدي :** فعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة ، وخص الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعاً ، وجعلهن على رؤوس الجبال ، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيراً ، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله.

(**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة العزة وهي ثلاثة أنواع : عزة القدْر : بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ، وعزة القهر : بمعنى أن الله القاهر لكل شيء، لا يُغلب، وعزة الامتناع : بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص .

(**حَكِيمٌ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة ، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة .

فهو سبحانه حكيم في صنعه ، وحكيم في شرعه ، فجميع مصنوعاته كلها محكمة ، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً .

قال بعض العلماء : الحكمة تكون في صورة الشيء : أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة ، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة .

وتكون في غايته : أي : أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة ، وكذلك الحيوانات ، وكذلك جميع المخلوقات ، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) .

الفوائد :

١ -أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب ما يزداد به يقينه .

٢ -أن عين اليقين أقوى من خبر اليقين .

٣ -تمام قدرة الله بإحياء الموتى .

٤ -إثبات زيادة الإيمان .

قال تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) .

وقال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) .

وقال تعالى (لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً) .

وقال تعالى (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ) .

وقال e (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن ...) متفق عليه .

وجه الدلالة :أنه إذا ثبت النقص ثبتت الزيادة .

وقال e (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) رواه أبو داود .

وعن ابن مسعود أنه قال (اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً) .رواه ابن بطة بإسناد صحيح .

وعن أبي الدرداء أنه كان يقول (الإيمان يزداد وينقص) رواه ابن ماجه .

وكان معاذ يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن ساعة .

وقال عمار : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : إنصاف من نفسه ، والإنفاق من إقتار ، وبذل السلام للعالم .

فأهل الإيمان يتفاضلون كما قال سبحانه (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) .

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢٦١] .

(**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ) .

- قوله تعالى : (في سبيل الله) يعني في دينه ، قيل : أراد النفقة في الجهاد خاصة ، وقيل : جميع أبواب البر ، ويدخل فيه الواجب والنفل من الإنفاق في الهجرة مع رسول الله e ، ومن الإنفاق في الجهاد على نفسه وعلى الغير ، ومن صرف المال إلى الصدقات ، ومن إنفاقها في المصالح ، لأن كل ذلك معدود في السبيل الذي هو دين الله وطريقته لأن كل ذلك إنفاق في سبيل الله .
- قوله (في سبيل الله) أضيف إلى الله لسببين :

الأول : أنه هو الذي وضعه لعباده وشرعه لهم .

والثاني : أنه موصل إليه .

(**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ**) كحبة بذرها إنسان ، فأنبتت سبع سنابل (فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) فتكون الجميع سبعمائة ، فالحسنة إذاً في الإنفاق في سبيل الله تكون بسبعمائة .

- **قال أبو حيان :** وشبه الإنفاق بالزرع ، لأن الزرع لا ينقطع .
- **وقال ابن كثير :** وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل، لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف .

- **في هذه الآية فضل الإنفاق في وجوه الخير والطاعة ، وللإنفاق فضائل عظيمة :**

أولاً : أن الإنفاق استجابة لأمر ربنا تعالى .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

ثانياً : مضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

ثالثاً : أن درجة البر تنال بالإنفاق .

قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

رابعاً : أنها من صفات المتقين .

كما قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فقوله تعالى (فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) دليل على أن الإنفاق ملازم لهم في جميع أحوالهم .

خامساً : الأمان من الخوف يوم الفزع الأكبر .

قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

سادساً : أن صاحب الإنفاق موعود بالخير الجزيل .

قال تعالى (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

سابعاً : أن الله يخلف الصدقة .

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

ثامناً : أن الإنفاق دليل على صحة الإيمان .

قال e (والصدقة برهان) رواه مسلم ، فالصدقة برهان على صحة الإيمان .

تاسعاً : ينال دعاء الملائكة .

كما قال e (ما من صباح إلا وينزل ملكان : يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

عاشراً : فضل من سبق بالإنفاق والجهاد .

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) .

الحادي عشر : أنها إرغام للشيطان وحسن ظن بالله .

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

الثاني عشر : لا حسد إلا لمن أنفق في وجوه الخير .

قال e (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهْوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) .

(**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال e قال (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ....) رواه البخاري .

قال ابن رجب : ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل .

وقال e (الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه) رواه ابن ماجة وصححه الألباني

- **وقال السعدي :** وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

قال القرطبي : اختلف العلماء في معنى قوله (والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ) فقالت طائفة : هي مبيِّنة مؤكدة لما تقدّم من ذكر السبعمائة ، وليس ثمَّ تضعيف فوق السبعمائة.

وقالت طائفة من العلماء : بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف.

قلت : وهذا القول أصحُّ لحديث ابن عمر المذكور أوّل الآية.

- **وقال ابن عاشور :** ومعنى قوله (والله يضاعف لمن يشاء) أنّ المضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلاّ الله تعالى ؛ لأنّها تترتّب على أحوال المتصدّق وأحوال المتصدّق عليه وأوقات ذلك وأماكنه.

وللإخلاص وقصد الامتثال ومحبة الخير للناس والإيثار على النفس وغير ذلك مما يحفّ بالصدقة والإنفاق ، تأثير في تضعيف الأجر ، والله واسع عليم .

(**وَاللَّهُ وَاسِعٌ**) الفضل ، واسع العطاء ، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته .

قال ابن القيم (واسع) فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ، فإن المضاعِف واسع العطاء ، واسع الغنى ، واسع الفضل .

(**عليم**) بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها ، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

الفوائد :

١- ضرب الأمثال ، وهو تشبيه المعقول بالمحسوس ، لأنه أقرب إلى الفهم .

٢-فضيلة الإنفاق في سبيل الله .

٣- الإشارة إلى الإخلاص لله في العمل .

٤- أن ثواب الله وفضله أكثر من عمل العامل .

٥- حرص الشريعة على نفع الآخرين .

٦- فضل الكرم والجود .

٧- ذم البخل .

٨- إثبات هذين الاسمين من أسماء الله : الواسع ، العليم .

(**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ**) .

[البقرة : ٢٦٢ – ٢٦٣] .

(**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً**) يمدح تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه، فلا يمنون على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل (وَلا أَذىً) أي: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان.

- في هذه الآية أن من محبطات الصدقة والإنفاق المن والأذى .
- **قال القرطبي** :المنُّ : ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها ؛ مثل أن يقول : قد أحسنت إليك ونَعْشْتُك وشبهه.

وقال بعضهم : المنّ : التحدّث بما أَعطى حتى يبلغ ذلك المعطَى فيؤذيه.

- والمنّ من الكبائر ، ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره ، وأنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ؛ وروى النسائيّ عن ابن عمر قال قال رسول الله e (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاقّ لوالديه والمرأة المترجّلة تتشبّه بالرجال والديُّوث ، وثلاثة لا يدخلون الجنة العاقّ لوالديه والمدمِن الخمر والمنّان بما أعطى) وفي بعض طرق مسلم (المنان هو الذي لا يعطي شيئاً إلا مِنّة) والأذى : السب والتشكّي ، وهو أعمّ من المنّ ؛ لأن المنّ جزء من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وُقُوعِه.
- **قال ابن الجوزي** : ولقد حدثنا عن حسان بن أبي سنان أنه كان يشتري أهل بيت الرجل وعياله ، ثم يعتقهم جميعاً ، ولا يتعرف إليهم ولا يخبرهم من هو.
- **قال القرطبي** : لما تقدّم في الآية التي قبلُ ذِكرُ الإنفاق في سبيل الله على العموم بَيَّن في هذه الآية أن ذلك الحكم والثواب إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه مَنّا ولا أذًى ؛ لأن المنّ والأذى مبطلان لثواب الصدّقة كما أخبر تعالى في الآية بعد هذا ، وإنما على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوابَه بإنفاقه على المُنفق عليه ، ولا يرجو منه شيئاً ولا ينظر من أحواله في حالٍ سوى أن يراعي استحقاقه ؛ قال الله تعالى (لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً) ، ومتى أنفق ليريد من المنفَق عليه جزاء بوجهٍ من الوجوه فهذا لم يُرِد وجهَ الله .
- **قال أبو السعود** : وإنما قُدم المن لكثرة وقوعِه ، وتوسيطُ كلمة (لا) للدَلالة على شمول النفي لإتباع كل واحدٍ منهما و (ثُمَّ) لإظهار علوِّ رتبة المعطوف.

(**لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**) أي : ثوابهم عند ربهم .

(**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة .

(**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) على ما فاتهم من أمور الدنيا .

(**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ**) المراد به الإحسان القولي بجميع وجوهه ، الذي فيه سرور المسلم ، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً ، وغير ذلك من أقوال المعروف .

(**وَمَغْفِرَةٌ**) لمن أساء إليك ، بقول أو فعل .

- **قال ابن الجوزي** : (قول معروف) أي : قول جميل للفقير ، مثل أن يقول له : يوسع الله عليك (ومغفرة) أي : يستر على المسلم خلته وفاقته .

وقيل : أراد بالمغفرة التجاوز عن السائل إن استطال على المسؤول وقت رده .
(**خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً**) للمعطِي ، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشراً .
(**وَاللَّهُ غَنِيٌّ**) عن صدقاتهم ، وعن جميع عباده ، فالله غني عن كل ما سواه ، غني في نفسه لكثرة ما عنده ، غني عن خلقه ، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض ، وخزائن السموات والأرض كلها بيده ، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ، فخزائنه عز وجل ملأ ، لا يغيضها كثرة الإنفاق ، وليس بحاجة إلى خلقه ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وكل شيء فقير إليه .

قال ابن القيم : هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه ، وليس به حاجة إلى أحد .
وقال السعدي : هو الغني بذاته ، الذي له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه ، والاعتبارات لكماله ، وكمال صفاته ، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه ، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً ، لأن غناه من لوازم ذاته ، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً .
قال : ومن كمال غناه : أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ، ولا ولياً من الذل .
وقال الخطابي : الغني : هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه ، فليست به حاجة إليهم ، وهم إليه فقراء محتاجون .

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : إفراد الله تعالى بالعبادة ، لأنه سبحانه هو الغني الغنى المطلق المطلق ، والغنى وصف له سبحانه ذاتي وما سواه من الخلائق مفتقر إليه ، فالأمر كله له والملك كله له ، وجميع الخلق مربوبون مملوكون ، فكيف يتخذ منهم معبوداً مع الله تعالى ؟
ثانياً : الافتقار التام إلى الله عز وجل ، لأن الفقر صفة ذاتية ملازمة للعبد في جميع أحيانه ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى ، ولا يستغني عن ربه سبحانه طرفة عين ، لأنه سبحانه الغني ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد ، وكل أحد محتاج إليه .
ثالثاً : أن هذا الاسم يثمر في قلب المؤمن الغنى القلبي كما في الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى القلب) وهذا يثمر الاستغناء بالله تعالى وحده عن الناس وعزة النفس ، والتعفف والزهد بما في أيدي الناس ، وعدم التذلل لهم وعدم التعلق بأعطياتهم وإعانتهم ، بل يجرد العبد تعلقه وقضاء حوائجه وطلب رزقه بالله الغني الحميد الكريم الوهاب الذي لا تفنى خزائنه .
رابعاً : أن الله غني عن عباده ، ومع ذلك فهو محسن إليهم ، رحيم بهم ، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته .
أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً .

- فغنى الله يتضمن شيئين : الأول : الغنى الذاتي ، لكثرة ما يملكه ، إذ كل شيء ملكه ، والثاني : الغنى عن الغير ، فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه .

(**حَلِيمٌ**) مع كمال غناه ، وسعة عطاياه ، يحلم عن العاصين ، ولا يعاجلهم بالعقوبة ، بل يعافيهم ويرزقهم ، ويدر عليهم خيره ، وهم مبارزون له بالمعاصي .
الفوائد :
١ - الحث على الإنفاق في سبيل الله .

٢- خطر من أتبع نفقته بالمنّ والأذى .

٣- أن المن والأذى يبطل الصدقة .

٤- على المسلم أن يعرف مبطلات الأعمال .

٥- فضيلة القول المعروف .

٦- الحث على المغفرة لمن أساء إليك .

٧- أن الأعمال الصالحة تتفاضل .

٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغني والحليم .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .
[البقرة : ٢٦٤] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى) أخبر تعالى أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى.

- **قال أبو حيان :** ولتعظيم قبح المن أعاد الله ذلك في معارض الكلام ، فأثنى على تاركه أولاً وفضل المنع على عطية يتبعها المن ثانياً ، وصرح بالنهي عنها ثالثاً ، وخص الصدقة بالنهي إذ كان المن فيها أعظم وأشنع .

(كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ) أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له ، أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه .

(وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) أي : لا يصدق بلقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً .

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ) وهو الحجر الأملس .

(عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ) وهو المطر الشديد .

(فَتَرَكَهُ صَلْداً) أي : فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً ، أي : أملس يابساً ، أي : لاشيء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أي : وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب .

(لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا) أي : لا يجدون له ثواباً في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها أصلاً .

- **قال ابن الجوزي :** وهذا مثل ضربه الله تعالى للمرائي بنفقته ، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء مما أنفق .
- **قال ابن القيم :** وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها ، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به ، وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلداً فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله ، وفيه معنى آخر وهو : أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملا يرتب عليه الأجر ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بذرت في التراب الطيب أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه كما أن تحت التراب حجراً يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيئاً .

(**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**) أي : لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد في نفقاتهم وفي غيرها .
فلا يوفقهم الله ويتخلى عنهم ، وهكذا اذا خذل الله العبد ، يتركه فتكون أعماله وبالاً عليه ، فيعمل ما فيه عطبه وخسارته وهلاكه .

- في هذه الآية خطر الرياء وأنه محبط للعمل .

وقال ابن حجر : الرياء بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها والسمعة بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر
عن جندب عند البخاري مسلم (مَن سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّه بِهِ ، ومَنْ يُرَائِي اللَّه يُرَئِي بِهِ » متفقٌ عليه وَرَواهُ مُسْلِمٌ أيضاً مِنْ رِوايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللَّه عَنْهُمَا .

- قال النووي (سَمَّعَ) بتَشْدِيدِ المِيمِ ، وَمَعْنَاهُ : أَشْهَرَ عملَهُ للنَّاس رياءً (سَمَّعَ اللَّه بِهِ) أيْ : فَضَحَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، ومَعْنى : « منْ رَاءَى » أيْ : مَنْ أَظْهَرَ للنَّاسِ الْعَمَل الصَّالحَ لِيَعْظُمَ عِنْدهُمْ «رَاءَى اللَّه بِهِ » أيْ : أظْهَرَ سَرِيرَتَهُ عَلى رُؤوس الخَلائِقِ .

قوله (من سمع ...) معناه : قال الخطابي معناه من عمل عملا على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإن الله يجعله حديثا عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة ومعنى يرائي يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه ومنه قوله تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها إلى قوله ما كانوا يعملون وقيل المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد وكان ذلك جزاءه على عمله ولا يثاب عليه في الآخرة وقيل المعنى من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه وسمعه المكروه وقيل المعنى من نسب إلى نفسه عملا صالحا لم يفعله وادعى خيرا لم يصنعه فإن الله يفضحه ويظهر كذبه وقيل المعنى من يرائي الناس بعمله أراه الله ثواب ذلك العمل وحرمه إياه وقيل معنى سمع الله به شهره أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة.
قلت ورد في عدة أحاديث التصريح بوقوع ذلك في الآخرة فهو المعتمد فعند أحمد والدارمي من حديث أبي هند الداري رفعه من قام مقام رياء وسمعه راءى الله به يوم القيامة وسمع به وللطبراني من حديث عوف بن مالك نحوه وله من حديث معاذ مرفوعا ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء إلا سمع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة وفي الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح .

- التحذير من الرياء وصية ربانية : إن الله حذرنا من الرياء في الأقوال والأفعال وذلك في كثير من آيات القرآن الكريم، وبين لنا سبحانه أن الرياء يحبط الأعمال الصالحة.

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...) .
وقال سبحانه (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً) .
قال ابن كثير : لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالبًا كصلاة العشاء في وقت العتمة وصلاة الصبح في وقت الغلس.
وهو من صفات المنافقين .

قال تعالى في المنافقين (يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً) .

وقال سبحانه وتعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

قال ابن كثير في قوله تعالى (فليعمل عملاً صالحاً) أي: ما كان موافقًا لشرع الله، وقوله (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وهو الذي يُراد به وجه الله تعالى وحده لا شريك له.

وقال جل شأنه (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) .

قال مجاهد في معنى هذه الآية: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات .

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، هذه آيتهم وقصتهم.

وقال سبحانه موضحًا عقوبة المرائين يوم القيامة (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ e يَقُولُ (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ . قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ . فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ . قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ . وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ . فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ . فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) رواه مسلم .

عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله e : (بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب) . رواه احمد وابن حبان

وعن أبي هريرة t قال : قال النبي e : (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) . رواه أبو داود

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله e يقول : (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك في عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) . رواه الترمذي وابن ماجه

وعن أبي سعيد مرفوعاً :(ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) . رواه أحمد .

- **قال ابن قدامة** : اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة ، وإذا فُصل رجع إلى ثلاثة أصول :

أولاً : حب لذة الحمد .

ثانياً : الفرار من ألم الذم .

ثالثاً : الطمع فيما في أيدي الناس .

- من أقوال السلف :

عن شداد بن أوس قال عند موته : إن أخوف ما أخاف عليكم : الرياء ، الشهوة الخفية .

قال سهل : لا يعرف الرياء إلا مخلص .

وقال ابن القيم : وكل ما لم يكن لله فبركته منزوعة .
وكان عكرمة يقول : أكثروا من النية الصالحة فإن الرياء لا يدخل النية .
وكان الثوري يقول : كل شيء أظهرته من عملي فلا أعده شيئاً .
وعن عبدة قال : إن أقرب الناس من الرياء آمنهم منه .
وقال الربيع بن خثيم : كل ما لا يراد به وجه يضمحل .
وقال بشر بن الحارث : قد يكون الرجل مرائياً بعد موته ، يحب أن يكثر الخلق بعد موته .
قال ابن رجب : ما ينظر المرائي إلى الخلق في عمله إلا لجهله بعظمة الخالق .. المرائي يزور التواقيع على اسم الملك ليأخذ البراطيل لنفسه ويوهم أنه من خاصة الملك وهو مايعرفه بالكليه ... نقش المرائي على الدرهم الزائد اسم الملك ليروج والبهرج ما يجوز إلا على غير الناقد .
قال ابن القيم : أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص .
وقال ابن القيم : كل نفس يخرج في غير ما يقرب إلى الله ، فهو حسرة على العبد في معاده ، ووقفة له في طريق سيره ، أو نكسة إن استمر ، أو حجاب إن انقطع به

- قال ابن القيم :

قال يحيى بن معاذ عجبت من ثلاث :
رجل يرائي بعمله مخلوقاً مثله ويترك أن يعمله لله .
ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئاً .
ورجل يرغب في صحبة المخلوقين ومودتهم والله يدعوه إلى صحبته ومودته .

- **قال ابن قدامة** : واعلم أن أصل الرياء حب المنزلة والجاه .

وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول :
وهي لذة المحمدة - والفرار من ألم الذم - والطمع فيما في أيدي الناس .
وقال ابن قدامة : واعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس ، وحب مدحهم ، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس ، رجاء المدح ، وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات .
وقال : ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي ، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم .
وقال : ومن الدواء النافع (في علاج الرياء) أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما نغلق الأبواب دون الفواحش ، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال .
قال ابن الجوزي في صيد الخاطر : ثم تأملت العلماء والمتعلمين، فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمارة النجابة؛ لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به، وجمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب إما ليأخذ قضاء مكان، أو ليصير قاضي بلد، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي .
وقال ابن رجب : ومن علامات العلم النافع أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح فالتباعد عن ذلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العلم النافع.

فإذا وقع شيء من ذلك من غير قصد واختيار كان صاحبه في خوف شديد من عاقبته بحيث أنه يخشى أن يكون مكراً واستدراجاً كما كان الإمام أحمد يخاف ذلك على نفسه عند اشتهار اسمه وبعد صيته .

وقال الذهبي : ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد ، فإن أعجبه كلامه فليصمت ، وإن أعجبه الصمت فلينطق ، ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء .

وحكى الذهبي - رحمه الله تعالى - عن أبي الحسن القطان - رحمه الله تعالى - قوله : أُصبت ببصري ، وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أيام الرحلة .

قال الذهبي : صدق والله ، فقد كانوا مع حسن القصد وصحة النية غالباً يخافون من الكلام ، وإظهار المعرفة. واليوم يكثرون الكلام مع نقص العلم ، وسوء القصد ثم إن الله يفضحهم ، ويلوح جهلهم وهواهم واضطرابهم فيما علموه فنسأل الله التوفيق والإخلاص . أهـ

وقال أبو قلابة لأيوب السختياني: يا أيوب إذا أحدث الله لك علمًا فأحدث لله عبادة، ولا يكونن همك أن تحدث به الناس .

وفي ترجمة ابن جريج: قال الوليد بن مسلم سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم ؟!! كلهم يقول: لنفسي . غير أنَّ ابن جريج فإنَّه قال: طلبته للناس .

قال الذهبي - رحمه الله - تعليقًا على هذا الخبر : " قلت : ما أحسن الصدق ، واليوم تسأل الفقيه الغبي لمن طلبت العلم ؟ فيبادر ويقول : طلبته لله ، ويكذب إنَّما طلبه للدنيا ، ويا قلة ما عرف منه .

وقال عبد الله بن المعتز : علم المنافق في قوله ، وعلم المؤمن في عمله .

قال عمر بن الخطاب: من خلصت نيته في الحق، ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله.

وكان من دعاء عمر : اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال ابن القيم : العمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم البتة، بل جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله.

وقال : إن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده ، وقع في باطل مُقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ، حتى في الأعمال ، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضَره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتليَ بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك .

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتُليَ بإنفاقه لغير الله وهو راغم .

وقال : الوقوف عند مدح الناس وذمهم : علامة انقطاع القلب وخلوه من الله وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه .

علمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته .

الفوائد :

١- أن المن والأذى يبطل الصدقة .

٢- تحريم المن والأذى في الصدقة .

٣- تحريم الرياء .

٤- أن الرياء مبطل للعمل .

٥- أن من يرائي بعمله فذلك لضعف إيمانه بالله واليوم الآخر . [السبت : ١٩ / ٣ / ١٤٣٣هـ] .

(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

[البقرة : ٢٦٥] .

- - - - - - - - -

(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ) هذا مثل المؤمنين المنفقين .

(ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) أي : طلباً لمرضات الله لا لغرض من أغراض الدنيا .

فهذا فيه الإخلاص في الإنفاق لا لأي غرض من أغراض الدنيا .

كما قال تعالى (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً . وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) .

- فقوله (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) أي : رجاء ثواب الله ورضاه لا رياء ولا سمعة (لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً) أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .
- **قال القرطبي** (لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً) أي مكافأة (وَلاَ شُكُوراً) أي :ولا أن تثنوا علينا بذلك ؛ قال ابن عباس : كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا .
- فالجزاء : المكافأة والعوض المجازاة بالمال وغيره ، والشكور : الثناء بالقول .

قال سعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليه به ليرغب في ذلك راغب .

قال ابن عاشور : والمعنى : إنهم يقولون ذلك لهم تأنيساً لهم ودفعاً لانكسار النفس الحاصل عند الإطعام ، أي ما نطعمكم إلاّ استجابة لما أمر الله ، فالمطعم لهم هو الله ، فالقول قول باللسان ، وهم ما يقولونه إلاّ وهو مضمر في نفوسهم .

- وفي كونهم يخصون بالإطعام هذه الأصناف الثلاثة المحتاجة دليل على أنهم لا يريدون بذلك مكافأة كما يفعل بعض من يعاوضون بإطعامهم وإنفاقهم ، بل ويعاوضون بإنصافهم وقولهم كلمة الحق أو سكوتهم عن الباطل .

قال ابن تيمية : من طلب من العباد العوض ثناء أو دعاء أو غير ذلك لم يكن محسناً إليهم لله .

وهكذا في جميع الطاعات والعبادات تنبغي أن تكون لله تعالى وحده .

قال تعالى (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) وقال تعالى (وَمَا آتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) .

وقال تعالى (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) .

وقال e (من بنى مسجداً لله بنى الله ...) متفق عليه .

وقال e (من صام رمضان إيماناً واحتساباً ...) متفق عليه .

وقال e (صَلاَةُ الرَّجُلِ في جماعةٍ تزيدُ عَلَى صَلاَتِهِ في سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضْعاً وعِشْرِينَ دَرَجَةً ، وذلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِد لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاَةَ ، لا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَّلاَةُ ، لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها دَرجةٌ ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ حتَّى يَدْخلَ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ في الصَّلاَةِ ما كَانَتِ الصَّلاَةُ هِيَ التي تحبِسُهُ ، وَالْملاَئِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ ما دام في مَجْلِسِهِ الَّذي صَلَّى فِيهِ ، يقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْه ، ما لَمْ يُؤْذِ فِيه ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ » متفقٌ عليه ،وهَذَا لَفْظُ مُسْلمٍ . وَقَوْلُهُ e : «يَنْهَزُهُ » هُوَ بِفتحِ الْياءِ وَالْهاءِ وَبالزَّاي: أَي يُخْرِجُهُ ويُنْهِضُهُ .

وقال e (إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ . فَقَالَ أَحَدُكُمْ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ . ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ . ثُمَّ قَالَ حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ . قَالَ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ . ثُمَّ قَالَ حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ . قَالَ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ . ثُمَّ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ . قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ . ثُمَّ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ) رواه مسلم .

وقال e (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ) متفقٌ عليه .

وقال e (الحج المبرور ليس جزاء إلا الجنة) متفق عليه .

وقال e (من تواضع لله رفعه الله) رواه مسلم .

وقال e (مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً ، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا ، وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ) متفق عليه .

(**وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**) أي : وهم متحققون مُثبَتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

وقيل : تصديقاً ويقيناً .

وقيل : التثبيت لارتياد محل الإنفاق ، فهم ينظرون أين يضعونها .

وقيل : أي لأجل التثبيت .

وقيل : إنهم بهذا الإنفاق يروضون النفس ويثبتونها ويدربونها ويخطمونها بتقويتها على البذل والإنفاق لئلا تضعف ، وهذا اختيار ابن القيم .

وقيل : أن أنفسهم كانت موقنة مصدّقة بوعد الله إياها فيما أنفقت في طاعته بغير منّ ولا أذى ، فثبتهم في إنفاق أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وصحح عزمهم وآراءهم يقيناً منها بذلك ، وتصديقاً بوعد الله إياها ما وعدها .

قال ابن القيم : هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية :

إحداهما : طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضاً من أغراضه الدنيوية وهذا حال أكثر المنفقين .

والآفة الثانية : ضعف نفسه وتقاعسها وترددها هل يفعل أم لا .

فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله ، والآفة الثانية تزول بالتثبيت فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل وهذا هو صدقها وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك ... ألخ .

(**كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ**) أي : كمثل بستان بربوة .

والربوة عند الجمهور : المكان المرتفع المستوى من الأرض .

(**أَصَابَهَا وَابِلٌ**) وهم المطر الشديد .

(**فَآتَتْ أُكُلَهَا**) أي : ثمرتها .

(**ضِعْفَيْنِ**) أي : بالنسبة إلى غيرها من الجنان .

(**فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**) أي : فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف ، فهي تنتج على كل حال .

- **قال ابن كثير :** أي : هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً ، لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وأيا ما كان فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً ، بل يتقبله الله ويكثره وينميه ، كل عامل بحسبه .

- **وقال ابن الجوزي :** ومعنى هذا المثل : أن صاحب هذه الجنة لا يخيب ، فإنها إن أصابها الطل حسنت ، وإن أصابها الوابل أضعفت ، فكذلك نفقة المؤمن المخلص .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أي : لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء .

قال أبو حيان : والمعنى : أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من الأعمال والمقاصد من رياء وإخلاص ، وفيه وعد ووعيد.

الفوائد :

١- فضل الإنفاق من المال ابتغاء مرضات الله .

٢- تحريم الإنفاق لغير الله من أغراض الدنيا .

٣- اشتراط الإخلاص لقبول الأعمال .

٤-بيان أن تثبت الإنسان لعمله واطمئنانه به من أسباب قبوله .

٥- ضرب الأمثال .

٦- إثبات علم الله وعمومه .

٧- التحذير من مخالفة الله ، لكونه عالماً بما نعمل . [الأحد : ٢٠ / ٣ / ١٤٣٣هـ] .

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) .

[البقرة : ٢٦٦] .

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) روى البخاري عند تفسير هذه الآية : عن عبد الله بن أبي مُلَيكة، يحدث عن ابن عباس، وسمعت أخاه أبا بكر بن أبي مليكة يحدث عن عبيد بن عُمَير قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي e (فيمن ترون هذه الآية نزلت: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) ؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أيُّ عملٍ؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله. ثم بعث الله له الشيطان فعمِل بالمعاص حتى أغرق أعماله .

وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسيئات، عياذًا بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء، وخانه أحوجَ ما كان إليه .

(وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ) وهو الريح الشديد .

- **قال الحسن :** هذا مثل قل والله من يعقله : شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه ، أفقر ما كان إلى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

واختار الطبري أن هذا مثل آخر في المنفق المرائي ، واختار ما قال السدي .

قال السدي : (أيود أحدكم أن تكون له جنةٌ من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) هذا مثل آخر لنفقة الرياء. إنه ينفق ماله يرائي الناس به، فيذهب ماله منه وهو يرائي، فلا يأجره الله فيه ، فإذا كان يوم القيامة واحتاجَ إلى نفقته، وجدها قد أحرقها الرياء، فذهبت كما أنفق هذا الرجل على

جنته، حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته جاءت ريح فيها سَموم فأحرقت جنته، فلم يجد منها شيئًا . فكذلك المنفق رياء .

(**فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**) أي : أحرق ثمارها وأباد أشجارها ، فأي حال يكون حاله .

- **قال ابن الجوزي :** وإنما ذكر النخيل والأعناب ، لأنهما من أنفس ما يكون في البساتين ، وخصّ ذلك بالكبير ، لأنه قد يئس من سعي الشباب في إكسابهم .

قال ابن القيم : قال الحسن هذا مثل قل والله من يعقله من الناس ، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا .

(أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) خص هذين النوعين من الثمار بالذكر لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعاً ، فإن منهما القوت والغذاء والدواء والشراب والفاكهة والحلو والحامض ويؤكلان رطباً يابساً منافعهما كثيرة جداً .

(**وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ**) هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته وتعلق قلبه بها من وجوه :

أحدها : أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها .

الثاني : أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه .

الثالث : أن له ذرية فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته .

الرابع : أنهم ضعفاء فهم كل عليه لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم .

الخامس : أن نفقتهم عليه لضعفهم وعجزهم . [انتهى كلام ابن القيم]

وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة لخطرها في نفسها وشدة حاجته وذريته إليها ، فإذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة ، فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار وهي الريح التي تستدير في الأرض ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود ، وفيه نار مرت بتلك الجنة فأحرقتها وصيرتها رماداً ، فصدق - والله الحسن - هذا مثل قلّ من يعقله من الناس .

- **قال الماوردي :** (وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ) لأن الكِبَر قد يُنسِي من سعي الشباب في كسبه ، فكان أضعف أملاً وأعظم حسرة (وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ) لأنه على الضعفاء أحَنّ ، وإشفاقه عليهم أكثر .

وقد قيل : إن هذا المثل للمنفق المانّ بنفقته .

- **قال الرازي :** اعلم أن هذا مثل آخر ذكره الله تعالى في حق من يتبع إنفاقه بالمن والأذى ، والمعنى أن يكون للإنسان جنّة في غاية الحسن والنهاية ، كثيرة النفع ، وكان الإنسان في غاية العجز عن الكسب وفي غاية شدة الحاجة ، وكما أن الإنسان كذلك فله ذرية أيضاً في غاية الحاجة ، وفي غاية العجز، ولا شك أن كونه محتاجاً أو عاجزاً مظنة الشدة والمحنة، وتعلق جمع من المحتاجين العاجزين به زيادة محنة على محنة ، فإذا أصبح الإنسان وشاهد تلك الجنة محرقة بالكلية ، فانظر كم يكون في قلبه من الغم والحسرة ، والمحنة والبلية تارة بسبب أنه ضاع مثل ذلك المملوك الشريف النفيس ، وثانياً : بسبب أنه بقي في الحاجة والشدة مع العجز عن الاكتساب واليأس عن أن يدفع إليه أحد شيئاً ، وثالثاً : بسبب تعلق غيره به ، ومطالبتهم إياه بوجوه النفقة ، فكذلك من أنفق لأجل الله ، كان ذلك نظيراً للجنة المذكورة وهو يوم القيامة ، كذلك الشخص العاجز الذي يكون كل اعتماده في وجوه الانتفاع على تلك الجنة ، وأما إذا أعقب إنفاقه بالمن أو بالأذى كان ذلك كالإعصار الذي يحرق تلك الجنّة ، ويعقب الحسرة والحيرة والندامة فكذا هذا المال المؤذي إذا قدم يوم القيامة ، وكان في غاية الاحتياج إلى الانتفاع بثواب عمله ، لم يجد هناك شيئاً فيبقى لا محالة في أعظم غم ، وفي أكمل حسرة وحيرة ، وهذا المثل في غاية الحسن ، ونهاية الكمال .

• **قال ابن الجوزي :** وهذه الآية مثلٌ ضربه الله تعالى في الحَسْرةِ بسلب النعمة عند شدّة الحاجة . وفيمن قَصَدَ به ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عُمره ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه مثل للمفرط في طاعة الله تعالى حتى يموت ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه مثل للمرائي في النفقة ، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه ، قاله السدي .

(**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**) أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ) .

والتفكر : : إعمال الفكر فيما يراد .

قال ابن القيم : ولهذا نبه سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل وحدا القلوب إلى التفكر فيه لشدة حاجتها إليه فقال تعالى كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه ، فهكذا العبد إذا عمل بطاعة الله ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصي الله كانت كالإعصار ذي النار المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح ، ولولا أن هذه المواضع أهم مما كلامنا بصدده من ذكر مجرد الطبقات لم نذكرها ، ولكنها من أهم المهم والله المستعان الموفق لمرضاته ، فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره ، وتأمله كما ينبغي ، لما سولت له نفسه والله إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها ، ولكن لا بد أن يغيب عنه علمه عند المعصية ولهذا استحق اسم الجهل فكل من عصى الله فهو جاهل .

الفوائد :

١ - يجب على الإنسان أن يحرص على إخلاص نيته وأن يجاهد ويحاسب نفسه دائماً وأبداً .

٢ - الحذر من كل سبب يكون سبباً في انتكاسة القلب ورجوعه عن الحق .

٣ - على الإنسان أن يعرف أسباب الثبات على الدين وأن يحافظ عليها .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

[البقرة : ٢٦٧] .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ**) أي : أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه .

قال القرطبي : قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أَنْفِقُواْ) هذا خطاب لجميع أُمة محمد e .

واختلف العلماء في المعنى المراد بالإنفاق هنا :

فقيل : هي الزكاة المفروضة ، نهى الناس عن إنفاق الرّدىء فيها بدل الجيّد.

قال ابن عطية: والظاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أن الآية في التطوّع، ندبوا إلى ألاّ يتطوّعوا إلاّ بمختار جيّد . والآية تعم الوجهين ، لكن صاحب الزكاة تعلّق بأنها مأمور بها والأمر على الوجوب ، وبأنه نهى عن الرديء وذلك مخصوص بالفرض ، وأما التطوّع فكما للمرء أن يتطوع بالقليل فكذلك له أن يتطوّع بنازل في القدر ، ودرهمٌ خير من تمرة .

• **قال ابن الجوزي :** وفي المراد بهذه النفقة قولان :

أحدهما : أنها الصدقة المفروضة ، قاله عبيدة السلماني في آخرين .

والثاني : أنها التطوع .

- **قال الرازي :** اختلفوا في المراد بالطيب في هذه الآية على قولين :

القول الأول : أنه الجيد من المال دون الرديء ، فأطلق لفظ الطيب على الجيد على سبيل الاستعارة ، وعلى هذا التفسير فالمراد من الخبيث المذكور في هذه الآية الرديء.

والقول الثاني : وهو قول ابن مسعود ومجاهد : أن الطيب هو الحلال ، والخبيث هو الحرام .

حجة الأول وجوه :

الحجة الأولى : إنا ذكرنا في سبب النزول أنهم يتصدقون برديء أموالهم فنزلت الآية وذلك يدل على أن المراد من الطيب الجيد.

الحجة الثانية : أن المحرم لا يجوز أخذه لا بإغماض ولا بغير إغماض ، والآية تدل على أن الخبيث يجوز أخذه بالإغماض.

قال القفال رحمه الله : ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد من الإغماض المسامحة وترك الاستقصاء ، فيكون المعنى : ولستم بآخذيه وأنتم تعلمون أنه محرم إلا أن ترخصوا لأنفسكم أخذ الحرام ، ولا تبالوا من أي وجه أخذتم المال ، أمن حلاله أو من حرامه.

- **وقال ابن عاشور :** المراد بالطيّبات خيار الأموال ، فيطلق الطيّب على الأحسن في صنفه. والكَسب ما يناله المرء بسعيه كالتجارة والإجارة والغنيمة والصيد.

ويطلق الطيّب على المال المكتسب بوجه حلال لا يخالطه ظلم ولا غشّ ، وهو الطيّب عند الله كقول النبي e (من تصدق بصدقة من كسب طيّب ولا يقبل الله إلاّ طيّباً تلقّاها الرحمن بيمينه) الحديث .

وفي الحديث الآخر (إنّ الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً) .

(**وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ**) أي : ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار .

- ويشمل النبات والمعادن والركاز .

(**وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**) أي : ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتتصدقوا منه .

- **قال ابن الجوزي :** وفي الخبيث قولان :

أحدهما : أنه الرديء ، قاله الأكثرون ، وسبب الآية يدل عليه .

والثاني : أنه الحرام ، قاله ابن زيد .

(**وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ**) أي : لستم تقبلونه لو أعطيتموه .

(**إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**) أي : إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر .

- الإغماض أخذ الشيء على كراهة .

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ**) عن كل ما سواه ، غني في نفسه لكثرة ما عنده ، غني عن خلقه ، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض ، وخزائن السموات والأرض كلها بيده ، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ، فخزائنه عز وجل ملأ ، لا يغيضها كثرة الإنفاق ، وليس بحاجة إلى خلقه ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وكل شيء فقير إليه .

قال ابن القيم : هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه ، وليس به حاجة إلى أحد .

وقال السعدي : هو الغني بذاته ، الذي له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه ، والاعتبارات لكماله ، وكمال صفاته ، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه ، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً ، لأن غناه من لوازم ذاته ، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً

محسناً فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنىً عاماً .

قال : ومن كمال غناه : أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ، ولا ولياً من الذل .

وقال الخطابي : الغني : هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه ، فليست به حاجة إليهم ، وهم إليه فقراء محتاجون .

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : إفراد الله تعالى بالعبادة ، لأنه سبحانه هو الغني الغنى المطلق ، والغنى وصف له سبحانه ذاتي وما سواه من الخلائق مفتقر إليه ، فالأمر كله له والملك كله له ، وجميع الخلق مربوبون مملوكون ، فكيف يتخذ منهم معبوداً مع الله تعالى ؟

ثانياً : الافتقار التام إلى الله عز وجل ، لأن الفقر صفة ذاتية ملازمة للعبد في جميع أحيانه ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى ، ولا يستغني عن ربه سبحانه طرفة عين، لأنه سبحانه الغني ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد، وكل أحد محتاج إليه .

ثالثاً : أن هذا الاسم يثمر في قلب المؤمن الغنى القلبي كما في الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى القلب) وهذا يثمر الاستغناء بالله تعالى وحده عن الناس وعزة النفس ، والتعفف والزهد بما في أيدي الناس ، وعدم التذلل لهم وعدم التعلق بأعطياتهم وإعانتهم ، بل يجرد العبد تعلقه وقضاء حوائجه وطلب رزقه بالله الغني الحميد الكريم الوهاب الذي لا تفنى خزائنه .

رابعاً : أن الله غني عن عباده ، ومع ذلك فهو محسن إليهم ، رحيم بهم ، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته .

أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً :

- فغنى الله يتضمن شيئين : **الأول :** الغنى الذاتي ، لكثرة ما يملكه ، إذ كل شيء ملكه ، **والثاني :** الغني عن الغير ، فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه .

(**حَمِيدٌ**) اسم من أسماء الله ، قال ابن جرير : أي محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه ، وبسط لهم من فضله .

وقال الخطابي : الحميد : هو المحمود الذي استحق الحمد بأفعاله .

وقال ابن كثير : أي : المحمود في جميع أفعاله وأقواله وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : الصحيح أنها بمعنى المحمود والحامد ، فالله سبحانه حامدٌ من يستحق الحمد ، وما أكثر الثناء على من يستحقون الثناء في كتاب الله ، وهو كذلك محمود على كمال صفاته ، وتمام إنعامه .

- وغنى الله مقرون بحمده ولهذا قال (الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فهو غني يحمد على غناه ، لأنه يجود به على غيره .

فالله ذو الغنى الواسع . كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

وقال تعالى (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

الفوائد :

١ - فضيلة الإيمان .

٢ - الحث على الإنفاق من طيبات ما كسبنا .

٣ - فضل الكرم والإنفاق .

٤ - ذم البخل .

٥ -وجوب الزكاة في عروض التجارة .

٦ - الحذر من أكل الحرام .

٧ -وجوب الزكاة من الخارج من الأرض .

٨ - تحريم قصد الرديء في إخراج الزكاة .

٩ - أنه غني عن عباده وعن صدقاتهم .

١٠ - أن من أراد الغنى فليطلبه مما يملكه وهو الله .

١١ - إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغني ، الحميد .

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢٦٨] .

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) أي : يخوفكم الفقر ، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله .

يقول : إنك إن أنفقت افتقرت ، ووراءك ذرية ، إلى غير ذلك ممن يفعله ويخوف به الإنسان .

(وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) أي : مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق .

وقد قيل إن المراد بالفحشاء هنا البخل ، بل نقل بعضهم الإجماع على ذلك .

والفحشاء تطلق على ما فحش من المعاصي كالزنا واللواط ونكاح المحارم .

قال تعالى (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) يراد بالفاحشة هنا الزنا .

وقال تعالى (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) المراد بها هنا اللواط .

وقال تعالى (وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً) .

- **قال ابن القيم :** هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني ، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل والداعي إلى البذل والإنفاق وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل وما يدعو إليه داعي الإنفاق وبيان ما يدعو به داعي الأمرين فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان ، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم ، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق ، فإنه يهم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه داعياً يقول له متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه وافتقرت إليه بعد إخراجه وإمساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه ، فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل ، فهذا وعده وهذا أمره وهو الكاذب في وعده الغار الفاجر في أمره، فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون ، فإنه يدلي من يدعوه بغروره ثم يورده شر .

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه ولا محبة في بقائه غنياً بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته ، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه ، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه ، فيستوجب منه الحرمان ، وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه وفضلاً بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه ، إما في الدنيا أو في الدنيا والآخرة ، فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان فلينظر البخيل والمنفق أي الوعدين هو أوثق وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه والله يوفق من يشاء ويخذل من يشاء وهو الواسع العليم .

- روى الترمذِيّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله e (إن للشيطان لَمّةً بابن آدم وللمَلك لَمَّةً، فأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشّر وتكذيبٌ بالحق، وأما لَمّة المَلَك؛ فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومَن وجد الأُخرى فليتعوّذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاء) قال: هذا حديث حسن صحيح.
- الشيطان يخوف بالفقر لأمور :

أولاً : ليمنعه من التصدق حتى لا ينال الاجر في ذلك .

ثانياً : ليسيء الظن بربه ، فالله تعالى يقول (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِين) .

ثالثاً : ليبخل ، وهي من أقبح الصفات .

رابعاً : ليصاب بالقلق والخوف (ليحزن الذين آمنوا ...) فان من يخشى الفقر يعيش في هم وقلق وخوف وغم .

خامساً : أنه إذا خاف الفقر وقع في الحرام .

سادساً : ينشغل بجمع المال عن الطاعات والأعمال الصالحات .

قال الثوري : ليس للشيطان سلاح على الإنسان مثل خوف الفقر ، فإنه إذا وقع في قلبه الفقر منع الحق ، وتكلم بالهوى ، وظن بربه ظن السوء .

قال بعض السلف : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء :

مؤمن قتل مؤمناً ، ورجل يموت على الكفر ، وقلب فيه خوف الفقر .

(**وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ**) إن تصدقتم وأنفقتم .

(**مَغْفِرَةً مِنْهُ**) في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء .

(**وَفَضْلاً**) أي : في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ، كما قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) والنبي e قال (ما نقصت صدقة من مال) .

قال ابن عباس : في هذه الآية اثنتان من الله تعالى واثنتان من الشيطان.

(**وَاللَّهُ وَاسِعٌ**) الفضل والعطاء .

(**عَلِيمٌ**) بمن يستحق الثناء .

الفوائد :

١ -إثبات إغواء الشيطان لبني آدم .

٢ -أن للشيطان تأثيراً على بني آدم إقداماً أو إحجاماً .

٣ -عداوة الشيطان للإنسان .

٤ -ذم البخل وأنه من الفواحش .

٥ -أن من أمر شخصاً بالإمساك عن الإنفاق المشروع فهو شبيه بالشيطان .

٦ - البشرى للمنفق .

٧ -ينبغي على المنفق أن يتفاءل بما وعد الله .

٨ -إثبات اسمين من أسماء الله وهما : واسع ، وعليم .

(**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**) .
[البقرة : ٢٦٩] .

(**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ**) اختلف في معنى الحكمة :
فقيل : الحكمة: النبوة ، وقيل : القرآن والفقه به: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله .

وقيل: الإصابة في القول والفعل .

وقيل: معرفة الحق والعمل به .

وقيل : العلم النافع والعمل الصالح .

وقيل : الخشية للّه .

وقيل : السنة ، وقيل : الورع في دين اللّه .

وقيل : العلم والعمل به، ولا يسمى الرجل حكيماً إلا إذا جمع بينهما .

وقيل : وضع كل شيء في موضعه. وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة .

وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب اللّه حكمة، وسنة نبيه e حكمة، وكل ما ذكر من التفصيل فهو حكمة. وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه ، فقيل للعلم حكمة؛ لأنه يمتنع به من السفه، وبه يعلم الامتناع من السفه الذي هو كلُّ فعلٍ قبيح .

وعند التأمل والنظر نجد أن التعريف الشامل الذي يجمع ويضم جميع هذا الأقوال في تعريف الحكمة هو : الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه .

(**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**) لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى ، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال إلى إصابة الصواب فيها ، وحصول السداد ، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم ، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع في دينهم ودنياهم .

وجميع الأشياء لا تصلح إلا بالحكمة ، التي هي وضع الأشياء في مواضعها ، وتنزيل الأمور منازلها ، والإقدام في محل الإقدام ، والإحجام في موضع الإحجام . (تفسير السعدي) .

- في هذه الآية فضل الحكمة : ومن فضائلها :

أولاً : حيث امتن الله على لقمان بالحكمة .

قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ) .

ومن حكمه :

- لا تضحك من غير عجب ، ولا تسأل عما لا يعنيك .
- زاحم العلماء بركبتيك ، وأنصت لهم بأذنيك .
- اثنتان لا تذكرهما أبداً : إساءة الناس إليك ، وإحسانك للناس .
- من صبر على مون الناس سادهم .

o لا تكن حلواً فتبلع ، ولا مراً فتلفظ .

o إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

ثانياً : أن الله أمر بالحكمة .

قال تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ) .

ثالثاً : أن الله أثنى على صاحب الحكمة .

قال تعالى (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا) .

وامتن على لقمان حيث آتاه الحكمة : (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) .

رابعاً : أن الله نسب الحكمة إلى نفسه ، وجعل إيتاءها من عنده .

فقال تعالى (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ) .

رابعاً : أن اسم (الحكيم) اسم من أسماء الله تعالى .

خامساً : أن من أعطي الحكمة فإنه يغبط .

كما قال e (لا حسد إلا في اثنتين : ... ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) .

- **وللحكمة أركان :**

أولاً : العلم .

فالعلم من أعظم أركان الحكمة ، ولهذا أمر الله به ، وأوجبه قبل القول والعمل ، فقال تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) .

ثانياً : وهو ضبط النفس عند هيجان الغضب .

وقد قال e للأشج : (إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة) . رواه مسلم

ثالثاً : الأناة ، وهي التثبت وعدم العجلة .

قال السعدي : وهذان الأمران ، وهما بذل النفقات المالية ، وبذل الحكمة العلمية ، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله ، وأعلى ما وصلوا به إلى أجلّ الكرامات ، وهما اللذان ذكرهما النبي e بقوله : لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس .

(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) أي : وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام .

الفوائد :

١- أن العلم والحكمة فضل من الله .

٢- إثبات المشيئة لله .

٣- أن مشيئة الله تابعة للحكمة ، فالله أعلم حيث يضع العلم والحكمة .

٤- الفخر الكبير لمن آتاه الله الحكمة .

٥- وجوب الشكر على من آتاه الله الحكمة .

٦- منّة الله على من يشاء من عباده بإيتائه الحكمة .

٧- فضيلة العقل .

٨- أن عدم التذكر نقص في العقل .

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) .
[البقرة : ٢٧١] .

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ) يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعالمين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته ، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره .

- **قال الرازي :** في قوله (فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ) على اختصاره ، يفيد الوعد العظيم للمطيعين ، والوعيد الشديد للمتمردين ، وبيانه من وجوه :

أحدها : أنه تعالى عالم بما في قلب المتصدق من نية الإخلاص والعبودية أو من نيّة الرياء والسمعة .

وثانيها : أن علمه بكيفية نية المتصدق يوجب قبول تلك الطاعات ، كما قال (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتقين) وقوله (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) .

وثالثها : أنه تعالى يعلم القدر المستحق من الثواب والعقاب على تلك الدواعي والنيات فلا يهمل شيئاً منها ، ولا يشتبه عليه شيء منها.

- **وقال ابن الجوزي :** (فإن الله يعلمه) قال مجاهد : يُحصيه ، وقال الزجاج : يجازى عليه .

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) أي : يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) أي : إن أظهرتموها فنِعم شيء هي .

قال السعدي : (إن تبدوا الصدقات) فتظهروها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله (فنعما هي) أي : فنعم الشيء (هي) لحصول المقصود بها .

- **قال ابن القيم :** قوله تعالى (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) أي فنعم شيء هي ، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاء فتفوت أو تعترضه الموانع ويحال بينه وبين قلبه أو بينه وبين إخراجها فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر وهذه كانت حال الصحابة .

(وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) أي : وإن تسروها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأنه أبعد عن الرياء .

- **قال ابن الجوزي :** وإنما فضلت صدقة السر لمعنيين :

أحدهما : يرجع إلى المعطي وهو بُعْدُه عن الرياء ، وقربه من الإخلاص ، والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية .

والثاني : يرجع إلى المعطَى ، وهو دفع الذل عنه بإخفاء الحال ، لأن في العلانية ينكر .

ثم قال : واتفق العلماء على إخفاء الصدقة النافلة أفضل من إظهارها .

قال السعدي : ... وإن أخفاها وسلمها للفقير كان أفضل ، لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر ، وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص ، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله (من تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

- **قال ابن كثير :** فيه دلالة على إن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها ، لأنه أبعد عن الرياء ، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة ، من اقتداء الناس به ، فيكون أفضل من هذه الحيثية .

فالأصل أن الإسرار أفضل ، لهذه الآية ، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله e (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

وجاء في الحديث (صدقة السر تطفئ غضب الرب) .

- **قال القرطبي** :قوله تعالى (فَنِعِمَّا هِيَ) ثناء على إبداء الصدقة ، ثم حكم على أن الإخفاء خير من ذلك.

ولذلك قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطُنع إليك فانشره.

وقال العباس بن عبد المطلب t : لا يتمّ المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيلُه وتصغيرُه وسترُهُ؛ فإذا أعجلته هنيّته، وإذا صغّرته عظّمته ، وإذا سترته أتْمَمْته.

وقال بعض الشعراء فأحسن :

زاد معروفُك عندي عِظَماً . . .أنه عندك مستورٌ حقِيرْ

تَتَناساه كأَنْ لَمْ تأتِه . . .وهو عند الناس مشهور خطِيرْ

- **وقال رحمه الله** : ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوّع ؛ لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار ، وكذلك سائر العبادات الإخفاءُ أفضل في تطوّعها لانتفاء الرياء عنها .

قال ابن عباس : جعل الله صدقة السر في التطوّع تفضُل علانيتها يقال بسبعين ضِعفاً ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سِرِّها يقال بخمسة وعشرين ضِعفاً.

قال : وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

قلت : مثل هذا لا يقال من جهة الرأي وإنما هو توقيف ؛ وفي صحيح مسلم عن النبيّ e أنه قال (أفضل صلاة المرءِ في بيته إلا المكتوبة) وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء والنوافل عُرضة لذلك ، وروى النَّسائيّ عن عُقبة بن عامر أن رسول الله e قال (إن الذي يجهر بالقرآن كالذي يجهر بالصدقة والذي يُسِرّ بالقرآن كالذي يُسِرّ بالصدقة وفي الحديث : صدقة السرّ تُطْفِىء غضب الرب) .

- **قال ابن القيم** : وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة ولم يقل : وإن تخفوها فهو خير لكم ، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر أو غير ذلك، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه ، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى وأنه لا شيء له فيزهدون في معاملته ومعاوضته ، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الإخلاص وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس ، وكان إخفاؤها للفقير خيراً من إظهارها بين الناس ، ومن هذا مدح النبي e صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة ولهذا جعله سبحانه خيرا للمنفق وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم فإنه بما تعملون خبير .

(**وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ**) أي : ويستر عنكم سيئاتكم وذنوبكم ويمحوها ويتجاوز عنها .

- قوله تعالى (وَيُكَفِّرُ) يستر ، مأخوذة من (الكَفْر) بفتح الكاف وسكون الفاء ، وهو الستر ، ومنه سميت الكفارة ، لأنها تستر الذنب ، وسمي الزارع كافراً لأنه يستر الحب في الأرض ، وسمي الليل كافراً لأنه يستر الكون بظلامه ، وسمي الشخص الكافر لأنه ستر نعمة الله عليه .
- قوله تعالى (سَيِّئَاتِكُمْ) جمع سيئة ، سميت بذلك لأنها سيئة بنفسها وقبيحة .

ولأنها أيضاً تسوء مرتكبها حالاً ومآلاً ، وربما تسوء غيره بأن يتعدى ضررها إلى الغير مباشرة ، أو بأن يكون لها أثرها السيء على البلاد والعباد عامة بمحق البركات وقلة الخيرات ، كما قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقال e (ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء) . رواه ابن ماجه

- والسيئات في الأصل تطلق على الكبائر والصغائر كما هنا ، قد يراد بها الصغائر إذا قرنت مع الكبائر كما في قوله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً) .

(**واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**) لا يخفى عليه من ذلك شيء ، وسيجزيكم عليه سبحانه وتعالى .

قال الرازي: إشارة إلى تفضيل صدقة السر على العلانية، والمعنى أن الله عالم بالسر والعلانية وأنتم إنما تريدون بالصدقة طلب مرضاته، فقد حصل مقصودكم في السر، فما معنى الإبداء ، فكأنهم ندبوا بهذا الكلام إلى الإخفاء ليكون أبعد من الرياء .

الفوائد :

١ - أن الإنفاق قليله وكثيره يثاب عليه المرء .

٢ - أنه ينبغي للإنسان إذا أنفق نفقة أن يحتسب الأجر على الله .

٣ - استدل بالآية من قال بجواز النذر .

٤ - عموم علم الله بكل ما ينفقه الإنسان .

٥ - تحريم الظلم .

٦ - أن الله لا ينصر الظالم .

٧ - أن إخفاء الصدقة أفضل من إعلانها .

٨ - تفاضل الأعمال .

٩ - أن الصدقة سبب لتكفير السيئات .

١٠ - بيان آثار الذنوب ، وأنها تسوء العبد .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) .

[البقرة : ٢٧٢] .

(**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**) أي : ليس عليك يا محمد أن تهدي الناس ، فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد ، وإنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب ، والمراد بالهدى المنفي هنا هو هدى التوفيق ، وأما هدى البيان فهو على الرسول e .

عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) رواه النسائي .

والمعنى : أنهم كانوا لا يتصدقون على قراباتهم من المشركين طمعاً في إسلامهم ، فبين الله عز وجل أن إعطاءهم أو عدم إعطائهم لا يؤثر في هدايتهم ، إنما الذي يهدي هو الله سبحانه تعالى .

- **قال القرطبي :** قال علماؤنا : هذه الصدقة التي أُبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوّع ، وأما المفروضة فلا يُجزىء دفعها لكافر ، لقوله u (أُمرتُ أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها في فقرائكم) .

- **قال ابن المُنْذِر** : أجمع كل من أحفظُ عنه من أهل العلم أن الذّميّ لا يُعْطَى من زكاة الأموال شيئاً ؛ ثم ذكر جماعةً ممن نصّ على ذلك ولم يذكر خلافاً.

(**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**) فضلاً منه ونعمة حسب ما تقتضيه حكمة الله تعالى .

(**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ**) قليل أو كثير فهو :

(**فَلِأَنْفُسِكُمْ**) لا ينتفع به غيركم ، فإن كان طيباً فلأنفسكم ، وإن كان خبيثاً فأجره لكم ، وإن مننتم به أو آذيتم فقد ظلمتم أنفسكم ، وإن أخلصتم فيه فلأنفسكم .

قال أبو السعود : أي فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيرُكم ، فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ولا تنفقوا من الخبيث ، أو فنفعُه الدينيّ لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيث الدينُ من فقراء المشركين .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِه) .

وقال تعالى (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

- **قال القرطبي** : وحُكي أن بعض العلماء كان يصنع كثيراً من المعروف ثم يحلف أنه ما فعل مع أحد خيراً ، فقيل له في ذلك فيقول : إنما فعلت مع نفسي ؛ ويتلو (وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ) .

(**وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ**) قيل في معناها أقوال :

الأول : أن يكون المعنى : ولستم في صدقتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله ، فقد علم الله هذا من قلوبكم ، فأنفقوا عليهم إذا كنتم إنما تبتغون بذلك وجه الله في صلة رحم وسد خلة مضطر ؛ وليس عليكم اهتداؤهم حتى يمنعكم ذلك من الإنفاق عليهم .

قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن -إذا أنفق -إلا ابتغاء وجه الله .

وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عملُه ،وهذا معنى حسن ، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجرُه على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: أبَر أو فاجر أو مستحق أو غيرهُ، هو مثاب على قصده .

والحديث المخرج في الصحيحين : عن أبي هريرة قال: قال رسول الله e (قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصُدقَ على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدق الليلة على غَني! فقال: اللهم لك الحمد على غني، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت؛ وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته) .

الثاني : أن هذا وإن كان ظاهره خبراً إلا أن معناه نهي ، أي ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ، وورد الخبر بمعنى الأمر والنهي كثيراً قال تعالى (والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن) (والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ) .

الثالث : أن قوله (وَمَا تُنفِقُونَ) أي ولا تكونوا منفقين مستحقين لهذا الاسم الذي يفيد المدح حتى تبتغوا بذلك وجه الله .

(ذكر هذه الأقوال الرازي رحمه الله) .

وقيل : إنه شهادة من الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم أنهم إنما ينفقون ابتغاءَ وجهه ؛ فهذا خرج مخرج التفضيل والثناء عليهم . (ذكره القرطبي) .

(**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ**) أي : وما تنفقون من الخيرات والصدقات فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئاً من حسناتكم .

الفوائد :

١ - أن هداية الخلق لا تلزم الرسل .

٢ - أن الهداية بيد الله .

٣ - أن مهمة الرسل وأتباعهم البيان والتبليغ .

٤ - إثبات أن جميع الأمور دقيقها وجليلها بيد الله .

٥ -أن هداية الخلق بمشيئة الله ، ولكنها لحكمة .

٦ - أن المستفيد من العمل الإنسان نفسه .

٧ - ينبغي على الإنسان الاجتهاد بالعمل الصالح لأنه هو المستفيد .

٨ -أن الإنفاق المتقبل ما ابتغي به وجه الله .

٩ - أن الإنسان لا يظلم شيئاً .

١٠ - نفي الظلم عن الله لكمال عدله .

(**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**) .

[البقرة : ٢٧٣] .

(**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم .

- **قال القرطبي :** وإنما خصّ فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصُّفّة وكانوا نحواً من أربعمائة رجل ، وذلك أنهم كانوا يَقْدَمون فقراء على رسول الله e ، وما لهم أهل ولا مال فبُنيت لهم صُفَّة في مسجد رسول الله e ، فقيل لهم : أهل الصُّفَّة.

قال أبو ذَرّ : كنت من أهل الصّفة وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله e فيأمر كلَّ رجل فينصرف برجل ويبقى مَن بقي من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤتَى النبيّ e بعشائه ونتعشّى معه.

- قال الرازي : قوله تعالى (... في سبيل الله) فبيّن تعالى في هؤلاء الفقراء أنهم بهذه الصفة ، ومن هذا حاله يكون وضع الصدقة فيهم يفيد وجوهاً :

أحدها : إزالة عيلتهم

والثاني : تقوية قلبهم لما انتصبوا إليه .

وثالثها : تقوية الإسلام بتقوية المجاهدين .

ورابعها : أنهم كانوا محتاجين جداً مع أنهم كانوا لا يظهرون حاجتهم ، على ما قال تعالى (لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِ الأرض يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَاءِ مِنَ التعفف) .

(**لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْض**) يعني: سفرًا للتسبب في طلب المعاش .

- والضرب في الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ) .

وقال تعالى (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه) .

(**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**) أي: الجاهلُ بأمْرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم.

- **قال الرازي** : الحسبان هو الظن ، وقوله (الجاهل) لم يرد به الجهل الذي هو ضد العقل ، وإنما أراد الجهل الذي هو ضد الاختبار ، يقول : يحسبهم من لم يختبر أمرهم أغنياء من التعفف ، وهو تفعل من العفة ومعنى العفة في اللغة ترك الشيء والكف عنه وأراد من التعفف عن السؤال فتركه للعلم ، وإنما يحسبهم أغنياء لإظهارهم التجمل وتركهم المسألة .

وقال القرطبى : قوله تعالى (يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف) أي أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء .

وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله e (ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدقَ عليه، ولا يسأل الناس شيئاً) .

(**تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ**) أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم كما قال تعالى (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ) ، وقال (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) وفي الحديث الذي في السنن (اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) .

(**لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً**) أي: لا يُلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف في المسألة .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله e (ليس المسكينُ الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفَّفُ؛ اقرؤوا إن شئتم -يعني قوله- (لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) .

- وقد يفهم من مفهوم (لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) أنهم يسألون من غير إلحاف ، لكن ليس هذا مراد لقوله في أول الآية (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) ولأن الشيء قد يرد نفيه مقيداً والمراد نفيه أصلاً وذلك أبلغ في النفي ، أي : لا يسألون الناس أصلاً لا بإلحاف ولا بغير إلحاف ، (فمفهوم المخالفة هنا غير مراد) .
- **فَإِنْ قِيلَ** : فَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافًا) فَنَفَى عَنْهُمْ الْإِلْحَافَ فِي الْمَسْأَلَةِ وَلَمْ يَنْفِ عَنْهُمُ الْمَسْأَلَةَ رَأْسًا ؟ قِيلَ لَهُ : فِي فَحْوَى الْآيَةِ وَمَضْمُونِ الْمُخَاطَبَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْمَسْأَلَةِ رَأْسًا ، وَهُوَ قَوْله تَعَالَى (يَحْسَبُهُمْ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ) فَلَوْ كَانُوا أَظْهَرُوا الْمَسْأَلَةَ ثُمَّ إنْ لَمْ تَكُنْ إلْحَافًا لَمَا حَسِبَهُمْ أَحَدٌ أَغْنِيَاءَ ، وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى (مِنْ التَّعَفُّفِ) لِأَنَّ التَّعَفُّفَ هُوَ الْقَنَاعَةُ وَتَرْكُ الْمَسْأَلَةِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى وَصْفِهِمْ بِتَرْكِ الْمَسْأَلَةِ أَصْلًا.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّعَفُّفَ هُوَ تَرْكُ الْمَسْأَلَةِ قَوْلُ النَّبِيِّ e (مَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ) .

قال بعض العلماء : المعنى أنهم سألوا بتلطف ولم يلحوا ، وهو اختيار صاحب " الكشاف" وهو ضعيف ، لأن الله تعالى وصفهم بالتعفف عن السؤال قبل ذلك فقال (يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَاء مِنَ التعفف) وذلك ينافي صدور السؤال عنهم .

- **قال الجصاص** : قَوْله تَعَالَى (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافًا) يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : إلْحَاحًا وَإِدَامَةً لِلْمَسْأَلَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِلْحَافَ فِي الْمَسْأَلَةِ هُوَ الِاسْتِقْصَاءُ فِيهَا وَإِدَامَتُهَا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَرَاهَةِ الْإِلْحَافِ فِي الْمَسْأَلَةِ.

(**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**) أي: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أحوج ما يكونون إليه.

قال الثعالبي : ينبغى للفقيرِ أنْ يتعفّف في فَقْره ، ويكتفي بعلْمِ ربِّه ، قال الشيخُ ابن أبي جَمْرة : وقد قال أهْلُ التوفيق : مَنْ لَمْ يَرْضَ باليسيرِ ، فهو أسير .

الفوائد :

١ - أنه لا يجوز إعطاء من يستطيع على التكسب .

٢ -فضيلة التعفف .

٣ -ذم الإلحاح في المسألة .

٤ -الإشارة إلى الفراسة .

٥ -الثناء على من لا يسأل الناس .

٦ - عموم علم الله تعالى .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

[البقرة : ٢٧٤] .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا .

كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله e قال لسعد بن أبي وقاص -حين عاده مريضًا عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع- (وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل في في امرأتك) .

وعن أبي مسعود، t ، عن النبي e أنه قال (إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة) . متفق عليه

(فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم) أي: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات .

(وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) فيما يستقبل .

(وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) أي : فيما مضى .

الفوائد :

١ - الثناء على الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلاً أو نهاراً ، سراً أو جهراً .

٢ -أن الإنفاق يكون سبباً لشرح الصدور .

٣ - كمال الأمن لمن أنفق في سبيل الله .

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) .

[البقرة : ٢٧٥ – ٢٧٦] .

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا) أي : يأخذونه وينتفعون به بأي وجه من أوجه الانتفاع من أكل أو شرب أو لباس أو سكن أو مركب أو غير ذلك .

- وخص الأكل لأنه معظم الأمر ، كما قال (الذين يَأْكُلونَ أموال اليتامى ظُلْماً) وكما لا يجوز أكل مال اليتيم لا يجوز إتلافه ، ولكنه نبّه بالأكل على ما سواه وكذلك قوله (وَلاَ تَأْكُلواْ أموالكم بَيْنَكُم بالباطل) .
- **قال ابن الجوزي :** وهذا الوعيد يشمل الآكل والعامل به ، وإنما خص الآكل بالذكر ، لأنه معظم المقصود .

(لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قياماً منكرًا.

قال ابن عباس: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخْنَق. رواه ابن أبي حاتم .

روى الإمام الطبري -رحمه الله- عن سعيد بن جبير –رحمه الله- في تفسير هذه الآية قوله : بعث آكل الربا يوم القيامة مجنوناً يخنق .

ونقل عن قتادة قوله : وتلك علامة أهل الربا يوم القيامة، بعثوا وبهم خبل من الشيطان .

- وذكره سبحانه لحالهم هذا وأنهم كما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين، عوقبوا في البرزخ والقيامة ، بأنهم لا يقومون من قبورهم، أو يوم بعثهم ونشورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من الجنون والصرع يدل على الترهيب من هذا العمل الذي يكون مصير فاعله في الآخرة هذا الحال.
- **قال الرازي :** التخبط معناه الضرب على غير استواء ، ويقال للرجل الذي يتصرف في أمر ولا يهتدي فيه : إنه يخبط خبط عشواء .
- هذه الآية من أقوى الأدلة على تحريم الربا .

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلوا الِّربَا أَضْعَافاً مَضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُون) .

وقال النبي e (اجتنبوا السبع الموبقآت وذكر منها :... أكل الربا ..) متفق عليه .

وقال e (لعن الله آكل الربآ وموكله)رواه مسلم والترمذي وزاد (وشآهديه وكاتبه) وإسناده صحيح .

وقال e (آكل الربا وموكله وكاتبه إذا علموا ذلك ملعونونَ على لسان محمد e يوم القيامة) .

وقال e (ما أكثر أحد من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة) رواه أحمد .

قال ابن كثير : وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود .

وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ t قَالَ قَالَ النَّبِيُّ e (رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِى ، فَأَخْرَجَانِى إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ ، وَعَلَى وَسَطِ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِى فِى النَّهَرِ فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِى فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِى فِيهِ بِحَجَرٍ ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ ، فَقُلْتُ مَا هَذَا فَقَالَ الَّذِى رَأَيْتَهُ فِى النَّهَرِ آكِلُ الرِّبَا) .

وعن أَبِى جُحَيْفَةَ قَالَ (نَهَى النَّبِيُّ r عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ ، وَثَمَنِ الدَّمِ، وَنَهَى عَنِ الْوَاشِمَةِ وَالْمَوْشُومَةِ، وَآكِلِ الرِّبَا، وَمُوكِلِهِ، وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِ) رواه البخاري .

- **قال الشنقيطي :** واعلم أن الله صرح بتحريم الربا بقوله (وَحَرَّمَ الربا) وصرح بأن المتعامل بالربا محارب الله بقوله (ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ

أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ) ، وصرح بأن آكل الربا لا يقوم أي : من قبره يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس بقوله (الذين يَأْكُلُونَ الربا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان مِنَ المس ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قالوا إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا) والأحاديث في ذلك كثيرة جداً.

(**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا**) أي: إنما جُوزُوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياسًا منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) أي: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي: هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا!

- **قال القرطبي :** قوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قالوا إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا) معناه عند جميع المتأوّلين في الكفار ، ولهم قيل (فَلَهُ مَا سَلَفَ) ولا يقال ذلك لمؤمن عاص بل ينقض بيعه ويرد فعله وإن كان جاهلاً ؛ فلذلك قال e : مَن عمل عَملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ " لكن قد يأخذ العصاة في الربا بطرف من وعيد هذه الآية.

(**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا**) أي : وأحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع ، وحرم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع .

- **قال الرازي :** يحتمل أن يكون هذا الكلام من تمام كلام الكفار ، والمعنى أنهم قالوا : البيع مثل الربا ، ثم إنكم تقولون (وَأَحَلَّ الله البيع وَحَرَّمَ الربا) فكيف يعقل هذا ؟ يعني أنهما لما كانا متماثلين فلو حل أحدهما وحرم الآخر لكان ذلك إيقاعاً للتفرقة بين المثلين ، وذلك غير لائق بحكمة الحكيم فقوله (أَحَلَّ الله البيع وَحَرَّمَ الربا) ذكره الكفار على سبيل الاستبعاد .

وأما أكثر المفسرين فقد اتفقوا على أن كلام الكفار انقطع عند قوله (إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا) وأما قوله (وَأَحَلَّ الله البيع وَحَرَّمَ الربا) فهو كلام الله تعالى ونصه على هذا الفرق ذكره إبطالاً لقول الكفار إنما البيع مثل الربا .

(**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ**) أي: من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه ، فله ما سلف من المعاملة، لقوله (عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ) وكما قال النبي e وكل ربًا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول ربا أضع ربا العباس ، ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية، بل عفا عما سلف .

- **قال الشيخ الشنقيطي :**قوله تعالى (فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فانتهى فَلَهُ مَا سَلَفَ) معنى هذه الآية الكريمة أن من جاءه موعظة من ربه يزجره بها عن أكل الربا فانتهى أي : ترك المعاملة بالربا. خوفاً من الله تعالى وامتثالاً لأمره (فَلَهُ مَا سَلَفَ) أي : ما مضى قبل نزول التحريم من أموال الربا ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الله لا يؤاخذ الإنسان بفعل أمر إلا بعد أن يحرمه عليه ، وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة فقد قال في الذين كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون مال الميسر قبل نزول التحريم (لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا) الآية.

قال في الذين كانوا يتزوجون أزواج آبائهم قبل التحريم (وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ) أي : لكن ما سلف قبل التحريم فلا جناح عليكم فيه ونظيره قوله تعالى (وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ) وقال في الصيد قبل التحريم (عَفَا الله عَمَّا سَلَف) الآية

وقال في الصلاة إلى بيت المقدس قبل نسخ استقباله (وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل النسخ.

ومن أصرح الأدلة في هذا المعنى أن النَّبي e والمسلمين لما استغفروا لقربائهم الموتى من المشركين وأنزل الله تعالى (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم).

وندموا على استغفارهم للمشركين أنزل الله في ذلك وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) .

فصرح بأنه لا يضلهم بفعل أمر إلا بعد بيان اتقائه.

(**وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ**) أي : أمره موكول إلى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه .

(**وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) أي : ومن عاد إلى التعامل بالربا بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم .

- **قال أبو حيان :** فإن كانت في الكفار فالخلود خلود تأبيد ، أو في مسلم عاص فخلوده دوام مكثه لا التأبيد .
- **وقال ابن عاشور :** وجُعل العائد خالداً في النار إما لأنّ المراد العود إلى قوله (إنما البيع مثل الربا) ، أي عاد إلى استحلال الربا وذلك نِفاق ؛ فإنّ كثيراً منهم قد شقّ عليهم ترك التعامل بالربا ، فعلم الله منهم ذلك وجعَل عدم إقلاعهم عنه أمارة على كذب إيمانهم ، فالخلود على حقيقته.

وإما لأنّ المراد العود إلى المعاملة بالربا ، وهو الظاهر من مقابلته بقوله (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى) والخلود طول المكث كقول لبيد :

فوقفْتُ أسألُها وكيفَ سؤالُنا صُمّاً خَوَالِدَ ما يَبِين كلامُها.

ومنه : خلَّد الله مُلك فلان.

ولما كان المرغب في الربا ما فيه من الربح الناجز المشاهد ، والمفتر عن الصدقة كونها نقصاً محققاً بالحس بيّن أن الربا وإن كان بصورة الزيادة فهو نقص وأن الصدقة وإن كانت بصورة النقص فهي زيادة لأن ذلك إنما هو بيده سبحانه وتعالى فما شاء محقه وإن كان كثيراً أو ما أراد نماه وإن كان يسيراً فقال كالتعليل للأمر بالصدقة والنهي عن الربا ولكون فاعله من أهل النار:

(**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا**) أي : يذهبه ، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه ، أو يُحْرَمَ بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة . (المحق نقصان الشيء حالاً بعد حال) .

كما قال تعالى (وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ) .

وقال تعالى (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ) .

- **قال السمرقندي :** يقال : إن مال آكل الربا لا يخلو من أحد أوجه ثلاثة ، إما أن يذهب عنه أو عن ولده ، أو ينفقه فيما لا يصلح.

(**وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**) أي : ويكثرها وينميها .

- **قال القرطبي :** (وَيُرْبِي الصدقات) أي يُنَمِّيها في الدنيا بالبركة ويُكثر ثوابَها بالتضعيف في الآخرة.
- **قال ابن عطية :** وقد جعل الله هذين الفعلين بعكس ما يظنه الحريص الجشع من بني آدم ، يظن الربا يغنيه وهو في الحقيقة ممحق ، ويظن الصدقة تفقره وهي نماء في الدنيا والآخرة .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ e (مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ - إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ) متفق عليه .

(**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**) أي : لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل .

قال ابن كثير : ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل.

الفوائد :

١ - تحريم الربا .

٢ - عظم جرم آكل الربا .

٣ - إثبات مس الجن وصرعهم للإنس .

٤ - جرأة أكلة الربا على الاعتراض على حكم الله الشرعي .

٥ - إثبات الفرق الشاسع بين البيع والربا .

٦ - أن من انتهى من الربا وتاب منه بعد أن بلغه النهي عنه فله ما أخذ قبل ذلك .

٧ - الوعيد الشديد لمن عاد إلى أكل الربا بعد أن بلغته الموعظة .

١ - محق الربا إما حساً وإما معنى .

٢ - التحذير من الربا .

٣ -أن الله يربي الصدقات ويزيدها .

٤ - إثبات المحبة لله .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

[البقرة : ٢٧٧] .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) بقلوبهم .

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وعملوا الأعمال الصالحات، من الأفعال والأقوال، الواجبات والمستحباب ، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة .

- والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين : الشرط الأول : الإخلاص ، لقوله e (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرى ما نوى) ، الشرط الثاني : المتابعة للنبي e لقوله e (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

ودائماً يقرن الله العمل بالصالح ، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ....) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) .

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات ، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي ، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وبكل ما يجب الإيمان به .

- **قال السعدي :** ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

(**وَأَقَامُوا الصَّلاةَ**) أي : وأقاموا الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها .

- **قال الشيخ السعدي :** عند قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون الصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة ، فإقام الصلاة ، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها ، وإقامتها باطناً بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها .
- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة ، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) .
- إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها ، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع ، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها ، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض : وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر .

(**وَآتَوُا الزَّكَاةَ**) أي : وأعطوا الزكاة الواجبة عليكم لمستحقيها .

- الإيتاء : هو الإعطاء قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ) .
- الزكاة : هي : قدر واجب في مال مخصوص ، لطائفة أو جهة مخصوصة .

وسميت بذلك : لأنها تزكي المال ، وتزكي صاحب المال ، كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ) ، بل وتزكي المجتمع كله ، فتنتشر المحبة والوئام والإخاء .

- قوله تعالى (وَأَقَامُواْ الصلاة وَءاتَوُاْ الزكواة) تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما في الأعمال للتنبيه على عظم فضلهما ، فإن الأولى : أعظم الأعمال البدنية والثانية : أفضل الأعمال المالية .

(**لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**) أي : لهم ثواب إيمانهم وأعمالهم الصالحات وصلاتهم وزكاتهم ..

- وفي تسمية ثوابهم أجراً تأكيد لتكفله – عز وجل – لهم بذلك ، وفي كونه عند ربهم تعظيم له ، لأنه الكريم الجواد .
- كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والزكاة ؟

قيل : إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين : إخلاصه لمعبوده ، وسعيه في نفع الخلق .

وقيل : الصلاة رأس العبادات البدنية ، والزكاة رأس العبادات المالية .

وقيل : الصلاة طهارة للنفس والبدن ، والزكاة طهارة للمال .

(**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) فيما يستقبل ، ومما أمامهم من أهوال يوم القيامة .

(**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) أي: فيما مضى، وعلى ما فاتهم من الدنيا، وعلى ما خلفوا بعد موتهم من أهل وولد ومال وغير ذلك.

الفوائد :

١ - أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة ، وقد ورد هذا في آيات كثيرة :

قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

٢- أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحاً .

٣- الحذر من الرياء .

٤- فضل إقامة الصلاة .

٥- فضل إيتاء الزكاة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ) .

[البقرة : ٢٧٨ – ٢٨٨] .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**) أي بجوارحكم ، بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه .

(**وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا**) أي : اتركوا ما بقي من الربا ، مما لم يقبض وإن كان معقوداً عليه .

وهذا في مقابل قوله تعالى (فله ما سلف) أي: فله ما سلف قبضه قبل نزول التحريم، دون ما لم يقبض قبل ذلك فيجب تركه .

- **قال ابن عاشور** : ومعنى (وذروا ما بقي من الربا) الآية اتركوا ما بقي في ذمم الذين عاملتموهم بالربا، فهذا مقابل قوله (فله ما سلف) فكان الذي سلفَ قبضُه قبل نزول الآية معفواً عنه وما لم يقبض مأموراً بتركه.
- **وقال رحمه الله** : وأمروا بتقوى الله قبل الأمر بترك الربا لأنّ تقْوَى الله هي أصل الامتثال والاجتناب ؛ ولأن ترك الربا من جملتها ، فهو كالأمرِ بطريق برهاني.

(**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**) أي : صادقين في إيمانكم فاتقوا الله وذروا ما بقي من الربا .

(**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا**) أي : فإن لم تذروا ما بقي من الربا .

(**فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) أي : فاعلموا بحرب من الله ورسوله .

وهذه الآية من أشد التهديد وأعظم الوعيد في تحريم الربا .

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب ، ثم قرأ : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) .

- **قال الجصاص** : قَوْله تَعَالَى (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) لَا يُوجِبُ إكْفَارَهُمْ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا دُونَ الْكُفْرِ مِنْ الْمَعَاصِي ؛ قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ (إنَّ عُمَرَ رَأَى مُعَاذًا يَبْكِي ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيك ؟ فَقَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ e يَقُولُ (الْيَسِيرُ مِنْ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ) فَأَطْلَقَ اسْمَ الْمُحَارَبَةِ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَكْفُرْ.
- **قال ابن عاشور** : وتَنكير حرب لقصد تعظيم أمرها ؛ ولأجل هذا المقصد عدل عن إضافة الحرب إلى الله وجيء عوضاً عنها بمن ونسبت إلى الله ؛ لأنّها بإذنه على سبيل مجاز الإسناد ، وإلى رسوله لأنّه المبلغ والمباشر ، وهذا هو الظاهر.
- **قال ابن القيم** : ففي ضمن هذا الوعيد: أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى: الربا، وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس، هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها، فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا: بحربه وحرب رسوله .

(**وَإِنْ تُبْتُمْ**) أي : رجعتم إلى الله بترك الربا .

(**فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ**) أي : فلكم أصول أموالكم كاملة دون الربا .

(**لا تَظْلِمُونَ**) أي : لا تظلمون غيركم بأخذ الزيادة منهم .

(**وَلا تُظْلَمُونَ**) أنتم بنقص شيء من رؤوس أموالكم .

قال ابن القيم : يعني إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه ، وقد عاقدتم عليه فإنما لكم رؤوس أموالكم ، لا تزادون عليها فتظلمون الآخذ ، ولا تنقصون منها فيظلمكم من أخذها .

قال السعدي : فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سالفة، فله ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة، فقد تجرأ على الربا.

الفوائد :

١ -وجوب تقوى الله .

٢ -وجوب ترك الربا ، وإن كان تم عقده .

٣ -أن ممارسة الربا تنافي الإيمان .

٤ -أن المصر على الربا معلن الحرب على الله .

٥ - عظم الربا لعظم عقوبته .

٦ - أنه يجب على من تاب إلى الله من الربا ألا يأخذ شيئاً مما استفاده من الربا .

(وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

[البقرة : ٢٨٠] .

(**وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ**) يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ) أي : صاحب إعسار لا يملك وفاء (فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَة) أي : فعليكم نظرة إلى ميسرة .

- **قال ابن كثير :** أي : لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي.
- **قال السعدي :** أي وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة ، وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح، أن يوفي ما عليه.
- فالمدين له حالات :

الحالة الأولى : إذا كان المدين معسراً لا يستطيع ولا يملك السداد .

فإنه يجب على صاحب الحق أن ينظره ويحرم مطالبته .

لقوله تعالى (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) . أي وإن وُجِدَ ذو عسرة (فنظرة) أي فعليكم نظرة إلى ميسرة .

المعسر : هو الذي لا شيء عنده يسدد الدين . فهذا يجب انظاره ويحرم حبسه .

الحالة الثانية : أن يكون عنده ما يسدد به .

فهنا يجب عليه أن يسدده .

لقوله e (مطل الغني ظلم) متفق عليه .

(**المطل**) المنع ، يعني منع ما يجب على الإنسان دفعه من دين .   (**الغني**) القادر على الوفاء .

فالحديث دليل على تحريم المماطلة بالحق ، لقوله (ظلم) ، فإذا كان ظلم وجب أن يزال ، فإن أبى حبس بطلب صاحب الدين لأن الحق له .

(**وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) أي : وأن تصدقوا على المدين ، فتضعوا عنه دينه أو بعضه خير لكم في دنياكم وأخراكم .

ففي الدنيا : سبب للبركة والزيادة في المال والألفة والأخوة .

وفي الآخرة : سبب لمضاعفة الأجر والثواب الجزيل من الله .

وقد جاءت الأدلة على استحباب التيسير على الموسر .

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله e (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة) رواه مسلم .

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ t قَالَ : سَمِعْتُ رسُول اللَّهِ e يقُولُ (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللَّه مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ) رواهُ مسلمٌ .

وعنْ أبي هُريرةَ t أنَّ رَسُول اللَّهِ e قالَ (كَانَ رجلٌ يُداينُ النَّاسَ ، وَكَان يَقُولُ لِفَتَاهُ : إذا أَتَيْتَ مُعْسِراً فَتَجاوزْ عَنْهُ ، لَعلَّ اللَّه أنْ يَتجاوزَ عنَّا فَلقِي اللَّه فَتَجاوَزَ عنْهُ) متفقٌ عَليهِ .

وعنْ أبي هُريرَةَ t قَالَ : قَالَ رسُولُ اللَّه e (من أَنْظَر مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ لَهُ ، أظلَّهُ اللَّه يَوْمَ القِيامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ) رواهُ الترمذيُّ وقَال حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

الفوائد :

١ - وجوب إنظار المعسر .

٢ - أن القادر على الوفاء يجب أن يسدد ما عليه .

٣ - حكمة الله بانقسام الناس إلى معسر وموسر .

٤ - فضل الإبراء أو الوضع من الدين وأنه صدقة .

٥ - تفاضل الأعمال .

٦ - فضيلة العلم .

(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) .

[البقرة : ٢٨١] .

(**وَاتَّقُوا يَوْماً**) أي: يوم القيامة، ونكّر للتعظيم، أي: احذروا عذاب وأهوال يوم القيامة بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه .

وقد أمر الله باتقاء ذلك اليوم في آيات كثيرة :

فقال تعالى (واتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) .

وقال تعالى (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) .

(**تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**) أي : تردون إلى الله للحساب والجزاء .

- فينبغي على المسلم أن يتذكر ذلك اليوم وأن يعمل الأسباب التي تنجيه من كربه وأهواله .

وأسباب النجاة من كرب يوم القيامة كثيرة :

منها : التنفيس عن المسلمين .

لحديث أبي هريرة . قال : قال رسول الله e (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) رواه مسلم .

ومنها : إنظار المعسر أو الوضع عنه .

قال e (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينظر معسر أو يضع عنه) رواه مسلم

ومنها : الوفاء بالنذر ، وإطعام الطعام لوجه الله .

قال تعالى (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً) .

(**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**) أي : تعطى كل نفس جزاء الذي كسبت تاماً وافياً غير منقوص ، خيراً كان أو شراً .

كما قال تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) .

وقال تعالى (إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السموات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله) .

وقال تعالى (وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حاسبين) .

(**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**) فلا ينقص من ثوابهم شيئاً ، ولا يزاد في عذابهم ، ولا يعاقبون بجريرة غيرهم .

قال تعالى (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) .

- **وقال القرطبي** : قيل : إن هذه الآية نزلت قبل موت النبيّ e بتسع ليال ثم لم ينزل بعدها شيء ؛ قاله ابن جُريج.

الفوائد :

١ - وجوب اتقاء يوم القيامة ، واتقاؤه يكون بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه .

٢ -أن التقوى قد تضاف لغير الله ، وهذا في القرآن والسنة كثير ، قال تعالى (واتقوا النار ...) لكن فرق بين التقويين ، التقوى الأولى تقوى عبادة ، وتذلل ، والثانية تقوى وقاية فقط .

٣ -إثبات البعث .

٤ -أن مرجع الخلائق كلها إلى الله .

٥ -أن الإنسان لا يحاسب إلا على عمله .

٦ - ينبغي على الإنسان الحرص والجد بالأعمال الصالحة . [السبت : ٣ / ٤ / ١٤٣٣هـ] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

[البقرة : ٢٨٢] .

- هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) تقدم أن تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد :

الأولى : العناية والاهتمام به والتنبيه .

الثانية : الإغراء ، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان ، كما تقول يا ابن الأجود جُد .

الثالثة : أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان ، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان .

(**إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ**) هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال (ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا) .

- قوله تعالى (فَاكْتُبُوهُ) أمر منه تعالى بالكتابة [والحالة هذه] للتوثقة والحفظ ، وهل هذا الأمر للوجوب أم للاستحباب ؟
  اختار ابن جرير الوجوب ، والجمهور على الاستحباب .
- وعلى هذا جمهور الفقهاء المجتهدين ، والدليل عليه أنا نرى جمهور المسلمين في جميع ديار الإسلام يبيعون بالأثمان المؤجلة من غير كتابة ولا إشهاد ، وذلك إجماع على عدم وجوبهما ، ولأن في إيجابهما أعظم التشديد على المسلمين ، والنبي e يقول بعثت بالحنيفية السهلة السمحة .

(**وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ**) أي: بالقسط والحق ، ولا يَجُرْ في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان .

- قوله تعالى (بينكم ...) أي بينكم أيها المتداينون ، أي : بحضور الدائن والمدين ، فلا تصح الكتابة بحضور أحد الطرفين دون الآخر .

(**وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ**) أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سُئِل أن يكتبَ للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم ، فَلْيتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب ، كما جاء في الحديث (إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرَق)، وفي الحديث الآخر (من كتم علمًا يَعْلَمه أُلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار) .

وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب .

(**وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ**) أي: وليملل المدين (من عليه الحق) على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك .

- الإملاء ويقال الإملال .

(**وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً**) أي: لا يكتم منه شيئًا .

(**فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً**) محجورًا عليه بتبذير ونحوه .

(**أَوْ ضَعِيفاً**) أي: صغيرًا أو مجنوناً .

(**أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ**) إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه .

(**فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ**) أي : فيملل قيّمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة .

- قوله تعالى (وليه) أي : ولي هذا الإنسان الذي عليه الحق ، وهذا ظاهر الآية .

(**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ**) أي : اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة .

- لابد أن يكون الشاهد من المسلمين .
- **قال الجصاص** : قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَمَّا كَانَ ابْتِدَاءُ الْخِطَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ) ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى: (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: أحدهما أَنْ يَكُونَ مِنْ صِفَةِ الشُّهُودِ؛ لِأَنَّ الْخِطَابَ تَوَجَّهَ إلَيْهِمْ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ؛ وَلَمَّا قَالَ فِي نَسَقِ الْخِطَابِ: (مِنْ رِجَالِكُمْ) كَانَ كَقَوْلِهِ مِنْ رِجَالِ الْمُؤْمِنِينَ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ كَوْنَ الْإِيمَانِ شَرْطًا فِي الشَّهَادَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَالْمَعْنَى الْآخَرِ : الْحُرِّيَّةِ وَذَلِكَ لِمَا فِي فَحْوَى الْخِطَابِ مِنْ الدَّلَالَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدهمَا قَوْله تَعَالَى (إذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ) إلَى قَوْله تَعَالَى (وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ) وَذَلِكَ فِي الْأَحْرَارِ دُونَ الْعَبِيدِ ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ عُقُودَ الْمُدَايَنَاتِ وَإِذَا أَقَرَّ بِشَيْءٍ لَمْ يَجُزْ إقْرَارُهُ إلَّا بِإِذْنِ مَوْلَاهُ ، وَالْخِطَابُ إنَّمَا تَوَجَّهَ إلَى مَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ غَيْرِ إذْنِ الْغَيْرِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ الْحُرِّيَّةَ.

وَالْمَعْنَى الْآخَرِ مِنْ دَلَالَةِ الْخِطَابِ : قَوْله تَعَالَى (مِنْ رِجَالِكُمْ) فَظَاهِرُ هَذَا اللَّفْظِ يَقْتَضِي الْإِحْرَازَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ) يَعْنِي الْأَحْرَارَ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى (وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) فَلَمْ يَدْخُلْ الْعَبِيدُ فِي قَوْله تَعَالَى مِنْكُمْ .

(**فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ**) المعنى إن لم يأت الطالب برجلين فليأت برجل وامرأتين ؛ هذا قول الجمهور . (قاله القرطبي) .

وقال قوم : بل المعنى فإن لم يكن رجلان ، أي لم يوجدا فلا يجوز استشهاد المرأتين إلا مع عدم الرجال.

- **قال ابن عطية** : وهذا ضعيف ، فلفظ الآية لا يعطيه ، بل الظاهر منه قول الجمهور ، أي إن لم يكن المستشهد رجلين ، أي إن أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لعذرٍ مّا فليستشهد رجلاً وامرأتين.

فجعل تعالى شهادة المرأتين مع الرجل جائزة مع وجود الرجلين في هذه الآية ، ولم يذكرها في غيرها ، فأجيزت في الأموال خاصة في قول الجمهور ، بشرط أن يكون معهما رجل.

وإنما كان ذلك في الأموال دون غيرها ؛ لأن الأموال كثر الله أسباب تَوْثيقها لكثرة جهات تحصيلها وعموم البلْوَى بها وتكررها ؛ فجعل فيها التَوثُّق تارة بالكتْبَة وتارة بالإشهاد وتارة بالرهن وتارة بالضمان ، وأدخل في جميع ذلك شهادة النساء مع الرجال.

- **قال ابن كثير** : وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما جاء عن أبي هريرة، عن النبي e أنه قال (يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكُن أكثر أهل النار، فقالت امرأة منهن جَزْلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تُكْثِرْنَ اللعن، وتكفُرْنَ العشير، ما رأيتُ من ناقصات عقل

ودين أغلب لذي لُب منكن". قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تَعْدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين) .

- وهذا أحد المواضع الخمسة التي تكون فيها الأنثى على النصف من الذكر وهي :

الأول : العقيقة، فإنه عن الأنثى شاة، وعن الذكر شاتان عند الجمهور، وفيه عدة أحاديث صحاح وحسان. والثاني : الشهادة ، فإن شهادة امرأتين بشهادة رجل.

والثالث : الميراث ، **والرابع** : الدية ، **والخامس** : العتق .

(**مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ**) فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود .

(**أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا**) يعني: المرأتين إذا نسيت الشهادة ، أي : لئلا تضل إحداهما فتذكر الأخرى .

(**فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى**) أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون: "فَتُذْكر" بالتشديد من التذكار .

- **قال الرازي** : المعنى أن النسيان غالب طباع النساء لكثرة البرد والرطوبة في أمزجتهن واجتماع المرأتين على النسيان أبعد في العقل من صدور النسيان على المرأة الواحدة فأقيمت المرأتان مقام الرجل الواحد حتى أن إحداهما لو نسيت ذكرتها الأخرى فهذا هو المقصود من الآية .

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وهذه حيطة أخرى من تحريف الشهادة وهي خشية الاشتباه والنسيانِ ، لأنّ المرأة أضعف من الرجل بأصل الجبلّة بحسب الغالب ، والضلال هنا بمعنى النسيان.

(**وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا**) قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس. وهذا كقوله (وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ) ومن هاهنا استفيد أن تَحَمّل الشهادة فرض كفاية.

وقيل -وهو مذهب الجمهور -: المراد بقوله (وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) للأداء، لحقيقة قوله (الشُّهَدَاء) والشاهد حقيقة فيمن تحمَّل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية .

(**وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ**) هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيرًا كان أو كبيرًا، فقال (وَلا تَسْأَمُوا) أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة (إلى أجله) .

(**ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا**) أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلا هو (أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) أي : أعدل .

- وإنما كان هذا أعدل عند الله ، لأنه إذا كان مكتوباً كان إلى اليقين والصدق أقرب ، وعن الجهل والكذب أبعد ، فكان أعدل عند الله وهو كقوله تعالى (ادعوهم لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ الله) أي أعدل عند الله ، وأقرب إلى الحقيقة من أن تنسبوهم إلى غير آبائهم .

(وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ) أي : أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالبًا (وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا) وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

(**إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا**) أي: إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها .

(**وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ**) وتقدم أن هذا الأمر للاستحباب .

- **قال ابن كثير :** وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب، والدليل على ذلك حديث خُزَيمة بن ثابت الأنصاري، وقد رواه الإمام أحمد عن عمَارة بن خزيمة الأنصاري، أن عمه حدثه -وهو من أصحاب النبي e (أن النبي e ابتاع فرسًا من أعرابي، فاستتبعه النبي e ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي e وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي e ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي e ، فنادى الأعرابي النبي e فقال: إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتَعْه، وإلا بعتُه، فقام النبي e حين سمع نداء الأعرابي، قال: أو ليس قد ابتعته منك؟ " قال الأعرابي: لا والله ما بعتك. فقال النبي e : بل قد ابتعته منك، فطفق الناس يلوذون بالنبي e والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هَلُم شهيدًا يشهد أني بايعتك. فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك! إن النبي e لم يكن يقول إلا حقًّا، حتى جاء خزَيْمة، فاستمع لمراجعة النبي e ومراجعة الأعرابي يقول هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي e على خزيمة فقال: بم تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسولُ الله e شهادة خُزَيمة بشهادة رجلين).

(**وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ**) قيل: معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما.

وقيل: معناه: لا يضر بهما .

قال الرازي : قوله تعالى (وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ) اعلم أنه يحتمل أن يكون هذا نهياً للكاتب والشهيد عن إضرار من له الحق ، أما الكاتب فبأن يزيد أو ينقص أو يترك الاحتياط ، وأما الشهيد فبأن لا يشهد أو يشهد بحيث لا يحصل معه نفع ، ويحتمل أن يكون نهياً لصاحب الحق عن إضرار الكاتب والشهيد ، بأن يضرهما أو يمنعهما عن مهماتهما والأول : قول أكثر المفسرين والحسن وطاوس وقتادة ، والثاني : قول ابن مسعود وعطاء ومجاهد.

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال :

أحدها : أن معناه : لا يضارَّ بأن يدعى وهو مشغول .

هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدي ، والربيع بن أنس ، والفراء ، ومقاتل . وقال الربيع : كان أحدهم يجيء إلى الكاتب فيقول : اكتب لي ، فيقول : إني مشغول ، فيلزمه ، ويقول : إنك قد أُمرت بالكتابة ، فيضاره ، ولا يدعه ، وهو يجد غيره ، وكذلك يفعل الشاهد ، فنزلت (ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد) .

الثاني أن معناه: النهي للكاتب أن يضار من يكتب له، بأن يكتب غير ما يمل عليه، وللشاهد أن يشهد بما لم يستشهد عليه .

هذا قول الحسن ، وطاووس ، وقتادة ، وابن زيد ، واختاره ابن قتيبة ، والزجاج . واحتج الزجاج على صحته بقوله تعالى (وإن تفعلوا فانه فسوق بكم) قال : ولا يسمى من دعا كاتباً ليكتب ، وهو مشغول ، أو شاهداً؛ فاسقاً ، إنما يسمى من حرف الكتاب ، أو كذب في الشهادة ، فاسقاً .

والثالث : أن معنى المضارّة : امتناع الكاتب أن يكتب ، والشهادة أن يشهد ، وهذا قول عطاء في آخرين.

(**وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ**) أي: إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نَهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي: لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه.

(**وَاتَّقُوا اللَّهَ**) أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره واتركوا زجره .

- **قال ابن عاشور :** أمر بالتّقوى لأنّها مِلاك الخير ، وبها يكون ترك الفسوق.

(**وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**) أي : ويبين لكم الواجب لكم وعليكم .

كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) ، وكقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) .

- **وقال القرطبي :** وعدٌ من الله تعالى بأن من اتقاه علّمه ، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقى إليه ؛ وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقاناً ، أي فيْصَلا يفصل به بين الحق والباطل ؛ ومنه قوله تعالى (يِا أَيُّهَا الذين آمنوا إَن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً) .

(**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) أي: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات .

الفوائد :

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام بما تضمنته هذه الآية .

٢- جواز التعامل بالدين كما في هذه الآية ، وكقوله تعالى (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ) وأجمعت الأمة على جوازه ، والحكمة تقتضي ذلك في جانب المدين والدائن :

ففي جانب المدين : لأن الإنسان قد يحتاج شيئاً فلا يملك المال ليشتريه ، فيستدين من أجل ذلك ، ففيه سد حاجة المحتاج بطريق مشروع ، بدلاً من طرق محرمة .

وأما في جانب الدائن : فقد يكون الديْن سبباً لتصريف كثير من التجار لبضائعهم وسلعهم ، وأيضاً لما فيه من الثواب والأجر والقرض الحسن ، وأيضاً فيه مظهر عظيم من مظاهر التعاون .

٣-أن الأجل في الدين لابد أن يكون معلوماً محدداً ، فأما إذا كان مجهولاً فلا يجوز .

لقوله تعالى (.. إلى أجل مسمى ..) .

ولقوله e (من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم ، ... إلى أجل معلوم) متفق عليه .

ولحديث أبي هريرة (أن رسول الله e نهى عن بيع الغرر) رواه مسلم .

ولأن جهالة الأجل تؤدي إلى الغرر وإلى النزاع بين البائع والمشتري .

٤-مشروعية كتابة الدين لقوله (فاكتبوه) وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوبه ، لأن هذا أمر ، والأمر يقتضي الوجوب ، وذهب جمهور العلماء إلى أن كتابة الدين مستحبة وليست بواجبة ، وحملوا الأمر في الآية على الاستحباب بدليل قوله تعالى (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ) وقد ثبت عن النبي e أنه ابتاع بلا كتابة ولا إشهاد كما في حديث خزيمة بن ثابت وسيأتي إن شاء الله .

٥-حضور كل من الدائن والمدين عند كتابة الدين لقوله تعالى (وليكتب بينكم) .

٦-يجب أن يكون الكاتب بين المتداينين عدلاً ، بحيث يكتب بالعدل المطابق للواقع ، الموافق للشرع من غير ميل لأحدهما .

٧-ظاهر الآية أن الكاتب لا يكون أحد المتعاقدين ، لكن لو تراضيا أن يكتب أحدهما وبخاصة الذي عليه الحق صح ذلك ، لأن ذلك بمثابة الاعتراف منه والاقرار على نفسه .

٨- ينبغي لمن منّ الله عليه ، فعلمه الكتابة وصنعتها ، والعلم الشرعي فيها أن لا يمتنع عن الكتابة لمن يحتاج إليها .

٩-نعمة الله على عباده بتعليمهم الكتابة .

١٠-يجب على الكاتب أن يكتب وفق ما علمه الله من الشرع .

١١-أن الذي ينبغي أن يملي على الكاتب هو المدين الذي عليه الحق لا الدائن .

١٢- أن الإقرار من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق ، لأن ما يمليه المدين إقرار منه واعتراف .

١٣- يجب على المدين الذي عليه الحق أن يتقي الله ربه ، فلا يملي إلا حقاً ولا يقول إلا صدقاً .

١٤- وجوب تقوى الله .

١٥- أن تقوى الله مانعة من الحرام .

١٦- ينبغي تذكير الناس بتقوى الله عند كل معاملة يتعاملون بها .

١٧- ثبوت الولاية على من لا يحسن التصرف .

١٨- حرص الشريعة على حقوق الضعفاء كالسفهاء والصغار والمجانين .

١٩- حرص الشريعة على حفظ الحقوق .

٢٠-مشروعية كتابة الإشهاد على الدين مع الكتابة لزيادة التوثقة لقوله (واستشهدوا) .

٢١- لابد في الشهادة على الديْن ونحوه من شهادة رجلين ، أو رجل وامرأتين .

٢٢- أن شهادة الرجلين أولى من شهادة رجل وامرأتين ، لتقديم شهادة الرجلين في الآية .

٢٣- تفضيل الرجال على النساء في الشهادة من حيث العموم ، وذلك لما ميز الله به الرجال من كمال العقل والدين قوة الحفظ والضبط .

٢٤- يشترط في الشاهد أن يكون عدلاً .

لقوله تعالى (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) .

ولأن غير العدل لا يؤمن أن يشهد على غيره بالزور .

والعدل عرفه السعدي بقوله (من رضيه الناس) لهذه الآية ، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فكل مرضيٍّ عند الناس يطمئنون لقوله وشهادته فهو مقبول ، وقال السعدي في كتاب (بهجة قلوب الأبرار) وهذا أحسن الحدود ، ولا يسع الناس العمل بغيره .

وقيل : العدالة : هي الصلاح في الدين : بفعل الأوامر واجتناب النواهي . واستعمال المروءة بفعل ما يزينه وترك ما يشينه .

٢٥-يشترط في الشاهد أن يكون بالغاً .

لقوله تعالى (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) والصبي لا يسمى رجلاً .

ولأن الصبي لا يقبل قوله على نفسه ، فلأن لا يقبل قوله على غيره بطريق الأولى .

والمراد أنه لا يقبل أداؤه للشهادة ، أما لو تحملها وهو صغير وعَقَل ما تحمله ، وشهد به بعد بلوغه صحت شهادته .

٢٦- يشترط في الشاهد أن يكون أيضاً مسلماً .

لقوله تعالى (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) والكافر ليس نرضاه .

ولقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وإذا كان الفاسق يجب علينا اليقين في خبره ، فما بالك بالكافر (فالكافر محل الخيانة) .

ولقوله تعالى (وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ) والكافر ليس منا .

٢٧-بيان الحكمة في جعل شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد ، وهو نقصان عقلها ، وضعف حفظها وضبطها ، وكمال عقل الرجل ، وقوة حفظه وضبطه ، فالمرأة عرضة للنسيان أكثر من الرجل من حيث العموم .

٢٨-لابد أن تكون الشهادة عن علم ويقين .

٢٩- تحريم الامتناع من الشهادة تحملاً وأداء ممن دعي إليها . (وستأتي مباحثها إن شاء الله) .
٣٠- التأكيد على مشروعية كتابة الدين إلى أجله .
٣١- حرص الشريعة الإسلامية بإبعاد المسلمين عن كل ما يؤدي إلى النزاع والشك والخصومات .
٣٢- إباحة التجارة .
٣٣- لا حرج في عدم كتابة التجارة الحاضرة .
٣٤- لا يجوز أن يضار كاتب فيكتب خلاف ما يُملى عليه وخلاف الحق ، ولا يجوز أن يضار شهيد فيشهد بخلاف ما رأى أو سمع .
٣٥- تحريم الضرر بين المسلمين .
٣٦- وجوب تقوى الله .
٣٧- أن تقوى الله سبب للعمل بأوامر الله وترك نواهيه .
٣٨- أن الأصل في الإنسان الجهل وعدم العلم إلا بتعليم الله له كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .
٣٩- إثبات علم الله الواسع المحيط بكل شيء .
٤٠- أن من أسباب تحصيل العلم تقوى الله .

(وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) .
[البقرة : ٢٨٣] .

(**وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ**) أي : وإن كنتم مسافرين ، وتداينتم حال السفر بدين إلى أجل مسمى (وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً) يكتب الدين بينكم ، ومثل هذا إذا لم تجدوا أدوات الكتابة كالقرطاس والقلم ونحو ذلك .
(**فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ**) أي : فعليكم برهان مقبوضة يقبضها الدائن وهو (المرتهن) يأخذها من الراهن وهو المدين .

- والرهن : توثقة دين بعين يمكن استيفاؤه أو بعضه منها أو من بعضها .
- **قال ابن عاشور** : هذا معطوف على قوله (إذا تداينتم بدَين وَإِن كُنتُمْ على سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فرهان مَّقْبُوضَةٌ) الآية ، فجميع ما تقدّم حكم في الحضر والمكنة ، فإن كانوا على سفر ولم يتمكّنوا من الكتابة لعدم وجود من يكتب ويشهد فقد شُرع لهم حكم آخر وهو الرهن ، وهذا آخر الأقسام المتوقّعة في صور المعاملة ، وهي حالة السفر غالباً ، ويلحق بها ما يماثل السفر في هذه الحالة.
- **وقال القرطبي** : لما ذكر الله تعالى النّدْب إلى الإشهاد والكتْب لمصلحة حفظ الأموال والأدْيَان ، عقّب ذلك بذكر حال الأعذار المانعة من الكتْب ، وجعل لها الرهن ، ونص من أحوال العذر على السفر الذي هو غالب الأعذار ، لا سيما في ذلك الوقت لكثرة الغزو ، ويدخل في ذلك بالمعنى كلُّ عذر.
- والسفر : هو الضرب في الأرض والسير فيها ، سمي السفر سفراً لأنه خروج من البلد ومحل الإقامة إلى حيث السفر والنور .

ومثل هذا إذا كان الدين في الحضر ولم يجدوا كاتباً ، وإنما خص السفر ، لأنه مظنة عدم وجود الكاتب ، أما الحضر فيندر فيه عدم وجود الكاتب .

- **قال ابن الجوزي :** إنما خص السفر ، لأن الأغلب عدم الكاتب ، والشاهد فيه ومقصود الكلام : إذا عدمتم التوثق بالكتاب ، والإشهاد ، فخذوا الرهن .

(**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً**) أي : فإن أمِن بعضكم بعضاً ولم تكتبوا الديْن ولم تشهدوا عليه .

(**فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**) أي : فليؤد المدين الذي ائتمنه الدائن (أَمَانَتَهُ) أي : الذي ائتمن عليه من الدين وغيره .

(**وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ**) تذكير بتقوى الله ، فلا ينكر ما ائتمن عليه من دين وغيره ، ولا يبخس منه شيئاً أو يماطل في أدائه .

- **قال ابن عاشور :** وقد أطلق هنا اسم الأمانة على الدَّين في الذمّة وعلى الرهن لتعظيم ذلك الحق لأنّ اسم الأمانات له مهابَة في النفوس ، فذلك تحذير من عدم الوفاء به ؛ لأنّه لما سمّي أمانة فعدم أدائه ينعكس خِيانة ؛ لأنّها ضدّها ، وفي الحديث : أدِّ الأمَانَة إلى من ائتَمنك ولا تَخن من خانك.
- **قال الرازي :** (وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ) أي : هذا المديون يجب أن يتقي الله ولا يجحد ، لأن الدائن لما عامله المعاملة الحسنة حيث عول على أمانته ولم يطالبه بالوثائق من الكتابة والإشهاد والرهن فينبغي لهذا المديون أن يتقي الله ويعامله بالمعاملة الحسنة في أن لا ينكر ذلك الحق ، وفي أن يؤديه إليه عند حلول الأجل ، وفي الآية قول آخر ، وهو أنه خطاب للمرتهن بأن يؤدي الرهن عند استيفاء المال فإنه أمانة في يده ، والوجه هو الأول .
- استدل بالآية من قال بجواز الرهن حال السفر فقط ، وذهب جماهير العلماء إلى جوازه في الحضر والسفر .

قال جمهور من العلماء : الرّهْنُ في السفر بنص التنزيل ، وفي الحضر ثابت بسنة الرسول ﷺ ، وهذا صحيح.

وقد بيّنا جوازه في الحضر من الآية بالمعنى ، إذْ قد تترتّب الأعذار في الحضر ، ولم يُروَ عن أحدٍ منعُه في الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود ، متمسّكين بالآية.

ولا حجة فيها ؛ لأن هذا الكلام وإن كان خرج مخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال.

وليس كون الرهن في الآية في السفر مما يحظر في غيره.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة أنّ النبيّ ﷺ اشترى من يهودي طعاماً إلى أجلٍ ورهنه دِرعاً له من حديد.

وأخرجه النسائي من حديث ابن عباس قال (توفى رسول الله ﷺ ودِرْعُه مرهونةٌ عند يهوديّ بِثلاثين صاعاً من شعير لأهله).

(**وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ**) أي : لا تخفوها وتجحدوا ما شهدتم به ، بإنكار الشهادة أصلاً ، أو بالتغيير فيها أو التبديل ، بزيادة أو نقصان أو غير ذلك .

(**وَمَنْ يَكْتُمْهَا**) بإخفاء أو بتغيير أو تبديل .

(**فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**) أي : آثم بفعل ذلك .

وهذه كقوله تعالى (وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) .

- وأضاف الإثم إلى القلب ، لأن الشهادة أمر خفي راجع إلى القلب .

(**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**) تحذير من الإقدام على هذا الكتمان ، لأن المكلف إذا علم أنه لا يعزب عن علم الله ضمير قلبه كان خائفاً حذراً من مخالفة أمر الله تعالى ، فإنه يعلم أنه تعالى يحاسبه على كل تلك الأفعال ، ويجازيه عليها إن خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً.

- **قال ابن عاشور :** قوله تعالى (والله بما تعملون عليم) تهديد ، كناية عن المجازاة بمثل الصنيع ؛ لأنّ القادر لا يحُول بينه وبين المؤاخذة إلاّ الجهل فإذا كان عليماً أقام قسطاس الجزاء .

الفوائد :

١ - أنه إذا لم يجد كاتباً في السفر فإنه يوثق الحق بالرهن المقبوض .

٢ -جواز الرهن ، وجمهور العلماء على جوازه حضراً وسفراً .

٣ -- أنه إذا حصل الائتمان من بعضهما لم يجب رهن ولا إشهاد ولا كتابة .

٤ - وجوب أداء الأمانة .

٥ - تحريم كتمان الشهادة .

٦ - أن كتمان الشهادة من الكبائر .

٧ - وجوب الاهتمام بصلاح القلب .

٨ - عموم علم الله تعالى بكل شيء نعمله .

٩ - التهديد لمن يكتم الشهادة ، فإن الله عالم به .

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

[البقرة : ٢٨٤] .

عن أَبي هريرة t ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُول الله e (للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله ...) اشْتَدَّ ذلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُول الله e ، فَأَتَوا رَسُول الله e ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أيْ رسولَ الله، **كُلِّفْنَا مِنَ الأَعمَالِ** مَا نُطِيقُ: **الصَّلاةَ والجِهَادَ** والصِّيامَ والصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِهِ الآيَةُ وَلا نُطيقُها. قَالَ رَسُول الله e: (أتُرِيدُونَ أنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ) فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا القومُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسنَتُهُمْ أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى في إثرِهَا: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير) فَلَمَّا فَعَلُوا ذلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأنزلَ الله (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَ) قَالَ: نَعَمْ (رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) قَالَ: نَعَمْ (رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) قَالَ: نَعَمْ (وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين) قال: نَعَمْ) رواه مسلم .

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) قَالَ دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَىْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَىْءٍ فَقَالَ النَّبِىُّ e « قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا » . قَالَ فَأَلْقَى اللَّهُ الإِيمَانَ فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قَالَ قَدْ فَعَلْتُ (رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) قَالَ قَدْ فَعَلْتُ (وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا) قَالَ قَدْ فَعَلْتُ) رواه مسلم .

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أي : كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً .

- **وقال أبو بكر الجزائري :** خلقاً وملكاً وتصرفاً .

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم :

قال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

وقال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً) .

وقال تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

- وهذه الجملة تؤيد تفرده سبحانه بالألوهية ، وذلك من جانبين :

الأول : حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله ، وليس للعبد أن يعبد غير مالكه ، أو يُشرِك غيره معه في العبادة ، وقد نهاه عن ذلك .

الثاني : وحيث إن الجميع عبيد له ، فكيف يُعبد مملوك –كائناً من كان – ويُترك المالك ، أو يُشرَك مملوك في العبادة مع المالك ، وقد نهى عن ذلك .

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد :

أولاً : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

ويدل لذلك أيضاً ما بيّنه النبي e لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي ، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) .

ثانياً : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

ثالثاً : أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

وقال e (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم .

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ) أي : وإن تظهروا الذي في صدوركم وقلوبكم من المعتقدات والمضمرات والسرائر .

(أَوْ تُخْفُوهُ) أي : أو تسروه وتضمروه .

(يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) أي : يُطلعكم عليه ، ويخبركم به ويظهره لكم ، لأنه عز وجل لا تخفى عليه خافية ، فالسر والعلانية عنده سواء .

قال تعالى (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقال تعالى (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ)

وقال تعالى (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة كما تقدم في حديثي أبي هريرة وابن عباس ، وهذا جاء عن ابن عمر وابن عباس ، فقد روى البخاري عن ابن عمر أنه قال فيها : نسختها الآية التي بعدها .

قال ابن الجوزي : وهذا قول ابن مسعود ، وأبي هريرة ، وابن عباس في رواية ، والحسن ، والشعبي ، وابن سيرين ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، وابن زيد .

ورجحه في التسهيل، **وقال :** والصحيح التأويل الأوّل لوروده في الصحيح ، وقد ورد أيضاً عن ابن عباس وغيره ، فإن قيل : إنّ الآية خبر والأخبار لا يدخلها النسخ ، فالجواب : أنّ النسخ إنما وقع في المؤاخذه والمحاسبة وذلك حكم يصح دخول النسخ فيه ، فلفظ الآية خبر .

وذهب بعضهم إلى أنها غير منسوخة ، وإنما هي في حق كاتم الشهادة .

ومن العلماء من قال : إن المنسوخ منها ما يتعلق بحديث النفس والوساوس والشكوك لقوله e (إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم) .

ومن العلماء من قال : لم تنسخ ، ولكن لا يلزم من المحاسبة المؤاخذة .

وقال الضّحاك : يعلمه الله يوم القيامة بما كان يسره ليعلم أنه لم يخف عليه.

وفي الخبر : إن الله تعالى يقول يوم القيامة هذا يومٌ تبلى فيه السرائر وتخرج الضمائر وأن كُتَّابي لم يكتبوا إلاَّ ما ظهر من أعمالكم وأنا المطّلع على ما لم يطلعوا عليه ولم يُخْبُروه ولا كتبوه فأنا أخبركم بذلك وأُحاسبكم عليه فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين ، وهذا أصح ما في الباب ، يدل عليه حديث النجوى :

عن ابن عمر . قال : سمعت رسول الله e يقول (يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُ فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَعْرِفُ . قَالَ فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِى الدُّنْيَا وَإِنِّى أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ . فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ) متفق عليه .

وقال الثعالبى : ورجَّح الطبريُّ أنَّ الآية محكَمَةٌ غير منْسُوخة .

وهذا هو الصوابُ ، وإنَّما هي مخصَّصة ، وذلك أنَّ قوله تعالى (وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) معناه : بما هو في وُسْعكم ، وتَحْتَ كَسْبِكُم ، وذلك استصحابُ المعتقد ، والفِكْر فيه ، فلما كان اللفظ ممَّا يمكنُ أنْ تدخل فيه الخواطرُ ، أشفَقَ الصحابةُ ، والنبيُّ e فبيَّن اللَّه تعالى لهم ما أراد بالآيةِ الأولى ، وخصَّصَها ، ونصَّ على حُكْمِهِ ؛ أنه لا يكلِّف نفْساً إلا وسْعَهَا ، والخواطرُ لَيْسَتْ هي ، ولا دفعُهَا في الوُسْع ، بل هي أمر غالبٌ ، وليست مما يُكْسَبُ ، ولا يُكْتَسَبُ ، وكان في هذا البيان فَرَحُهُمْ ، وكَشْفُ كربهم ، وتأتي الآية محكمةً لا نَسْخَ فيها .

(**فَيَغْفِرُ**) برحمته .

(**لِمَنْ يَشَاءُ**) من العصاة .

(**وَيُعَذِّبُ**) بعدله .

(**مَنْ يَشَاءُ**) من عباده .

- يعني أنه ليس لأحد عليه حق يوجب عليه أن يغفر له ، وليس لأحد عليه حق يمنعه من أن يعذبه ، بل الملك له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .
- قال الشيخ ابن عثيمين : وليُعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي : أنه ليست مشيئة الله مشيئة مجردة هكذا تأتي عفواً ، لا ، بل هي مشيئة مقرونة بالحكمة ، والدليل على ذلك قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله بيّن أن ذلك مبني على علم وحكمة .

(**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) فلا يعجزه شيء سبحانه ، كما قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) .

ومن قدرته أنه سبحانه : يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، وينسخ من الأحكام ما يشاء ويبقي ما يشاء ، كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

- وناسب ختم الآية بقوله تعالى (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لأن محاسبته للعباد على ما يبدون وما يخفون ، ومغفرته لمن يشاء وتعذيبه لمن يشاء منهم ، إنما يحصل ذلك يوم البعث والمعاد ، الذي هو من أعظم الدلائل على كمال قدرته عز وجل .

الفوائد :

١ -عموم ملك الله تعالى .

٢ -أن الله لا شريك له في ذلك الملك .

٣ -إثبات صفات الكمال لله تعالى .

٤ - الرضا بقضاء الله وقدره ، لأننا ملك له تعالى .

٥ - عموم علم الله تعالى وسعته .

٦ - تحذير العبد من أن يخفي في قلبه مالا يرضي الله .

٧ - إثبات الحساب .

٨ - إثبات المشيئة لله تعالى .

٩ - إثبات القدرة لله وعمومها .

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

[البقرة : ٢٨٥- ٢٨٦] .

- - - - - - - - - -

جاءت الأحاديث بفضل هاتين الآيتين :

أ-عن أَبي مسعودٍ البَدْرِيِّ t ، عن النبي e قالَ (مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخر سُورَةِ البَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ) متفقٌ عَلَيْهِ .

قيل : كَفَتَاهُ الْمَكْرُوهَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَقِيلَ : كَفَتَاهُ مِنْ قِيامِ اللَّيْلِ .

وقال ابن حجر : قيل : أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن .

وقيل : أجزأتا عنه عن قراءة القرآن مطلقا سواء كان داخل الصلاة أم خارجها .

وقيل : معناه أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقاد لما اشتملتا عليه من الإيمان والأعمال إجمالاً .

وقيل معناه كفتاه كل سوء .

وقيل : كفتاه شر الشيطان .

وقيل دفعتا عنه شر الإنس والجن .

وقال النووي : قيل معناه كفتاه من قيام الليل ، وقيل من الشيطان وقيل من الآفات ويحتمل من الجميع .

وقال ابن القيم : الصحيح : أن معناها كفتاه من شر ما يؤذيه ، وقيل : كفتاه من قيام الليل ، وليس بشيء .

ب-وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ u قَاعِدٌ عِنْدَ النبي e سَمِعَ نَقِيضاً مِنْ فَوقِهِ ، فَرَفَعَ رَأسَهُ ، فَقَالَ : هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ وَلَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ اليَوْمَ ، فنَزلَ منهُ مَلكٌ ، فقالَ : هذا مَلكٌ نزَلَ إلى الأرضِ لم ينْزلْ قطّ إلاّ اليومَ فَسَلَّمَ وقال : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةُ الكِتَابِ ، وَخَواتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلاَّ أُعْطِيتَه) رواه مسلم .

ج-وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ (لَمَّا أُسْرِىَ بِرَسُولِ اللَّهِ e انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَهِىَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ إِلَيْهَا يَنْتَهِى مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا وَإِلَيْهَا يَنْتَهِى مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا قَالَ (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى) قَالَ فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ . قَالَ فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ e ثَلاَثاً: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئاً الْمُقْحِمَاتُ) رواه مسلم .

(الْمُقْحِمَاتُ) الكبائر من الذنوب التي تقحم صاحبها في النار أي تلقيه فيها .

د-وعن أبي ذر قال: قال رسول الله e (أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش) رواه أحمد .

هـ-وعن النعمان بن بشير عن النبي e قال (إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان) رواه الترمذي و ابن حبان .

(**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**) أي : بالذي أنزل إليه من ربه من الوحي وهو القرآن والسنة المطهرة .

والمراد بالرسول هنا : محمد e .

- وفي هذه ثناء من الله على رسوله e والمؤمنين .

(**وَالْمُؤْمِنُونَ**) عطف على الرسول ، أي : وآمن المؤمنون الذين حققوا الإيمان بما أنزل إليه e من ربه من الوحي ، وانقادوا لذلك ظاهراً وباطناً .

(**كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ**) أي : كل من الرسول e والمؤمنون آمن بالله .

والإيمان بالله يتضمن عدة أمور :

الأمر الأول : الإيمان بوجود الله دون شك ولا ريب .

وقد دل على وجوده سبحانه الفطرة والعقل والشرع والحس .

أما الفطرة : فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم ، وقد قال e (ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه) متفق عليه .

وأما العقل : فلأن هذه الموجودات والمخلوقات سابقها ولاحقها لابد لها من خالق أوجدها ، إذ لا يمكن أن توجد بنفسها ، لأن الشيء لا يخلق نفسه ، ولا يمكن أن توجد صدفة ، لأن كل حادث لابد له من محدِث، وكل موجود لابد له من موجِد . (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) .

وأما الحس : فإننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده سبحانه وتعالى .

قال تعالى (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) .

وعن أنس (أن أعرابياً دخل يوم الجمعة والنبي e يخطب فقال : يا رسول الله ! هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع يديه ودعا فثار السحاب ونزل المطر ...) متفق عليه .

وأما دلالة الشرع : فلأن الكتب السماوية كلها ناطقة بذلك .

الأمر الثاني : الإيمان بربوبية الله تعالى .

أي : بأنه الرب لا شريك له ولا معين ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا الله ، ولا مدبر إلا الله ، فهو خالق كل شيء ومالكه ومدبره .

قال تعالى (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) .

وقال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) .

وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الأمر الثالث : الإيمان بألوهيته .

أي : بأنه الإله الحق لا شريك له ، فكل من اتخذ إلهاً مع الله فألوهيته باطلة .

قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) .

الأمر الرابع : الإيمان بأسمائه وصفاته .

أي : إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو وصفه به رسوله e من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

قال تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .[وسيأتي مزيد بحث لهذا الأمر إن شاء الله] .

(**وَمَلائِكَتِهِ**) الملائكة : عالم غيبي خلقوا من نور ، جعلهم الله طائعين له متذللين له .

والإيمان بهم يتضمن عدة أمور :

أولاً : الإيمان بوجودهم ، فمن أنكر وجودهم فهو كافر لأنه مكذب لله ولرسوله .

ثانياً : الإيمان بمن علمنا اسمه منهم كجبريل وإسرافيل ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالاً .

ثالثاً : الإيمان بما علمنا من صفاتهم ، كصفة جبريل ، فقد أخبر النبي e أنه رآه على صفته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح وقد سد الأفق .

رابعاً : الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى كتسبيحه والتعبد له ليلاً ونهاراً بدون ملل ولا فتور .

(**وَكُتُبِهِ**) الإيمان بالكتب : هو التصديق الجازم بأن لله كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله ، وهي من كلامه حقيقة ، وأنها نور وهدى ، وأن ما تضمنته حق وصدق ، ولا يعلم عددها إلا الله ، وأنه يجب الإيمان بها مجملة إلا ما سمي منها وهي : التوراة أنزلت على موسى ، والإنجيل أنزلت على عيسى ، والزبور أنزلت على داود ، والقرآن أنزل على محمد e .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً) .

(**وَرُسُلِهِ**) الإيمان بالرسل يتضمن عدة أمور :

أولاً : أن رسالتهم حق من عند الله تعالى ، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر برسالة الجميع .

كما قال تعالى (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل ، مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه .

ثانياً : الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه ، وقد ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبياً ورسولاً ، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالاً ، فالله أرسل رسلاً لم يقصصهم علينا ولا يعلم عددهم إلا الله قال تعالى (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) .

ثالثاً : الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به ، وأنهم بينوا بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) .

(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) فالمؤمنون يصدقون بجميع الأنبياء والرسل ، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مَهْديون هادون إلى سُبُل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نُسخ الجميع بشرع محمدّ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.

وهذا بخلاف الذين قال الله عنهم (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) .

(وَقَالُوا) أي : وقال الرسول والمؤمنون .

(سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي : سمعنا ما أمرتنا به ، وما نهيتنا عنه (وَأَطَعْنَا) أي : وانقدنا لذلك بجوارحنا فعلاً للمأمورات وتركاً للمحظورات .

- فالفرق بين السمع والطاعة ، أن السمع هو القبول ، والطاعة هي الامتثال والانقياد .

وهكذا صفات أهل الإيمان أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، كما قال تعالى (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وقال عنهم (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا) .

بخلاف المكذبين من اليهود وغيرهم الذين قال الله عنهم (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) .

وقال تعالى عنهم (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ) .

(غُفْرَانَكَ رَبَّنَا) أي : نسألك غفرانك ، والمغفرة : ستر الذنب والتجاوز عنه .

(وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) أي : إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب .

كما قال تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) .

وقال تعالى (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

وقال تعالى (أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) .

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) أي: لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم .

كما قال تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا) .

وقال تعالى (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) .

وقال تعالى (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) .

وقال تعالى (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) .

وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة، في قوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) أي: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

(**لَهَا مَا كَسَبَتْ**) أي: من خير .

(**وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**) أي: من شر .

- **قال في التسهيل** : وجاءت العبارة بلها في الحسنات لأنها مما ينتفع العبد به ، وجاءت بعليها في السيئات لأنها مما يضر العبد ، وإنما قال في الحسنات كسبت وفي الشرّ اكتسبت ، لأنّ في الاكتساب ضرب من الاعتمال والمعالجة ، حسبما تقتضيه صيغة افتعل ، فالسيئات فاعلها يتكلف مخافة أمر الله ، ويتعدّاه بخلاف الحسنات ، فإنه فيها على الجادّة من غير تكلف ، أو لأنّ السيئات يجدّ في فعلها لميل النفس إليها ، فجعلت لذلك مكتسبة ، ولا لم يكن الإنسان في الحسنات كذلك : وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال .

(**رَبَّنَا**) أي : ربنا .

(**لا تُؤَاخِذْنَا**) أي : لا تعاقبنا .

(**إِنْ نَسِينَا**) النسيان : ذهول القلب عن شيء معلوم .

- **قال ابن كثير** : (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا) أي: إن تركنا فرضًا على جهة النسيان، أو فعلنا حرامًا كذلك .

(**أَوْ أَخْطَأْنَا**) الخطأ : الوقوع في المخالفة من غير قصد ، إما لجهل أو غير ذلك .

وفي حديث أبي هريرة : قال الله تعالى : نعم ، وفي حديث ابن عباس : قال الله : قد فعلت .

وفي الحديث (إن الله تجاوز لأمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) رواه ابن ماجه .

(**رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا**) أي: لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثتَ نبيَك محمدًا e نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح.

وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله e قال : قال الله: نعم .

وعن ابن عباس، عن رسول الله e قال : قال الله : قد فعلت .

قال ابن تيمية : أي : لا تكلفنا من الآصار التي يثقل حملها ما كلفته من قبلنا ، فإنا أضعف أجساداً ، وأقل احتمالاً ، وهذا في الأمر والنهي والتكليف .

- الإصر : الشيء الثقيل الشاق الذي يعجز الإنسان عن تحمله من الأوامر والنواهي والتكاليف الشرعية .

قوله تعالى (كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) (الكاف) للتشبيه ، بمعنى (مثل) أي : مثل الذي حملته على الذين من قبلنا من اليهود والنصارى وغيرهم .

- من ذلك أن الله جعل من شروط قبول توبة بني إسرائيل قتل أنفسهم ، أي : قتل بعضهم بعضاً ، حتى إن الرجل يقتل أخاه وأباه، قال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .
- والحكمة من قوله (كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) تذكير الأمة بعظيم فضل الله عليها ، وما ميزها به من بين الأمم .

(**رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ**) أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به .

(**وَاعْفُ عَنَّا**) أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا .

(**وَاغْفِرْ لَنَا**) أي : تجاوز عما ارتكبنا من المنهيات .

(**وَارْحَمْنَا**) برحمتك الواسعة .

- **قال في التسهيل :** قوله تعالى (واعف عَنَّا واغفر لَنَا وارحمنآ) ألفاظ متقاربة المعنى وبينها من الفرق أنّ العفو ترك المؤاخذة بالذنب ، والمغفرة تقتضي مع ذلك الستر ، والرحمة تجمع ذلك مع التفضيل بالإنعام .
- **قال ابن كثير :** (وارحمنا) أي: فيما يُسْتَقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

(**أَنْتَ مَوْلانَا**) أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التّكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك .

- والمراد بالولاية هنا الولاية الخاصة ، وهي ولاية الله عز وجل للمؤمنين كما قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) وقال سبحانه (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ) .

(**فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**) أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك في عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، قال الله: نعم. وفي الحديث الذي رواه مسلم، عن ابن عباس: "قال الله: قد فعلت".

- فنعم المولى تبارك وتعالى ونعم النصير لمن عبده وتوكل عليه واعتصم به .

قال تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .

وقال تعالى (بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ) .

- **قال ابن عاشور :** ووجه الاهتمام بهذه الدعوة أنّها جامعة لخيري الدنيا والآخرة ؛ لأنّهم إذا نصروا على العدوّ ، فقد طاب عيشهم وظهر دينهم ، وسلموا من الفتنة ، ودخل الناس فيه أفواجاً.

الفوائد :

١ - أن محمد مكلف بالإيمان بما أنزل إليه .

٢ - أن القرآن كلام الله .

٣ - أن القرآن منزل غير مخلوق .

٤ - إثبات علو الله .

٥ - إثبات رسالة النبي e .

٦ - إثبات الملائكة .

٧ - أن من صفات المؤمنين السمع والطاعة .

٨ - أن كل أحد محتاج إلى مغفرة الله .

٩ - أن المرجع والمصير إلى الله .

١٠ - إثبات البعث .

١١ - بيان رحمة الله بعباده .

١٢ - أنه لا واجب مع العجز .

١٣- يسر الدين الإسلامي .

١٤- أن للإنسان ما كسب دون نقصان .

١٥- رفع المؤاخذة بالنسيان .

١٦- أن النسيان وارد على البشر .

١٧- امتنان الله على هذه الأمة برفع الآصار .

١٨- سؤال الله العافية .

١٩- أن المؤمن لا ولي له إلا الله .

٢٠- أنه يجب اللجوء إلى الله .

ولله الحمد

أخوكم / سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع / مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net

البريد الإلكتروني

Sa.ma22@hotmail.com

١١ / ٤ / ١٤٣٣هـ